جمعية الطب النفسى التطورى
بالاشتراك مع دار المقطم للصحة النفسية
(المكتبة العلمية)

دراسة فى علم السيكوباثولوجى

(شرح: سر اللعبة)

تأليف

أ.د. يحيى الرخاوى

أستاذ الطب النفسى – جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

١٩٧٩

محتويات كتاب السيكوباثولوجى

(شرح ديوان سر اللعبة)

إهـــــداء

"**إلى الإمام الشافعى القائل:** مثل الذى يطلب العلم جزافا ..... كمثل حاطب ليل يقطـــع حزمة حطب فيحملها، ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدرى"

يحيى الرخاوى

مقدمة

ذكرت فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانى سر اللعبة .... أنى تعلمت منها (الطبعة الأولى) الكثير، ومن بين ذلك أن بعض الدارسين قد اعتبرها مرجعا أعانه فى إبداء رأيه أو إثبات رأيه، وكذلك أنى تيقنت من غلبة طبيعتها- وفائدتها- العلمية، قبل وبعد شكلها الفنى إلى أن قلت لكنى فى النهاية اخترت قسمة عادلة وهى أن أنشر المتن وحده... ثم أنشره مع الشرح لمن شاء من أهل العلم ومحبى المعرفة فى مرحلة تالية.

وهأنذا أفى بوعدى، مؤكدا للمرة الثالثة أن موقفى هذه الأيام يتحدد أكثر فأكثر فى أنى أرجح الحديث باللغة العلمية على ماسواه، وذلك لاعتبارات تتعلق بنموى الشخصى، وكذلك لتبريرات تتعلق برؤية أولويات احتياج وطنى وناسى، وأخيرا لاعتبارات محدودية عمرى بالنسبة للموقف اللازم لتدوين وإبلاغ ما رأيت وعرفت فى مجال علمى قبل أن أرحل.

وقد كنت أتمنى أن يصدر هذا العمل ومعه مراجعة تفصيلية للأعمال السابقة والموازية له سواء بالموافقة أو المعارضة، وأن يدعم، كما هو المألوف بالإشارة إلى هذه البراهين والمعارضات اللازمة للحديث بلغة العلم هذه الأيام، وهذا مايمكن أن أسمية التوثيق .Documentation كما كنت أتمنى أن تصحب هذه الدراسة عينات إكلينيكية مباشرة تدعم وتحقق ماجاء بها من أفكار وفروض وهذه مرحلة التحقيق Verification، وقد كلفت فعلا بعض تلاميذى بالبدء فى المهمتين حتى يصدر العمل متكاملا، وذلك بعد أن أعفيت نفسى، بناء عن اقتناع مؤكد، واستجابة لنصيحة صادقة، من أن أقوم أنا بهذه المهمة، حتى لاأعوق انطلاق أفكارى بعد أن تخطيت مرحلة التردد، فلم أعد محتاجا أن أقف موقف المدافع ابتداء.

وما أن أنهيت مهمتى الأولى حتى وجدتهم مازالوا بين متردد ومؤجل وخائف، وزاد إلحاح طلبتى الأصغر فى صدور الشرح كما هو، وهأنذا أستجيب لهم غير هياب، إلا أنى أحمل أمانة إكمال هذه الدراسة بالتوثيق والتحقيق لكل تلاميذى بلا استثناء، بل لكل من وصلته الرسالة التى أردت إبلاغها من خلال هذا العمل.

وقد التزمت أن تكون هذه الدراسة- أساسا- شرحا للنص الشعرى، ولذلك فهى قاصرة على ما ورد من أعراض وأمراض، أو شرح خطوات التقدم أو التعثر فى مسيرة نمو الإنسان، وإن كان ذلك لم يمنع أن أعرج كلما لزم الأمر إلى تقديم مناسب لكل مرض تعرضت له، أو إلى استدراك لازم لأصول الظاهرة التى أفسر يها هذا المرض أو ذاك وقد، لاحظت أحيانا كثرة مثل هذا الاستدراك حتى هممت يحذفه إلا أن طبيعة الدراسة وإصرارى على تسجيل ماأراه أمانة لامهرب منها، دفعانى إلى أن أترك كل المادة كما هى للدارسين والباحثين الآن، أو على الأرجح مستقبلا. ولم استشهد أو أشير إلى بعض

ماسبق من آراء، إلا بالقدر الذى يضطرنى إليه السياق فحسب، خلاصة القول أن هذه الدراسة ليست مرجعا شاملا بحال من الاحوال، ولكنها عينة خاصة تؤكد أبعادا محددة، فى مجال علمى هذا من أهمها طبيعة هذا العلم، وبعض وسائل دراسته، وضرورة معايشة مادته: الإنسان- ذاتا وآخرين-، قبل الخوض فى الإفتاء فيه.

أما بالنسبة لتفضيلى كتابة هذا العلم بلغتى الأصلية، فإنى قد أعلنت أسبابه منذ حين، حيث أنى أدركت يقينا أن أى عمل إبداعى أصيل، وخاصة فيما يتعلق بماهية الإنسان، لا يمكن أن يخرج منسابا متناسقا إلا بلغة الأم، حيث تمثل اللغة فى ارتباطها بجذور تكوين العقل البشرى أساسا جوهريا يحدد طبيعة التفكير وخاصة فى مجالنا هذا، ولكنى سوف ألتزم كضرورة مرحلية أن أترجم إلى الإنجليزية ماينبغى من تعاريف ومصطلحات كلما أمكن ذلك، أو لزم ذلك. إما فى النص، أو فى الهوامش، كما سأقوم بترجمة الخلاصة والتعقيب جميعا وقد أضفتهما إبتداء من الفصل الرابع حين بدأ الحديث عن أنواع المرض النفسى نوعا نوعا، ولعل فى ذلك ما يعين الدارس المبتدئ، ويطمئن ذا التكوين العقلى المترجم.

الفصل الاول

عناصر الفصل الأول:

- ماهية علم السيكوباثولوجى ووسائل دراسته
- طرق الدراسة فى علم السيكوباثولوجى
- طرق التتبعية
- الدراسة الطولية المستعادة
- ملاحظة السلوك والتقويم الكمى
- الاستبصار
- مصادر هذه الدراسة ووسيلة البحث فيها

ماهية علم السيكوباثولوجى[1] ووسائل دراسته

Psychopathology; illustration and means of studying it

يختلف المشتغلون بهذا العلم – بل وبالعلوم النفسية عامة – فى تحديد أبعاده وطبيعته، حتى اختلط الأمر اختلاطا أدى إلى بلبلة وتشوش كادا أن يفقد هذا العلم معالمه من فرط ماتعددت الآراء والاتجاهات بصدده.

فهناك من يطابق بينه وبين علم دراسة الأعراض النفسيةSymptomatology مثل فيش . Fish

وهناك من يطلق اسم هذا العلم على دراسة مظاهر الاضطرابات الأساسية فى وظائف النفس فى مختلف الأمراض النفسية[2]مثل ك. ياسبرز K. Jaspers

وهناك من يدرج هذا العلم ضمن دراسة أسباب المرض النفسيEtiology ولا يقصره على طبيعة ربط السبب بالنتيجة، وإنما يضمنه المتغيرات الخارجية والداخلية والتكوينية التى أدت الى ظهور المرض .

وأخيرا فإن التحليليين يتميزون بعنايتهم الخاصة بتكون الأعراض والبحث عن جذورها وتتبع مسارها بل والبحث فى جذور السلوك العادى فهم لذلك يقصرون هذا العلم على دراسة آلية تكوين الأعراض وكيفية توليدها وطبيعة تحويرها وأحيانا تمتد رؤيتهم – مثل الإنسانيين – إلى البحث فى معناها والهدف من ظهورها.

وكان لابد إذا أن أحدد ابتداء ما أعنيه بهذا العلم وخاصة بالنسبة لهذه العينة التى أقدمها فى هذه الدراسة فأقول:

"إن علم السيكوباثولوجى هو العلم الذى يبحث فى أصول المرض النفسى وكيفية تكوين الأعراض وما تعنيه، وفيما يرتبط بذلك من طبيعة تكوين النفس البشرية وخاصة أثناء نموها أو أثناء اضطرابها وتفكك مكوناتها. . . وأخيرا أثناء علاجها بما يشمل تباعد أركانها وإعاده تنظيمها معا"[3]

١- سأحتفظ بهذا الاسم معربا دون ترجمة، تسهيلا للتناول وأملا فى التواصل مع اللغات الأخرى، واتباعا للقاعدة التى قبلت من المختصين واللغويين مؤخراً.

٢- سأطلق تعبير الأمراض النفسية (والمرض النفسى) على ما يعنى كل من الأمراض النفسية والعقلية واضطرابات الشخصية على حد سواء، كما أنى لا أضمن هذا التعبير فى هذه الدراسة ما يندرج تحت اسم الزملات العضوية المخية Organic Brain Syndrome التى سيخصص لها تعقيب خاص فى نهاية الدراسة.

3 -Psychopathology is the science which deals with the origin of mental disorders and the « how » of symptom formation and their meaning, in relation to the structural organization of the psyche, particularly during personality development, personality disturbance and dissolution. Lastly during its treatment including both its deorganization and reorganization.

وأود بهذا التعريف أن أحدد طبيعة هذا العلم من حيث اختصاصه ببحث التركيب التفاعلى والتفاعلاتى للشخصية(عرضا)، وكذلك طبيعة مسار نموها تماسكا وتكاملا فى مقابل مسار اضطرابها وتدهورها تفككا وحلولا وسطى[٤] (طولا).

إذا فهو علم ينتمى إلى الدراسه الدينامية التركيبية، كما ينتمى إلى التاريخ الطبيعى Natural history بنفس الدرجة والأهمية وهو فى البداية والنهاية علم إكلينيكى أساسا.

طرق الدراسة فى علم السيكوباثولوجى:

إذا كان تحديد مفهوم هذا العلم صعبا وغامضا فإن طرق الدراسة أشد الغازا وأولى بالإيضاح ومهما اختلفت طرق الدراسة فإن كل منها يضئ جانبا من جوانب الظاهرة، لذلك فإنى أرى أن التفضيل فيما بينها ليس ضروريا ولكن تحديدها ابتداء بالنسبة لكل دراسة على حدة أمر لا بديل له، لأن المادة التى تقدمها دراسة ماقد تكون عظيمة الفائدة من خلال ربطها مباشرة بالطريقة التى تمت الدراسة بها وقد تصبح بلا معنى ولا فائدة إذا تركت هكذا عائمة بلا تحديد، ولهذا أجدنى ملتزما بتحديد الطريقة التى اتبعتها فى هذه الدراسة حتى أتيح للقارئ أو الدارس فرصة أن يتخذ موقفا مختارا مما أقدم له..

والشائع بالنسبه لطرق الدراسة فى هذا العلم يعتمد على بعديه الذين ذكرتهما حالا.

اولا : البعد الطولى Longitudinal Dimension

وهو الذى يتعلق بالتاريخ الطبيعى ويتبع فى استقصاء مصادره طريقتين :

(أ) **الطريقة التتبعية:** ونعنى بها تتبع مسيرة التطور والنمو إبتداء من ولادة الطفل- وقبل ذلك- حتى نضجه فشيخوخته وموته، وكذلك تتبع مظاهر المرض منذ بدايتها مع محاوله سبر أغوارها من أول ظهور المرض- أو حتى قبل ذلك إذا لمحنا اقترابه- حتى غايه التدهور .. أو احتمال التوقف أو التراجع، ولن أفصل فى شرح عيوب هذه الطريقة وقصورها، ولكنى أشير أنها- على الأقل- مستحيلة بداهة، لما تحتاجه من وقت قد يستغرق عمر العالم بأكمله (وعمر بعض تلاميذه كذلك)- فى حالة دراسة طفل بذاته حتى الشيخوخة ، أما فى حالة تتبع مسيرة المرض فهى غير إنسانية أصلا إذ أنه ليس مسموحا لعالم ما- مهما كانت نيته ورغبته فى خدمة العلم- أن يترك المرض يستشرى رغبة منه فى دراسه طبيعته. . . .

كما أن عملية الملاحظة والتتبع- حتى عن بعد- تؤثر فى مسار النمو وتطور المرض على حد سواء.

---

٤ - ستتكرر كلمة حل وسط بمعنى Compromise فى هذه الدراسة، وأقترح مرحليا استعمال كلمة واحدة هى "حلوسط" لتفيد طبيعة ما أعنى – وتعنى الكلمة – من أنها تجميد لموقف اكثر منه "حل" فعلى له.

وأخيرا فإن أغلب معطيات الملاحظة المتاحة بهذه الطريقة ليست سوى سلوكا ظاهريا لن يتعدى السطح إلا قليلا، الأمر الذى يدعنا فى موقف يرصد الظاهرة ولكنه لا يقربنا من عمقها حيث تكمن أصول هذا العلم.

(ب) الدراسة الطولية المستعادة: وهذة الطريقة تعتمد على مايحكيه الشخص السليم عما سبق أن مربه من أطوار، أو على ما يحكيه الشخص المريض عما يتذكره من خطوات تدهور الحال واضطراب النظام أثناء مسيرة المرض وهذا وذاك ليسا إلا من مستدعيات الذاكرة لاأكثر ولا أقل وبداهة أنها لا تطابق ما حدث- أن تطورا وإن تدهورا- إلا بالقدر الذى يرتبط بأمور متعددة مثل:

(ا) مدى الوعى بماحدث أثناء حدوثه أو حتى عقب حدوثه مباشرة.

(ب) مدى عمق هذا الوعى وإلى أى طبقة من النفس- المخ- وصل.

(ج) مدى مطابقة ماوعاه العقل بما استطاعت أن تسترجعه الذاكرة فيما بعد وقت الدراسة.

فاذا تذكرنا أنه فى قفزات النمو وأزمات نشاط المرض يتغير وعى المريض نوعيا وتختلف درجته وحدته ومداه، وإذا تذكرنا أنه بمجرد انتهاء هذه الفترة يختلف الوعى إلى نوع آخر، ثم تذكرنا مدى عجز الذاكرة فى الأمور العادية الخارجية فضلا عن الأمور الذاتية المشحونة بالانفعال والتداخل... لأمكننا أن نضع هذه الوسيلة فى موضع متواضع أشد التواضع ونحن نقيم نتائجها، ونحاول أن نفسر كيفية حدوث الأعراض من خلالها. وهذا ما ينبغى أن ينتبه إليه المحللون النفسيون خاصة وهم يبالغون فى تقييم طريقة البحث هذه كمصدر أساسى، أو أوحد لمعطياتهم.

ثانيا: البعد المستعرض Cross- Sectional Dimensio

يعتمد هذا البعد على دراسة مكونات الشخصية (أو أجزائها .. أو كياناتها) فى اللحظة الراهنة، وعلى دراسة علاقتها ببعضها البعض وطبيعة تركيبها واحتمالات مقارنات كل ذلك بالنمط السوى كما نفترضه، أو كما نلاحظه أو كما نستنتجه سواء بالنسبه لمسار تكوينه أم لمآل ترتيبه وبديهى أن هذه الدراسة العلاقاتية تعتمد على مصادر وأدوات تجميع الملاحظات وترتيبها.

وتشمل هذه المصادر والأدوات تنويعات شائعه تقع بين نقيضين:

١- ملاحظه ظاهر السلوك مباشرة والاستعانة بوسائل تتيح التقييم الكمى وربما التقنين المقارن.

٢- ملاحظة الذات (الاستبصار) Introspection وتشمل التأمل الباطنى والوصف اللفظى لما يجرى، وأحيانا استبارات كمية لوصف الشخص لنفسه ... الخ.

وليس هنا مجال مناقشة التفضيل بين هاتين الطريقتين فكلاهما قاصر لا محالة حيث لا تعطى الأولى إلا قشور التفاعلات وظاهر التعبير ولا تعطى الثانية إلا نتاج الانشقاق وتشريع الاغتراب.

وقبل أن استطرد الى الاحتياج الملح الى طريقة جديدة للدراسة لا بد من الاتفاق على الصعوبة التى أدت إلى ظهور هذه الحاجة بهذا الالحاح، وهى التى ظهرت من خلال ما قدمنا من أوجه القصور فى تحديد المفهوم، وطبيعة طرق الدراسة على حد سواء.

والعجب الذى ينبغى أن يدهشنا أكثر فأكثر هو أنه مع هذه الصعاب وهذا الغموض نجد المراجع تغمرنا بفيض زاخر من المدارس النفسية المتعلقة بدراسة النفس وشرح دخائلها، سواء كان ذلك تحت عنوان "نظريات الشخصية" أو "المدارس النفسية"، أو "اتجاهات سيكوباثولوجية" فكلها تصف مراحل تطور النفس وعمق علاقاتها وصفا مسهبا واثقا طول الوقت.

ألا يحق لنا أن نتساءل بأمانة : من أين لهم كل هذا اليقين؟

وكيف يتحدثون بكل تلك التفاصيل ؟

فإذا لم نجد جوابا – علميا– واضحا فهل نجرؤ على الشك فيها برمتها كما توحى هذه المقدمة ؟

وإذا سمحنا لأنفسنا بهذا الشك الذى قد يؤدى إلى الانكار فكيف نواجه استمرارها تتحدى مرور الزمن فى صلابة وكيف نفسر فائدتها التطبيقية فى مجال التطبيب النفسى والعلاج النفسى بوجه خاص؟

خلاصة القول أنه لا إنكار هذه النظريات والفروض يمكن علميا ومنطقيا ونفعيا.... ولا التسليم لها تحت وهم الطرق التى افترضتها هو الحل الأمثل وإنما علينا مراجعه الموقف برمته علنا نجد عمقا أوضح لهذا التناقض الظاهرى.

ولعل هذه المراجعة هى التى تطل علينا من خلال أسلوب آخر للبحث فى هذا المجال، كثر الحديث عنه مؤخرا، وهو الأسلوب الفينومنولوجى، ولست هنا فى مجال شرحه تفصيلا٥ ، ولكنى أكتفى بالإشارة إلى أنه أسلوب يتخطى الملاحظة الطرفية (ملاحظة السلوك الظاهر) وكذلك يرفض الاستبصار كوسيلة بديلة، وهو يعتمد على الخبرة المباشرة الكلية القادرة على الاختراق واستيعاب المعطى واعادة التركيب.

ويبالغ هذا الاتجاه أحيانا إذ يتخطى احتمال القدرة على مواجهة الوجود البشرى مباشرة إلى الإحساس المباشر بنفسية الحيوان، حتى ليحاول استعمال هذه الطريقة فى علم نفس الحيوان، ولابد لنا هنا من وقفة طويلة أمام وسائل البحث فى علم نفس الأطفال، وخاصة علم نفس النمو، (وهو الجانب الآخر من علم السيكوباثولوجى)، فإن كان فرويد– مثلا– قد استند إلى ذكريات التحليل النفسى فى إثبات تصوراته وترجيح فروضه عن مسيرة النمو، فإنه لم يفعل إلا أن انتقى الذكريات التى تتفق مع تصوره الذى أجزم أنه نابع من ذاته أساسا التى هى جماع ملاحظاته ومعاناته معا، كما أنها هى هى الأداة التى يقيس بها وينتقى بها ويعيد تركيب المفاهيم من خلالها ككل، وليس فقط كفكر ممنطق.

٥- على من يريد أن يلم بالخطوط العريضة لهذه الطريقة فى البحث، وما وراها من مفاهيم نظرية أن يرجع إلى كتاب.

أما عن العالم الداخلى للطفل ميلانى كلاين Mellanie Klein بمحتوياته من أشكال بغيضة، وموضوعات محببة، وكذلك عن تتابع انشقاقات الذات فى الطفولة (فيربيرن Fairbairn وجانترب Guntrip) والتقابلات الثنائية للنمو التى يتميز بها الإنسان فى رحلته منذ كان رضيعا إلى التكامل إريك إريكسون Erik Erikson فكلها مبنية على إنطباعات ذاتية بالضرورة، وعلى حدس من خلال نكوص فينومينولوجى ٦ عنيف فى مواجهة ما يثيره الطفل والمريض فى الباحث. . . ثم يلى ذلك إسقاط لنتاج هذا النقوص الحدسى . . . ثم بحث عما يدعمه من أدلة تبدو أحيانا وكأنها هى التى هدت الى الفكرة مع أنها جاءت من الفكرة، وقد عرجت على هذا الاستطراد لأعلن من خلاله أولا: وجه الشبه بين دراسة علم نفس الطفل وبين دراسة السيكوباثولوجى وثانيا: لأحدد احتمال أن تكون البراهين والمشاهدات نابعة من الحدس الفينومينولوجى ومحكومة به وليست صانعة الفكرة أو مثبتة الفرض٧

إذن، فنحن نقترب من "الاعتراف" بأسلوب بحث جار فعلا، وثرى فعلا، ومفيد جدا، ولكنه كان يجرى تحت عناوين لا تمت إلى طبيعته بصلة . . . وجدير بالذكر أن نشير هنا إلى بعد أصعب أوضحه بعض الشارحين لهذه الطريقة وهو ربطها مباشرة بالبعد البيولوجى (للباحث والظاهرة على حد سواء)، مما ينبهنا إلى أن هذا الأسلوب لم يعد مجرد اتجاه فلسفى غامض.

ورغم أنى لم أستوعب– لفظ– تفاصيل هذه "الطريقه" لدرجة تسمح بتوصيلها إلى آخر توصيلا آمنا، فإنى – مع اقترابى من جمع مفرداتها وتعلم أجرميتها – قد شعرت بالائتناس والطمأنينة الشجاعة التى وصلت إليها محاولة تفسير وأعادة تقييم طرق البحث السائدة، ومعطيات الفروض والنظريات الجارية وبالرغم من هذا الائتناس وهذا الوضوح فإنى أسجل هنا التحذير الرافض لهذا الأسلوب، ذلك التحذير الذى يتهمه بأنه أقرب إلى التصوف منه إلى الأسلوب العلمى، وهذا التحذير الرافض هو هو الذى ينبهنا إلى ضرورة اتصاف الباحث بهذه الطريقة بصفات خاصة تسمح له بهذه المغامرة الاستيعابية الكلية. .. لأنه من البديهى أن تقدم الباحث المكتبى بكل عضلات عقله، أو الباحث الحاسب بكل أدوات استنباطه لن يعود عليهما إلا بقشور غير مترابطة، لايربطها إلا خطوة تركيبية جديدة. إذا، فشخصية الباحث: نوعها وخبرتها وتجربتها ومعاناتها ومدى وعيها. .. مرتبطة أشد الارتباط بطريقة البحث هذه مما يجعلها فى النهاية طريقة خاصة لأصحابها، وهذا المأخذ (الذى أخذ على التصوف أيضا) لا محل لإنكاره أصلا، ولكن هل يوجد أى تخصص (علمى أو فنى) فى الدنيا لايحتاج لفئة ذات نوعية معينة ودراسات معينة واستعداد معين ؟

6- Thines, G. (1977) Phenomenology and the Science of Behaviour London. George Allen & Unwin.

7- تناولت هذه المشكلة أيضا فى بحث مستقل عنوانه "الباحث: أداة البحث وحقله .. فى دراسة الطفولة والجنون" تحت النشر.

وأتوقف عند هذا القدر من الإشارة الى مختلف طرق البحث فى مجالنا هذا، لأقدم مباشرة طريقة البحث فى هذه الدراسة، ثم أدع للقارئ ربطها بواحدة أو بأكثر من طرق البحث المفروضة (أو غير المفروضة).

مصادر هذه الدراسة ووسيلة البحث فيها:

أنه ينبغى أن أقر ابتداء أن هذه الدراسة هى الباحث ذات نفسه بصورة أو بأخرى وإذا كان العلماء من قبل ومن بعد لم يجرؤوا على الاعتراف بهذه الحقيقة إما لغيابها عنهم وإما بمحاولة إخفائها خشيه أن يتهم علمهم بالخصوصية أو الذاتية، أو أن يتهموا هم أنفسهم باللاسواء فانى أجد أنه أولى بى وبهم أن نكون على قدر من الأمانة العلمية والوعى بحيث نقر هذه الحقيقة إبتداء، لأن هذا المنطلق هو الوحيد القادر على فتح باب المناقشة الموضوعية فعلا، وعلى اتاحة قدر من الاختيار فى أخذ المعطيات الواردة أو تركها كلها أو بعضها.

وحين أقول إن أساس هذه الدراسة هو الباحث نفسه (أى ذاتى) فإن هذا القول لا يعنى أنى أحكى خبرتى الشخصية إنما أنا أعلن به أن اختلاط مصادر الدراسة ومادتها بوجودى (لحما ودما وفكرا ووجدانا) جعلتها تثير فى ذاتى التكوينات المقابلة لكل تركيب أتعرض لدراسته، وبعد عملية انصهار تلقائى ليس محددا ابتداء، تبدأ عملية التنظيم والتلفيظ (إعطاء الخبرة ألفاظا) والترتيب والشرح ليصدر فى صورته النهائية ببعديه الفنى العلمى معا، ولعل هذه الطريقة – إذ استرجع خطواتها– تفسر لماذا خرجت هذه الدراسة بهذا الشكل الخاص إذ خرج متن العمل فى صورة فنيه أساسا، (رغم أنه لم يسبقه ولم يلحقه – حتى الآن – إنتاج فنى من نفس النوع)، ثم جاء الشرح اللاحق يستعمل الترابط الذهنى بوعى علمى محدد، وهدف محدد، ويستعمل الألفاظ وينظمها بالقدر الذى يسمح بالتوصيل والتواصل.

وإذا كان الفنان يمر بنفس الخطوات مابين استقبال الخبرة واستيعابها وحضانتها وإطلاقها فى شكلها الجديد الأصيل الذى هو ذات الفنان إذ تتموضع معروضة بالرمز الفنى المتاح فإنى أعلن أن طريقة البحث فى هذه الدراسة كانت تتبع نفس الخطوات بوعى أكثر حدة، وبألفاظ أخرى أقول: أنه إذا كان الفنان يمر بهذه الخطوات على هامش وعيه معظم الوقت فيما عدا مرحلة التعبير والإخراج النهائى (قرب تمام رحلة الخلق) فإن الباحث فى هذا العلم يمر بنفس الخطوات بوعى أظهر ويقظة ذهنية مباشرة وإرادة موجهة معظم التوقت.

إذا فطريقة البحث فى هذه الدراسة فيها من أسلوب الفن جرعة وافرة، ولكنها تتم بوعى علمى واضح ومادة أكثر تحديدا، ومجال أكثر مباشرة، وتحقيق وتطبيق أكثر عرضة للمراجعة.

ولعل فى هذا بعض ما يفسر رجوع كثير من المدارس النفسية إلى الاستشهاد بروائع الفن الصادق والعميق (الشعبى والمطور على حد سواء) فى إثبات مقولاتها ٨ وكأن الفنان المبدع أو الراوى الشعبى حكى من خلال معايشته الداخلية الخارجية معا رؤيته لتركيب النفس الإنسانية ومكوناتها وتقابلاتها وشخوصها فيما يبدع ويسقط من إنتاج فنى، فيأخذ هذه الرؤية عالم السيكوباثولوجى كدليل يؤكد أو يؤيد نظريته.

فماذا يكون الحال لو كان عالم السيكوباثولوجيا يملك أدوات الفن ولو بدرجة متواضعة؟

وماذا يمكن أن يعطى لو لم يكتف بأن يلجأ للفن (إبداعا أو استمتاعا) كوسيلة (اغترابية) بديلة فى وقت فراغه يرحمه من عجز أدوات علمه عن استيعاب طاقته ورؤيته الداخلية ٩ بل لجأ إليه بوعى وإرادة وموقف بحثى يقظ؟

وأخيرا.. ماذا لو استطاع أن يمارس هذا الولاف بين العلم والفن فى دراسته للنفس الإنسانية حتى لو انتقص من نبض الفن فى ذاته، وتخطى حدود مسلمات العلم التقليدى المعوقة؟

إذا، فهذا هو الأساس الأول فى تحديد ماهية هذه الدراسة، دون أن نغفل الطبيعة البيولوجية لهذه النظرة الولافية بما تعنيه من ترابط حيوى (مخى أساسا) جديد ذى زاوية أكثر شمولا وأعمق بعدا.

خلاصة القول أن وسيلة هذه الدراسة ومواصفاتها يمكن أن تتحدد– بصفة عامة– من خلال المواصفات التالية:

١– **أنها ذاتية**: وإن استمدت مصادرها من مادة خارجية

(المادة الاكلينيكية أساسا: تشخيصا وعلاجا) إلا أن خطوات استيعابها ثم إعادة ترتيبها ثم تقديمها عبر الذات تجعلها فى النهاية ذاتية. وعلينا أن نعترف بقدر مايكون الوجود الذاتى قريبا (أو مقتربا باستمرار) من الوجود الموضوعى المطلق، يكون نتاج هذه الدراسة علما قادرا على الإفادة وقابلا للانتقال للآخرين، ذلك أن الذات فى هذه الحال لابد وأن تنتظم دوراتها مع دورات خارجها الموضوعى، بحيث تصبح حساسية التقاطها ومدى وعيها وعمق رؤيتها متسقة مع نفس القوانين التى تشملها، وكأنها الأداة اللاقطة الناقلة بأمانة بين الداخل والخارج، وكأنها بذلك تتلخص فى بعض مراحل البحث من الذات الفاحصة بالمعنى الشخصى المحدود حتى تصبح الذات المشاركة الملتحمة المنطلقة

---

٨ - على سبيل المثال، نرى كيف استعمل سيجموند فرويد Sigmund Freud حدس سوفوكليس فى رؤيته للنفس البشرية، وكيف شاعت العلاقة الأوديبية كتفسير لمراحل النمو ولكثير من التعلات السيكوباثولوجية – وكذلك نرى استشهاده واستشهاد يونج G.G Jung بالفن الشعبى والرموز ذات المعنى الحدسى الفنى . . من كل نوع.

٩ - لست هنا فى مجال أن اعود وأثبت أن كثيرا ممن أسهموا فى هذا العلم وفى الطب النفسى اسهاما أصيلا كانت لهم انتاجات فنية موازية، أو على الأقل موقفا إبداعيا فى تلقى الفن واستيعابه، وهذا ليس قاصرا على غير العضويين منهم، فان جان ديلاى Jean Delay (مكتشف اللارجاكتيل) كتب الرواية باسم مستعار.

معا أو باختصار الذات الموضوعية ثم تعود إلى ترتيب المعطيات جميعا فى لغة قابلة للتواصل قادرة على التوصيل كما ذكرنا. :

وكأن ذات الباحث هنا تقوم بعدة وظائف حسب مختلف مراحل الإبداع والبحث فى مجال النفس البشرية فى سوائها واضطرابها ونموها وتعثرها:

١- فهى أداة انتقاء وملاحظة مبدئية لظاهر الظاهرة.

٢- ثم هى أداة التقاط وتسجيل عميق لعمق الظاهرة.

٣- ثم هى أداة استيعاب وقياس حدسى لكل من الظاهر والعمق، من خلال المقابلة واتساق قوانينها مع القوانين الموضوعية الخارجية، ومدى اختلاف هذا أو اتفاقه مع قوانين الظاهرة.

٤- ثم هى أداة فحص لهذه الخبرة بعد التقاطها وإعادة فصلها، ومقابلتها، وإعادة ترتيبها.

٥- ثم هى أداة تعبير عن نتاج كل هذه الخطوات فى لغة مشتركة.

وباختصار فهى أداة التقاط، وقياس، وموضعة عبر وجودها المستقل المشارك المرن القادر على الاتصال والانفصال دون ذوبان أو انشقاق.

فإذا قلت أن هذه الدراسة ذاتية، فإنى أعلن كيف كانت ذاتى أداة لامفر من الاعتراف بدورها المباشر الفعال فى كل هذه الخطوات الضرورية، أما مدى اقترابها من الكفاءة اللازمة من عدمه فهذا أمر متروك لقياسات وتحقيقات أخرى من بينها الزمن والاتساق الداخلى والإفادة والتوازى.... الخ

٢- **أن هذه الدراسة فنية عملية:** فهى تتفق مع بعض خطوات الإبداع الفنى وتلتزم فى نفس الوقت- فى المتن- ببعض قوانينه وقوانين العلم معا، وان جاء هذا الالتزام تلقائيا بشكل ما، وكأنها تشمل كل من الترابطات الخطية (Linear (relational الممنطقة سببيا، والترابطات التركيبية الشاملة لأبعاد دائرية (Circular (correlaional تتخطى السببية الخطية، وبالتالى فهى تشمل البعد الفنى فى توظيفه فى المجال العلمى.

٣- **وهى دراسة فينومنولوجية- بيولوجية:** بقدر ماهى شعورية، كلية فى مواجهة نشطة لإعادة بناء المعلومات والأحداث والتركيبات، دون حكم مسبق، وبقدر ماهى مرتبطة بالتركيب البيولوجى (الحيوى) للإنسان، مع التركيز الطبيعى على محاولات مستويات المخ للتوليف الديالكتيكى أثناء مسيرة النمو.

٤- **وهى دراسة تهدف الى تحديد فروض وليس الى فرض قوانين:** حيث أن معطياتها فى أحسن الأحوال ليست إلا فروضا عاملة تتحقق أو لاتتحقق ١٠، وفى يقينى أن عجز تحقيقها مرحليا- إن كان

١٠- لا ننسى أن أغلب مقولات فرويد أو حتى داروين مازالت فروضا قوية ليس إلا وهذا لا ينتقص من قوتها وفاعليتها.

هذا هو الأقرب– قد يحتاج إلى معاودة المحاولة كلما زادت الأدوات البشرية موضعة، وارتقت الوسائل غير البشرية بنوعية جديدة.

وأخيرا، وبعد أن أكدت معنى ودور ذاتى فى هذه الدراسة، فلابد من أن أوضح طبيعة مصادر هذه الدراسة:

أولا: أن مادة هذه الدراسة الأساسية هى معايشتى للمرضى النفسيين معايشة مكثفة وعميقة ومباشرة، والمعايشة تختلف عن الملاحظة، ولاتقتصر على الصحبة أو الاقتراب، ولعلها تشمل أغلب أدوار الذات للباحثة التى ذكرتها منذ قليل فيما عدا أنها العمل الإكلينيكى العميق تتم عادة تلقائيا دون المراحل التنظيرية المسبقة، فهى تشمل المواجهة والمعاناة والإثارة والتقمص و(التمثل) والاختراق والتخلخل الموازى والعودة وإعادة التوازن، إذا فهى خبرة كاملة عنيفة مباشرة يخرج الإنسان منها بمعلومات تعاش وتغير، ويمكن أن تثبت وتقيم وتنظر إذا ملك الوسيلة لذلك..، فهى ليست مجرد ملاحظة بالحواس وإنما مخالطة بالوجود، وهذه المعايشة تبلغ قمة ثرائها فى مواجهة الجنون ذاته (الذهان) بالتواصل اللفظى وغير اللفظى معا، وبالنكوص الإبداعى حتى يمكن للفاحص أن يلتقى بالمفحوص عند هذا المستوى الأعمق، ويتم ذلك بشكل خاص فى مجال العلاج النفسى الفردى والجمعى خاصة، الأمر الذى يعلن ضمنا أن مجال العلاج النفسى هو المعمل المعاصر لعلم السيكوباثولوجى.

ثانيا: أن هذه الدراسة متصلة مباشرة بالاطار النظرى الذى كون فكرى المتعلق بهذا العلم، وقد رسمت الخطوط العامة لهذا الاطار من الفكر التحليلى (مثل: فرويد ومدرسة العلاقة بالموضوع بعده)، والفكر التفاعلاتى (إيريك بيرن E. Berne خاصة) والفكر العضوى التطورى (مثل: داروين، وجاكسون، وإى Darwin)، Jackson & Ey ثم الفكر الإنسانى مثل: ماسلو، وميرفى Maslow & Murphy وأخيرا الفكر البعذاتى [11] مثل: يونج، وسوتيش، وفرانكل، Jung Sutich & Frankl بما يشمل من قيم إيمانية علمية كونية خاصة، على أن هذا الاطار لايعنى بحال أنى كنت أستحضر معلومات بذاتها أو نظرية بذاتها ثم أصيغها فى كلام منظوم، ولكنى كنت أصف الظاهرة مباشرة كما عرفتها وعايشتها وخالطتها، فتخرج أقرب ماتكون إلى هذه النظرية أو تلك حسب مدى اختلاطها بأعماق وعيى وكيانى.

ثالثا: أن هذه الدراسة نابعة أيضا من خبراتى الشخصية ، وقد ظهرت هذه الخبرات بشكل أغلب فى الفصل الثالث، والفصل بعد الخاتمة، وقد تمت فى مجالين محددين: الأول : هو تجربة العلاج الجمعى الذاتى التى خضتها مكثفة، والتى أشرت إليها فى كتابى مقدمة فى العلاج الجمعى، والثانى: هو خبرات

١١- استعملت هذه الكلمة ترجمة لكلمة Transpersonal التى ترجمتها قبل ذلك بتعبير "عبر الشخصية" ولكنى فضلت تعبير "ما بعد الشخصية" ثم "مابعد الذات" وأدمجت الأخير كما هى القاعدة التى اتبعتها فىكلمة واحدة هى "البعذاتى" وأرجو أن تلقى القبول.

تمت فى معاناتى الشخصية وحياتى الخاصة بما حملت من مواجهات عنيفة وتجارب كيانية جذرية، كانت النتاج الطبيعى لاصرارى العنيد على استمرار حدة رؤيتى، ورؤية من حولى بالقدر الممكن، مع استمرار السير المنتظم المتواصل على أرض الواقع يوميا ولحظيا، وتحمل أعباء أمانة الكلمة ومسئولية العلم وتحدى المهنة.

وبعد...

فلا أحسب هذه الإطالة إلا ضرورة لازمة، ليست لتوضيح أسلوب هذه الدراسة فحسب، ولكن لتأكيد أبعاد هذا العلم والصعوبة التى تكتنف الحديث عنه، والحذر الذى ينبغى اصطحابه ونحن نتلقى معطياته عامة، ومعطيات هذه الدراسة خاصة.

كما ينبغى إيضاح كيف أن هذه الطريقة فى اقترابها من الخبرة الفنية بدرجات متفاوته تحتاج إلى استعداد خاص، وإعداد خاص[١٢]، لأعتقد أنه يمكن أن يتم إلا من خلال فرص حقيقية للنمو الشخصى المغامر، تحت إشراف مثابر، يتطلب قياسات متصاعدة تشمل مدى التطور الفردى للعالم (الفنان)، هذا التطور الذى لابد وأن يؤثر على فكره وعقيدته وبيته وموقفه من الحياة تأثيرا مباشرا ومتزايدا فى اتجاه متصاعد نحو زيادة قدرته على الموضعة من خلال ذاته بديلا عن زعم الموضوعية المجردة من خلال اغتراب مقنن.

وهذه كلها رؤوس مواضيع لازمة قد تحتاج إلى تفصيل لاحق فى كتاب خاص بوسائل الدراسة.

١٢- يمكن الرجوع إلى مثال لهذا الاعداد فى كتابى عن "مقدمة فى العلاج الجمعى" (١٩٧٨) نفس الناشر، وإلى بحثى عن" الباحث: أداة البحث، وحقله .. فى دراسة الطفولة والجنون أيضاً.

الفصل الثانى

عناصر الفصل الثانى:

- طبيعة الجنون ... وتعدد الذوات
- الجنون داخلنا
- الوحدة والجنون
- تحمل التناقض من ضرورات الوجود (مثال الحب والعدوان)
- ترويض العدوان
- تعدد الذوات داخل النفس
- المواءمة بين حالات الأنا
- معنى الاستمرار الطولى فى مسيرة النمو (رحلة التكامل)
- الخوف (وأبعاده النفسية)
- مضاعفات المبالغة فى الهرب
- مستويات النفس . . وصرخة النجدة وبداية الجنون
- الهجوم التساؤلى المحتج
- التطور والانقراض
- وعى (يقظة) المجنون

طبيعة الجنون.. وتعدد الذوات

The nature of insanity and multi- ego stats

(١) ١الجنون داخلنا:

"الجنون داخلنا"، هذه الحقيقة هى أصل هذا العلم الذى أقدمه..، لأنها تحدد موقع الأمراض النفسية عامه والجنون (الذهان خاصة، بالقارنه بسائر الأمراض الأخر الأخرى، فالنموذج الطبى Medical Model للمرضى النفسى يوحى لنا أن نتصور أن الجنون جرثومة شاذة أو جسم غريب يأتى من العالم الخارجى إلينا، والأطباء النفسيون (تمشيا مع طريقة تعليمهم الطبية أساسا) يرحبون بهذا المفهوم، وكذلك يفعل أغلب الناس، ذلك لأن لهذا التصور وظيفة دفاعية لأنه يعفينا جزئيا- أو مرحليا- من مسئولية وجودنا، التى من ضمنها مسئولية جنوننا كجزء من وجودنا.

ولكن مامعنى الجنون، ومامعنى أن يكون داخلنا؟

(هل يعرف أحدكمو مايحمل داخله من جنة؟)

يقول أبو الحيان البصرى٢ مامعناه "أن الشخص السوى الكامل لم يخلق بعد، ولكن يقاس الرجل العاقل بالقدر الأكثر والقدر الأقل، فإذا كان القدر الأكثر فيه هو قدر العقل وقدر الجنون هو الأقل فيعتبر هذا الرجل عاقلا.. والعكس صحيح".

ورغم هذا الحدس الرائع لأبى الحيان، فإن المسألة ليست مسألة كمية (القدر الأكثر والأقل) ولكنها أعقد من ذلك وأخطر.

وقد ذهبت المدارس التطورية الحديثة (يمثلها هنرى إى فى فرنسا مثلا) إلى بناء تنظيرها الكامل لأصل الأمراض النفسية على هذه الحقيقة، حيث أنها ذهبت- قياسا على فكر هوجلنج جاكسون (الفيلسوف عالم الأعصاب) فى الأمراض العصبية- إلى أن كيان الإنسان العادى إنما يتوازن ويتماسك حين يسيطر الجزء الأعلى من المخ (الأحدث) على الجزء الأدنى (الأقدم)، وأنه فى حالة عجز سيطرة هذا الجزء الأحدث ينطلق الجزء الأقدم للمخ فى نشاط غير واقعى وغير طبيعى وغير مألوف بديلا عن، أو مستقلا عن، النشاط السوى الأصلى الذى كان سائدا قبل المرض.

وكأننا يمكن أن نقول إن الجنون- من خلال هذا المفهوم البيولوجي- هو النشاط المخل لهذا الجزء الأقدم من المخ (المرادف للطور المبكر من الوجود) نشاطا مستقلا عن (أو بديلا عن) الجزء الحديث المسيطر، على أن يتم ذلك فى وعى يقظ وأن يستمر لفترة خطرة"3

---

[1] - هذه الأرقام التى بين قوسين، هى الموجودة فى المتن الملحق، وكل رقم يشرح الظاهرة السيكوباثولوجية التى وردت فى المتن، فالكتاب – وعذرا للتكرار- هو أساسا شرح لهذا المتن.

[2]- هذه الرواية رواها لى أحد نزلاء مستشفى الخانكة إجابة على سؤال لى "هل يشعر أنه مريض أم لا".

ذلك أن هذا الجزء له نشاطات سوية، فهو مسئول جزئيا عن الأحلام مثلا، كما أنه قد ينشط فى شكل فجائى لحظى مؤقت فى حالات الصرع، وأخيرا فهو يمكن أن ينشط فى تآلف رائع مع الجزء الأحدث، ويتم هذا فى حالات الإبداع والخلق، لكل ذلك فإن "الجنون فى داخلنا" ولكن بمعنى محدد ومشروط.

وأول خطوات معرفة النفس، وأول مستلزمات نموها هو اليقين بهذا الجزء الداخلى فى وجودنا (وقد يكون مطابقا لما لما أسمته بعض المدارس اللا شعور، أو الهو، أو الأنا الطفلية... الخ)

واليقين المعرفى بالإمكانات الكامنة، ليس إلا الخطوة الأولى نحو استكمال وجودنا دون تناثر، ولكنه ليس هو ذاته كافيا لاستكمال وجودنا.

(٢) الوحدة والجنون:

وحتى يجن الإنسان لابد من توافر شرطين أساسيين هما الظلام (العمى النفسى الكامل، وإلغاء هذا الداخل بإنكاره مطلقا) والوحدة (اللاتواصل على أى مستوى)، فإذا توافر هذان الشرطان معا. فإنه يصعب ألا ينشط الداخل مستقلا مهددا حتى الجنون.

(هل يقدر أيه منكم إن يمضى وحده: لايذهب عقله؟)

أما الظلام فأعنى به الافراط فى استعمال الحيل النفسية لدرجة إلغاء الداخل تماما، والظلام فى ذاته لاينتج عادة، بل ينتج نوعا من العصاب واضطرابات الشخصية، اللهم إلا إذا زاد الإفراط فيه حتى ألغى فيما ألغى الآخرين أيضا بالإضافة إلى نفسه، فترتب على ذلك الانفصال عن الواقع عجزا عن الإرواء العائد (بالتغذية المرتجعة Feed- back) وبالتالى فإن الظلام مهيئ للوحدة ودافع بها إلى خطر الانفصال فالتفكك والذهان.

فالوحدة المطلقة، هى العامل الأهم- إذا- فى إحداث الجنون، وهى لاتعنى بالضرورة الوحدة الفيزيائية بالانسحاب الفعلى من الآخرين، ومن المجتمع، ولكنها تعنى قطع خطوط المواصلات - وخاصة المواصلات العائدة -(Feed - Back) عن الفرد، إذ أن مايحفظ تماسك الفرد (بل والخلية من قبله) هو المثيرات الراجعة ذات الدلالة، وبغيرها يتخلخل التوازن، وإما أن يظهر هذا التخلخل صريحا معلنا (الذهان)، أو تظهر محاولات ضبطه وإخفائه بمزيد من الدفاعات التى تزيد سمك القشرة الخارجية المخفية للتخلخل والمحيطة به (العصاب واضطراب الشخصية)، والذى يهمنا هنا هو تقرير هذه الحقيقة وهى "أنه بغير التواصل والتغذية المرتجعة ذات الدلالة (المعنى" فى حالة الإنسان) يعيش الكائن الحى فى وحدة تهدد توازنه مما قد يظهر أحيانا فى شكل الذهان (الجنون)، إذا ماتوافر الشرط الآخر وهو الظلام".

---

[3]- Insanity, as seen from this biological standpoint, is the conscious, disrupting and independent activity of the older part of the brain, which corresponds to the earlier state of existence. This has to occur in wakeful awareness and has to last for a sufficiently dangerous period.

على أن الوحدة فى ذاتها ليست كافية لإحداث التخلخل، لأن الإنسان وحيدا أساسا (منذ ولادته) ووحيد فى النهاية (بعد تكامله) ولكنه فى رحلة متصلة بين هذين القطبين، وشكل الوحدة الصحيح هو مايمكن أن يسمى "الوحدة الإرادية المرنة، أى أنها، الوحدة التى تدل على الاستقلال، وتؤكد قدرة الإنسان (وليس اضطراره) على التواجد بذاته لذاته بعض الوقت، مع شجاعته فى رحلة التواصل من نفسها إلى الناس وبالعكس".

وسوف أعود إلى نقاش هذه الوحدة الثرية فى أكثر من موضع، ولكنى أردت هنا ابتداء ألا أدمغ "الوحدة" من حيث المبدأ، وأن أقرر منذ البداية أنها ذات صورتين: الصورة المرضية العاجزة المفروضة على الفرد (حتى ولو خيل إليه اختيارها)، والصورة الإيجابية الإرادية التى تسمح برحلة مرنة متصلة مع الآخرين.

(٣) تحمل التناقض[4] من ضرورات الوجود (مثال: الحب والعدوان):

لعل من أهم مايميز ضرورات الوجود الإنسانى الواعى فى مرحلة نموه الحالية هو أن يتحمل التناقض وأن يظل متماسكا فى مواجهة ضرورات متعارضة تشغل دائرة وعيه فى نفس الوقت، وهنا نعرض مثلا لهذا التناقض الذى علينا مواجهته، فالعدوان غريزة أساسية تهدف أصلا لحفظ الذات وتمهد وتسمح بالحفاظ على النوع، وفى نفس الوقت فإن صاحب الرمز (الإنسان)، وهو ضرورة لاغنى عنها سواء للحفاظ على النوع (فى شكل التواصل الجنسى) أم للحفاظ على التوازن الفردى (بالتواصل والسعى من خلال التغذية المرتدة ذات الدلالة)، ولكن العدوان يتعارض ظاهريا مع الحب لامحالة، وبالرغم من أنهما فى الأعماق يكمل بعضهما بعضا فإن المواجهة التى يفرضها تناقض السلوك الظاهرى تضمنها على طرفى نقيض.

(هل يعرف كيف يروض قهر الناس..، والحب الصادق يملؤ قلبه؟)

وحين ذهب فرويد – مؤخرا ليقرن غريزة العدوان Aggression بالتحطيم Destructiveness ومن ثم الموتفى حين يقرن غريزة الجنس بالحب (ومن ثم... الحياة) إنما كان يصف مرحلة استقطابية محددة، أما فى مسيرة التكامل فبدون تحمل هذا التناقض الظاهرى فى طريق السعى إلى الولاف الأعلى يتعرض الإنسان إلى احتمالات التشوه أو التناثر.. (ومن ثم الجنون حسب جرعة هذا أو ذاك).

وإذا كان الحيوان يحافظ على وجوده ككيان فيزيائى بالعدوان فإن الإنسان يحافظ على وجوده ككيان مستقل واع (أى على فرديته) بالعدوان كذلك، ففى حين أن الحيوان يستعمل عدوانه ضد احتمال افتراسه (ولافتراس آخرين كذلك) فإن الإنسان يستعمل عدوانه ضد احتمال ذاته وسط الآخرين.

---

4 -Tolerance of contradiction

والحيوان يتبادل نشاط غرائزه- عادة- فى تناوب، أما الإنسان فإنه قد يواجه- من خلال وعيه المتزايد- وجود نشاط غريزتين متناقضتين فى ظاهرالسلوك فى نفس دائرة الوعى، وهنا تظهر مأساة الوعى البشرى الرائعة بمسئوليتها وثرائها معا (كيف يصارع قهر الناس.. والحب الصادق يملؤ قلبه؟) إذ يحافظ على ذاته فى مواجهة سحق الآخرين دون أن يتخلى عن حقه فى التواصل معهم وتقبلهم بنقائضهم.

(٤) ترويض العدوان:

على أن الإنسان المعاصر قد فرضت عليه ظروف قاهرة إضطرته إلى الإفراط المخل فى ترويض عدوانيته حتى أصبح ذلك خطرا حقيقيا، وقد ذهب فرويد فى صدق أخلاقى إلى تدعيم فكرة التسامى كإحدى وسائل الترويض التلقائى اللاشعورى وإذا كنا نرضى بهذه الحيلة وأمثالها كمرحلة من مراحل النمو، فينبغى ألا نعلى من شأنها استجابة لمخاوفنا من حقيقة قدراتنا، لأن التسامي- شأنه شأن سائر الدفاعات- رغم نتائجه الحميدة، لايمكن فى النهاية، لو استمر أو تضاعف، إلا أن ينتقص من وجودنا الواعى ويعطل نمونا، ويشوه، لامحالة، تكاملنا.

وإنما البديل الأصح هو إتاحة الفرصة لمثل هذه الغريزة للتعبير المباشر، وإن اختلفت لغة التعبير ليس إلا،وأرى أن العدوان بمعنى التحطيم، وكذلك بمعنى المحافظة على انفرادية الذات، يمكن أن يقوم بدور كامل ورائع فى عملية الإبداع، فالإبداع يبدأ "<u>بتحطيم</u>" القديم القائم تمهيدا لبناء الجديد الدال فى نفس الوقت على تأكيد الذات صانعة الأصالة، وبالتالى فإن الإبداع يحتاج إلى تلقائية ومغامرة لاتحققها إلا غريزة العدوان بشكل مباشر، ولعل أعجز الناس عن الإبداع هم أخوفهم من عدوانيتهم وأعجزهم فى نفس الوقت عن تحوير التعبير عنها إلى <u>إعادة خلق وأصالة</u>، ولعلنا نتذكر البدائل الجماعية المرعبة للعدوان فى شكل الحروب العنصرية المدمرة، أو ميكنة الإنسان أو قهر الفكر... الخ، وكل ذلك عدوان ساحق يعلن وجود الغريزة بحجمها، وبالتالى يعلن الحاجة الملحة إلى شكل جديد خلاف التعبير عنها، كما ينبه إلى أن نسيان أهمية العدوان كغريزة ربما هو فى ذاته مهرب علمى يتماشى مع الجبن العصرى المهذب.

(٥) تعدد الذوات داخل النفس٥

بدأت إعادة النظر فى اللغة التى نتحدث بها عن تركيب النفس فى الثلاثينات من هذا القرن من خلال تطور مفاهيم التحليل النفسى تحت تأثير فكر مدرسة العلاقة بالموضوع، فبعد أن كان الحديث يتناول "تشريح النفس" Anatomy of Personality والتعريف بأجزائها، أصبح يتناول انشقاقات النفس وتعدد شخوصها.

---

5 -Intrapsychic multiplicity of selves (egos)

وفى أثناء الثورة ضد بيولوجية فرويد وضد علم نفس الأخلاق Moral Psychology الذى يميز التحليل النفسى التقليدى، ومع تأكيد المفهوم "الكياني" المتعدد للوجود، يذهب جانترب كممثل لهذه المدرسة (العلاقة بالموضوع) إلى الحديث عن "الأنا الناكص" Regresscd Ego وقوة الجذب الوراثية الدائمة التى يمارسها ضد نمو الأنا المركزى، ثم يعود يتحدث عن انقسام الأنا الناكص إلى الأنا الليبيدى Libibinal Egoوالأنا المضاد لليبيدو Anti- Libidinal وهكذا يبدأ تأكيد معنى تعدد الأنوات (الأشخاص) داخل النفس الإنسانية، وما إن تأتى الستينات من هذا القرن حتى تنتشر نظرية التحليل التفاعلاتى٦ Transactional Analysisالتى أكدت بشكل قاطع هذا الوجود المتعدد داخل النفس البشرية، وهى تبدأ بالتحليل التركيبيStructural Analysis كخطوة مبدئية أساسية فى عملية التحليل التفاعلاتى، وهو يعنى بالتحليل التركيبى، تحديد معالم وحدود الشخوص (الأنوات) النشطة فى الشخصية، ثم تحديد أدوارها وتعاقباتها، وأخيرا ينتقل إلى تحليل تفاعلاتها مع شخوص (أنوات) الشخص الاخر، وهذه الخطوة الأخيرة هى "التحليل التفاعلاتي".

وهذا التغير فى اللغة المستعملة، والذى تحدد بشكل واضح فى النظرية الأخيرة (التحليل التفاعلاتى) هو تغيير جذرى يقارب ثورة كاملة بحق، وتكمن الثورة فى إدراك الماهية التركيبية للنفس البشرية على أنها من عدة أشخاص وليس من عدة أجزاء.. وفى هذا مافيه من مخاطر وروائع.

ولذلك لابد وأن أقف هنا وقفة طويلة نسبيا أحدد فيها وأؤكد كيف أن هذا الاختلاف الذى يبدو لفظيا هو فى حقيقته ثورة علمية معاصرة لم تأخذ حقها فى النمو والتقبل والتطبيق والاستيعاب، بل على النقيض من ذلك بولغ فى تبسيطها حتى مسخت وأسئ استعمالها.

ماالفرق – إذا– بين أن نفهم الإنسان ونراه كأجزاء تكون وجوده، (مثل الهو.. والأنا.. والأنا الأعلى.. الخ) أو أن نفهمه– ونراه– كجزئيات سلوكية متجاورة متفاعلة كذلك.. وبين أن نراه عدة شخوص متداخلة، مركبة.. متبادلة؟؟

إن الفرق ليس هينا ولاهو لفظى، ولعله رغم جدته لايعدو إلا أن يكون أعادة اكتشاف لحقيقة قائمة منذ البداية، فإن تعدد الإنسان فى رحلته التطورية ليس جديدا إلا بالنسبة للصياغة العلمية لهذا التعدد، وكل فن أصيل (روائى أو أسطورى بوجه خاص) إنما نبع وينبع من هذا التعدد، فنحن نلقاه صراحة فى الأدب الشعبى، وفى الملاحم التاريخية بشكل متواتر حتى يكون بداهة، ونحن نلاحظ أن تقبل العامة له، والاستمتاع الإبداعى المميز له إنما يؤكده من هذه الزاوية الفنية.

6- هذه الترجمة من أستاذنا الدكتور عبد العزيز القوصى، وقد قبلتها مرحليا، إلا أنى مازلت أراجعها المرة تلو المرة لأنها لاتؤدى كل المراد توصيله من الكلمة الأصلية

أما التعدد كما وضح أخيرا فى إعادة الرؤية علميا فى فرعنا هذا، فقد ظهر عند يونج بشكل محدد، وقد أطل فى فكر فرويد أكثر من مرة، إلا أنه لم يتصاعد به وينميه، رغم أنه كان واضحا تماما فى أقواله فى مواضع معينة[٧]

ثم جاء إريك بيرن، وبلمسة حدسية علمية رأى هذه الرؤية بوضوح الذى يقرأ كتابا سهلا[٨] ، وقد ذهب فى تبسيط نظريته (التى أسماها التحليل التفاعلاتى) إلى أن أصبحت فى متناول الرجل العادى[٩] مما أدى فيما بعد إلى سوء إستعمالها بين العامة وغير المختصين بالذات.

ولابد أن أذكر هنا بعض معالم هذه النظرية بالقدر الذى تمثل فيه عمودا جوهريا فى السيكوباثولوجى كما ينبغى أن يفهم..، وتتركز الأسس العامة لهذه النظرية فى النقاط التالية:

١- النفس الإنسانية مركبة من عدة شخوص، هى حالات الأنا Ego States وليس من عدة أجزاء.

٢- هذه الحالات لها تمثيل مباشر فى المخ، يمكن أن يظهر كنشاط تركيبى متناسق إثر تنشيط مناطق بذلتها (فى الفص الصدغى أساسا) أثناء تجارب مثل تجارب "بنفيلد"Penfield، حيث أنه من خلال الإثارة بقطب كهربى دقيق Micro Electrode لمتطوعين تحت تخدير موضعى... أمكن مشاهدة حالات "وجود ذاتية"بأكملها تستعاد فى الوساد الشعورى القائم[١٠]

٣- حالات الأنا[١١] Ego States لاحصر لها، ويمكن الحديث عن وحدات الأنا Ego Units، ولكن اتجه الرأى الغالب إلى تجميعها فى ثلاث حالات أساسية (الحالة الطفلية، والحالة الفتية، والحالة الوالدية)[١٢] فضلا عن أن كل منها - وخاصة الحالة الوالدية- يتكون من حالات أنا علوية تظهر فى التحليل التركيبى العلوى Higher Structural Analysis فمثلا نجد أن الحالة الوالدية- مثلا- تتركب هى ذات نفسها من أنا والدية طفلية، وأنا والدية فتية، وأنا والدية والدية (الجد) وكل ذلك من شقين من الجانب الأموى والجانب الأبوى فضلا عمن يمثاهما، وهكذا وهكذا.

ويمكن شرح معالم هذه الحالات الآساسية الثلاث على الوجه التالى:

(١) **الطفل**: وهى أقدم الحالات، وتوجد على أرجح الاحتمالات فى المخ الأقدم سماه إريك بيرن النفس الأقدم(Archeopsyche ويمثل جانبى الطفولة فى تواجدنا، فمن ناحية هى تمثل: الأنانية والرغبة فى

7- مثال ذلك ما جاء فى خطاب له إلى صديقه "فلايس" عن الجنسية المزوجة بما يعنى ... "لقد آمنت بفكرة الجنسية المزدوجة حتى أصبحت لا أرى فعلا جنسيا إلا بين أربعة " هذا، بالرغم مما يقال من أن هذه الفكرة هى فكرة فلايس أصلا.

8- بدأت اهتمامات إريك بيرن تظهر فى مجال تنمية الحدس الاكلينيكى، ومن خلال هذه الميزة الخاصة تولدت نظريته.

9- شبه إريك بيرن نظريته فى بساطتها بالنسبة للتعقيدات السابقة، بأنه بدلاً من محاولة فك عقدة جوردون (الشمبانزى المربوط على صدر صاحبه) لماذا لا نقطعها مباشرة؟ (تراجع فى كتابه Beyond Games and Scripts

10- حالة الأنا تعنى "فينومينولوجيا" متسقا هادفا متناوبا، كما تعنى "فسيولوجيا" جهازا متناسقا كامنا أو فاعلا من الترابطات المنتظمة، ثم تعنى عمليا وسلوكيا مظاهر نشاط هذا الجهاز الممثل لهذا الشخص فى مجال السلوك.

11- من الآن فصاعدا سأكتب الطفل والفتى والوالد فى "بنط خاص" للدلالة على أنى أتكلم عن حالة الأنا الطقلية والفتية والوالدية على التوالى، وقد اخترت كلمة الفتى بدلا من كلمة الناضج واليانع لأسباب ذكرتها فو موضعها فى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعى" ص ١٤٠ ، وأضيف هنا أن الفتى تعنى والفتاة معاً لأنها لفظ نفسى خاص وليس لفظا دالا على النوع .

12- المواصفات الواردة هنا مستمدة أساسا من مدرسة إريك بيرن ولكنى أضفت إليها من خبرتى المباشرة من التفاعل الإكلينيكى مع هذه الحالات وخاصة فى موقف العلاج النفسى الجمعى.

اللذة (الهيدونية) والبعد عن الواقع. ومن ناحية أخرى هى تمثل : التلقائية والأصالة والفطرة والبراءة والانطلاق، وهى تظهر فى الحياة اليومية أكثر ماتكون فى الأجازات، وحفلات الترفيه، ولكنها أيضا دائمة التواجد فى التفاعلات اليومية المستمرة ولكن بطريقة غير مباشرة أو غير كاملة فى العادة.

ويمكن تشخيص **الطفل** إكلينيكيا بظهور سلوك فى الوساد الشعورى القائم يتصف بالمواصفات السابقة بعضها أو كلها، فى مجموعة صفات طفلية مقبولة متسقة أيضا، أو خليط بينهما وكذلك فهذه الحالة تتصف بالتصرفات التى تصف سلوك الطفل عامة كما هى واردة فى أى مرجع وصفى لعلم نفس الأطفال أو علم نفس النمو.

(ب) **الوالد**، ومركز هذه الحالة هو المخ القديم وليس الأقدم، لأنه يغلب على الظن أن مركزها أقل قدما (تطوريا على الأقل) من موضع الحالة الطفلية، وقد أسماها إريك بيرن أيضا "النفس الخارجية" Exteropsyche إشارة إلى أنها تمثل الذات المنطبعة Imprinted ١٣ من الخارج، أما ترجمة ذلك إلى لغة مخية، فلابد أن هذا الجزء القديم هو الجزء من المخ الجاهز لاستقبال هذا البصم (الطبع) من الخارج، فهو ليس فطريا تماما مثل الطفل، وليس موضوعيا تماما مثل الفتى ولكنه مستمد من البيئة بموضوعية جاهزة مسبقة (إن صدق التعبير).

أى أن هذا السلوك الوالدى الذى تمثله هذه الأنا "**الوالد**، ليس نابعا من الفرد ذاته، ولا هو مستمد من حسابات الواقع المجردة، ولكنه نتيجة لتأثير خارجى جاهز، دون اختيار كامل، أو منطق مناسب، **والوالد** يمثل جانبين سلوكيين متباعدين وصفيا، فمن ناحية نرى **الوالد** داعيا حانياساندا لكل من هو أصغر وأضعف وأحوج، ومن ناحية أخرى نجد **الوالد** هو المانع القاهر المعاقب، سواء لإرساء قواعد خلقية تنظيمية، أم لتأكيد قيم وتقاليد ثابتة لصالح استقرار المجتمع أكثر منها لصالح انطلاق الفرد التلقائى...

إذا فهذا الجزء من المخ قابل لطبع كل سلوك (ذو دلالة وظيفية مرحلية) مصدره العالم الخارجى، والطبع يتم كما هو دون تحوير فى السلوك المطبوع فى المراحل الأولى من النمو (انظر أيضا ص ٨٥ ومابعدها).

وليس كل سلوك فى العالم الخارجى قادرا على أن يطبع السلوك فى أحوال خاصة أهمها:١٤

(I) حالة العجز الشامل.

(II) حالة الخوف الكيانى (التهديد بالفناء).

(III) حالة الاحتياج المطلقة.

(IV) أوقات أزمات النمو (إعادة الولادة).

13- استعمال هذا التعبير هنا من عندى ولم يستعمله إريك بيرن

14- ملاحظات من واقع الممارسة الإكلينيكية والعلاج الجمعى خاصة.

(V) أوقات أزمات التصدع.

(VI) المرحلة المأزقية Impasse Stage فى العلاج النفسى الجمعى.

ومصادر الطبع الأساسية هى كل اختلاف سلطوى محب أو قاهر، ويمثل هذه السلطة فى الطفولة الوالد والوالدة أساسا، ولكنها تستمر على كل المؤسسات السلطوية فى المدرسة وفى المجتمع وفى الدولة وفى الثقافة وفى الدين...الخ.

وسلوك **الوالد** هو سلوك حكمى سلفى تقليدى ثابت جاهز فى العادة.

(ج) الفتى، ومركزه فى المخ الحديثNeo Cortex، وقد أسماه إريك بيرن النفس الحديثةNeopsyche ، ووظيفته القيام بالارتباطات النافعة التكيفية المحسوبة بدقة ومنطق سليم، آخذا فى الاعتبار كل معلومات الواقع، واحتياجات الذات بقدرته الحقيقة دون تهوين أو تهويل، حتى لتسمى الأنا بالحاسب الالكترونى Computerلما تتبعه من من خطوات تغذية بالمعلومات المجردة ثم غربلتها وتصنيفها وربطها بعضها ببعض وترجيح بعضها عن بعض فى كل مرحلة وحسب مقتضى الحال... الخ، وبترجمة هذه الوظيفة إلى السلوك اليومى نجد أن هذا الفتى هو الذى يقوم عادة بكسب العيش والتحصيل الدراسى والمهنى ومسايرة الواقع، وهو يفعل ذلك وحده، أو بالتضامن (أو حتى التلوث) مع الأنوات الأخرى.

وبعد وصف كل "أنا" على حدة، لابد من تحديد العلاقة بينهم تشريحيا، ثم وظيفيا، ثم معنى المواءمة بينهم مرحليا (مستعرضا) ثم طوليا (فى رحلة تكامل النمو).

أما العلاقة التشريحية١٥ : فهى ماتقع تحت مايسمى بالتحليل التركيبى (راجع ص ٢٧)، وهذا التحليل يتضمن تحديد نشاط كل ذات من هذه الذوات ودرجة قوتها أو ضعفها، وأوقات ظهورها أو اختفائها، ومدى بعدها أو قربها عن الوساد الشعورى الغالب.

أما العلاقة الوظيفية: فتشمل فاعليتها بعضها فى بعض، وتبادلها الأدوار مع بعضها البعض.

المواءمة بين حالات الأنا:

(كيف يوائم بين الطفل وبين الكهل وبين اليافع...... داخل ذاته؟):

للمواءمة شكلان، يتعلق كل منهما بالبعد الذى ننظر من خلاله، هل هو البعد المستعرض أم الطولى، وبأسلوب آخر هى تتعلق بمرحلة النمو الجارية، هل هى مرحلة التمددDiastole أم الاندفاعSystole المرادفة للبسط . (Unfolding) ١٦

ولنمسك بمفهوم المواءمة من كل بعد على حدة:

15- تستعمل كلمة التشريح هنا استعمالات مجازيا

16- راجع كتابى مقدمة فى العلاج الجمعى ص ٢٢٢ - ٢٣٣ لمعرفة طبيعة هاتين المرحلتين.

ولنبدأ **بالعلاقة المستعرضة** (الغالبة فى مرحلة التمدد)، وهذه العلاقة تشير إلى وجود هذه الذوات فى وقت ما يحتاج إلى تحديد مدى قابلية التبادل Substitution، والتناسب الموقفى Appropriateness، والتعاون Cooperation بين هذه الذوات.

والتبادل والتعاون بالذات يحتاجان إلى إيضاح عدة مفاهيم متعلقة بهما: أهمها مايسمى "حرية حركة الطاقة (الشحن)Lability Cathexis ، وتعنى أن شحن كل "ذات" بالطاقة يتم بسهولة ويسر، وينتقل الشحن من "ذات" إلى أخرى حسب مقتضى الحال، ويمنع هذا الانتقال مأسماه إريك بيرن "تليف حدود الذات Boundary Sclerosisالذى يشير إلى صعوبة الشحن والتفريغ معا، كما أن الانتقال السهل بإفراط قد يكون غير مناسب للموقف مما سمى أيضا "القابلية للنفاذ" Permeability والتى تعنى أن الخلط بين عمل هذه الذوات فى موقف ذاته قد يظهر مباشرا حتى ليبدو السلوك متناقضا أو مشوشا أو على الأقل غير متناسق، وحتى أعطى مثلا محددا أقول: إن الشخص السوى (الذى يتمتع بحرية الطاقة بين ذواته) هو الشخص الذى تشحن ذاته الوالدية بالطاقة المناسبة حين يكون فى موقف عطاء أو رعاية أو توجيه خلقى علوى، مثل أم تعد أطفالها فى الصباح للذهاب إلى المدرسة، ولكن هذه الشحنة لاتظل ثابتة فى الذات الوالدية بل تستطيع أن تنتقل إلى الذات الطفلية- مثلا- عقب خروج الأولاد، حين تذهب الأم- مثلا لتريح رأسها على كتف زوجها ثوان أو دقائق، وهو يتصفح جريدة الصباح مضطجعا، فهى تفعل ذلك فى اعتمادية بسيطة، ثم إن هذه الأم نفسها سرعان ماترتدى ملابسها لتذهب إلى عملها كمحاسبة فى بنك تقوم بواجباتها والتزاماتها تجاه كسب عيشها وخدمة زبائنها حسب متطلبات الواقع تحديدا، وأثناء هذا السلوك تستطيع أن تستنتج أن الذات الفتية قد شحنت بكفاءة ويسر بما يناسب مقتضى الحال.

وفى هذا المثال أوضحت معنى هذه السيولة (والسهولة) فى حركة الطاقة فى مدى ساعة أو ساعات، ويمكن أن نتلفت حولنا لنرى أمثلة متعددة فى كل مجال، وفى كل نشاط يستطيع حتى الشخص العادى أن يلحظها ويصفها بسهولة.

والمواءمة على هذا المستوى تشمل التناسب Appropriateness والتعاون Cooperation بين الذوات (كحل وسط Compromise) ناجح وفعال..

ولكن لابد من التمييز بين هذا الحلوسط وبين علاقات أخرى لاتعتبر مواءمة بحال، أهمها:

(I) التلوث Contaminationحيث تختلط النشاطات بعضها ببعض بدرجة يصبح الفصل بينهما صعبا ويصبح هدف كل نشاط يتحقق بطريقة خفية من خلال سلوك ظاهرى ينتمى إلى نشاط آخر، بمعنى – مثلا- أن يحقق الطفل أنانيته وهيدونيته من خلال حسابات الوالد أو حتى الفتى الطمعية أو العملية على التوالى وهذا التلوث معطل ومشوه للشخصية، وحين يزيد ينتج عنه اضطرابات (نمطية بوجه خاص) فى الشخصية وخاصة مايسمى الشخصية السيكوباتية.

(II) الصراع التنافسي المعوق Competitive Handicaping Conflict وفى هذا النوع من العلاقة تتصارع رغبات كل ذات مع الأخرى بدرجة متكافئة حتى تكون النتيجة هى الإعاقة سواء فى النشاط أو فى الإنتاج أو فى النمو.

(III) الإبعاد Exclusion وفى هذا النوع من العلاقة تستبعد إحدى الذوات (**الوالد** عادة) نشاط الذات الأخرى (**الطفل** عادة) إبعادا مزمنا فى الشخصيات الشيزويدية Schizoid أو اللالذيةAnhedonic ، أما بالنسبة للابعاد المؤقت فقد نراه فى حالات الهوس، حيث يحدث العكس إذ يبعد الطفل نشاط الوال من الوساد الشعورى الحاضر.

وإذا تكلمنا عن "**الإبعاد**" Exclusion فلابد أن نشير إلى بعض عمليات تختلط بعضها ببعض وتحمل كلها معنى الإبعاد وأن نحاول أن نحدد معانيها المتشابكة، ولما كانت هذه المحاولة المحددة لم تسبق بشكل شامل هكذا، وكذلك لم تسبق أصلا للكاتبين باللغة العربية، فلابد من مواجهة ضرورة الأصالة فى هذا الصدد. وإليك محاولة لتحديد هذه النوعيات كما ظهرت من خبرتى الاكلينيكية:

(أ) الانشقاق وهو أن ينفصل جزء من الذات عن الجزء الآخر، وهو حيلة تستعمل عادة فى وصف انشقاق الوعى، ولكنها تشير فسيولوجيا كذلك إلى أى إنفصال فى مراحل "فعلنة المعلومات Information Processing، وبالتالى فالانشقاق ضرورة لحظية سلسة فى هذه العملية (راجع أيضا حاشية ١٢) وهو حيلة نفسية لازمة أقرب ماتكون إلى كبت جزء من الخبرات (ومن النفس) لتكوين اللاشعور، وفى حين لايحتاج الانشقاق إلى قوة عنيفة فى عملية فعلنة المعلومات، فإنه يتطلب طاقة نفسية قوية فى صورته كجزء من الكبت.

(ب) الاغتراب :Allennation وهذه الكلمة لها مجالين مستقلين تستعمل فيهما بشكل متواتر: الأول هو المجال الأدبى والفلسفى حيث تشير إلى انفصال أى جزء من الوجود عن جوهر الوجود (أو حتى عجز الفعل وعائده عن اثراء وتكامل انسانية الانسان) ويشمل ذلك اغتراب فعل الانسان عن غايته الجوهرية، أو اغتراب عائد عمله عن تأكيد إنسانيته.. وهكذا...

أما المعنى الثانى فهو استعمال خاص فى الطب النفسى يعنى الاغتراب العقلى Alienation Mentale[١٧] المرادف للجنون ذاته، إذ ينفصل جزء من الذات انفصالا تفكيكيا عن الجزء الآخر بشكل ينتهى إلى تناثر الشخصية وتباعد مكوناتها وأجزائها..

والاغتراب بالمعنى الأول ظاهرة عصرية، قد تهاجم فى عنف لأنها تنقص الانسان مقومات تكامله، ولكنها مرحلة تصف تواجد الانسان المرحلى، لاأكثر ولا أقل، وعلاقته بالانشقاق هى أنه يؤدى نفس مايؤديه الانشقاق كجزء من عملية "فعلنة المعلومات" ولكنه بشكل أكثر إزمانا وثباتا، فكما أن الانسان

17- يستعمل هذا التعبير عند الفرنسيين بشكل أكثر تواتر.

لايستطيع أن يستقبل كل المعلومات الواصلة (من الداخل ومن الخارج) طول الوقت فيلجأ إلى استقبال بعضها فى تناوب انشقاقى مسلسل، كذلك فإن الانسان لايستطيع أن يلحم كل أجزائه بعضها ببعض طول الوقت من البداية للنهاية، فهو يلجأ إلى إبعاد جزء من كيانه أو عائد فعله، حتى تتاح له الفرصة فى تلاحم "ولافي" قادم، فى ظروف أفضل.

والاغتراب بالمعنى الثاني (الجنون) ليس قريبا إلى الانشقاق كحيلة (فى الأحوال العادية أو المرضية) ولكنه تباعد بين أجزاء الشخصية (وكياناتها) وانفصال من الجانبين لايطغى فيه جانب شعورى على جانب لاشعورى بالمعنى العادى بل يتواجدان معا منفصلين، ونتاج تفاعلهما المتباعد هو أعراض ذهانية صريحة.

وهذا النوع أقرب إلى الانشطار Splitting الذى سيرد ذكره حالا، ولكنه صورة مبالغة منه

(ج) الانشطارSplitting ، وفيه ينفصل كيان من مكونات النفس عن كيان آخر، وهذا الانفصال يتم عادة بعد زيادة حدة المواجهة بين الكيانيين أو عنف الصراع أو شدة الانشقاق حتى الفشل، ويشمل هذا الانشطار مايمكن أن يسمى فض الاشتباك

Disengagement كما يشمل مايسمى أيضا فك التلوث

Decontamination، وأفضل أن أقصر استعمال التعبير الأول على وصف الناحية السلبية فى الانشطار والتعبير الثانى لوصف الجانب الإيجابى، فنتيجة للعملية الأولى (فض الاشتباك) تختفى بعض الأعراض العصابية، ولكن سرعان مايحل محلها أعراض بداية الذهان (الفصام خاصة) الذى ينتهى عادة بالاغتراب العقلى، أما البعد الثانى (فك التلوث) فهو تعبير يستعمل فى مجال العلاج النفسى وخاصة علاج اضطرابات الشخصية وخاصة فى مجال العلاج الجمعى، حين يهاجم العلاج هذا الخلط الخفى بين كيانات الشخصية وبعضها، وتكون هذه الخطوة (أى فك التلوث) هى أول السبل نحو إعادة التحام ولافى أعلى، على طريق النمو العلاجى.

إذا فالانشطار يختلف عن الانشقاق فى بداية تفكيك كيانات الشخصية، وليس حيلة إبعاد للحفاظ على تماسك كيانات الشخصية ولو بعلاقات دفاعية

المواءمة الولافية: على أن هناك طريقة أخرى للمواءمة وهى التى تحدث أثناء البسط Unfolding حيث لايكفى التناسب والتعاون كحلوسط، بل تصبح المواءمة بولاف جديد يشمل استيعاب وتمثل **الفتى** لبعض نشاطات **الطفل والوالد** معا، وهذا الولاف Synthesis هو صانع مايسمى بالفتى المتكامل Integrated Adult وفى كل نبضة نمو Growth Pulasation يكبر الفتى العادى على حساب **الوالد والطفل** حتى يصل إلى مرحلة (نظرية بالضرورة ولكنها هدف الوجود) يتم فيها "تمثّل" Assimilation نشاط كل من **الوالد والطفل** تماما فى **الفتى المتكامل**، وهذا هو الوجود شبه الآلهى God- likeالمطلق.

إذا فالمواءمة تتم بطريقتين: الطريقة المستعرضة التعاونية (حلو سط)، والطريقة الولافية التكاملية المتصاعدة طوليا، والأولى تتم فى فترات التمدد Diastole والثانية فى فترات البسط Unfolding أثناء رحلة النمو.

تعقيب وتحذير:

لابد بعد هذا الاستطراد الطويل أن أعقب على هذه المدرسة

(وعلى فكرة التعدد بصفة عامة) التى سترد فى أكثر من موضع فى هذه الدراسة، فأقول:

١- إن هذا الفهم والتشريح صادق من واقع خبرتى الاكلينيكية والشخصية، وإنه يثرى التكوين البشرى ويفتح الأبواب أمام مسيرة النمو المتزايدة.

٢- إن العلاقة بين هذه الشخوص داخلنا هى علاقة مركبة متعددة متداخلة رغم أنها تبدو أحيانا مبسطة ومسطحة.

٣- إن تفسير الأمراض النفسية (وخاصة فى مراحل بداية الذهان.. وعلى المستوى السيكوباثولوجى) يصبح تفسيرا مباشرا وعمليا ومفيدا، حتى دون حاجة إلى دراسة طولية مفصلة.

٤- إن قبول فكرة هذا التعدد للباحث والدارس والممارس سوف تعرضه إلى رؤية ذاته رؤية قد لايكون مستعدا لها بالدرجة الكافية مما قد يهز توازنه مؤقتا (أو أكثر من ذلك)

٥- إن التمادى فى قبول فكرة هذا التعدد ذهنيا يمثل حيلة دفاعية، قد تعفى الشخصية "ككل" من تماسكها الكلى ومسئوليتها عن كافة نشاطاتها، ويصبح الفصل بين هذا النشاط وذاك هو تبرير توقفى وليس سعيا ولافيا.

٦- إن إنكار هذا التعدد أصلا هو دفاع أيضا ضد التهديد بالتناثر(فقرة ٤)، وهو يجمد الإنسان عند سلوك بذاته أقرب إلى الثبات طوليا والتجمد عرضيا.

٧- إن التعدد مرحلة أكيدة وهامة وهى تستغرق العمر كله، ولكنها مرحلة مجرد مرحلة.. وهى تظهر أساسا فى الحلم فى الأحوال العادية، وبطريقة غير مباشرة فى الإبداع، وبطريقة مخلة فى الجنون.

٨- إن المواءمة بالتناسب والتعاون بين الذوات هى أيضا مرحلة تمهد لمواءمة أعمق فى فترات أكثر نشاطا فى النمو.

٩- إن المواءمة بالمواجهة والتناقض النشط (وليس بالصراع) هى السبيل لتدرج ولافى أعلى باستمرار فى طريق نمو **الفتى المتكامل** (هدف النضج النهائى) على حساب ماعداه. أى كلما زاد النضج كلما قل التعدد نتيجة لإستيعاب **الفتى** قدرا أكثر وأكثر من سائر النشاطات.

١٠- إن نوعى الملاءمة- التبادل، والولاف- لازم ومناسب حسب كل مرحلة من مراحل النمو.

١١- أنه في لحظة معينة، فى حالة اليقظة عند الشخص السوى لايوجد فى الوساد الشعورى القائم سوى حالة واحدة للأنا، وتكون سائر الأنوات المتعددة الأخرى تحت سيطرة هذه الأنا، ولكنها كامنة ومحتملة الظهور فى وساد شعورى آخر.

١٢- إن هذه الشخوص المتعددة هى نشاط مستويات فى المخ، ولكن من المحتمل أن يكون هناك مايقابلها داخل الخلية فى تنظيمات الجزئيات الجسيمة لحمضى النيوكليك Organizations of the macromolecules of the nucleic acids

(٦) معنى الاستمرار الطولى فى مسيرة النمو (رحلة التكامل):

حياة الإنسان سلسلة من الارتباطات الطولية المتفاعلة تركيبا وولافيا فى تعقيد متصاعد، نحو تكوين وحدات أكبر وأشمل باستمرار،.. وبالتالى أوسع وعيا وأعمق وجودا، وهذه المسيرة الطولية لاتسير فى تسلسل خطى، ولكنها تنمو فى نوبات دورية[١٨]، وقد غلبت بعض المفاهيم الناقصة على استيعاب مفهوم مسيرة نمو الإنسان تطوريا، ولابد من الإشارة إلى بعض تلك المفاهيم الخاطئة ابتداء:

١- أن يؤخذ مفهوم النمو بالمعنى الخطى التسلسلى المنتظم Linear chain- like وليس بالمعنى التركيبى الولافى الدورى.

٢- أن تتوقف فكرة النمو عند نهاية مرحلة المراهقة حول العشرين.

٣- أن يؤخذ النمو على أنه مجرد نتاج لتفاعلات متزايدة، وتعلم متصاعد، دون النظر إلى غائية بيولوجية تطورية.

٤- أن تعتبر أزمات النمو مرضا فى ذاتها دون انتظار لنتائجها أو حسابات لأبعاد محيط حدوثها.

على أن هناك فى مقابل ذلك مدارس ومفاهيم[١٩] قد تخطت هذا القصور إذ عرضت لمسيرة النمو فى اتصال دائم لاينقطع إلا بالموت، بل إن الموت ذاته إذا تعمقنا فيه قليلا أصبح خطوة نمو وتطور بالنسبة للنوع ككل.

لذلك فإن أى فصل بين الماضى والحاضر والمستقبل فصلا تعسفيا، إنما يعوق الفهم العلمى الأصدق لطبيعة النفس ومسيرة النمو على حد سواء.. فالمسيرة متصلة لامحالة.

(كيف يحاول أن يصنع من أمس قاهر قوة حاضره المتوثب نحو الانسان الكامل)

وهنا يستحسن الإشارة إلى تلك الاتجاهات التى تركز على أهمية مرحلة زمنية دون الأخرى:

١- تركز بعض اتجاهات التحليل النفسى على استرجاع الماضى بوجه خاص وذلك يتردد مع مفهوم العقد النفسية Complexes ويفسر التأكيد على السببية الحتمية Deterministic Causality بمعنى أن لكل

18- يمكن الرجوع إلى قدر متوسط من التفصيل لهذه النقطة فى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعى ص ٢٢٠ .

19- من اهم هذه المدارس ما قدمه إريك أريكسون عن مسيرة النمو وأطوار تكامل الانسان وكذلك كثير من المدارس الإنسانية ومدارس العلاج النفسى ذات البعد النموى، ونظريتى عن "مستويات الصحة النفسية على طريق التطور الفردى" فى كتابى حيرة طبيب نفسى ١٩٧٢ .

شئ سببا يمكن أن نجده فى الماضى، وسواء كان هذا التركيز نابعا من حقيقة الفكر التحليلى أم أنه سوء فهم له، فإنه مفهوم قاصر ومعطل، فالماضى صانع الحاضر بقدر ماهو موجود فى الحاضر، ومسئولية الماضى إذا ليست مسئولية تاريخية تبريرية، بل هى مسئولية إيضاحية مساعدة لاأكثر ولا أقل.

٢- تركز بعض الاتجاهات على "الآن" لاأكثر ولاأقل، وعلى الرغم من الأساس الإيجابى فى هذا التركيز الذى بالغ فيه الفكر الوجودى خاصة، والتطبيق فى العلاج الجشتالتى بشكل أكثر تخصيصا، فإنه قد اسئ استعماله بحيث أصبح فى التركيز على "الآن" نوع من إلغاء المسئولية عن المستقبل، بمعنى التخطيط له ورؤية الاتصال الغائى الضرورى للوجود الإنسانى الممتد، وقد يصل هذا التركيز على اللحظة الراهنة مبلغا يصف الاضطراب السيكوباثى للشخصية بوجه خاص (راجع حاشية رقم (١٧٩) "إذ ليس سوى الآن، فكما اغتلتم أمسى ألغيت غدي").

٣- وأخيرا فإن بعض الاتجاهات تركز على المستقبل بديلا عن الان، وهذا التأجيل المستمر ماهو إلا حيلة دفاعية، فإذا كانت الرؤية المستقبلية هى من صلب تكوين الوجود الإنسانى فى تناسقه مع فكرة استمرار النوع ومع تعميق الوعى فى آن واحد، فإن الاكتفاء بهذه الرؤية المستقبلية أو الاستغراق فيها قفزا فوق اللحظة الراهنة هو نوع من الاغتراب على حساب تعميق الوعى الآنى اللازم للتواجد الإنسانى الحق، وقد ركز علم نفس الصيرورة Becoming، الذى يسمى أحيانا علم نفس النمو، على الإنسان فى صيرورته الحتمية، ولكن دون تخطى اللحظة الراهنة وكذلك فإن الفكر الدينى فى تركيزه على الحياة البعدية (الآخرة) إنما يشير إلى المعنى الصيرورى فى الوجود البشرى، بل إن المرض النفسى من خلال بعد السببية الغائية Teleological Causality إنما يحدد مساره وأعراضه غاية يسعى إلى تحقيقها من خلال هذا التعبير والوجود المرضى.

وبعد..

فاذا كان هذا التركيز على بعد زمنى دون الآخر هو معطل لفهم، ومسيرة النمو، فإنى هنا (فى المتن) أوضح أن الأمس مهما كان قاهرا، فما هو إلا المادة الخام التى نعيد تنظيمها فى حاضرنا الواعى المتوثب، وليس الحاضر المستسلم الخامد، وانما تأتى صناعة المستقبل فى هدفها المطلق إلى التكامل فالكمال، من تعميق واتقان اللحظة الراهنة بالمقدار التى هى فيه جزء لايتجزأ من إطار يمتد فى آفاق المستقبل نتاجا طبيعيا لمرور الزمن فى اتجاهه التوافقى مع الدوائر الكونية الأكبر.

(٧) الخوف: وابعاده النفسية:

الحيل النفسية تقليل من جرعة الوعى، وهى ضرورة فى مواجهة الخوف النابع من المواجهة (راجع أيضا حاشية ١٢).

والخوف انفعال أساسى فى التكوين البشرى، وفى مرحلة ماقبل الإنسان كان الهرب (وهو السلوك النابع من الخوف) من أهم الوسائل التى تحافظ على بقاء الكائن الحى، ولكن حين بدأ "الشعور بالإنفعال" يصاحب ظهور الوعى، ظهر الخوف المصاحب سابقا أو لاحقا أو بديلا عن الهرب.

ويبلغ الخوف أحيانا مبلغا لايستطيع الإنسان أن يواجهه حتى ليواجه الشلل ذاته، وأحيانا مايترتب على هذا الشلل مايمكن أن يكون بلادة حس إلى درجة الموت النفسى، وهذه صورة من أبشع صور التشويه فى عصرنا الحاضر، حتى أن الإنسان لينكر على نفسه حق الخوف أساسا، لأن الخوف دون مهرب، هو شعور ساحق مدمر، ولأن الخوف دون صاحب هو شعور منذر مهدد، ومن أهم مايشوه وجودنا هو أن ننكر على أنفسنا أن نعيش مشاعرنا بما يناسب الواقع الخارجى والحاجة الداخلية، إذ لا يمكن أن نتخطاها إلى مابعدها إلا بمعايشتها بجرعة مناسبة.

والخوف بهذه الصورة وإلى هذا المدى هو فى النهاية تعويق لمسيرة النمو وتشويه للطبيعة البشرية (الفطرة).

(كيف يشوه وجه الفطرة...... إذ يقتله الخوف ؟)

(٨) مضاعفات المبالغة فى الهرب:

إن الإنسان الذى يستعمل الحيل النفسية أكثر مما ينبغى، أو أطول مما ينبغى، معذور فى البداية، إذ أنه يستعملها خوفا من المواجهة التى تفوق طاقة احتماله فى تلك المرحلة، أما إذا بالغ فى ذلك الخوف متزايد أو عدم أمان مهدد، فإنه لايقع فقط فريسة العمى المضلل، أو توقف النمو المعوق، بل إنه يعرض نفسه إلى خطورة الإنفجار من الداخل، لأن دفاعات الهرب والعمى والتحوصل قد يصرعها على حين غرة اندفاع طاقة مكبوتة تمثل الجزء المبعد (المكبوت) من الشخصية (المقابل عادة للمخ الأقدم).

وهذا الجزء- رغم عنفه وضراوته وأنه يقابل الجنون ذاته- إلا أنه أصلا هو الجزء الفطرى فى الوجود، لذلك فإنه يبدو- من بعد فنى مطلق- وكأنه وجه الحق، مما يشير إلى طبيعته الفطرية النقية من حيث المبدأ، ونشاطه لايكون خطرا أو جنونا إلا إذا كان نشاطا مستقلا بديلا عن التكيف اللازم مع متطلبات البيئة وإلزامات الواقع.

(وأخيرا يفشل أن يطمس وجه الحق إذ يظهر حتما خلف حطام الزيف)

(٩) مستويات النفس.. وصرخة النجدة فى بداية الجنون :

تحدثت فى حاشية (٥) عن مفهوم النفس المتعددة الذوات، وهنا تأكيد لهذا التعدد ولكن بلغة أخرى وهى لغة مستويات المخ المتصاعدة (السبعة)[20]

ومستويات المخ ليست مستويات بمعنى الطبقات التى يعلو بعضها بعضا، ولكن بمعنى الدوائر التى يرتبط بعضها ببعض إرتباط التابع والمتبوع أحيانا، أو المركز والأطراف مما يقرب التشبيه من المجموعات الفلكية، واختلال مسار هذا النظام أو انفصاله عن المسار الأشمل هو الذى يحدث الأعراض والأمراض النفسية، وهذا الفرض يوضح احتمال ترجمة مايسمى الشخوص المتعددة داخل الشخصية إلى التركيبات والارتباطات التطورية المتصاعدة داخل المخ، بما يشمل ذلك من نقط انبعاث Pace Makerمتعددة ودوائر متداخلة، متسقة أو مرتطمة، وكل دائرة ومسار لها لغة كيانية خاصة ونقطة إنبعاث وظيفية خاصة، ومظاهر سلوكية خاصة وطبيعة وجود وهدف ومعنى خاص، أى أنها تمثل كيانا (شخصا) قائما بذاته يشير إلى كل من:

مرحلة سابقة من مراحل التطور، وإلى طور سابق من أطوار النمو معا.

وكما أشرت سابقا إلى العلاقات بين الذوات المتعددة داخل النفس فإنى أشير هنا إلى أن قمة تطور علمنا هذا سينجح حين نستطيع ترجمة هذه العلاقات إلى لغة بيولوجية كيميائية ترابطية بين هذه المستويات، ليس بين النيورونات فحسب ولكن فى داخل الخلية كذلك، مما لامجال لتفصيله هنا الآن.

وإذا ارتطمت أفلاك المخ (مستوياته) فإن ذلك يعنى ضمنا أن الدوائر لم تعد مرتبطة فى اتساق ومنتمية إلى الدوائر الأكبر، وهنا يظهر احتمال أن يظهر الجزء الكامن للنفس كنشاط مستقل، وفى نفس الوساد الشعورى.

ترتطم الأفلاك السبعة...،... يأتى الصوت الآخر همسا من بين قبور عفنة، يتصاعد.. يعلو.. يعلو.. كنفير النجدة)

وإذ يظهر هذا الجزء الكامن فى بداية التحرك نحو محاولة إعادة تنظيم أوفق، يبدو الجزء القائم باليا ميتا فاشلا، لأن ظهور الجزء الكامن مستقلا لايكون إلا لفشل الجزء القائم فعلا.. أعنى فشله فى السيطرة على بقية النشاطات، وعلى تحقيق توازن قادر على الاستمرار.

وبهذا الإعلان تبدأ ماتسمى الأزمة المفترقية[21] (نسبة إلى مفترق الطرق) وفيها يقف الفرد فى مفترق طرق إما إلى النمو وإما إلى التناثر، ومسئولية الطبيب مضاعفة تجاه هذه الأزمة بوجه خاص، إذ تحدث فى بداية الذهان وفى بداية إنطلاقة النمو، وفى هذه الأحوال لايمكن تمييزها عن بعضها نهائيا

20- لعل مراجعة الرقم سبعة فى القصص الشعبى وبعض النصوص الدينية (السماوات السبع والأراضى السبع، والسبع سواقى، والسبع بنات...الخ) يشير إلى احتمال بعيد أو قريب عن وعى حدسى بأن المستويات المخية تقارب هذا العدد، وبمراجعة مراحل التطور عند إريكسون أيضا.. وأخيرا بمراجعة مستويات دورات الإلكترونات فى الذرة (الميكروكوسموس) يمكن النصح بدراسة هذه الظاهرة، وقد أعدت استعمال العدد سبعة إشارة إلى التكامل المتحدى "أقيمت بحياتى السبعة" (حاشية ٢٢٥).

21- سميتها قبل ذلك "أزمة تطور" ولكنى فضلت فى هذه المرحلة هذا الأسم للدلالة على موقع هذه الأزمة بين مفترق الطرق، بين النمو والمرض، وترجمتها Cross-Road Crisis

إلا بنتاجها Outcome، وبما أن الطبيب- فى حالة استشارته فى هذه المرحلة- هو أحد العوامل الهامة فى نتاج هذه الأزمة، إذا فهو لابد آخذ مسئوليته أو متحمل مسئوليته رضى أم لم يرض.

(١٠) الهجوم التساؤلى المحتج:

وبداية هذه الأزمة تتميز "بالهجوم التساؤلي" العنيف الذى لو بحثنا له عن إسم بين الأعراض لقيل عنه ربكةPerplexity، وربما قيل عنه أفكار شبه فلسفية، أما إذا احترمنا محتوى الأسئلة رغم أنها معطلة ومكثفة لأمكننا أن ندرك أنها تحمل معانى الرفض لما كان قائما (ومفروضا) قبل ذلك (فى المرحلة السابقة)، وهى ضمنا: إعادة نظر يقظة تجاه شكل الوجود السابق، ومع أن هذا الرفض وإعادة النظر قد يدمغ الوجود السابق بالجمود والرتابة والآلية والتكرار، إلا أن هذا لايعنى فشله فى مرحلته، ولكنه يعلن عجزه عن الاستمرار ابتداء من هذه الأزمة المفترقية، وهنا يصبح طلب المريض الرجوع إلى "ماكان عليه تماما" دعوى فاشلة من بدايتها، وتصبح محاولة الطبيب فى نفس الاتجاه محاولة تحمل مخاطر التشويه، لأنه بالمقاييس الدقيقة التى تشمل النبض العاطفى والتواصل والقدرة على التجدد.. لايمكن أن يخرج الإنسان من مثل هذه الأزمة إلا وهو أفضل مما كان (أكثر نموا) أو أسوأ مما كان (أكثر جمودا) حتى ولو كان هذا الفرق ضئيلا لايرى لأول وهلة، إذا فهذه الأزمة فى حدتها ينبغى أن تؤخذ على أنها صرخة استغاثة، ونذير تحذير (نفير النجدة) فى نفس الوقت.

(١١) التطور والانقراض:

الصراع الحقيقى فى الوجود البشرى كما رأيته فى خبرتى الإكلينيكية والحياتية ليس بين الجنس والعدوان، ولابين الوالد والإبن، ولابين الذات والمجتمع، بقدر ماهو بين التطور والتدهور، بين النمو والانقراض وأكاد أرى كل الصراعات الأخرى ماهى إلا مظاهرجانبية لهذا الصراع الأساسى، وفى هذه الدراسة تتكرر الإشارة إلى حيوانات وكائنات حية بشكل رمزى أساسا، ولكن البعد الذى أحب أن أعلنه هو أن الرمز هنا ليس مقصودا فحسب، بل قد يحمل احتمالات عيانية ضمنا، وحين تتجمد مسيرة النمو عند قيم قديمة تماما فذلك من علامات احتمالات الانقراض مما ينبغى أن يجعلنا ننتبه إلى جدية احتمال إختفاء نوعنا تماما، والجنون إذ هو صرخة إستغاثة، وإذ هو إعلان فشل الوجود القائم هو فى نفس الوقت أخطر لأنه انتصار تدهورى متناثر ينذر بانقراض خطير للنوع البشرى.

(١٢) وعى (يقظة) المجنون Psychotic Awareness بعد فترة الحيرة والربكة والهجوم التساؤلى التى تظهر إثر فشل- أو اقتراب فشل- الوجود القائم الذى يصحبه ضعف المنطق العام السائد وعجز التفكير الحسابى تستيقظ وظيفة أخرى فى العقل لها مميزات خاصة بديلة عن (وفى النهاية مكملة لـــ) فشل طغيان التعقل المسطح، ويصحب يقظة هذا العقل الآخر درجة من الوعى حادة ومخترقة، تتضح بها الرؤية بشكل نافذ، وقد وصف "سيلفانو أريتي" هذا الوضوح شكل بهرنى أول الأمر إذ أسماه

"بصيرة الجنون"Psychotic Insight ، ولكنى تبينت أنه إنما يعنى:وضوحا ويقينا يتمتع بهما المجنون ليحل به مشكلة الربكة وفرط التساؤل واحتمالات الخلط التى يواجهها بحدة لاتطاق فى بداية المرض، أى إنه يعنى اليقين الذهانى الذى يبنى على ضلال (هذاء) خاص منظم فى الغالب Systematised Delusionيفسر به كل الأعراض (والأفكار والمشاعر... إلخ) التى ظهرت، ويجيب به على كل الأسئلة التى خطرت، إذا فما عناه "أريتي" بما أسماه بصيرة المجنون إنما يشير إلى "يقين المجنون الضلالي" إلا أنى لاحظت فى بداية الجنون ظهور نوع من البصيرة النافذة نتيجة ليقظة هذا الجزء من المخ (ومن النفس) الذى كان كامنا حتى تلك اللحظة، وأسميت هذه الظاهرة "وعي- أى يقظة- الجنون" Psychotic Awareness

وقد عنيت بهذه الظاهرة أن المجنون فى بداية مرضه قد تهدأ ثائرته ويصل إلى يقين حقيقى نتيجة رؤية حدسية أعمق (وليس نتيجة تفسيرات ضلالية منظمة)،

بمعنى أنه يستطيع تفسير الظواهر القديمة التى كانت تسير حياته عليها، بمنطق أعمق وأصدق، كما أنه قد يفسر واقعه الجديد تفسيرا أكمل وأشمل، وهو فى هذه النقطة يتفق مع خبرة المبدع تماما، وهما لايفترقان فى هذه المرحلة، أما إذا أصبح هذا التفسير مبررا للتوقف، فهو الجنون لأن هذا الوعى فوق احتمال وإمكانيات استيعابه، ولكن هذا الوعى نفسه يكون حافزا للابداع أو النمو عند المبدع كما يكون وقود النمو عند الإنسان مواصل المسيرة.

ولمزيد من الإيضاح أقول: إنه بعد هذه المرحلة الواعية العميقة، يعجز المجنون عن تحقيق رؤيته أو تحملها فيعود ثانية إلى الربكة والخلط اللذان قد لايحتملهما مرة أخرى إذ يتفاعل لهما بألم متزايد يصل إلى حد التعجيز، حتى لتظهر أعراض الاكتئاب صريحة فى هذه النقلة (ياويحى من هول الرؤية)، ولكن سرعان ماقد يضطره ألم المواجهة الواعية هذه إلى تفكيك أجزاء شخصيته بحيث تصبح رؤية وانبهارا بلا ألم نفسى مناسب أو فعل إبداعى مغير، وهذا التفكك يأخذ صورا مرضية مختلفة حسب درجة تماسك الشخصية قبلا، وجرعة ألم الوعى الجنونى حالا.

ويظهر هذا الوعى الجنونى عادة بحدس مفاجئ (يلقى فى قلبى الوعى)، وليس بتسلسل تدريجى، وقد يبدو أحيانا أنه قادم من مصدر كونى خارجى.. ويصبح العقل المنطقى الذى كان مسيطرا قبل الأزمة فى حالة شلل مؤقت، وتعجز حساباته عن الحد من قوة هذا الحدس أو تخفيف اليقين المصاحب له.

وقد يمتد هذا الحدس فى بعده الزمنى إلى أغوار سحيقة فى الوجود الفردى المسجل (شرطيا) فى خلايا المخ (وغيرها من الخلايا الحية فى كل مكان[٢٢]، وكذلك إلى التاريخ النوعى المسجل بيولوجيا

22- تعتمد الذاكرة الفردية بشكل أساسى على مبادئ الارتباط الشرطى والتعلم الشرطى، فى حين تعتمد الذاكرة الجينية Genetic Memory على البصم والتحوير التركيبى القادر على الانتقال عبر الجينات إلى أجيال لاحقة.

فى الخلايا أيضا.. ليصبح فى متناول القراءة المباشرة من خلال هذا الحدس (راجع أيضا حاشيات ١٢٣- ١٢٦).

وقد يكون ظهور هذا الوعى النافذ عند المجنون هو إعلان لعدم التناسب بين انتشار الترابط فى المخ حتى لترى الغايات الأبعد والبدايات الأعمق.. مع العجز عن تحقيق الغايات فى اللحظة الراهنة بالإمكانيات المحدودة، وكذلك مع العجز عن استيعاب هذا التاريخ الأعمق فى اللحظة الراهنة أيضا، وهذا الإفراط فى الترابط الأعمق ينبغى أن يؤخذ على أنه حقيقة (موقوته) وليست خيالا هاربا كما يرى البعض تصويره منذ البداية، ولكن يحتمل أن تتقلب هذه الرؤية النافذة التى تصف ظاهرة حية وموجودة إلى خيال فكرى هارب قد يحوى نفس المحتوى ولكنه يصبح معتقدا أكثر منه رؤية، وتسلسلا ممنطقا أو مؤولا، أكثر منه مواجهة نافذة معاشة، وتبدأ سلسلة الضلالات فيما بعد.

الفصل الثالث

عناصر الفصل الثالث:

- الحيل النفسية ... وضرورة العمى النفسى مرحليا
- مسيرة النمو ... من منظور الحيل النفسية
- الأمراض النفسية ... من منظور الحيل النفسية
- التشكل والتكيف
- الهدف، والمعنى، والمرض النفسى
- ماهية الهدف من الحياة

الهدف: الوجود – **الهدف:** اللذة – **الهدف:** التوازن التصاعدى

الهدف: هو المعنى – **الهدف:** الفكرة – **الهدف:** هو تصعيد التوازن

- وظيفة الأهداف الاغترابية
- تشويه الفطرة
- معنى اللعب ودوره فى النمو النفسى
- التنافس والمرض النفسى
- مخاطر الوعى المفاجئ (اللجوء للافراط فى الحيل)
- اضطرابات النوم والأحلام وإرهاصات الجنون
- التنشيط الدورى
- الفطرة البدائية: وجود انعكاسى مؤقت
- صدمة الميلاد
- الحياة العصابية (الكمية) المعاصرة
- ظاهرة التخرين القهرى
- معنى الزمن . . والاغتراب عنه
- الاستغراق اللفظى وتبريره الاغترابى
- حيلة التأجيل
- الرقة الجبانة
- الكبت
- امتداد تأثير الكبت واتساع مساحته

- الكبت وضعف الحواس
- الأمان الزائف . . وخواء الألفاظ
- العقلنة ونصفى المخ
- التقمص
- الغمد
- الاحتواء (الإدماج)
- تطور مسار حيل الادخال عامة
- المسار الايجابى النموى
- خطوات الاستيعاب الايجابى
- التعتعة
- المواجهة والاعادة
- الهضم
- التمثيل والاستيعاب
- مضاعفات العجز عن الاستيعاب
- الرؤية الخطرة تهدد ومن ثم:الاسقاط
- نتائج الاسقاط على إفراغ محتوى الذات
- التقديس
- التبرير
- صور الأم البشعة
- حكمة المناورة فى التحايل للنمو
- إعادة تفسير عقدة أوديب
- رمز العمى النفسى فى الاسطورة
- درجات الوعى
- الحيل النفسية وراحة العمى
- النمو المجهض
- الدائرة المغلقة فى حركة النمو

الحيل النفسية .. وضرورة العمى النفسى

Mental mechanismis and the necessity of unsightfulness

إن الطبيعة البشرية فى ظروف ضغوط البيئة المهددة، لاتستطيع أن تنمو نموا مضطردا سلسا دون تراجعات ودفاعات مرحلية قد تشتد إلى درجة خطيرة، ورغم أن الإنسان قادر – من حيث المبدأ – أن تمتد رؤيته ويعمق وعيه إلى داخل نفسه وفى آفاق ماحوله إلى مايقترب من كمال الرؤية التى تسمح بتمام التكامل، إلا أن هذه القدرة ماهى إلا إمكانية كامنة لاتتحقق إلا بسعى يتناوب مع وقفات طويلة، وأثناء هذه الوقفات لابد أن يحد الإنسان من رؤيته لكل من داخله وخارجه على حد سواء، ويتم هذا الحد من رؤيته عن طريق مايسمى "بالحيل الدفاعية"، والحد من الرؤية يتضمن بداهة حد فى الإحساس المطلق، وحد فى الوعى كذلك، ولكن من الضرورة إذا بولغ فيها وصل الأمر إلى "العمى النفسي" المعطل، والهجوم على هذا العمى النفسى له مايبرره من حيث هو دلالة على حاجة الإنسان إلى تزايد مستمر فى وعيه ورغبة صادقة فى امتداد مساحة وجوده من خلال ذلك،

لكن الهجوم ينبغى أن ينصب على التمادى فى هذا العمى وليس على مبدأ التحايل المرحلى، فمن حيث المبدأ فإن أى حيلة دفاعية إنما تتم على حساب حق الكيان الإنسانى فى وجود أعمق[1]، ولكن قدرا من الدفاعات وتحديد مدى الرؤية (الإحساس البصيرة... الخ) ضرورى لنمو الإنسان، كما أنه لابد أن يعتبر بمفهوم النمو الإنسانى مجرد "مرحلة" قابلة للتناقض باستمرار، وإلا فهى العمى والضلال لأنها لاتصبح مجرد هرب من موقف وضغوط فوق طاقة الفرد فى مرحلة بذاتها، بل إنها تصبح مهربا من رؤية أعماق الذات وباستمرار.

ويمكن إيضاح مسيرة النمو من منظور طبيعة الحيل النفسية وعلاقتها بمدى الترابط العصبى[2] على الوجه التالى:

١– **المرحلة الأولى: اللاحيل واللاترابط:** وتشمل المرحلة الطفلية المباشرة حيث تكون الحيل معدومة تقريبا ولكن ترابط الجهاز النفسى (والعصبى) للطفل فى أضيق نطاق كذلك، فالرؤية والوعى محدودان بضعف الترابط أصلا مما يجعل الحاجة إلى الحيل ضئيلة للغاية.

٢– **المرحلة الثانية: بدء الحيل مع بدء الترابط:** حين يواجه الطفل فى نموه مزيدا من الحاجة إلى الترابط فيما بين أجزاء نفسه من ناحية، وفيما بينه وبين العالم الخارجى من ناحية أخرى يبدأ التهديد باستقبال جرعة أكبر من المؤثرات الداخلية والخارجية وبالتالى يواجه جرعة أكبر من قدرته على

1- لعل هذا العمى النفسى هو المرادف لعمى القلوب التى فى الصدور، وللأقفال التى على القلوب، وكيف أن بعض الضالين لهم عيون لا يبصرون بها وآذان لايسمعون بها .. مما يشير إلى بعد مواز فى اللغة الدينية؟

2- لفظ الحيل النفسيةMental Mechanisms من اللغة الدينامية، ولفظ الترابط العصبى Neuronal Associations من اللغة العضوية المخية، والحديث بهما معا هو جوهر هذه الدراسة وأساسها. فالترابط هنا ليس له علاقة بالمدارس الترابطية الشائعة.

تمثلها واستيعابها، فتبدأ الحيل النفسية فى انتقاء المؤثرات المناسبة التى تتحمل النفس التجاوب لها بكفاءة، فضلا عن احتمال استيعابها وتمثلها فيما بعد.

فإذا ترجمنا ذلك إلى لغة المخ، قلنا إنه مع بداية اتساع دائرة الترابط يبدأ عمل المخ بالنموذج المسمى "فعلنة المعلومات"[3] Information Proccessing وهو الذى يبدأ بالانتقاء (فى المدخل) والاستبعاد ثم الغربلة ثم التقسيم والتصنيف ثم التخزين ثم الانتقاء (فى المخرج ثم التعبير.. وكل هذه الخطوات تشمل مايسمى نفسيا بالحيل، على أن هذا الجهاز يعمل على سرعتين مختلفتى الحدة:

(١) فهو يعمل سلسا تلقائيا مابين دائرة الوعى وماتحت الوعى فى الأحوال الهادئة العادية تماما وهذه المرحلة تقابل درجات الانتباه والتمييز بين الشكل والأرضية انتقائية الإدراك.. وغير ذلك فيما يتعلق بوظائف الأنا البعيدة عن الصراع.Conflict free area

(ب) وهو يعمل بقوة ميكانيكية مابيين دائرة الوعى واللاوعى فى الأحوال المشحونة بالانفعال العادى أيضا، وهذه هى درجة الحدة الثانية، وهذه المرحلة الثانية هى أساس الحيل النفسية.

(وفى الأحوال المرضية تشتد الحدة والسرعة، وقد تختل العملية أساسا).

٣- **المرحلة الثالثة : تزايد الحيل وتزايد الترابط:** وهى الموازية لفترات الكمون(LATEENCY) أو باللغة النبضية فترات التمدد Diastole، وعلى سبيل المثال نراها فى المرحلة التى تمتد من الخامسة إلى الثانية عشر قبل نبضة المراهقة العظمى وقد بلغت الحيل أوجها فى تصعيد مناسب، وهى تساعد بذلك تزايد الاستيعاب وتخزين المعلومات والخبرات، وتحديد اتجاهات النشاط استعدادا لاستيعاب كل هذه الخبرات فى المراحل التالية.

٤- **المرحلة الرابعة: تناقص الحيل مع تزايد الترابط:** وفيها تسقط بعض الحيل لحساب إبدالها بمقابلها الشعورى فى استيعاب يضيف إلى الوعى وينمى الذات، وهذا السقوط يتم عادة على نوبات فى فترات البسط المخيةUnfolding ، ويتم على جرعات تدريجية مع كل نبضة (اندفاعة مصحوبة بالبسط المشار إليه) وتتناسب الجرعة مع كفاءة المساحة الترابطية الواعية وقدرتها على استيعاب بديل الحيلة الشعورى، وأبسط الأمثلة لذلك هو أن يكف الانسان جزئيا فى مسيرة نموه عن الكبت، لاليخرج مجنون لاوعيه مهددا عاريا، ولكن ليستبدله بتنظيم واع لما ينبغى أن يخرج ومالا ينبغى، حسب المجال والمستوى والتوقيت والفائدة والغاية.

وتصاعد الحيل النفسية يتبع ترتيبات تتناسب مع طبيعة النمو وأطواره، وأكثر الحيل بدائية، وهى أساسية، هى حيلة الكبت بما يشمل صورتها الكلية الجسيمة وهى الإنكار، كما أن أخطر الحيل

3- هذه الترجمة لتعبير Information processing فضلتها عن "تنسيق المعلومات" وعن غيرها لقربها من ترجمة Processing من ناحية، ولأن الهدف من هذه العملية الموصوفة أساسا فى العقول الالكترونية هو أن تصبح للمثيرات (المعلومات) التى تصل إلى المخ فاعلية وجدوى، واستعمال الفعل "فعل" هنا بهذه الصيغة له هذا الغرض.

المعاصرة هى حيلة العقلنة Intellecualization حيث يحل الفهم المجرد بلا فعل والانفعال (أو حتى معنى مسئول) محل الرؤية النابضة المتكاملة.

الأمراض النفسية من منظور لغة الحيل النفسية٤

١- **الإفراط المعجز فى استعمال الحيل:** بالشكل العام المتناسق المألوف ونتاجها المزمن هو اضطرابات الشخصية (وخاصة النوع النمطى) ونتاجها الحدثى accidental هو العصاب بأنواعه، ولعل فى ذلك مايفسر ماذهبت إليه بعض الاتجاهات (مايرجروس Mayer Gross مثلا) الى اعتبار هذين الاضطرابين واحدا، والفرق بينهما فى المظاهر السلوكية فحسب، حيث يظهر العصاب فى شكل أعراض محددة فى حين يظهر اضطراب الشخصية فى شكل نمط كلى فى السلوك والسمات وليس عرضامحددا.

٢- الانهيار المفاجئ للحيل: ويظهر فى بداية الذهان بصفة عامة، لمدة تطول أم تقصر حسب تطور المسيرة الذهانية بعد ذلك وحتى يكون هذا الانهيار ذهانيا لابد أن يكون :

(١) مفاجئا.. بلا استعداد سابق

(ب) لاإراديا.. بلا ترتيب سابق

(ج) كليا.. حتى ليشمل أغلب الحيل فى أغلب مجالات السلوك

(د) معجزا.. حيث لايمكن استيعابه فى مساحة الوعى القائمة.

وهذه الشروط لازمة، لأن انهيار الحيل قد يحدث أحيانا بنفس الجرعة إلا أنه قد يكون بداية مرحلة نضج جديدة، أو إعلان حدس فنى جديد، أو خبرة وصول تصوفى جديد، وفى جميع هذه الأحوال يكون سقوط الحيل أقل مفاجأة، كما أنه استجابة لدرجة مامن الإرادة الواعية، ويكون عادة جزئيا فى مجال محدود البداية، وأخيرا فإنه يحدث مع اتساع مساحة الوعى القائمة بحيث يمكن استيعابه فى فعل مثمر (فن)، أو خبرة شخصية أعمق تدفع النمو إلى أعلى (نمو)، أو توازن ذاتى أكثر تناغما (خبرة صوفية) أما الانهيار الذهانى فهو يكاد يكون عكس ذلك كما ذكرنا، وتتبع المسيرة الذهانية بعد هذا الانهيار الفجائى فى الحيل أحد سبيلين:

(I) **الذهان النكوصى** regressive Psychosis :وفيه يستمر انهيار الحيل، ويتراجع النمو إلى مراحل سابقة حتى لاتظهر أعراض ذهانية بخلاف السلوك النكوصى الطفلى أو البدائى، وهذه الصورة موجودة فى بعض حالات الذهان الفصامى المعروفة باسم "قليلة الأعراض"Oligosymptomatic والتى أفضل أن أضيف لفظ نكوصى إليها بحيث يسمى هذا النوع "الفصام النكوصى قليل الأعراض"

4- من البديهى أنه يمكن النظر إلى أى موضوع وتقسيمه من أكثر من منظور دون البعد عن حقيقته رغم اختلاف زوايا الرؤية واللغة المستعملة.

Regressive Oligosymptomatic Schizophreniaوكذلك توجد هذه الظاهرة النكوصية فى بعض حالات الهوس النكوصى[5] Regressive Mania

(II) الإفراط النشاز فى الحيل: فإذا لم ينجح النكوص أو نجح بنسبة غير كافية، فإن الحيل تعود للظهور بجرعات متزايدة ولكن بغير تناسق، مع الإفراط فى الحيل المسماة بالذهانية مثل الاسقاط، والانكار، والاحتواء، رغم وجود مناطق وحيل منهكة ومنهارة فى نفس الوقت، مما يترتب عليه نشاز مشوه لانتظام الشخصية ولصورة العالم الواقعى فى نفس الوقت.

وبعــــد ..

لعل القارئ يدرك معى أن هذه المقدمة كانت ضرورية قبل أن نتناول بعض الحيل كأمثلة موضحة من منطلق ناقد، بالقدر الذى نشرح فيه جانبها السئ لو أنها كانت نهاية المطاف أو غاية الوجود، أما مادون ذلك، فلعله أدرك من خلال هذه المقدمة مدى أهمية هذه الحيل وطبيعتها المرحلية الضرورية وكذلك صور انهيارها بما يستتبعها.

وأخيرا فإنى أنبه إلى أن وصف الحيل النفسية من الداخل، لابد وأن يأخذ صورة مباشرة بحيث يبدو وكأنها تحدث بإرادة الفرد ووعيه، ولكنى أذكر القارئ أنى إنما أقدم مادة هذه الدراسة من واقع تقمص الجزء الداخلى للنفس البشرية لشرح ميكانيكية السلوك أو تكوين الإعراض باللغة مباشره، ولكن هذه لا يعنى حدوث الحيل إراديا ابدا، فلكى تكون الحيلة حيلة دفاعية (ميكانزما) لابد من أن تتم بعيدا عن دائرة الوعى تماما.

(١٣) التشكل والتكيف:

هناك فرق جوهرى بين التشكل Conforming والتكيف Adaptation، فالتشكل هو أن يصاغ الإنسان فى الشكل المحدد الجاهز المسموح به، أما التكيف فهو أن يتغير الإنسان ليلائم البيئة، أو أن يغير البيئة لتلائمه، ويتراوح نشاطه التكيفى بين هذا وذاك باستمرار حسب مقتضى الحال.

إذا فظاهرة التشكل هى جزء لايتجزأ من التكيف ولكن فى حدود محسوبة (ليس بالضرورة حسابات واعية) وموقوتة، ولكن أن تقتصر علاقتنا بما حولنا على التسليم له ولمقتضياته تماما، فهذا هو الخطر المهدد لمسيرة النمو.

على أن هناك علاقة ثالثة تتخطى التكيف والتشكل وهى "العلاقة الولافية" التى تصنع من تناقض الذات والموضوع (الواقع) كلا جديدا هو نتاج نمو الذات نموا يستوعب الموضوع ويتمثله، إذ لايستسلم له أو يقهره أو يحتويه فحسب، وهذه العلاقة الأخيرة ليست موضوعنا هنا ولكنا سنرجع لها فى حينها

5- أقسم حالات الهوس إكلينيكيا إلى تقسيما استقطابيا، من بعض أبعاده: الهوس النكوصى Regressive Mania والهوس الانشقاقى Contaminated Dissociative Mania

(حاشيات ٢٦٧- ٢٧٤). أما هنا فالتركيز على خطورة التمادى فى التشكل ذلك الخطر الذى يهدد المجتمعات الجامدة صاحبة الايدلوجيات الثابتة سواء كانت مذاهب "سماوية" أو يقين "أرضي".

وبألفاظ أخرى فإن التشكل المعطل هو الخطر الذى يلاحق كل من لم يستوعب جوهر الدين بمعناه التطورى، ولم يستوعب تفاصيله بمعناها الوسيلاتى، مما يترتب عنه جمود لايتناسب مع حقيقة إيجابية الأديان وطبيعتها إذ تفتح أبواب انطلاق الذات إلى ماهو عبرها وبعدها نموا، وتطورا، وأيمانا. كذلك فإنه خطر معوق لكل من تعبد فى مذهب أرضى بمعنى تطبيقه الحرفى المقدس، حتى لو كان هذا المذهب هو نفسه مذهب التطور الاجتماعى أو البشرى... أو غير ذلك من مسميات فإذا انتقلنا إلى مشكلة الفرد، وهى مرتبطة أشد الارتباط بدرجة جمود المجتمع، لوجدنا أن الفرد مطالب بقدر ما، (يتناسب مع درجة نمو المجتمع أو جموده) بالتشكل، حتى يقبله المجتمع مثله مثلهم، لأن الاختلاف يهدد الجماعة وقيمها وتماسكها، فإذا استجاب الفرد لهذه الضغوط فهو مجرد رقم إضافى من نفس النوع السائد، وهذا مالا تطيقه الطبيعة الفردية للإنسان، فيبدأ الصراع بينه وبين المجتمع، لابمعنى رغبته فى تحقيق لذته، ووقوف المجتمع ضد ذلك كما صورها فرويد فى شكل مشكلة لها جذور أخلاقية حتى وصف علم النفس الفرويدى باسم علم النفس الأخلاقى، ولكن الصراع الذى أشير إليه هنا هو صراع الكيان الفردى فى محاولة استقلاله وانفصاله، فى مقابل السحق الاجتماعى فى محاولة تشكيل الفرد واحتوائه، تلك المشكلة التى بنيت عليها بعض المفاهيم الكيانية فى "علم نفس العلاقة بالموضوع" Object Relational Psychology وأكثر من ذلك فى علم النفس الوجودى.

والشخص المتشكل يشبه ورقة الشجر ذات القدر المعلوم، والمصير العدمى، والوظيفة الغذائية الوقائية المحدودة، فى مقابل الشخص النامى الأقرب إلى الزهرة ذات القدرة التفتحية المضطردة فالإخصاب (الاستمرار والخلود).

كان لزاما أن أتشكل
أن أصبح رقما ما،
ورقة شجر صفراء
لا تصلح إلا لتساهم فى أن تلقى ظلا أغير،
فى إهمال فوق أديم الأرض
والورقة لا تتفتح مثل الزهرة،
تنمو بقدر،
لا تثمر،
فقضاها أن تذبل،

تسقط،

تتحلل،

تذروها الريح بلا ذكرى

وتشبيه الحياة بالشجرة يعنى أنها تحتاج لكل من النوعين معا، الوحدات الدفاعية التدعيمية، والوحدات النامية المثمرة الساعية إلى الخلود، ولكن الحياة تختلف عن الشجرة فى أمر هام وهو قابلية ورقها أن يصبح هو هو زهورا، بمعنى أن كل إنسان مهما بدا دوره تشكليا، وعاما محدودا، فى مرحلة ما، فإن أمامه فرصة نمو زهرى إذا استعد له فى المرحلة التالية، فتصبح الحركة بين الوجود الورقى والوجود الزهرى (إن صح التعبير) حركة متصلة، أما إذا طالت أو دامت المرحلة الورقية فإنها تصبح قرينة الموت بمعنى انطفاء النبض الحيوى، أو ماقصدته هنا بضغط الروح وإخمادها..

(كان على أن أضغط روحى حتى ينتظم الصف

***

كان على أن أخمد روحى تحت تراب "الأمر الواقع")

فبالرغم من أن درجة من التشكل ضرورية للتكيف الفردى ولمسيرة المجتمع معا، إلا أن التماثل المطلق لخدمة أهداف مرحلية (قرش، أو مبدأ محدود، أو سلطة) إذا لم يكن وسيلة للهدف التطورى الأعمق فهو الموت النفسى ذاته.

(حتى لو كانت قبلتنا هى جبل الذهب الأصفر

أن صنم اللفظ الأجوف

أو وهج الكرسى الأفخم)

الموت النفسى الذى يهيئ لامحالة إما الحياة خاوية تحت التراب (تراب الأمر الواقع) وإما للمرض النفسى وخاصة فى صورة العصاب واضطراب الشخصية مرحليا.

١٤- الهدف، والمعنى، والمرض النفسى:

من أسباب ظهور أعراض وأشكال المرض النفسى، هو انحراف الوجود الإنسانى عن غايته بما فى ذلك خواء معنى حياته، والتفكير الغائى Teleological يؤكد على ضرورة الاهتمام باتجاه مسيرة الحياة بنفس القدر، أو حتى بقدر أكبر من الاهتمام بسببية وحتمية ناتج الحياة، وفى هذه النقطة سوف نتحدث عن بعض أبعاد هذه الأساسيات اللازم فهمها فى محاولة دراسة تكوين المرض النفسى (السيكوباثولوجى) وتحددها فى ماهية هدف الحياة الانسانية، ومدى ضرورة الوعى بهذا الهدف، وحقيقة معناها (بما فى ذلك الموت)، وعلى الرغم مما يبدو لأول وهلة من أن هذا الحديث هو خارج عن نطاق المرض فى "نموذجه الطبي" وداخل فى نطاق الفلسفة والأفكار المجردة، إلا أن كل من

مارس العلاج النفسى العميق يعرف خطورة هذا المهرب تحت عنوان أنها مشاكل نظرية تجريدية غير عملية٦ ، إذ أنها مشاكل متصلة بحدوث المرض النفسى من ناحية، وبعلاجه من ناحية أخرى، فحين تفقد الحياة اتجاهها الغائى الذى هو مركز تماسكها الذاتى، يصبح الوجود خاويا والمرض النفسى مهددا أو ظاهرا.. والعكس صحيح.

ماهية الهدف من الحياة الانسانية: وقد يختلف الباحثون فى ماهية الهدف من الحياة كما سنوضح حالا، ولكنهم لاينبغى أن يختلفوا فى وجود هدف ما، لا بالمعنى الشعورى والواعى فحسب، ولكن بمعنى اتجاه المسيرة ولو حتى فى إطار دائرى لمن يخشى الأمام، وهنا تحذير مبدئى هو أن الحديث النفسى والبيولوجى عن الهدف إنما أقدمه هنا من واقع ممارستى الإكلينيكية مما استطعت أن ألمسه من تنويع الأهداف (وإن كانت تلتقى جميعا فى نقطة تداخل فيما بينها)، وكيف أن غيابها أو اختفاءها يساهم لامحالة فى إحداث المرض النفسى.

فأعرض هنا هذه الاحتمالات المتداخلة (وليست البديلة) من واقع خبرتى الإكلينيكية:

١ – **الهدف هو الوجود ذاته (الحياة):** إن تاريخ الحياة بيولوجيا يدل من خلال منظور التطور، أن الكائنات تحافظ على ذاتها، وتحافظ على نوعها، وتتطور (أى تنسلخ عن نوعها) به فى آن واحد... وبالتالى يمكن القول أن الغاية هى "الحياة" بقاء وتطورا معا (رغم التناقض الظاهر بين هذين البعدين)٧، ومظاهر ودلائل أن الغاية هى الحياة ذاتها تظهر فى كل سلوك تلقائى وبيولوجى (فسيولوجى ونفسى معا) يحافظ على الاستمرار على الحياة.. بغض النظر حتى عن نوعية هذا الاستمرار، فهى غاية أساسية وبدائية ولاتقع بالضرورة فى دائرة الوعى كما ذكرنا إجمالا.

٢ – **الهدف هو اللذة** :Pleasure :ويختلف معنى اللذة باختلاف موقف المدرسة المعنية بالحديث عنها، وقد كان فرويد من أهم من أكد "مبدأ اللذة" فى مقابل مبدأ الواقع، واللذة كهدف لاجدال فيها، إلا أن الاختلاف يبدأ بالحديث عما إذا كانت هدفا مرحليا أم هدفا نهائيا أم مطلقا، وقد اهتم بعض التحليليين بهذا البعد، ولكن بالمعنى الأخلاقى فى النهاية رغم ظهور بعض المحدثين (مثل ماركيوز) الذى أعطى هذا الهدف قيمة مضاعفة٨ . ومهما يكن من أمر فاللذة كهدف (أو كمرحلة) تتضمن:

(١) البهجة الحسية، Sensual (٢) كما تعنى تجنب الألم (٣) وكذلك فإنها تشير إلى استقرار الوضع (٤) وأخيرا فإنها تتضمن درجة واضحة من القبول والرضا.

6- راجع مناقشة هذه الفكرة بالتفصيل من كتابى مقدمة فى العلاج الجمعى من ص ١٤٩ إلى ص ١٨٦

7- ارجع أيضا نفس المرجع من ص ٢٠٢

8- لعل أول من أكد هذا الهدف بهذه الأبعاد هم الأبيقوريون

وإذا كانت هذه هى المواصفات التى تصف اللذة كهدف، فلا يمكن بالتالى قبولها كهدف نهائى، وإنما يمكن القول بأنها هدف مرحلى، تستقر فيه الأوضاع، وتتأكد المكاسب، تمهيدا لحركة أكثر حدة وأشد دينامية.

٣- **الهدف هو التوازن المتصاعد:** إذا كان قد أمكن تعريف اللذة والدوافع اللذية بأنها مايحرص الكائن الحى من خلاله وبسببه على استمرار واستقرار الوضع الراهن، وكانت الحياة فى مسيرتها هى عملية معقدة مستمرة متوازنة بالضرورة، فإن القول بأن التوازن Harmony هو الهدف الأعمق لابد وأن يكون له مايبرره ويؤيده، ولابد أن بين الحركة التى يتضمنها هذا التوازن، وبين الجمود الذى يصف نقيضه وهو مايسمى بالحلوسطCompromise فنحن نستطيع أن نتكلم عن هارمونية (توازن) فرقة موسيقية تعزف، ولكننا لانستطيع أن ندعى نفس التوازن بين مقاعد العازفين القابعة فى صمت بعد انصراف الجميع، فالتوازن الذى أعنيه يشمل الحركة الدائبة المنشقة، ولكنه ليس كافيا ليكون هو هو هدف الوجود، لأن السكون لاينقلب إلى حركة لمجرد أن يحافظ على توازن مستعرض متساو القوى على الجانبين (أو على جميع الجوانب) كما أن للتوازن مستويات وأعماق تتزايد باستمرار باتساع الدائرة التى يقاس فيها، ويقاس بها، ولكى يكون هدفا لابد أن يشمل البعد العرضى والطولى معا، كما لابد أن يشمل استيعاب النشاز أولا بأول.

٤- **الهدف هو المعنى:** وهو يتصل اتصالا مباشرا بما هو توازن (هارمونى) وهو ذو صفة خاصة بالوجود الانسانى، فلاشك أن الكائنات الحية كلها تحصل على التوازن الفسيولوجى الأساسى وهو مايسمى بالهوميوستازيسHomeostasis ، إلا أن الانسان إذ تطور مخه تطورا رائعا وخطيرا بظهور التواصل الرمزى (اللغة)، فأدخل التوازن كمرحلة تواصلية أخرى مع زملاء نوعه، كان لابد له من التركيز فيها على ماتعنيه هذه الرموز اللفظية (الكلام) من معنى، حتى ذهبت بعض مدارس العلاج النفسى إلى القول بأن "المعني" هو هدف الوجود البشرى وسميت المدرسة باسم العلاج اللوجوسى[9] (إحياء المعنى) (ومؤسسها هو فرانكل)...

ولابد من وقفة هنا لتحديد بعض مأقصد بالمعنى كهدف للحياة البشرية:

١- المعنى هو مايتفق عليه بين أكثر من واحد لتأدية وظيفة توازنية تواصلية بينهم، وهو يحمل عادة على رمز لفظى يسمى الكلمة، ولكن له معابر أخرى حركية وغير لفظية.

٢- المعنى هو تطابق الإدراك مع الموضوع.

٣- المعنى هو تناسب الكلمة مع السلوك المرتبط بها تناسبا مطابقا لايزيد عنها ولاتزيد عنه.

Logotherapy -9
اشارة إلى كلمة اللوجوس التى تعنى المعنى كما تعنى معان أخرى كثيرة وجوهرية فى نفس الوقت مثل القانون أو الله . . . الخ (هيراقليطس) وكذلك الآية التى تشير إلى أنه "فى البدء كان الكلمة . . . وكان الكلمة الله" قد تعنى هذا العمق الذى تحمله كلمة اللوجوس.

٤- المعنى هو تناسب الفعل مع الوعى مع الصياغة المرتبطة بهما.

وهكذا نجد أن مقولة المعنى كما شرحناها تتخطى الشائع عن هذا اللفظ بأن يقتصر على تعريف اللفظ بعدة ألفاظ معجمية أخرى، فالمعنى من هذا المنطلق هنا يشمل التوازن والتواصل والموضوعية معا.

وهنا لابد أن يتطرق الحديث إلى علاقة المعنى بالفكرة وبالتفكير، حيث أفضنا فى علاقته بالكلمة ووظيفتها التعبيرية expressive والتواصلية communicative ، فإذا تذكرنا- مثلا- أن تناثر تفكير الفصامى، هو نتيجة لفقد الفكرة المركزية (المسماة فى نفس الوقت الفكرة الغائية- أو الفكرة الهدف)[10] لأدركنا أهمية الهدف فى ترابط الشخصية من ناحية، وفى ارتباطه بالفكرة المعنى من ناحية أخرى.

فالمعنى على مستوى التفكير هو هدف الفكرة، والكلمة هى حاملة المعنى، ولهذا كان تحديد أن هدف الحياة هو المعنى يعنى ضمنا أن وسيلة تحقيق الهدف (على هذا المستوى فحسب) هو إرساء دعائم الفكرة الأساسية (المركزية) ومايرتبط بها من أفكار، فإذا كان التفكير يقوم- بالاضافة إلى مايعرف عنه من حل للمشاكل أو إبداع علاقات جديدة- بوظيفة ترابطية تناغمية تحفظ عمل المخ فى اتساق مستوياتى فاعل، كان لنا أن نربط بين الوسيلة (الفكرة المركزية بوظيفتها الترابطية) وبين أكثر من هدف (المعني- والتوازن... الخ) ومن هذا المنطلق لابد أن نؤكد على معنى "الفكرة الهدف"[11]ودورها الترابطى:

١- لكل عملية تفكير (سواء ظهرت فى تعبير مباشر أو لم تظهر) هدف قريب أو بعيد.

٢- إن هدف الفكرة (حتى فى أبسط صورها مثل قول "صباح الخير" لآخر) هو الذى يحدد انبعاثها وانتهائها (فى هذا المثل: التواصل والمجاملة واتباع العادة معا).

٣- فى الأحوال العادية، وفى أى لحظة من اللحظات تشحن الفكرة المركزية بالشحنة الرئيسية (من الطاقة التى هى أصلا الانفعال) بحيث تلتف حولها وتنتمى إليها وتسير فى فلكها أى فكرة فرعية، وبالتالى يزداد الترابط والتناغم ويتفق الأداء معا.

٤- تبتعد الأفكار غير المتلائمة مع الفكرة المركزية فى لحظة ماعن مركز التسلسل (أى تظل فى الأرضية بأقل درجة من الشحن، بلغة الجشتالت والطاقة معا).

٥- بمجرد تحقيق الهدف يمكن أن تتضاءل شحنة الفكرة المركزية، لتنتقل الشحنة إلى فكرة أخرى تصبح مركزية بدورها- بنفس نظام التبادل الجشتالتى بين الشكل والأرضية- وهكذا.

٦- أيا كانت الفكرة المركزية المحتلة لدائرة الشعور فى وقت ما قادرة على تنسيق بقية النشاط الفكرى والترابطى، فإنها بدورها مرتبطة بفكرة أعمق (لاتحتل الشعور بالضرورة) ويمكن أن تسمى

10-Gentral Idea. Teleogoical Idea, Goal Idea

11- سأستعمل تعبيرى "الفكرة المركزية" و"الفكرة الهدف" لأشير إلى نفس الشئ ولكن السياق هو الذى سيحدد أى الاستعمالين أقرب.

الفكرة المركزية الأصل، التى ترتبط بدورها بفكرة أعمق وأشمل.. وهكذا فى تصاعد متناسب حتى نصل فى عمق تحليل وظيفة التفكير إلى الهدف الغائى من الحياة فى أصلها البيولوجى ذاته.

ويتم هذا التسلسل بين الأفكار المركزية المتصاعدة فى نظام متلاحق تلقائى، وهو نظام لايسمح عادة بالظهور فى دائرة الشعور إلا للفكرة اللحظية المرتبطة بهدف واضح قريب فى العادة.

ثم نذكر هنا أنواع الأفكار الأخرى كى تتضح طبيعة الفكرة المركزية (الغائية) التى نتحدث عنها، فالفكرة المركزية إذا هى محورية، جاذبة، غائية، ترتبط وتنفصل عن الأنواع الأخرى من الأفكار التى يمكن تصنيفها – من حصيلة الممارسة الاكلينيكية– على الوجه التالى:

١– الفكرة التابعة Following Idea وهى الفكرة الاحقة والمنجذبة إلى الفكرة المركزية والمسهمة فى تحقيق هدفها فى تناسق تلقائى.

٢– الفكرة المتنحية الكامنة Potential Recessive Idea وهى الفكرة البديلة القائمة فى الأرضية مرحليا والمستعدة للشحن بمجرد وصول الفكرة المركزية إلى هدفها أو عجزها عن ذلك تماما.

٣– الفكرة المعارضة: Oppossing Idea وهى متنحية أيضا ولكنها عادة مبعدة وفعالة فى نفس الوقت، وهى أقرب ماتكون إلى نقيض الفكرة المركزية الأولى المحتلة للشعور ووظيفتها تثبيت الفكرة الأولى بالتهديد باحتمال العكس، وهى فى نفس الوقت فكرة بديلة جاهزة للعمل مثل الفكرة المتنحية ولكن فى ظروف أكثر تعقيدا لامجال لتفصيلها هنا.

٤– الفكرة الطفلية: Parasitic Ide وهى التى تحتل الشعور أو ماقبله مباشرة أيضا فى نفس الوقت مع الفكرة المركزية، ولكنها لاترتبط بها ولاتسير فى فلكها بل تشوشها، وتكون مسئولة عن الربكة والغموض وعدم التركيز عادة.

٥– الفكرة اللامركزية) Acentral Idea (non goal- idea)اللاغائية) وهى تتصف بأنها معارضة وطفلية معا وهى بلا هدف ترابطى ظاهرى، وتظهر بحدة فى حالة العصاب الوسواسى الإجترارى خاصة وهى تحتل الشعور بنفس قوة الفكرة الأصلية تقريبا.

وهكذا يقوم التفكير السليم فى مشتمل وظيفته– ليس فقط بحل المشاكل أو إبداع العلاقات– ولكن بالترابط بين جزئيات المخ، وفيما بين مستوياته، ترابطا متصاعدا يصل بنا فى النهاية إلى تحديد الهدف من الحياة من هذا المنطلق...

بالقول أن الهدف هو "المعنى" ... بالعمق الذى فسرنا به هذا القول..، وهذه الوظيفة لها مفعولها الفسيولوجى المباشر فى تنسيق المخ وكفاءة وظائفه عامة.

كما أنها تذكرنا بوظيفة أخرى للتفكير فى بعده التواصلى Communicative وهى تخطى المخ البشرى لفكرة المثير والاستجابة (إلا فى المستويات الأولى من الوظائف) إلى فكرة "الرسالة والعائد"،

فالتفكير بارتباط بالهدف وتحقيقه للمعنى إنما ينطلق تعبيريا بأن يرسل "رسالة" Message إلى آخر (أو آخرين) وتتدعم وظيفته الترابطية بالعائد feed bake من البيئة عامة، ومن الآخر الانسانى بوجه خاص، وهذه اللغة (الرسالة والعائد) هى أنسب من اللغة الفسيولوجية الأولية (المثير والاستجابة) لأنها تحمل قيمة "المعنى" فى الحياة الانسانية..

وأخيرا فإنى أنبه إلى مايمكن أن يسمى العائد الذاتى Auto- Feedback حيث يتأكد الترابط على نفس النسق بأن تحقق الفكرة هدفها بمجرد اجترارها أو التلفظ بها، حتى أن الكلمة فى ذاتها (حتى رنينها بعد التلفظ بها) تقوم بهذا الوظيفة– التثبتية سلبا وإيجابا– فتؤكد ماوراءها من فكرة مركزية أو غير ذلك١٢

ومن هنا ندرك أنه إذا كان "المعني" هو غاية الحياة البشرية، فإن ذلك مرتبط أشد الارتباط بالتفكير والترابط والتوازن معا، ولكن – كما أشرنا – نقول إن كل هذا يقع فى مستويات يعلو بعضها بعضا، فإذا قبلنا بعدهم المستعرض المتداخل، فلابد من تعميق بعدهم الطولى فى نفس الوقت وهو ماسيجئ فى آخر افتراض بشأن هدف الحياة.

٥– **الهدف هو "تصعيد التوازن"** Crsecendo Harmony: وهذا المنظور يؤكد مرة ثانية أن الوجود البشرى هو حلقة متوسطة من الوجود الشامل البادئ من الذروة وماقبلها مما لانعلم، والممتد إلى الكون الأعظم ومابعده مما لانستطيع أن نعلم، ونكتفى من موقفنا العاجزهذا بالقول مع أريتى Arietiوغيره– بأن توازن الذرة وقوانينها هو الكون الأصغرMicrocosmos ، وأن توازن الانسان وقوانينه الموازية هو الكون الأوسط Mesocosmos ثم إن توازن الكون الأكبر Macrocosmos وقوانينه هو المحيط الأشمل للوجود، وهناك فرض بأنه يوجد وجه شبه أساسى بين قوانين الأكوان المتصاعدة، كما يوجد بداهة اختلاف نوعى يتصل بالتفاصيل فيما بينها.

ولما كان اهتمامنا فى هذه الفقرة بالانسان وغايته فاننا نشير إلى فرض اتصال هذه الأكوان المتصاعدة فيما بينها بمحور مركزى يسمح تاريخيا بالانتقال من اللاحياة إلى الحياة، وبالقياس الامتدادى يسمح بالتصعيد الخلاق باستمرار إلى مابعدها مما لانعرف مما يمكن أن يسمى مجازا (أو تقريبيا) "بالخلود"، وعلى هذا فإن تحديد الهدف من الوجود البشرى بأنه هو هذا التصعيد التوازنى المستمر يجعلنا نقترب من الفكر الارتقائى فى علم النفس من ناحية، كما يجعلنا نحسن فهم الفكر الدينى والإيمانى ومعنى السعى إلى وجه الله تعالى من ناحية أخرى١٣

وبعد:

12- هذا العائد الذاتى - فى شكله - السلبى - مسئول بدرجة جزئية عن استمرار كثير من الأعراض وخاصة فى مرض الوسواس نتيجة لكثرة تكرار الشكوى والحديث عنها وقد ينجح العلاج جزئيا بمنع الشكوى لفترة تطول أو تقصر . وهو عكس الشائع من أن الحديث عن الشكوى يريح المريض دائما.

13- (. . يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا . . فملاقيه).

فإن كل ماسبق ليس إلا عرضا موجزا للفروض المتعلقة بالهدف من الحياة الإنسانية من موقع إكلينيكى، ويمكن أن نعيد النظر فيها جميعا لنجد أنها مرتبطة بعضها ببعض ومتصاعدة بشكل يدنو من الترتيب الذى عرضت به، حتى ليعاد ترتيبها فى هذه المستويات على الوجه التالى:

١- الحفاظ على الحياة (مجرد الاستمرار وحفظ الذات)

٢- اللذة (كمرحلة استقرار وتعميق)

٣- التوازن (كمرحلة أكثر دينامية من اللذة وأقل حركة من قفزة التطور).

٤- المعنى بما يشمل الترابط والتواصل والرسائل والعائد.

٥- التصعيد التوازنى: (بما يشمل البعد الإرتقائى، والبعد الايمانى).

أما الاستفادة من هذا كله فى علمنا هذا (السيكوباثولوجى) فتتعلق بثلاثة أبعاد وهم :

١- مايترتب على إعاقة الوصول إلى الهدف من أول مرحلة التهديد (مرحليا أو مطلقا)

٢- مايترتب على التوقف عند هدف أدنى نهائيا ضد استمرار حركة الحياة

٣- مايترتب على الوعى العاجز بهدف أبعد لايتناسب مع اللحظة أو المرحلة.

وينشأ المرض النفسى من بعض هذه المضاعفات أو منها جميعا:

١- **الاحباط والتهديد بالاحباط:** وعلى مستوى دراسة السيكوباثولوجى لابد أن نفرق بين الاحباط والتأجيل والتنظيم، إذ لايمكن تحقيق كل الأهداف المتصاعدة فى نفس الوقت، وإنما ينشأ المرض النفسى من عدم تناسب توقيت وترتيب الوصول إلى هدف ما فى مرحلة ما، مع خطوات السعى إليه الناتجة عن حدود قدرة الفرد وفرصة المجال معا، وكمثال للنتاج المرضى للتهديد بالاحباط تظهر بعض مظاهر القلق الذى يتصنف حسب مرتبة الهدف، فالقلق العصابي- مثلا- ينشأ من تهديد إحباط هدف اللذة، أو التوازن والقلق الوجودي- مثلا- ينشأ من تهديد إحباط هدف المعنى، أو التوازن التصاعدى وهكذا.

٢- التوقف عند هدف أدنى ضد حركة الحياة:

ويعنى هذا أن يصبح الممارس لذلك عرضة- كمثال - لكثير من أنواع اضطرابات الشخصية، وأشهر الأمثلة مايعرف بالشخصية السيكوباتية.

٣- الوعى العاجز بهدف أبعد لايتناسب مع المرحلة (أو القدرة الحالية)

الأهداف التى ذكرناها تصاعديا لاتقع بالضرورة فى دائرة الوعى، بل لعل العكس هو الصحيح، إذ أن أغلب هذه الأهداف ماهى إلا تنظيمات متصاعدة (متناوبة أيضا) فى عمق التركيب الحيوى البيولوجى للكائن الحى بصفة عامة، فإذا وصل أحد هذه الأهداف أو أكثر إلى مرتبة الوعى دون قدرة على

السعى إليه، خلق مشاكل من بينها المرض النفسى وعموما فإن الوعى يصبح معجزا فى الأحوال التالية:

١- حين يحل الوعى بالهدف محل السعى اليومى والآتى لتحقيقه.

٢- حين يكون الوعى بالهدف الأعلى تحقيرا وتصغيرا للهدف الأدنى الألزم للمرحلة الراهنة.

٣- حين يحتد الوعى باستنفاد الهدف الأدنى لأغراضه مع العجز عن تخطيه. وينشأ عن هذه الاضطرابات تصنيفات مختلفة من المرض النفسى مثل بعض الاضطرابات النفسية مثل ماأسميته اكتئاب المواجهةConfronation Depression

وظيفة الأهداف الاغترابية: ذكرت فى حديثى عن الاغتراب أنه قد يشير إلى "انفصال أى جزء من الوجود عن جوهر الوجود..... ويشمل ذلك اغتراب فعل الانسان عن غايته الجوهرية، أو اغتراب عائد عمله عن تأكيد إنسانيته... وهكذا" وقلت أن هذا الاستعمال لهذا اللفظ يغلب فى المجال الأدبى والفلسفى، ولابد أن أعيد إيضاح علاقة قصور الهدف بالاغتراب بالصحة النفسية فأقول:

١- إن عائد Feedback تحقيق الهدف الأدنى هو الانطلاق إلى الهدف الأعلى، ولاينبغى أن نطلق لفظ الاغتراب إلا عند الاستمرار فى تكرار الدوران المحلى "الاعادة" فى تحقيق الهدف الأدنى.

٢- إنه حتى الأهداف الاغترابية المعطلة لنمو الفرد، قد تكون لها وظيفة إيجابية فى الدوائر الأوسع التى تشمل المجموع (المجتمع مثلا) فمسيرة الحياة ذاتها، ولعل أوضح مثال لذلك هو النتاج الفنى الذى يعلن عجز مبدعه عن تحقيق محتواه حالا، وقد يعوق نمو المبدع نفسه إذا استبدل بمسيرته الذاتية ما ينتج من فن، لكن للفن فى المجتمع- حتى لو كان صادرا من إنسان عاجز عن اكتمال نموه- وظيفة ارتقائية موقظة حافزة للمجموع.

(١٥) تشويه الفطرة:

فى هذا الجزء من هذا الفصل أشرح بعض أساليب انحرافات النمو الانسانى بالافراط فى الحيل، أو اغتراب الوسائل، أو إجهاض المسيرة التصاعدية ولابد من تحديد معنى الفطرة إبتداء (من الناحية النسبية) حيث سوف أكرر الإشارة إليها، وخاصة بعد أن كان ذلك مجال مناقشات طويلة مع بعض الزملاء والطلبة، وقد خيل إلى البعض أنى أعنى الجزء الفج من الطبيعة (بصفة عامة والطبيعة البشرية بصفة خاصة)، وخيل لآخرين أنى أعنى الطفل التلقائى المنطلق بلا حدود[١٤]... وكل هذا لايمثل إلا جزءا مما أعنيه لاأكثر.

14- شاع تمجيد هذه المعانى عبر التاريخ وخاصة فى مجال الفن والأدب (راجع حماس جان جاك روسو مثلا).

فإنما أعنى بالفطرة على وجه التحديد أنها "الطبيعة البشرية السائرة فى اتجاه التصعيد التوازنى المتصل، مارة بمراحل الانشقاق والتعدد والتآلف ثانية ومتجهة أبدا إلى التآلف مع الطبيعة الكونية (البعد بشرية)".

وبالتالى فإن استعمالى للفظ الفطرة لايعنى الطبيعة الخام بقدر مايعنى الطبيعة المولدة المتولدة[١٥]

وبالتالى فإن تشويه الفطرة– من هذا المنطلق– يعنى الحيلولة دون هذا الانشقاق التوليدى والتصعيدى التوازنى، وإنما تأتى هذه الحيلولة حين تفرط وسائل التربية وقيود المجتمع الجاهزة فى صياغة البشر فى قالب جامد (راجع أيضا حاشية ١٢) سرعان مايتصدع أو يتعرج نتيجة للنمو الداخلى المضغوط، ونتاج هذا كله هو المرض النفسى بصوره المختلفة.

(١٦) معنى اللعب.. ودوره فى النمو النفسى:

اللعب هو النشاط الحر الذى يمارس لذاته دون القصد المباشر لناتجه.

واللعب من وسائل التربية والعلاج الهامة والخطيرة، ولكنى أميز هنا بين (١) اللعب الإبداعى بمعناه الحر حقا وصدقا، وبين (٢) اللعب الموجه بوظيفته الإعدادية لمهام "العمل" المستقبلية وبين (٣) اللعب المعطل الذى يساهم فى فرض قيم وأفكار اجتماعية ليست بالضرورة مسهمة فى مسار النمو البشرى.

ومن هذا النوع الأخير مايهيئ للمرض النفسى، وقد أشرت هنا إلى ثلاثة أمثلة:

أولا: ألعاب الشطارة: لابمعنى تنمية القوة والحذق واحترام التفوق، ولكن بمعنى تنمية الخداع والوصولية والسحق فى التنافس.. والاحتكار.

ثانيا: ألعاب الحظ والصدفة البحتة: كما أن هناك من الألعاب ما ينمى بشكل مفرط قيمة الحظ والصدفة (السلم والثعبان مثلا) ولاشك أن للحظ والصدفة دورا هائلا فى حياتنا (بل ربما فى نشأة الحياة ذاتها حسب قول البعض)، إلا أن المبالغة فى تأكيد الاستسلام لهما والخضوع أمام ضرباتهما، يزيد المسافة المظلمة فى وجود الطفل وإدراكه لقدراته، ويقلل من حجم وإمكانية الفتى المتكامل[١٦] القادر على تنمية الحسابات الواقعية باستمرار.

لهذا كان من الضرورى تمييز هذا النوع من اللعب عن الباقى، وذلك لضبط جرعة ألعاب الحظ، وكذلك تفسيرات الصدفة بحيث لايسلب الأطفال من ميزة عقولهم البشرية القادرة على حسابات المستقبل– بدرجة ما– والمرتبطة بمعلومات البيئة والملتزمة بمعطيات الواقع، وبسرعة إيقاع النمو.

وثالثا: ألعاب التنافس: التى قد تنمى قيمة التنافس بشكل مبالغ فيه بحى تنمو معها الأنانية المعجزة بما يتضمن من إلغاء الآخرين، ومن أوضح أمثلة هذه الألعاب مايسمى الآن بلعبة "بنك السعادة" وهى تجمع

15- يستحسن تذكر كلمة أن الفطرة - لغويا - لها أكثر من معنى، هم فى مجموعهم يشملون معانى **الابداع**، **والانشقاق المولد**، **والجبلة النقية**، جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى "فاطر السماوات **مبتدعها** . . . وكل مولود على الفطرة. على **الجبلة** القابلة لدين الحق" كما جاء فى الوسيط "فطر النبات **شق** الأرض ونبت منها، وفطر الأمر اخترعه".

Integrated Adult (Eric Bern) -16

بين خطورة المبالغة فى قيمة الحظ والصدفة، وبين تنمية التنافس الساحق، وقد كان اسم هذه اللعبة قديما (إذ كنا أطفالا) لعبة الإحتكار Monopoly وهو إسم أصرح وأكثر دلالة، وفى هذه اللعبة – مثلا– يتعلم الأولاد ضمنا أن السعادة هى منع الشئ عن الغير (الاحتكار) فضلا عن معنى التنافس الساحق كما سيرد حالا.

(١٧) التنافس والمرض النفسى:

لاشك أن التنافس من مقومات الحياة الطبيعية، وسواء كان نزعة مكتسبة، أم كان طبيعة جبلية (ترتبط بقانون البقاء للأقوى أو للأصلح)[17] فهو حقيقة سلوكية.. وقبل ذلك هو حقيقة تاريخية، وهذا المبدأ التطورى مبنى على تنافس الكائنات الحية للاستيلاء على مصادر الغذاء ومقومات الحياة المحدودة من الطبيعة، فإنكار التنافس من حيث المبدأ إنكار للتاريخ وإنكار للطبيعة، ولكن التسليم للتنافس وترك العنان له حتى ليصبح هو كل شئ فى حياتنا لابد وأن يعتبر تشويها لهذا التاريخ... وإساءة استعمال مانفترضه قوانين ثابتة للطبيعة، فالانسان حين اكتسب فضيلة (ومسئولية) الوعى (أى حين حمل أمانة الوعى) أصبح ملتزما ليستمر فى الحفاظ على حياته ونوعيته بأن يعيد النظر فى معنى التنافس ومداه ومخاطره، بالقدر الذى يسمح له وعيه الترابطى ببعد النظر وشمول الرؤية، وهكذا، ومن خلال هذه الصفة البشرية الممتازة، نجد أن على التنافس أن يتحور ليشمل بعدآ أشمل وأنفع إذا كان له أن يساير ماجد على الوعى البشرى من تطور.

وبالنسبة لموضوعنا الحالى نجد أن اللاأمن[18] Insecurity الذى يعتبر أساس المجتمعات التنافسية يصل إلى درجة خطيرة تجعل تربية الأطفال مجرد معركة تنافسية معطلة لأى نمو إنسانى حقيقى[19]، فبالرغم مما يتصف به الطفل من أنانية وميل إلى التحوصل إلا أنه فى نفس الوقت يتمتع بطبيعة وجود تتصف "بالشيوع والعمومية" ولو أنهما من النوع البدائى، والتوفيق بين هذين النقيضين (على خط طولى تناوبى) ضرورة أساسية فى النمو الولافى بعكس ترجيح أحدها دون الآخر.

وتأكيد تأثير هذه الأخطاء له وظيفة إيضاحية فى طبيعة تكوين المرض النفسى واضطراب الشخصية نتيجة للنمو غير المتوازن.

17- هناك شك فى صلاحية استمرار هذا القانون كما هو، بعد تطور الحياة الانسانية إلى هذا المستوى الجماعى والاجتماعى، والدراسات والافتراضات الآن تقترب من تأكيد مبدأ **البقاء للأنفع** أكثر وأكثر.

18- فضلت استعمال هذا اللفظ "لا أمن" لترجمة لفظ Insecurity لأنه ليس مرادنا لكلمة الخوف، رغم ما يوحى به، حيث أنه يشير مباشرة إلى الانتقار إلى صفة بذاتها يعتبر نموها من طبيعة مسيرة النمو، اما الخوف فيشير عادة إلى ظهور (إضافة) انفعال استجابة عند ظهور خطر من الداخل أو من الخارج

19- إلغاء ترتيب الأطفال فى المدارس الابتدائية كان خطوة نحو التقليل من حدة التنافس فى هذه السن ولكن هذا الهدف لم يتحقق، إذ يبدو أن الحلول الجزئية لاتفيد.

وعلى ذلك- بالنسبة لهذه الظاهرة المهيئة للمرض النفسى يمكن القول "إن أسباب الأمراض النفسية (وتكوين الأعراض) لاينبغى إرجاعها ببساطة إلى اضطراب أو كف غريزة بذاتها (العدوان أو الجنس ... مثلا) أو إلى الافتقار إلى غاية بذاتها (تحقيق الذات أو الافتقار إلى الفكرة المركزية الغائية... الخ) بل ينبغي اعتبار تأثير المجتمع على كل ذلك وخاصة ماينطبع على الفرد من قيم – انطباعا يعوق انطلاقة النمو أو يخل بجوانب التوازن أو يشوه تركيب الشخصية"[٢٠]

إذا، فيمكن القول أن ما يترتب على الإفراط فى تنمية التنافس إلى هذه الدرجة هو أحد أمرين: أن ينجح التنافس فينفرد صاحبه على قمة معزولة، بلا آخرين ولااستيعاب لنجاحه مما يعرضه إلى الشقاء الانسانى الأعمق ويهيئه للإنهيار فى صورة مرضية تحت أى ضغط أو ضعف لاحق.

أو أن يفشل فيستهدف للسحق والشعور بالمهانة والعجز، بما يضيف إلى اللاأمان ويهيئ لاضطراب الشخصية أو المرض النفسى حسب عديد من العوامل الأخرى.

ولعل الحديث عن تنمية التنافس على حساب جانب التواصل والمشاركة ومايترتب عليهما من عدم تناسب فى جوانب النمو أن يحدد من زاوية جديدة[٢١] ما أعنى إيضاحه مكررا من أن الاضطراب النفسى ماهو إلا عدم تناسب مرحلى (مرض نفسى) أو دائم (اضطراب شخصية) بين جوانب النمو المختلفة فى الشخصية.

(١٨) مخاطر الوعى المفاجئ : اللجوء الى الافراط فى الحيل:

إن تقديم "العصاب" باعتباره نتاجا متراكما لبعض المواقف الطفولية، أو التثبيتات الأولية دون بحث مجهرى عن طبيعة ماألجأ المريض إلى الافراط فى الدفاع حتى الإخلال يمثل بعض مآخذ فى فهم تكوين المرض النفسى، وهنا أقول:

إن العصاب، مهما كانت جذوره، واحتمالات التهيئة له ليس إلا دفاعا مفرطا ضد وعى مفاجئ، كاد يظهر بجرعة زائدة، فى وقت غير مناسب (أى فى مرحلة لايستطيع فيها الفرد أن يستوعب هذا الوعى فى نبضة تكاملية):

(لكن ويحك من نور شعاع يتسحب تحت الجلد.. من مرآة تورى مابعد الحد .. من نفخ الصور إذا جد الجد)

20- لعل ما يسمى أزمة الثانوية العامة فى مرحلة تطورنا هنا، التى يظهر من خلالها كثير من الأمراض النفسية وخاصة الفصام، تشير إلى طبيعة التنافس الساحق سواء فى التهيئة للمرض النفسى أو فى ترسيبه، وذلك لشدة ارتباطها بالفرص المحدود للتنافس الاقتصادى والاجتماعى الذان تحددها نتيجة امتحان هذه الشهادة.

21- أول ما خطرت لى فكرة عدم التناسب كأساس لتكوين المرض النفسى كانت بشأن عدم التناسب بين القدرات الابداعية والقدرات البصيرية والقدرات الدفاعية مع بعضها البعض أثناء أزمات التطور فيما وصفته فى مستويات الصحة النفسية (كتاب حيرة طبيب نفسى ١٩٧٢ دار الغد) وإن كانت فكرة عدم التناسب مازالت قائمة إلا أنها تطورت وشملت عديدا من الأبعاد الأخرى، بين وظيفة الوجدان ووظيفة الفكر، أو بين أحد ذوات الشخصية وأخرى (الطفل والوالد) أو بين الوعى والقدرة أو بين نصف المخ الطاغى والمتنحى .... الخ

فهذا الدفاع هو لمواجهة هذا الوعى سواء وصل إلى الشعور فعلا، أم مر عابرا فى حلم نابع من منطقة محظورة قبلا، أم اقتراب من الشعور دون أن يظهر كاملا.

إذا فلا يكفى فى فهم العصاب أن نقول "لماذا" و"كيف" ولكن ينبغى أن نبحث عن "لماذا الآن" "وكيف حدث الآن" ولايكفى هنا الحديث باللغة الوصفية عن الأسباب المهيئة والأسباب المرسبة، ولكن ينبغى ربط ظهور الوعى المفاجئ بطبيعة النمو إذ يمر المخ بطور تمددى بسطى Systolic Unfolding على فترات دورية، وهذا الطور يعرض التوازن القائم (الطولى الانبساطى التمددى)٢٢ للخلل المرحلى، مما يهدد بظهور وعى مفاجئ لما هو أعمق ويتوقف ذلك على عدة قواعد:

١- على قدر مرونة النمو التى تسمح بهذا النبض المتصاعد، يكون مايحتمل الفرد من هذه الرؤية ويستطيع أن يستوعبها.

٢- على قدر تكلس الطور الطور التمددى السابق (ليس تكلسا مطلقا، وإلا حال دون ظهور النبضة الباسطة أصلا) يكون التهديد المصاحب للوعى المفاجئ.

٣- على قدر طول حدة التمدد السابق تكون خطورة البسط اللاحق.

٤- وأخيرا على قدر عنف الاندفاعة Systole يكون أيضا احتمال الاختلال.

وفى مواجهة هذا الوعى المفاجئ يتراجع المريض باللجوء إلى الإفراط فى الحيل بما يترتب على ذلك من عمى، ومن ثم من مظاهر عصابية.

(أخرجت يدى سوداء بليل حالك.. يا سوء عماى.... تتحرك كثبان الظلمة... تسحق نبض الفكرة)

(١٩) اضطرابات النوم ، والأحلام، وارهاصات الجنون:

أول مايهدد بالرؤية (ليس بالضرورة على المستوى الشعورى) هو رؤية طبيعة ماكان دفاعا ناجحا قبل ذلك .. وإعادة النظر فيه باعتباره جمود أو موت أو عمى، أى أن عمق البصيرة فى مقومات التوازن السابقة إذ لم تعد تفي- حقيقة نتيجة للرفض- باحتياجات المرحلة الجديدة (الحالية أو المقبلة) هذا العمق يعتبر خطرا يحتاج لاستعداد خاص واستيعاب خاص، فإذا لم يتوفر هذا أو ذاك استموت الدفاعات وزادت، ولاتعود الوظيفة الدفاعية التوازنية هى المبرر لهذا الاستمرار، وإنما يصبح استمرار مثل هذا التوازن المرحلى المنهك نابع من الخوف من أى جديد وبالتالى ينتج عنه إعاقة للنمو لامحالة، وسحق لأى نبضة جديدة وخاصة "نبض الفكرة" وفرق بين التفكير بالمعنى المسطح (حل المشاكل) وبين التفكير النابض، ويشير النص هنا إلى التأليف بين بعض المدارس النفسية فى تلقائية غير مقصودة مسبقا، فذكر الطفل هنا مستمد من مدرسة إريك بيرن، ولكنه ليس ملتزما بلغة هذه المدرسة،

22- راجع كتاب مقدمة فى العلاج الجمعى ص ٢٢٥ .

٢٣- مقدمة فى العلاج الجمعى ص ٢٢٥-٢٢٦

فهو يشير إلى أن هذا النشاط الجديد هو إحياء نشاط Reactivationللجزء القديم من المخ الذى كان كامنا فى فترة التمدد المخى السابقة مما يتفق مع المدرسة البيولوجية التطورية.

(٢٠) التنشيط الدورى:

ولابأس من أن نكرر أن هذا التنشيط هو طبيعة دورية٢٣ووظيفته فى الصحة هو زيادة كفاءة عمل المخ (بزيادة نسبة الارتباطات فى اللحظة الواحدة) والوصول إلى ولاف أعلى، أما خطورة هذا التنشيط إذا لم يأت بنتاجه الايجابى فهو نتاج مرضى بمعنى نقص الترابط ونقص كفاءة المخ (مزيد من الدفاعات فالعصاب)، أو انفصال نشاط المخ القديم عن التلاحم مع النشاط القائم واتطلاقه مستقبلا فى دائرة الشعور بما ينتج عنه مما يسمى الذهان، كما ذكرنا، وأول مايواجه به الفرد هذا "التنشيط" Reactivationالمفاجئ هو الافراط فى النوم.

(يا ليت النوم يروضه)

وللنوم فى هذه المرحلة وظيفتان إيجابيتان:

الأولى: هو أنه يتيح فرصة أكبر للبعد عن الواقع الملح- إن كان ولابد بأقل جرعة من الاحتكاك المخل.

الثانية: هو أنه يتيح فرصة لنشاط الأحلام الذى يعمل كصمام لهذا النشاط الداخلى، لأنه يفرغ طاقته دون تهديد بتشويه أو تغيير تعسفى للنشاط السائد فى اليقظة إذا فهو بالتالى يعيد التوازن بين كل أجزاء المخ فى محاولة استعادة التوازن بأقال المضاعفات.

إذا فالنوم والأحلام وقاية وصمام فى الأحوال العادية، ولكن إذا زادت ثورة الداخل، وزاد النوم فى مقابلها لأداء وظيفته الوقائية كان هذا نذيرا فى ذاته- بقوة النشاط المهدد القادم، بل واعتبر عرضا فى ذاته، كما أنه قد يحمل معنى سلبيا إذ يعتبر هربا من الاحتكاك بالواقع مما يؤجل الولاف المنتظر أو يلغيه، وأخيرا فإنه مظهر نكوصى كذلك...

لكل هذا فسرعان مايفشل النوم، وقد يحل محله أرق ممض أو نوم بلا فاعلية، كما يشكو أغلب المرضى من أن نومهم لم يعد نوما على حد تعبيرهم، ذلك أنه إذا كان الجزء القديم قد نسى تماما، وأهمل تماما فإن نشاطه يصبح أكبر من أن يستوعبه النوم أو يروضه، وكأنه لم يعد طفلا يتململ، ولكنه غول يهدد،

(... هيهات الغول يعانده!!)

والطفل والغول بالمعنيين الرمزى والتطورى معا، لهما صفات مشتركة من حيث البدائية والعشوائية والاندفاعية واللامسئولية ..على أنه من المعروف أن الأحلام الذهانية (أو السابقة لنوبة الذهان) تمتلئ

بالمخاوف والصراعات مع الوحوش والغيلان والمجهول والأجزاء المتناثرة من الذات والطبيعة، وكل ذلك يفتح ملفات مخزون التطور من ناحية، وخيالات أساطير الطفولة من ناحية أخرى.

(٢١) الفطرة البدائية : وجود انعكاسى مؤقت٢٤ :

ومن المعروف أن الطفل حديث الولادة فى أيامه الأولى يحذ عدة انعكاسات فطرية مطبوعة تبدو وكأنها ناضجة فى حين أنها آثار منقولة من مراحل سابقة فى التطور، فانعكاس القبضة Grap Reflex يسمح بالتشعلق على فرع أو عصا لبضع ثوان، وانعكاس المشى Waking reflexيظهر فى شكل نقل خطوات تلقائية بمجرد ملامسة سطح ما، وانعكاس العوم يدل على قدرة الوليد على الطفو والحركة التلقائية المتوازنة.. وهكذا، وكل هذه المنعكسات التى تشير إلى المطبوع من صفات، لاتستمر مع الطفل إلا فترة وجيزة جدا ثم يحل محلها السلوك المتعلم الخاص بالانسان أساسا.

والمعنى المراد من التذكرة بهذه الحقائق هو أن الفطرة تشمل سلوكا مطبوعا كاملا، ولكنه لايصلح للمرحلة الانسانية الحالية من التطور، حتى ولو بدأ أنه السلام والخير (الجاهز) فهى مرحلة بدائية تماما، إذ أنها مجرد منعكسات لا استمرار لها، وبالتالى فإن المغالاة فى تقديس الفطرة البدائية ينبغى أن يوضع فى مكانه التبريرى كما سبق أن ذكرنا.

(٢٢) صدمة الميلاد:

يتكلم أوتورانك otto Rank عن صدمة الميلاد ويتكلم فيربيرن Fairbairn وجانترب Guntripعن الانشقاق النكوصى الأولى للأنا (الذات) فى مواجهة الواقع عقب الميلاد مباشرة.

(أقزعنى القوم من الحوت الوهم)

وهذا، وذاك، وغيرهما إنما يشيرون إلى أن الوجود الجبلى الأولى لايستطيع أن يواصل مسيرة النمو فى زيادة كمية خطية Quantitative Linearدون تراجع وتوقف متناوب، وأحيانا مايصور الواقع الخارجي– تبريرا وتأكيدا لضرورة التراجع المرحلي– بالعدوان والتوحش، ورغم أن هذا التصوير هو جزء لايتجزأ من الحقيقة– إلا أن المبالغة فيه (كما تبدو فى النص وفى كثير من صور الفن الناقد) تشير إلى درجة من القهر والتهديد تهيئ للمرض النفسى أو التشويه النفسى لامحالة، ذلك أنه كلما كانت الأسرة غير آمنة، والمجتمع الأوسع خائفا ساحقا فى آن، كلما كان الانشقاق والتراجع عنيفان ذوا آثار وخيمة٢٥ وأول هذه الآثار هو إلغاء جزء جوهرى من الوجود (أو تأجيله على أحسن الفروض) إلغاءا غنيفا يؤكده وينميه الافراط فى استعمال الحيل النفسية (المرادف لما أسميناه مجازا "الموت النفسي") ورغم أن هناك قول شائع بأن الإنسان البدائى يستعمل الحيل النفسية بتواتر أكبر من الانسان

24- Primitive nature is a temporary reflexive existence

٢٥- سوف أتناول هذه المواجهة بما يترتب عليها من أوهام المطاردة (حاشية ٩٨-١٠٠) (اللبن المر) وكذلك من رحلة العزلة والاحتياج والحساسية المفرطة) (حاشية ١٤٧-١٥٣).

المعاصر، إلا أنه لايوجد دليل يؤكد ذلك أو ينفيه، وإنما كنت أميل إلى إفتراض أن "كم " الحيل لم يتغير كثيرا من الانسان البدائى إلى الانسان العصرى وخاصة فى المراحل الأولى من النمو، ولكن أشكال ونوعيات الحيل هى التى تغيرت.

(وانتشلونى أعلم فى مدرسة الرعب فن الموت العصرى)

ومن خلال هذه المتغيرات نلاحظ موقفين متناقضين فى الظاهر متساويين فى عمقهما: وخطورتهم، يغلبان على الإنسان المعاصر ويعطلانه:

الأول: وهو الاعتقاد الجاهز بعقيدة ما (بغض النظر عن مصدرها) ومن ثم تجنب التساؤلات المحيرة المبدعة، أو التساؤلات العلية المثيرة، أوالتساؤلات البعدية المحذرة.

والثانى: وهو المبالغة فى التساؤلات، دون معايشة البحث الابداعى عن إجابات نسبية من واقع الممارسة (راجع حاشية ٧، وحاشية ١٠)

(٢٣) الحياة العصابية (الكمية) المعاصرة :٢٦

لابد ونحن نتكلم عن تكوين الأعراض النفسية أن نشير إلى طبيعة الحياة المعاصرة والقيم السائدة والحيل السائدة بالتالى، فإن عديدا من مدارس علم النفس الخاصة قد وجهت نقدا مريرا للحياة المعاصرة بصفة عامة حتى اعتبرها البعض (مثل ا. جانوف.A) حياة عصابية أساسا، واعتبرها آخرون (مثل رولو ماى حياة شيزويدية أساسا، بل واعتبرها بعض المبالغين (مثل هـ. لانج H. Laing، د. كوبر حياة ذهانية تماما قياسا بدرجة الاغتراب فيها.

وأرى أن المبالغة فى هذه الاتجاهات هى مبالغات فنية أو احتجاج سياسى أكثر منها موقفا علميا، لأن هذه الدفاعات ضرورة مرحلية على لولب النمو خلال اندفاعاته، ولهذا فإنى أنبه أنى أوردت هذه الصورة الشائعة بشكل فنى أساسا لتصوير خطورة المبالغة فى الاغتراب والاستغراق فى الأهداف القهرية الوسيطة.

وهناك تأكيد أيضا أن الحيل النفسية والافراط فيها إنما تتم بغير وعى السوى والمريض على حد سواء (فالميت لايعرف كيف يموت) والاستطراد بعد ذلك فى وصف الحياة العصابية- إن صح التعبير- يشير إلى فرط القهر المسبق الحاجز للنمو والتجديد نتيجة لكثرة "اللاءات" المطروحة.

(لا تفتح فمك يغرقك الموت..

لا تسكت، يزهق روحك غول الصمت

لا تفهم..

لا تشعر...

26- Modern neurotic quantitative life.

٢٧لا تتألم..)

وهذه اللاءات تزداد أكثر وأكثر فى أسر الطبقة المتوسطة، على أن هناك "لا" خاصة تمارس فى الطبقة الأعلى، وأحيانا ما تتخفى تحت عنوان "التربية الحديثة"! وهى "لاتتألم" فالحرص الشديد على تجنيب الأطفال الألم هو تشويه لنموهم لامحالة، وتجنب الألم بالذات يمثل أساسا "التبلد العاطفي" السائد فى عصرنا الذى ينتشر فيه خاصة هذا المرض "الكمي" تحت مختلف عناوين الحرية والاستقلال.

خلاصة القول أن الحياة العصرية إذا اكتفت بالتسطيح المنطقى، والنمو العرضى الكمى (وتعلم كم) دون مغامرة التغيير الكيفى فهى إنذار بالانقراض لامحالة.

(٢٤) ظاهرة "التخزين"Hoarding **القهرى:**

لعل من أبرز مايبرر تسمية عصرنا هذا بالعصر العصابى الكمى هو المتعمق فى تقييم حقيقة "التخزين" الذى نمارسه بلا انقطاع ولابصيرة، بالرغم من إدراكنا الشعورى أو علمنا بلا جدواه، فلو وهبنا الشجاعة لتسمية جمع الأشياء أو اقتنائها لذاتها دون فائدة فاعلة أو دون قيمة جمالية لأمكن تسمية أغلب نشاطاتنا تسمية عصابية، ولعل هذا التخزين يلهبه التنافس فيه دون توقف عند تحليل جدواه٢٨ راجع مناقشة قيمة التنافس وخطورته حاشية ١٧) والنظر لما جمع الآخر طبيعة يبررها عدم الأمان الأساسى فى وجودنا وفى طبيعة المجتمع المعاصر

(كم جمع الآخر من صخر الهرم القبر؟)

ورغم إدراك الكثيرين ممن يمارسون هذا التخزين الاغترابى القهرى لعدم جدوى مايفعلون، وخاصة حين تتقدم بهم السن، فإنهم لايستطيعون أن يقاوموا مثل هذه النزعة مما يجعلها شديدة الشبه بالقهر الوسواسى العصابى كما سيرد ذكره بعد قليل.

(٢٥) معنى الزمن.. والاغتراب عنه:

أستطيع أن أضع تعريفا للزمن يحدد البيولوجى إذ أقول أن "الزمن هو علاة تتابعية ترابطية بين حادثتين"٢٩ وعلى أساس هذا التعريف يمكن اعتبار أن مجرد دوران الأرض أو اختلاف الليل والنهار خارجنا ليس بالضرورة زمنا مدركا بالنسبة لنا، فإذا كان الحدث مكررا بلا معنى، أو إذا كان التفاعل نمطيا Stereotyped انتفت العلاقة التتابعية أصلا، وبالتالى أصبحت الأحداث منفصلة عن بعضها وكأننا نعيش بلا زمن يمضى، ولكنى هنا أؤكد أن الطبيعة البيولوجية تجعل أغلب اضطراباته تتعلق "بإدراكه"

٢٧- أقرب ما يحضرنى هنا صورة فنية موازية للشاعر الشهيد نجيب سرور فى ثلاثيته: آه يا ليل يا قمر:
- الكلام ممنوع يا ست - والسكات ممنوع كمان - السكان ممنوع كمان... الشكات مشروع كلام.

٢٨- لعل "دناع التكاثر" هو أقرب ما ينبه إلى خطورة هذا الجمع الأعمى "ألهاكم التكاثر... حتى زرتم المقابر" (كم عدد الأسماء فى صفحة وفيات الأحياء الموتى).

29- Time is the associative consequential relation between two events.
الذى أشار إليه بياجية فى تعريف الزمن يدخل ضمنا فى هذا التعريف من منظور عصبى بيولوجى، لأنه يتضمن أيضا Velosityإن بعد السرعة درجة سهولة التواصل والترابط بين منبطبعات هذين الحدثين.

أكثر منها "بحدوثه"، بمعنى أنه قد تكون هناك علاقة تتابعية بين حادثتين ولكنها لاتدرك فى اللحظة الراهنة، وإذ تدرك فيما بعد، وخدعة معايشة الزمن كحدث قادم، أو معايشه بأثر رجعى (كم دقت ساعة أمس) تؤكد الاغتراب المعاصر (الذى سبق الاشارة إليه حاشية ٦) .

وقد يدرك الزمن فيما بعد، إذ قد يكون تسجيل الحدثين سليما ولكن الترابط بينهما منقطع أو ضعيف أو مؤجل مرحليا.

(٢٦) الاستغراق اللحظى.. وتبريره الاغترابى.

حين نهاجم القيم المادية الاغترابية ننسى وظيفتها الدفاعية، وبالتالى نعجز عن معالجة جذور اللاأمان خلفها، وإذا كنا نتكلم عن انفصالنا عن الزمن بمعنى الوعى به، وبمساره المتغير ضرورة، فإننا لابد أن نشير إلى نوع خطير من الارتباط به، فكثيرا مانرى أنه فى المجتمعات التنافسية يكون الارتباط الوحيد باللحظة عن طريق مايتعلق بقيمتها السلعية، الأمر الذى يقوم بوظيفة اغترابية ولكنها ترابطية دفاعية فى حدود ما .. ولن يكفى الهجوم على هذه الظاهرة أن نتوقى خطرها، وإنما ينبغى البحث عن جذورها فى الافتقار إلى العدل (وليس إلى المساواة) والافتقار إلى الأمن (وليس إلى الاعتماد).

(٢٧) حيلة التأجيل:

أشرنا فى حاشية (٦) إلى خدعة التهرب من "الآن" فى التأجيل إلى الغد (الذى لايأتى) وهنا نعيد التأكيد على أن هذه الخدعة يبلغ من قوتها أنها قادرة على الاستمرار مهما جاء الغد فاجعا ومحبطا للآمال، فالمسألة ليست فى أن نحقق فى غد مالم نحققه اليوم، ولكن فى أن نستمر فى الحلم ذاته ليس إلا..

ودفاع التأجيل هذا يسمى أحيانا "الحلوى تأتى دائما غدا" (ولكن غدا لايأتى أبدا، لأن لكل غد .. غد بعده)، وهو قد يبرر استمرار الحياة العصابية ولكنه يؤكد طبيعتها الاغترابية.

(٢٨) الرقة الجبانة[30] :

هذه الحيلة الشائعة فى عصرنا هذا هى من أخفى الحيل وأكثرها بريقا وخداعا وقد اكتسبت قدسية شبه حضارية حتى أصبحت مرادفة للتمدن والعصرية، وهى تسمى غالبا "رقة المعاملة"، وابتداء نقول أنها ميزة تساعد فى أن يمارس كل فرد حركة ذاتية فى دائرته الخاصة حيث تضع الحدود اللازمة حول مساحة معينة من السلوك الشخصى تسمح بالخصوصية والحرية، ولكن المبالغة فيها قد جعلت التواصل بين شخصين رقيقين معاصرين أقرب مايكون إلى الاستحالة، بل إنها أحيانا تحمل معنى التخلى عن مسئولية المشاركة، وعن الاهتمام الجماعى بأى صورة وهى بذلك تمثل صورة من العدوان السلبى بالترك، فتصبح العلاقة بين البشر أقرب ماتكون إلى العلاقة بين كرات "البلياردو" الخشبية.

30- The coward decency

وخطورة هذا العدوان السلبى أنه- فى قيمنا المعاصرة- مقبول، ومرجح، بل ومقدس أحيانا، وبالتالى فالجريمة الانعزالية مغفور لها ابتداء.. ولكن فى تناولنا لتكوين المرض النفسى لابد أن ننبه إلى هذه الظاهرة "الشيزويدية" مهما بلغ تقدمها هى من أكبر المهيئات لظهور المرض النفسى فيما بعد، نتيجة للجوع الشديد إلى دفء العواطف البشرية من خلال التواصل الأعمق بين الناس.

(٢٩) "الكبت"

الكبت هو الحيلة الدفاعية الأساسية التى تسبق كل الحيل النفسية، كما أنه- بشكل ما- محور علم السيكوباثولوجى كخطوة مبدئية تسبق أى عملية لاحقة، وفى نفس الوقت هو صمام الأمن المنظم لجرعة الرؤية، والمناسب لقدرة التكيف فى كل مرحلة.

والكبت هو العملية اللاإرادية واللاشعورية التى تنتقل الأفكار والخبرات بواسطتها من دائرة الشعور والوعى إلى دائرة اللاشعور حيث لايمكن فى الأحوال العادية استرجاعها أو تذكرها.

ولكن هناك نوع من الكبت الأولى Pimary Repression يتم مباشرة دون أن تعاش الخبرة بشكل مباشر أو تفصيلى فى الشعور.

وللكبت- مثل سائر الحيل- جرعة مناسبة وتوقيت مرحلى، إذا اختلفا فى اتجاه أو آخر ظهرت المضاعفات.

فعلى قدر مرونة الكبت بالقدر المناسب الذى تتحمله رؤية صاحبه فيى كل مرحلة، وبالقدر الذى يسمح بإطلاق جرعات متزايدة من الإمكانيات الكامنة، والمحتويات المؤجلة، تكون وظيفته التحكمية مفيدة مرحليا، أو بمعنى آخر إن الكبت بصورته الصحية هو "توقيت مناسب لتناول الأحداث، كما هي" وليس مجرد إلغاء نهائى لجزء من الذات (الأمر الذى يسمى مجازا العمى النفسي- مع التجاوز، حيث أن الأعمى يبصر فى العادة-).

أما انهيار الكبت الفجائى فإنه يترتب عليه رؤية مهددة إذ ينطلق الوعى المزعج دون استعداد كاف أو إرادة كافية مما يترتب عليه ماأسميناه "بداية الذهان".

<u>والمادة المكبوتة تتكون عادة من العناصر التالية:</u>

(١) <u>الإمكانيات الكامنة</u> التى لم يتح لها بعد فرصة وتفعيلها بالاستعداد الذاتى المناسب، أو فى المجال المناسب.

(ب) <u>الخبرات الأثرية المطبوعة</u>(Imprinted) (*) التى لم يعد لظهورها هكذا فى البداية فرصة فى عالمنا الانسانى المعاصر، والتى إذا كان لابد من ظهورها (وهوحتم تكاملى) فإنها لابد أن تظهر فى تكامل مع الجزء الظاهر، وأن يعبر عنها باللغة السائدة.

(ج) الأحداث الجارية المضادة للسائد والمرفوضة من المجتمع الخارجى الذى أصبح مجتمعا داخليا كجزء من الذات (تحت أسماء مختلفة حسب المدارس مثل الأنا الأعلى بلغة التحليل النفسى، والأنا الوالدية بلغة التحليل التفاعلاتى، والأنا المضادة للبيدو باللغة التحليلية للعلاقة بالموضوع.. وهكذا) وهذه الأحداث قد تكبت فورا بعد أن تعاش جزئيا بشكل محدود.

(د) الأحداث الكبيرة التى تتطلب قدرات مناسبة غير موجودة حاليا، والتى لم يستعد لاستيعابها الفرد بعد، إذ غالبا ما تتطلب قدرا ومساحة من الترابط أكبر من قدرة اللحظة، وهذه الأحداث قد تكبت تلقائيا دون أن تعاش فى الشعور أصلا.

وحتى يكون الكبت حيلة بمعنى لاسواء الدفاعى، وبالمعنى السيكوباثولوجى أيضا لابد أن نفرق بينه وبين الانتباه الانتقائى مثلا الذى هر جزء من الانشقاق الفسيولوجى المقابل للمرحلة الأولى من عملية "فعلنة المعلومات" Information procesing ففى الكبت تختفى المادة الكبوتة، أى أنها ليست فى متناول التناوب، وتحتاج لطاقة كبيرة حتى تظل بعيدة عن الشعور فى مخزونها، أما فى الانشقاق الفسيولوجى فالمادة المزاحة تكون قريبة من الشعور وتظهر بالتبادل الجشتالتى مع المادة المنتبه إليها بناء على اختيارات من الداخل فى لحظات متتالية (سب ذكر ذلك والإعادة للتأكيد).

– وإذا زادت جرعة الكبت عن الكمية المناسبة لنمو.

– وإذا كان الكبت عاما ولا منطقيا ومبنيا على مخاوف خارجية تنبع من مخاوف الأسرة أساسا (*) (والمجتمع) وليس من موضوعية الخطر.

– وإذا تناولت التربية بالتشويه كل ماهو طبيعى وخلقى (مثل الوظائف الجنسية الفسيولوجية).

إذا حدث كل هذا فإن تشويه النمو (اضطراب الشخصية) ثم المرض النفسى فيما بعد، هما النتاج الطبيعى لكل ذلك.

(٣٠) امتداد تأثير الكبت واتساع مساحته:

على أن تأثير الكبت القهرى لايقتصر على حجز المادة المكبوتة (الجنس أو العدوان مثلا) بهذا العنف وتحت كل هذا الخوف، ولكن مساحته تمتد إلى مناطق مجاورة ليست لها أن تكبت أصلا.. فلا هى مرفوضة ابتداء ولاهى خطرة على التكيف ولاهى أكبر من الاستيعاب، ويمتد تأثير هذا الكبت إلى:

(١) مناطق وخبرات مشابهة (بالتعميم).

(ب) مناطق مجاورة : مثل أن ينكر– أو يهمل– عضو بأكمله من وظيفته من صورة الجسم، أو من دائرة الوعى.

(ج) مناطق موازية: تنغمر تحت تيار الكبت بفعل اتجاه القوى، مثلما يعجز الفرد عن التفكير أصلا (فى الجديد خاصة).

ويترتب على ذلك أن جزءا كبيرا من النفس يصبح فى غير متناول صاحبه ويعيش الفرد فى رعب دائم من أن يذاع "سره" بشكل أو بآخر، وقد يثبت (من خلال الانهيار أو العلاج) أن هذا الملف السرى لايحوى إلا ماهو طبيعى وتلقائى، وأن كل ماكان مهولا حوله كان نتيجة لأنه "سري" لا أكثر ولاأقل، ولهذا فلا يتعجب معالج نفسى إذ يجد أمامه ضمن المادة المكبوتة أبسط الحقائق وأكثرها بداهة، ولايوجد مايبرر تصورات تراكمية معقدة أو تفسيرات عميقة لأبسط صور المادة المكبوتة.

(سأحاول أن أحذف من جسدى فضلات الشهوة...

... لا تفشى سرى)

وتمثل هذه السرية المفروضة على أبسط الأشياء البذرة التى تكمن وراءها أعراض ذهانية قد تظهر فيما بعد، حين ينهار الكبت أو يتحور إلى دفاعات أخرى تعلن وجود هذا الجزء السرى تحت ضغط خاص لمدة طويلة من ناحية وفى نفس الوقت تعلن العجز عن حجزه وراء حاجز متين، ومن أهم هذه الأعراض "قراءة الأفكار، وإذاعة الأفكار Thought Broadcasting.. الخ، وفى هذا العرض يشكو المريض من إذاعة الأفكار "مجرد الأفكار" وليس بالضرورة الأفكار الشاذة أو القبيحة أو الجنسية أو العدوانية، إذا فإن مجرد "الإذاعة" هى التى تمثل العرض كما يتصوره، وهذا يؤكد ماذهبنا إليه من وظيفة الكبت فى تدعيم "سرية" مادة ليست "سرية" بالضرورة، بحيث تصبح الاذاعة عرض خطر مهدد فى ذاته.

(٣١) الكبت وضعف الحواس:

لايقتصر انتشار الكبت على محتوى المادة المكبوتة سواء كانت مرفوضة أو خطيرة أو مشابهة أو موازية أو مجاورة، ولكن الإفراط فيه يصاحبه إقلال فى الإحساس بصفة عامة (الاحساس كوظيفة فسيولوجية يقوم بها الجلد مثلا)، وهذا الغرض يحتاج إلى أجهزة قيقة لقياس عتبة threshold الاحساس وتناسبها مع كمية الكبت النشطة عند مختلف الافراد، وتفسيره المبدئى أن جزءا هائلا من الطاقة اللازمة لحيوية الحواس تتغلف بها المادة المكبوتة.

والتفسير الثانى هو أن الحواس هى مداخل العالم الخارجى وبالتالى فإن ضعف حدتها له وظيفة الاقلال من الاحتكاك بالعالم الخارجى، وهذا ضمن وظائف الكبت.

وبعض العلاجات مثل علاج الجشتالت، وتدريبات تنمية الوعى الحسى، تحاول التغلب على هذه الظاهرة.

(٣٢) الأمان الزائف.. وخواء الالفاظ:

Pseudosecurity and emptiness of words

وحين يستقر الكبت كوسيلة نهائية للحياة (وليس مرحلة مؤقته فى النمو) تسود قيم الزيف والحياة البشرية المقبورة، وكما ضعف الاحساس ومع ماجرف تيار الكبت من وظائف عقلية، نجد أن الألفاظ قد أفرغت من معناها بالتالى، وكما سبق أن أشرنا إلى أهمية المعنى وطبيعته (حاشية ١٤) وأضيف هنا أن المعنى هو قمة تطور العواطف إذ تلتحم بالرمز المعبر عنها بحيث يصبح اللفظ ومعناه والعاطفة المصاحبة له شيئا واحدا حتى تختفى العواطف كظاهرة نفسية مستقلة31

وكأن الكبت العنيف الدائم يسحب الطاقة من التفكير ومن الألفاظ ومن الحواس بعيدا عن الوساد الشعورى السائد، وبالتالى يفقدها جميعا الفاعلية اللازمة لأداء وظيفتها التعبيرية والتواصلية والإبداعية.

ولابد من التأكيد أخيرا على أن الكبت حيلة تسبق أو تصاحب أو تغلف كل الحيل الأخرى.

ثم لابد من الإشارة إلى حيل قريبة الإنكار Denial التى لاتعدو أن تكون كبتا شاملا حادا وسريعا.

ومن الكبت ننتقل إلى أصعب الحيل وأخفاها حتى لتكاد تكون القطب الآخر للكبت، وهى فى نفس الوقت من مضاعفات العصر اللفظى الممنطق الذى نعيشه، تلك الحيلة هى "العقلنة".

(٣٣) العقلنة Intellectualization ونصفى المخ:

حيلة العقلنة حيلة عصرية خطيرة، تصف سمة من سمات العقل البشرى لما اتسعت مداركه وحذق استعمال الرمز بدرجة أصبحت تهدد تكامله وتحد من وعيه لامحالة، ونعنى بها أن تحل الرؤية العقلية محل المعايشة الكاملة، وأن نكتفى بالبصيرة المنطقية عن البصيرة الفاعلة المغيرة، وأن تغنى الحسابات التفصيلية الواضحة الظاهرة، عن الاحتمالات الحدسية الشاملة على المستوى الأعمق.

وهنا يمكن أن يتطرق الحديث إلى ثلاث مسائل متعلقة بالعقلنة وخواء الألفاظ معا.

الاولى: اللفظنة Verbalism وهى الإفراط فى استعمال الألفاظ بديلا عن معانيها القابلة للتحقيق والحافزة للعمل. (راجع أيضا حاشية ١٤).

الثانية: البصيرة المعقلنة Intellectualized Insight وهى التى تعنى الاكتفاء بالمعرفة بديلا عن التكامل الفاعل المغير ٣٢

الثالثة: عمل نصفى المخ، وعدم التوازن الناتج عن طغيان أحدهما على الآخر، وفى هذا أقول:

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة (منذ الخمسينات) عن عمل النصف الآخر من مخ الانسان، وأعنى بالنصف الآخر: النصف المسمى بالمتنحى Reccessive، حيث كانت الدراسة مركزة (أو مرجحة) فيما سبق بالنصف الطاغى Dominant وهو النصف الكروى الأيسر فى الشخص الأيمن والنصف الكروى الأيمن فى الشخص الأعسر، وأهم مايميز النصف الطاغى هو وجود مركز الكلام فيه فى أغلب الحالات، وكان الحديث عن النصف المتنحى فيما عدا وظائفه الحسية والحركية حديثا غامضا شاملا،

31- فصلت هذه النقطة فى بحث عن "نمو العواطف من التهيج الحسى العام إلى المعنى" لم ينشر بعد.

32- راجع أيضا كتابى "أغوار النفس" حاشيات: ٥٠، ١٠٤، ١٠٧، ١٧٠، ١٧١، وما يقابلها فى المتن.

إلا أن الدراسات بدأت مؤخرا من خلال دراسات مقارنة بين عمل النصفين الكرويين، وذلك من واقع مشاهدات إكلينيكية بعد عمليات قطع الجسم المندمل Cropus Callosum فى بعض حالات الصرع المستعصية، وكذلك نتيجة لاصابات نوعية محددة لأحد النصفين الكرويين، ورغم أن هذه الدراسات لم تنته إلى نتائج حاسمة إلا أن أغلبها أشار إلى حقائق باهرة تتفق مع الاتجاه الذى نبهت إليه فى حاشية (٥) من تعدد الوجود، وهذه الأبحاث تشير بادئ ذى بدء إلى تأكيد ازدواج الوجود داخل المخ البشرى، وهذا الازدواج ليس أبدا هو الانشقاق، وبتعبير آخر فإن وجود نصفين للمخ لهما عملان مختلفان يشير مباشرة بلغة وجودية إلى وجود كيانين (شخصين)- على الأقل- يكمل بعضهما بعضا، وليس بالضرورة يكرر بعضهما بعضا:

والوصف الذى ورد فى "المتن" هنا هو حوار بين اليد اليمنى (التى تمثل النصف الطاغى) واليد اليسرى (التى تمثل النصف المتنحى).. فى مرحلة الترجيح المضاد سعيا إلى التكامل الولافى.

فالنصف الطاغي- كما أثبتت الأبحاث، يختص بوظائف التفكير الخطى Linear العلاقاتى Relational المنطقى Logicalالحاسب Calculatingالرمزي Symbolic، أما النصف المتنحى فيختص بالتفكير الكلى (الاجمالى) Holistic الارتباطى Correlativeالفنى Artistic النغمى Tunal الصورى .Pictorial

وبالتالى فإن ترجيح أحدهما على الآخر أو تفضيل أحدهما عن الآخر لايتفق مع هدف التكامل البشرى، ولابد من تآلف العمل بينهما وخاصة فى مجال الابداع.

أما بالنسبة لما أريد توضيحه فى مجال هذه الدراسة فهو:

١- إن التربية التى ترجح التفكير المنطقى الحاسب المجزئ على التفكير الاجمالى الفنى الارتباطى تهيئ إلى نقص فى الكفاءة الإبداعية للفرد.

٢- إن هذا النقص فى الكفاءة الإبداعية يعتبر مهيئا للمرض النفسى، لأ كبت الجزء الفنى من وجودنا هو نوع من كبت طاة أساسية، سرعان ماستحاول فرض نشاطها مباشرة (الذهان) أو بطريقة غير مباشرة (العصاب).

٣- إن استمرار هذا الطغيان من جانب النصف الطاغى لو لم ينتج عنه مرض نفسى محدد، فنتج عنه تشويه وإعاة للنمو البشرى فى شكل اضطرابات الشخصية (النمطية خاصة).

٤- إن كثيرا من الأمراض الاجتماعية، وأمراض العصر (ومن أخطرها الحروب، وميكنة البشر، والاغتراب) هى نتاج هذه الحياة من جانب واحد بعد سحق الجانب الآخر تحت ضربات الخوف من التطور، بما يحمل من مفاجآت الجدة والتغير النوعى.

ونستطيع أن نشير فى النهاية إلى أن المادة المكبوته (الحاشية السابقة) تشمل الجانب المتنحى بما يحمل من قيم وإمكانيات محبوسة رغم لزومها للإبداع.

(٣٤)، (٣٥) التقمص Identification **والحيل المتعلقة به (الادخال** Internalization **والغمد** Introjection **والإدماج** Incorporation

يولد الإنسان ضعيفا بلا كيان خاص تقريبا، فهو يولد كمشروع ذات Ego Potential ليس إلا، وبمجرد خروجه من الرحم باستعدادات وراثية محددة من ناحية، وقدرات نمو غير محددة من ناحية أخرى، يحتاج إلى حمايات متلاحقة، ونظرا لصعوبة وطول رحلة النمو وطبيعتها اللولبية النبضية Spiral Pulsating Nature فإن هذا الكيان الضعيف يلجأ إلى عدة حيل احتوائية، أو تكيسية، تساعده فى تنظيم رحلة نموه الطويلة الصعبة، وتدخل هذه الحيل جميعا تحت هذه المحاولات الدعامية بشكل أو بآخر، والقواعد العامة التى تفسر وتبرر هذه الحيل هى: أنى احتوى أو ألبس مرحليا "كل من":٣٣

١- لاأستطيع مواجهته الآن.

٢- لاأستطيع السيطرة عليه الآن.

٣- لاأستطيع استيعابه الآن.

٤- لاأستطيع مقاومته الآن.

٥- ولكنى لاأستطيع الاستغناء عنه ابتداء.

ويطلق على كل هذه العمليات لفظا عاما هو الادخال Internalization ثم يختلف الثقات فى تفسير طبيعة كل من هذه الحيل ومايعنيه كل لفظ منها، وبعد استقراء مختلف وجهات النظر، رأيت أن أوضح الفروق بينها كمحاولة أصيلة لاتبعد كثيرا عن الاجتهادات السابقة، وإن زادت عليها تفصيلا، وتحديدا.

١ – التقمص:

فى هذه الحيلة يلبس الفرد (الطفل عادة) ذاتا مستمدة من الخارج تصنع له مايمكن أن يسمى قشرة حامية، وفى نفس الوقت فاعلة ونشطة، ولعل أقرب تصوير لهذه الحيلة كجزء دائم من كياننا البشرى هو مقولة "إيريك بيرن" عن الذات الخارجية exteropsyches الذى اعتبرها الذات الوالدية أساسا، وإن كان فى عمق شرحه لها قد عممها على أى ذات مطبوعة من خارج، ولعل فى إصرار إريك بيرن على اعتبار هذه الذات جزء لايتجزء من الوجود البشرى، مايشير إلى أن التقمص ليس حيلة مرحلية ولكنه تكوين أساسى دائم بشكل أو بآخر، ولكن لاينبغى أن نغمط إريك بيرن حقه، فقد أشار إلى مايسمى الفتى المتكامل Integated Adult وهو الذي– على ندرته– تصبح فيه الذات الخارجية مجرد صفات ومعالم من الذات الفتية المستوعبة لكل الخبرات الخارجية والمتضمنة للخبرات الفطرية، ومن هذا المنطلق يمكن أن نرى التقمص كدعامة قشرية فاعلة ومفيدة ولكنها مرحلية على مسار النمو والتكامل، سرعان ماستتكسر نتيجة لنمو الذات الأصلية المستمر من ناحية لدرجة تفوق أبعادها، ونتيجة

٣٣- بديهى أن الاحتواء والادخال والبس.. الخ يشمل الكبت كأساس وكعامل جزئى ولكن لاحظ أنى ذكرت هنا "كل من" وليس "كل ما" لأوكد طبيعة هذه المجموعة عن الحيل فى علاقتها باحتواء لأشخاص وليس مجرد الأحداث أو الذكريات.

لهضم واستيعاب كثير من مكوناتها من ناحية أخرى، إذا فالتقمص المفيد والضرورى هو الذى يحمل مقومات التخلص منه بأن يكون متصفا بالصفات التالية:

١- أن يكون قشريا: بحيث يكون منفصلا بدرجة ما عن الداخل النامى (أو الكامن استعدادا للنمو).

٢- أن يكون متوسط القوام: لأنه إذا كان رقيقا هشا، لن يقوم بالدور الدعامى المطلوب، وإذا كان سميكا صلبا، فسوف يعوق النمو الأصلى لامحالة.

٣- أن يكون مرحليا (وهذا نتاج للصفتين السابقتين) بحيث يسمح للنمو الداخلى بالاستمرار حتى يستوعب جزءا من هذه القشرة ويهضمه حتى التمثيل، ويكسر الجزء الباقى وينمو عنه ويتخطاه.

ويصبح التقمص بهذه الصورة ضرورة نمو لابديل عنها من خلال مفهوم النمو المراحلى متصاعد الدرجات؛ حيث تحتاج كل مرحلة إلى مرحلة كيس (أو رحم) تنمو الشخصية داخله، وهذا الرحم النفسى هو الكيان الآتى من الخارج، الذى يسمح بالكيان الداخلى فى الوقت المناسب بكسرها مايتبقى من هذه القشرة بعد هضم جزء من جوانبها، ثم باكتساب قشرة جديدة أرق وأقصر عمرا وهكذا، أما أنواع هذا التقمص ودرجات سوائه وخطورته فيعتمد على عوامل متعددة بعضها فى التكوين الداخلى والأخرى فى التكوين الخارجى : أما التكوين الداخلى فإنه يلجأ إلى التقمص المبكر المفرط الصلب بقدر ضعف الذات الداخلية وهشاشنها وتجمدها الجليدى القابع، أما الظروف الخارجية فإنها تعتمد على توقيت التقمص ومصدر التقمص، أما بالنسبة للتوقيت فإن التقمص يختلف فى أوقات التعرى والبسط، Systolic Unfoldingالتى تظهر صريحة فى أزمات التطور (مفترق الطرق- النمو) وبداية الذهان، وأثناء "المأزق" فى العلاج المكثف، والعلاج الجمعى) عنها فى أوقات التمدد والامتلاء Diastolic and Filling .

(١) ففى أوقات البسط. يكون التقمص صعبا وخطيرا فى آن واحد، وتكون الذات مستهدفة له Vulnerableمقاومة له فى آن واحد، فإذا تم التقمص بعد كل هذا فإنه يصبح عميقا وشديدا.

(ب) أما فى أوقات التمدد فإن التقمص يكون ضعيفا، لأن الذات إنما تنمو فى هذا الطور داخل الرحم النفسى الذى تقمصته من قبل، وتصبح أى إضافة له هى إضافة من نفس نوعه أى سطحية قشرية ودعامية فحسب. فإذا عدنا إلى تقسيم مصادر التقمص الأساسية فإنه يمكن تعدادها كالتالى:

١- التقمص بالمشابه Identification with the "like" : وهو أن يتقمص الفرد (الطفل عادة) شخصا أقرب مايكون إلى صفاته القائمة، إلا أن هذا الشخص يكون أكثر نضجا وأثبت سماتا، وكأن الطفل بذلك يتعجل اكتساب صفة (أو كيان) من الخارج حتى تتعمق وتتأكد مثل الصفة (أو الكيان المقابل) من الداخل بمرور الوقت اللازم، والتخلص من هذه القشرة المماثلة أسهل، وإن كان أخفى، فقد تختلط السمة (الذات) المتقمصة، بالذات النامية، لشدة التشابه بينهما، ولايمكن التمييز بين النمو الزائف

بالتقمص، ذلك النمو الذى يخدعنا فى شكل قفزة نمو سريع ولكن مشكوك فيه، وبين النموالأصيل (النمو التدريجى الأساسى)، اللهم إلا بالنبض العاطفى المصاحب ومدى الإبداع والأصالة فى تحديد الصفة أو السمات.

٢- التقمص بالمخالف والنقيض(dislike) "Identification with the " differrnt وهنا يتقمص الفرد من يختف عنه ، وكلما ازداد الخلاف كلما ازداد عمق التقمص وحدته حتى تصل قمته إلى التقمص بالنقيض "Identification with the "opposite وهذا النوع الأخير من التقمص يتفق ويدعم مبدأ القطبية Polarityفى الوجود البشرى الأساسى فى طريقه إلى الولاف والتكامل الجزئى أو الكلى. أو الكلى. ولعل يونج فى حديثه عن الأنيما Animaوالأنيمس Animus ٣٤كاد يشير إلى هذه القطبية التى ينبغى أن نفهمها على أنها نقطة بداية نحو التكامل وليست طبيعة ثابتة٣٥ ولكن الإضافة هنا أن هذا التقمص بالنقيض يدعمها مبدئيا، ثم يعلن الحاجة إلى حل ولا في Syntheticإذا كان للنمو أن يتخذ مساره الطبيعى، هذا الحل الذى أسماه يونج أيضا التفرد

٣- التقمص بالمعتدى Identification with the agressor، وقد وصفت هذه الحيلة أنا فرويد Anna Freud وصفا رائعا، ومازال هذا النوع من التقمص يمثل حيلة خطيرة وأساسية وهامة فى السواء والمرض معا، أما فى السواء فإن التقمص بالمعتدى يعنى التقمص بالقوى القاهر الحامى فى نفس الوقت، وللاعتداء هنا صور متعددة أهمها التدخل فى حرية وتلقائية الطفل، (ومايقاس على ذلك) أما إذا زاد القهر ومحاولات السحق والأوامر العمياء والغامضة والمضطربة والمتناقضة فإن هذاالتقمص يصبح حماية ظاهرية فحسب، إذ أنه يجمد نمو الطفل (والفرد عامة) عند مرحلة تكرار السلوك الخارجى ليس إلا، لأن العدوان المعاد من قبل المتقمص ماهو إلا تجميد لمسيرة النمو، ليس للفرد فحسب وإنما عبر الأجيال كذلك، واستمراره ينتج عنه اضطراب فى الشخصية فى شكل إعاقة النمو نتيجة للسجن المسلح والإشلال٣٦

وهذا النوع من التقمص يشمل جزئيا التقمص بالمخالف الذى ذكرناه فى الفقرة السابقة.

وإذا لم يكن التقمص عنيفا غائرا صلدا فإنه يصبح ثروة قابلة للهضم والاستيعاب والتمثيل فيما بعد، وهذ يؤيد الرأى القائل بأن التقمص يدعم التلقائية الأولية primary Autonomy ويتعلق فى نفس الوقت بتكوين وتنمية التلقائية الثانوية Secondary autonomy وخلاصة القول فإن التقمص بصفة عامة هو

34- يطلق لفظ الأنيما على الكيان الأنثوى داخل التكوين الذكرى للرجل وهو النقيض الكامن المكمل لوجوده، كما يطلق لفظ الأنيمس على الكيان الذكرى للرجل وهو النقيض الكامل المكمل لوجودها.
وفى المأثورات الشعبية يتفق هذا العرض مع الاعتقاد السائد بأن لكل رجل أخت (تحت الأرض) ولكل امرأة أخ (تحت الأرض) بما يعنى تحت الوعى.

35- راجع بحث المؤلف عن تحرير المرأة وتطور الإنسان: نظرة بيولوجية، المجلة الاجتماعية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧٨.

36- استعملت كلمة الإشلال بمعنى Paralysis وفضلتها عن "الشلل" حتى أنقل معنى الإحداث فى تكوين الاضطراب.

"لبس" كيان بشرى كقشرة خارجية، وبالتالى فيمكن تمييزه عن حيلة التقديس حيث يظل هذا الكيان المقدس خارجيا تماما مع الإفراط فى رؤية محاسنه مجمدة (كما سيرد) وعن حيل الغمد والاحتواء حيث تدخل الخبرة فى حيلة الغمد كخبرة غائرة دون الحاجة إلى "لبس كيان" حامى، وفى حيلة الاحتواء يندمج الكيان والخارجى والخبرة مع كيان الفرد (الطفل عادة) بحيث يصبح الاختلاط كاملا بشروط معوقة تميزه عن الاستيعاب (كما سيرد) وبالتالى فإن مايترتب على "تعتعة"Dislodgement الكيان اللابس سواء كخطوة نحو الذهان أو نحو النمو تختلف عن استرجاع خبرات الغمد، وكذلك عن تفجير التحام الاحتواء.

وقد أشرت إلى كل ذلك فى هذه العجالة مبدئيا، وسأعود إليها تفصيلا لأنه موضوع شائك ويحتاج إلى تكرار لامحالة.

٢- الغمد Introjection : تفرق ميلانى كلاين Melanie Klein بين كيفية الاحتفاظ بالأحداث حسب نوع الحدث المختص، فهى تقول بأن "الموضوع الحسن" يحتفظ به الانسان (الطفل خاصة) كموضوع داخلى Internal Object، والفرق بين الذكرى والموضوع الداخلى هو أن الأخير يظل محتفظا بكيانه وشحنته الانفعالية على أمل أن يتناوله الانسان مرة ثانية فى ظروف أقدر، فيسيطر عليه بطريقة أكثر تلاؤما، أو يهضمه بطريقة أكثر سلاسة، وبديهى أن هذا الفرض يحتاج إلى إيضاح فى ماهية الحسن والسئ، وأفضل تحويره إلى "إن الخبرة الناقصة تحتفظ بها ككيان داخلى لعلها تكتمل بالاسترجاع يوما ما (فى الحلم أو فى أزمة النمو أو خبرة الجنون) أما الخبرة الكاملة فنحتفظ بها كذكرى أفرغت من شحنتها" وبما أن الخبرات الناقصة هى ناقصة لأنها مبتورة.. لأنها سيئة، فإن مقولة ميلانى تصح بقدر مانتفق مع بعدى النقص والتمام أساسا، ذلك أن هناك من الخبرات السارة مايبتر أيضا لفرط ماتحمل من انفعال لايمكن استيعابه تماما فى اللحظة، إذا فالفرق بين الاحتفاظ "كذكري" أو "كموضوع داخلي" يتوقف على هضم الخبرة ابتداء من عدمه، وبما أن الخبرات نادرا ماتهضم تماما لأول وهلة فعلينا أن نقبل بمبدأ النسبية فى هذا الشأن بحيث تصبح كل خبرة مهضومة بنسبة كذا، ومؤجلة بنسبة كذا، والجزء الأول يصبح ذكرى والثانى يصبح موضوعا داخليا ينتظر الاستعادة (شعوريا أو لاشعوريا) لإعادة الهضم٣٧

فإذا انتقلنا إلى حيلة الغمد وجدنا أنها تشير أساسا إلى هذا الجزء "غير التام" من الخبرة، وهذه الحيلة هى تنويع وتخصيص للحيلة الأم (الكبت)، وهى قريبة من التقمص من حيث أنها احتواء دعامى مرحلى يمهد للسيطرة على المحتوى يوما ما ثم إستيعابه، ولكنها تختلف عن التقمص (وعن الاحتواء

37- لاحظ أن هذه الاستعادة (الاجترار) لا تعنى بالضرورة الوعى الشعورى والتفسير الفعلى للخبرة... ولكنها تهدف للاستيعاب الأكمل أساساً بكل الطرق بما فى ذلك الأحلام، حتى دون تذكرها فيما بعد.

كما سيرد)٣٨فى أنها حيلة جزئية، تختص باحتواء الموضوع كجزء (بعد إلغائه من العالم الخارجى) فى محاولة للسيطرة عليه داخليا، وفى نفس الوقت نجد مايثيره من نزعات غريزية مهددة متعلقة به فهى تتعلق بتحويل وربط الطاقة إلى موضوعات داخلية تحت تأثير الدفعات الغريزية أى العمليات الأولية، وتفصيل معنى "جزئية" هو أن الموضوع لايحتوى الذات (يلبسها) كلها- كما لاتحتويه الذات فى كل مناحيها- وبالتالى فإن هذه الحيلة فضلا عما تقوم به من تجنب الجرعة الزائدة من الانفعال، تقوم بدعم جزئى للذات مثل الترميم الداخلى، ولكنها لها مضاعفاتها إذا لم تستوعب فيما بعد، أو إذا أسئ تناولها (راجع مسار هذه الحيل بعد قليل).

الاحتواءIncorporation :وهذه الحيلة حيلة جسيمة كلية متغلغلة مندمجة، فهى ليست "لبسا" يحتوى من خارج، مثل التقمص وهى ليست غمدا يكمن فى هذا الجزء أو ذاك من النفس الانسانية، ولكنها إغارة واندماج كامل كاسح- وتبدو فى شكلها الظاهرى أنها تمثيلMetabolisn (كما سيرد شرحه) إلا أنها نقيض ذلك تماما، ففى التمثيل تهضم الذات وتمتص وتستوعب مايعبر مجالها، أما فى الاحتواء فإن الجسم الخارجى (الكيان الخارجى) هو الذى يبتلع ويهضم ويمتص ويستوعب الذات، رغم أن الأخيرة هى التى سمحت بإدخاله، ففى حين تكون النتيجة فى الأولى نمو وانطلاق تكون النتيجة فى الثانية توقف وتجمد وتشويه وامحاء، وهذه أخطر الحيل الادخالية جميعا وينتج عنها اضطراب جذرى فى الشخصية لايظهر فى صورة مرض صريح أبدا، وإذا كان لنا أن نأمل فى تخطى هذه الحيلة فلابد من تصور عمق التمزق الذى سيحدث لو حاول الكيان الأصلى أن ينفصل إلى أساسه الأولى ليعود فيستوعب مااحتواه، ويكمل مسيرة نموه.

إذا فالاحتواء هو عملية محو للذات وتسمم جوهرى للوجود الشخصى لأنها تعنى بالضرورة ذوبان الذات فى الموضوع فى بدائية خطرة، وبديهى أن حدوث هذه الحيلة يكون أكثر تواترا وخطرا فى مرحلة الطفولة الأولى.

تطور مسار حيل٣٩الادخال عامة

(التقمص - الغمد - الاحتواء)

فتذكر أن هذه الحيل جميعا تؤدى الوظائف الضرورية الآتية:

١- وظيفة دعامية سواء بلبس كيان خارجى (التقمص) أم بتدعيم جزئى موضعى (الغمد) أم بالتهام استسلامى كامل (الاحتواء).

38- هذه الاختلافات هى نهاية ما وصلت إليه من قراءات وما رأيته أثناء الممارسة الإكلينيكية، ولكن التداخل بين هذه الحيل أساسى والتبادل قائم، وصعوبة استعمال اللغة قد يضفى غموضا أكثر فأكثر، ثم إدراك حقيقة الطبيعة الداخلية لكل هذا هو أبعد ما يكون عن اليقين النهائى.. لهذا كله نشأت هذه الصعوبة فى الشرح والتحديد والإبانة.

39- أستعمل كلمة حيل هنا مجازاً لأنه حتى وقتنا هذا لم أجد بديلا لها، وإنما أذكر القارئ بأنها ليست حيلة ودفاعا بقدر ما هى حقيقة إنسانية كيميائية بيولوجية نفسية معا.

٢- وظيفة تأجيلية: حيث نستطيع بهذه الحيل أن نؤجل أى خبرة وأى مواجهة لانقدر عليها فى لحظة ماحتى يحين الوقت الذى نجترها فيه بطريقة تسمح بالهضم والتمثيل كما سيأتى ذكره، وإذا جاز لنا التشبيه لقلنا أن الانسان بهذه الصورة يمكن أن يعرف بالحيوان "المجتر" نفسيا، إذ أنه يلتهم الخبرة أو يلبس الكيان، ثم يسترجعه فى مراحل تالية ليعيد تناوله وتكسيره تمهيدا لهضمه وتمثيله.

٣- وظيفة إثرائيةEnriching :حيث يكتسب الفرد من خلال هذه الحيل أساليبا فى الحياة ومهارات فى السلوك "جاهزة" يستطيع أن يستعملها مباشرة حتى يدرب قدراته الذاتية بالالتحام بهذه الخبرات التحاما ولافيا.

٤- وظيفة تكيفية: إذ يتم بإدخال هذا القدر الهائل من المعالم الخارجى (باستعمال الحيل الثلاث) إلغاء كثير من الاختلاف والتهديد بحيث يمكن تقبل مابقى من الواقع، كما يمكن تشكيله بحسب قدرة هذا العالم الداخلى، بالشكل الذى يسمح بالتكيف.

ولكن بالرغم من أن هذه الوظائف جميعا ضرورية ومفيدة إلا أنها لابد أن تكون "مرحلية" وإلا أصبحت خطرا معوقا كما ذكرنا مع كل حيلة، بمعنى أنها لابد أن تعود فتنفصل أو بالأخرى "تتعتع" Dislodgedعن بعضها البعض فى أوقات أكثر ملاءمة بحيث يمكن إعادة استيعابها كوقود للنمو المستمر.

أما كيفية تناول هذه المادة إذ "تتعتع" فإن ذلك يعتمد على الظروف الملائمة أو غير الملائمة- الداخلية والخارجية فهى التى تحدد المسار والنتاج لهذه العملية.

أولا: المسار الايجابى النموى:

إذا كانت الظروف مواتية بمعنى:

١- أن تكون الذات قد اكتسبت خبرات ومكاسب وصداقات وتقدير حقيقى بدرجة تغنيها عن كل هذه المساند والأغطية، مما يسمح للنمو أن يكسر قشرة التقمص كما يكسر الكتكوت قشرة البيضة حين يحين أوان الفقس، كما أن "عكاكيز" الغمد تسقط وحدها لأنها أصبحت أقصر من الساق التى نمت، ولكن التشبيهين يمثلان مرحلة الفقس فحسب، إلا أن النمو الانسانى يتميز بأنه ولافى بالضرورة، فهو ليس تنمية "الذات" بديلا عن (أو فى مواجهة، أو ضد) الآخر، بل إنه الذات فى الآخر لتكوين ذات أكبر من خلال جدل ولافى حى، وتكملة للتشبيه فإن النمو الانسانى لايترك وراءه القشرة (التقمص) أو العصا (الغمد) ظهريا، ولكنه يعود فيتناولهما من موقع القدرة ويهضمها لكى ينمو ومن خلالهما.

٢- ولكى يتم ذلك لابد أن يكون المجتمع فى الخارج مجتمعا مرنا نابضا، وفى نفس الوقت محدد المعالم Well structured فالمرونة وحدها أو التحديد وحدة لايكفى أى منهما بالاستيعاب المذكور، وقد يبدو التحديد ضد المرونة، إلا أن هذا تضاد ظاهرى فالقلب مثلا محدد تماما وقوى الجدران كعضو هام

هو مضخة الحياة، ولكنه أيضا مرن جدا وبدون هاتين الصفتين مجتمعتين لايقوم بوظيفته، والذين يخافون من التحديد يحاربون معركة وهمية، لأنه حتى لو كان الانتصار فى النهاية هو دحر الخارج (وهذا ليس صحيحا) فإن تحدى معالم هذا الخارج سوف يسمح بالانتصار، وبدون تحديد فإن المعركة ستجرى خبط عشواء فى الظلام.

خطوات الاستيعاب الايجابى:

إذ توفر هذا العامل الداخلى وذاك العامل الخارجى بهذه الصورة.. كان حل هذه المادة المدخله فى خطوات متتالية كالتالى:

١- **التعتعة**[40] Dislodgementوفى هذه المرحلة يفك التداخل الالتحامى مع بقاء كل شئ فى موقعه ولكن دون أربطة

لاصقة أو كيس مثبت، وبالتالى فإن الحركة القادمة تهدد بابتعاد هذه المكونات عن بعضها، وهذا مايحدث فعلا بدرجات متفاوتة.

٢- **المواجهة والاعادة** Confrontation and revision : بعد أن يفك الالتحام المثبت تواجه الكيانات المتعتعة بعضها البعض، وفى مثل الظروف التى أشرنا إليها، تعاد الخبرة فى ظروف أكثر تلاؤما، وتلوح الفرصة لاعادة استيعاب الكيان الذى ظل غريبا- رغم وظيفته الدعامية حتى هذه اللحظة- وعلى قدر نمو الكيان الذاتى الداخلى يمكن أن تمر هذه الخطوة بأقل درجة من المضاعفات مع بعض المشاعر المخيفة من الاحساس بالتهديد بالتغير أو التصادم الأمر الذى يمر بغير عنف، وربما بدرجة طيبة من التقبل وربما الحماس.

٣- **الهضم**Digestion : وهذه الخطوة تعنى ذوبان الكيان الخارجى (والخبرة الخارجية) وتحليلها إلى مكوناتها الأولى واستخلاص الجزء الملائم والضرورى للكيان الأصلى وفى نفس الوقت التخلص من الجزء الزائد غير المتسق مع الكيان الأصلي- وهى نفس صفات عملية الهضم سواء بسواء.

٤- **التمثيل والاستيعاب** Mentabolism and assimilation وهى أعظم خطوة فى الاستيعاب الايجابى حيث تأخذ العناصر المحللة المختارة (بعد لفظ الفضلات النشاز) لتحليلها إلى مكونات وعناصر نامية فى الكيان الأصلى، فيحدث النمو طبيعيا مع استيعاب كامل وتمثيل لهذه المادة الخارجية لتصبح وقودا ووحدات بناء فى نمو الذات.

40- يمكن استعمال لفظ آخر للدرجة الأخف من هذه العملية وهو لفظ "القلقلة" إلا أن ترجمة عرضIrritability بكلمة"قلقلة" قد يشوش الأمور، لذلك يستحسن الاقتصار هنا على لفظ واحد هو "التعتعة"، ولعل أصلح الكلمات وهى "لخلخلة" كانت الأفضل، إلا أنها علمية كما جاء فى الوسيط. والمقابل لها ألفاظ غريبة يصعب استعمالها مثل: لصلصة وسغسغة.

والواقع أن هذه الخطوات الضرورية للنمو لاتحدث بصورةكاملة وكلية، ولكن أى قدر من هضم المادة النفسية المدخلة عن طريق هذه الخطوات. لازم للنمو، أما بقية المادة فإنها قد تعود إلى الالتحام والتداخل من جديد فى انتظار نبضة استيعابية (بسط) جديدة فى ظروف أكثر تلاؤما.

وتعتبر الأحلام وسيلة الاستيعاب المادة المدخلة بنسبة جزئية أولا بأول، وفيها تتم الخطوات الأولى بسهولة (التعتعة والمواجهة والاعادة) إلا أن الخطوات التالية (الهضم والتمثيل) تحتاج لدرجة مناسبة من الوعى حتى يصبح أثرها دائما وفاعليتها دافعة.

مضاعفات العجز عن الاستيعاب:

أولا: أن تستمر المادة المدخلة (بالتقمص، والاحتواء، والغمد) ثابتة ملتحمة طول الوقت بحيث تقضى على أى احتمال حقيقى للنمو، وينتج عن هذا نمو متليف مبتسر، يظهر فى صورة إكلينيكية توضع تحت التشخيص الأساسى: اضطرابات الشخصية، وتشمل أيضا بعض أنواع العصاب المزمن.

ثانيا: أن تستمر المادة المدخلة بعد التعتعة فى حالة حركة مستمرة دون أن تنتقل إلى الخطوات التالية، وبالتالى فإنها تمثل نشاطا داخليا مستقلا ونشازا يجذب الطاقة نحوه وحوله، بحيث تصبح الطاقة المتاحة للنشاط الانبعاثى والتلقائى والخالقى ضعيفة ومنهكة، وهذا مايترتب عنه أكبر مجموعة مما يسمى "العصاب"Neurosis

ثالثا: إجهاض خطوات الاستيعاب مع تطوير الخطوات الأولى فى اتجاهات تنافرية متزايدة حتى التناثر، وهنا نشير إلى مسار تناثر كل حيلة من حيل الادخال على حده.

١- **حيلة الاحتواء:** بشموليتها وعمقها والتهامها تكاد تكون أصعب الحيل بالنسبة لخطوات التعتعة المبدئية، لأنها تعنى تداخل حتى الذوبان تقريبا وليس تلاصق التحامى فحسب، وحين تكون هذه الحيلة هى الطاغية تصبح أى محاولة للنمو أشبه بتفتيت الذرة (راجع أيضا حاشية: ٦٧، ٢٥٩) بما يترتب عليها: إما طاقة هائلة بلا حدود أو تناثر وتدمير بلا ضابط، وهذا ماتقابل التهديد به بشدة أثناء العلاج الجمعى المكثف لحالات الاضطراب النمطى للشخصية.

٢- **أما حيلة التقمص:** فإن تعتعة الكيانات المطبوعة واللابسة لذات إذا لم يتبعها خطوات الهضم والتمثيل فقد تتحرك التعتعة إلى مزيد من التباعد حتى "الملخ"[٤١] Dislocation، وينتج عن هذا الملخ أعراض محدودة تتصف أغلبها بالاحساس بالكيان (أو الكيانات) المملوخ بعيدا عن الذات، وبأنه مؤثر، أو موجه، أو مخل، ومثال ذلك أعراض الأصوات المعقبة Voices Commenting والأصوات الدامغة Voices Condemningوالأصوات المتناقشة Voices arguing وسائر الهلاوس فى أول ظهورها وليس فيما

41- اخترت كلمة "الملخ" لتشير إلى درجة أكبر من تباعد الكيانات بعد التعتعه، وأصل الكلمة يشير إلى الفصل والمباعدة معا، جاء فى الأساس (الزمخشرى) ".. امتلخ اللحام من رأس الدابة..، وامتلخ السيف من غمده.." وقد استعمل مجازا فى هذا السبيل يقول الأساس أيضا: "... ومن المجاز: هو ممتلخ العقل" وأقرب كلمة فى الانجليزية إلى المعنى هو Disloration وإن كانت قليلة الاستعمال فى لغة الطب النفسى والسيكوباثولوجى ولكن ينبغى البدء فى اعتبارها.

بعد اكتسابها اليقين الضلالى، وكذلك يندرج هنا ما يسمى بضلالات التأثير Delusions of Influence ولابد أن نشير إلى الفرق الجوهرى بين فهم هذه الظواهر على أنها ضلالات (اعتقاد وهمى..خاطئ.. الخ) بمعنى أنها اضطراب فى التفكير، وبين فهمها على أنها حقيقة بيولوجية تعلن الملخ بعد التعتعة يستقبلها المريض كحدث منذر ويعبر عنها بهذه الألفاظ التى تبدو وكأنها إعلان "الاعتقاد خاطئ" أو هلوسات، فى حين أنها– فى هذه المرحلة من بداية الذهان– ينبغى أن تؤخذ على أنها "لمعايشة" الجارى من تعتعة وملخ، ولابد بصفة خاصة من أن تؤخذ على أنها وصف "لمعايشة" الجارى من تعتعة وملخ، ولابد بصفة خاصة من التفريق بين "معايشة" الظاهرة البيولوجية الجارية ووصفها بألفاظ (عاجزة فى العادة) باعتبارها حقائق نشطة داخلية، وبين المعتقد الخاطئ وهى مرحلة لاحقة تبدأ بعد أن يعجز المريض عن استمرار معايشة الظاهرة الجديدة بثقلها الانفعالى مدة طويلة... وكأن الانتقال من مرحلة "المعايشة" إلى مرحلة "المعتقد" هو مايقابل "عقلنة"Intellectualization الخبرة الانفعالية.

٢– **أما حيلة** "**الغمد**"Introjection فإن مانتج عنها من محتوى داخلى إذ يتعتع ثم يعجز عن الاستمرار فى خطوات المواجهة والاستعادة والهضم، هذا المحتوى إذا تحرك ولم يحتمله الداخل فإنه يبعد ويسقط على الخارج

(٣٦) الرؤية الخطرة تهدد ومن ثم: الاسقاط

ولكى تنجح هذه الحيل جميعا لابد وأن تحدث بعيدا عن دائرة الشعور، فإذا اقترب هذا المحتوى الفج من الشعور كان اللجوء إلى مزيد من الحيل أو إعلان عجز الحيل، هما الأساسين الذى يترتب عليهما المرض،

(لكن الغمد بلا قاع،

وسنان السيف عيون تطلق نار المعرفة النور)

ورؤية الداخل هنا خطيرة بصفتها تهديد غير محتمل، ومن بين مخاطرها أن الرؤية إذ تبدأ لاتكتفى بالجزء المعرى من الخبرة لكن النور ينتشر إلى مناطق أخطر وأخطر، ويمكن تشبيه ذلك بالذى يبحث عما سقط من جيبه مصادفة فى حجرة مظلمة، وإذ ينير الحجرة لايستطيع أن يحد بصره بمكان سقوط هذا الشئ ويكتفى بالنظر إليه، بل إن النور إذ يشمل كل الحجرة قد يفرض على بصره رؤية مناطق أخرى غريبة أو بشعة أو مفاجئة لم يكن مستعدا لرؤيتها، ومن أخطر الرؤى التى تفرض نفسها فى أزمة إحياء البصيرة بهذه الصورة أن يرى الانسان "صورة" ذاته الداخلية المشوهة (كما عبر عنها أريتى:Mutilated Self Image) أما تجنب إكمال هذه الرؤية فإن المتاح هو الهرب من الداخل إلى الخارج فورا وأن يعمم الظلام كل الداخل ثانية بمزيد من الحيل، والحيلة الجاهزة المقابلة التى تقذف بالرؤية بعيدا عن الداخل هى الاسقاط.

الاسقاطprojection :

هو الحيلة التى بها نلصق ما بأنفسنا- مما لانحتمله أولا نستطيع مواجهته- على غيرنا، وتبدو هذه الظاهرة متواترة بشكل مزعج فى بيئتنا خاصة وهى الظاهرة التى يمكن أن تسمى "أنت الملوم " Puttning the blameوهى تشمل الإسقاط والتبرير معا.

(٣٧) نتائج الاسقاط على افراغ محتوى الذات:

ورغم أن هذه الحيلة شديدة التواتر فى الحياة العادية كما ذكرنا، إلا أن الافراط فيها لابد وأن ينتهى بإفراغ الانسان من داخله.

(أصبحت بلا أعماق ولا فحوى)

إذ تصبح صورة نفسه الظاهرة أمامه- إن جرأ على أن يراجعها- ليست صورته البته.. فهى إما ضائعة مغتربة قهرية، وإما ملتفة بالمحسنات البديعية التى لاتدل على حقيقتها، وكأن العملية الإسقاطية تجعل المواضيع الداخلية التى تجمعت بالإغماد أساسا، والتى كانت وظيفتها الربط الجزئى لحين الاستعادة والهضم فى عملية النمو، أقول كأن العملية الاسقاطية إذا أفرط فى استعمالها تفرغ هذا الداخل من محتواه، فى نفس الوقت الذى تضعه فى الخارج فتشوه الخارج أيضا وتلغى معالمه ويعيش الانسان بلا داخل (لأنه أسقطه خارجه) وبلا خارج (لأن الخارج لم يصبح سوى تليسات داخله المسقطة، فلم يعد له كيان قائم بذاته)، فخطورتها فى إعدام "الآخر"

(خرجت أمعائى تلتف مشانق حول رقاب الناس)

وفى إفراغ الذات معا

(وربحت إلى الداخل أتحسس .. ليس به شئ .. ليس به شئ .. ليس به شئ)

هذه هى نتائج الإفراط فى الاسقاط فى اضطرابات الشخصية (وفى بعض تنويعات الحياة العادية) قبل أن يحتد هذا الجانب أو ذاك ليكون مسئولا عن الأعراض ذاتها كما هو الحال فى تفسير كثير من الهلاوس والضلالات.

(٣٨) التقديس Idealisaltion :

حيلة التقديس تعنى صفات حسنة ومبالغ فيها لدرجة التنزيه على شخص آخر مرتبط به أشد الارتباط، وعادة مايصحب ذلك إلغاء كل المساوئ والهنات التى تتصل بهذا الشخص مهما كانت تافهة أوسطحية، وبالتالى يصبح هذا الآخر صورة نقية طاهرة قادرة على كل شئ، وهذه الحيلة شائعة أشد الشيوع فى الحب، وفى النظم الفاشية الشمولية وبديهى أن هذه الحيلة تلغى الآخر (الحبيب أو الزعيم عادة)ككيان موضوعى وتستبدله بصورة خيالية تعلن احتياج المحب إلى التبعية والاعتماد ليس إلا، إذا فإعلاء شأن الآخر هو خطوة تمهيديه للاعتماد عليه طفوليا رضيعيا مطلقا .

(.. أنت القوة .. أنت القدرة: أسرج ظهرك أعلو المحمل)

ولعل دراسة مشكلة الاعتماد[٤٢] Dependency تكون المفتاح الحقيقى لدراسة مشاكل النمو وطبيعته، وبالتالى تسهم فى إنارة طبيعة تكوين المرض النفسى، وهذه الصورة التى أقدمها هنا تصف علاقة التقديس بالاعتمادية، وماتعلنه هذه الظاهرة الأخيرة من قسوة وعدوانية سلبية، ثم مايترتب عن هذا وذاك من غفلة وذهول (لاتوقظنى..) ومن ثم توقف عن النمو.

(شكرا، عفوا لاتوقظنى فيك البركة . . أكمل . . أكمل)

ولاشك أن هذه الحيلة لاتتم إلا إذا كان المتلقى هو أيضا محتاج إليها، بمعنى أنه إذا كان المحبوب أو القائد أو القديس أو الشيخ يعيش حياته بموضوعية متواضعة، فإن هذه الحيلة لن تجد صدى لديه، وبالتالى ستخفت رويدا رويدا، أما إذا كان هو أيضا (وربما أساسا) فى حاجة إليها، فإنها سترعى وتزدهر، ولو شعر هذا المحبوب (أو الزعيم) المقدس بمدى مايحمله هذا التقديس من عدوان وقسوة وأعباء انفضه عن كاهله بلا تردد[٤٣]

(٣٩) التبرير :Rationalization

تعتبر هذه الحيلة من أشهر الحيل وأبسطها وأكثرها تداولا ونقدا على كل المستويات سواء فى الآداب المنمقة أو الأدب الشعبى والأمثلة العامية. (فى كل اللغات) ففى اللغة العربية نجد الشعر العربى التقليدى يعبر عنها فى قصة الثعلب:

وثب الثعلب يوماً وثبة شغفا منه بعنقود العنب

لم ينله قال هذا حصرم حامض ليس لنا فيه أرب

وفى الشعر العامى (صلاح جاهين)

العنب دا طعمه مر قال كده الثعلب فى مرة

والدليل على إنه مر إنه جوه وأنا بره

وفى الأمثلة العامية "اللى ماتعرفش ترقص تقول الأرض عوجه، قصر ديل ياأزعر، إيش حايشك عن الرقص يااعرج قال قصر الاكمام.. الخ"

42- تكمن ظاهرة الاعتمادية وراء مظاهرخطيرة شبعت بحثا وحديثا دون الإشارة المباشرة بدرجة كافية إلى معنى من اعتمادية ومثال ذلك:
١- ظاهرة النكوص حتى العودة إلى الرحم التى تكمن وراء كثير من مظاهر السلوك الشيزويدى خاصة كما تكمن فى أعماق الإنسان الذهانى ومحاولات مقاومته معا . . هذه الظاهرة ليست إلا الاعتمادية فى صورتها المطلقة.
٢-ظاهرة "الجنسية" التى افرط فرويد تحميلها مسئوليات أساسية فى الصحة المرض، كما أفرط هو وبعض تابعيه فى تحميلها أساسات تكوين المرض النفسى عامة قد لا تكون إلا تعبيرا عن اعتمادية بيولوجية على أخر.
٣-ظاهرة العدوان (بكل صوره) يكمن وراءها فى كثير من الأحيان خوف من الاعتمادية لدرجة عمل عكسها تلافيا للوقوع فيها، ونلاحظ أن أكثر العدوان يوجه إلى - أكثر المصادر إغراء بالاعتماد.
٤-ظاهرة الطرح Transference فى العلاج النفسى فى كثير من جوانبها تعيد الاعتمادية بمظاهرها الايجابية والسلبية بدرجة تتيح إعادة معا يشتها ... الخ.

43- ينبغى ألا يعنى عرض الاعتمادية بهذه الصورة العارية الإقلال من ضرورتها فى النمو إلى النهاية، وكل ما يمكن تجاهها ليس إلغاؤها وإنما توجيبها وتحويرها بما يناسب كل مرحلة من مراحل النمو، وأوجز هنا بعض أسماء المراحل دون تفصيل: الاعتمادية المطلقة اللاشعورية ثم الاعتمادية النسبية اللاشعورية ثم الاعتمادية المرفوضة الشعورية ثم الاعتمادية المتبادلة الشعورية ثم الاستقلال المتزايد مع تقبل الاعتمادية المتبادلة الموقوتة الجزئية.

وهذه الحيلة تعنى التفسير الشعورى السطحى لعجز أو قصور أو حدث نابع من نوازع مرفوضة أو مخجلة أو مهددة.. كلها قابعة فى اللاشعور، وصعوبة فهم هذه الحيلة وبدرجة أكثر من كل الحيل الأخري- تكمن فى أنها "أسلوب شعورى يغطى حدثا أو قصورا لاشعوريا.. وذلك دون وجود أى صلة حقيقية بين هذا وذاك" ولابد أن نكرر هنا للتأكيد أن الحيلة لاتكون حيلة إلا إذا تمت لاشعوريا.

وباستعمال هذه الحيلة استعمالا مفرطا تشوه الذات من حيث تبدو أفضل من حقيقتها بكثير، ويحرم الفرد من مزية النقد الذاتى الأمين الذى يسهم فى التطور والتغير (شريطة ألا يكون مجرد ألفاظ معلقنة)، وكأن هذه الحيلة- مثل سائر الحيل- تؤكد وتنمى الغيبوبة النفسية إذا زادت عن الحد، بلا أمل فى الإفاقة

(.. حتى تطمس كل عيوبى .. وغطيط النائم يعلو فى أرجاء المخدع).

(٤٠) **صورة الأم البشعة** Bad Mother Figure

فى الفكر التحليلى (التحليل النفسى) يستقبل الطفل أمه فى صورتين إحداهما (وربما أهمهما بالنسبة لأثرها وتناولها فيما بعد) هى الصورة الحسنة وهى صورة "أحب الناس لى أمى ومن بالروح تفدينى... الخ"، أى صورة الأم الحانية المرضعة المضحية، أما الصورة الثانية فهى صورة لاشعورية.. وهى تظهر فى القصص الشعبى بشكل متواتر فيما تسمى "أمنا الغولة"، ولابد من الوقوف طويلا أمام إصرار الأدب الشعبى على صفة "الأم" للغولة رغم بشاعتها وتشويهها والتهامها وخطورتها (ونكرر هنا الملحوظة التى سبق الاشارة إليها فى كيفية أن الأدب الشعبى خاصة لابد أن يعتبر مصدرا أساسيا لفهم اللاشعور الفردى والجمعى) وتأتى البشاعة والتهديد من مصدرين:

الأول: الشعور بأن الأم هى مصدر التهديد بالترك، وإذ هى المصدر الأساسى أو الأوحد حسب تصور الطفل- للحياة (اللبن والحماية) فإن تهديدها بالترك يعنى قتل الطفل لامحالة[٤٤]

الثانى: التهديد بإعادة الاحتواء (الالتهام) ويتوقف هذا على مدى نضج الأم وقدرتها على السماح لوليدها بالانفصال عنها نفسيا، والطفل يشعر برغبة الأم فى استعادته فى رحمها- بالاحتواء- ويقاوم ذلك، رغم أنه يحن فى أعماقه إليه، إذا، فصدمة الميلاد هى صدمة للطفل والأم على حد سواء، وقد يترتب على هذه الصدمة عند الأم مايسمى ذهان النفاسPeurpeural Psychosis حيث يكون انفصال الطفل الجسدى عن جسدها بمثابة تهديد لاختلال التوازن سرعان ماتلجأ إلى استعادته بمحاولة التهامه، الأمر الذى يستقبله الطفل كتهديد مباشر يبرر استعمال هذا اللفظ "أمنا الغولة" فى القصص الشعبى.

وتستمر عملية النمو ومحاولة الانفصال من جانب، والأمل فى الاستعادة من جانب آخر، وإذا سار النمو فى مساره الطبيعى فإن الانفصال يتم بالرغم من الأم (الغولة)[٤٥]

44- راجع أيضا مشاعر التهديد بالترك مع شرح سيكوباثولوجية الاكتئاب الفصل الخامس.

والتحايل على التعامل مع هذه الصورة البشعة يظهر فى الأدب الشعبى فى صور مختلفة، حيث تحسن "ست الحسن والجمال" إرضاء أمنا الغولة بالتحايل والتغطية، فى حين تبدو المصارحة الفجة موردا للتهلكة٤٦

ومن أهم الحيل التى تغطى صورة أمنا الغولة البشعة حيلة تسمى:

حيلة تكوين رد الفعلReaction Formation

(ماأحلى طعم السمسم)

وهذه الحيلة تعنى أننا نرى ونفعل عكس مايكمن داخل نفوسنا إذا كان هذا الذى يكمن فى الداخل مهدد أو بشع أو شائه، فنرى المساوئ حسنات، ونحس بالكراهية وكأنها حب مفرط، وكل هذا يحمينا من مواجهة العدوان والتعرض لمخاطر الالتهام أو الرفض.

(٤١)، (٤٢) حكمة المناورة فى التحايل للنمو

ينبغى أن يؤخذ الحديث عن الحكمة هنا بمعناها الرمزى، وفى نفس الوقت بعنقه البيولوجى، فإذا درسنا التوازن الحيوى فى الكائنات ذى الخلية الواحدة لأمكننا أن نصيح عجبا " ياحكمة الأمبيا فى إصرارها على الحياة".. مثلا، وحكمة الطفل هنا تكمن فى التحايل للإغضاء عن عيوب أمه (الغولة) حتى يكبر ويستفيد من معطياتها الضرورية ثم يهرب ويزداد نموه ليعود فى النهاية لمواجهتها واستيعابها، ونحن نستنتج الحكمة الطفلية من الأدب الشعبى، والخبرة الاكلينيكية، والحتم البيولوجى لاستمرار الحياة.

(يا حكمة طفل شاخ بمهده

لا أحد يقول لغولة دربه

عينك حمره٤٧

(ما أجمل وجهك يا أمى الغولة

ما أنعم شعرك

ما أحلى طعم السمسم)

(٤٣) اعادة تفسير "عقدة أوديب":

45- فى الأدب الشعبى إعلان لهذا الانفصال بهرب الأطفال من الغولة بعد تسمينهم بالاكل الكافى فتهيم أمنا الغولة على وجهها صارخة "سمنتكم ولا كلنكم"

46- تحكى هذه الحدوته كيف أن البنت الساذجة ذهبت تجمع حشائش فى الغابة فالتقت بأمنا الغولة، فقال لها "اقعدى فلينى" فجلست تمشطها ممتعضة محتجة، فأمرتها أن تاكل قملها، فظلت تقول "قملك وحش يامه الغولة" وبانتهاء هذه المهمة عاقبتها الغولة بأن أمرت البير (اللاشعور) أن يأتى لها بكل ما هو شئ مخيف "يابير هات لها تعابين كثير يا بير هات لها خنافس كتير، يا بير هات لها عقارب كتير .. الخ" فلما ذهبت ست الحسن والجمال إلى جمع الأعشاب وعلمت ما جرى للبنت الأخرى، أخذت معها خفنة من السمسم وأخفته، فلما طلبت منها الغولة تمشيطها أخذت تمتدح شعرها المسترسل، وتقصع القمل وتأكل السمسم وتقول "قملك حلو يامه الغولة" حتى رضيت عنها فأمرت البير بمكافأتها "يا بير هات لها غوايش كثير، يا بير هات لها حلقان كتير، يا بير هات لها عقود كتير ... الخ

ودلالة هذه القصة هى التأكيد على ضرورة التحايل على المحتوى البشع الخارجى سواء ظل خارجيا أم أدخل بالاحتواء حتى يمكن التصالح معهما مؤقتا لحين النمو بدرجة كافية (ثم إعادة المواجهة والاستيعاب فى حينهما).

47- أصل المثل العامى: "ماحدش يقول للغولة عينك حمرا".

أبدأ فى هذا المقام باستبعاد أن الرغبة فى مضاجعة الأم هى أصل الموقف الأوديبى، بل كما سنرى، ربما تكون نتيجة للموقف الأوديبى، فرغبة الطفل الأساسية عند مواجهة ضغوط الواقع التى تفوق احتماله وتصدم مسيرته الأمامية هى العودة إلى أمان الرحم، ومن أهم صور الواقع المهدد.. مواجهة عجز الطفل أمام القوى الأكبر التى تفرض المنافسة معه (يرمز إليها الأب بشكل خاص)، وإذا كان الطفل قد نجح فى مواجهة ضغوط الواقع التى تفوق احتماله وتصدم مسيرته الأمامية هى العودة إلى أمان الرحم، ومن أهم صور الواقع المهدد.. مواجهة عجز الطفل أمام القوى الأكبر التى تفرض المنافسة معه (يرمز إليها الأب بشكل خاص)، وإذا كان الطفل قد نجح فى مواجهة التهام أمه البشع باستعمال حيلة تكوين رد الفعل، فإن الهرب هنا يظهر وكأنه يحقق رغبة الأم الملتهمة، أى يبدو فى اتجاه العودة إلى الرحم خوفا من احتمال سحق الأب (وهذا يقابل أيضا بعض تفسير "جانترب" عن رحلة الداخل والخارج كما سيأتى ذكرها، ونكتفى بأن نشير هنا إلى أنها ".. رحلة إلى الرحم بعيدا عن السحق الخارجى، ثم بعيدا عن الرحم هربا من الالتهام الإلغائي")

على أن الدخول فى الرحم لايتحقق فى مدى الامكان الفعلى إلا بالممارسة الجنسية حيث يتم فيها ادخال عضو (رمز للكيان الكامل) فى كيان المرأة (الأم) وبالتالى فإن الرغبة فى العودة للرحم تبدو– وخاصة حين تستعاد فى زمن متأخر من العمر– وكأنها أخيلة جنسية فى حين أنها قد تكون مجرد رمز للرجوع إلى الرحم٤٨

(٤٤) رمز العمى النفسى فى الأسطورة:

ولعل فقأ أوديب لعينيه لم يكن رمزا لشعوره بالذنب فحسب، بقدر ماكان يعنى تجنب رؤية الواقع بكل تهديده وتعقيداته ومرارته وجبروته، كما أنها تأكيد على أن الرؤية العارية هى المصيبة المرعبة أثناء رحلة النمو، وخاصة إذا تعلقت هذه الرؤية بالاعتراف ببشاعة صورة الأم والأب معا سواء كان ذلك حقيقتهما أم مجرد مبالغة نتيجة للمخاوف والمخايل اللاآمنة.

(٤٥) ومع الرغبة فى تزايد تجنب الرؤية نتيجة للتهديد المتزايد لابد من جرعة مضاعفة من الحيل النفسية، وتزداد حيلة تكوين الفعل حتى تختلط بالتقديس، ويزداد عزل الطفل بأمه رشوة لها وإمعانا فى المناورة حفاظا على ذاته.

(٤٦) درجات الوعى:

من أهم الدراسات التى تتناول الوعى الانسانى ماذهب إليه البعض من تقسيم الوعى إلى مستويات متصاعدة تبدأ من الغيبوبة، وتتصاعد حتى الوعى الفائق، مارة بالنوم واليقظة العادية، والمهم هنا أن أشير إلى أن بعض هذه الدراسات قد وصفت حالة اليقظة التى يعيش فيها أغلب الناس بأنها درجة من

48- يمكن أن يمتد هذا الفرض إلى تصور أن العملية الجنسية بين ناضجين (إذا لم تكن بهدف التناسل أصلا) فهى ليست سوى تحقيق لهذه الوظيفة النكوصية. وجسدنة رحلة الداخل والخارج.

التنويم (نصف النائم..أو نصف اليقظان)، وهذه الدرجة من الحذر إنما ترجع إلى الافراط فى استعمال هذه الحيل النفسية...، حيث تصبح المعلومات الخارجية والداخلية ليست فى متناول الإدراك الموضوعى المباشر الخلاق بقدر ماهى مثيرات لعمليات ميكانيكية تغلق مسام الرؤية أكثر فأكثر.

(وتغوص الأقدام إلى الأعناق فى كثبان الخوف)

(٤٧) الحيل النفسية وراحة العمى:

لاشك أن الحيل النفسية فى مبدئها- كما ذكرنا- تسهم فى تجنب الألم والقلق، وبالتالى تسهم فى تحقيق لذة ما، وهذا مقبول كمرحلة بدائية، ولكنا- كما ذكرنا وكررنا أيضا- لابد أن نعيد تقييم هذا النوع من الراحة بمقاييس أعمق وأصلب: مثل درجة التمتع بالنبض الإنسانى، ومدى صلابة الوجود الناشئ عنها بمعنى الموقف الناتج عنها، وبهذه المقاييس يمكن القول أن هذه الراحة لو طالت فإنها إعلان للتوقف عن النمو، والعجز عن الارتقاء إلى مرتبة الانسان بحق، فإذا تمادى الانسان زاد بعده عن فرص النمو أكثر وأكثر حتى ليعتبر أى مخاطرة نمو بعد ذلك تحمل تهديدا باللاتوازن لدرجة الذهان، كما أن من صفات هذا النوع من الراحة صفة المبالغة فى قيمة التشكل (راجع أيضا حاشية ١٣).

(وتنابلة السلطان يغنون اللحن الأوحد

لحن رضا السادة فى بيت الراحة

راحة من راح بلا رجعة)

(٤٨) النمو المجهض:

وإذا لم يحقق الانسان مدى نموه المتاح، أو فى القليل استمرار تفتحه نحو النمو، فإن حياته لابد وأن تصبح مرحلة جامدة وبالتالى سلبية فى تاريخه الفردى، حتى ولو حسبت بحساب الجماعة على أنها إيجابية بشكل ما، بمعنى أن يعتبر مجرد ناقل للجينات، أى مخزن بيولوجى للمكاسب الإنسانية السابقة، بمعنى أنه يقوم بالحفاظ على الكم البشرى تمهيدا للطفرة النوعية التالية فى فرد قادم قادر على رفض رغم هذه الراحة العمياء.

(٤٩) الدائرة المغلقة فى حركة النمو

The closed circle in growth movement

بما أن الحياة هى الحركة، وبما أن ماقدمنا من وصف الافراط فى استعمال الحيل النفسية هو التوقف، فكيف نوائم بين ضرورة الحركة مادامت الحياة مستمرة، وبين أهمية الحيل النفسية مادام للخوف مايبرره وللعمى ضرورة مرحلية؟

نقول إنما يتم هذا التوافق بصورة معطلة أحيانا بالجمع بين الحركة والتوقف إذ تنشأ دائرة مغلقة بمعنى تكرار الفعل اليومى المغترب ,Alienated daily work والتمادى فى المكاسب القهرية Compulsive achievementمما يهيئ جميعه لإعلان خطر التوقف رغم ظاهر الحركة.

(والاعمى يبحث عن قطته السوداء

فى كهف الظلمة)

وحكاية هذه الحركة المتوقفة "محلك سر" كنا قد أشرنا إليها فى الحديث عن العجز عن استيعاب المادة الداخلية (ص ٩٤ حاشية ٣٥) وقلنا حينذاك ".. إنها تمثل نشاطا داخليا مستقلا ونشازا يجذب الطاقة نحوه وحوله..

وهذا مايترتب عنه أكبر مجموعة من الأمراض النفسية العصابNeurosis "

وقد حان الأوان لدراسة بعض عينات من العصاب وكيفية تكوين الأعراض فيها، وهذا هو موضوع الفصل التالى.

الفصل الرابع

عناصر الفصل الرابع:

- العصاب
- زيادة احتمالات انهيار الحيل فى العصر الحاضر
- رؤية لأبعاد صراع جديد

الرهاب

- العصاب الرهابى
- رهاب (الخوف من) الضياع

رهاب الأماكن المزدحمة

- رهاب الأماكن المغلقة - رهاب الأماكن المتسعة - رهاب الاماكن المرتفعة
- رهاب المرض - رهاب المرض - رهاب الموت - رهاب الجنون
- رهاب فقد التحكم - فشل الدفاع الرهابى
- العصاب الوسواس القهرى
- عودة مرغمة إلى النظر فى الداخل
- المرحلة القبلفظية
- أصل الطبيعة المنقسمة للإنسان
- طغيان التفكير التكرارى
- وظيفة التكرار والحلوسط
- بعض مظاهر السلوك الوسواسى
- هوس النظافة
- فشل الحل الوسواس
- العصاب المزمن واضطراب الشخصية
- فشل الجمود
- الوعى الزاحف الثائر يفشل العصاب
- الدين والإيمان والفطرة والتكامل
- الاغتراب والبعد عن الوعى بالذات
- اللفظ المفرغ من معناه ضد تناغم الأكوان
- إيمان الحب وتدين الخوف والطمع.
- تشوه الفطرة من الداخل.

العصاب

NEUROSIS

مقدمة:

العصاب هو ما يعنيه العامة حين يذكرون كلمة المرض النفسى (دون العقلى) وهو نتيجة مباشرة للافراط فى استعمال الحيل النفسية لدرجة ظهور الاعراض، على أن هناك مجموعة اخرى من الامراض النفسية هى اضطراب الشخصية يفرط الفرد فيها فى استعمال الحيل النفسية أيضا ولكن دون ظهور أعراض محددة فى وقت بذاته، وإنما ينتج عن ذلك اضطرابا كليا ومزمنا (أو دائما) فى نمط الشخصية أو فى سمة أو عدة سمات منها، أما فى العصاب فإن أعراضا محددة تنشأ كنتوءات سلوكية شاذة عن السلوك الشائع المألوف للفرد، إذا فوجه الشبه بين اضطراب الشخصية والعصاب واضح سيكوباثولوجيا بحيث يسمح لمؤلف ثقة مثل ماير جروس Mayer Gross أن يدرجهما معا فى فصل واحد وتحت عنوان واحد.

وسوف أقوم هنا بتقديم بعض أنواع العصاب وبعض الاعراض الشائعة، تاركا الباقى لدراسة منهجية شاملة تأتى فيما بعد، وبصفة عامة؛ فإن الفصل السابق يشير الى مظاهر الافراط فى الحيل.. هذا الافراط الذى يعد مسئولا مباشرا عن أنواع العصاب المختلفة، ومثال ذلك أن الإفراط فى الكبت بشكل حاد لذكرى معينة قد ينشأ عنه فقد الذاكرة الهستيرى.. وهكذا.

وطبيعة تناول العصاب هنا- كما كان الحال فى الحيل النفسية وكما هو الحال فى سائر أجزاء هذه الدراسة- هى رؤية من الداخل، أى أنها وصف للعمق اللاشعورى بألفاظ تبدو واعية وشاعرة ومباشرة، وكأن اللاشعور هو الذى يتكلم..، لذلك وجب إعادة التنبيه خشية الوقوع فى خطأ تصور أن الاعراض إذ تحدث يكون الانسان واعيا بطريقة تكوينها، هذا الوعى الذى يبدو اراديا فى المتن.

(٥٠) زيادة احتمالات انهيار الحيل فى العصر الحاضر:

من مآسى هذا العصر الذى نعيشه، ومن روائعه فى نفس الوقت، أن الحيل النفسية لا تصلح أن تستمر فيه فترة طويلة دون اهتزار أو تخلخل، فنظام القبيلة (وهو من أهم النظم التى تحتاج لوفرة من الحيل) فى تآكل مضطرد، والمطابع تقذف الى عيوننا بكل جديد مزعج، والفن يخترق جلودنا النحاسية جماعات بلا هوادة، والقيم القديمة لم تعد تغنى أغلب الناس مدى الحياة، ومن هنا كان التهديد بانهيار الحيل أكثر حدة- على حد علمنا- من عصور مستقرة مضت

(ورقاب نعام اليوم قصار.. تأبى أن تدفن هامتها فى الرمل)

على أن هذا لا ينبغى أن يضللنا عن أن آثار انهيار حيلة ما (مثل الكبت Reprsseion قد يحل بظهور حيلة أخفى (مثل العقلنة Intellectualization) والتهديد بانهيار الحيل العادية هو الحافز الأول للجوء

للمزيد من الإفراط فى حيل أخفى وأخطر، والعصاب هو نتاج الإفراط فى هذه الحيلة أو تلك، حماية ودفاعا ضد التهديد المتلاحق بانهيار هذه الحيلة أو تلك.

(٥١) رؤية لأبعاد صراع جديد:

تعودنا أن نرسم بعدى الصراع بين اللذة والألم، أو بين الذات والواقع، أو بين الجنس والعدوان.. الخ، ولكن صورة الصراع هنا- إذ تضعف الحيل النفسية- تأخذ شكلا جديدا وهو الصراع بين رؤى الداخل والخارج

(فى الداخل كهف الظلمة والمجهول وتفتيت الذرة والخارج خطر داهم)

بين أن نرى أو لا نرى، فالرؤية لازمة ضمنا فى بداية مسيرة النمو، ولكنها خطر مهدد لأنها تحمل الجديد، وعدم الرؤية أمان ظاهر ولكن لا استمرار له، فإذا ألحت الرؤية كحتم عصرى، أو فردى مرحلى، نشأت مواجهة اختيار صعب آخر وهو أن الرؤية قد تضطرنا الى رؤية ذاتنا من داخل: سواء بخطورة تحفزها الفطرى، أم بالصورة المشوهة التى رسمناها لها، أم بمحتواها الناقص (لم تتم معايشته) والمهدد، وهى قد تضطرنا لرؤية الخارج بما يحمل من تحفز للسحق ووسائل للقهر وإصرار على الالغاء، ورؤية الداخل عاريا يحمل خطورة الذهان اساسا، والعصاب فى اساسه دفاع ضد هذا الاحتمال، لذلك فإن الاختيار فى هذا الموقف لا بد أن ينتهى الى توجيه الخوف الى الخارج.

(٥٢) الرهاب:

(يبدو أن الرعب من الخارج أرحم)

لأن الخارج مهما بلغت قسوته الفعلية، فهو فى متناول اليد والتعبير والتجنب أحيانا، أما الداخل فهو المجهول المرعب بطبعه، والعصابى لا يخشى الخارج[1] كما هو، بل إنه يختار منه مواضيع رمزية يوجه اليها طاقة مخاوفة.

وعلى كل فيمكن الحديث عن نوعين من المخاوف العصابية يشتركان بشكل ما فى أصل تكوين الاعراض وإن اختلفا فى الظاهر والمصاحبات السلوكية وكذلك فى العلاج وتوقع سير المرض وهما:

(ا) العصاب الرهابى (المخاوفى) Phobic N eurosis

(ب) الرهاب الوسواسى Obsessive Phobia

والفرق الاساسى بين هذين النوعين هو أن العصاب الرهابى يصف خبرة نشطة معاشة انفعاليا[2] بمصاحباتها العصبية الأتونومية اساسا (عرق اليدين ودق القلب وشحوب الوجه.. الخ) أما النوع الثانى فهو خبرة متبقية ملحة ذهنيا Intellectual يصاحبها اجترار فكرى أو قهر أو توتر، وإلى درجة أقل

---

1 - يعتبر محتوى الفكر فى ظاهر العقل "خارجاً" أيضا فهى فى متناول التغيير والتجنب معاً.

2- قارن هذه التفرقة بتلك التى أشرنا اليها فى التفرقة بين الخبرة المعاشة فى مواجهة التتعة أو الملخ، وبين الضلال كاعتقاد خاطئ ص٩٦ ، وستكرر مثل هذه التفرقة طول الدراسة.

يصاحبها متغيرات عصبية أتونومية على أن العامل المشترك بينهما هو كيفية نشأة المخاوف العصابية المرضية وإن اختلف المسار فيما بعد.

وتفسير تكوين المخاوف المرضية الذى أطرحه هنا هو أنها تعلن تفضيل أحد شقى الاختيار ؛ بمعنى أنها تعلن اختيار الخارج كمصدر للرعب، إذ أنه يبدو- مبدئيا- فى متناول السيطرة، أما الداخل بما يحمل من مجهول وتشويه فهو الخليق عند العصابى بالتغطية والالغاء، وبهذا الاختيار أرجح المقولة الاساسية فى هذه الدراسة وهى أن العصاب ما هو إلا دفاع ضد الجنون لا أكثر ولا أقل، ولذا فهو - فى ظاهره، مثله مثل اضطراب الشخصية- نقيض الجنون، وفى نفس الوقت هو نقيض الوعى الاعمق... أى أنه نقيض التناثر والنمو فى آن واحد.

ووظيفة العصاب إذا هى ابعاد هذا الوعى وتأجيل التناثر المهدد لفترة ما.. أو إلى الابد، وهو يحافظ-إذن- على تماسك الشخصية ولو بالاعراض العصابية.

بعض أنواع العصاب:

١-العصاب الرهابى Phobic Neurosis

(٥٣) رهاب[3] الوحدة (مخاوف الوحدة) Loneliness

يشكو المريض هنا عادة من خوفه ن أن يكون وحيدا، الأمر الذى قد يضطره الى أن يصحب أحد أقاربه أو أصدقائه فى كل مكان، فإذا ما اضطر أن يبقى وحده ولو دقائق انتابته أعراض الخوف، وعادة ما ينشط الجهاز العصبى السيمبثاوى (وهو الجهاز المختص بالتعبير الفسيولوجى عن الخوف والإعداد للكر والفر) وخاصة أن هذا الرهاب هو عادة ن نوع العصاب الرهابى أكثر منه من نوع الرهاب الوسواس (راجع ص ١٠٩) وتفسير هذه المخاوف من خلال هذه الدراسة ينصب مباشرة على أن هذا العرض يعلن أمرين أساسيين:

١- إعلان الاعتمادية المطلقة التى تشير الى الميل الى نكوص شديد، حين كان الطفل يستمد كل حياته من وجود آخر.

٢- إعلان التهديد بفقد أبعاد الذات، وكأن وجوده دون تحديد ودعم خارجيين يعرضه لأن تنهشه محتوياته الداخلية، أو لأن تنطلق منه هذه المحتويات، ويشير هذا وذاك ضمنا الى أن أبعاد ذاته مهددة بالاختفاء، أو على الأقل أنها قد بلغت من الرقة مبلغا يعلن الحاجة الى الدعم الخارجى المباشر.

وأنا أقدم هنا أساسا تفسيرا تركيبيا لما يحدث فى تركيب الشخصية دون الغوص فى إرجاع أسباب هذا التهديد بفقد أبعاد الذات من واقع الاستعداد الوراثى والخبرات السابقة والأزمة الضاغطة الحالية، فكل ذلك يكاد يكون عاملا مشتركا فى التهيئة للمرض النفسى عامة، وحتى التركيز على ما ذهب اليه السلوكيون

3- فضلت استعمال كلمة رهاب (على وزن فعال) عن كلمة مخاوف التى كنت أستعملها فى مؤلفاتى السابقة لتأكيد المعنى المرضى لهذه المخاوف، والتقليل من الخلط بين الخوف العادى والخوف المرضى العصابى.

من أن الرهاب ما هو إلا تشريط Conditioning شاذ ومرضى، فإن ذلك لا يكفى لتفسير من الذى يصاب بهذا التشريط دون غيره ولا متى يفعل مثل هذا التشريط فعله المرضى دون أى وقت آخر.

وبصفة عامة نؤكد أن ضعف الذات فى مواجهة الواقع من ناحية، ثم فى مواجهة الداخل من ناحية أخرى، ثم عجزها عن النمو من ناحية ثالثة، هى الأرضية التى يظهر فيها هذا العصاب أو ذاك الذهان، الأمر الذى يتحدد نوعه بعوامل متعددة وأحداث مختلفة. وعلى ذلك فإن التعجل بالتخلص من هذا الرهاب-عن طريق فض التشريط Reconditioning مثلا، دون إعطاء البديل الدعامى الصحى من الخارج أولا، حتى تقوى أبعاد الذات، هو مخاطرة لها عواقبها الوخيمة ظاهريا (الذهان) أو المشوهة إنسانيا (البلادة).

وكذلك فإن محاولة تفسير مثل هذا الرهاب تفسيرا عقلانيا بالبحث عن جذوره وارتباطاته بحوادث طفلية وتثبيتات جنسية هو نوع من عقلنة الرهاب، وهو إذا، استبدال حيلة مكان حيلة، إذ أن التناول الصحيح هو البحث عن أسباب ضعف الذات وعجزها عن النمو، ثم تهيئة المصدر الدعامى المباشر حتى تهئ الجو الملائم ويأتى الوقت المناسب للنمو، وهذا التفسير يسرى بصفة عامة على أغلب أنواع الرهاب.

(٥٤) رهاب (الخوف من) الضياع Phobia (Loss):

بالرغم من أنه لا يوجد وصف سابق لمثل هذا النوع من الخوف على أنه رهاب نوعى، فإنى أوردته هنا لكثرة تواتره سواء كجزء من بداية الذهان، أم كعصاب قائم بذاته، وفى هذا النوع يأتى المريض يشكو من الخوف من قوى عاتية مجهولة (شريرة فى العادة) وهو رمز للخوف من المفاجأة.. والخوف من الجديد.. والخوف من المغامرة والخوف من المستقبل..، وقد يكون هذا الخوف غامضا عاما داخليا مبهما، وفى هذه الحالة يعتبر جزء لا يتجزأ من عصاب القلق، ولكنه قد يكون محددا وموجها لقوى عامة فى الخارج (دون اعتقادات سحرية أو تأثيرية)، وبالتالى فهو يستعمل حيلة الإسقاط كحيلة مساعدة، وهنا أعتقد أنه يستحق وصفا قائما بذاته أقترح له اسم رهاب الضياع loss phobia والضياع هنا عادة قرين الجنون، وقرين الموت معا، والمقطع الذى استعرته من الأدب الشعبى (تخطف رأسى الحدأة) يشير الى الأرجوزة واحد اثنين سرجى مرجى[٤] التى نهايتها:

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

مشته عالمشاية

خطفت رأسه الحداية

هذا المقطع يشير الى عمق هذه المخاوف من أن قوى خارجية قد تخطف رأس الطفل إذ يتقدم فى طريق نموه، والحدأة التى تخطف هنا قد تكون الموت، وخطف الرأس بالذات قد يعنى ذهاب العقل.. فالخوف من الضياع أيضا هو فى جوهره خوف من فقد أبعاد الذات، وخوف من الموت، وخوف من الجنون.

4- يمكن الرجوع الى تحليل قمت به لهذه الأرجوزة فى كتابى حياتنا والطب النفسى ١٩٧٢، دار الغد للثقافة والنشر.

(٥٥) رهاب الاماكن المزدحمة:

ويشير هذا النوع من الرهاب أيضا الى ضعف الذات الذى يظهر هذه المرة فى الخوف من اقتحام الآخرين (فى حين كان قد ظهر فى رهاب الوحدة كحاجة الى دعم الآخرين)، وهو يعلن أيضا عمق الظاهرة الشيزويدية ٥، ونفس المعتقد كامن وراء بعض الفكر النفسى الوجودى (الآخرون هم الجحيم: سارتر)، وهنا يستقبل المريض فى أعماق لاشعوره أن مجرد وجود الآخرين هو تهديد بإلغاء ذاته

(أما بين الناس .. فالرعب الأكبر أن تسحقنى أجسادهم المنبعجة اللزجة، والممتزجة)

فهو يستقبلهم ككتلة بلا معالم وليس كأفراد قادرين على التميز والأخذ والعطاء والتواصل.

(٥٦)، (٥٧)، (٥٨) رهاب الأماكن المغلقة claustrophobia:

يذكر القارئ كيف أشرنا الى دفاع الطفل ضد محاولة أمه استعادته (حاشية ٤٠) وكيف أنه بالرغم من ذلك يحن الى العودة الى الرحم فى جذور وجوده، وها نحن نعود هنا لنفسر هذه المخاوف من الأماكن المغلقة مباشرة بالخوف من العودة الى الرحم، ولا تناقض بين الرغبة فى العودة الى الرحم وبين الخوف من ذلك، فالرغبة تكاد تكون مساوية دائما للخوف والعكس صحيح، إذا فالنكوص مهرب وفى نفس الوقت هو رعب مواتى، ويتوقف تفسيره وموقف الانسان منه حسب توقيته ودرجة الاختيار فيه ثم القدرة على الحركة منه واليه.

فإذا رجعنا الى الحديث عن أن كل أنواع العصاب هى دفاع ضد الجنون، كان لنا أن نتصور النكوص العنيف هنا بما يمثل الجنون، إذ أنه يبدو نشاطا ذهانيا انسحابيا مهددا، فسرعان ما يسقط المريض هذا النشاط على العالم الخارجى، فيتصور (فى لا شعوره أولا) أن أى مكان صغير مغلق هو الرحم، وإن لم تحمل العودة الى الرحم معنى الموت الفعلى، فإنها على الأقل تحمل معنى الإعاقة والإلغاء ووقف النمو فى سجن محدود الأبعاد.

(أخشى أن يغلق خلفى الباب)

(فالباب المقفول هو القبر.. أو الرحم.. أو السجن)

(٥٩) رهاب الأماكن المفتوحة (المتسعة) Agoraphobia

وهذا النوع من الرهاب هو نقيض النوع السابق ظاهريا إلا أنه يساويه بشكل ما، وهو قريب أيضا من رهاب الوحدة وتفسيره السيكوباثولوجى الذى تقدمه هذه الدراسة هو أنه مكافئ للتهديد بفقد أبعاد الذات، إذ أن الذهان المهدد هنا يعلن اقتراب فقد أبعاد الذات بمعنى أن التحديد بين الذات وبين العالم الخارجى أصبح ضعيفا رقيقا أو مخلخلا، وبالتالى تصبح أبعاد الذات غير كافية لتحديد الذات من الخارج، ويصبح الوجود فى مكان مفتوح (بلا ابعاد) إعلان لهذا التهديد، وفى نفس الوقت مواجهة بالتناثر والخلط بين الداخل

5- اعتبر جانترب أن الظاهرة الشيزويدية هذه تكمن وراء كل الأمراض النفسية وذلك فى كتابه: الظاهرة الشيزويدية، والنفس ، والعلاقة بالموضوع (انظر المراجع)

Schizoid Phenomena, Object relations and the self.

والخارج، إذا فهذا الرهاب هو مكافئ للتهديد بفقد أبعاد الذات المشير بدوره الى الذهان، وينبغى أن نشير الى أن فشل هذا الرهاب فى المعاونة فى تحديد الذات قد يعرضها للخطوات التالية وهى:

(ا) شفافية حدود الذات فى الفصام النشط (التى ينشأ عنها أعراض قراءة الأفكار وإذاعة الأفكار Thought broadcasting ...الخ) (ب) ثم فقد أبعاد الذات (بما ينشأ عنه من اختلاط الضمائر وأعراض اضطراب عملية الفكر والغموض... الخ) فى الفصام المستتب.

كما أن الخوف من الأماكن المفتوحة يعلن - رمزا- الخوف من الذات المفتوحة، بمعنى الخوف من التعرى النفسى (الباب المفتوح يذيع السر) .. وهذا التعرى لا ينشأ عادة إلا فى حالات الذهان أو خبرتى الكشف الصوفى، أو العلاج المكثف.

(٦٠) رهاب الأماكن المرتفعة Acrophobia

يتصف هذا النوع بأن المريض فيه يعانى من - ويتجنب غالبا- الاماكن المرتفعة.. والنظر منها خاصة[6]

وتفسير هذا الرهاب- دون الحاجة الى الرجوع الى ارتباط شرطى (مسطح) سابق أو تفسير جنسى عفوي- هو أن مثل هذا الانسان فى الاماكن المرتفعة، يواجه البعد النسبى عن ثبات جاذبية الارض، ويصبح فى مهب قوى داخلية على وشك الاثارة (التهديد بالذهان .. ثانية) وهذه القوى التى تطل برأسها مهددة بإلقائه من سور الشرفة أو من أعلى السطح إنما تعلن استعادة نشاط Reactivation تركيب عدوانى داخلى ينتهز فرصة اهتزاز فكرة ثبات الوزن ليطل برآسه كفكرة ملحة أو رهاب معوق، وكثيرا ما يعبر المريض عن هذا الرهاب بأنه يحس بقوة داخلية تهتف به أن اقفز، أو تعلن أنه ها هو ذا سيقفز (مستعملة ضمير الغائب) أو تهدد بأنها ستدفعه، وأحيانا ما يقول أخشى أن أدفع نفسى، وكل هذا لا يصل أبدا فى العصاب الى درجة الهلاوس السمعية، إذ هو لا يعدو أن يكون أفكارا أو مشاعر يقاومها المريض تماما.

أما دلالتها السيكوباثولوجية فهى فى هذه الدراسة تقول إنها اعلان مباشر لنشاط داخلى يكاد يستقبل فى الانفعال والفكر. (وليس بعد فى القرار والفعل)، وهذا النشاط بيقظته غير المناسبة يهدد بشلل الإرادة الظاهرة (الشاعرة) التى تحمى المريض فى الأحوال العادية من مثل هذه الهواجس والقوى، والمريض بهذا الرهاب عادة ما يحاول تجنب هذه الأماكن كما ذكرنا ليتجنب بالتالى التلويح للارادة الداخلية اللاشعورية المهددة بالظهور، وليتجنب إذن مواجهة الارادتين، تلك المواجهة التى نتاجها هذا الحلوسط الرهابى.

وهذا النوع من الرهاب، مكافئ بوجه خاص للإكتئاب (وليس للتناثر أو عقد أبعاد الذات مثل الرهابين السابقين) ذلك لأن العلاقة بين القوتين هنا كما هو الحال فى الاكتئاب- علاقة تكاد تكون متكافئة، ولهذا فإن

6- الخوف من ركوب المصاعد يشمل الخوف من الأماكن المغلقة ومن الارتفاع فى آن واحد.

المواجهة صعبة ومرعبة، وبعمق بسيط يمكن أن نرى المعنى الرمزى للانتحار وراء كل هذا، فالانتحار سيكوباثولوجيا هو قتل ذات لذات أخرى، وليس قتل الإنسان نفسه بالمعنى الاحادى الشائع.

(٦١) رهاب المرض : Path phobia

يعتبر هذا النوع من المخاوف أقرب ما يكون الى شعور الشخص العادى، فمن منا لا يخاف المرض، إلا أن الخوف هنا يبلغ درجة معجزة، وقد يقفز ـكالعادةـ تفسير مبسط عن ارتباط شرطى عرضى سابق، ولكن المهم ليس هو المرض السابق، ولكن ما صاحب هذا المرض السابق من آثار عميقة، ومأأثار من قضايا داخله..

ورهاب المرض عادة يتعلق بأمراض خطيرة قاتلة مثل (السرطان) أو معجزة (مثل الشلل) أو مشوهة (مثل الجدرى) أو سيئة السمعة وخطرة فى آن (مثل الزهرى) أو سريعة الانتشار (مثل الطاعون... الخ) وكل هذا يشير الى أن هذه المخاوف رغم اسقاطها على أسماء أمراض بذاتها، إنما تشير أساسا الى الخوف من العجز والتشوه أساسا (وما يلحقهما من مخاطر الموت مما سيأتى ذكره فى الحاشية القادمة) وهذان الغولان (العجز والتشوه) هما فى حقيقة الامر أبشع ما فى المرض، وهما أيضا الصفتان الأساسيتان لصورة النفس الداخلية الكامنة عند المرضى النفسيين وخاصة المستهدفين للفصام (ونحن نزعم أن سائر الامراض النفسية هى دفاع ضد ظهور الفصام، وبالتالى نقول إن الخوف من المرض (بمعنى العجز والتشوه) يشمل ضمنا الخوف من مواجهة الذات الداخلية بصفتيها المرعبتين هاتين، وكأننا نشير ضمنا الى إثبات فرضنا الملح بأن المخاوف (الرهاب) حتى من المرض الظاهر إنما تحمل إعلان اقتراب نشاط الذات الداخلية، وبالتالى اعلان احتمال التهديد بالجنون، وبالتالى فهى - أيضا- دفاع ضده ومحاولة ضبطه.

٦٢- رهاب الموت Death Phobia

ومثلما أوضحنا أن الخوف من المرض هو الخوف من نشاط الجزء الأقدم أى إحياء النفس الكامنة (المصورة بالعجز والبشاعة)، وكذلك أوضحنا أن رهاب الأماكن المرتفعة يمتد أيضا الى هذه الجذور، كذلك فإن الخوف من الموت يشير الى الخوف من إحياء نشاط غريزة الموت [7] وهذا النشاط يشير بدوره الى إيقاظ الجزء الاقدم من المخ ليعمل مهددا بالاستقلال (وهو الجنون).

وكأن الخوف من الموت هنا إشارة الى الخوف من نشاط المخ الداخلى أساسا الذى هو هو الخوف من الجنون.. معلنا بذلك احتمال قدوم (أو هجوم) حركة داخلية مهددة، فالمريض يسارع بإعلان الخوف منها

7- عندى أن غريزة الموت ليست قرينة العدوان وخاصة الجزء التحطيمى فيها Destructive Aggression وإنما هى قرينة التدهور Devolution أى الحركة الخلفية (ضد الامامية) التثبيتية (ضد التطورية) التفكيكية (ضد البنائية) النشاز (ضد التوافق) الانعزالية (ضد التواصل) وهى موجودة فى الكائن الحى وفى المادة الحية ليس كنتاج سلبى لحركة الحياة ، وإنما كاحتمال كامن له وظيفة الموت بالمعنى الايجابي- فى حينه - وموقف فرويد تجاه هذه الغريزة كان موقفا مبدعا وقويا فى بداية الامر ، إلا أن تحديدها بالعدوان والتحطيم (ضد الحب والجنس) من ناحية، وعدم تطور الفكرة ومحاولة تتبع نشاطها فى المجال الاكلينيكى من ناحية أخرى، قد أضعفت موقف التحليل النفسى إزاءها، حتى استنكرها المحدثون منهم، فأنكروها.

كوسيلة للدفاع ضدها ثم يسقط الخوف على الموت الخارجى المعروف كوسيلة لإخفائها، ذلك لأن نظرة أعمق للموت بمعنى النهاية لا تخيف فى ذاتها، اللهم إلا بما يكتسبه المرء من معتقدات لما بعد الموت.. الأمر الذى لا يتعلق بهذا الرهاب مباشرة .. وإنما بأبعاد أخرى ليست للمناقشة فى هذا المجال الآن، فالمنطق الأبسط يقول أن الموت حدث لا يقع فى حساب الكائن الحى بالتأثير السلبى، بل إنه فى حقيقة الأمر، لو وصل الينا بأبعاده الفعلية لكان مصدرا للبهجة، بمعنى أنه حقيقة مؤكدة لا بد إذا وعيناها حق وعيها أن نعيش بعمق وبمعنى وبكفاءة.

خلاصة القول أن الخوف من الموت - فى ذاته- غير منطقى، لذلك فإنى أعرض فى هذه الدراسة فرض أن رهاب الموت لا يعنى الموت الذى نعرفه كحقيقة جوهرية ومكملة للحياة، ولكنه يعنى الموت بمعنى النشاط الغريزى التدهورى الداخلى الأقدم المعوق الذى هو جزء من نشاط المخ الأقدم.

(٦٣) رهاب الجنون Insanity Phobia

إذا كنا ذهبنا الى تفسير كل أنواع الرهاب السابقة بأنها خوف من، ودفاع ضد، الجنون فى آن واحد (وذلك ضمن إثبات فرض أن العصاب دفاع ضد الذهان بصفة عامة) فإن رهاب الجنون يعلن مباشرة مواجهة هذه القضية .

وأود أن أشير هنا ابتداء الى أن الحركة الداخلية المهددة إذ تنشط، فإن بقية أجزاء المخ الشاعرة تستقبلها مباشرة وتعلن عنها إذ تصيغها فيما تعرف من ألفاظ مباشرة من أهمها الخوف من الجنون، وقد تتناولها بالازاحة أو الابدال أو الرمز مثلما سبق أن أشرنا من أمثلة.

ونحن نقابل هذا الخوف من الجنون- كعرض وليس كعصاب مستقل- فى بداية الذهان عامة، حيث تكون البصيرة حادة، والوعى الذهانى يقظا، كما نجده فى الاكتئاب الذهانى وتفسيره بلغة التحليل التفاعلاتى هو تفسير مباشر سيأتى ذكره فى حينه، فإذا أجهض الذهان، وظلت المخاوف كبديل دفاعى متكرر، وكأن محطة الإنذار قد استمرت لأنها فسدت (بالعامة: علقت) عقب انتهاء الغارة، فإن ذلك هو رهاب الجنون (القهرى خاصة).

وقد يثار رهاب الجنون نتيجة لإثارة مباشرة تحدث بعد مقابلة مجنون، أو معاشرته (مؤقتا عادة)، أو حتى مشاهدته (أو القراءة عنه) فى عمل فنى، وقد لاحظت أن كثيرا ممن قرأ الجزء الأول من روايتى الطويلة (المشى على الصراط) المسمى الواقعة قد توقفوا عن إكمالها وقرروا فيما بعد أن ذلك كان نتيجة مباشرة لتقمصهم بطلها عبد السلام المشد بدرجة أخافتهم من جنونهم هم، ثم عاد بعضهم اليها يتناول بقيتها على جرعات.

خلاصة القول أن الخوف من الجنون هو إعلان ضمنى لاحتمال تهديد داخلى يكاد يفرض نفسه مستقلا عن النشاط السائد، وهذا الخوف يبدأ كحقيقة، ثم يصبح خوفا مكررا بديلا عن مواجهة التهديد بالجنون

الداخلى فعلا (قارن الخوف من المرض والخوف من الموت بمعناهما الحقيقى ومعناهما الرمزى العصابى الذى قدمناه قبلا).

(٦٤) رهاب فقد التحكم Loss of control phobia

إن هذا الخوف يتصل مباشرة بالخوف من الجنون، وهو تعميق لما أشرنا اليه عن التهديد بفقد أبعاد الذات وفقد السيطرة على حدودها، وهما من إنذارات.. ثم علامات الجنون، والخوف من التناثر يصيب المريض برعب هائل إذ يشعر الانسان بالضياع والتهديد بالاختفاء أو التفجر الى غير المعلوم، وهذا الرهاب - مثل سابقيه- هو نوع من عقلنة هذا الخوف الحقيقى حتى يصبح خوفا عقليا فكريا Intellectual بديلا عن معايشة الخوف الأصلى الأعمق الذى هو خبرة انفعالية فجة لا يحتمل إطالتها.

تعقيب:

لاحظنا أن الاتجاه العام فى هذه الدراسة يتناول تكوين العصاب الرهابى بأساسيات مشتركة يمكن تحديدها كما يلى:

١- لم يتجه تفسير تكوين الأعراض الى ربطها بارتباط شرطى مباشر، ولا بتاريخ طولى أو تثبيت طفلى (جنسى أو غير ذلك)، وإنما أشار الى طبيعتها الأعمق وهى أنها مخاوف بديلة عن المخاوف الأخفى والأعنف النابعة من التهديد بإحياء نشاط التكوين الداخلى فى النفس (المستوى القديم للمخ)، وإنما يقوم الارتباط الشرطى أو التثبيت الليبيدى بتحديد محتوى الرهاب أحيانا وتوقيب ظهوره أحيانا أخرى.. إذا فتكوين الرهاب ذاته هو دفاع مباشر ضد الذهان، وضد التهديد بمواجهة خطرة مباشرة.

وبديهى أن إحياء النشاط الداخلى فى ذاته ليس هو الذهان، لو أنه جاء فى وقت مناسب يسمح باستيعابه، أما إحياؤه مستقلا دون ضوابط بلا أمل فى توليف أو استيعاب، فهذا هو الذهان.

٢- أن تفسير مختلف أنواع الرهاب اتجه الى البحث عن معنى المرض الآن وترجمته الى لغة تطورية مباشرة مدعمة باللغة الدفاعية التحليلية أحيانا.

٣- أن الخوف من التناثر واللامحدودية والنكوص.. يكمن وراء كل ماعداه من مخاوف فرعية ظاهرية ما هى إلا اسقاطات بديلة فى أغلب الأحيان.

(٦٥) فشل الدفاع الرهابى:

ذكرنا أن الرهاب ماهو إلا دفاع ضد الذهان، وفى مسيرة تطور المرض النفسى الى ما هو أعمق وأخطر، لنا أن نتوقع نجاح هذا الدفاع فيتوقف الأمر عند مرحلة الرهاب العصابى، أو أن يتطور الامر إذ يفشل هذا الدفاع أو يكاد، فيظهر الجنون صراحة، أو قد يلجأ المريض الى عصاب أعمق.. أقدر على أن يقوم بهذه الوظيفة الدفاعية ضد الذهان، ولما كانت طبيعة هذه الدراسة هى أن تعرض مراحل مسيرة

المرض النفسى فى تسلسل متصل بفرض أن المراحل المتعاقبة تفشل الواحدة تلو الاخرى لأسباب توضيحية ليس إلا [8] معلنين بذلك أن الأمراض النفسية المختلفة ما هى إلا أطوار يتلو بعضها بعضا.

العصاب الوسواسى القهرى:

obsessive Compulsive neurosis

يعتبر العصاب الوسواسى من أخطر أنواع العصاب، وهو يتميز بظواهر القهر والإلزام والتكرار لسلوك معين (فكرا، أو انفعالا، أو فعلا) مع إدراك شعورى باللامنطق واللاجدوى من هذا السلوك.

وإن كان العصاب الرهابى قد أعلن إنذارا بحركة داخلية نشطة تهدد بالتناثر والجنون، ثم فشل أو كاد يفشل لأن التفاعل لهذا الإنذار كان انفعاليا مزعجا مصاحبا بكل مظاهر الخوف الجسمية والنفسية، فإن العصاب الوسواسى يعلن تضاعف الخوف من هذا التهديد مع العجز عن استمرار الاستجابة الانفعالية المخيفة له، والناتج من هذا وذاك هو حل وسط خطير، وهو أن تخف درجة الانفعال ومصاحباته، وأن تزيد درجة العقلنة وتثبت وتتأكد بالتكرار، مع استبعاد انفعال الخوف الاصلى، بمعنى ادراك لا معقولية هذا السلوك المعقلن، ثم الأمن الحفى فى رحاب التكرار، وعلى ذلك فإنه يلزم سيكوباثولوجيا لاستتباب هذا العصاب الوسواسى عدة شروط ومواصفات:

(ا) أن يكون التهديد بالذهان (الحركة المستقلة النشطة الداخلية المهددة) أشد وأقرب (حقيقة فى بداية الامر.. ثم تخيلا بعد ذلك).

(ب) أن يكون الانفعال بالخوف العقلى أكبر من احتمال المريض على المستوى السوى أو العصابى فى صورة العصاب الرهابى.

(ج) أن تنشأ حلقة مفرغة من التعود وتثبيت التحليل معا تحافظ على استمرار السلوك وتثبيته حتى يكسب ذاتيته التى تكون جزءا لا يتجزأ من سمات الشخصية، وتصبح بمرور الزمن الدعامة العصابية المتينة التى تحافظ على تماسك الشخصية دون تناثر أو اختلاط.

ويمكن ترجمة هذه الحلقة المفرغة عصبيا الى قفلة فى انتشار الرسالة الارتباطية العصبية short circuit of the propagating neuronal associative message

ولكن كل ذلك ما هو إلا مهارب عصابية ليست لها (فى المسيرة الإضاحية) إلا أن تفشل

(والخوف يولد خوفا أكبر، والهرب الفاشل يتكرر)

إذ سرعان ما تسقط بعد أن تنهك (لم تغن عنى شيئا) وتقوم بوظيفتها التأجيلية (لكن أجلت الرؤية)، وهذا التأجيل قد يكون ناجحا إذا لم يتثبت السلوك سجنا فولاذيا يمنع الحركة التالية..، وعلى كل حال فإن رعب الخارج من تطور المسيرة نحو مراحل أخطر لا يعود يكفى لإلغاء الداخل.

8- بديهى أن هذا الفرض لا يناسب واقع الحال فى الصورة الاكلينيكية، حيث قد تبدأ أى مرحلة مباشرة أيا كان موقعها على سلم خطورة المرض، كما أن أى مرحلة مبكرة قد تتوقف تماما عند طور سطحى.

(٦٦) عودة مرغمة الى النظر فى الداخل:

(لم يعد الرعب من الخارج يكفى أن ينسينى الداخل
فاقتربت نفسى منى حتى كدت أراها..)

هنا نعود الى الحديث عن طبيعة تركيب النفس من الداخل، أو بتعبير أدق: عن طبيعة استقبالنا لهذا الداخل، فنقول إن الخوف من هذه الرؤية ينبع من ثلاث مصادر:

١-الخوف من المجهول الغامض: إن اكتشاف الذات من الداخل مغامرة نحو المجهول، وحتى لو كان هذا المجهول أمنا وسلاما فإنه مجهول، مجرد هذا الفرض (بأن أنفسنا هى ليست فقط ما نعرف) يثير الرعب ويحفز للدفاع ضد أى مغامرة رؤية.

٢- الخوف من التفجير غير الموجه: لما كان التركيب الداخلى للنفس - أو تصورنا له- بعيدا عن الترابط الواعى الهادف، ولما كانت القوى المختلفة والمتصارعة إنما تواجه بعضها البعض فى تماسك متكافئ يستمر بالكاد، على مستوى الحلوسط فحسب، فإننا نتوقع أن يمثل احتمال إطلاقها خطرا فظيعا لأنه يهز هذا الحلوسط ويحمل تهديدات التغيير بما يتبعه من إطلاق طاقة هائلة ليس هناك ما يستوعبها من كيان قائم، ولا مجال يسمح لها بالتعبير والبناء،

(الظلمة والمجهول وتفتيت الذرة)

وهى فضلا عن احتمال تفجيرها العنيف غير موجهة بطبيعة مفاجأتها، واستقلالها وعماها.

٣-الخوف من النكوص والعودة الى الرحم (انظر أيضا حاشيات ٥٦،٢٤، ٥٨) يمثل الخوف من النكوص والعودة الى الرحم أساسا يبرر ويدفع التقدم المستمر ضد النكوص، وكلما زاد التهديد بالنكوص (لاشعوريا) كلما زادت الحيل والدفاعات ضده لتخفيه أولا بأول.

(٦٧) المرحلة القبلفظية:

وقد يظهر بعيدا فى اللاشعور بعض ما يشير الى خبرة الولادة ثم صدمة الولادة، وكل هذا يمثل مصدرا من مصادر استمرار الدفاعات وزيادتها.

(والسرداب المسحور وما قبل الفكرة)

٤- الخوف من المرحلة القبلفظية: تعتبر نشأة الألفاظ (وما يرادفها من أفكار) حماية وتحديدا للوجود الانسانى، وخاصة الوجود الفردى المجدد المعالم، لذلك تعتبر المرحلة القبلفظية Preverbal رغم ثرائها وروعتها - تهديدا بفقد الذاتية وبالنكوص وبالذوبان فى عالم متداخل فى الداخل والخارج معا، وهذه المرحلة يسميهاأريتى مرحلة الاندوسبت [٩] Endocept (أو القمبدرك) وهى مرحلة بدائية قبل الادراك الشعورى المحدد يختلط فيها الإنفعال بالإدراك بالحدس.. وهى مرحلة هامة فى تكوين الفكر، وفى الإبداع

9- لم أجد ترجمة دقيقة لهذه الكلمة Endocept لذلك فضلت تركها معربة مع أقرب كلمة خطرت لى وهى قبمدرك رغم أنها ترجمة لكلمة Prepercept التى لم يستعملها أريتى أو أحد ممن أعرف قبل ذلك.

إذا استوعبت وعمقت وتطورت إلى المدرك والمفهوم والبعمدرك postpercept، ولكن الرجوع اليها بديلا عن الإدراك المحدد والفكر المفهوم conceptual thinking الثابت المؤكد مرعب وخطير، وهذه المرحلة يمر بها (كمرحلة) بعض المبدعين فيما يسمونه مخاض الفكرة، وهذا الخوف من التراجع عن التواصل الرمزى المحدد الحافظ للكيان الفردى والمدعم للشكل الإجتماعى يهدد بالوحدة المطلقة كما يهدد بالذوبان الشمولى، فمع عجز اللغة (كأسلوب رمزى للتواصل) ينعزل الانسان، ومع شمولية الادراك القبلى يكون الذوبان الخطر، لأن هذه المرحلة رغم مابها من بقية حدس عنيف إلا أنها مرحلة بدائية تحمل مخاطر النكوص والتناثر لو استمرت دون استيعاب (راجع أيضا حاشية ١٦١: وصرخت بأعلى صمتى).

خلاصة القول أن كل هذه المخاوف التى تهددنا ونحن نقترب من رؤية الذات من الداخل، هى التى تجعل الفرد يتجنب هذه الرؤية ما أمكن. (الى أن يستعد لها بالوعى الكافى والقدرة المناسبة، أو أن يستبعدها بقية حياته فيما عدا صمامات الأمن فى الأحلام.

(٦٨) أصل الطبيعة المنقسمة للانسان:

على أن هناك جانبا آخر فى طبيعة تركيبنا يفزعنا بشكل خطير، وهو رؤية الانقسام الداخلى، وحسب ما ترى المدرسة الانجليزية الحديثة (العلاقة بالموضوع) وخاصة فيربيرن وجانتريب) أن النفس فى نموها تنقسم (تنشطر Split) إذ تواجه الواقع فينسحب هذا الجزء المنتظر الى عكس اتجاه النمو ويسمى الذات الناكصة (التى تنشطر إنشطارا ثانيا حسب علاقاتها بالمواضيع اللذية أو المؤلمة) ويظل الصراع بعد ذلك بين الذات المركزية أو النامية وبين هذه الذوات المنشطرة، ويظل الجذب الى الرحم والى العودة الى السكون هو نتاج نشاط هذه الذات المنشطرة باستمرار، وهذه الفكرة - رغم استعمالها لغة الانشطار، لها أوثق العلاقات مع مفهوم تعدد الذوات الذى أشرنا اليه (حاشية ٥) إذ هى تصور الصراع بين شخوص وليس بين أجزاء، وقد سبق أن أوضحنا كيف أن رؤية هذا التعدد مهدد ومرعب، لأن فكرتنا عن أنفسنا باعتبارها ذات واحدة شاعرة هذه الفكرة إنما تحفظ توازننا أصلا.

وقد أشار لانج فى كتابه النفس المنقسمة ١٠ the Divided self الى انشطارات من نوع آخر مثل انشطار الذات عن الجسد على أن الانشطار فى ذاته ليس مرضا ولا هو بالخطورة المزعومة، فهو طور لازم من أطوار النمو لأنه بطبيعته الأصلية انشطار مرحلى، لا بد وأن ينتهى الى التحام أعلى من خلال ولاف متصاعد فى أزمات النمو، وغاية درجات الالتحام هى التكامل أو الحكمة

(والطفل المقسوم الى نصفين: ينتظر سليمان وعدله)

فإذا بلغ الخوف من الوعى مبلغه نتيجة للنشاط الداخلى لهذا الجزء الخفى من وجودنا، وإذا زاد هذا النشاط حتى هدد بالاقتراب من السطح واقتحام الشعور، وإذا لم تنجح المخاوف العصابية البديلة والرمزية

10- (انظر المراجع R.D Laing: The divided self

والمسقطة والمزاحة (حاشيات ٥٢ الى ٦٠) فى تغطية هذا التهديد، فإن مزيدا من الدفاعات الأعمق والأخطر تفرض نفسها، وهى هنا دفاعات الوسواس القهر[11] Obsessive Compulsion

(٦٩) طغيان التفكير التكرارى:

يعرف التفكير أحيانا بأنه حل المشكلة Problem Solving

(دعواه قديما .. كانت حل الطلسم)

وهذا التعريف، رغم فائدته، إلا أنه قاصر عن الإلمام بعملية التفكير بأبعادها المتشعبة، فهو يصف أساسا عمل نصف المخ الطاغى (راجع أيضا حاشية ٣٣)، ولهذا العمل وظيفة هامة وضرورية وعملية فى الحياة الفتية اليافعة، إلا أن للتفكير بعدا تركيبيا أعمق، وهذا البعد ليس بالضرورة هو التفكير الابداعى بشكله المنتج المتقدم (رغم أنه أقرب ما يكون اليه)، ولكنه التفكير التركيبى الولافى الأعمق الذى قد ينتج فنا، أو قد يعمق وعيا، أى أن التفكير ليس مجرد حل للمشاكل ولكنه أيضا وأساسا إثراء للوجود بمعنى أن نتاج التفكير ليس حل مشكلة أو تخطى عقبة، أو العثور على علاقة بين معطيين، ولكنه زيادة ترابط، وصنع علاقات لولبية ولافية متصاعدة[12]

والسخرية هنا من العقل المتحذلق تتركز على الإفراط فى استعمال ظاهر التفكير بلا جدوى[13]

(لامهرب من هول الداخل إلا عقل عاقل، متحذلق عقل ينظم عقد القضبان المحكم...)

وذلك فى حالة العصاب الوسواسى حيث يتضخم هذا البعد المسطح ويبدأ تسلسل التصعيد فيما وصفه بالحركة البطيئة على الوجه التالى:

١- العقل فى أن يزداد الإنسان عقلا

٢- يصل التعقل المفرط الى ما أسميته التحذلق[14]

(وهاتان الخطوتان لا تزالان فى مستوى السواء، وإن كانتا تعتبران سمات خاصة لبعض الشخصيات بذاتها).

٣- يزداد التحذلق حتى ينفصل التعقل عن المحتوى الأعمق من المعنى.

٤- يزيح هذا التضخم التحذلقى من جواره كل ما عداه، فلا يبقى بعد قليل إلا اللفظنة Verbalism.

٥-إذا انغلقت دائرة الفكرة، أو مظهرها السلوكى فى الفعل أو الوجدان، دارت السيطرة العقلية (المفرغة من معناها وهدفها) حول نفسها وأصبحت عرضا معطلا هو التكرار القهرى، لا يوقفه أن يدرك صاحبه لاجدواه.

11- مايسرى على الوسواس القهرى يسرى على عصاب توهم المرض المزمن (أو الهيبوكوندرياhypochondrie (من وجهة نظر السيكوباثولوجى، ولكن فى الخطوط العامة والإزمان والدلالة فحسب.

12- سبق الإشارة الى مثل هذا : حاشية رقم ١٢ وحاشية رقم ٣٢ صفحات ٤٥، ٨٢ وما بعدها على التوالي

13- من معانى العقل: الحيلولة والتقييد، جاء فى الزمخشرى: اعتقل الفارس رمحه: وضعه بين ركابه وسرجه، واعتقل الشاة وضع رجلها بين فخذه وساقه.

14- الأصل حذق، واللام مزيدة: جاء فى الأساس: وإنه ليتحذلق علينا: إذا أظهر الحذق وادعى أكثر مما عنده، وفى الوسيط: الحذلق من الرجال الثرثار العنيد بلا جدوى.

وتؤدى هذه الدائرة المقفلة وظيفة التكرار المعطل الذى يؤدى بدوره معنيين متناقضين فى ظاهرهما وإن اتفقا على عمق معين:

فالتكرار- أولا- يعنى استمرار المحاولة، وكأن الفكرة، إذ هى مفرغة من معناها وفاعليتها، تكرر نفسها بغية الاتصال بأصل غاية ظهورها.

والتكرار فى نفس الوقت يعنى فشل هذه المحاولة إذ لو نجحت لتوقف التكرار وانطلق تسلسل الفكر.

وفى الحياة العادية نرى أشكالا من هذا الكرار المغترب فى مظاهر مختلفة من السلوك، وذلك مثل جمع المال بعد الحصول على الحاجات الأولية دون توجيهه الى دائرة أوسع لنفع الناس، ومثل جمع العلم دون نقله أو محاولة تطبيقه ...الخ، ولابد لكى نفهم العصاب الوسواسى القهرى أن نربطه مباشرة بما يمكن أن يسمى الاغتراب القهرى الشائع ١٥ فى الحياة المعاصرة، والفرق بين أن نسمى السلوك اغترابا فى إطار السواء، وبين أن نسميه عصابا وسواسيا- إذا تساوى السلوك فى تكراره ولاجدواه للفرد- إنما يكمن فى المعالم التالية:

(ا) أن المغرب المكرر لا يعى اغترابه ولا يقف عنده ولا يدرك عدم جدوى فعله.

فى حين أن الوسواسى يدرك عدم جدوى سلوكه، ولا يرضى عن تكراره الفارغ (فى حدود الابقاء عليه).

(ب) أن السلوك المغترب المكرر- فى إطار سوائه- قد يؤدى وظيفة ما، فى إطار الجماعة، حتى لو لم يصل عائده الى صاحبه.

فى حين أن السلوك الوسواسى القهرى يدور بلا جدوى للفرد وللجماعة على حد سواء.

(د) أن السلوك المغترب المكرر شائع عند الغالبية، ومتشابه لدرجة الخفاء. فى حين أن السلوك الوسواسى يتصف بالخصوصية لكل مريض بذاته.

(ه) أن السلوك المغترب المكرر لا يقاومه صاحبه فى الأحوال العادية (اللهم إلا إذا تعرض للهجوم فى أزمة نمو، أو انهار أمام ضربة ثورة فنية أو فعلية).

أما السلوك الوسواسى القهرى فصاحبه فى معركة متصلة معه.

إذا، فلا بد من تحديد وظيفة العصاب الوسواسى القهرى فى إطار ما يتميز به من التكرار، واللاجدوى، والوعى به، ومقاومته، شريطة الإبقاء عليه.

وذلك بالقول أنه: مثل كل عصاب.. هو دفاع ضد احتمال ذهان بدأ ينشط - أى ضد استعادة نشاط الجزء الأقدم من المخ لدرجة مهددة- مما يضطر الجزء الأعقل الظاهر الى مضاعفة نشاطه فى سلوك متسق لاهث، لقمع وتغطية وإضمار هذا التهديد القادم من الداخل.

15- راجع أيضا حاشية (٢٤) عن التخزين القهرى.

ولو ترجمنا ذلك الى لغة نصفى المخ لوضعنا احتمال أنه زيادة فى نشاط الجزء الطاغى من المخ، وهو الأحدث، لاتمام السيطرة على الجزء المتنحى، حتى ولو أفرغ هذا النشاط المفرط من هدفه المنطقى الفعال.

وهذا العصاب - مثل كل عصاب - يحقق حلوسط إذ يصاحب التكرار والتضخم، وعى باللاجدوى ومحاولة للايقاف، وبالتالى تصبح المعركة مستعرضة بين عقل وعقل فى سطح السلوك، بديلا عن المعركة بين نشاط الداخل وتحكم الخارج فى محاولة التخطى.

وهذه العلاقة بين الذهان المهدد، والعصاب الوسواسى القهرى المدافع أصبحت واضحة ومفهومة بشكل خاص من خلال دراسة حالات الوسواس القهرى التى تعقب الاضطرابات الذهانية الصريحة (الفصام خاصة)، والتى تعتبر من أصعب الحالات وأكثرها مقاومة للعلاج لما حملته الخبرة الذهانية السابقة من معايشة التفكك بحيث يصبح التهديد أكثر إرعابا.

كذلك فإنه من الممكن أن نفسر حالات الوسواس النوابى بأنه يعلن التحكم العصابى الوسواسى فى نوبات الذهان الدورى المهدد بما يمنع ظهورها فى صورة صريحة، ومن محققات ذلك أن هذا النوع يستجيب الى علاجات الذهان الدورى بنفس الوتيرة التى يستجيب لها الذهان الدورى ذاته[16] .

أما تفاصيل السلوك الوسواسى فإن ما يحددها هو:

١- خبرات الفرد الشخصية، ومجرى الحياة اليومية معا، وهذين البعدين هما ما اعتمد عليه السلوكيون فى تصويرهم للوسواس بصورة الارتباط الشرطى المعطل.

٢- الدفاعات النفسية الأخرى الغالبة (مثل الإزاحة وتكوين رد الفعل .. الخ) وخبرات الطفولة، مما يتفق بدوره مع المفهوم التحليلى عامة.

أما توقيت ظهور هذا العصاب ومدى إزمانه أو تكراره فى نوبات، فهو - مثل كل عصاب- يرتبط بمدى نشاط الجزء الأعمق ومدى الخوف من نشاطه، وهو يرتبط بدوره بطريق غير مباشر مع التاريخ العائلى للذهان عامة وللفصام بوجه خاص، وكلما زاد هذا التاريخ إيجابية وزاد التهديد إلحاحا تثبت الدفاع الوسواسى وأزمن، ثم هو يرتبط أخيرا بالتعود السلوكى.

(٧٠) وظيفة التكرار والحلوسط:

وظيفة التكرار كما أشرنا اليها لتونا هى أن نحقق حلوسط يبرر تثبيتها وتعميقها، وكذلك وظيفة الوعى باللاجدوى مع العجز عن الايقاف، (وعى مع وقف التنفيذ) هى أيضا تثبيت لهذا الحلوسط.

وأخيرا، فإن وظيفة الصراع العرضى transverse بديلا عن الصراع الطولى Longitudinal كل ذلك يجعل الإبقاء على هذا الحل وسط وتكراره لازمين، ويفسر صعوبة علاجه بمعظم الوسائل المممكنة (ولأمسك بتلابيبه

16- يمكن الاستزادة من إيضاح هذه الصفة النوابية لكل من الذهان والنمو فى الفصل الحادى عشر عن دورة الحياة.

وليتكرر... وليتكرر

وليتكرر.. وليتكرر .... وليتكرر أكثر

نفس الشئ التافه)

(٧١) بعض مظاهر السلوك الوسواسى:

نلاحظ أن بعض مظاهر السلوك الوسواسى توجد فى الأطفال بشكل يمكن أن نعتبره فى حدود السواء مثل تدوين أرقام العربات أو تتبع أنواعها بإصرار ملح أو عد درج السلم أو القفز عليها فرديا أو زوجيا ..الخ. إلا أن استمرار مثل هذا السلوك الى سن متأخرة، أو زيادة كمه حتى الإعاقة يجعله يصل الى حدة مرضية.

(فلأحفظ أرقام العربات

أو عدد بلاط رصيف الشارع

أو درج السلم)

٧٢- هوس النظافة Washing Mania:

على أن هناك نوعا خاصا من العصاب الوسواسى، له دلالة خاصة إذ هو شائع أيضا أكثر من غيره، ذلك هو الوسواس الذى يتصف بالافراط فى النظافة مع التكرار حتى التعطيل أو التعجيز، مثل أن يغسل المريض يديه مرات عديدة ملتزما برقم معين (أربع مرات مثلا أو مضاعفاتها إذا ما شك أو تردد)، وقد وصل الحال بإحدى المريضات أنها كانت تغسل الخبز بالماء والصابون.. ثم لا تأكله بداهة، ولكنها لا تكف عن ذلك رغم يقينها وحديثها عن لا جدوى كل ذلك، وهذا الاسم القديم هوس النظافة ١٧ قد يدل ضمنا على ما قدمناه من أن هذا العصاب مكافئ للذهان سيكوباثولوجيا على الأقل، ووساوس النظافة لها دلالات سيكوباثولوجية مباشرة مثل:

١- إن الإفراط فى النظافة هو إعلان ضمنى لوجود إفراط فى القذارة (بشكل رمزى على الأقل).

٢- إن هذه القذارة المختبئة داخل النفس، إنما تشير ضمنا الى صورة الذات الداخلية ١٨ وما يمكن أن تكون قد لحقها من وصم وتشويه واتهام بالإثم والقذارة.

٣- إن الاصرار على تكرار تنظيف الظاهر هو اصرار ضمنى على الإبقاء على الباطن كما هو قذر أو متخيل قذارته.

(ولأغسل ثوبى الأغبر..

حتى أخفى تلك القاذورات

داخل نفسى)

17- يوجد وسواس آخر وهو تكرار التأكد من إغلاق الأبواب شكا فى احتمال أنها لم تغلق بإحكام، وهو يسمى جنون الشك , Folie de douteوقد ذكرته هنا دلالة أن هذا الاسم الأقدم قد يدل على المحتوى الذهانى فعلا لهذا العصاب.

18- الذات الداخلية المشوهة مفهوم أكده أريتي S, Arieti

٤- إن تكرار النظافة بهذه الصورة قد يؤدى وظيفة خداع الآخرين، وخداع الذات فى نفس الوقت.

(.. عن أعين كل الناس

لا بل عن عينى صاحبها الألمع

الأطهر، والأمجد، والأرفع)

٥- إن السلوك التنظيفى الظاهرى هو إزاحة تطغى على الرغبة الفطرية فى التطهير الطبيعى بالنمو والتكامل، وبالتالى فهو توقيف للنمو.

(بدلا من أن أشغل نفسى بطهارة جوهر روحى

فلأغسل ظاهر جلدى...

بالصابون الفاخر)

وعلى ذلك، يمكن القول أن تصور قذارة الداخل يأتى من تشويه الذات الداخلية، ومن الشعور الخفى المفرط بالذنب ومن تصور أن ما خفى يحمل نقصا مكافئا لما هو قذر لذلك فهى مخفى، وهذا التصور قد يكون حقيقة مرحلية ونافعة، وبألفاظ أخرى نقول: إن إعلان قذارة المحتوى الداخلى ليس مجرد مبالغة لشعور بذنب وهمى، ولكنه جزئيا إدراك واقع حقيقى، وما ان تهيأ الفرصة لاستعادة تنشيطه لتخطيه وتطهيره حتى تنشط معه القوى الكامنة المهددة ويستقبل هذا النشاط- فى حالة الوسواس- على أنه ذهان مقتحم سرعان ما يحتاج الى هذا الضبط المفرط بالسلوك الوسواسى المتكرر..

وبديهى أن استعادة نشاط هذا الجزء الخفى والملوث، قد ينتج عنه أمراض أخرى مثل الاكتئاب الذى يبالغ فى استقبال الشعور بالذنب دون تخطيه.. وهكذا..

خلاصة القول أن العصاب الوسواسى المزمن هو حل وسط لضبط النشاط الذهانى المهدد أو المتخيل، وهو لذلك عميق الجذور صعب العلاج.

(٧٣) فشل الحل الوسواسى:

ذكرنا من قبل بالنسبة للعصاب الرهابى، وفى العصاب عامة وقبل ذلك بالنسبة للحيل النفسية أن دراستنا هذه ترسم تسلسل الحيل والأمراض النفسية بترتيب من الأسطح للأعمق، ولكى نعرض الصورة متصلة فإننا نفترض فشل كل طور حتى نصل الى ما بعده، ولا بد أن نؤكد ثانية أن هذا التسلسل لا يمثل حتما اكلينيكيا، ولكنه تسلسل دراسى توضيحى، ذلك أن أى توقف عند أى مرحلة هو مطروح وجائز، وإن كان توقف النضج مرحليا مقبول.. إلا أنه قد يكون موتا إن أصبح توقفا دائما، فالعصاب عامة- والوسواس القهرى كمثال- إذ يبدو فى أول الأمر حلوسط ودفاعا ضد الجنون والتناثر سرعان ما يعوق النمو، ويلجم القدرات ويحول دون التكامل، فهو إذ يظهر لأول وهلة على أنه المنقذ، سرعان ما نتبين أنه هو فى ذاته تعجيز وإعاقة وتسطيح للحياة

(كيف دخلت السجن برجلي؟

كيف سعيت الى حتفي؟

صور لى العقل المتحذلق: أن السارق ضابط شرطة

فإذا بالمصيدة الكبرى.. تمسكنى من ذنبي

حتى أمضى سائر عمرى فى عد القضبان

أو لمس الأشياء على طول طريق حياتي

دون الغوص الى جوهرها)

وهنا لا بد من التأكيد على حتمية النمو للحياة السوية وبالتالى على الوظيفة التجميدية للعصاب (واضطراب الشخصية وخاصة الاضطراب النمطى)، ونتذكر بنفس اللغة ماهية الوظيفة التراجعية والتدهورية للذهان..

فالإنسان كائن دائم النمو، وإن كان نموه لا يسير فى خط منتظم، بل يتناوب[19] لولبيا، وكأن العصاب (واضطراب نمط الشخصية)، بلغة نبضات المخ، ليس إلا تليف وتكلس يجعل المخ فى حالة تمدد ممتد ثابت، ويحدث ذلك نتيجة لفرط وعمق وإزمان استعمال الميكانزمات (الدفاعات).

(٧٤) العصاب المزمن واضطراب الشخصية

وهكذا يصبح الكائن البشرى فى سجن متجمد، يعوق حركته وتفتحه وتجدده وتفكيره المبدع

(.. وحديد التسليح يكبل فكرى)

وهنا نؤكد ثانية على وجه الشبه بين العصاب المزمن الذى يصل الى حد أن يسمى عصاب الطباع Character neurosis وبين اضطراب الشخصية (وخاصة النوع النمطى منه) الذى يظهر فى شكل نمط شامل من السلوك المعطل وليس فى شكل نتوءات مرحلة تمثل أعراضا عصابية بذاتها، وهكذا أعيد التأكيد على الطبيعة الجامدة لكلى الاضطرابين، كما أؤكد أنهما يمثلان معا بديلا عن- ودفاعا ضد- الذهان، والذهان بدوره ضد هذا الجمود ولكنه تفكيك الى أدنى، ونتاجه هو التدهور والتناثر..

لذلك فإنه يستحسن توضيح جوانب هذا الخلط الذى ينشأ من استعمال كلمة ذهان فى موضعين مختلفين:

الاول: قد تستعمل هذه الكلمة لتصف مرحلة انهيار العصاب (أو الدفاعات) أو كسر النمط المضطرب للشخصية، وفى هذه المرحلة يبدو الذهان - رغم فجاجته وخطورته- وكأنه انطلاقة نشطة ..، ولكن لا ينبغى أن نسمى مثل هذا النشاط ذهانا إلا حين يظهر أن هذه الانطلاقة هى من قبيل الدائرة المغلقة، لا القفزة الأمامية.

الثانى: حين تصف هذه الكلمة (الذهان) مرحلة التفكك والنكوص والتراجع والاستقرار على مستوى أدنى.

---

19 -Neurosis (and personality pattern disorder), in brain pulsation terms, is but fibrosis and calcification that keeps the brain in a state of prolonged static diastole.

وهذا الخلط يوقع الكثيرين فى محظور قد يعلي- إذا أخذ مأخذا سطحيا- من شأن التدهور مثلا، ولا بد أن أعلن أنى فى أغلب مراحل كتابة المتن إنما أعنى بالذهان المعنى الأول: إذ هو حركة نشطة فجة وإن كانت فاشلة، وحتى حين أصف بعض صور التدهور فإنى أصف الحركة فى هذه الصورة وليس مجرد النتاج المتناثر المحطم، إذ أن طبيعة دراسة علم السيكوباثولوجيا هى دراسة حركة تكوين الاعراض وتطور الأمراض.

والصورة التى أقدمها للعصاب هنا كدفاع ضد الذهان هى أن له وظيفة يحول بها دون ظهور الذهان بالتحكم فيه.. وعلى ذلك فإنه ينبغى أن تؤخذ بخطورة أعمق لما ينتج عنها من إعاقة للنمو، حتى لا يصبح معنى العصاب أهون وأكثر تقبلا من حقيقته، ذلك لأن الإعاقة الناتجة عن استتبابه هى تعطيل كامل للنمو رغم كفاءتها التكيفية نسبيا...، بل إن العصاب- من هذه الزاوية- قد يصبح أخطر من الذهان النشط [20] الذى قد يحمل فرصة، ولو ضعيفة- فى تغيير مساره الى الأمام.

وهذا المفهوم يتأكد بما نقابله فى العلاج النفسى (وهو الوجه الآخر للسيكوباثولوجى) حيث يمر المريض العصابى بخبرة مصغرة من الذهان الذى يسمى أحيانا الذهان المصغر Mini-Psychosis، وتعتبر هذه الخبرة بما يصاحبها من وعى ذهانى، وإرادة مكثفة، فى وسط فاهم ويقظ، وفى الوقت المناسب، تعتبر خطوة هامة - وأحيانا ضرورية لإطلاق مسيرة النمو من عقال العصاب أو سجن اضطراب الشخصية، وكأن هذا دليل آخر على أن كسر الدفاعات المفرطة لازم فى الوقت المناسب وبالجرعة المناسبة، كما أنه دليل على أن العصاب دفاع ضد الذهان وضد النمو فى آن واحد.

وعلى النقيض من ذلك، فإن خطوات علاج الذهان الأولى هى مساعدة المريض على اكتساب بعض الدفاعات التى 'تلم' أشتات تناثره وتحد من نشاط 'الداخل الأقدم المخيف المهدد'، أى أن يكتسب الذهانى، دفاعا عصابيا بصفة جزئية أو مرحلية، حتى يستكمل استعداده لاستيعاب جرعة النشاط الداخلى فيما بعد فى ظروف أفضل وبتهيئة أهدأ واختيار أثبت، وقد يساعد فى تهدئة الداخل جرعات من العقاقير التى تعمل انتقائيا على المستوى الأعمق من المخ، بما يتيح تكوين الدفاعات العصابية من ناحية، وشجاعة المعالج فى استمرار صحبة الذهانى ومساعدته فى الإفادة من هذه الخطوات التراجعية المرحلية ثم الاستيعاب المنظم بعد ذلك من ناحية أخرى.

(٧٥) فشل الجمود:

إذا كان العصاب هو الجمود والتوقف، وكان التكرار القهرى بلا جدوى هو أحد مظاهر هذا الجمود وذلك التوقف، فإن طبيعة الحياة البشرية الخصبة، وطبيعة النبض البيولوجى فى ذاته، أنهما ضد الجمود، وبالتالى فإن الافتراض المبدئى الذى نصر عليه، وهو ضرورة استمرار الحياة ونموها، يؤكد أن التكرار، والسجن الفكرى والخوف من النمو، كلها مظاهر فردية وموقفية شاذة، فإذا عرفنا هذه الحتمية، فإن نظرتنا

20- أعنى بالنشط active وليس الحاد acute وستكرر هذه التفرقة كثيرا.

للعصاب تصبح أكثر عمقا، وإقدامنا على مساعدة المرضى يكون استجابة لطبيعة بشرية، لأنهم هم ذواتهم بكل طبقات وجودهم يضيقون بهذا التوقف إن عاجلا أو آجلا:

(لم يعد التكرار ليكفي

والمسرح ضاق بنفس الحركة)

خلاصة القول، أن للعصاب معنى، ووظيفته الحلوسطية وظيفة مهدئه، إلا أن شرعيته وإزمانه وثباته هم جميعا ضد قوانين الحياة النابضة النامية.

(٧٦) الوعى الزاحف الثائر يفشل العصاب:

إذا كنا قد ذكرنا أن إحياء نشاط الوعى الأعمق يفشل الحيل النفسية بجرعات مختلفة حتى لتسمح بالنمو أو تهدد بالجنون (حسب ما يسبقها من إعداد وما يحيطها من ظروف) فإنه أيضا وعلى نفس المقياس يفشل العصاب بأنواعه.

وفى لحظة انطلاق الوعى الأعمق بعد طول كبت، تكون خطواته فجة ومتعاقبة (ثورا نزع غماه)، لا ينفع فيها تسكين بخداع الألفاظ (أزيز الساقية المهجورة) أو بسطحية الأفكار (سراب الفكرة) .

(وأزيز الساقية المهجورة يرجو أن يوهم ثور أنزع غماه أن سراب الفكرة يروى الزرع العطشان)

ذلك لأن الحاجة للمعنى الأكثر ترابطا تزيد مع نبضات النمو تلقائيا، وأى إعاقة لها لا تصلح على المدى الطويل العام وإن صلحت للفرد العصابى بعض الوقت أو فى حالات اضطراب الشخصية طول الوقت.

وحركة الوعى الأعمق (استعادة النشاط Reactivation) قد تثار فى أحد الظروف التالية:

(١) تلقائيا: فهذه الحركة هى من صميم النبض البيولوجى ودورة الحياة[21] وإن كانت يختلف حدوثها ودوراتها ومظاهرها باختلاف الاستعداد الوراثى أساسا (ثم طرق التنشئه وظروف البيئة فيما بعد).

(ب) نتيجة لإثارات خارجية، وأهم مايثير هذا الجزء هو لغة الفن بكل أشكاله، لذلك فإن من أهم وظائف الفن البنائية (حتى لو كان فى ذاته دليل على العجز والانشقاق) أنه يثير هذا الوعى سعيا إلى التكامل .

(ج) نتيجة لإرهاق الدفاعات القائمة: وذلك لفرط استعمالها دون تغذية مرتجعة Feed back تحافظ على استمراره.

(د) نتيجة لاختلال توازن الهميوستازين[22] Homeostasis البيولوجى والعضوى لأى سبب طارئ مثل الحمى واضطراب الغدد الصماء أو فترات تخلخل النمو، مثل المراهقة وسن اليأس.

ومتى ما حدث نشاط هذا الوعى، فإننا نصبح - كما أشرنا - فى أزمة مفترقية لامحالة.

21- راجع أيضا حاضية رقم (٢٧٩) وما بعدها.

22- فضلت تعريب هذه الكلمة حتى لا تسطح بالترجمة إلى "التوازن"، ونطقها بالعربية سهل ودقيق.

بمعنى أن هناك خطورة أن يأتى هذا النشاط بعد انهاك طال (كم جف العود الوجدان) وإزمان للهرب والضياع، فتنقلب الصورة إلى ضجيج بلا فاعلية (خوار الثور المتردد) وبقايا حياة عادية تألفة (أريز الساقية الآجوف)

لكن كم جف العود الوجدان

رغم غوار الثور المتردد

وإزيز الساقية الأجوف)

(٧٧) الدين، الايمان، الفطرة، والتكامل (وعلاقتها بالمرض النفسى):

إن علم السيكوباثوجيا - من هذا المنطلق التطورى - لا يمكن أن يتجنب التعرض لموضوع شديد الحساسية، شديد الأهمية فى آن واحد، ألا وهو وظيفة الدين ومعنى الإيمان، وقد تجنب هذا الأمر أغلب المشتغلين بالعلوم النفسية، وبهذا العلم خاصة، ومعهم كل الحق، إلا أن طبيعة ارتباط الدين والإيمان بجوهر الحياة لم تتح لهم التمادى فى هذا الاغفال والهرب، ولم يستطع فرويد شخصيا، بأمانته مع غاية فكره ومستوى تطوره إلا أن يعلن فى كتابه مستقبل وهم[23] موقفه من تفسير الدين كمهرب عام شائع، أما يونج K. Jung فقد كان موقفه عميقا بدرجة جادة بل واعتبر منحازا للعمق الدينى حتى نعته فرويد فى نوبات أسفه وهو يتحدث عنه أيام صحبتهما بقول مامعناه . . قبل أن يصبح يونج بنيا ثم ظهرت المدارس الإنسانية Humanistic والبعشخصية Transpersonal وأحيث مفهوم الدين والإيمان وعلاقتها بالصحة النفسية[24] من بعد علمى جديد.

وقد وجدت فى هذا الموضع وفى مواضيع تالية (حاشيات ١٢٦، ١٦٧، ١٣٠، ١٣٩، ١٤١، ٢٧٠ وغيرها) أن الحدس الفنى العلمى وهو ينطلق فى وظيفته العلمية لم يستطع أن هذا البعد الإيمانى الهام فى مسيرة التطور.

والمشكلة فى تناول هذا الموضوع أنه يلزم - مثل كل علم - أن يوجه لأصحاب الشأن حتى يتم التوصل والتواصل، ومن ثم اكتشاف بعض جوانب الحقيقة العلمية، إلا أن المتناول لهذا الأمر إما أن يقدمه لرجال الدين - وهذا مستبعد ومرفوض منهم أساسا إلا إن اتبع تفاصيل منهجهم وحدود شروحهم وترتيب عقولهم ووحدات قياسهم التى ستقاس بها رؤيته، وهى فى أغلب الأحوال مقاييس مسبقه ومحددة وجاهزه ويصعب - مهما صدقت المحاولة - مناقشتها للوصول إلى ما هو علم موضوعى مهما كانت مرتبه، وإما أنه سيقدمها لأهل العلم، وهنا يرفض أهل العلم إلا الإلتزام بالبعد المتاح لفكرهم وقياساتهم فحسب، إلا أن المريض النفسى حين يبلغنا رؤيته من صدق موقعه رغم هزيمته، لايضع فى اعتباره هؤلاء أو أولئك . .، وعلى ذلك فإن تجنب الحديث فى هذه المسائل - رغم أنه من أسلم الطرق - إلا أنه ليس من أشجعها، وليس

---

23 -The future of an illusion

24- تناول أ.د. عبد السلام عبد الغفار هذه القضية فى شكل مباشر وغير مباشر - كما أسهم فيها - فى كتابه "مقدمة فى الصحة النفسية" القاهرة ١٩٧٤ الناشر دار نهضة مصر.

لمن تصدى لحمل الأمانه عذرا فى التخلى عن هذا الحديث[25]حتى ولو لم يجد فئة جاهزة تستمع له، لأن للحقيقة آذان تنتظرها فى جوف وجود أى فئة مهما اختلفت عقائدهم واحتدت دفاعتهم.، ومن خلال هذا الالتزام أوجز هنا بعض الحقائق المستمدة من واقع الممارسة الاكلينيكية:

١- إن إطلاق الفطرة، بالمعنى الذى جاء بحاشية١٤، وليس بمعنى الانطلاق الفج أو التسطيح البدائى هو الطريق الطبيعى لنمو البشرى .

٢-إن كل مفاهيم التكامل والنمو إنما تهدف إلى الإطلاق السوى لنمو الفطرة المراحلى المتناوب، وأن كل هدف العلاج النفسي(والتربية) هو إزالة العقبات التى تحول دون هذا الإطلاق بشكل أو بآخر، إن لم يكن فى الفرد، ففى المجموع على المدى الأطول ولو بطريق غير مباشر .

٣- إن هذا الاتجاه نحو التصعيد التوازنى (راجع أيضا حاشية ١٣) هو العمل الايمانى من ناحية، وهو التكامل النفسى من ناحية أخرى، فالاختلاف لفظى لا محالة إذا نظر إليه من منظور موضوعى أعمق .

٤- إن الدين كطريق يشكل هذه المسيرة التصاعدية، لا ينفصل فى حقيقتة عن الفطرة، بل هو يؤكدها ويرسم الطريق - بقدر اجتهاد العصر وحدود اللغة - لتنميتها إذ يدعم مسيرتها، والفطرة كما شرحت - ولا أجد مناصا من التكرار - ليست هى الطبيعة الفجة أو الطفلية وإنما هى المسيرة الصعبة الواقعية دائمة النمو.

٥- إنه إذ كان الدين مهربا دفاعيا بمعنى أن ظاهر الألفاظ والطقوس أصبحت غاية فى ذاتها بما قد يصحب ذلك من تعصب وتباعد عن أى رؤية نقية للفطرة الإنسانية أو للتوازن الكونى، فإن دوره لا يمكن أن يتعدى دور الدفاعات التى أشرنا إليها فيما سبق وهذا الدور مثل كل دفاع قد ينجح وقد يفشل بقدر الجرعة التى يفرضها على النبض الحيوى وبقدر الإعاقة أو السماح الذى يتيحها لمسيرة النمو .

٦- إن هذه القضية تعيدنا ضمنا - من باب آخر - لقضية اللفظ والمعنى، والدين إذ يستعمل اللفظ كمحمل لما هو أشمل، وكمعبر لما هو أعمق، لابد وأن يشمل نظامه الساعى للتكامل رفض أى تسيطح لفظى، وأى إفراغ للطقوس من محتواها، فالعلم الدينى بالذات (إن صح التعبير) لا يمكن أن يقف عن مرحلة الألفاظ وتفسيرها بل هو يبدأ بأرقى رمز للتواصل (الكلمة)[26] ويحرص على أن يدب فيها ما هو أهل لها، وأن يتحقق بها ما هو منتظر منها حتى التكامل المطلق، وأى إعاقة لكل هذا باسم الدين، فنتاجها على المستوى التطورى خطير، وعلى مستوى علمنا هذا انشقاق ومرض.

(فإذا صدقت العلم اللفظي

ضاعت منك حقيقة أصل الحكمة)

(٧٨) الاغتراب، والبعد عن الوعى بالذات:

25- قدمت فى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعى" من ص ١٩٠ إلى ص ١٩٤ بعض الأفكار حول هذه النقطة الهامة..

26- أكد الاسلام بوجه خاص على أن الدين هو الفطرة "يولد الإنسان على الفطرة" "فطرة الله التى فطر الناس عليها". "فى البدء كان الكلمة" ويقول هيرافليطس "من الحكمة ألا تصغوا إلى بل، إلى كلمتى!!".

من بعض المظاهر التى تميز بين التدين الدفاعى المغترب، وبين المسيرة الإيمانية التكاملية، هو مدى اغتراب الشخص عن ذاته، والقاعدة التكاملية، حتى بلغة يونج تقول إن النفس الأكبر (Capital S) Self، إذ هى مكتملة إنما تشمل النفس الأصغر ولا تحل محلها، أى لا تغترب عنها، فمعرفة النفس بمعنى الوعى والرؤية الأعمق هى جزء لا يتجزأ من عبورها إلى الترابط الأشمل (الكون الأعظم) وأى طرق جانبية انشقاقية، هى تعطيل لحركة التصاعد النموى.

ويمكن صياغة القاعدة التكاملية بالشكل التالى:

إن الوعى بالذات ومدى الترابط وعمقه يتناسب تناسبا طرديا مع امتداد الوعى عبر الذات واستيعاب التناقض نتيجة لاحتوائه داخل زاوية الترابط المتزايدة الاتساع[٢٧]

وبالتالى لنا أن نتوقع أن نقول إن القاعدة الاغترابية عكس ذلك تماما، أى إن درجة الوعى بالذات تتناسب تناسبا عكسيا مع امتداد الوعى عبر الذات، وبالتالى فهذا طريق يؤكد الانشقاق ويستبعد زيادة زاوية الترابط [٢٨]

واتباع القاعدة الاغترابية يؤدى بنا إلى أحد أمرين:

(أ) إما فرط تضخم الذات وإلغاء ماعداها، بما يستتبعه من غرور المغتربين فى شكل التعصب لظاهر اللفظ، وسطح العلم وقشور الفكر، والإلحاد .

(ب) وإما إلغاء الذات تماما ما هو عبرها، بما يستتبعه ذلك من مظاهر التدين الإستسلامى الحرفى والقدرية والتعصب .

(بدلا من أن تعرف نفسك

تحنى هامتك لغيرك)

وليس المقصود أن انحناء الهامة سعيا لعبو الذات مرفوض، ولكن الاستسلام لما هو ليس ذاتا ابتعاد عن استكمال رؤية الذات . . الصغرى فالكبرى وبالعكس، هو الذى يفتح الباب للاغتراب وتظهر مضاعفاته عاجلا أو آجلا، وحقيقة المسيرة كما ذكرنا هو عدم تخطى الدوائر المتصاعدة، وفى نفس الوقت تجنب التوقف عند إحداها.

(٧٩) اللفظ المفرغ من معناه ضد تناغم الاكوان:

---

27 -Integrity rule: "The extent of self awareness and the depth of association is directly proportionate to the expansion of the awareness transpersonally, as well as with the assimilation of contradictions as a result of their inclusion in the ever expanding angle of associations.

28 -Alienation rule; "The degree of self awareness is inversely proportionate to the degree of the transpersonal expansion of awareness with the result of reinforeing alienating dissociation i.e. more and more excluding higher associations.

إذا رضينا أن نقبل فكرة الإنسان ككون أوسط، فالصحة النفسية هى تناسق مكوناته فيما بينهما من ناحية، وهى تناسقها ككل مع ما بعدها من ناحية أخرى، واللفظ إذا أصبح مجرد صوت مبهم[29]، زاد الانشقاق الذى هو ضد التكامل بشكل مضطرد .

وكأن التدين الدفاعى يحمى الإنسان من جرعات الوعى المصاحبة للمسيرة الإيمانية، وهو - كما ذكرنا - مقبول مرحليا، ولكنه لا يمكن أن يقبل كنهاية للمطاف بحال .

وهذا المنظور يختلف عن تصوير فرويد للتدين ككل بأنه وهم لن يلبث أن يتضاءل أمام جرعات الوعى والمعرفة، إذ أنه - حتى لو اعتبرها وهما فى البداية - فإن له فرصة التعميق والتصاعد بالوعى لو سارت خطوات النمو مسيرتها اللولبية الديالكتيكية المستمرة.

(٨٠) إيمان الحب، وتدين الخوف والطمع:

تثار هذه القضية عادة فى مجال التصوف بشكل حاد، حيث يدعو التصوف - على اختلاف الأديان - أن تكون العلاقة بالله علاقة اتساق ورؤية ووعى، أى علاقة خالصة مجزية فى ذاتها، وليست علاقة ترهيب وترغيب، وكلمة الحب لا ينبغى أن تؤخذ مأخذا مسطحا وخاصة فى هذا المقام، والحب الإلهى الذى وصفه المتصوفه يمكن موازاته (وليس تفسيره تجنبا للمشاكل) بشكل أو بآخر بمسيرة التصعيد التوازنى واتساع مدى الرؤية والقدرة على احتمال التناقض والارتباط بالواقع . . الخ، إذا هو ليس الانجذاب أو الاستسلام أو الموت فى المحبوب . الخ، أما العلاقة الدينية المقبولة مرحليا فى بداية مسيرة النضج دون فرط إعلاء من قيمتها حتى التوقف، فهى علاقة مبنية على الترغيب والترهيب للذات إذ أفرط فيهما قد يشوهان تأصيل وجود الإنسان كيان ساع إلى التكامل مع ما هو أكبر دون تلاشى هروبى

(بدلا من أن تصبح ذاتك جزءا من ذات عليا

تنصت محكمة دنيا

بدلا من أن يملأ قبلك حب الأول والآخر

يملؤه الطمع وأرقام التاجر)

وعلاقة كل هذا -مرة ثانية بالمرض النفسى هو توضيح أن العصاب الاغترابى قد يأخذ شكلا مشروعا وشموليا، ومهما خفى أمره فإن مسيرة النمو قد تكشف عن طبيته الجامدة ومضاعفاته الصريحة فى شكل مرض نفسى أو توقف تطورى، أما المسيرة الإيمانية إن انتظمت خطاها فهى المقابل الموضوعى للتصعيد التوازنى الذى هو بعينه الصحة النفسية.

(٨١) تشويه الفطرة من الداخل:

تكلمنا فى الحاشية (١٦)عن تشويه الفطرة بسبب خوف الوالدين وإسرافهم فى تشكيل أطفالهم

29- شاع ذلك فى بعض الطرق الصوفية، كما شاع فى طريقة المهاريشى للتأمل التجاوزىTransendental Mediation التى تكاد تعتبر دينا تكنولوجيا جديدا، بدا من انتشاره أن وضع كأحد المدارس وطرق العلاج النفسية فى أخر طبعة من كتاب الطب النفسى الشامل Comprehensive Textbook of Psychiatry تأليف Freedman وآخرين الذى يعتبر مرجعا أساسيا فى الويات

(ما أبشعها قصة

قصة تشويه الفطرة

..... طفل غفل لم يتشكل

.... يا أبتى - بالله عليك - ماذا تفعل ؟)

إلا أنى أشير إلى بعد آخر للتشوية الذى يتم فى مرحلة متأخرة من الداخل (رغم أنه نابع أساسا أيضا من الخارج)، ومظاهر هذا التشويه هو أن يحل الخوف والجمود محل مسيرة الوعى المتصاعد، ويحل السلوك المسطح حتى ولو بدا مستحسنا (طعم السكر) محل حتميه تصاعد النمو بالفطرة العذبة إلى ما هو أعذب وأشمل (عذب الماء)

خلاصة وتعقيب

أوردت فى هذا الفصل مسيرة الدفاع ضد جرعة من الوعى غير مناسبة . .، وعدم تناسبها يكون نتيجة لسوء توقيتها أو لطبيعة الظروف المحيطة، وقد شرحنا هذا الدفاع فى صورتيه السوية (مادامت مرحلية) وشبه السوية (إذا طالت عن ذلك) والمرضية العصابية (إذا صاحبها أعراض)، وفى ما يختص بهذا النوع الأخير فقد ركزت على مثالين توضيحين هما عصاب الرهاب والعصاب الوسواسى، كما أوضحت بعض الأمثلة للاغتراب الشائع وما يقابله من التكامل الحتمى، غير أنه فى مجال دراسه علم السيكوباثولوجى، ومع التزامى بحدود ما ورد فى "المتن" أساس هذه الدراسة لا بد أن نشير إلى المشكلة المرضية بصفة عامة، بحيث يمكن للقارئ أن يجد تفسيرا على نفس المنوال الذى طرحناه، للأنواع الأخرى من العصاب أو من الاغتراب. مما لم يرد ذكره فى ما سبق، كما سأحاول أن أضيف بعض الحقائق الضرورية من الممارسة الاكلينيكية والمتعلقة بالموضوع فى إيجاز ما أمكن.

وعلى ذلك يمكن التعقيب على موضوع العصاب برمته فيما يلى:

١- إن المرض النفسى عامة هو نتيجة عدم تناسب جرعة الرؤية الحادثة أو المهددة مع القدرة على استيعابها فى وقت ظهورها.

٢- إن وظيفة العصاب الأساسية، هى تلافى مضاعفات جرعة وعى غير مناسبة وذلك باستعمال مزيد من الدفاعات بشكل ينتج عنه تشويه الذات أو المعاناه أو الإعاقة.

٣- إنه بالرغم من أن هذا الوعى المتصاعد لازم على طريق النمو، إلا أن استقباله كتهديد بالتناثر هو المسئول عن الدفاع العصابى المفرط المسئول بدوره عن مظاهر العصاب المختلفة.

٤- إن العوامل الوراثية (الاستعداد البيولوجى الخاص) تسهم فى تحديد حتم المسيرة وخطورة مضاعفاتها معا، علما بأن من بين هذه العوامل طبيعة نوع الدفاعات الغالبة المطبوعة لأسباب حيوية وكيانية عبر الأجيال السابقة (لعائلة ما) كنموذج لانتقال العادات المطبوعة الموروثة.

٥- إن آثار التنشئة وخصوصا فى مرحلة الطفولة تسهم فى تحديد شكل المضاعفات العصابية فيما بعد أو - على النقيض - فى تسهيل التصعيد الولافى اللولبى للنمو .

٦- إن تكون الأعراض العصابية هو حاصل نتاج تفاعل الثلاث نقاط السابقة بعضها مع بعض.

٧- إن الأحداث القديمة المكبوتة أو المسجلة بالذاكرة، والترتيبات والارتباطات الشرطية ما هى إلا عوامل مصنفة لمحتوى العصاب. كما أن الأحداث الجارية قد تسهم فى توقيت ظهور العصاب، غير أن كل هذه العوامل ليست مسببة بالمفهوم الشائع ولكنها موازية لمسيرة النمو المحدد لولبيا ودوريا . . على أساس بيولوجى.

٨- إن العصاب - بهذا المفهوم - هو إفراط فى استعمال بعض الدفاعات العادية فى الحياة السوية لضبط موجة النمو حين لا يقدر الفرد فى وقت بذاته على استيعابها ولافيا

٩- إن العصاب - وليس التركيب العصابى أو الطبع العصابى - يعلن ضمنا توقيت حركة النمو وحدتها ومدى الاستعداد لها وفى وقت ما، كما يعلن درجة العجز عن استيعابها فى نفس الوقت.

١٠- إن استمرار هذا الإفراط العصابى فى استعمال الدفاعات يدخل المريض فى مضاعفتين **الأولى:** تعود هذا الإفراط حتى بعد انتهاء الحاجة إليه لضبط جرعة النمو، مما ينتج عصاب غائر مزمن مثل الوسواس القهرى وعصاب توهم المرض.

الثانية: أن يصبح التفاعل العصابى جزءا لا يتجزأ من الشخصية بما يطوره إلى الطبع العصابى أو بعض اضطرابات الشخصية (خاصة إذا حدث فى سن مبكرة).

١١- إن النظريات المستندة إلى أن إرتباطا شرطيا معينا، أو أن حدثا سابقا بذاته، مسئولان عن إحداث العصاب، إنما تعامل الجزء الظاهر من طبيعة المشكلة دون ربطها بالعمق البيولوجى لمسيرة النمو.

١٢- إن العصاب - إذا- هو أحد مظاهر مضاعفات مسيرة النمو وليس مجرد رد فعل لمثير ما، أو نتيجة لكبت لحادث ما، أو عقدة لموقف ما، وإن كان كل ذلك يمكن أن يسهم فى التفاصيل .

١٣- إن العلاجات المختلفة، المتناقضة ظاهريا، التحليلية على جانب والسلوكية على الجانب الآخر. تساعد بأساليبها المختلفة فى تدعيم الفرد أثناء أزمات النمو، وإن نتائجها ليست بالضرورة متعلقة تعلقا مباشرا بأساليبها المفترضة فحسب، وإنما بعوامل إنسانية وموقفية أعمق يحتاجها الفرد لإكمال نموه أو تهدئة موجة الاندفاع التطورية من الداخل، أما العلاجات الدوائية فهى تعمل أساسا على التهدئة المشار إليها.

١٤- إن أنواع العصاب تتحدد بمدى الإفراط فى حيلة نفسية ما أو مجموعة من الحيل لتجنب زيادة جرعة الرؤية ونتاج هذا النمط المتميز .. تحدد الصورة الاكلينيكية لهذا العصاب من ذلك.

١٥- يتوقف نوع المخاوف على ما يقابلها من مراحل مواجهة النشاط الداخلى المهدد ويشمل ذلك: (أ) التهديد الغامض بالرؤية وما يترتب عليها . (ب) المعايشة الجزئية للمواجهة مع تحويرها. (جـ) علقنة هذه

الخبرة، فالأولى بتصف نوعاً من القلق العام، والثانية تصف كلا من بداية اكتئاب المواجهة كما سيرد ذكره، وكذلك العصاب الرهابى الذى يتصف بالمعايشة الوجدانية المصاحبة بتهيج الجهاز العصبى الأتونومى والثالثة تصف الرهاب الوسواسى الذى تزداد فيه العقلنة والمقاومة والتوتر على حساب الجرعة الوجدانية والتفاعل العصبى الأتونومى.

١٦- لكل نوع من الرهاب دلاله رمزية تتعلق بتحوير حركة التهديد الداخلى، وكما أن له وظيفة تعمية بالإسقاط والإزاحة أساسا .

١٧- يعتبر العصاب الوسواسى القهرى٣٠ من أخطر أنواع العصاب، وأكثرها ميلا إلى الأزمان، ويتعلق إزمانه بحجم التناثر المهدد، كما أن وظيفته تهدف للسيطرة على هذا التهديد أى ضبط الذهان ومنعه، ومن هنا كان التخلص منه صعب لأن بديله الجاهز أو المتخيل أصعب.

١٨- يتحدد نوع العصاب الوسواسى القهرى مثل كل عصاب- باستعداد الفرد، ووظيفة العرض، ودرجة التهديد- الحقيقى أو الخيالى- بالتناثر، والرمز المتاح من الخبرة الذاتية .

١٩- يعتبر العصاب نوع من الإفراط المعجز والمرهق لما يجرى فى الحياة العادية، والناظر فى كثير من تصرفات البشر اليومية يمكن أن يجد فى العمل القهرى، والهرب المفرط فى الطقوس الدينية، والتكرار المفرغ من غائيته ما يقابل أنواع العصاب المختلفة، كما يمكن أن يجد ما وراء ذلك من الخوف من الإيمان الأعمق، ومن الإبداع ومن التجديد، وما يقابل الخوف من نشاط الفطرة ومن التناثر ومن المجهول .

٢٠- علاقة العصاب بالذهان علاقة مركبة: (أ) فالعصاب مانع لظهور الذهان. (ب) وهو بديل عنه لو نجح . (ج) ولكنه تمهيد لظهوره لو أنهك وفشل . وهذه العلاقة المركبة ترد جزئيا على القضية المثارة عما إذا كان العصاب والذهان مرضا واحدا متصلا، أم أنهما مرضان متوازيان لا علاقة لأى منهما بالآخر.

30- فى هذا الفصل - كما لاحظنا - اكتفيت بعرض عصابى الرهاب والوسواس كنموذج للعصاب واستغنيت بهما - التزاما بالمتن - عن بقية الأنواع.

الفصل الخامس

عناصر الفصل الخامس:

- **الاكتئاب**
- طبيعة الاكتئاب
- الاكتئاب العصابى الدفاعى – الاكتئاب التبريرى العدمى – الاكتئاب الراكد المذنب
- الاكتئاب التعودى الطبعى – الاكتئاب الطفيلى النعاب – الاكتئاب الدورى البيولوجى
- اكتئاب المواجهة الولافى – التقسيم الاستقطابى للاكتئاب – توقيت ظهور الاكتئاب
- الاكتئاب موت وولادة – تنويعات نتاج المواجهة – المواجهة المتكافئة
- الانشقاق العرضى بديلا عن الانشقاق الطولى
- الإزمان والتشوه – الإنكار – الاسقاط – المواجهة
- بداية الاكتئاب المواجهى وطبيعته
- الانهيار (فى الاكتئاب)
- ديناميات الاكتئاب
- اختلاف نوعية الإدراك (فى الاكتئاب)
- حدود الذات فى الاكتئاب – الاكتئاب مرحلة مفترقية – الموقف الفنى للمكتئب
- الكلمة عند المكتئب – البحث عن المعنى – قضية العقل والجنون عند المكتئب
- امتداد هذا الوعى البصيرى إلى عمق السيكوباثولوجى
- تطور الطفل . . ومفهوم السيكوباثوجينى
- مسار السيكوباثوجينى فى الاكتئاب
- سقوط الشك (عند المكتئب)
- التساؤل الأمن عند المكتئب
- اصرار المكتئب – أنانية المكتئب – نوعية شكوك المكتئب – الكراهية والاكتئاب
- عدوان المكتئب – تفسير إضافى للشعور بالذنب – العمل التكفيرى
- الذات الوالدية والاكتئاب – الانهاك فالانهيار

الاكتئاب

DEPRESSION

مقدمة:

طبيعة الاكتئاب: مرض الاكتئاب مرض شائع، وأكثر شيوعا منه إستعمال لفظ الاكتئاب، وسوف نؤجل مؤقتا مناقشة إستعمال هذا اللفظ فى الحياة العادية لنكتفى بعرض صنوف الاكتئاب المرضية كما تظهر فى مختلف صورها الإكلينيكية، على طرفى إستقطاب أنواعها ما أمكن، ذلك لأنى لن أعرض هنا سوى نوع واحد منها جميعا هو الذى أرى إنه الاكتئاب الأصيل قبل أن يتشوه ويختلط بفعل الحياة العصرية من ناحية، والعقاقير النفسية من ناحية أخرى، والمشاكل اللغوية فى إستعمال نفس اللفظ فى الشئ ونقيضه من ناحية ثالثة، وفى بحث لى عن "القيمة التطورية لتحمل الاكتئاب فى الحياة العصرية"[١] عرضت الصنوف التالية على الوجه التالى:

١ - الاكتئاب العصابى الدفاعى: The Neurotic Defensive Depression

ويتميز هذا النوع بأنه مثل أى عصاب - ليس سوى دفاعا (ميكانزما) للتخلص من جرعة زائدة من القلق غير محدد المعالم الذى يكمن وراءه - كما ذكرنا - تهديد بوعى داخلى بجرعة غير مناسبة، وهذا القلق يحمل معه التهديد بالإحباط، فيقوم الاكتئاب بإزالة هذا التحديد بأن يعيش المريض خبرة خيالية وكأن الإحباط قد تم فعلا، وهذا التخيل رغم قسوته الظاهرة إلا أن ظيفته النفسية وظيفة توازنية بلا شك، ذلك أن النفس تستطيع أن تحتمل الإحباط الذى تم فعلا وأصبح أمرا واقعا بقدر أكبر من قدرتها على التهديد بالإحباط[٢]، وهذا النوع من الاكتئاب يسرى عليه، من ناحية السيكوباثولوجى، كل ما قيل عن المبادئ العامة التى تحكم ظهور العصاب فى الفصل السابق، كما أنه ليس مرادفا للإكتئاب التفاعلى والموقفى Reactive and situational neurosis... الذى يعتبر تفاعلا مفرطا لمثير محبط (وإحباط فعلى) تم نتيجة لموقف فاشل أو حدث فاشل، وهذا التفاعل المفرط ليس دفاعا عصابيا بالضرورة، وإن كانت الحيل قد تسهم جزئيا فى إحداثه، كما لا يجوز أن نخلط بين هذا النوع العصابى وبين نوع آخر يسمى الاكتئاب البسيط Simple depression أو الاكتئاب غير الذهانى Non-psychotic depression حيث أن هذا النوع هو نوع مخفف من ذهان الاكتئاب الدورى المحدد بيولوجيا بنبض الحياة كما سيرد ذكره حالا، كما أن تصور الأمراض النفسية أنها إما عصاب أو ذهان أصبح تصورا خاطئا، وخاصة بعد ظهور التقسيم العالمى التاسع (١٩٧٨) للأمراض النفسية وإمتلائه بفئات كثيرة تحت إسم 'غير ذهانية" دون أن تتدرج

---

1 - The evolutionary value of tolerance of depression in modern life. Read at CIBA symposium on Depression Cairo January .1979

2 - فى المثل العامى: 'وقوع البلا ولا إنتظاره'
وفى الشعر العربى:
أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

تحت فئة العصاب التى يلزم لتشخيصها تصور إفراط مرضى فى إستعمال الحيل الدفاعية، إذا فالأمراض النفسية لم تعد إستقطابا بين العصاب والذهان.

٢- الاكتئاب التبريرى العدمى Rationalizing Nihilistic Depression

ويتميز هذا النوع بنوع من اليأس المستسلم، وهو مكافئ للوجود التشيزويدى حيث يتم التوازن النفسى من خلال اليقين الضلالى من أنه "لا فائدة فى أى شئ" و "لا شئ معين" و "الكل باطل وقبض الريح" و "العدم هو الحقيقة الوحيدة" إلخ وهذا الموقف الضلالى العدمى قد صبغ الأدب والفن فترة زادت فيما بعد الحرب العالمية الثانية فى العالم الأوربى خاصة (الغربى بوجه أخص) كنوع من التفاعل التلقائى لما أصاب الإنسان الغربى من كوارث شككته فى حتمية إنتصار الحياة وتلقائية التطور، وهذا النوع الباكى المتباكى شديد الثبات كجزء لا يتجزأ من تكوين الشخصية، لدرجة يعتبر معها محورا ضلاليا (هذائيا) وبالتالى فإن الشخصية قد تتعرض للتناثر لو أنها لم تتدعم بإستمراره، أى لو تعرض هذا الضلال (الهذاء) للإهتزاز الفجائى أو الإختفاء بغير بديل.

٣- الاكتئاب الراكد المذنب Guilty stagnant Depression

وفى هذا النوع تكاد الحياة تتوقف فى عجز كامل نتيجة لشعور معطل بذنب لن يغتفر، وهذا الشعور قد يظهر فى صورة أعراض تتحدث عنه، أو قد يكون فى المبالغة فى المظاهر التكفيرية المتزايدة مع درجة أقل من مظاهر الاكتئاب، ويصاحبه إمتهان للذات وتهوين من شأنها بما يتضمن فى نفس الوقت - ضمنا - التركيز حولها والتحوصل فيها ورغم الشكوى والمرارة فإن الإعتماد على هذا الشعور والراحة للعملية التكفيرية المستمرة فعلا أو تخيلا يعتبر جزء لا يتجزأ من تركيب الشخصية الأساسى.

٤- الاكتئاب التعودى الطبعى Character trait Habituated Depression

وفى هذا النوع يتعود المريض على مشاعر الاكتئاب حتى تصبح عادة من عاداته أو سمة من سماته أو طبعا ثانيا لتصرفاته، ومع تأصل الإعادة فى سن متأخرة نسبيا، تصبح وكأنها إضطراب مكتسب فى الشخصية Acquired personality disorder بما يميزه عن الشخصية الاكتئابية التى تصف الشخصية من سن مبكرة، وعموما فإن الاكتئاب مع إزمانه يفقد حدته الوجدانية ويصبح أقرب عقلانية وأقل أصالة.

٥- الاكتئاب الطفيلى (اللزج) النعاب: Nagging (Sticky) Parasitic Depression

إذا كان النوع الثانى (العدمى التبريرى) هو المكافئ للوجود الشيزويدى، فإن هذا النوع هو المكافئ للوجود الإنفصامى (وليس الفصام) وهو أقرب ما يكون إلى ما وصف مؤخرا فى التقسيم الأمريكى الثالث للأمراض النفسية (١٩٧٨) DSM III عن الشخصية فصامية النوع Schizotypal personality وفيه يبدو الشخص لاصقا طفيلا معتمدا كثير الشكوى نقاقا نعابا ناعيا حظه متحوصلا على ذاته، وهو بهذه الحال يقوم بتفعيل acting out ميوله الإعتمادية الرضيعية Acting out his infantile Acting

dependency ويبلغ تأصل هذا النوع درجة تكافئ الوجود الفصامى المزمن، كما أن وظيفته الإعتمادية التحوصلية تؤدى نفس الهدف التوقفى.

٦- الاكتئاب الدورى البيولوجى:Periodical Biologic Depression

وإستعمال لفظ بيولوجى هنا لا يعنى أن الأنواع الأخرى ليست بيولوجية، ولكنا إقتصرنا على إستعمال لفظ بيولوجى فى هذا النوع للإشارة إلى علاقته بالنبض البيولوجى للحياة الإنسانية، إذ يحدث بجرعة ذهانية أو غير ذهانية (علما بأن لفظ غير ذهانى - كما ذكرنا - ليس مكافئا للفظ عصابى) وهذ النوع، رغم أنه يمثل جرعة مفرطة لحتم بيولوجى إلا أنه هو المقصود فى هذه الدراسة بلغة تركيبية سيكوباثولوجية مباشرة، والنوع الإيجابى منه هو أيضا الوجه الآخر للإكتئاب كما سيرد ذكره فى 'رحلة التكامل" (الفصل العاشر) و 'دورة الحياة" (الفصل الحادى عشر) وأهمية هذا التداخل هو إظهار كيف أن دراسة وعرض زملة من وجهة نظر بيولوجية لا يمنع إطلاقا تناولها بلغة سيكوباثولوجية بحتة.

٧ -٣ اكتئاب المواجهة الولافى Confrontation Dialectic Depression

وهذا النوع دورى بيولوجى أيضا كما ألمحت، وقد أسميته قبل ذلك الألم النفسى[٤] كما وصفه سيلفانو أريتى على أنه 'إنه النتاج التطورى على المستوى الرمزى العلاقاتى بين الأشخاص" وخلاصة القول أنه النتاج الطبيعى لمواجهة تناقض الذات من داخل، وغموض الواقع خارجنا بكل مكوناتهما معا، وهو الدافع لإستيعاب النبض البسطى Systolic Unfolding البيولوجى فى تأليف ولاف يسمح بإنتشار الوعى، وهو الأمر الذى يقابل إتساع زاوية الترابط Angle of association على مستوى الجهاز العصبى، بل ربما هو يقابل أيضا إستطالة وتنظيم سلسلة ولولب الذاكرة على مستوى الجزيئات العظيمة Macromolecules، داخل الخلية، ونتاج كل ذلك: هو إحتمال خطوات أوسع وأوثق على مسيرة النمو.

على أن الاكتئاب يمكن أن يدرس إكلينكيا أيضا باستقطاب تقريبى لأنواعه المتعددة فنجد الإستقطابات التالية.

١- الاكتئاب الداخلى Endogenous Depression المحدد بأسباب داخل النفس غائبة عن الفحص الظاهرى فى مقابل الاكتئاب التفاعلى والموقفى Reactive and Situational Depression المحدد بأسباب منطقية وظاهرة فى البيئة والمجتمع.

٢- الاكتئاب الذهانى Psychotic Depression فى مقابل الاكتئاب العصابى Neurotic Depression والذى يحدد هذا البعد هو الفرق بين العصاب والذهان بصفة من حيث- مثلا - بعد الأخير عن الواقع وتشويه صورة الذات والعجز الشامل إلخ.

3- هناك أنواع أخرى من الاكتئاب مثل اكتئاب النجاح مما سيرد ذكره فى الفصل الأخير، ومثل الاكتئاب المجسدن Somatised depression وهو قد يكون جزء من الأنواع الأول والثالث والرابع والخامس .. وغيرهما كثير مما لا يتسع المجال لذكره هنا.

4- حين وصفته فى إحدى خطوات العلاج النفسى الجمعى فى كتابى مقدمة فى العلاج الجمعى.

٣- الاكتئاب الأصيل Genuine Depression فى مقابل الاكتئاب السطحى أو الزائف superficial False Depression، وهذا البعد يحدد مدى معايشة خبرة الحزن بأمانة وعمق فى مقابل تسطيح الخبرة والحديث عنها بألفاظ غير عميقة.

٥- الاكتئاب الدورى Periodic Depression فى مقابل الاكتئاب المزمن المتراكم Chronic Cumulative Depression وهذا البعد يفرق بين الاكتئاب النوابى الذى قلنا أنه مقابل للنبض البيولوجى وبين الاكتئاب التعودى الذى يكون فى النهاية جزءا من الشخصية.

٦- الاكتئاب العامى Blinding Depression فى مقابل إكتئاب المواجهة Confrontation Depression، وهذا البعد يعنى أن هناك نوع من الاكتئاب يزيد الإنسان بعدا عن نفسه ويخفى إقتراب ذاته الداخلية من سطح الوعى، وكثيرا ما يصاحبه نحيب بكائى مفرغ لألم الوجود الحقيقى، فى مقابل نوع آخر هو الذى أشرنا إليه فى نهاية السرد الأول .. وهو إكتئاب المواجهة الحى.

١- الاكتئاب الداخلى الاكتئاب التفاعلي

Reactive Depression Endogenous Depression

٢- الاكتئاب الذهانى الاكتئاب العصابي

Neurotic Depression Psychotic Depression

٣- الاكتئاب الأصيل الاكتئاب السطحى الزائف

Superficial false Depression Genuine Depression

٤- الاكتئاب الدورى البيولوجى الاكتئاب المزمن المتراكم

Chronic Cumulative Depression Periodical Biologic Depression

٥- الاكتئاب العامى اكتئاب المواجهة

Confrontation Depression Blinding Depression

التقسيم الاستقطابى للاكتئاب

The Polarity Classification Of Depression

وأكتفى بهذا القدر من التقديم لاستنتج منه بعض النقاط الهامة قبل أن ندخل إلى دراسة سيكوباثولوجية الاكتئاب.

أولا: إن أنواع الاكتئاب كما تظهر فى الصورة الإكلينيكية لا حصر لها، ولا يمكن بالتالى أن تكون دراستها فى زملة واحدة سيكوباثولوجيا أو كيميائيا أو فارماكولوجيا أو بالنسبة للإستجابة لأنواع العلاجات، المختلفة دراسة علمية مقنعة.

ثانيا: إن التقسيم الشائع الباحث عن الأسباب العضوية فحسب، أو المعتمد على زملات كلينيكية تاريخية أصبح عاجزا عن إستيعاب كل أنواع الاكتئاب بشكل يدركه كل ممارس للطب النفسى يحاول أن يراجع نتائجه وأن يمارس الأمانة مع نفسه.

ثالثا: إن العلاج بالتالى - لابد أن يختلف إختلافا هائلا بين نوع آخر، بما فى ذلك العلاج العضوى والعلاجات النفسية والإجتماعية على حد سواء.

رابعا: إنى سأقتصر هنا على نوع واحد من الاكتئاب وهو النوع الدورى البيولوجى، الذى هو هو "إكتئاب المواجهة الولافي" لو أنه غير إتجاهه إلى التصعيد النموى[5]، وإن كان هذا النوع لا يظهر نقيا أبدا بالصورة النموذجية التى سأقدمها، وقد يوجد فى أول مراحل الأنواع الأخرى بدرجة تزيد أو تنقص ثم يتشوه أو يتلوث بأعراض وأخرى وميكانزمات تخرجه عن مساره، ولكن لهذه الدراسة حدودا هى الإلتزم بالمتن الشعرى ما أمكن، وما هذه المقدمات والإستطرادات إلا لتوضيح أطراف الموضوع المعنى وخاصة للدارس المبتدئ، أما الأنواع الأخرى فإن سيكوباثولوجيتها تندرج تحت تراكيب أخرى ليس هنا مجال لذكرها تفصيلا، فمثلا نجد النوع الأول يسرى عليه (سيكوباثولوجيا) ما يسرى على سيكوباثولوجية العصاب، والنوع الثانى يسرى عليه ما يسرى على سيكوباثولوجية الشيزويدى والنوع الرابع يسرى عليه ما يسرى على اضطراب نمط الشخصية بشكل محور والنوع الخامس يسرى عليه - إلى درجة ما - ما يسرى على الفصام ... وهكذا.

أما هذا النوع - موضوع الدراسة - فهو النوع الأصيل المتصل بالنبض البيولوجى من ناحية، والممثل لذهان الهوس والاكتئاب الحقيقى (الذى يتناقص تناقصا خطيرا منذرا منذ إنكماش طبيعة الإنسان النبضية فى العصر الحديث داخل قوقعته الشيزويدية، ومنذ هوجمت الأمراض النفسية والاكتئاب بالعقاقير أولا بأول وقبل أن نتبين حقيقة مسار النبضة)، وقد يجد القارئفى عنوان المتن "اللبن المر" ما يدل على حقيقة هذا الاكتئاب من أنه غذاء ضرورى (اللبن) ولكنه غذاء مرير قل من سيتحمل مرارته صاعدا.

٨٣- **توقيت ظهور الاكتئاب:** إن هذا الاكتئاب ذا المعالم المحددة لا يظهر بصورته الواضحة إلا بعد إكتمال مرحلة ما من مراحل النضج وإستنفاد أغراضها دون أن تروى بقية أعماق الوجود، فمن المعروف أن الاكتئاب الحقيقى النموذجى نادر فى الأطفال لأنهم لا يستكملون مرحلة من مراحل نضجهم تماما لدرجة الاكتئاب إذ يحاولون تخطيها، ومن المعروف أيضا أن هذا الاكتئاب إذا حدث فى الأطفال فإنه يحدث فى الأطفال مفرطى الذكاء السابقين لأقرانهم فى مراحل نموهم سبقا ملحوظا والمتصفين بالحكمة المبكر عادة، وكل هذا يدل على أن هذه النسبة النادرة من الأطفال إنما تواجه الاكتئاب لأنها إستطاعات - من خلال سبق نموها أن تتم مرحلة ما فعلا، مما يعرضها لمشكلة "مواجهة إكتئابية" حقيقة فى الخطوة التالية للنمو ...

5- سيأتى ذكر هذا النوع فى الفصل العاشر مع دراسة رحلة التكامل.

أعود فأقول إن لنا أن نتوقع أن يحدث هذا الاكتئاب - كما خبرته إكلينيكيا مع وجود أغلب - أو كل - جماع العوامل التالية:

١- أن يكون الشخص قد بلغ درجة متقدمة من النضج،.. لذلك فهذا الاكتئاب يتواتر أكثر حول منتصف العمر (٣٠-٤٠)

٢- أن تكون النبضات السوية (النوم والأحلام أساسا) غير كافية لاستيعاب وتمثل وبسط المحتوى النفسى والبيولوجى[6] أولا بأول مما ينتج عنه تراكم يهيئ لنبضة جسيمة.

٣- ألا تكون الدفاعات العصابية شديدة التمكن والصلابة لدرجة التحجر، ومن ثم منع أى نبضه مهما كانت جسيمة عن الظهور صريحة مواجهة.

٤- أن يكون سابق الخبرة قد سمح بالوعى الموضوعى أن ينمو نموا معتدلا بحيث يتحمل إلى درجة ما إعادة رؤية الداخل والخارج بتناقضاتهما لفترة من الوقت دون الإسراع إلى الحيل الطامسة.

٥- أن تكون المرحلة الحالية قد نجحت نسبيا - فى ذاتها - ولكنها فشلت أن تلحق بما بعدها من أطوار وأعماق بطريقة سهلة متصلة، وهذا النجاح ذو البعد الواحد، قد يندرج تحت النجاح الإغترابى (بلغة الإنشقاق) أو قد يسمى النجاح الأرضى (باللغة الدينية)

"أخذت زخرفها...، وازينت"

أى أنه نجاح سطحى قصير النظر، ومجرد أن يواجه الشخص أن هذا النجاح لم يغن عنه شيئا إذا هو إكتفى به، يختل توازنه لو توافرت الشروط الأخرى سالفة الذكر.

٨٤ - **الاكتئاب موت وولادة:** بعد هذا التصدع والزلزلة[7] تبدأ المواجهة الداخلية والخارجية على حد سواء، وقد أسميت 'مثل" هذه المرحلة فى حاشية (١٠ ص٤٣) الأزمة المفترقية والحقيقة أنها ليست فقط مفترق طرق بين التصعيد الولافى والإنهيار المرضى، ولكنها أيضا مفترق طرق بين أواع متعددة من الذهان بل وإضطراب الشخصية، فهذه المرحلة - رغم التركيز عليها فى بداية هذا النوع من الاكتئاب - إلا أنها تصف بداية أى ذهان، بل إن هذه الأزمة ذاتها قد تحدث فى بداية العصاب بجرعة طفيفة، إذ قد تحدث على مستوى مجهض وتحت الشعور، (Subconscious) وهذه الأزمة تعلن إنتهاء مرحلة وبداية مرحلة

"زلزلت الأرض

فى سكرة الموت

أو صحوة بعث"

6- راجع أيضا الفصل الحادى عشر 'دورة الحياة'.

7- الجزء الأول من روايتى العلمية الطويلة نشر تحت عنوان 'الواقعة' وقد شرحت فيه تفصيلا هذه الزلزلة والتصدع ولحظة الرؤية الممتدة الخ.

فإذا كانت هذه المرحلة البدائية أو الإستهلالية ليست خاصة بمرض الاكتئاب بالذات، فما هى العوامل التى تحدد مسارها الى الاكتئاب أو غير ذلك؟

إن التنويعات المحتملة على 'مفترق الطرق" هذا يمكن، أن تندرج - من واقع الخبرة الكلينيكية - تحت التصانيف التالية:

(أ) المقابلة المتكافئة: Equivalent Facing

إذا إستمرت هذه الأزمة كما هى، متكافئة القوى ولكن دون مواجهة عنيفة بمعنى: إنهيار القديم بدرجة ما، وتردد الجديد فى الظهور، والتوقف الطويل للمراجعة، فهى تعلن وجودا أكثر من كيان يشغل نفس الوساد الشعورى Conscious matrix، دون ترجيح لأيهما (لا القديم ولا الجديد)، ودون اللجوء الى الميكنزمات جديدة، ودون ظهور الاكتئاب بعنف مرارته، ودون تفكك شديد يبعد هذه القوى عن بعضها البعض، فنحن إكلينكيا أمام ما يسمى أحيانا 'الفصام الاستهلالي" (أو المبتدئ) Incipient Schizophrenia ويتجه الرأى إلى التخلى عن هذه التسمية لأن احتمال تطور هذه الحالة الى الفصام ليس أكيدا (لولا أن إفتراض الأسوأ هو أكثر حيطة)، وأحيانا تسمى هذه المرحلة 'العملية الإستهلالية" Incipient Process دون تحديد لنوعها، وقد تستمر هذه المواجهة المتكافئة فترة طويلة تصل إلى شهور أو سنوات، ويصحبها أعراض شديدة الإزعاج، مثل شعور المريض بتغير الذات، وتغير العالم من حوله، والخوف والربكة والتردد وسوء التأويل القابل للإصلاح، وكثيرا ما يصف المريض هذا الإزدواج المحتل للوساد الشعورى الواحد وصفا مباشرا بأنه إثنين ... وقد ينتج عن ذلك ثنائية الوجدان ambivalence وثنائية الميول ambitendency إلخ، وكلما طال هذا الموقف دون أن تغلب إحدى القوتين، أو حتى أن تزيد فى بعدها عن الأخرى، فإن الأمر يزداد خطورة والمسار يصبح أكثر احتمالا للأسوأ وهو الفصام، وبديهى أن تكوين المريض السابق وإستعداده من حيث الوراثة (بالنسبة للفصام خاصة) ومكاسبه فى تنمية ذاته سابقا والمجال الذى حدثت فيه هذه الخبرة، كل ذلك هو الذى يحدد - ضمنا مآل هذه الخبرة.

(ب) الإنشقاق العرضى بديلا عن الإنشقاق الطولى:

Cross sectional dissociation replacing longitudinal dissociation

إذا لم يتحمل الفرد هذه الخبرة المؤلمة المحيرة، فإنه قد يلجأ إلى إستعمال حيلة تحويرية من نوع الدفاع العصابى ونذكر المثال الأقرب والأوضح وهو الوسواس القهرى (الإجترارى خاصة)، إذ إن أن المريض هنا يستبدل ظهور هذا الكيان الأعمق بأن يحور طاقته إلى فكرة أو فعل من النوع السائد فى المنطق العادى، يفرض نفسه عليه فرضا ويفشل فى أن يقاومه، ويدخل بذلك الحلقة المفرغة التى أشرنا إليها سابقا (حشيات ٧٠ إلى ٧٤)، وبالتالى يفرغ المرحلة الإستهلالية من حيوية وأصالة الكيانين المستقلين المقابل أحدهما للآخر بهذا الحل العصابى، والفرق بين هذا النوع من الوسواس وبين الوسواس العصابى إبتداء أن هذا النوع الأخير يلحق المرحلة الإستهلالية الصريحة فى حين أن النوع الأول يظهر إثر مجرد التهديد

بظهورها فحسب، ومثال هذا النوع الزملة المسماة عصاب وسواس تغير الشخصية Depersonalization Obsessive Neurosis وهناك إحتمال آخر لاستعمال دفاعات عصابية أخرى بنتاج عصابى آخر مثل عصاب الهيبوكوندريا Hypochondriacally Neurosis

(جـ) الإزمان والتشويه: Chronicity and mutilation

إذا تأصلت هذه الدفاعات بعمق وإزمان فإنه قد ينتج عنها نوع من إضطراب نمط الشخصية كنتاج طبيعى لفرط إستعمال الحيل العصابية الجديد منعا لتطور هذه الخبرة الإستهلالية إلى الذهان الخطر أو التناثر المتدهور.

(د) التفعيل والتلوث: Acting out and Contamination

قد يلجأ المريض لتجنب إطالة هذه المقابلة المتكافئة إلى إضفاء الشرعية على الميول البدائية (العدوانية والأنانية واللذية) التى أطلقت من عقلالها إثر إستعادة نشاط الكيان الداخلى، وذلك بتفعيل سماته ونزعاته فى السلوك الظاهر مباشرة، ثم يختلط هذا السلوك الجديد بالسلوك القديم إختلاطا ممتزجا حتى نرى الشخص وقد تغير إلى ما يشبه أحد أنواع الشخصيات السيكوباتية بما يشمل ذلك السلوك المضاد للمجتمع والتلكس الانفعالى واللزوجة التى تتصف بها اضطرابات الشخصية من هذا النوع، وهذا التلوث هو نوع من الحلوسط بين القوى المتقابلة بديلا عن تأليفها فى ولاف أعلى.

(هـ) الإنكار: Denial

قد ينجح الكيان البدائى الظاهر حديثا فى إنكار الكيان الذى كان قائما تماما وإلغائه والإطاحة به، بما ينتج عنه تصرفات بدائية حادة طفلية صريحة فيما يسمى بالهوس وسنرجع إليه بعد قليل (حاشيات ١١٨ وما بعدها).

(و) الإسقاط: Projection

قد يكون نتاج هذه المقابلة أن يسقط أحد طرفيها إلى العالم الخارجى إلى أشخاص حقيقين بما ينتج عنه الضلالات وسوء التأويل، أو على أشخاص وصور حسية وسمعية وهمية بما ينتج عنه الهلاوس، وبدلا من الحديث عن شخصين فى الداخل (الفصام - أو المرحلة الإستهلالية) أو عن فكرة أو فعل مسيطر على الشخص رغم مقاومته (الحل الوسواسى) أو الإتفاق السرى بينهما على مهاجمة المجتمع والإنحراف عن الجادة (الحل السيكوباتى) يصير الحديث عن الناس المضطهدين والسم الذى يوضع فى الأكل والأشباح التى تتراءى فى الظلام ... الخ.

(ز) المواجهة: Confrontation

إذا لم ينجح أى من هذا كله ... ويصبح لا مفر من إقتراب الكيانين بعضهما من بعض فهى **المواجهة**: الكيان القديم الكامن قد نشط وإحتل الوساد الشعورى جنبا إلى جنب مع الكيان السابق، وأصبح الأمر بين سبيلين:

الأول: هو أن يتألف من هذه المواجهة نسيج جديد هو الولاف الأعلى .. وهذا إحتمال قائم ولكنه سيشرح فيما بعد، كما أنه حل صحى نموى ليس بالضرورة فى بؤرة دراستنا هذه، فى هذه المرحلة.

الثانى: هو أن يقمع هذا النشاط البدائى، مع إستمرار حدته وقوته المتكافئة، يقمع قمعا مبالغا فيه يكون نتاجه الاكتئاب الذى سنتحدث عنه حالا، على أن هذا القمع ليس بالبساطة التى عناها التحليل النفسى أحيانا بمعنى أنه قمع أخلاقى ضد اللذة غير المسؤلة، أو قمع الأنا ضد الهو، بل هو قمع خوفا من:

(أ) اللذة غير المسؤلة.

(ب) العدوان.

(جـ) التناثر.

(د) الجديد أيا كان .. أى المجهول بكل إحتمالاته المهددة غير المعروفة.

(٨٥) بداية "هذا" الاكتئاب وطبيعته:

لقد أطلنا فى وصف الأزمة المفترقية ومساراتها، لكن لابد أن نعود إليها هى وطبيعتها لأنها هى هى بداية الاكتئاب، وعادة ما تبدأ هذه الأزمة بشعور حاد ومفاجئ أن شيئا ما قد حدث أو يحدث، وقد سبق أن أسميت هذه الظاهرة بإسم الظاهرة بلا اسم Anonymous Phenomenon

"حدث "الشئ"

شئ ما قد حدث اليوم"

وتتميز هذه الظاهرة بعدة مميزات تقابلها بتواتر شديد فى الممارسة الإكلينيكية.

(أ) يتكلم المريض عن هذه الخبرة بشكل أكيد لا جدال حوله طالما هو يتكلم عنها، فإذا إقتربنا من سؤال عن طبيعتها ومعناها عجز تماما لدرجة أن الفاحص السطحى قد يرتاب فى صدقه أو قد يضعه تحت أحد هذه الأعراض المسماة ربكة أو شبه فلسفية، وهى ليست كذلك أبدا، فيقينه بها فى منتهى الوضوح، وعجزه عن وصفها فى منتهى الوضوح فى نفس الوقت.

(ب) إذا إضطر المريض إلى وصفها ونجح جزئيا فقد يصفها بأنها "أكيدة" أو "جديدة" أو "غريبة" أو "حقيقية" أو كل ذلك معا، بل عادة كل ذلك معا، وعجز الألفاظ عن وصف هذه الخبرة يرجع إلى أنها متعلقة بكيان كامن بدائى أصلا لم يستعمل الألفاظ منذ زمن، كما أن الألفاظ القائمة المعتادة إنما إعتادت أن تصف الخبرات القائمة العتادة، وهذه الخبرة فى جدتها المطلقة غالبا ما تكون بعيدة عن متناول الوصف اللفظى بالذات[8]

8- قارن العجز اللفظى الأعمق فى حدة الفصام الأعمق حاشية ١٦٠، كما يمكن تقارن الجانب الايجابى الآخر لهذا الفخر اللفظى بالحديث عن المرحلة البعلفظية حاشية ٢٥٢، وأهيرا فإن من الشعر بالذات ما هو تعبير عن نجاح الشاعر المبدع أن يصف المشاعر الجديدة بألفاظ قديمة جديدة بإعادة صفها الشعرى.

(جـ) إذا كان المريض حاد الوعى فإنه يكرر فى كثير من الأحيان تراجعه عن الوصف الذى وصفه تأكيدا لجدة الخبرة، فهو إذا وصف مشاعره بأنها حزن مثلا سارع بأن يلحقه بقوله 'لكنه ليس حزنا كالحزن" وقد يعقب "لا ... ليس حزنا".

(د) قد يشكو المريض فى هذه المرحلة بأنه لا يشعر بأى شعور وأنه فقد كل إحساسه رغم ما يبدو من فرط الألم وشدة الحساسية، وهذا يؤكد أن هذه الخبرة جديدة، ورغم إمتلائها بالإنفعال إلا أن الألفاظ القائمة المعتادة لوصف الإنفعال - مثلا - عاجزة عن وصفها لدرجة إنكار الإنفعال أصلا وهو يعنى الانفعال الذى كان قائما ويبلغ من أمية هذه الظاهرة 'غير المسماة" أنه لابد من تحذير الطبيب الفاحص من الإعتماد على التفسير المألوف لألفاظ المريض التى يشرح بها حالته يعنى شيئا آخر ليس شائعا ولا مألوفا.

٨٦- الانهيار:

يصاحب بداية الاكتئاب[9] شعور طاغ بإنهيار صرح مشاد، وقد يسقط المريض هذا الشعور - جزئيا - على القيم والمكاسب والقوة والعزة الشخصية والثقة بالنفس ... وهذا الإسقاط جزئى بالضرورة ذلك لأن إدراك فقد القيمة والفاعلية فى هذه المرحلة ليس مطلقا بحال، ويبدو هذا الصرح أمام المكتئب على أنه كان ضخما متينا قادرا على أن يقف أمام قهر السنين، لذلك فإن إنهياره 'هكذا" يواجهه بصدمة مرعبة لدى المكتئب، وهذا ما يستقبله على أنه الزلزال ، أو هو الزلزال فعلا.

وهذا الشعور الناجح إنما يؤكد طبيعة إستقبال المريض لرؤيته أكثر مما يؤكد حقيقة وقوع الإنهيار، والرمز لهذا البناء الشامخ السابق، بالهرم الأكبر (وهو سيتكرر فى حاشية ١١٣) يؤكد بصفة مميزة حقائق خاصة بالاكتئاب أهمها:

(أ) إن المكتئب يحمل فى داخل نفسه اعتزازا بمكاسبه السابقة وأن شخصيته التى شيدها هى بناء شامخ تليد.

(ب) إن المكتئب ينظر إلى هذه المكاسب باعتبارها مجرد ماض من الآثار.

(جـ) إن المكتئب - فى وعيه الجديد - يعيد النظر إلى هذه المكاسب بإعتبارها قد قبرته لأنها لم تثر جوهر وجوده الأعمق، فمهما كان الهرم شامخا فما هو - فى رؤيته الجديدة - إلا قبرا.

٧٧ ، ٨٨- ديناميات الاكتئاب[10]

يبدأ الاكتئاب حين يدب النشاط Reactivation فى كيان كان كامنا (هو الأنا الطفلية (إريك بيرن) أو المخ الأقدم، وإذ يتزايد هذا النشاط بدرجة لا تستطيع معها الدفاعات القائمة أن تسيطر عليه وتخفيه يقترب **الطفل** (الأنا الطفلية) من التعبير المباشر المزاحم (وليس التناوب كما كان الأمر فى حالة السواء).

9- أنبه القارئ لآخر مرة أنى أتكلم عن نوع خاص من الاكتئاب، ولا مجال للتعميم أصلا، ولكنى مضطر بعد ذلك أن أذكر كلمة الاكتئاب دون تمييز خاص ولن أعنى سوى 'هذا' الاكتئاب.

10- ابتداء من هذه الفقرة ولبضعة حاشيات أخرى - سوف يكون الحدث عن السيكوباثولوجيا بلغة مشتركة من مدرسى: العلاقة بالموضوع Object relational والتحليل التفعلاتى Transactional analysis إلا أن ذلك يتعلق باللغة المستعملة أساسا، أما المادة الاكلينيكية فمصادرها كما أوضحت فى المقدمة هى خبرتى المباشرة مع المرضى أساسا.

(كان **الطفل** تململ بعد سبات طال..

وتحرك جوع لحياة أخرى)

وهنا تتنحى الأنا الوالدية بسرعة، ولكن فى حركة مناورة مؤقتة تستغرق لحظات أو ساعات أو أيام

(هرب الملك من التابوت يدبر للثأر مكبدة

... والملكة تبعث سيدها)

ذلك لأنه لو تنحى تماما لكان النتاج إنتصار طفلى فى صورة مرض الهوس مباشرة، أما هذه البداية الخاطفة فهى معروفة إكلينيكيا فيما يقابل الطور الهوسى القصير الذى يسبق كل إكتئاب من هذا النوع، ولابد هنا أن نذكر الفاحص الإكلينيكى بضرورة البحث عن البداية الحقيقية للمرض لا إجمالا ولكن تفصيلا بالمجهر المكبر .. أى بتدقيق مبالغ، وهذه الظاهرة قد سبق أن أسميتها بداية البداية The onset of the onset لأن السؤال عن البداية جزافا لاشك سوف يغفل مثل هذه اللحظات بصورة أو بأخرى إلا أن على السائل ألا يسأله كمحقق عن تحديد اليوم من الأسبوع وتاريخه من الشهر، ولكن أن يسأله أسئلة محددة ومفتوحة فى نفس الوقت، ومفاجئة بشكل ما، كأن يقول له 'متى كان 'هذا"؟" دون أن يحدد ماذا يقصد بهذا، أو أن يسأله بطريق غير مباشر 'أين كنت تجلس - أو مع من - عندما حدث ما حدث؟" أو 'هل كان الوقت نهارا أم ليلا" ، وأن يقصد بذلك البحث عن هذه الخبرة، 'غير المسماة" التى سبق شرحها (ص١٦٥)، لذلك يحسن عدم تسميتها المرض، فلا تسأل المريض متى بدأ المرض، حيث أن المريض قد لا يعتبر ذلك مرضا أصلا، وقد يحدده بفترة لاحقة، سواء فترة حدوث الاكتئاب، أو فترة زيادته حتى التعجيز الذى ألجأه إلى الإستشارة.

ونعود فنقول إن الشعور بالطمأنينة المفرطة، أو بالصحة الجسمية لدرجة غير معتادة أو بإشراقة فكرة كانت غائبة، أو تفاؤل صامت، أو محبة غامرة يشعر بها المريض تجاه من حوله، وعادة ما يستغرب لها، كل ذلك قد يحكيه المريض قبل الاكتئاب أو قد يتعمق شعوره هذا حتى يذكر الله فى داخله بما يصاحب ذلك من شعور بالرضا والغفران .. وغير ذلك من الصور العابرة التى تعطى طمأنينة فجائية بلا مبرر ظاهر، وكل هذا يشير - سيكوباثولوجيا - إلى تنحى **الوالد** المؤقت (وهو ليس بالضرورة الوالد الذى ولد، وإنما يعنى كل أنواع السلطة المنطبعة داخل الذات (راجع ص ٣٠) من الوالد والوالدة والمجتمع وغيرها).

إلا أن هذا **الطفل** المزاحم يتطلب طلبات غير واقعية (بعكس **الطفل** المتناوب فى حالة السواء الذى يكتفى بالأجازات والنوم وغير ذلك من مظاهر النكوص السرية) مثل أن يتشوق إلى حياة مختلفة فيها مثل مطلقة كالصدق والمحبة ... الخ، بيد أن هذا الجوع وهذه الفرحة سرعان ما يقمعها مواجها الواقع حيث يجد الطفل أمامه (٩ص١٦) ثقل خطى الأمر الواقع تمنع أى تماد فى هذا الحلم (ما دام المرض ليس هوسا هذه المرة)، وهكذا سرعان ما تصبح رقصته هى ترنح المذبوح، وسرعان ما تصبح ولادته هى جنازته أمام كثبان الأمر الواقع الزاحف الساخر

'والثدى الجبل الرملى تزحف كثبانه

تكتم أنفاس وليد كهل

يرقص مذبوحا فى المهد اللحد"

وبعد نهاية هذه الفترة العابرة المعلنة لإستعادة نشاط الجزء الأقدام، وبعد هجوم الأمر الواقع على الوليد فور ولادته (وليد كهل)، وبعد فشل هذا النشاط أن يتمادى مستقلا لتصبح هذه الحالة 'هوسا"، يعود النشاط **الوالدى** إلى السيطرة على الموقف، ولكن ليس بأسلوبه السابق، بل بأسلوب الثورة المضادة إن صح التعبير، وهو يعلن الوصاية المكثفة على هذا النشاط الطفلى الجديد بعد عجزه عن مواجهة الواقع، ومن خلال الوصاية المكثفة الجديدة يصبح مصدر الرعاية والنماء (الثدى) كاتما للأنفاس (الجبل الرملى .. تزحف كثبانه)، فهذا الإرضاع الجديد فى شكل الوصاية الغامرة (الخائفة معا) ما هو إلا قتل للمحاولة وقهر ساحق (تكتم أنفاس وليد كهل)، ولابد من الإشارة الى أن **النشاط الطفلى هنا** لا يستسلم فى نشاطه المقاوم مما يضاعف من نشاط الوالد الوصى المعاقب، إذ أنه لو إستسلم رغم قهره، إذ لو إستسلم لما تطورت الحالة إكلينيكيا إلى الاكتئاب، فهو يستمر فى نشاطه المقاوم مما يضاعف من نشاط الوالد الوصى المعاقب، إذ أنه لو استسلم وفقد نشاطه وتخلى عن الطاقة التى استحوذ عليها فلسوف تعود الحالة فلسوف تعود الحالة إلى الوجود المستقل الواحد دون معركة، أو آثار معركة، ومهما زادت مرارة التجربة، فإن هذا المرض بالذات هو مرض حيوى يقظ يدل دلالة صريحة على تكافؤ القوى المواجهة بعضها البعض[11]

٩٠ ، ٩١- إختلاف نوعية الإدراك Altered perception [12]

من أعراض 'هذا" الاكتئاب، وخاصة فى بدايته، أن الإدراك يتغير نتيجة لأن نشاطا جديدا قد أضيف إلى النشاط القديم مزاحما مستقبلا للعالم والذات فى نفس الوقت 'معا"، أى بلغة الفسيولوجيا: تزداد نيورونات جديدة إلى النيورونات العاملة بدرجة طفيفة إلا أنها تكون كافية لتغيير نوعية المساحة المستقبلة للمدرك من أى مصدر (العالم الخارجى والذات) وهذ العرض بالذات يصف بداية المرحلة المفترقية[13] - وخاصة فى 'هذا" الاكتئاب، يشعر المريض هنا أن الناس غير الناس.

(وتغير شكل الناس

ليسوا ناس الأمس)

كما يشعر أنه هو قد تغير كذلك

11- هذا التكافؤ هو هو الذى سيفسر تناوب الاكتئاب مع الهوس فيما بعد، بمعنى **للوالد** جولة (اكتئاب) ثم **للطفل** جولة (هوس..) وهكذا.

12- اخترت هذا التعبير خصيصا (اختلاف هوعية الادراك) بدلا عن تعبير اضطراب الادراك Disorder of perception أو تعبير سوء تأويل الادراك Misinterpretation لأن تغير نوع الادراك هو المراد هنا، حيث أنه يرتبط ارتباطا مباشرا بزيادة مساحة الترابط المخية، وليس بتفسيرات فكرية تجريدية.

13- تفسير هذا العرض هنا - تغير إدراك الذات والعالم - يسرى على أى أزمة مفترقية حتى ولو لم تنته إلى الاكتئاب، أى أنه يسرى على الفصام الاستهلالى وبداية حالة البارانويا تحت الحادة، وكذلك فى خبرات النمو وخاصة فى فترة المراهقة، وإن كانت جرعة إحياء نشاط اليورونات الجديدة تكون متناسبة ومتدرجة، بعكس الخبرة المرضية حيث تكون الجرعة كبيرة ومزعجة.

(وتغير إحساسى بكياني

أنا من؟ كيف؟ وكم)

وهذا الشعور يكون شعورا عميقا وحقيقيا وخبرة إدراكية معاشة، وليس مجرد وهم أو فكر كما يحدث فيما بعد فى ضلالات أو وساوس من هذا النوع (..ما هى إلا البقايا المعقلنة لهذه الخبرة الأصيلة الأعمق) - وينبغى أن نشير إلى أنه فى هذه المرحلة، وقبل أن يستقر الاكتئاب ويتضح، لا يحكم المريض على الناس 'بقلة الخير"، ولا على نفسه 'بقلة النفع" كما يحدث فيما بعد، ولكن كل ما يعانية وينزعج له هو هذا التغير 'ليسوا هم، لست أنا"، وتزيد التساؤلات ١٤

(أنا من؟كيف؟وكم؟

من ذاك الكائن يلبس جلدي؟

من صاحب هذا الصوت؟

هل حقا 'أنا" يتكلم؟

ويلاحظ هنا كيف يظهر التعدد مع التغيير فى آن واحد، إلا أن إنفصال الكيانين لا يحدث بالدرجة التى يصبح معها مشكلة تظهر فى شكل أعراض محددة ١٥ وهذا التغير فى الإدراك ضرورى لتشخيص هذه المرحلة من المرض (وبصفة عامة لتشخيص المرحلة المفترقية على التغير البيولوجى النوعى الأكيد)، وأستطيع القول أنه بغيرها - مهما ضعفت درجتها - لابد أن نعيد النظر فى ماهية الاكتئاب تحت الفحص، إذ أن غياب هذه الأعراض فى بداية هذا الاكتئاب قد يعنى إحتمال أننا أمام نوع آخر من الاكتئاب أو من المرض النفسى عامة ١٦

٩٢- حدود الذات فى الاكتئاب:

من المعروف أن العرض المسمى فقد حدود الذات Loss of ego boundaries هو عرض خاص بالفصام فى أغلب الأحوال، إلا أنه فى بداية الاكتئاب (والأزمة المفترقية بصفة عامة) تحدث ظاهرة بمكن أن تسمى شفافية حدود الذات Transparency of ego boundaries، أو على وجه التحديد هى الخوف من شفافية حدود الذات، وحدود الذات تعبير رمزى من ناحية ووظيفى من ناحية، إلا أننا لكى ندرك طبيعته وحقيقته يستحسن أن نترجمه إلى لغة عصبية كما إعتدنا فى هذه الدراسة، فإن الذات تكون محدودة بمدى الفصل الواضح بين مجموعة من الترابطات Associations ومجموعة أخرى، وفى حالة الاكتئاب

14- راجع أيضا حاشية (١٠): 'الهجوم التساؤلى المحتج' ص ٤٣

15- - قد يحدث هذا العرض فى شكل غير مباشر فيما يسمى 'علامة المرآةMirror Sign ' ويكثر ذكر هذه العلامة كأحد أعراض الفصام بالذات، لأنها تدل على إسقاط التعدد فى شكل اغتاب ذهانى وليس مواجهة اكتئابية، ولعل فى ما جاء فى مسرحية بيراندللو 'هنرى الرابع' والمرآة على صدره وهو يدفع ما تيلده للنظر فيها قائلا 'هل حدث يوما أن وجدت فى نفسك نفسها غير نفسك أم أنك كنت دائما نفس نفسك؟ ما تشير مباشرة إلى هذه الظاهرة.

16- فى العلاج النفسى الجمعيى المكثف، يصعب أيضا التأكد من أصالة نوعية التغير دون المرور الطفيف جدا بمثل هذه الخبرات وفى هذه الحالة تعتبر - مع المسار - علامة إيجابية.

(والأزمة المفترقية بصفة عامة) يدب النشاط فى الجزء الأقدم من المخ ويضعف هذ الفصل بين مجموعات الترابط لأن النشاط الجديد يزاحم ويشارك فى الوظائف الشعورية، فإذا ترجمنا ذلك إلى لغة التحليل التفاعلاتى قلنا إن الطفل يقترب ويزاحم الوالد والفتى، ولكنه - كما ذكرنا - لا يحل محلهما أو ينتصر عليهما، ومع ضعف هذا الفصل بين النشاطين يشعر النشاط الذى كان سائدا بأنه غير قادر على التحكم فى الداخل بالفصل (عصبيا) أى بالكبت (باللغة النفسية الدينامية) وكأن هذا الداخل مهدد دائما بالخروج بالرغم منه، أو بالإعلان، وهذا ما يعنيه المتن.

(فتحت أبوابي

رق غشائى)

وقد تزداد حده هذه الظاهرة، ويستقبل المريض الحركة الداخلية النشطة على أنها أكثر تهديدا وقلقلة ويخاف من عدم التحكم فيها أصلا بما يظهر فى أعراض الخوف من الجنون ومن عدم التحكم فى بداية الاكتئاب كذلك، ولا شك أن الخوف العقلى من الظاهرة كما هو الحال فى الرهاب الوسواس، غير حدوثها ومعايشتها كما هو الحال فى الاكتئاب، نتيجة لوعيه المباشر بنشاط الجزء الداخلى غير إسقاطها والاغتراب عنها كما هو الحال فى الفصام١٧ ، ولكن ما وراءها فى البداية فى الأحوال الثلاث هو نفس الأساس السيكوباثولوجى والفسيولوجى المرضى١٨

٩٣- تأكيد جديد بأن 'هذا'' الاكتئاب مرحلة مفترقية:

المريض المكتئب - من خلال رؤيته الجديدة - يعيد النظر فى وجوده السابق، ويعيد إستقبال وإدراك العالم من حوله من جديد، وهو يبدأ - فى غور نفسه - بالهجوم على الوجود السابق (الممثل حالا فى الآخرين الذين لم يتغيروا مثله) وهذا الهجوم يبدو صادقا أصيلا وكأنه نابع من نشاط القوة الجديدة المتحفزة، فهو رافض للزيف وللقديم وللسلوك القهرى، وهكذا، وينتج عن هذا الهجوم إعلان سقوط الأقنعة، وجرعة أكبر من الوعى الموضوعى، الذى هو قريب من الوعى الذهانى Psychotic awareness (الذى أشرنا إليه فى حاشية ١٢ ص ٤٤) ولكنه وعى مرعب، لأن تحطيم الزيف وسقوط الأقنعة لايكفى للحفاظ على التوازن، والبديل القادر ليس جاهزا ولا فاعلا

(سقطت أقنعة الزيف

لكن الحق لم يظهر بعد)

17- من أقوال المرضى فى هذه الحالة 'أنا خايف لا تبعزق' ، ' أنا خايف لا تجنن'، 'خايف لا صرخ'، 'خايف لا يجرالى حاجة'، 'خايف لا فقد عقلي' ، 'خايف لمعرفشى أكلم الناس زى ما أنا متعود'، 'خايف لا سيب نفسى أخبط فى اللى قدامى أعمل فيه حاجة' وهو خوف **محدد** ومن **الداخل** بعكس القلق إذ هو **من الداخل** ولكنه **غير محدد** وبعكس الرهاب العصابى (الوسواس أو غيره) إذ هو **محدد** ومن **الخارج**، ولذلك فانى أفضل أن يكون له سم 'رهاب المواجهة Confrontation Phobia 'تمييزاله عن هذه الأنواع الأخرى.

18- سبق أن تعرضنا لهذه الظاهرة ونحن نتكلم عن رهاب الخوف من الاماكن المفتوحة (حاشية ٥٧) وقلنا إنها الصورة العصابية لفقد أبعاد الذات أو الضلالات الإذاعة.Thought broadcasting

وتكون نتيجة هذه الرؤية العاجزة هو الحزن الحقيقى دون تراجع، وكأن **الطفل** الذى يحاول أن يرفض الموت بأسفكسيا المجتمع، يجد نفسه مهدد بالقتل بحراب الحزن المتلاحقة، وعلى ذلك فالاكتئاب - بإيجاز - إنما يظهر:

(أ) حين يسقط القديم بلا إستئذان أو تمهيد.

(ب) حين لا يظهر - فى نفس الوقت - الجديد بالفاعلية اللازمة.

(جـ) حين لا تتناثر الشخصية بتفكيك أجزائها بعيدا عن بعضها.

(د) حين تعجز الدفاعات أن تعيد التحكم فورا.

٤ ٩- الموقف الفنى للمكتئب:

يسمى هذا الاكتئاب أحيانا فى مراحله الأولى بالاكتئاب الوجودى، وقد أسميت هذه اللقطة بالموقف الفنى وذلك لوجه الشبه بين المكتئب والفنان فى صدق الرؤية وعمقها دون القدرة (أو الإلتزام) على تنفيذها الحالى، فوظيفة الفن فى تقديرى هى عرض هذه الرؤية بجرعات تسمح بإثارة ما يقابلها تدريجيا دون الإلتزام أو القدرة على تنفيذها حالا، والمكتئب هنا ينظر الى نفسه وإلى الواقع نظرة فاحصة جديدة يصور بها فقد الإحساس على أنه الموت ذاته، وهناك إحتمال أن الإسقاط يعمل بشكل متوسط فى هذا الموقف، وكأن تغير الإحساس لدى المكتئب الذى إستقبله على أنه 'فقد للعواطف" قد أسقط على الناس حتى رآهم بغير مشاعر، فضلا عن حقيقة إدراكه المبالغ فيه لسطحية التواصل بين الناس، ولكنى أرجح - من الممارسة الاكلينكية - أن المكتئب يمر فى المرحلة الأولى بما يسمح له أن يعلن فى صدق موضوعى حقيقة سطحية ماحوله التى تتضمن زيادة فى درجة إحتياجه الى عواطف أعمق وفى مرحلة لاحقة يبدأ الإسقاط فى العمل جزئيا ويسهم للوصل الى نفس العرض ظاهريا.

أما بقية الصورة الفنية فهى رؤية المكتئب لعجز التواصل بين الناس فى هذه الأصوات المتبادلة بلا فهم أو معنى، مما يمكن أن يسمى 'حوار الصم" Dialogue des sourds، وكأن كل الديالوجات ما هى إلا مونولوجات مقطوعة وكأن الواحد من الناس لا يسمع إلا نفسه ولا يرد إلا عليها، وكأن الألفاظ عند 'هذا" الاكتئابى تدب فيها الحياة كما دبت فى سائر أنواع إدراكه وسلوكه (ولكنها حياة مرة أليمة).

الكلمة عند المكتئب:

يشعر المكتئب بأن الألفاظ تحمل قدرا حقيقيا من المعانى أكبر من قدرته على تحمل عبئها وأكثر من قدرة التعامل العادى بين الناس على إيفائها حقها، وكأن المكتئب بعكس الفصامى، ففى حين تفقد الألفاظ معناها عند الأخير، تزداد عمقا وتحديدا ومعنى عند الأول، بحيث إذا قاس كلام الناس مع بعضهم بالمقياس الذى يعيشه، إكتشف بشاعة خلو الأصوات من المعنى، وكأنهم موتى يتبادلون الأصوات لا أحياء يمارسون الحوار

"والأحياء الموتى فى صخب دائم

ويخيل للواحد منهم آن الآخر يسمعه

والآخر لا تشغله إلا نفسه

أو موضوع آخر ... الخ"

ولا يستطيع المريض المكتئب أن يتحمل كل هذه المسئولية فى أن يملأ اللفظ بالقدر المضبوط تماما من المعنى، فى حين أن الشاعر (كما ذكرنا فى تذييل حاشية ٨٥ ص١٦٥) يستطيع ذلك، وقد عبر بعض الشعراء عن هذه الخبرة (إما بطريق مباشر عن خبرتهم الذاتية وإما بطريق إسقاطى عن رؤيتهم فراغ كلام الآخرين ووصفهم لهذا الخلو من المعنى وصفا مبدعا أمينا [١٩]، ومن المتوقع أن هذا العبء إذا لم يفرغ إبداعا فإنه سينهك ويفقد حيويته وقد يتدرج حثيثا إلى أنواع أخرى من الاكتئاب الميت (مثل الطفيلى النعاب) ... بل إن الطرف الآخر لهذه الخبرة الحادة هى الفقد معنى الألفاظ فى الفصام (وإن كان هذا الفقد ظاهرى فى بعض الأحيان كما سيرد فيما بعد).

(٩٥) البحث عن المعنى:

ذكرنا فيما سبق (حاشية ١٤ ص٥٧) أن المعنى من أهداف الحياة الهامة إن لم يكن هو هدف الحياة الأساسى، وإذا كان المعنى تلقائيا وحيا وراء سلوك ظاهر تسكينى عند الناس العاديين، فإن المكتئب مع زيادة وعيه، يدرك طبيعة الأهداف القهرية التى يجرى وراءها الناس من حوله، ويبالغ فى ذلك حتى يراها أهدافا تعجل بالنهاية ليس إلا

(يتعجل كل منهم حتفه

إذ يلتهم الأيام بلا هدف وبلا معنى)

وهكذا يحتد إحساسه بالزمن كما احتد وعيه بنفسه ومن حوله وبالقلق وبالحاجة إلى المعنى، فيصبح إحساسه بالزمن واضحا عنيفا ومرهقا، وإذا كان الشعور بوقع الزمن يقع فى دائرة تحت الشعور أو اللا شعور عند الشخص العادى وكان الشعور بالزمن يموت أوْ بتعبير أدق يبتعد فى غيابات اللاشعور عند الفصامى، فإنه عند المكتئب يتضخم، وقد يعبر المكتئب عن هذه الظاهرة بشكواه من ثقل وقع الثوانى وطول النهار وبطء الليل وتأخر الصبح، وهو حين يحتد إحساسه بالزمن لنفسه، يرى لهاث الآخرين وكأنهم يجرون خارج نطاق الزمن، لأنهم يقتلونه باللاوعى به، ونوجز نتاج هذا كله فى ظاهرتين:

19- يقول صلاح جاهين في إحدى رباعياته واصفا صعوبة الإلتزام بدقة الكلام تحديدا

وقفت بين شطين على قنطرة

الصدق بين والكذب فين يا تري

محار حاموت الحو طلع لى وقال:

هوه الكلام يتقاس بالمسطرة

ويقول صلاح عبد الصبور في ليلى المجنون

لا يعرف أحدهمو من أمر الكلمات إلا الغمغمة أو همهمة أو هسهسة أو تأتأة أو فأفأة أو شقشقة أو سفسفة أو ما شابه من أصوات، ينتزعون ثياب الأفكار المومس والأفكار الحرة، وتلوك الأشداق الفارغة القذرة، لحم الكلمات المطعون.

ويقول نجيب سرور في بروتوكلات حكماء ريش

ياذؤبانا لاكت شرف الكلمة، جئت ألملم كل الكلمات المسمومة، الكلمات المصطلحات الشعيات، الكلمات المعكوسات، فى الأحذية الأجلاسيه اللماعة.

الأولى:، زيادة الوعى بحركة الزمن وتسلسل الأحداث سواء فى العالم الخارجى أم بالنسبة لحركة التسجيل المخية وذلك بالنسبة لنفسه والثانية زيادة الوعى باغتراب الآخرين عن وقع الزمن.

٩٦- قضية العقل والجنون عند المكتئب:

تثار هذه القضية عند "هذا" المكتئب بشكل حاد ومباشر، فهو إذ يدرك ما حدث له، يعرف أنه يقترب حقيقة وفعلا من حكمة أعمق ورؤية أصدق وإحساس بالكلمة أشرف وإحساس بالزمن وبالموت وبالآخرين أكثر موضوعية وإن كان أكثر إيلاما .. وربما أقصر عمرا، فهو بهذا كله يزداد عقلا بالمقاييس المطلقة المجردة ولكنه فى نفس الوقت يزداد جنونا بمعنى بعده عن المألوف، والخط العام والجرعة المناسبة من الإحساس والوعى، بالإضافة إلى عجز هذه الجرعة المفرطة من الإقتراب من حجم الأشياء الحقيقى (الموضوعية) فى أن تفرغ فى محتوى الحياة العامة فعلا وتكيفا، فهى رؤية عاجزة وإحساس مؤلم ليس إلا والمكتئب فى قرارة نفسه يدرك هذا التناقض الحاد، بل وقد يصل إدراكه هذا الى وعيه بشكل مباشر

(و"العاقل" مثلى..، أى من جن،

...يعرف ذلك)

٩٧- إمتداد هذا الوعى البصيرى إلى عمق السيكوباثولوجى:

إن من أهم مصادر علم السيكوباثولوجى الأصيلة هو وعى المريض بطبيعة مرضه وجذورها، ولعل كتابات المرضى عن أنفسهم قد ألهمت كثيرا من الدارسين إلى أصول مرضهم، والمثال البسيط لذلك هو حالة "دكتور شريبر" التى إستمد منها فرويد أغلب معلوماته عن البارانويا والفصام، كما أن الفيلسوف السيكوباثولوجى ك. ياسبر قد كتب كتابه "المرجع فى السيكوباثولوجيا" وهو ليس ممارسا إكلينيكيا - من إعادة رؤيته لتقارير المرضى، وأخيرا فإنى لم أشاهد مقولات فرويد وغيره عن عقدة أوديب وغيرها صريحة مباشرة إلا فى الذهانيين بوعيهم الحاد، وقد ألفت أن أعلم طلبتى حقيقة تساعدهم على التشخيص تقول "إذا قال لك مريض كلاما هو السيكوباثولوجى بعنيه كما تعرفه وكما تقرؤه فى كتبك، .. ولم يكن هذا المريض قارئ ا فى هذا العلم .. ولم يكن مبدعا فلابد أن يبدأ الشك عندك أنه "ذهانى"".

وفى هذا المرض بالذات "هذا الاكتئاب" الذى يتصف بالتماسك النسبى من ناحية، وبذهانية الوعى من ناحية أخرى تصبح المعلومات التى يمنحنا إياها أصيلة وهامة، ويحكى هؤلاء المرضى وكأنهم يقرؤون كتابا مفتوحا، والويل لهم من فاحص سامع لا يعرف فى هذا العلم بالقدر الكافى، ولا يريد الخوض فى أغواره. سمعا وتعلما، إذ أنه سرعان ما سيعتبر كلامهم تهيؤات لا أكثر ولا أقل.. فى حين أنهم يدلون بأخطر المعلومات، وقد يدلى مريض بأفكار تتفق مع هذه المدرسة، ويدلى آخر بأفكار تتفق مع تلك المدرسة، حتى أخذ ذات مرة على التفسيرات السيكوباثولوجية هذا المأخذ حين ثار تعليق دعابى يقول: "إن مريض يونج يحلم أحلاما يونجية، ومريض فرويد يحكم أحلاما فرويدية".. وهكذا، وهذه حقيقة صحيحة

ولكن تفسيرها لا يعنى ذلك الشك المسطح فى أن مصدر هذه الأحلام هى صاحب النظرية أصلا، إنما تفسيرها العلمى أن المريض يقول ما شاءت له رؤيته وقدرته على التعبير أن يقول، وصاحب كل نظرية يلتقط ما يتفق مع نظريته من هذه المادة الثرية الصادقة، وكل هذه المقدمة تنتهى بنا الى إستنتاجين **الأول**: أن النظريات السائدة، رغم اختلاف لغتها ودرجتها من العمق لها أساس من الصحة **والثانية**: أن الرؤية الذهانية (النكوصية جزئيا) هى من أهم أصول هذه النظريات لو أحسن الإستماع إليها واستيعابها وتفسيرها.

(ولقد يرتد البصر إلى أعماقه

يتذكر أصل القصة)

(٩٨-١٠٢) تطور الطفل .. حتى الموقف الاكتئابى (ومفهوم السيكوباثوجينى)

فى هذه الفقرات سيكون الحديث بلغة المدرسة التحليلية المسماة "العلاقة بالموضوع" Object Relation، وقد نفعتنى هذه المدرسة فى توضيح فكرى وتعميق رؤيتى أى نفع، وكل ما استطعت أن أضيفه إليها هو البعد البيولوجى من ناحية، وتطوير تعدد الذوات من جهة أخرى، وكأن رؤيتى لها هى جماع بين مقولاتها، وفكر التطور البيولوجى (داروين، وجاكسون، وإى) ثم الفكر التحليلى التفاعلاتى (إريك بيرن)، ويظهر ذلك فيما يتعلق بالاكتئاب بوجه خاص، وأقدم هنا إبتداء هذه المراحل المتعددة الأبعاد، التى ستنتهى منها الى التفسير المتعلق بما جاء بالمتن بشأن "هذا" الاكتئاب:

(أ) يمر الطفل فى تطوره ٢٠ بمراحل مختلفة متتالية، وقد اختلفت المدارس فى تسميتها، وإن اتفقت - فى عمق معين فى تسلسلها - ويعرف هذا النمو الفردى بالتطور الأنتوجينيOntogeny.

(ب) يكرر الطفل بذلك تاريخ نوعه (الفيولوجينيا Phylogeny) فيحقق القانون الحيوى القائل بأن الأنتوجينينا تعيد الفيلوجينيا.

(جـ) يكرر الطفل هذه الخطوات فى كل نبضة نمو لاحقة بعد ذلك، (وقد أسميت نبضة النمو هذه قبلا باسم الماكروجينيا Macrogeny تمييزا لها عن نبضه أصغر تتعلق بتطور الفكرة أسماها أريتى Microgenia وقد تكون هى الموازية لتطور الوعى عند هيجل.

(د) تعتبر أزمة الذهان خاصة (والمرض النفسى عامة) صورة مكررة وفاشلة فى نفس الوقت - للماكروجينيا، بما ينتج عنها من آثار سلبية ومعوقة للنمو، ويمكن تسميتها بالسيكوباثوجينا Psychopathogeny باعتبار أن فشل هذه النبضة أيضا ينتج عنه عملية عكسية وإن كانت هادفة ومسلسلة.

20- يمكن الرجوع أيضا الى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعي" الجزء الثانى ص ٢١١ إلى ٢٢١ أساسا وبعضها مما بعدها.

(هـ) نستطيع أن نتعمق فى أزمة السيكوباثوجينيا هذه على اعتبار أنها محاولة مبتورة لإستعادة مراحل النمو والإنطلاق منها على قدر وعى المريض المكتئب، ونحن إذ نستغل رؤية المكتئب المتقمصة فى المتن - شعرا - إنما تتاح لنا الفرصة أن نعيد النظر فى فروضنا، نعدلها ونزيد عليها:

١- يولد الطفل 'جسميا" بانفصاله عن أمه، ولكن ولادته النفسية تتأخر عن ذلك.

٢- صدمة الميلاد (التى وصفها أساسا أو توراتك) ترجع فى تقديرنا إلى عدم التناسب - توقيتا - بين هذه الولادة الجسمية وبين الولادة النفسية٢١

(لما غادرت القوقعة المسحورة

صدمتنى الدنيا)

٣- يقابل الطفل هذه الصدمة بالتراجع فى مواجهة خطرين أساسين.

(أ) الإفتقار إلى الدفء النفس الحانى، وهو يستمده من أمه أساسا باعتبارها تحمله فى رحم نفسى Psychological Uterus حتى تتم ولادته النفسية فى مرحلتها الأولى.

(ب) مواجهة قسوة الخارج بما يحمل من عدوان وتهديد، والطفل إذ يواجه هذا الخطر وذاك (٢٢[22]) لا يستطيع أن 'يدرك" طبيعة هذه الصعوبات ولكنه يستقبلها ويتفاعل لها، وسواء بالنسبة للجفاف العاطفى أم القوة الحقدية، فإننا ينبغى أن ننظر إليهما بإعتبارهما من الطبيعة المرحلية لمسيرة البشر والمجتمع إذ يفرض أسبابهما، والإنسان إذ يحتمى بهما وفيهما، إنما يعلن مرحلة طبيعية فى التطور الإنسانى، أما إستقبال الطفل والفنان لهما فهو إستقبال قاس نتيجة لإحتياج مفرط، لأن الطفل إنما يتكون بانقساماته وإعادة إلتحامه نتيجة لتعامله مع هذا الواقع، ولكن الذى ينبغى أن ننتبه إليه هو 'الجرعة المناسبة" من هذا وذاك وليس اختفاؤهما تماما، وإن كان هذا أمل مستقبلى لا يجوز التنازل عنه مهما قسا الواقع المرحلى، وبلغ فى حدة شعور الطفل بأن

(نار الحقد قد إختلطت بجفاف عواطف ثلجية . . .)

أما كيف يقابل الطفل 'صدمة الميلاد" هذه فقد إختلفت المدارس فى تحديد خطواته:

(أ) نستطيع أن نقول إستنتاجيا من فكر فرويد أن 'تثبيتا" يقع فى مواجهة كل موقف لايستطيع الفرد أن ينتصر عليه أو يستوعبه أثناء مسيرة نموه، وبالتالى فإن الحديث الولادة يتثبت عند هذه المرحلة، وتزيد النجسية الأولية رسوخا، وتصبح نقطة التثبيت هذه نقطة جذب فيما بعد إذا ما قابل ضغوطا مناسبة، ويصبح المرض النفسى إستجابة لجرعة هذا التثبيت تناسبا مع جرعة الضغوط المسئولة.

(ب) تقول المدرسة الخاصة بالعلاقة بالموضوع (فيربيرن وجانترب خاص) أن مواجهة هذه الصدمة وما يليها يكون بانقسام الأنا الناكص Regressed ego نتيجة لما أسموه بالإنشطار الأولى Primary

---

21- يصاحب تأخر الولادة النفسية، تأخر فى استكمال نضج الخ بالذات، فهو من الأعضاء القليلة التى تستكمل نموها وتغطية بقية أعصابها بغشاء الميلين، وتحقيق ترابطاتها، بعد الولادة.

22- سأرجع الى التفسير العصبى لهذه الخبرات المفترضة بعد قليل.

Split، وهذا الأنا الناكص هو 'كيان" يؤكد فكرة تعدد الذوات، (حاشية ٥ ص ٢٦ وما بعدها) وصراعها فيما بعد بين الجذب نحو الحماية فى الرحم بما يمثله هذا الأنا الناكص، وبين التقدم فى خضم الواقع بالجزء الباقى المصارع.

(جـ) يقول إريك إريكسون فى هذا الشأن أن الطفل منذ هذه البداية المبكرة يواجه 'أزمة نمو" فى مفترق ما بين الثقة الأساسية Basic Trust وما بين اللاثقة الأساسية Basic Mistrust ويتوقف نتاج هذا الموقف على ما يجده الطفل من جو محيط يرجح الثقة أو عدم الثقة.

(د) أما المفهوم الذى أحاول أن أؤكده تحقيقا للقانون الحيوى (الأنتوجينيا تكرر الفيلوجينيا) هو أن هذه الخبرة ليست شعورية كما بينت، وليست فنية كما صورت فى المتن (وكل مقولات ميلانى كلاين وإريكسون فى تقديرى ومن خبرتى - هى من واقع ما اسميته الخبرة العلمية الحدسية الفنية، بمعنى أنها تترجم المعايشة البيولوجية إلى ألفاظ حديثة ليست هى بالضرورة حقيقة ما يحدث)، وكأن هذا التصوير 'نار الحقد قد اختلطت بجفاف عواطف ثلجية"' لا يصف مباشرة خبرة الطفل فى هذه المرحلة الأولى بل أنه:

١- يرمز الى هذه الخبرة فحسب.

٢- يرمز الى طبيعة العلاقة البدائية فى الحيوانات الأولية التى تمثل الطور المقابل للجزء الأعمق من تكوين الطفل حديث الولادة، وهذا الطور (المقابل للأنا الطفلية فيما بعد) يكون أنشط داخل الرحم، فإذا ما قابلته متطلبات الواقع خارجه ونشط قليلا لمواجهتها ولم يستطع أن يكمل نشاطه مستقلا فإن جزءا منه يكف عن النشاط، والجزء الآخر يحاول أن يشترك فى نشاط الجزء التالى (التالى نموا وتاريخا تطوريا) فى مواجهة هذه المتطلبات الجديدة.

فباللغة العصبية التطورية يمكن تفسير هذه الخبرة بالإنفصال الكامن للجزء الأقدم، والترابط النسبى للجزء الباقى، وهذا يقابل الأنا الناكص من جهة، ويفسر التثبيت الفرويدى من جهة أخرى.

إذا فالتفسير البيولوجى لهذا الإنقسام من جهة، وهذا الترابط من جهة أخرى، هو طبيعة مسيرة النمو التى تتبع خطوات طبيعية فى أى نمو ديالكتيكى:

(أ) الكتلة العصبية غير المميزة - وإن كانت ممثلة لكل مراحل الفيلوجينيا - تنقسم الى جزيئاتها (الممثلة للكيانات عبر التاريخ الحيوى) فتكمن التنظميات (الكيانات) غير المناسبة للمرحلة، وتنشط التنظيمات، (الكيانات) المناسبة للمرحلة.

(ب) يستمر الكيان النشط لفترة تتناسب مع المرحلة، فإذا زاد النمو بعد ذلك وفرضت طبيعة العلاقات مرحلة جديدة كمن هذا الجزء الذى كان نشطا، وثارت الأجزاء الكامنة الأقدم والأحدث ثم عادت الكتلة تنظم نفسها بنفس الأسلوب على مستوى أعلى.

(جـ) فى كل إعادة تنظيم - وهو ما يقابل الأزمة المفترقية - توجد محاولة للولاف الأعلى من خلال تنشيط الجزء الكامن واستيعاب بعض منه وهكذا.

والآن **اذا كانت هذه** الفروض تمثل لغة عصبية تتعلق مباشرة بأن الجهاز العصبى للإنسان يحمل آثار كل الأجهزة السابقة للأحياء السابقة الممثلة لكل تاريخه التطورى.

واذ كانت هذه الأجهزة السابقة لا تعمل معا منذ البداية، بل يتناوب عملها حسب كل مرحلة، ومع كل نبضة نمو، يحاول الجهاز الانسانى إستيعاب قدر أكبر من إمكانيات تاريخه الحيوى،

واذا كان الطفل لا يستطيع أن يعيش خبرات هجر أمه وصدها وبرودها وحقد المجتمع وقسوته بالمعنى الذى اعتاد الناضج أن يعبر عنه.

فما تفسير هذه النظريات السيكوباثولوجية التى تتكلم عن 'الموضوعات الداخلية 'Internal object' وعن قتل الطفل لأمه، وعشقه لها، وعن شعوره بالذنب إزاء هذا أو ذاك، وعن الثقة الأساسية؟ وانعدامها ... الخ

هل يمكن أن نرفضها جميعا؟ أفلا نعذر الأطباء العضويين حين يتراجعون فى خوف من كل هذا التنظير الذى يفترض أحوالا ومشاعر وأفكارا يستحيل مجرد تصورها لدى الرضيع، ويختبئون بين المشتبكات العصبية؟

إن التفسير الذى أطرحه هنا هو نابع من إصرارى على عدة أمور:

أولها: تصديق حدس وإجمال هؤلاء العلماء الفنانون المنظرون.

وثانيها: رفض أى فكر غير بيولوجى.

وثالثها: الفائدة العلاجية التى تعود على المريض من إحترام هذه الأفكار وتطبيق جوهرها.

وهذا التفسير يقول:

إن دراسة الطفل فى نموه، ودراسة المجنون فى نكوصه، ودراسة المكتئب فى حدة وعيه، ودراسة المريض فى خبرة علاجه الجمعى مارا بمأزق الذهان المصغر كل هذه الدراسات مع باحث فينومينولوجى موضوعى قادر، تجعل مثل هذه الباحث: يستقبل كليا خبرة اللا تميز باعتبارها 'الفطرة".

ثم يستقبل خبرة الإنقسام والكمون الجزئى من ناحية والترابط الجزئى من ناحية، باعتبارها تثبيتا أو إنقسام كيانات الأنا، ونكوص بعضها.

ثم يستقبل أى خبرة تكرر نوعا معينا من الحياة (الحياة البدائية أحادية التواجد: باعتبارها الحياة الشيزويدية داخل الرحم، ثم الحياة التوجسية النمرية المكرة المتحفزة باعتبارها الموقف البارانوى للطفل كما سيأتى بعد وهكذا.

يعنى أن هذا العالم الفنان الذى يستقبل هذه الإنقسامات والتجميعات والتوليفات لابد أن يبحث فى قاموس ألفاظه الذى استحدث بعد كل هذه المراحل ليختار من بينها أقرب الألفاظ المناسبة لوصف هذه الخبرة أو تلك.

وقد أشرت ضمنا الى إستعمال هذه الألفاظ الدقيقة من حيث وصف المقابل الإنسانى للخبرة البدائية والرضيعية، وهو إستعمال رمزى بالضرورة، ولكنه مفيد حتما فى العلاج كما سيأتى ذكره لأن الإستغناء عن هذا الوصف اللفظى الإنسانى والإكتفاء بلغة الإنقسام العصبى والتوليف المستوياتى لن يفيد كثيرا فى ترجمة هذه الخطوات إلى علاقة إنسانية مباشرة، أو بذل الجهد العلاجى ذى المعنى فى المساعدة لالتحامات أو فق وولافات أعلى.

خلاصة القول أن وصف هذه الخبرات بهذه الألفاظ يشير إلى:

(أ) حقيقة بيولوجية لها ما يقابلها عصبيا.

(ب) حقيقة تطورية تعيد وصف أطوار الأحياء من منظور إنسانى.

(جـ) هو رمزى بالضرورة.

(د) هو نافع فى فهم أعماق المرض ومشكلة تعثر خطوات النضج، ومن ثم فى بذل العلاج المناسب على العمق المناسب.

وابتدا من هنا لن أرجع ثانية الى تفسير هذه الخبرات الأولية أو الدفاع عنها وكلما غمض الأمر على القارئ، أو ثار على المقروء فليرجع من يشاء الى هذا التفسير السابق.

والتثبيت الذى أشار اليه فرويد من ناحية، والذى يعنى الإنقسام الجزئى العصبى فالكمون بيولوجيا من ناحية، هو المقابل لما جاء فى المتن.

(فتجمد تمثال الشمع المنصهر)

وينقسم الطفل إذا الى قوة جاذبة كامنة، هى ما يعرف بالجذب الى العودة إلى الرحم [٢٣] ويقابلها القوة التدهورية أو حتى بتفسير خاص 'غريزة الموت"، ويبدأ النمو فى صورة لولبية، تشمل التراجع للتقدم بشكل شبه مستمر يحتد فى أزمات النمو أكثر وأكثر، وقد تسمى هذه الحركة الخلفية الأمامية (مثلما قال جانترب) رحلة الداخل والخارج In and out program وهى الرحلة التى تشير الى إستحالة العودة الدائمة الى مرحلة سابقة (الرحم) وأن حركة النمو لابد ون تضطر الطفل لإستمرار المسيرة بينهم.

(لما غرق القارب فى بحر الظلمة

قذفنى اليم على شاطئهم)

23- ينبغى أن يؤخذ هذا التعبير بمفهومه الرمزى كذلك، الذى يعنى عصبيا: العودة الى نشاط تركيب سابق منفرد محمى لا علاقاتى داخل الجهاز العصبى ذاته، وسلوكيا: الاعتماد الكلى على آخر حتى كأه فى جوفه مع إلغائه فى نفس الوقت وتطوريا العودة الى مرحلة قريبة من المراحل أحادية الخلية.

اذا فالتراجع مهما بلغت قوته وبدت منطقية أسبابه: لعدم وجود الرحم النفسى الحانى، وخلو البيئة من عواطف ملتهبة غير منضجة، أو باردة غير نافعة، أو جافة قاسية (نار الحقد قد اختلطت بجفاف عواطف ثلجية)، أوقل بالرغم من هذا كله فلا مناص من الدفع التلقائى لمسيرة النمو، وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى النمو وهى المرحلة التى اسمتها مدرسه العلاقة بالموضوع المرحلة (أو الموقف) البارنوى Paranoid position والتى أقابلها تطورا بمرحلة الكر والفر أو الإضطهاد، والعدوان التى قد يمثلها النمر وما يقابله من علاقات الغابة، ويترجم هذا الموقف بالرموز الإنسانية بأوهام الإضطهاد، النابع من الخوف البارنوي

(صور لى خوفى أن الكل يطاردنى) ٢٤

ومشكلة الاكتئاب كما سنرى أنه لا يتوقف عن المرحلتين السابقتين ، فالإنسحاب الكامل مستحيل كما أوضحنا

(جف البحر ورائى)

والوقوف عند المرحلة التوجسية مؤقت، إذ هو مرحلة مهددة نظرا للضعف المفرط واللاحيلة التى يمر بها الطفل فى هذه الخطوة حتى يتصور من فرط الضعف أنه الموت، بل إن حالات عضوية تصيب الأطفال (الهزالMarasmus) تشير الى هذه الوقفة

(لم تنبت فى صدرى رئة بعد

وتمدد جسدى ينتظر الموت)

وإذ يشتد هذا التهديد والقهر، ويصعب - فى نفس الوقت الانسحاب والنكوص، يظهر 'دفاع الاستسلام" الذى لا يعنى الانتحار بحال، وهذ دفاع شيزويدى وليس إكتئابا، مما نراه إكلينيكيا فى الفرق بين إنتحار المكتئب (الفعل) وبين أمانى الموت الشيزويدية عند البارانوى والفصامى أحيانا، ويعتبر هذا الإستسلام الدفاعى صورة محورة من رحلة الداخل بديلا عن التراجع النشط الذى حيل بين الطفل وبينه بحتم النمو.

والمكتئب يرى كل هذه الخطوات السابقة بوعيه المرضى الحاد، ولكنه يرى كذلك عدم توقفه عندها، لأن مشكلة المريض المكتئب باثولوجيا هى ما بعد ذلك، الأمر الذى هو نتاج لفشل التوقف عند الانسحاب الشيزويدى أو عند الاضطهاد البارنوى.

إن المكتئب - فى عمق وعيه يرى هذا الحل (الشيزويدى المنسحب) وذلك العرض (البارنوى المتوجس) ويرفضهما لأنه عبر بهما عبورا ناجحا نسبيا فى طفولته، الأمر الذى يقابل عدم ثبات وقوة التراكيب المخية المقابلة وراثيا، وهى التراكيب المتجمعة عبر تاريخ التطور الحيوى، والمختلفة باختلاف تراكم العادات الموروثة فى كل جنس وقبيلة وفصيلة وعائلة وإذ يرفض المكتئب الحل الذى سبق أن رفضه طفلا ويراه وقد يحكى عنه فى معرض الفحص أو خبرة العلاج، فإنه يعيد مراحل نموه، فى هذه الأزمة

24- هذا الموقف قدصوه حدس فنى وائع فى الفيليم الإيرانى 'الغريب والضباب' وقد علقت عليه فى نفس الاتجاه بالتفصيل فى نشره نادى السينما فى حينه.

المفترقية، المريضة، والتى أسميتها لذلك السيكوباثوجينى، وبألفاظ أخرى، فإن الذهان إذا حدث، فإن الإنسان يعيد مراحل نموه فى حالة بسط جديدة، (وهذه الاعادة - ولا مانع من التكرار هى الاعادة المصغرة لرحلة الأنتوجينى ومشوار الفيلوجينى)، وبدلا أن تكتمل حالة البسط الى النمو فتصبح هذه النبضة هى بسط الماكروجينى، تتوقف عند المرحلة المناسبة:

١- للتهيئة الوراثية.

٢- ولتاريخ الفرد النموى (الأنتوجينى) وطبيعة المحيط والمجال والظروف المسببة والمصاحبة، بل تمر بالمراحل السابقة مرورا سريعا، وقد تعود اليها كلما زادت وطأة الاكتئاب ولكن فترة سريعة محدودة أيضا.

ويمكن تصوير رحلة السيكوباثوجينى كالتالى:

الموقف الموقف الموقف ← السواء

الشيزويدى البارنويدى الاكتئابى

المفهوم الخاطئ لمسار السيكوباثوجينى فى الاكتئاب

السواء ـ الشيزويدى البارنوى الاكتئابى (توقف)

المفهوم الصحيح لمسار السيكوباثوجينى فى الاكتئاب

وهذا ما يعنيه أن كل نبضة نمو(أو ذهان) تعيد أطوار النمو بالكامل.

وإذ يتقدم المريض نحو الموقف الاكتئابى (نفس خطوات النمو) فإن مأساة المكتئب تأتى من عمق التناقض فى حقيقة علاقاته بالعالم الخارجي، ففى حين يمثل الموقف الشيزويدى موقفا ذو بعد واحد "لا علاقة": العالم مخيف لدرجة الغائه والإنسحاب الكامل منه، ويمثل الموقف البارنوى موقفا ذو بعد واحد أيضا "علاقة توجسية" : الناس وحوش، والإضطهاد حتم، والقتل مشروع لو أمكن .. الخ وكلا الموقفين مواقف لها ما يقابلها فى تاريخ التطور (تبسيط شديد: الأميبا، والنمر على التوالى) فإن الاكتئاب موقف إنسانى بالضرورة لأنه:

١- هو موقف فيه درجة من الوعى بفشل النكوص وضرورة التقدم مع صعوبته.

٢- وهو موقف فيه من محاولة عمل علاقة مع آخر، علاقة حقيقية مع آخر بوصفه "آخر" فعلا، وليس بوصفه رحم، أو محمل، أو مخبأ، أو رباط عنق، ومن خلال هذه المحاولة مع درجة كافية من الوعى ينشأ تناقض قبول مساوءه ومحاسنه واختلافه وضرورة الإقتراب منه، فى الإلزام بالاكتئاب.

٣- فهو موقف مواجهة للعدو بوصفه عدوا دون قتل، ومواجهة للصديق والحبيب بوصفه حبيبا دون إحتواء، ومع ذلك فالفشل ملح ومهدد.

وهذا النوع من الوجود الواعى العلاقاتى aware relational existence هو المميز الأكبر للاكتئاب، ومن الملاحظ إكلينيكيا أن المكتئب بمجرد أن ييأس من مثل هذه العلاقة تماما تماما ظاهرا وباطنا، تزول

أعراض الاكتئاب ويحل محلها أعراض الإنسحاب الشيزويدى الميت، أو يستبدلها بالعلاقات العصابية السطحية المسكنة.

ويمكن أن تجزم بقاعدة تقول 'أنه بدون محاولة جادة لعمل علاقة حقيقية لا يحدث 'هذا" الاكتئاب أبدا".

لذلك كان ظهور مثل هذا الاكتئاب أثناء علاج الفصام علامة طيبة بأن الفصامى الذى كان قد أحرق مراكبه تماما، عاد يحاول أن يجمع ألواحها ليعود 'إليهم" ولو بالاكتئاب.

ولا شك أننا ينبغى أن نكرر هنا أن هذا الموقف ثنائى الوجدان Ambivalence المميز لسيكوباثولوجية الاكتئاب ليس موقفا صحيا بالضرورة، وأن إطالته تعرض المريض إلى تشويه هذا الاكتئاب بتحويره إلى أحد الأنواع السلبية الخمسة السابق ذكرها، أما استمراره فى جو أفضل فهو يقلب ثنائية الوجدان هذه والتناقض الملح ذاك إلى تحمل الغموض Tolerance of ambiguity.

(١٠٣) سقوط الشك

والاكتئابى كما هو يحاول عمل علاقة إنسانية، هو يستطيع أن يستقبل مشاعر إنسانية أيضا بقدرها وصعوبتها[25]

(هل يوجد حل آخر؟

هل أفتح بابى بعض الشئ؟

ورويدا دخل الدفء إلى؟)

هذا الدفء الذى يدخل هو ما عنيناه بأن للمكتئب قدرة إستقبال مشاعر الناس وتقدير رؤيتهم له بعكس البارنوى الذى يشكك فيها، والفصامى الذى يلغيها والعصابى الذى يسطحها والسيكوباتى الذى يستغلها، والاكتئابى إذ يفعل ذلك يتخلى بدرجة كبيرة عن الموقف الشاك الذى كان يفرضه الموقف البارنوى السابق، وهو إذ يسقط عنده الشك يأمن أمانا مستمدا من الواقع الصعب بحجمه، وهذا الأمان لابد أن يميز عن الأمان الأساسى الذى أسماه إريك إريكسون الثقة الأساسية Basic Trust ونقترح له اسم الأمان الثانوى على أن يكون الأمان الأول هو الأمان الأولى والنوع الذى نعنيه هنا مستمد من الوعى بالآخر، ومن تقبل الجانب الحانى فيه - مع وجود الجانب المهدد - ومن إرادة العلاقة ومن سقوط الشك ولو نسبيا بعد فشل الانسحاب، أما الأمان الأول فهو نابع من التسليم، والإعتماد المطمئن، وإلغاء الجانب المهدد فى الآخر، والإحتماء حتى الإطمئنان فى رحم نفسى مناسب، وإذا كان هذا النوع الأخير صالح لحل صدمة الولادة فى الموقف الشيزويدى فإنه لا يصلح بحال لإستكمال مسيرة النمو، والخلط بين النوعين شائع حتى فى الحياة العادية، والاكتئاب قد يختفى بغلبة هذا النوع الأخير، وهنا لا يمكن أن يعتبر إختفاؤه علاجا حقيقيا، وإنما هو عودة تسكينية قد تقبل إنتظارا لجولة أخرى يكون فيها الإستعداد أكبر، وقدرة تحمل

25- لا ننسى أننا ونحن نصف (السيكوباثوجينى) فى الاكتئاب إنما نصف ضمنا الأنتوجينى (النمو الفردى) عند الطفل، وكل الفرق أن الطفل يخطو بعد الاكتئئاب إلى مراحل أخرى، وأما المكتئب فيتوقف - طالما هو مريض - عند مرحلة الاكتئاب هذه.

التناقض أشد، يستطيع بها أن يخطو خطوات أخرى نحو تعميق الأمان الثانوى حتى تحمل التناقض فعلا والنمو التالى.

وإذ يسقط الشك - كما قلنا - ويبدأ المكتئب يتيقن رويدا رويدا حقيقة دفء المشاعر الإنسانية يستنشقها وينمو با ومعها، يبدو العالم الخارجى، وخصوصا الأم، فى صورته الإيجابية المعطاءه، ويذوب الوهم الإضطهادى.

(ما أحلى أن يخلع ذاك الوحش الوهمى قناعه

حتى يبدو إنسانا يعطى ويحب)

إلا أن هذه الخطوة بقدر ما هى رائعة وموضوعية وواعية وباعثة للنمو لا يمكن أن تستمر فى خط مضطرد، فالانسان فى تركيبه البيولوجى المعقد، لوجود المجتمع الناقص المتضارب، لا يحتمل أن ينمو بهذا الأمان بصورة مضطردة، وإلا كان الأمان الأولى الأعمى، فنموه دائما على أحسن الأحوال هو 'خطوة للوراء وخطوتين للأمام"، هذا إذا كانت المسيرة مسيرة نمو، أما اذا كان الموقف الاكتئابى ملح وعنيف فقد تكون المسيرة، ولفترة طويلة خطوة للأمام وخطوة للوراء، وعموما فإن هذه الرحلة 'رحلة الداخل والخارج" لا تطول فى الاكتئاب كما هو الحال فى البارانويا، وكذلك فإن 'رحلة الداخل والخارج" فى الاكتئاب لها جانبها الإيجابى أكثر من المراحل السابقة لها، فإن الكمون هنا هو أمل الانطلاق، والتراجع تمهيد للإندفاع.

(١٠٤) التساؤل الآمن:

وتساؤل المكتئب (الطفل فى الموقف الاكتئابى أو المكتئب فى أزمة الوعى الزائد) هو تساؤل الذى يريد أن يصدق بعكس تساؤل البارنوى الشاك الساخر المعجز

(هل حقا أن الدار أمان؟

أن الناس بخير؟)

وهذا يؤكد أن الاكتئاب مرضى علاقاتى، لا مرض هروبى، وصراخ المكتئب وإنتظاره وإصراره على الوعى إنما يحمل اليقين بأن ما يريد موجود ومتاح، وأحيانا قريب.

(١٠٥) اصرار المكتئب

ولعل أكثر الناس تفاؤلا - من العمق السيكوباثولوجى - هو المكتئب - ذلك التفاؤل الذى يبرر إكتئابه، ذلك أنه باستمرار وعيه بحاجته دون الإستسهال بالإستسلام للشك، أو الهرب إلى اللاعلاقة، وكذلك باستمرار قدرته على إنتظار الود رغم رؤيته للجانب الآخر، إنما يستمر الاكتئاب، إذ لو أنه يئس أو إنسحب أو عمى أو أسقط لما استمر الاكتئاب، فاستمرار اكتئابه هو استمرار لأمله الحقيقى، وهذا التفاؤل الأعمق لابد أن يتميز عن التفاؤل الانكارى الذى يتصف به الهوس (الهوس الخفيف خاصة Hypomania) أو التفاؤل

الذى يتصف به العصابى السطحى (الهستيرى مثلا) أو التفاؤل الذى يتصف به الشيزويدى النائم فى الأمان الأولى، إن تفاؤل المكتئب فعل مسئول والاكتئاب هو نتاج هذا الفعل التفاؤلى الأعمق.

ولكن للأسف، فانه فعل مسئول مع وقف التنفيذ، وبالتالى فهو تفاؤل منهك لا مبرر له، وإذا كان الطفل فى عملية الماكروجينى يتخطى هذا الأمل بتحقيقه جزئيا، بل والناضج كذلك فى أى أزمة نضج مفترقية تدفع بالمسيرة النموية خطوة فإن المكتئب هنا فى السيكوباثوجينى يتوقف عند إيحاء الأمل ليدفع ثمنه ألما ووعيا عاجزا، ولكن مهما بدا عجزه الظاهرى (سقطت أوراقى) فإن إصراره الأعمق وحبه للحياة لا يختل بل ويزداد عمقا ونبضا فى إنتظار الرى الإنسانى بماء الحياة.

(قد كدت أجف، من قر الوحدة وجفاف الخوف

سقطت أوراقى،

لكن العود إمتد، فى جوف الأرض

إذ لو نزل القطر

فلقد يخضر العود

أو ينبت منه الزهر)

(١٠٦) أنانية المكتئب:

ولما كان الأمل عملا مع وقف التنفيذ، وليس مجرد خيال هارب، ولما كان الوعى ألما مع العجز والانتظار المستمر، فإن توجسا يبدأ يصبغ هذا الأمان، بما يفتح شهية المكتئب - رغم ما يبلغه حقا وفعلا من مشاعر لا ينكرها (لبنا وإن كان مرا) - تفتح فى توجس، ويخاف أن يذهب عنه مصدر الأمان، ولكن جوعه لا يحله الإلتهام كما هو الحال فى الشيزويدى خاصة والبارانويدى لدرجة أقل كما سيأتى فيما بعد، فالاكتئابى حريص على بقاء موضوع الحب (شخص المحب) ولكنه فى نفس الوقت خائف من ضياعه بالالتهام أو الاحتواء (شيزويديا) وهو أكثر وعيا من أن يفترض فيه العدوان فحسب، فهو هو مصدر الحب والحياة، والأنانية التى يتصف بها المكتئب إذا مختلفة تماما عن أنانية الفصامى وعن أنانية البارنوى:

فأنانية الفصامى تتحقق بإلغاء العالم: لا وجود للعالم إلا داخل ذاته أو وهو داخل ذات أخرى ورحم نفسى فى تقمص استحواذى كذلك مع الغاء بقية الناس فى الحالتين، والمقابل لهذا الوجود البيولوجى هو الموجود المنفرد مثل الكائنات أحادية الخلية أو الوجود الطفيلى الكمل مثل الطفيليات التى تتم دور حياتها كلها داخل العائل، أو أكثر من عائل.

وأنانية البارانوى تتحقق بأن يشكل للعالم كما يراه فحسب ويلغى كل ما سوى ذلك، وهو يراه عدوانيا فى المقام الأول والأخير، ووظيفته للحفاظ على وجوده هى العدوان أو الهرب المتصل مع الاحتفاظ بالموضوع على مسافة لا تنقص حتى يضمن بوجوده حياته، فوجوده مستمر من معركة ذاته أساسا.

أما المكتئب فإن أنانيته امتلاكية دون التهام، وهو إذ يرى العالم بموضوعية نسبية، ويتيقن من حقيقة ما يأخذه منه، فإنه لا يستطيع أن يطمئن الى بعد "الآخر" عنه، وبارغم من أنه لا يستطيع ولا يريد احتوائه لأنه تعلم من المرحلة الفصامية "أنك لا تستطيع أن تحتفظ بالكعكة وتأكلها فى نفس الوقت"[26] فهو يريد أن يحتفظ بمصدر الحنان ومصدر الحياة، دون التهام، ودون معركة اضطهاديةعدوانية وهمية (بارانوية). ولكنه بخلاف السوى - كما أسلفنا لا يستطيع أن يتحمل غياب هذا المصدر عنه، إذ يشعر إزاء ذلك بالتهديد المباشر الذى يحمل فى تصوره احتمال الموت، فشعوره بتهديد العالم له ليس مثل البارانوى الذى يشعر أن أحدا سيقتله إيجابيا، بل شعوره أن هذا الأحد إذا تركه فلن يعودوا هذا الاحتمال قائم من الناحية العملية، إلا أن الشخص السوى يعلم أن الأمان فى عملية العلاقة ذاتها والقدرة على تقبل المشاعر وتبادلها وليس فى الشخص بعينه، أما المكتئب فرغم سعيه الجاد المثابر لعمل علاقة إلا أنه يحتاج الى جرعة مضاعفة من "الوجود الفعلى الخاص" لمصدر الحياة (الحب والحنان والشوفان[27] كما سيأتى)، وتهديده بالموت ضمنا من خوفه من الترك، وحاجته وجوعه الى الآخر بوضوح لا جدال فيه، ولا استغناء عنه

(لكن البقرة قد تذهب عني

وأنا لم أشبع...)

وهذا مظهر آخر من ثنائية الوجدان، فعلى حين يعتبر البارانوى العالم الخارجى هو مصدر عدوان أساسا، فإن علاقة المكتئب بالآخر تتصف بأنه يوقن أنه مصدر ارتوائه الفعلى بحجمه الحقيقى وفى نفس الوقت فهو مصدر هلاكه بالتهديد بالترك، وهو يعيش هذه المشاعر معا بحدة متكافئة بما يمثل بعد آخر من ثنائية الوجدان.

وإذا كنا قد كررنا أهمية ثنائية الوجدان،كأساس محورى لسيكوباثولوجية الاكتئاب، فإن هذا لا يعنى أبدا إن عرض ثنائية الوجدان هو من أعراض الاكتئاب، بل العكس إنه نادرا ما يظهر كعرض مستقل فى الصورة الإكلينيكية للاكتئاب فى حين أنه يظهر واضحا فى الفصام، وهنا يجدر بنا أن نذكر قاعدة نسميها القاعدة الهرمية Hierarchical تقول "إن عرض المرض الأعمق (الأدنى - الأكثر بدائية) هو هو الظاهرة السيكوباثولوجية المسئولة عن المر ض الأحدث، والعكس صحيح"[28] وهذا هو ما عنيته من أن ثنائية الوجدان التى هى عرض فى الفصام هى الظاهرة السيكوباثولجية لمرض الاكتئاب، وكذلك سوف نرى حالا أن الخوف من الترك، والعدوان بالقتل الخيالى لمصدر الحب... هما من أعراض حالات

26- 'You can't have the cake and eat it'
تعبير إستعلمه جانترب فى وصف العلاقة الشيزويدية الدالة على عمق الثمن الفادح للاحتواء

27- الحاجة الى الشوفان) The need to be seen أن يرى الانسان بحجمه الحقيقى، بخيره وشره معا) هى حاجة إنسانية بوجه خاص سوف نعود لذكرها تفصيلا فى الحديث عن سيكوباثولجية الفصام وفى مرحلة التكامل حاشية ١٩٠، ١٩١أما أصل كلمة 'شوفان' فهى عربية فصحى ستناقش فى حينا.

28 -The symptom of the deeper disorder (the more primitive) is in itself the psychopathological phenomenon response.

البارانويا (وهى مرض أدنى) فى حين أنها ظواهر مسئولة وجوهرية فى تكوين الموقف الاكتئابى أثناء النمو ثم مرض الاكتئاب فيما بعد.

(١٠٧-١٠٩) اصرار المكتئب، ونوعية شكوكه:

والمكتئب إذ يصر على العلاقة التى تصل الى حد الامتلاك يتخذ المواقف الحاسمة حتى لا تضيع من يده الفرصة، فهو - فى عمق وجوده - وبعكس استسلامه الظاهرى وعجزه - لا يسمح بأن يستمر تحت رحمة التهديد بالترك، وتتضاعف رغبته الامتلاكية ويبدأ فى إختيار إستجابة "الآخر" (الأم عادة فى الموقف الاكتئابى عند الطفل أثناء نموه) وبالرغم من تأكده المرة تلو المرة من وجوده واستجابته إلا أنه لا يطمئن أبدا، وهو شك الذى يريد أن يستمر فى حوار، وليس شك الذى يريد أن يبرر الهرب (البارنوى) ويتزايد هذا الإصرار والإختبار والإستمرار حتى يتساءل بالرغم من كل الدلائل المطمئنة "ماذا لو ذهبت ولم تعد"؟

(لا لن أسمح

ليس لعبة

هى ملكى وحدى:

أضغط: تحلب

أترك: تنضب

أضغط تحلب، أترك نضب،

لكن هل نضب يوما دوما؟)

(١٠٩-١١١) الكراهية والاكتئاب:

وحين يزيد التهديد بالترك ويمتد لإحتمال إستمراره، يصبح الأمر تهديدا بالموت ذاته، وهنا يتضاعف الموقف بظهور مشاعر تصف المكتئب خاصة وهى مشاعر الكراهية، ولابد أن نميز الكراهية عن مشاعر أخرى قد تخلتط معها، والكراهية بالذات عند المكتئب ليست ظاهرة سيكوباثولوجية فحسب بل إنها تظهر كعرض وكقدرة فى نفس الوقت لدرجة أنها تميز أحيانا المكتئب عن اللامبالى عند اختلاط الأمور، فاللامبالى - أو فاقد الشعور أو مسطحه - لا يستطيع أن يحب ولا يستطيع أن يكره، وقد يشكو من ذلك أو يمارسه، والمكتئب لا يستطيع أن يحب ولا يستطيع أن يحب ولكنه يستطيع أن يكره، والكراهية تتميز بوجود "آخر" له كيان يوجه إليه الكره فهى بطريق غير مباشر تعبير آخر عن إصرار المكتئب على عمل علاقة، أما المشاعر القريبة التى قد تخطئها على أنها كراهية فهى مشاعر الحقد، والاحتقار، وكلاهما صفات البارنوى فى حالتى الدونية والاستعلاء على التوالى، وكذلك مشاعر الالغاء والتغاضى والاهمال التى هى جانب من جوانب الانسحاب الشيزويدى، أما الكراهية بإيجابيتها وبما تحمل من معانى تثبيت وجود الآخر فهى من صفات المكتئب خاصة.

وتتميز كراهية المكتئب٢٩ بشكل أخص بأنها واقعية بعض الشئ، فهو إذ يكره لا يلغى كل الصفات الحسنة فى المكروه بل يعيش التناقض الذى أشرنا اليه من قبل بدرجة حادة، لأنه يكره كيانا كاملا هو هو مصدر الحب

(فكرهت الحب)

(١١١) عدوان المكتئب:

يعرفنا 'جانترب" أن المكتئب إذ لا يطيق موقف التهديد بالترك وهو صادر من مصدر الحياة والحنان تتصاعد كراهيته وخوفه حتى ليتخلص من هذا المصدر بالقتل الخيالى، وهو إذ يقتل مصدر حياته وحنانه، لا يلغى جانب احتياجه بل يدفعه مضاعفا ألما ووحدة فى وضوح الذى أنهكته المحاولة حتى فشل، ويؤكد جانترب على أن الشعور بالذنب هو نتيجة هذا القتل الخيالى الذى حرمه من مصدر الحياة فهو آسف على الفقد الذى تسبب فيه لدرجة الشعور بالذنب ولكن:

(١١٢) تفسير إضافى للشعور بالذنب:

أعتقد - من خبرتى الإكلينيكية - أن هذا التفسير قاصر عن الإلمام بأبعاد الشعور بالذنب، فعلا ذلك لأن قتل المحبوب - هو إلحاق الأذى بالمحتاج إلى حبه! فكأنه نال عقابه إبتداء بلاداع للشعور بالذنب، كما أن تفسير الشعور بالذنب نتيجة لأوهام الخطيئة الأوديبية أيضا لا يكفى حتى لو ظهر صريحا أثناء العلاج أو الكسر - لأن الذنب - من خبرتى - أعمق من أن يتعلق بميل مرفوض من الوالد (الخارجى أو الداخلى) أو من الأنا الألى ... الخ

وإنما يشمل الشعور بالذنب هذه الاحتمالات التى ظهرت لى فى أكثر من موقع فى الخبرة الاكلينيكية:

١- **تثبيت الفعل والإصرار عليه،** فلو أن الفعل - القتل الخيالى مثلا - قد انتهى تماما، فقد أصبح ماض بلا فاعلية، واستمرار الشعور بالذنب تجاهه هو إصرار عليه، وعلى إبقائه واقعا قائما مؤكدا لا يسمح له بأن يلقى فى مخزون الماضى بلا فاعلية، فهو إعلان للاصرار عليه .. وليس حقيقة الندم تجاهه.

٢- **الإحتفاظ بالآخر:** إذا كانت مشكلة المكتئب هو إصراره على عمل علاقة، وكان القتل - الخيالى - قدحرمه نهائيا من تحقيق هذا الاصرار فى دنيا الواقع، فإن الشعور بالذنب يقوم بالاحتفاظ 'بهذا" الآخر فى الداخل وعمل علاقة ما معه - رغم إختفائه - هى علاقة الندم.

٣- **تجميد للموقف:** إن الاصرار على أن ذنبا لا يغتفر قد تم هو تبرير ضمنى على أن الخطوة التالية مستحيلة - طالما الذنب قائما - حتى يغتفر، وبهذا يعفى المكتئب نفسه من مخاطرة نمو جديد، وتناقض جديد، وخوف جديد، وقتل جديد، وتتوقف فى حلوسط لا هو بالانسحاب ولا هو بالتقدم، وهذا ترجيح لثبات الموقف الاكتئابى، ويؤكد هذا الحلوسط أن الشاعر بالذنب يكاد يغفر لنفسه ذنب بمجرد الاكتفاء بالاعتراف والشعور به.

29- ما زلنا نتحدث عن العمق السيكوباثولوجى للمكتئب وليس عن الأعراض.

٤- ندم على المحاولة الجادة لعمل علاقة مع آخر، وكأنه يحمل عقبا ضمنيا من السلطة الأعلى (الأنا الأعلى أو الوالد أو غير ذلك) على التجرؤ على الخطو نحو الآخر، وكأن يرجح ضمنا الأمان الأولى (الرحم - الجنة) عن الأمان الثانوى (الحب - الآخر) وفى نفس الوقت - كما ذكرنا فى الملاحظة السابقة - يمنع التراجع.

٥- تعميق القدرة: ركأن الشعور بالذنب يؤكد لصاحبه أنه قادر على الذنب، إذ يذكره بأنه فعل فعلته هو ذاته وليس أى أحد آخر، وبالتالى فهو قادر على تكرارها بما فى ذلك أان ضمنى لعدم التعرض للترك المهلك ثانية.

٦- تأكيد للأنانية: يحمل الشعور بالذنب من جرعات التفكير فى الذات والانغلاق حول ما فعلته وما ينبغى وما كان لا يصح ما يكفى لتعميق الأنانية والتحوصل الذاتى.

وهكذا نجد أن الفهم المسطح لهذا الشعور بالذنب على أنه تكفير حقيقى هو فهم قاصر، وكما يلاحظ فى العلاج النفسى بأنواعه أن تخطى هذا الشعور كثيرا ما يكون دليلا على تغيير جذرى، حيث أنه نقله الى "ذات" جديدة غير الذات التى فعلتها.

(١١٣) العمل التكفيرى:

أشرنا فيما سبق الى نوع من العمل الاغترابى القهرى الذى لا يعود على صاحبه بالعائد الذى يسمح باستمرار مسيرة النمو بنبضها الديالكتيكى لتحقيق الولاف المتصاعد، وهنا نعود لنبحث فى ما وراء نوع آخر من العمل، ليس بوصفه هربا عصابيا من رؤية، ولكن بوظيفته التكفيرية الملحة فالاكتئابى إذ يشعر بالذنب، قد تظهر نتائج هذا الشعور دون ذاته، وحل هذا الموقف الاكتئابى أثناء النمو يكون بالاستغراق فى العمل الجاد المثابر الناجح عادة كمرحلة تهيئة لنبضة جديدة، ولكن إذا لم يسر النمو فى مساره الطبيعى، فإن هذا العمل التكفيرى٣٠ يستمر بلا نهاية، وبلا عائد حقيقى للداخل، حتى ينهك وينهار.

(١١٤) الذات الوالدية والاكتئاب:

حاولنا أن نشرح حتى الآن العمق السيكوباثولوجى للموقف الاكتئابى سواء باعتباره خطوة عادية على مسار الانتوجينى أم اعادة نمو مجهض على مسار السيكوباثوجينى وتعمدت ألا أشير الا فى البداية (حاشيات (٧٦، ٨٧) الى علاقات الذوات ببعضها فى هذا المرض .. وهنا أرجع لأوضح المزيد لهذه العلاقات باللغة التفاعلاتية **فالوالد** هو المتفوق والطاغى طول الوقت، ولكن **الطفل** فى نفس القوة إلا قليلا (كما ذكرنا)، ونطور هذه المقولة الى أن **الطفل** بنشاطه المستمر ومحاولاته الدؤوب لعمل علاقة وللحصول على الحنان ...،... وغير ذلك مما ذكرنا هو الذى يحافظ على قوة **الوالد** بالعمل المستمر حتى يظل ضاغطا على **الطفل** النشط طول الوقت، إذا فالعلاقة كما أشرنا فى البداية علاقة متكافئة نسبيا لا

30- راجع الفرق بين العمل القهرى والعمل التكفيرى والعمل المتناغم فى شرح ديوانى أغوار النفس ص ٤٥٨ (دار الغد ١٩٧٨ القاهرة).

يستبعد فيها **الطفل** (كا هو الحال فى التركيب الشيزويدى) ولا يتلوث مع الوالد كما هو الحال فى التركيب السيكوباتى، إذ أن **الطفل** يمضى فى الطاعة وتأليه **الوالد** وهو إنما يناور لانهاك الوالد فى النهاية لا محالة.

(١١٥) السخرة:

وقد يصل التعمل التكفيرى مرحلة الاستعباد تماما حتى ينعدم المقابل أصلا ويصبح مجرد سخرة لا يملك الفرد منها خلاصا حتى أن مجرد الاستمتاع بالأجازات العادية لا يصبح ممكنا حتى ليصاب الإنسان المستغرق فى هذا النوع من العمل بالاكتئاب الصريح فى أيام العطل مما يسمى اكتئاب إجازة نهاية الأسبوع Week - end depression.

(ونصبت تابوت الملك الأعظم

ومضيت أقدم قربان حياتى لجلالته)

فهو يدرك مسبقا أن هذه السخرة وهذا القهر له نهاية.

(١١٦) الانهاك والانهيار:

فإذا تحقق الظن وانهار البناء نتيجة للانهاك.

(نحز السوس عصاه،

وإذ انكفأ على وجه

زلزلت الأرض

إذ سقط الهرم الأكبر

فوق رؤوس الأشهاد)

بدأت لحظات انتصار **الطفل** التى تظهر كلينيكيا فى شكل الهوس الخفيف الذى ذكرناه فى بداية المرض التى سرعان ما يقهرها عودة **الوالد** للسيطرة، لا بشكل العمل التكفيرى ولكن فى صورة أعراض الاكتئاب الصريحة كما بيننا.

(١١٧) 'هذا" الاكتئاب - مرة ثانية - أزمة مفترقية:

وفى النهاية فإنى أرجع لأؤكد أنه لافرق بين ما يمر به الفرد فى أزمة النمو أو خبرة الاكتئاب إلا مسارهما البعدى، أما عمق الخبرة ذاتها فهو شديد الشبه بعضه ببعض.

خلاصة وتعقيب

١- الاكتئاب أنواع متعددة، ودراسة أبعاده سيكوباثولوجيا لا تصلح بشكل عام بما يشمل كل الأنواع، وصوره الاكلينيكية - وخاصة بعد الإفراط فى استعال العقاقير النفسية المثبطة والمانعة له.

٢- الاكتئاب الأصيل هو النوع الذى عرف بالاكتئاب الدورى (كجزء من مرض 'جنون - ذهان" الهوس والاكتئاب) وهو يمثل النبضة البيولوجية العظمى من ناحية - وإن كانت نبضة مجهضة لا تنتهى بالبسط

النموى الطبيعى - كما يمثل التركيب السيكوباثولوجى للاكتئاب الحقيقى نفس التركيب الذى مر به الفرد انتوجينيا فى موقف الاكتئاب فى فترة الطفولة (وفى أى ماكروجينى) وهو موضوع دراستنا أساسا.

٣- إن الأنواع الأخرى للاكتئاب هى تشويه لهذا النوع وقد تحمل فى بدياتها نفس التركيب، إلا أن مسارها ينتهى إلى تلك الأنواع المشوهة الأخرى، وبالتالى فإن تركيبها السيكوباثولوجى فى النهاية (وعلاجها بالمقابل) يرتبط بمكافئاتها وليس بهذا النوع بالذات.

٤- إن الاكتئاب يمكن أن يصنف كذلك تصنيفا قطبيا يؤكد اختلاف أنواعه اختلافا جوهريا، ومن أمثلة ذلك الاكتئاب الداخلى ضد التفاعلى والموقفى، والذهانى ضد العصابى، والأصيل ضد السطحى الزائف، والدورى ضد التراكمى المزمن، والعامى ضد اكتئاب المواجهة، والذى يهمنا فى هذه الدراسة هو القطب الذى يحمل معانى الاكتئاب الداخلى الأصيل الدورى المواجهى.

٥- إن هذا الاكتئاب يلزم لظهوره درجة معينة من النضج النفسى والمكاسب النموية، وإن ما يقابله من موقف اكتئابى فى نبضة الماكروجينى هو الموقف التالى للموقفين الشيزويدى والبارنويدى، أى أنه المرحلة الأنضج من مراحل النمو، وعلى هذا فالاكتئاب كمرض يحدث فى شكله النموذجى – فى منتصف العمر بعد تحقيق مكاسب حقيقية ولكنها ليست كافية لإرواء الداخل فى سلاسة، وهو يحتاج لظهوره أيضا تركيبا شخصيا لا تغلب عليه الدفاعات العصابية المتغلغلة الثابتة، ولا يخاف جرعات متزايدة من المواجهة إذ يكون - من خلال نجاحاته - قد سبق استيعاب ما هو مقدور عليها منها.

٦- الاكتئاب أزمة مفترقية تنتهى بالفشل إذ تتوقف عند الموقف التناقضى والاكتئابى ولا تتخطاه إلى تحمل الغموض، وهو بالتالى إعلان موت للقديم واحتمال ولادة جديدة لا تتم ما دام المرض سيتسبب، فهو موت وبعث (موقوف عن التنفيذ).

٧- فى العمق السيكوباثولوجى للاكتئاب، تكون القوى المواجهة بعضها لبعض متكافئة الشحنة، وقريبة حتى التماس، مع غلبة السيطرة للقوى المانعة والضاغطة، ضد القوى الفطرية المتحفزة (**الوالد والطفل** بلغة إريك بيرن)، وهذا التركيب يختلف عن الفصام الاستهلالى حيث تتباعد نسبيا القوى وتختلف شحنتها، وعن الوسواس حيث تختفى القوى الفطرية ليحل محلها ازدواج عرضى كاذب بديلا عن المعركة البيولوجية الأعمق، وعن إفراغ المواجهة من نبضها الحى المتكافئ فى الأنواع المزمنة - المشوهة، وعن التعقيل والتلوث فى اضطرابات الشخصية، وأخيرا عن الانكار للقوى الضابطة فى الهوس، وعن الاسقاط فى حالات البارانويا وتكوين الضلالات عموما.

٨- أن بداية 'هذا" الاكتئاب تتصف بالمفاجأة، والظاهرة 'بلا اسم" التى تشير الى خبرة أكيدة ولكنها بعيدة عن الوصف اللفظى خاصة، كما يصاحبه الشعور بالخوف من الجنون وفقد السيطرة والانطلاق والصياح، مما أسميته 'رهاب المواجهة"، وكذلك فإنه يدمغ كل المكاسب السابقة إذ تنهار، حيث لم تحقق الأهداف المرحلية لاستمرار النمو.

٩- إن دينامية هذا الاكتئاب تتعلق بالنشاط المتكافئ **للطفل** فى مواجهة **الوالد** مع غلبة الأخير، وهذا النشاط له نتاج فسيولوجى حيث تزيد دائرة الترابط مما يغير الادراك نوعيا بما يشمل إدراك الذات والعالم الخارجى.

١٠- تكشف حدود الذات فى الاكتئاب، ويخشى المكتئب من التعرى - النفس - أمام الآخرين ولكن الأمر لا يصل إلى ضلالات الإذاعة ولا الى فقد حدود الذات.

١١- يزداد وعى المكتئب ليصبح وعيا قاسيا قريبا مما أسميناه الوعى الذهانى الذى يحمل درجة من الموضوعية لا تحتمل، ولذلك سرعان ما تنهار، عموما فإن المكتئب - فى هذه المرحلة يدرك اقترابه من عقل أعمق مع احتمال وصمه بالجنون للبعد عن المألوف.

١٢- تزيد - مع زيادة وعى المكتئب - علاقته بالمعنى المحدد للكلمة مما يضاعف رفضه لما دون ذلك، ومن خلال وعى المكتئب وبصيرته يمكن دراسة سيكوباثولوجية الموقف الاكتئابى، بلغة مدرسة العلاقة بالموضوع، وكأن تكرار هذا الموقف بعنف مضاعف وتوقف، إنما هو سبب ظهور الاكتئاب كمرض، وهنا يجب أن يتسع مفهوم قانون التكرار بحيث يمتد الى تكرار مراحل النمو على مسار التطور الفردى مما أسميته الماكاروجينى، وكذلك تكرار النمو مع التشويه والاجهاض الذى ينتج عنه المرض النفسى الذى يتوقف نوعه على حسب مرحلة التوقف والاجهاض ودرجة التشويه مما أسمته السيكوباثوجينى، ويمكن تصوير قانون التكرار على الوجه التالى:

الأنتوجينيا (نمو الفرد)	تكرر الفيلوجينيا (نمو النوع)
الماكروجينيا (أزمة النمو)	تكرر الأنتوجينيا
الميكروجينيا (نمو الفكرة)	تكرر الماكروجينيا
الباثوجينيا (تكوين المرض)	تكرر الماكروجينا - والأنتوجينا
النفسى – (الذهانى خاصة)	بالتالى - (مجهضة ومشوهة)

١٣- إذا فالاكتئاب هو نبضة مجهضة عند مرحلة الاكتئابى، وهذا ما يرجح أنها بسط سيكوباثولوجى اكتئابى، وحين يصل المكتئب الى هذه المرحلة من الوعى الذهانى يمكنه أن يرى طبيعة صدمة الميلاد، ومرحلة التراجع الشيزويدى أمام قسوة الواقع وهجومه، ثم مرحلة التوجس البارانوى ورحلة الداخل والخارج فى محاولة تخطى هذا وذاك.

١٤- 'هذا" الاكتئاب - فى صورته المرضية أيضا - هو خبرة إنسانية بالضرورة، فهذا المكتئب رافض للنكوص، مصر على العلاقة بالآخر، دافع ثمنها من معايشة التناقض الصعب، غير قادر بعد على تحمل الغموض، متفائل داخليا بإمكان ذلك، حامل لجذور ثنائية الوجدان والميول، دون ظهورها فى شكل أعراض فى الصورة الاكلينيكية.

١٥- إن الأمان الذى يسعى إليه المكتئب هو أمان ناتج من أمله فى نجاح علاقته بالآخر، كآخر، بتناقضاته القائمة وقد أسميته الأمان الثانوى تمييزا له عن الأمان الأولى أو الأساسى النابع من التسليم المطمئن داخل الرحم النفسى للآخر.

١٦- إن المكتئب يظل مكتئبا طالما هو مصر على محاولة تحقيق علاقة ضد الاستجابات لاغراءات التراجع ذلك لأنه بمجرد أن يستسلم يزول الاكتئاب وينطفئ، وهنا إضافة هامة بشأن معنى الانتحار بالنسبة لاصرار المكتئب، فالانتحار عند المكتئب لا يتم إلا رفضا للتراجع عن هذا الاصرار، وإعلانا - فى نفس الوقت - الى ثمن هذا الاصرار من مصاحباته الاكتئابية هو أكبر من احتمال، فى حين أن انتحار الشيزويدى إنما يتم وهو ينتقل من حوصلته إلى إحياء الأمل لعمل علاقة بما يصاحبها من مخاطرة تحمل التناقض والاكتئاب، فالانتحار إصرار عاجز على اللاتراجع.

١٧- أنانية المكتئب امتلاكية وليس التهامية مثل البارانوى أو الشيزويدى وشكوك المكتئب نتيجة لحاجته للآخر وحرصه عليه وليست تبريرا لانسحابه منه مثل البارنوى.

١٨- المكتئب قادر على الكراهية، وهو يمارسها لأنها نوع ما من العلاقة بالآخر، ومحور كراهيته يدور حول خوفه من الترك وما يترتب عليه من الهلاك، وهذه الكراهية تتلف عن حقد البارنوى وتغاضى وإلغاء الشيزويدى.

١٩- إن عدوان المكتئب هو قتل خيالى حرصا على استبقاء الآخر، والشعور بالذنب ينتج جزئيا عن هذا القتل الذى أفقده مصدر الحب والحياة، كما يؤدى استمراره وظيفة استبقاء هذا الآخر فى الخيال بتثبيت الفعل وتكراره والوقوف عنده.

٢٠- إن هذا الاكتئاب بالذات - بالصورة التى قدمناها وبملامحه الانسانية هو أقرب أزمة مفترقية للتحويل الى مسار إعادة الولادة فالنمو الولافى إذ يتحول الاصرار على معاناة التناقض إلى القدرة على تحمل الغموض ومن ثم الى تحقيق الولاف الأعلى.

الفصل السادس

<u>عناصر الفصل السادس:</u>

- الهوس

التقسيم الاستقطابى لمظاهر الهوس الاكلينيكية

- الهوس المسامح الآمن فى مقابل الهوس الغاضب الشاك
- الهوس النكوصى فى مقابل الهوس الانشقاقى الملوث
- الهوس المعدى المتوهج فى مقابل الهوس المتعدى الهائج
- الهوس النوابى البيولوجى فى مقابل الهوس النزوى المتفتر
- فترة الاكتئاب قبل الهوس
- أبعاد (حدود) الذات فى الهوس
- الملكوت الهوس – الهوس والحرية
- معرفة الهوسى – صدق الهوسى
- نظرة الهوسى فى تاريخه الحيوى – قوة يقين الهوسى
- الهوس والخبرة الصوفية – الهوس وعجز الألفاظ
- تمادى الهوس فى الفرحة بديلا عن لضم الخبرة
- بعدى الزمان والمكان عند الهوسى – مسار التطور الهوسى
- شك الهوسى – بصيرة الهوسى المتأخرة
- انفصال الروح عن الجسد فى الهوس – الهوس والنوم
- رحلة العودة فى الهوس – الخلود والموت عند الهوسى – صرخة النجدة
- اختلاط المشاعر فى رحلة العودة – وعى الهوسى فى رحلة العودة
- استعادة أبعاد الذات فى رحلة العودة – التراجع مع الاستيعاب عند الهوسى فى رحلة العودة
- عودة الاعتراف بالضعف والحاجة إلى الناس – العودة إلى الواقع
- العودة إلى حظيرة الزمن – الولاف الواقعى المأمول – التفاؤل الواقعى

الهوس

MANIA

(١١٨) الشائع أن الهوس هو الوجه الآخر للاكتئاب، وأول من وصف هذا المرض المزدوج كان فارليه Falret الفرنسى، الذى أسماه صراحة الجنون ذا الصيغتين (الوجهين) Folie a double forme ومنذ ذلك الحين، والهوس والاكتئاب يدرجان تحت زملة تشخيصية واحدة، وإذا كنا نقبل هذا المفهوم على غضاضة من الناحية الإكلينيكية وتناوب الأطوار (رغم تضاؤل هذا التناوب بسرعة فائقة فى العشرين سنة الأخيرة .. وربما بعد ظهور المهدئات العظيمة واستعمال أملاح الليثيم) فإنه من وجهة نظر علم السيكوباثولوجى ينبغى أن نقف من هذا المفهوم أكثر نقدا وتحفظا.

وقبل أن نستطرد فى عرض موقف الهوس فى رحلة السيكوباثوجينى، لابد وأن نميز أى نوع من الهوس سنتحدث عليه، إذ أن صوره الإكلينيكية قد تنوعت واختلطت بشكل مفرط حتى أصبح هذا المرض كزملة إكلينيكية يحوى العرض ونقيضه، ومثلما تحفظنا ونحن نقدم الاكتئاب وعددنا أنواعه وقصرنا حديثنا على نوع واحد فقط سوف نحاول أن ننهج نفس الأسلوب، إلا أننا فى هذه المرة سنبدأ بالتقسيم الاستقطابى[1] أولا، حتى نعرض مدى التباعد الذى يمكن أن يندرج تحت لافتة تشخيصية واحدة، ثم نحاول بعد ذلك أن نجمع بعض هذه الأنواع فى أقرب تزامل تقريبى، ثم نحدد النوع موضوع دراستنا.

التقسيم الاستقطابى لمظاهر الهوس الاكلينيكية:

نشاهد فى كثير من الأحيان أنواعا مختلفة من الهوس تكاد تتعارض بعضها مع بعض، ونحاول فى هذا العرض أن نقدم بعض الأنواع كما تبدوا على طرفى قطبين متباعدين، ولا يعنى ذلك بالضرورة أن كل نوع منها يمكن أن يظهر "هكذا" تماما بالصورة الاكلينيكية، حيث يحدث كثير من التداخل overlap من ناحية، كما يحدث كثير من نقل وتحول الأعراض symptom shift بين الحين والحين أثناء مسار المرض من ناحية أخرى، وهذه هى بعض مظاهر الاستقطاب من واقع خبرتى الاكلينيكية:

١ - الهوس المسامح الآمن فى مقابل الهوس الغاضب الشاك

.The Permissive trustful mania versus the Angry suspicious mania

حيث نرى بعض حالات الهوس فى حالات من الراحة والسعادة والقبول والمحبة الشاملة والثقة بكل العالم دون تحفظ أو تردد، وقد يصاحب هذا النوع نشاط زائد ويمتلئ حديثه المزدحم بالألفاظ الشعرية الواثقة المطمئنة وبتفاؤله الغامر بلا حدود، وهذا هو النوع الأول، أما ما يقابله فهو ما نشاهده فى بعض حالات الهوس من موقف عكسى تماماً حيث يبدو المريض غاضبا متحفزا شكاكا فى موقف رفض وتحفظ

---

1 - Polarity classification

يوجه فيه طاقته الزائدة ونشاطه الحذر طول الوقت، وترى حديثه مليئا بسوء التأويل والحساسية، مع ثقة بنفسه مفرطة، ولكن بلا أمان مبدئى.

وهذه الصورة ومقابلها إنما تعنى نوعين لهما دلالة مختلفة فى عمق تكوين الأعراض فيهما، وإن انتقل المريض من قطب إلى قطب فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أنهما نوع واحد، وإنما يعنى أن تركيب الشخصية السيكوباثولوجى فى لحظة ما قد أعيد تنظيمه فى لحظة أخرى بما يتناسب مع تغير القوى داخليا (حتى ولو كان تغيراً مؤقتا)

<u>٢ - الهوس النكوصى فى مقابل الهوس الانشقاقى الملوث.</u>

The Regressive mania versus the contaminated dissociative mania.

وهذا الاستقطاب، كما سنلاحظ فى شتى الأنواع المعروضة يماثل سابقه بشكل ما، إلا أن محتوى الأعراض قد تسمح بأن يأخذ صفات أخرى .. ومن ثم إسما آخر، وفى هذه الحالة ترى النوع النكوصى، وقد تميز بوضوح بصفات طفلية مباشرة وصريحة حتى ولو لم يظهر فيه فرط النشاط، وهذه الصفات تظهر فى الصورة الإكلينيكية فى شكل اللامسئولية، والتلقائية غير المتناسبة مع الموقف، والبراءة غير المتناسبة مع السن، والضحك الطفلى الحر[2] ولا يصاحب هذا النوع من الهوس بداهة أى ميل عدوانى وإن كان يصاحبه إعتماد باد حتى ليمكن أن نضع لهذا مرادفا آخر هو "الهوس الطفلى".

أما القطب الآخر الذى أطلقنا عليه الهوس الانشقاقى الملوث[3] فهو يعنى أن الصورة الاكلينيكية لا تحتلها مظاهر طفلية صريحة مجردة بقدر ما يظهر على المريض من مظاهر تغير فى نوعية الوعى بشكل بديل حاد (الانشقاق الذهانى) ويصاحب ذلك تصرفات مضادة للمجتمع ومنافية للأخلاق، مما يقرب سلوكه من مظاهر السلوك السيكوباتى الحاد أو تحت الحاد، وعادة ما يلجأ المريض إلى الكذب والمناورة للحصول على مكاسب <u>ذاتية</u> مباشرة على حساب الآخرين <u>وفورا</u>، وهذا كله ليس من صفات **الطفل** عادة، وإنما هو نتاج التلوث بين <u>سلبيات</u> ما هو طفلى وسلبيات ما هو والدى من حيث الخوف والحرص والطمع والمناوره .. فى إطار الانشقاق أساسا وليس النكوص ضرورة.

والفرق بين هاتين الصورتين فرق نقيضى، ويسرى عليه ما أشرنا إليه فى الاستقطاب الأول، أى أنه لا يبرر إدراجهما معا كونهما ينبعان من مصدر طفلى واحد، أو أن أحدهما يحل محل الآخر.

<u>٣ - الهوس المعدى المتوهج فى مقابل الهوس المتعدى الهائج</u>

2- قد يوصف هذا الانفعال بالوجد Ecstasy وليس بالضرورة بالمرحElation وهو ما يغلب فى بعض حالات الفصام مما يدل على درجة من النكوص أعمق مما يظن فى الهوس الشائع المألوف، كما يدل على قرب الشبه بين هذا النوع وبين الفصام النكوصى ذى الأعراض القليلة Regressive Oligosymptomatic Schizophrenia وربما كان التعبير الذى استعملته فى رأس تلك الفقرة (ص٥١) وهو الذهان النكوصى Regressive Psychosisهو تعبير خليق بالاستقلال ليجمع تحته زملة إكلينيكية هى خليط من الفصام دون تناثر ظاهر (بفعل النكوص) ومن الهوس دون فرط النشاط والعدوان (بفعل النكوص أيضا) وهذا الخليط ليس هو الفصام الانفعالى الهوسي Schizoaffective maniaالذى يعنى استمرار بعض الأعراض الفصامية المعروفة بما فيها التناثر مع بعض الأعراض الهوسية بما فيها من فط النشاط وربما العدوان .

3 - استعرت هذا التعبير من قاموس 'إريك بيرن' لأن ى لم أجد ما هو خير منه، ورغم استعمال إريك بيرن له ف ى مجال التحليل التركيب ى للدلالة عل ى تلوث الأنا الطفلية بالأنا الوالدية مثلا* فإن ى أستعمله هنا بهذا المفهوم أيضا، ولكن للإشارة إل ى مظاهر التلوث كما تبدو مباشرة ف ى الصورة الاكلينيكية .

.The Infective bright mania versus the Excited aggressive mania

هذا الاستقطات يشير إلى ما نشاهده إكلينيكيا من المريض الهوسى حين يتصف بخفة الظل والألمعية وحضور البديهة بحيث يعدى الفاحص والمحيطين ولا يستطيعون إلا أن يشاركوه ظرفه ويطربوا لتعليقاته، وهو عادة ليس آمنا فى استسلام المسامح، ولا هو طفل معتمد، رغم وجود ملامح هذه الصفات فى سلوكه، وكثيرا ما تحمل خفة ظله جرعة من السخرية التى قد تكون لاذعة مما لا يتمتع به النوع المتسامح أو الطفلى، ولهذا وصفته وحده باعتبار أظهر صفاته وهى عدوى عواطفه وألمعيته وأسمته لذلك : "الهوس المعدى المتوهج"، أما مقابله وهو الهوس "المتعدى الهائج" فهو يفتقر إلى خفة الظل، وتتجه طاقته إلى التعدى بالألفاظ أو بالأيدى دون تردد، ويصل هذا التعدى إلى درجة الهياج فعلا، ولا يستطيع الفاحص أن يشارك هذا الهوس مشاعره طبعا، كما أنه لا يثير فى الآخرين الشعور بأنه يقظ متوهج ولكن بأنه متهيج أقرب إلى عدم التمييز ونعود مرة ثالثة لنؤكد احتمال تحول الأعراض من قطب لقطب فى النوبة الواحدة، ولا نكرر دلالة ذلك، كما أن ضرورة التمييز بينهما يبررها ما قدمناه بالنسبة للنوعين السابقين بما ينطبق على هذا الاستقطاب أيضا.

٤ - الهوس النوابى البيولوجى فى مقابل الهوس النزوى المتفتر

.The Periodical biologic mania versus the Sally intermittent

وبداية فإنى أحذر - مثلما سبق أن قلت فى الاكتئاب - إن إطلاق لفظ بيولوجى على أحد قطبى هذه المقابلة لا يعنى أن الأنواع الأخرى ليست بيولوجية، بل إنما يؤكد على أن هذا النوع بالذات هو ما يمثل أكثر من غيره النبضة الاندفاعية العظيمة Mega systolic pulsation المجهضة أيضا، فى الاستعادة السيكوباثوجينية وهذا النوع - الهوس النوابى البيولوجى - هو النوع التقليدى التاريخى الذى وصف الهوس به أول ما وصف، والذى اختلطت من بعده الأمور حين تشوهت صورة الهوس الإكلينيكية بعوامل التدخلات العلاجية والقهر الاجتماعى الجاهز والمسبق، وهو يتصف بأنه دورى، وأنه بالذات قد يتناوب مع الاكتئاب وقد يختلط معه أكثر من غيره وقد يسبقه مباشرة أو يلحقه مباشرة فى صوره الموقوته، وهذا النوع هو موضوع دراستنا أساسا فى هذا العلم، ولذلك سوف نكتفى بهذه التلميحات حتى نعود إليه حالا.

أما القطب المقابل لهذا النوع وهو ما أسميته "الهوس النزوى المتفتر" فهو ليس دوريا بالضرورة وإن كان قد يعاود صاحبه فى نكسات متلاحقة، وهو لا يتناوب عادة مع الاكتئاب، وإن اختلط ببعض مظاهر أنواع أخرى (غير الاكتئاب الدورى البيولوجى أو اكتئاب المواجهة) من الاكتئاب، كما أن هجمته لا تعود إلى المنتوى الأساسى وإنما تترك أثرا يذكرنا ببعض آثار الفصام حتى ليوحى ذلك بأنه أقرب ما يكون إلى الفصام الانفعالى الهوسى، وإن كانت المظاهر الاكلينيكية مع خلوها من أعراض الفصام الصريحة لا تؤيد ذلك بالضرورة، وقد أسميته المتفتر Intermittent تمييزا له عن النوع الدورى لهذا السبب سالف الذكر، وهو عدم عودته إلى المستوى الأساسى Base line لما قبل الهجمة.

(١) الهوس المسامح الآمن الهوس الغاضب الشاك

Angry suspicious mania Permissive trustful mania

(٢) الهوس النكوصى الهوس الملوث

Contaminated mania Regressive mania

(٣) الهوس المعدى المتوهج الهوس المتعدى الهائج

Excited aggressive mania Infective bright mania

(٤) الهوس النوابى البيولوجى الهوس النزوى المتفتر

Sally intermittent mania Periodical biologic mania

التقسيم الاستقطابى للهوس

The Polarity Classification Of Mania

وبعد.

فإننا لن ندخل تفصيلا فى تعدد هذه الأنواع وفروقها الاكلينيكية الدالة واختلاف مسار كل نوع عن الآخر وكذلك اختلاف العلاجات، حيث أن ما يهمنى فى هذا الصدد هو أن أستبعد جزئيا ما هو خارج عن نطاق هذه الدراسة، مع التأكيد على الاختلاف فى السيكوباثولوجى حتى لا يفسد التعميم ما أورده من حقائق سيكوباثولوجية:

فمثلا لنا أن نتوقع أن سيكوباثولوجية الهوس الملوث تقترب بعض الشئ من سيكوباثولوجية إضطراب الشخصية وخاصة الشخصية السيكوباتية، وكذلك الحال مع الهوس الغاضب والشاك والمعتدى فإنه قد يقترب جزئيا من سيكوباثولوجية حالات البارانويا وأخيرا فإن النوع النزوى المتفتر قد يفسره ويوضحه سيكوباثولوجية الفصام جزئيا أيضا، وهكذا نجد أن الخلط يضر لا محالة بالوضوح العلمى المطلوب وخاصة فيما يتعلق بالسيكوباثولوجى فإذا حاولنا بعد ذلك أن نجمع بين هذه الأنواع المستقطبة فى كل جانب فى زملات إكلينيكية شائعة مستقلة بالضرورة فإننا - بصفة مؤقتة ومبدئية - يمكن أن نقصرها على بضعة أنواع تجميعية كالتالى:

النوع الأول: الهوس النكوصى Regressive Mania ويشمل خليطا من الهوس المسامح الآمن، والطفلى (النكوص) معا، ويكون فيه النشاط الحركى أقل من غيره، كما تكون السعادة النكوصية والأرق وكثرة الكلام لدرجة متوسطة هى المميزات الأساسية .

النوع الثانى: الهوس المتعدى الشاك Aggressive suspicious mania ويشمل هذا النوع خليطا من النوع الغاضب الشاك والمتعدى الهائج، وكذلك يشمل بعض مظاهر التلوث فيما يتعلق بعلاقته بالمجتمع والقيم بوجه خاص.

النوع الثالث: الهوس النوابى البيولوجي Periodical biologic mania وهو النوع الدورى الأصيل، ولا نجد ما نضيف عليه هنا إلا أنه يشم صفات مشتركة بينه وبين النوع الذى أسميناه "المعدى المتوهج" .

الرابع: الهوس المتفتر الانفصامي[4] Intermittent Schizotypal mania وهو أقرب ما يكون إلى النوع النزوى المتفتر، الذى يتصف باللزوجة والفجائية وعدم عودته إلى المستوى الأساسى وقلة تبادله مع الاكتئاب الدورى البيولوجى، وكما سبق أن أشرنا فهو شديد الشبه بالفصام الانفعالى وخاصة من ناحية مساره ونتاجه، ولكنه يفتقر إلى أعراض فصامية صريحة فى الصورة الاكلينيكية وكذلك إلى أعراض هوسية حادة .

ملحوظة: على استعمال الألفاظ الشائعة فى تصنيف الاكتئاب والهوس:

يلاحظ القارئ أنى قد استعملت ألفاظا شائعة فى تصنيف الاكتئاب ثم فى تصنيف الهوس، بحيث تقترب من الاستعمال العادى للألفاظ مما قد يثير احتمال قصورها عن التحديد العلمى، والحقيقة أنى تعمدت ذلك، وهذه بعض مبرراتى:

١ - أن هذين المرضين - خاصة - يظهران فى الصورة الاكلينيكية من خلال سلوك إجمالى "إنساني" بالضرورة، وأن معنى الأعراض فيهما معنى إنسانى مباشر وشائع، بعكس أعراض زملة الاضطرابات العضوية مثلا، أو إلى درجة أقل - الفصام المتدهور.

٢ - أنه كلما قرب اللفظ من الاستعمال الشائع، مع كثرة تعداد التصنيف، كلما قلت الأضرار الناشئة من استعمال اللافتات التشخيصية فى إبعاد المريض عن دائرة الأسوياء.

٣ - أن هذه التسميات قد تثير فى الفاحص - ضمناو تلقائيا - المقابل لها فى ذاته، مما يجعل التقمص التشخيصى أسهل، والاقتراب من المريض أرق.

وينبغى أن أنبه إلى أن هذه التسميات تنطبق على ما قصدت إليه فى حالة الاكتئاب أكثر من حالة الهوس، وذلك لأن الاكتئاب أحدث من الهوس تطوريا وبالتالى فصفاته وأعراضه أقرب للشيوع وأسهل فى الفهم والاستعمال عامة.

وهكذا نعود فنقول:

إن موضوع دراستنا هنا ينصب على نوع واحد من الهوس، وهو النوع الأساسى الأصيل الذى هو أقرب ما يكون هنا إلى النوع الذى أسميته "الدورى البيولوجي" وأن سائر الأنواع الأخرى - وإن اشتركت مع هذا النوع فى منطقة أعمق أو مرحلة أسبق - فتفاصيلها تحتاج إلى وضع متغيرات وعوامل أخرى فى الاعتبار كما أسلفنا.

4- أخذت كلمة الانفصام ى تمييزا لهذا النوع عن كلمة فصامى، وترجمتها إلى Schizothyme مستعيا هذه التعبير من التقسيم الثالث الأمريك ى للأمراض النفسية (١٩٧٨) فيما يتعلق بنوع جديد من الشخصية الت ى وصفت بهذه الصفة، وهذا التمييز هام حت ى لا يصبح الخلط بين ما هو هوس أساسا وبين ما هو فصام أساسا خلط سهل ومشوش، مع اعتبار اقترات النوعين بعضهما مع بعض اقتراب شديدا ف ى المسار والنتاج . . كما ذكرنا من قبل .

"هذا" الهوس: هل هو الوجه الآخر أم البعد الأعمق للاكتئاب؟

تختلف الآراء بالنسبة لهذه القضية ما بين المفهوم ثنائى الاستقطاب Bipolar Concept وبين المفهوم أحادى الاستقطاب Unipolar concept حيث يرى الفريق الأول أن الهوس والاكتئاب يقابل بعضهما بعضا على طرفين فى اتجاهين متضادين، فى حين يرى الفريق الثانى أن الهوس هو درجة تالية لعنف الاكتئاب وفشل استمراره - كما سيأتى بعد - فى نفس الاتجاه، ويعدد كل فريق ما يؤيد رأيه، من الأدلة الوصفية والتتبعية والعلاجية ..، واستنادا إلى التزامى بالبعد عن مناقشة الآراء حتى لا أنفصل عن الخط العام فإنى أكتفى بأن أرجح البعد الأحادى المتصل، حيث أنه أقرب إلى مفهوم التطور، وإلى مضاعفات السيكوباثوجينى المتتالية، وهو يتيح بذلك أن تدرس علاقة الهوس، ليس بالنسبة للاكتئاب فحسب، بل بالنسبة للبارانويا والفصام بنفس اللغة ونفس التدرج.

وعلى الرغم من أن المدارس الدينامية لم تذكر موقعا محددا للهوس على سلم النمو الفردى، مثلما ذكرت تسلسل المواقف: الشيزودية، فالبارنوية، فالاكتئابية فى تسلسل مضطرد، فإنى أرى أنه لا يمكن أن يفهم الهوس سيكوباثولوجيا إلا بمحاولة تحديد مكانه على سلم النمو، وبالتالى على درج السيكوباثوجينى، وإنى ابتداء أحدد ذلك من خبرتى الاكلينيكية قائلا: إن الموقف الهوسى ليس موقفا بذاته يتحدد عنده نمو الطفل فى فترة معينة، ولكنه موقف مساعد accessory ينحو إليه الطفل استكمالا للموقف الشيزويدى من ناحية: <u>حيث يؤدى هدف إلغاء الموضوع (الآخر)</u> دون انسحاب خطر - <u>وهذا هو هدف الشيزويدى</u> وفى نفس الوقت - فيما بعد - ينحو إليه الطفل استكمالا للموقف البارنوى من ناحية أخرى: <u>حيث يؤدى ويسهل فعل العدوان الناشئ عن الخوف والاضطهاد</u> مع استبقاء العلاقة مشوهة حذرة بالآخر مما هو هدف الموقف البارنوى ويلى ذلك كله فيما بعد الموقف الاكتئابى.

ومن خلال هذا الافتراض نقول إن الموقف الهوس وسط بين الاكتئاب والفصام من ناحية، ومقابل للموقف البارنوى ومتداخل معه من ناحية أخرى، فهومرحلة نكوصية بعيدا عن الموقف الاكتئابى المرهق، ولكنه ليس نكوصا مهزوما مشوشا متناثرا مثلما هو الحال فى الفصام، وإنما هو نكوص قوى طاغ صريح.

إذا فينبغى تفسير علاقة الهوس بالاكتئاب تفسيرا مباشرا على مسيرة مراحل التدهور المرضى، وفى هذا أقول: إن الهوس ليس هو الوجه الآخر للاكتئاب ولكنه الخطوة التدهورية المباشرة التالية إذا فشل الاكتئاب.

وتفسير التناوب بينهما لابد وأن يشمل لغة سيكوباثولوجية أخرى غير ما استعملنا فى الجزء السابق من لغة مدرسة "للعلاقة بالموضوع" وقد ألف القارئ فى هذه الدراسة أن يسمع ترددا ما بين هذه اللغة (لغة العلاقة بالموضوع) وبين "اللغة التفاعلاتية" حتى نصل فى النهاية إلى اللغة التطورية هدف هذه الدراسة.

وهنا أقول باللغة التفاعلاتية: أنا سبق أن ذكرنا أنه فى الاكتئاب توجد دلائل لتكافؤ قوى الأنا الطفلية مع الأنا الوالدية، وأن انتصار أحدهما (**الوالد** فى حالة الاكتئاب) لا يسحق الآخر، بل يقويه فى عمق الصراع، ولذلك فإن تاريخ الهوس والاكتئاب وتناوبهما يمكن أن يصاغ صياغة تقريبية بأن تكافؤ القوى يدل على أن المعركة بينهما سجال، وفى جولات، وبالتالى فإنه فى كل نبضة سيكوباثوجينية قد تكسب الجولة إحدى القوتين مع شدة المنافس، فإذا كسبها **الوالد،** كانت الصورة الإكلينيكية اكتئابا، وإذا كسبها **الطفل** كانت الصورة الإكلينيكية هوسا [٥] فالنشاط الهوسى إذا هو نشاط **طفلى،** مع استبعاد Exclusion **للوالد** - إلا بقدر ما ينجح الأخير فى تلويث نشاط الطفل كما أسلفنا فى بعض التصانيف السابقة.

وعلى قدر اختلاط هذا النشاط الطفلى النكوصى بإعادة النشاط Reactivation للمستوى البارنوى على قدر ما تكون أعراض الهوس محتوية لعواطف الشك وضلالات الاضطهاد.

وها قد آن الأوان لشرح المتن الخاص "بهذا" النوع من الهوس وهو النوع البيولوجى الدورى.

(١١٩) فترة الاكتئاب قبل الهوس:

ذكرت فى الاكتئاب أنه عادة - وبالتدقيق يمكن أن أقول "دائما" ما يسبقه فترة عابرة من مشاعر الهوس، ونعيد القول بدورنا فى حالة الهوس أن العكس صحيح، فكثير من حالات الهوس يسبقها فترة من الاكتئاب تطول أم تقصر، ناهيك عن التطور الاكتئابى الكامل الذى يلحقه مباشرة طور هوسى كامل فى النوع الدائرى المستمرContinuous circular type فإذا راجعنا فكرة تكافؤ القوتين وأن الاكتئاب أو الهوس يتحددان فى الصورة الاكلينيكية بحسب تفوق إحدى القوتين متقاربتى الشدة، فلنا أن نتوقع هذا التبادل السريع والمباشر بينهما، وبلغة التحليل التفاعلاتى ذكرنا أن **الوالد** (الأنا الوالدية) تتنحى قليلا ثم تعود فتنقض (هرب الملك من التابوب يدبر للثأر مكيدة)، أما هنا فإن **الطفل** (الأنا الطفلية) بعد خسارته لأول جولة بالاكتئاب يستعيد قواه ويهاجم ويسبعد **الوالد** تماما.

أما بلغة التحليل النفسى التقليدى فإن الهوس يعتبر دفاعا إنكاريا Denial defense[٦] ضد الاكتئاب إذا ما زاد وألم وأصبح غير محتمل ..، بمعنى أن المريض ينكر الاكتئاب بإلغائه من دائرة الشعور أصلا.

وفى ممارستى الكلينيكية استطعت أن أحقق هذين الفرضين معا، ففى العلاج الجمعى - بعد جهد حقيقى - يمكن إسترجاع الوالد فى مواجهة الطفل بالتفاعل المباشر والسيكودراما محققا الفرض الأول.

أما تحقيق الفرض الثانى فكان أقرب، فقد كنت أواجه المريض الهوسى تلو الآخر فى إصرار ملاحق باحثا معهم وفيهم عن ما يخبئون من حزن، ونادرا ما كان المريض يقاوم هذا الالحاح من جانبى

5- امتدادا لهذا التشبيه يمكن القول أنه ف ى الفصام يكسب الطفل بالضربة القاضية غير الفنية مما يتبعه اختفاء وتناثر أشلاء كل ما عداة ثم انزواؤه مشوشا وحده ف ى ركن حلقة الوجود.

6- كلمة دفاع تستعمل أحيانا استعماليين مختلفين، فإذا قلنا إن الهوس دفاع ضد الاكتئاب بالانكار فاننا نعنى معنى 'الدفاع' بلغة التحليل النفسى، أ ى أنه يعمل لتجنب الألم النفسى.

وإذا قلنا أن الاكتئاب دفاع ضد النكوص الهوسى، فإننا نعنى أن الاكتئاب إذ هو موقف تطورى أحدث إنما ينشأ لحماية الذات من النكوص الهوسى فهو دفاع بلغة التطور وليس بلغة التحليل النفسى .

وإصراراى ألا يستدرجنى "تهريجه" وفرحته العابثة للموافقة على سطحيتهما ومشاركته فيها، وكنت أتبع طريقة بسيطة ومباشرة فى إيقاف سيل ألفاظه وقفشاته وصياحه ناظرا فى عينيه سائلا إياه عن الحزن "الحزن اللى جواه"، وهو يبدأ عادة بالانكار اللفظى وإن كان يفاجأ وتظهر المفاجأة على وجهه، وقد يستجيب بسخرية مرتدة وأن الحزن داخلى أنا، ولكن بإصرارى ومثابرتى يبدأ فى التعرف على جدية موقفى وحقيقة محاولتى، فيظهر عليه تفاعل الغيظ فالاحراج، وقد ينقلب إلى عدوان مباشر كل ذلك لأنى اضطررته إلى مواجهة أعماقه، وأخيرا فإنه قد يعترف بحقيقة الحزن لفظا أو دمعا أو صمتا أو إنزواء، ولكن هذا التفاعل لا يدوم إلا ثوان أو دقائق، وخاصة إذا تراخت قبضة الفاحص عن الجدية المطلوبة والمشاركة الضرورية فى مثل هذا الموقف الجاد والخطير.

إذا فالهوس - من هذا المنطلق - لا يلغى الاكتئاب ولكنه يخفيه فى أعماق النفس، وهذا الاخفاء فى الحالات النموذجية يكون كاملا وشاملا

(انقشع غمام الضيق وشعاع الفجر يدغدغني

حتى أشرق نور الشمس بين ضلوعى)

(١٢٠) أبعاد (حدود) الذات فى الهوس Ego boundaries mania

تحدثنا عن شفافية حدود الذات فى الاكتئاب، وأشرنا ضمنا إلى زوال أو اختفاء هذه الحدود فى الفصام، أما فى الهوس فإنها تختفى أيضا، ولكن الفرق بينها وبين الفصام أن الذات - إذ تختفى حدودها - تتناثر وتذوب فى الكون الأوسع باحتوائه داخلها. وكأن حدودها لم تزل ولكن أصبحت هى هى حدود الكون (غير المحدود إلا رمزا تقريبيا)، ومن البداية، والمتن هنا يشير إلى الذات حتى أصبحت كونا فى نفسها (حتى أشرق نور الشمس بين ضلوعى).

ومع هذا التوحيد، تصبح السباحة فى محيط الكون دالة على درجة الانطلاق من كل القيود، وهو شعور يدركه الهوسى ويفرح به ويتمسك باستمراره ويحتقر كل ما هو دونه.

(وصفا القلب رقصت أرجاء الكون

وتحطمت الأسوار)

وصفاء القلب هنا يتم عادة "بالانكار التام" وليس بالتكامل كما فى خبرات مشابهة مثل التصوف والإبداع وفى نفس الوقت فهو صفاء "نشط متحفز" بعكس صفاء الفصامى أحيانا إذ هو "ساكن غير مبال" وإذ تصبح الذات كونا يصبح الحديث عنها، أو عن الكون حديثا واحدا بحيث لا يمكن التمييز - سيكوباثولوجيا - إذا كان المريض يتحدث عن نفسه أم عن الكون إذ هو والكون واحد فى هذه اللحظات.

وتحطيم الأسوار يعنى عدة معان يتصف بها الهوس.

١ - تحطيم القيود الاجتماعية.

٢ - تحطيم أبعاد الذات المحدودة واستبدالها بأبعاد الذات الكونية المطلقة أو الكونية التى تشير إلى اتحاد الذوات الظاهرى داخل النفس من ناحية، وإلى الاتساق مع الكون الأكبر من ناحية أخرى كما سيأتى.

٣ - تحطيم الحدود مع الآخر إذ يلغيه باحتوائه الكامل.

(١٢١) الملكوت الهوسى:

وإذ ينجح **الطفل** فى الإغارة على كل القيود، واستبعاد **الوالد**، وإن تتمدد أبعاده Expansion of ego boundaries [7] لتنتقل دائرة وجوده وتلتحم بدوائر الكون الأكبر، أو على الأقل تتناسق حركتها مع حركات الكون الأكبر بحيث تختلط مساراتها فى فرط التناسق، الذى يمتد بدوره إلى التناسق مع الذرات (الكون الأصغر) [8] يصبح الوجود الهوسى ذا طبع خطير من حيث الخلط بين هذه الأكوان الثلاث، ولكنه خلط تناغمى يكاد يصدق فى "**هذا**" النوع من الهوس.

أما انطلاق "الانسان الآخر" فهو يعيد الاشارة إلى فكرة تعدد الذوات داخل النفس، كما أنه يشير إلى أن تعبير الطفل (والذات الطفلية) ليس بالضرورة هو التعبير الأمثل، وأن المهم للالمام بأبعاد ما نريد قوله هو الوجه الآخر للوجود (الانسان الآخر) هذا الوجه الذى يتأكد بوجه خاص فى استقطابات "كارل يونج"

(وانطلق الإنسان الآخر، الرابض بين ضلوعى

فى ملكوت الله

يعزف موسيقى الحرية)

(١٢٢) الهوس والحرية:

ويشعر **الطفل** المنطلق المتناغم، بالحرية المطلقة، وقد يكون هذا من أسباب فرحته ورقصته الكونية، وكثيرا ما يعبر عن هذه الحرية بأنه يعيش لأول مرة، أو بأنه "شفي" (عادة فى إجابة عن سؤال يتعلق بما إذا كان مريضا من عدمه أو عن بداية مرضه)، فهو يعتبر أن مرحلة السواء السابقة هى التى كانت مرضا، وأنه "الآن" أى بعد بداية ظهور الهوس: قد شفى، ويتكلم المريض عن هذا الشفاء كلاما يقينيا لا جدال فيه. أما شعوره بالحرية فإنه ينبع من عدة مصادر.

١ - إن الحرية تقيد عادة بالآخرين، والهوسى يلغى الآخرين.

٢ - إن "هذه الحرية" قريبة للامسئولية، والهوسى يطرح حكاية المسئولية- فعلا جانبا، وإن كان قد يتحدث عن مسئوليته عن العالم أجمع.

٣ - إن الحرية تتعلق بالذات وذات الهوسى تنمحى لتحل محلها ذات الكون، أو لتصبح هى هى ذات الكون مع اتساع حدودها بحيث تحتوى داخلها (وبالتالى تنكر) كل الأمور الصغيرة التى كانت تشعره

7- قارن - وراجع - هذا التعبير بتعبير فقد أبعاد الذات Liss of ego boundaries فى الفام، وشفافية أبعاد الذات Transparency ego boundaries فى بداية الاكتئاب، والخوف من هذا وذاك فى الرهاب.

8- اذكر القارئ بفكر أريت ى القائل بالكون الأصغر (الذره Microcosmos (والكون الأوسط (الانسان mesocosmos (والكون الأكبر (الكون الأعظم) (اللهMacrocosmos

بالاعاقة، ومنها الاحتياج، فإلغاء الحاجة Need هو نوع من الحرية، وقد يفسر هذا أن بعض المرضى الهوسيين يصابون بالعنه (والبرود عند النساء) بعكس الشائع وبعكس ما يوحيه الظاهر، وهذا متعلق بإلغاء الآخر وبإلغاء الاحتياج معا.

٤ - إن الحرية تتعلق بالقدرة والمريض الهوسى يشعر بأنه "قادر على كل شئ" وبالتالى فهو حر بكل مقياس.

والحرية هى الحديث المفضل لدى الهوسى، (ولدى الفصامى، ولكن بأسلوب آخر، ولدى المرضى النفسيين ومضطربى الشخصية بصفة عامة)، بل وهى هى نفس الحرية التى تتكلم عنها بعض الأصوات (الطبية أحيانا) المنادية بموت الطب النفسى، تلك الأصوات التى تسقط رغبتها فى الهوس ورغبتها فى الجنون الحر على المرضى وتذهب تدافع عن حرية من لا يعرف معنى الحرية، بل من لا يستعمل الحرية إلا للإضرار بنفسه قبل الغير، وعلى نفس القياس نسمع أصوات المدافعين عن حرية الأطفال، فإذا تذكرنا أن الهوسى - سيكوباثولوجيا - ما هو إلا نشاط طفلى، اقتربت الصور من بعضها وكأن هذه الحركة هى إسقاط هوسى لبعض من حرم تحمل مسئولية داخله بالسعى المثابر للتكامل (كادح إلى ربك كدحا) وكذلك حرم نعمة مسئولية خارجه باحترام الآخرين احتراما حقيقيا باعتبار حريتهم، دون إلغائهم أو احتوائهم لحساب إطلاق حريته القصوى.

(١٢٣) معرفة الهوسى: (العلم اللدنى .. والحدس المباشر)

كثيرا ما يتحدث الهوس عن معرفة مباشرة وأكيدة بيقين لا يداخله أدنى شك وهذا اليقين يختلف عما أسماه أريتى البصيره الذهانية Psychotic insight فى بداية الفصام، كما يختلف عن الوعى الذهانى Psychotic awareness الذى أشرت إليه فى بداية الذهان عامة والاكتئاب خاصة، وأخيرا فهو يختلف عن التفسيرات اليقينية لحالات البارانويا الضلالية خاصة، فهنا لا يكتفى المريض بتفسير ما طرأ عليه من أعراض ومشاعر بحادث عابر أو تدبير خاص (البصيرة الذهانية) وهو لا يعيد إدراك الذات والعالم بموضوعية أكثر حدة إذ يرى تناقض الوجود "معا" كما هو الحال فى عمق الثورة الاكتئابية (الوعى الذهانى) ولا هو يبرر هذاءاته وضلالاته فى المنظومة التى يستند إليه وجوده المريض بتبريرات وتفسيرات متماسكة تدور أساسا حول ذاته والمؤامرات من حوله (التفسير الضلالى) ولكنه - دون هذا جميعه - يتكلم عن علم شامل كامل، أو نفاذ بصيرة عبر الزمن الماضى، أو العثور على سر مشكلة وجودية أصيلة، وفى حديثه هذا يبدو تلقائيا ثابتا واضحا عنيدا بحيث يكاد يبدو من الصعب رفض هذا العلم ابتداء باعتباره أوهام مرضية.

ويصنع الطبيب النفسى خيرا - لنفسه ولمريضه ولربما للعلم - لو أنه احترم مريضه - بالرغم من كل شئ - ولم يسارع بدمغ هذه الرؤية باعتبارها ضلالات وأوهام مرضية منذ البداية. لأن الحقيقة تقول أنناإذا كنا أمناء مع أنفسنا وإذا كان لنا من العلم العام (فى شتى فروع المعرفة) والخاص (فى علم السيكوباثولوجى

بالذات) معرفة عميقة وأصيلة، فسوف نجد فى كلام الهوسى ويقينه كثيراً مما نعرف مع التأكد بأن المريض لم يقرؤه أو يسمع عنه أبدا (من واقع معلوماتنا الطولية المصدقة عنه) ولنا - ونحن ما زلنا نحاول أن نصدق مع أنفسنا - أن نتقدم إلى بحث طبيعة هذا العطاء المعرفى خطوة خطوة:

١ - إذا كان المريض يحكى مباشرة وبهذا اليقين مالم يعرفه قراءة أو سماعا مما يتفق تماما مع "بعض" حقائق العلم المتاحة فمن أين له هذه المعرفة اليقينية؟

٢ - إذا ثبت أن هذه المعرفة صحيحة فى المنطقة التى وصلت إلى علمنا نحن - الفاحصين - قراءة أو سمعا - فكيف يحق لنا أن نرفض "بقية ما يقول" لمجرد أننا نجهله.

٣ - إذا كان المريض غير قادر على سلسلة ما يعرف فى تنظير مناسب، فكيف نسهم - خوفا أو جهلا - فى إلقاء "مفردات يقينه" بعيدا فى سلة مهملات الفكر، دون أدنى محاولة احترام للحفاظ عليها أو على بعضها للتاريخ أو لمن يريد ممن هو أشجع منا.

ولذلك فإنى أرى أنه على من وهب شجاعة العالم أن يعامل معرفة مثل هذا المريض معاملة "الفروض المحتملة" لأن فى هذا ثراء حقيقى لعلمنا .. أساساً، وربما لعلوم أخرى حسب اتجاه معرفة الهوسى، ثم عليه - إن استطاع - أن ينظمها فى فروض أكثر تعلقا بعضها ببعض، أو أن يسجلها لمن يستطيع أن يفعل بعد ذلك.

كل ما أردت تقديمه فى هذا الاستطراد هو طرح موقف الطبيب النفسى باعتباره عالم باحث مفتوح الأفق أمام النفس البشرية فى أزمات تمزقها وانطلاقها بحيث لا يمنعه تسمية المريض مريضا من سماعه كصاحب وجهة نظر ورأى.

وفى محاولة وضع فرض لتفسير هذه المعرفة الهوسية التى تحمل قدرا يزيد أو ينقص من الحقائق العلمية والانسانية الفجة أقول: إن التناسق الذى يتم بين هارمونية الذات، وهارمونية الكون، رغم أنه تناسق مؤقت، ويحمل مظنة الانشقاق - إنما يحمل احتمال اختراق طبقات الذات وما يقابلها فى الخارج لدرجة يلتقط معها تنظيم الجزئيات العظيمة Macro molecules التى تحمل تاريخه الشخصى، ومن قبل تاريخه الحيوى (والعلمى جزئيا) - ومن خلال التقاطه هذا، وبقدر ما أتيح له من مفردات التعبير العلمى أو الشائع يحاول أن يصيغ هذه المعرفة وهذه الرؤية فى يقين يصدق حينا (بقدر توفيقه على نقل رؤية الهارمونى) ويكذب أحيانا (بقدر عجزه وتسرعه واهتزازه) ..

ومثل هذه المعرفة - مع الفارق - قد يقول بها الصوفية وأحيانا تسمى العلم اللدنى ٩

ومثلها أيضا يصبغ كثيراً من وجهات النظر فى نظرية المعرفة من منظور فلسفى، ولعل الحدس الديكادتى هو أقرب الأمور إلى ذلك - دون تفصيل فى هذا المقام.

ومثلها أيضا يعرفه المبدعون فى لحظة تصالح وتنسيق المجموعات المعرفية فى نظرية جديدة.

9- ' . .. من لدن عزيز حكيم' 'واتقوا الله ويعلمكم الله'

فإذا صدقت معرفة الهوسى بدرجة ما فى الاقتراب من مثيلاتها فى الحياة العامة، فإنه ليجدر بنا ألا نفرط بخوف المترددين فى بعض محتواها.

وقد يفسر بعض هذه المعرفة بعض ما جاء فى تصوير عمل نصفى المخ معا فى لحظة الابداع، لذلك أن الهوسى - خصوصا فى البداية قبل أن يغير النصف البدائى (الطفلى - الآخر ... الخ) على النصف المنطقى - يتميز بأن كثيرا من أنظمة مخه التى كانت متعارضه تغير اتجاهها وتعمل معا فتعرف عن بعضها ما كان محجوزا بالانشقاق، الذى كان سائدا فى الأحوال العادية، ولكن مع تطور المرض، سرعان ما يزول هذا التوافق بطغيان الجزء البدائى كما سيرد ذكره.

(١٢٤) صدق الهوسى:

وكما يصف الهوسى معرفته باليقين الذى لا يحتاج إلى دليل، فإنه أيضا يصف رؤيته ووجوده بالصدق المطلق

(وعرفت الأصل وأصل الأصل

فى لحظة صدق)

والصدق واليقين يتعلقان مباشرة بجانبين **الأول**: هو مدى التناسق بين وجود الهوس باعتباره الكون الأوسط، وبين الوجود الكونى الأعظم، وهذا جانب إيجابى، ولذلك فمن المتوقع ألا يكون ما يميز الهوسى لمدة طويلة، **والثانى:** هو مدى نجاح الهوسى فى **إنكار** الأجزاء الأخرى (غير المتناسقة، مع الوجود الجديد المزيج) بحيث أن ما تبقى فى الوساد الشعورى القائم يصبح متناسقا تناسقا متصلا تماما حتى ليصفه الهوسى بالصدق المطلق.

(١٢٥) نظرة الهوسى فى التاريخ الحيوى:

فإذا قبلنا احترام معرفة الهوسى بما تحمل من بعض الفرض الناتجة عن احتمال استيعاب تنظيم الجزئيات العظيمة استيعاب تنظيم الجزئيات العظيمة Macro molecules وترجمنها بالقدر المتاح من الأبجدية المعرفة، فإننا قد نسمح لأنفسنا بتصور أن رؤية الهوسى قد تمتد عبر تاريخه الفردى (الانتوجينيا) إلى تاريخ نوعه (الفيلوجينا) ، وهذا السماح قد يؤيده ما ذهبنا إلى افتراضه من أن خبرة الذهان ذاتها هى المقابل المرضى لقانون الاستعادة، ذلك المقابل الذى أسميناه "السيكوباثوجينا" ولقد عرضنا سيكوباثولوجية الاكتئاب من هذا المنظور باعتبار أن رؤية المكتئب تخترق تاريخه الفردى أساسا، ولما كان الهوس أعمق وأحد، فلا يوجد مبرر لرفض رؤيته - فروضه - الفيلوجينية ابتداء[١٠] يحاول تحقيق فرضه (الذى لم يتحقق تماما أبدا، وربما لا يمكن أن يتحقق نهائيا بالوسائل المتاحة) ربما

10- على هذا القياس قد يبدو غير مستبعد أن رؤية فرض التطور الحيوى عند كل من دارون، وولاس، على حدة بدأ برؤية من هذا العمق الفيلوجينى الذاتى.وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار تاريخ داروين الشخصى، وأبجدية معرفته الذاخره، إلا أن دارون قد صاغها فى صبر العالم ومسئوليته.
أحيانا ما يكون المبدع واثقا من عمله ورؤيته وحدسه ثقة قصوى أيضا بما قد يصاحبها من فخ واعتزاز واستعلاء .

أثر فى كل مسيرة البشرية فيما بعد، ولابد من التأكيد والتكرار بلا ملل بأنه ينبغى الحذر فى الخلط بين الابداع المسئول والمرض المجهض مع عدم إنكار وجه شبه البدايات.

وقد تصل هذه الرؤية الفيلوجينية إلى درجة يمكن ترجمتها إلى ألفاظ:

(ورأيت التاريخ البشرى .. رؤى العين:

كنت زمانا حبة رمل فى صحراء الله

وعرفت بأن الرمل قديم قبل الطين

ومن الطين .. خرج الطحلب)

وقد تقف الرؤية عند مجرد اليقين الحدسى قبل اللفظى، وقد تظـهر فى سلوك الهوسى (وأحيانا الفصامى الناكص) فى حديثه مع الطير وهمسه الصامت للشجر..، مما نعتبره عادة بتسرع حكمى أنه من التشوش والهذاءات للذان يتصف بهما المجنون دون محاولة الخوض فى جذورهما المحتملة قبل أن تتشوه الرؤية بالتناثر والانسحاب، والمثال الذى ورد فى المتن، هو مجرد مثال لتعميق فكرة علاقة الرؤية الفيلوجينية بفرض السيكوباثوجينى لهذا العلم، وهذه الرؤية بما تعرض - كمثال من جذور شبه عليمة وتفاصيل شاعرية، إنما يغلب عليها الجانب البهيج من التاريخ الحيوى دون معارك الإبادة والانقراض، مما يتفق مع مزاج الهوسى المرح السعيد.

(وقفزت إلى جوف البحر أناجى جداتى

وضربت بذيلى سمكة قرش مفترسة

ورجعت إلى شاطئنا الوردى أغني

ومضيت إليكم فى أروع رحلة)

(١٢٦) قوة يقين الهوسى:

وبعكس المبدع (العالم أساسا والفنان أحيانا) نجد أن يقين الهوسى مطلق إطلاقا عنيفا، ففى حين يعتبر مثل هذا اليقين عند المبدع نقطة بداية، وفرض محتمل يثير الشك، فيذهب إلى المراجع يبحث عما يؤيد رؤيته، أو يلجأ إلى الأساليب المتاحة يحاول تحقيق فرضه فى تواضع مثابر، نجد الهوس يعمق يقينه دون إهتزاز، ويرفض أى اعتراض، بل ويحتقر أى افتراض آخر ولا يحتاج لأى علم أخر١١ ولا يحتاج إلى تدعيم رأيه أو الدفاع عنه١٢ لأنه "هكذا ... والسلام"

(وعرفت يقينا أن المعرفة الحقة

هى فى المعرفة الحق

دون دليل أو برهان

احيانا ما يكون المبدع واثقا من عمله ورؤيته وحدسه ثقة قصوى أيضا بما قد يصاحبها من فخر واعتزاز واستعلاء

11- وعلمت حتى لا أسائل واحدا عن علم واحدة لك ى أزدادها (المتنبى)

12- أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر القوم جراها ويختصموا (المتنبى)

دون حساب أو تعداد الأسباب)

فثروة المبدع فى شكه وتواضعه، وضياع الهوسى فى يقينه المطلق الكاسح.

أما العوامل التى تجعل مثل هذه الخبرة تنقلب إلى إبداع أو عجز فمن أهمها:

(أ) السن: فكلما كان السن أكبر كان احتمال التماسك والإبداع أقوى.

(ب) الذخيرة المعرفية السابقة The previous stored wealth of information فكلما كان مخزون المعلومات من واقع الجهد السابق ثريا، كان المتاح لإعادة التنظيم أقرب.

(جـ) المرونة الذاتية وطبيعة المعرفة The personal flexibility and nature if acquisition of know ledge كلما كانت الذخيرة المعرفية مرنة وليست مجرد سجن موسوعى بل مثيرات متاحة، كان إكان إعادة ترتيبها دون اهتزاز أو انشقاق محتملا.

(د) المجال المحيط: The surrounding field كلما كان المجال متقبلا قادرا على تقبل الجديد مهما كان غريبا أو غامضا، كان إمكان التعبير عنه فى محاولة توصيله للآخرين مطمئنا واقيا.

(هـ) زمن الخبرة وقوة التنشيط The duration of experience and power of reactivation إذا جاءت هذه الخبرة مضغوطة فى وقت محدود (دقائق أو ساعات)، وكان استعادة الجزء الكامن للمخ لنشاطه فجائيا وعنيفا فلا شك أن الفرد لا يستطيع أن يتسوعبها مما يعرضها للاجهاض والتشوه، أما إذا كان التنشيط أقل حدة ومفاجأة، وكانت الخبرة مفرودة على زمن أطول .. استطاع صاحبها أن يلضم رؤيه اليقينية فى عقد معرفى لفظى قابل للتحقيق والتواصل والمراجعة.

(١٢٧) الهوس والخبرة الصوفية:

وإذا كان ذلك هو وجه الشبه بين المبدع والهوسى، فما هو وجه الشبه بينه وبين الصوفي؟.

إن هذه الرؤية هى بداية طريق العالم المبدع، وهى نهاية عجز الهوسى، أما المتصوف فهو غذاؤه فى رحلته بين ذاته والكون فى صمت رائق، ولو أنه يتفق مع الهوس فى اليقين، ويتفق مع المبدع فى التواضع، إلا أنها خبرة مغلقه - إن صح التعبير - لأنها عادة ذاتية، ضعيفة التواصل، خطرة الانتقال، ولست هنا فى مجال أن أصنف أنواع الخبرة الصوفية من هذا المنطلق، ولكنى فقط أحذر من الخبرة الصوفية اليقينية "الكادحة" وبين الخبرة التنمويمية المغيبة عن الوجود التى لا تندرج هنا وإنما تندرج تحت بعض أنواع الانشقاق (المشابه للانشقاق الهستيرى أحيانا) أما قول الصوفية "من ذاق عرف"

(هذا قول الصوفية:

من ذاق عرف

ولقد ذقت فعرفت)

فإنه قول يشير إلى صعوبة نقل هذه الخبرة بالألفاظ، مما يؤكد ثانية عجز الحل الصوفى لأنه حل فردى فى عمق تركيبه، ولكن ذلك لا يعنى الاستفادة من أعماقه وجوهره لعلنا نجد يوما سبيلا إلى استيعاب بعضه لإثراء عامة الناس رويدا رويدا.

(١٢٨) الهوس وعجز الألفاظ:

والهوس من الأمراض التى لا ينبغى التوقف فى تقييمها عند منطوق الألفاظ، وكثيرا ما تكون الألفاظ مضللة وغير معبرة عن حقيقة الخبرة المعاشة، وخاصة وأن المريض الهوسى يفرط فى استعمالها بلا توقف، وكثيراً ما تعنى الألفاظ معان جديدة غير مألوفة للألفاظ المتداولة، وكثيرا ما تسبق سرعة إخراج الكلام الهوسى .. بحيث يتورط فى الاستمرار فيما لا يعنيه، أو ينصرف عن خبرته الأصلية فى محاولة اللحاق بها .. لذلك كان على الفاحص ألا يتوقف عند ألفاظ الهوسى، وعلى قدر خبرته وإتقانه حرفته فى مجال الفحص، وعلى قدر حبه للحقيقة والبحث واحترامه لخبرة الذهان الهوسى باعتبار بعض منها فروضا مثرية، يستطيع مثل هذا الفاحص أن يترجم ألفاظه إلى ما تعنيه بدرجة متماسكة، ولا شك أن التواصل غير اللفظى Non verbal وكذلك التواصل بجوار الألفاظ وموازاتها Paraverbal يساعد فى ترجمة خبرة الهوسى وألفاظه إلى لغة عامة بنسبة معقولة ومفيدة.

والهوسى نفسه قد يعبر عن عجز ألفاظه عن نقل خبرته، وخاصة حين تتصل الخبرة بالمطبقات والغيبيات المجردات مثل كلمات الخلود، والله، والمحبة والمعرفة المطلقة وغيرها:

(ما أعجز ألفاظ الناس عن التعبير عن الذات العليا

وعن الجنه،

وعن الخلد، ...)

وبإشارته إلى ألفاظ الناس إنما يشير إلى الاستعمال الشائع للألفاظ بما يعنى حاجته الملحة إلى وسيلة (لفظية أو غير ذلك) جديدة للتواصل والتوصيل، وقد يعبر الصوفى عن نفس الحاجة بحيث يستبدل وصف الخبرة أو الحديث عن المعرفة بالدعوة إلى خوض التجربة وتذوقها.

(١٢٩) تمادى الهوسى فى الفرحة بديلا عن لضم الخبرة:

والهوسى فى توازنه الخاص، وعجزه عن استيعاب الطاقة النشطة، أو عن لضم خبرته فى منظومة قابلة للانتقال والتواصل، يكتفى بفرحة اليقين عن المسئول وغير القابل للاهتزاز من وجهة نظره، ويتمادى فى تعميق فرحته باعتباره ضالته التى وجدها والتى حل بها كل مشاكل التناقضات والحزن والحاجة والتوقع والعلاقة بالآخر ... إما بالانكار أو بالاحتواء، وتتوثق علاقته بالطبيعة وما بعدها:

(رفعت حبات المل

وتعانق ورق الأشجار

وسرت قطرات الحب ....

من طين الأرض إلى غصن الورده)

وهو فى هذه الفرحة الراقصة لا يميز بين ذاته وبين الكون كما ذكرنا، ويغلب عليه التفاؤل الإنكارى (وهو غير الاصرار التفاؤلى الذى وصفنا به الاكتئاب) فكل بهجته نابعة من إلغاء الجانب السئ من الحياة سواء فى داخل نفسه أم فى عالم الواقع، وهو لا يميز بين ذاته وبين الطبيعة، ولا بين كونه وكيانه وبين الأكوان الأكبر.

(وتفتحت الأزهار

فى داخل قلبي

فى قلب الكون

وارتفع الحاجز بين كيانى والأكوان العليا)

(١٣٠) بعدى الزمان والمكان عند الهوسي

حددت مفهوم الزمان قبلا من منطلق بيولوجى (نيورونى جزيئى معا) على أنه العلاقة التتبعية الترابطية بين حادثين، وفى خبرة الهوس، حيث يزداد الترابط **فجأة** ١٣ بحيث تزول الحدود بين الذوات من ناحية وبين الذات والكون من ناحية أخرى، يكاد يختفى تتابع المواضع (المكان) والأحداث (الزمان)، وبالتالى يصبح مفهوم الزمان وإدراكه كظاهرة "متلاحقة" ضعيفا للغاية، والزمان هنا إذا لا يتوقف مثلما تصور المكتئب (حاشية ٩٥) وإنما تتصادم مكوناته بحيث تصبح تواجدا مطلقا فى أن واحد، ويظهر بذلك مخرون الماضى، أنتوجينيا وفيلوجينيا، وكأنه وجود آنى، كما تصبح تركيبات الجزيئات المحتملة مستقبلا فى مدى الرؤية، وكأن أبعاد المستقبل أيضا قد استحضرت فى اللحظة الحاضرة

(أصبحت قديما حتى لا شئ قديم قبلي

وامتد وجودى فى آفاق المستقبل

دون نهاية)

وباختفاء إدراك الزمن (ماضيا ومستقبلا وتلاحقا) يصبح شعور الخلود أو العدم هو الأقرب إلى المعايشة المباشرة، ويزداد بذلك التناغم الذى يعبر عنه الهوسى أحيانا بالحب، أو الوجد، أو اليقين، أو الايمان، أو التوحد بالله وبالعالم وبالكل وبالكون ... الخ١٤ مع استعادة اليقين بالقدرة على الغوص إلى الأعماق وتخطى حواجز التاريخ.

(فعرفت الله

وعرفت الأصل وأصل الأصل

ملانى الحب حتى فاض بى الوجد

13- أكرر هنا أن ى أعرض لنوع واحد من الهوس، لأنه ف ى الأنواع الأخر ى قد يقل الترابط ولا يزيد، كما أؤكد أن أغلب هذه التغيرات الأصيلة تصف الهوس ف ى أول مراحله أساسا قبل أن يتشوه ف ى المراحل المتأخرة.

14- قد يستعمل المتصوفة نفس التعبير مع الفروق سالفة الذكر .

ورأيت العالم فى نفسي

وتوحدت مع الكل)

والشعور بالحب هنا هو شعور طفلى خاص غير مسئول، بعكس تعريف الحب الذى أقدمه فى مواضع أخرى، إلا أن أقرب الألفاظ للتعبير عن هذه المشاعر هو لفظ الحب بمعنى فيضان المشاعر الفطرية، ولكن اذا تذكرنا ما يحمل هذا المريض من إلغاء "للآخر" واستبداله بالمطلق الحقيقى أو المزعوم، لتبينا لماذا نحذر من الخلط بين استعمالات مثل هذه الألفاظ المختلفة.

(١٣١) مسار التطور الهوسى:

كما أن المكتئب فى بداية خبرته العنيفة لا يحتمل الوعى الموضوعى المتزايد بالتناقض داخله وخارجه، وسرعان ما تتطور الخبرة إلى تعريفات مختلفة كما ذكرنا، نجد أن الهوسى أيضا لا يحتمل استمرار الخبرة الأصيلة التى يتميز بها الطور الأول لهذا المرض من عمق وتناغم وفرحة ويقين وتوحد، وهذه هى مرحلة الخبرة المعاشة التى تعلن فرط الترابط واستعادة النشاط، وهى مرحلة معايشة لحدث بيولوجى كائن، وإذا لم يستوعب هذا الحدث كما ذكرنا فى إتجاه إيجابى، وهذا نادر فى الهوس (أندر منه فى الاكتئاب) فإن الفرد لا يستطيع أن يتحمل عمق الخبرة كما هى لأنها لا تستمر خبرة تناغمية توحدية فرحة، فهى تحمل مخاطر المجهول، ومخاطر الوحدة ومخاطر الاغتراب المضاعف، ومخاطر انمحاء الذات، فهذا النوع من الوجود خطر من كل جانب، وفى قمة فرحة المريض قد يدرك هذه الخطورة فيمتلئ رعبا، وكثيراً ما يتراوح المريض بين الاعتراف بها والشكوى منها وإنكارها، وحين يفقد الهوس سيطرته على هذه الخبرة يهتز كيانه ويرعب رعبا عميقا ومخلا، ومن هنا ينبغى أن نراجع إحصائيا ومن خلال فرض أشمل: كم من المرضى الهوسيين تتصف مشاعرهم بالفرح والجزل وكم منهم تتصف مشاعرهم بالرعب والشك، وكم منهم تتصف مشاعرهم بالهياج والغضب، الأمر الذى دفعنا إلى التصنيف الذى جاء فى أول الفصل، ولا يخفى أن التصنيف مهما تحددت معالمه فإنه إنما <u>يصف مراحل وتنويعات من المسار المرض لمرض ما، أو المسار المرضى العام كما سيتبين فى النهاية.</u>

وفى الخبرة الصوفية قد تحدث بعض المضاعفات لبعض المريدين الذين يسلكون الطريق بغير استعداد كاف، وما إن يمروا بخبرة "الكشف" ولا يتحملونها فيذيعونها أو يشوهونها حتى يصابوا بمضاعفات التعثر فى الطريق الصوفى مما يسميه الأطباء النفسيون أمراضا يضعون عليها الاسم المناسب حسب غلبة الأعراض فيها.

(١٣١) شك الهوسى:

وكما ظهر الرعب نتيجة للعجز عن السيطرة على الموقف واستيعاد النشاط الطارئ، يظهر الشك نتيجة للشعور بالنقص أمام هذا الفيض الغامر من المعرفة المفرطة التى لم يعد يغن فيها يقين أو صدق أو توحد، وتبدأ مشاعر التوجس تذكرنا بقرب موقف الهوسى من الموقف البارنوى، وإن كان الهوسى قد يتميز

بالتوجس التفاعلى نتيجة للإحباط أو لعدم تناسب قدرته مع خبرته الحدسية، فى حين يتميز البارنوى بسوء التأويل كحماية وقائية ابتداء فى مواجهة عالم عدوانى بالضرورة.

(١٣٢) بصيرة الهوسى المتأخرة:

ذكرنا فيما سبق كيف أن الهوسى فى بداية مرضه ينكر تماما ما أصابه هو المرض، بل ويعتبر حالة السواء التى كانت فيها سابقا هى المرض وأن ما طرأ عليه هو الشفاء، ولكن بعد ظهور الرعب والتوجس فى جوف المرح، يبدأ الهوسى فى الخوف من الجنون، وحقيقة خوف الهوسى أنه لا يخشى الجنون - لأنه حدث فعلا - ولكن هو يخشى الاعتراف به، أى إعلانه لنفسه ومن ثم التراجع عنه وتساؤله هنا

(هل هى شطحات الصوفية

أم ذهب العقل)

هو تساؤل دال على بداية البصيرة بشكل يتبنى نية نظر الآخرين ويستشعر مدى البعد عن الواقع الذى ذهب إليه.

(١٣٣) الانفصال (الروح والجسد)

من أكثر الأعراض تمييزا للهوس وهو ينتقل إلى مرحلة الانشقاق (الهوس الانشقاقى) (وللفصام أحيانا) عرض يحكى فيهالمريض (لا يشكو بل يحكى) انفصال روحه عن جسده، وكثيراً ما يعتبر الطبيب النفسى (والفاحص عامة) أن هذا وهم وهذا (ضلال)، بمعنى أنه اعتقاد خاطئ، ورغم أنه كذلك فى النهاية إلا أن ما يهمنا هنا هو ما وراء هذا الاعتقاد من خبرة معاشة، وتفسير ذلك سيكوباثولوجيا، إذ ينبغى أن نتكلم عن أصل المعتقد التركيبى • قبل أن ندمغه - كفكرة تحتمل الخطأ والصواب، وهذا الشعور (الذى قد يصير اعتقادا فيما بعد) إنما يشير إلى عدة احتمالات (معافى الأغلب):

أولا: أن الجسد باعتباره ذاتا قائمة Somatic Ego قد تعرض للانفصال عن ذات أخرى كانت ملتحمة معه، إذا فإن هذا العرض لا يعنى انفصال روح وهمية عن جسد عيانى، ولكنه يعنى انفصال ذات (وذوات) عن ذات أخرى، وذلك بما يقابل "ذات الجسد" باعتبارها تركيب فى المخ (ليس بالضرورة مرادف لصورة الجسم) ملتحم مع التراكيب الأخرى[15]

ثانيا: أن هذه الشكوى قد تعنى انفصال أى ذاتين انفصالا إجماليا كيانيا، لم يصل إلى التناثر، ولم تختلف إحداهما بالانشقاق الكامل، فيسمى المريض أحد هذين الكيانين الروح والآخر الجسد مع شعوره باختلال التلاحم الذى كان يشغل الجسد باعتباره الوسيلة التنفيذية لأى من هذه الذوات، وفى حالة السواء يكون تحت أمر وإذن ذات غالبة (نقطة الانبعاث المسيطرة) وبألفاظ أخرى فانه حين يحدث الانفصال فى نفس الوساد الشعورى Conscious Matrix فإن المريض قد يسقط أحد الكيانين على الجسد كما ذكرنا منتهزا

15- تحدث د. ر. لانج ف ى كتباه النفس المنقسمة Split Self عن ظاهرة النفس المفرغة من الجسد Disembodied Self وه ى تكاد تكون عكس انفصال الروح عن الجسد شكلا، إل ى أنهما ف ى النهاية واحد، والرأ ى أن ما وراءهم - عل ى الأقل - هو واحد فعلا

فرصة اختلال الامتلاء الذى يعانيه الجسد، ويعتبر الأخرى هى الروح التى انفصلت١٦، وبصفة عامة .. ومن خلال هذا التفسير، فإن ترجيح تعدد الدوات ثم تفككها وانشقاقها فى الذهان، تعود فتتأكد.

ثالثا: إن الذات الطفلية إذ تزيح الذات الوالدية وتنطلق لتعيد تنظيم التركيبات الأخرى فى تناغم مع الكون الأعظم، إنما تبتعد عن الواقع الملموس بما فى ذلك الجسد، ويكون أقرب تعبير عن هذه الظاهره هو "حكاية" انفصال الجسد عن الروح١٧

(وانتقلت روحى تسعي

لكن الجسد يقيدنى، وأنا عصفور شفاف نوراني أسبح فى ملكوت الله)

ومع انتقال المريض الهوسى من خبرة التناغم واليقين والمعرفة المباشرة

(كنت أعيش القمة)

إلى حيلة الانشقاق (بعمقه الذهانى) تختفى بصيرته التى أطلت فى المرحلة المتوسطة، ويرجح أن يتقمص الجانب غير الجسدى فى هذا الانشقاق الذى تم، ويبدأ فى رحلة أخرى من الانطلاق، ولكنه انطلاق منشق هذه المرة كما أوضحنا، وتبدأ حيلة الانكار فى مضاعفة الموقف، والمبدع (العالم خاصة) لا يمر بهذه النقلة أصلا، فى حين أن الصوفى قد يحكى عن خبرة مماثلة وكذلك الشاعر فى بعض الأحيان، لأن الخبرة الصوفية والفنية المجردة قد تحمل احتما الانشقاق ولو بدرجة طفيفة، أما الإبداع العلمى فهو لا يسمح بأى انشقاق إذ يستوعب العالم حدسه ويصيغه فى مسئولية فى الرموز القادرة على التوصيل، بحيث يسمح لها بالمراجعة والاختبار.

وبناء على هذا الانشقاق يتغير نوع الهوس، وتختلط فيه العدمية النابعة من فرط الإنكار حتى للجسد، بالتلوث الذى يظهر فى شكل سلوك أنانى مؤذ للمجتمع، كما أن هذا الانشقاق قد يصاحبه امتناع عن الأكل وعجز عن الجنس (على غير ما يبدو من ظاهر النشاط) والتغير هنا (بالاضافة إلى ما ذكرنا من إلغاء الاحتياج وإلغاء الآخر، ثم التوحد بالكون ص) هو إنكار الجسد أصلا.

(لن أسمح أن يمنع تجوالى هذا الثقل الجسدى

ما أغنانى عن هذا اللحم وهذا العظم

وعن الفعل الحيوانى الأدنى)

(١٣٤) الهوس والنوم:

يعانى الهوس عادة من أرق مفرط حتى انعدام النوم ويفسر ذلك:

16- قد يمر الصوف ى (الحقيق ى أو المنشق) بمثل هذه الخبرة ويسم ى بعضهم من أهل الخطوة وعند نقطة الانفصال تتفق الظاهرتين أما ما يترتب عل ى ذلك وتفسيره فليس هنا مجال شرحه حاليا .

17- أحلام الطيران هى التعبى الفسيولوجى العادى لهذه الظاهرة، وتفسيرها بهذه الصورة تفسير دون الحاجة إلى اللجوء إلى رموز جنسية خاصة كما حاول فرويد

أولا: لما كان النوم وظيفة أساسية وهى إتاحة النبط البسطى Unfolcling pulsation بصورة منتظمة، وذلك فى صورة أحلام (نشاط المخ الأقدم واستيعاب الخبرات والذوات المنطبعة)، ولما كان الهوس يقوم بنفس الدور إذ يسمح بانطلاق نشاط المخ الأقدم فى الوساد الشعورى مباشرة، فإن الهوسى قد يبدو - إذا - غير محتاج للنوم أصلا.

ثانيا: يعتبر النوم تغيرا نوعيا فى حالة الوعى، ولما كان الهوسى حريصا على أن يحافظ على نوع وعيه الجديد (الغالب فيه النشاط الطفلى البدائى) فإنه يخشى أن ينام فتسلب منه مكاسبه التى حصل عليها بالمرض.

ثالثا: لما كان الزمن قد تكثف لدى الهوس حتى التوقف بما يشعره بالخلود، فإن النوم بدلالته التتابعية بين النوم واليقظة يصبح تهديدا للشعور بالخلود الذى يعيش فيه الهوسى ومن هنا يصبح النوم مرفوضا مع رفض سجن الزمن، تمسكا بسحر الخلود

(حتى النوم، هو موت أصغر

وأنا فى جنه خلد لا يفنى)

(١٣٥) رحلة العودة فى الهوس:

حين يتغلغل المرض، ولا يطيق الهوسى معايشة خبرة اليقين وفرط الترابط، ثم يلجأ إلى الانشقاق فلا يعيده إلى أى درجة محتملة من التوازن، ولا يستطيع مواصلة مواجهة اللازمن، واللاحدود، واللاتناوب، تبدأ رحلة التراجع المرغمة نسبيا، ونرجع هنا ثانية إلى الفرق بين الصوفى و الهوسى، ففى حين يرجع الصوفى باخيار واع وبإرادة شبه متكاملة من خبرة الكشف، يضطهر الهوسى إلى العودة اضطرارا هذا إذا لم تتطور الحالة أكبر من ذلك إلى مزيد من التلوث والازمان فيختلف نوع الهوس، أو اذا لم يواصل سعيه المنهك فى نشاطه وأرقه وقلقه حتى الموت.

وأخطر ما يواجه الهوسى - سيكوباثولوجيا - من نتاج تركيبه المرضى سواء فى مرحلة الاحتواء وفرط الترابط، أم فى مرحلة الانشقاق والتلوث، هو الوحدة واختفاء الآخر وبالتالى حرمانه من التغذية المرتجعة Feedback، وعلاقات الهوس قد تبدو لأول وهلة وكأنه يتفاعل مع الناس، ولكن ما أشرنا إليه من احتوائهم، والعلو عليهم ثم الانشقاق بعيدا عن الاحتكاك بهم وإنكارهم وإنكار الحاجة إليهم كل ذلك يدل على وحدة قصوى لا تقل عن وحدة الفصامى وإن اختلفت مظاهرها فى كل حال، ويشير وجه الشبه هذا إلى أن الموقف الهوسى (وهو موقف مساعد كما ذكرنا) يقترب من الموقف الفصامى أكثر من الموقف البارنوى الذى يحتفظ بعلاقته بالآخر من خلال أوهام الكر والفر، وإلغاء (الآخر) عند الهوسى كما أشرنا جزئيا يعفيه من مسئولى التعامل معه بما يحمل من مخاطر الترك والرفض وتحمل التناقض، وإذا كان الهوس هو حل مرض للاكتئاب، وكان الاكتئاب هو إصرار على علاقة فى درجة من الموضوعية والألم

ومواجهة التناقض فى العلاقة بالعالم الخارجى والآخر، فإن الهوس هو تجنب كل هذا الذى أثار مشاعر الاكتئاب لدرجة لم تحتمل.

وفى رحلة العودة يبدأ الهوسى فى إدراك المسافة بين ما عايشه وتصوره وأمل فيه بداية خبرته الهروبية الاحتوائية، وبين حاجته الانسانية وقصوره الحيوى، فبعد أن كانت فرحته "بصفاء القلب وانطلاق الانسان الآخر يعزق موسيقى الحرية فى ملكوت الله" يعود يتساءل لماذا؟ وماذا كسب هو كإنسان محدود من كل ذلك؟

(لم دار الكون كأنى مركزه الأوحد؟
لم أشرق نورى فى نورك
فانطمس العالم إلان
وانغمست ذاتى فى ذاتك
فحويت العالم والناس)

وفرق بين أن يتوحد الهوسى فى أول مراحل رحلته مع الكون الأعظم والله (وتفتحت الأزهار، فى داخل قلبى فى قلب الكون)، (ورأيت نفسى وتوحدت مع الكل) وأخيرا (أحسست بنور الله كجزء منى) وبين أن يذوب هو فى ما حوله حتى يتلاشى (أشرق نورى فى نورك)، و(وانغمست ذاتى فى ذاتك)، وهنا تظهر الخدعه التى حاول أن يحل بها مشكلة عدم تحمله معايشة الآخر باختلافه وتناقضه بأن يحتويه فيما يحتوى من عوالم، وإذا به ينمحى هو وتذوب ذاته فى كل شئ، وإذ يدرك ذلك جزئيا، وتمتد عنده مشاعر الوحدة بمعناها المر المواتى القاسى.

(١٣٦) الخلود والموت عند الهوسى:

وإذ يشعر[18] الهوسى أنه تخطى حاجز الزمن، أولا بإلغائه .. ثم بعد ذلك فى تخطى اللحظة الراهنة - بما تحمل من أعباء وتهديد - بخطى عملاقة فى آفاق المستقبل، فإنه يشعر فى رحلة العودة بانفصاله عن عصره.

(إنسان الحلم .. أنا؟
إنسان الغد؟)

وهو يتساءل مستنكر هذه المرة، بعكس ذلك الزهور الذى كان يصيح به فى أول مراحل الهوس (وامتد وجودى فى آفاق المستقبل، دون نهاية) .. والاستنكار يأتى من بداية مواجهته بنتائج هذه القفزة العملاقة التى حرمته من تواضع إنسانيته، ومن ضرورة إرتوائه بالآخر، واحتمال تحقيق ذلك ولو جزئيا، فمواجهته فى رحلة العودة بالوحدة هى مواجهة مكثفة وحادة ومتحدية

18- قد ينفع ان أكرر هنا أنى حين أقول "يشعر" لا أعنى بالضرورة أن ذلك يحدث فى دائرة الوعى، فإن لغة السيكوباثولوجى تعنى أيضا ما تحت الشعور وما هو أعمق من ذلك فى طبقات اللاشعور.

(لكنى وحدى، وحدى، وحدى حتى الموت)

وتبدأ حسابات المراجعة، ماذا يفيده هو إذا أصبح يعيش "الآن" بمواصفات الغد (أو مواصفات حلم المستقبل) إذا كان لا يزال لا يملك إلا قدرات اليوم وإذا كان ذلك سيحرمه من التواصل ومن التغذية المرتجعة ومن وجود الآخرين، تلك التغذية التى تحفظ توازنه وتسمح له بالاستمرار والنمو بالمقاييس الانسانية؟

وهكذا تفرض الوحدة نفسها على الهوس وتكشف عن وجهها معلنة صريحة وتصبح عبئا لا يتحتمله المريض فى عجزه الذى تأكد وتعمق بالانهاك واللافاعلية، ومن فرط قسوة الوحدة يلوح الموت وكأنه حل آمل، ولكن أمانى الموت ليست هى الأفكار أو الميول الانتحارية، فأمنية الموت هى سلبية الاختفاء والاعتماد.

أما قرار الانتحار فهو قرار وفعل يحمل معالم القتل والإصرار، والهوسى لا ينتحر لا فى قمة احتوائه ولا فى مواجهته وحدته، وإنما يصبح الانتحار مهددا قرب نهاية رحلة العودة وهو يقترب من مرحلة الاكتئاب بما يعنيه "حتم" معايشة الآخر، بما لا يطبقه الهوس.

كما أن هناك بعد آخر يبعد الموت والانتحار عن الهوسى فى قمة هوسه وبداية تراجعه، وهو أنه قد تخطى الزمن وألغاه حتى أصبح لا يقبل النوم باعتباره موت أصغر، وهو فى جنه خلد لا يغنى. أى أنه يعيش الخلود كما صوره وتصوره، والخلود لا يسرى عليه الموت أصلا.

ولكن فى رحلة العودة يكاد يكتشف الهوس فى عمق بحثه عن مهرب من مصيدة الوحدة أن الخلود هو هو الموت بالنسبة للانسان الذى تتحدد إنسانيته أساسا بالسعى المستمر إلى أيهما (أو كليهما: الواحد تلو الآخر)

(أين الموت؟

أم أن خلودى هو عين الموت؟)

(١٣٧) صرخة النجدة:

وإذ يكتشف الهوسى خدعة الخلود المزعوم وتكافئه مع الموت، وإذ تحتد عنده رؤية الوحدة بحجمها البشع، وما تفرضه من جفاف يهدد بالموت النفسى عطشا لقطرات الاحتكاك البشرى، وإذ تفشل علاقاته البراقة السطحية التى ليس فيها "آخر" أصلا بالمعنى الذهابى الإيابى، ومعنى الرسالة والتغذية المرتجعة، إذ يحدث كل ذلك ويدركه الهوس جزئيا تتصاعد صرخات النجدة قبل الضياع الكامل أو التناثر

(هل يشعر بى أحدكم؟

أحد الناس الناس

أم ألقى حتفى فى صحراء الوحدة؟

لا أحد هناك

لا صوت ولا همس، ولا نبض، ولا رؤية

الوحدة! يا مر الوحدة،

الوحدة موت .. حتى لو كنت إله)

ويتميز الهوسى إذا عن الفصامى فى وحدتهما، إذ يعيش هذا الأخير وحدته باستسلام مطلق، وحتى صيحاته واستغاثاته هى صيحات يائسة فيها إصرار مسبق على عدم الحصول على إجابة أو استجابة (وصرخت بأعلى صمتى حاشية ١٦)، إذا .. فبالرغم من تساوى الفصامى والهوسى فى عمق وحدتهما، إلا أن الأول (الفصامى) يستسلم للوحدة صراحة ومباشرة، ولا يعيها إلا كحتم لا بديل له، ولا يمارسها مباشرة وإنما تظهر آثارها تناثرا واغترابا، أما الهوسى فهو يعيش وحدته كحل مؤقت سرعان ما يتبين فشله وعجزه، وفى صيحته هنا يصيح للنجدة وليس لتبرير الاستسلام، ولكنه - بعكس المكتئب - لا يقدر على دفع ثمن اللا وحدة بتحمل التناقض فى العالم ونفسه والآخر، فهو يصيح ويضع شروطه فى نفس الوقت، وفى رحلة العودة كما يبدو نلاحظ أننا نقترب من سيكوباثولوجية الاكتئاب الذى أشرنا إلى أنه كان كامنا فى طيات الهوس.

(١٣٨) اختلاط المشاعر فى رحلة العودة:

إن التعبير المسطح عن مشاعر الهوسى بأنه فرح أو غاضب أو جزل فى محاولة شرح وتعداد الأعراض الظاهرة، ويتخطى حقيقة عمق مشاعر الهوس بوجه خاص، وإذا كان الهوسى قد نجح فى أول الأمر فى إخفاء حقيقة الاكتئاب ومقوماته بانكار الألم، واحتواء الآخر، فانه فى رحلة عودته يواجه مرة ثانية تلك المشاعر وغيرها مما كان قد طرحها جنبا، وعواطفه فى هذه المرحلة تختلط وتتنافر وتتبادل بسرعة وتتذبذب بما يدل على عجز الهوسى عن مواجهة متطلبات عودته، وهذه المرحلة من أخطر المراحل التى يمر بها الهوس من حيث احتمال الانتحار أو التناثر.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن المرض النفسى - والذهان خاصة - هو إعادة ولادة مجهضة ومشوهة وأسمينا ذلك (السيكوباثوجينى) والهوس فى رحلة مرضه كلها كان قد تراجع عن عالم الواقع ولم ينكمش فى داخل الرحم عزلة وتناثرا (الفصامى) كما لم يقف عند مواجهة العالم الخارجى بالكر والفر (البارنوى) .. وهو بداهة لم يخط الخطوة الأخيرة إلى عالم الاكتئاب لأن هذا العالم هو الذى لم يحتمله أصلا، بل اتخذ خطوة إلى الجنب ليستريح فى هذا الموقف المساعد Accessory position كما ذكرنا، ذلك الموقف الذى جمع بين الإلغاء الشيزويدى، والتوجس البارنوى، ولكن فى رحلة عودته يمر بخبرة خطيرة حين يواجه عودته إلى المسار النموى المعتاد: "الماكروجيني" (بديلا عن السيكوباثوجينى) وكأن الماكروجينى هنا لا يسير بالسرعة النموية المألوفة، بل يقترب من الذبذبات الميكروجينية (مراحل تطور الفكرة) - فالتبادل هنا سريع بين مرحلة نمو وأخرى بشكل متلاحق يدل على عجز الهوسى عن العودة إلى السواء مارا بالاكتئاب، وفى نفس الوقت عجزه عن مزيد من التدهور.

فحتم "الحب" هنا يرجع إلى أمل الاعتماد المطلق (شيزويدى) من ناحية واحتمال العلاقة بالآخر (اكتئاب) من ناحية أخرى، ولكنه سرعان ما يقفز إلى التراجع بالشك (بارانوى) وعدم الأمان، ولا يستقر على أى من هذه المشاعر وإلا لاستبدل بأى من الزملات المقابلة المذكورة.

والطبيب والفاحص الذى يصحب الهوس فى رحلة العودة باقتراب أمين، سوف يشعر بصعوبة هذه المرحلة وثقلها بحيث لا يسمح للمريض - فى العلاج المكثف الهادف - أن يقفز سرا إلى الحيل العصابية مباشرة، حتى لا يؤجل المعركة إلى جولة قادمة فهذه الدراسة إذ تحاول أن تعرض بالرؤية المكبرة معنى كل "زملة" فى كل مرحلة من تطورها إنما تهدف فى النهاية لأن يكون العلاج محاولة تعديل المسار بالعمق والفهم والاستجابة للاحتياجات المرحلية بالجرعة المناسبة.

والملاحظ أن الهوسى قد ينام ويستيقظ "فجأة" وقد انتهت النوبة تماما، وهذه الملاحظة الكلينيكية قد تشكك فى رحلة العودة التى نشرحها هنا بالمجهر، إلا أن تفسير هذه العودة المفاجئة على المستوى العصبى هو استبدال نقطة الانبعاث المرضية والدالة على طغيان المخ البدائى بنقطة الانبعاث العادية، وفى هذه الحالة قد تتم رحلة العودة قبل ذلك بأيام دون ملاحظة المعالج أو الفاحص وتختتم فى الحلم فجأة، والعلاقة بين التغير التركيبى النيورونى الجزيئى الكيانى الدينامى تراكميا وتدريجيا، وبين التحولات النوعية الفجائية فى السلوك الظاهر، ليست وحيدة نوعها فى علاقة الكم بالكيف سواء فى قوانين الطبيعة أم فى قوانين التطور الديالكتيكية[19] ولا يبدو هذا التناقض إلا بالنظرة الأحادية المسطحة.

وأنا أصف هنا استثناء نادر المسار الهوس فى "رحلة العودة" بالرؤية المجهرية على الطريق التطورى السليم، لأن الهوس قد ينتهى عادة بمضاعفات مشوهة أو باجهاض مؤجل مثلما هو الحال فيما أسميته بالهوس الانفصامى المتفترIntermittent schizotypal Mania الذى يترك ندبا وتليفات فى الشخصية مثل الفصام، ولكن بدرجة أقل .. أما هذا النوع محل هذه الدراسة فهو يشمل بعض النبضات العظيمة Mega pulsation التى قد تنتهى رغم طبيعتها المرضية - فى ظروف مناسبة .. أو علاج ملائم - باستمرار المسيرة النموية إلى التكامل.

(١٣٩) وعى الهوسى فى رحلة العودة.

شرحت فى ما سبق ما أسمته "الوعى الذهاني"، ثم عدت وأكدت وعى الاكتئابى الحاد بوجه خاص وهو يزداد موضوعية لدرجة لا يعود يحتملها، أما الهوسى فإنه يتغير وعيه فى مراحل مختلفة، ففى بداية الأمر (١) يحتد وعيه بصورة واضحة، ولكن من خلال فرط الترابط فيتخطى الوعى بالمجال الموضوعى الإنسانى المحيط قفزا إلى الوعى بالكون الأعظم مباشرة أو العمق الفيلوجينى الأبعد، وهكذا .، ويعتبر ذلك هرب من الوعى باللحظة، أو حتى بالتطور الفردى (٢) ثم يقل وعيه بشكل ملحوظ حتى بهذا البعد الكونى

19 - The relation between the gradual cumulative change occurring at neuronal, molecular, existential and dynamic levels, and the sudden qualitative change in overt behaviour is not unique it is the same quantity-quality relation in physical laws as well as in dialectical evolutionary laws.

وذلك من خلال الإنكار والإنشقاق بحيث يتغير نوعيا إلى تصنيف آخر من الوعى فيه درجة من العمى تدرجه فى مرتبة أقل من العصابى بشكل ملحوظ (٣) ويرجع وعيه فى رحلة العودة إلى حدة مميزة، بل وفائقة بالقياس إلى مستوى الوعى العادى للمريض قبل ذلك، وهذا الوعى الذى يقترب قليلا مما وصفناه فى وعى الاكتئاب المتزايد، يتميز بأنه لا يتخطى وعيه بذاته الانسانية وعجزها أو باحتياجاته الدافعية "للآخر" وضرورتها، وإن كان يتميز أيضا عن وعى المكتئب بتلك الخبرة الكونية التى مر بها والتى لا يلغيها أو يخفيها (إلا فى حالات المضاعفات كما ذكرنا) فالوعى هنا يقترب من الموضوعية الواقعية البسيطة، دون التخلى عن مكتسباته التى عاشها فى بداية مرحلة الهوس ولكنه لم يعد - إذ يدخل ثانية فى ثوبه الانسانى - يحتمل كل ذلك معا.

(ماذا ينقذنى من نفسي

من رؤية سرى الأعظم:

سر الله وسر الكون، وسر وجودي

سر الزمن، وسر الموت، وسر الكلمة)

ولو استطاع الهوسى أن يرجع يرتدى ثوبه الانسانى دون إلغاء "كل" الخبرة التى مر بها، فلا شك فى أنه سيعود إلى موقف أفضل حتى مما كان قبل المرض أصلا، ذلك أن ترابطاته النيورونية والجزئية العاملة "معا" فى الوساد الشعورى العادى سوف تزداد نسبيا.

فالهوس - كما قدمته هنا باحتمال مساره الايجابي- هو عينه مجسدة ومكثفة لما أردت توصيله من خلال هذه الدراسة من أن هذا الشكل من المرض النفسى إنما يمثل جرعة رؤية وقفزة تطور أكبر من استيعاب الانسان الفرد فى مرحلة بذاتها، كما أنه انتشار للرؤية (بمعنى امتداد الترابط أيضا) بدرجة أشمل من احتمال اللحظة، وإذا كانت جرعة رؤية المكتئب قد تسببت فى ذلك الألم المر الذى وصل إلى درجة التعجيز، فإن إنكار الهوسى لجانب من الرؤية لا يلبث أن يتراجع نسبيا فيبقى الجانب الذى امتد عبر الزمن تاريخا ومستقبلا، وهو الجانب اليقينى الذى يشعر معه الفرد أنه عرف فجأة أسرارا كانت مغلقة عليه (الزمن - الموت - الكلمة - الخلود - إلخ) تلك المعرفة التى تتناسب ضمنا مع درجة انتشار الترابط بين أغلب خلايا المخ معا بحيث يختفى المجهول الناتج عن ضيق مجال الترابط فى الأحوال العادية.

ومعرفة "السر" = كما أشرنا بلغجة أخرى فى مواضع أخرى - نتيجة لامتداد مساحة ومجال الرابط، قد يكون خطوة مشتركة بين المتصوف والمبدع والهوسى إلا أن النتاج يختلف فى كل حالة كما أسلفنا، وقد تكون رحلة عودة الهوس كما بيناها هنا، هى محالة لتغيير اتجاه المسار السلبى إلى نوعية فيها بعض الايجابية البناءة.

(١٤٠) استعادة أبعاد الذات:

تحدثنا فيما سبق عما يحدث بالنسبة لحدود الذات وامتدادها Expansion عند الهوسى، وفى رحلة العودة لابد أن نتوقع أنها تعود إلى الانكماش حتى المدى السابق - أو أكبر قليلا إن كان النتاج إيجابيا كما نحاول أن نعرضه (ما لم تحدث المضاعفات المشار إليها)٢٠ - وقد آن الأوان أن نترجم "الذات" إلى لغة عصبية بيولوجية، حتى نؤكد ماذا نعنى بأبعاد الذات: فقدها وامتدادها وعودتها .. الخ

"فالذات" من منطلق بيولوجى عصبى إنما تعنى "قطاع النيورونات المترابطة المتحكم فى بقية النيورونات الكامنة، وهو القطاع الذى يحتل الوساد الشعورى السائد فى مرحلة ما من التطور والنمو، والذى يعمل فى مجموعة معا"٢١

(ويقابل هذا التعريف ما يوازيه داخل الخلية بالنسبة لتنظيمات الجزيئات العظيمة)

وأبعاد الذات إذا من هذا المنطلق هى تحديد هذا القطاع فى علاقته ببقية التركيب، وانتشار أبعادها يعنى امتداد "كم" الترابط، وشفافيتها يعنى ضعف تحديده وتحكمه، وفقدها يعنى تداخلها مع غيرها دون رابط محكم بتناوب، وهكذا، ومحاولة الهوسى تحديد أبعاد ذاته يمكن ترجمتها إلى محاولة تنظيم القطاع المميز الذى ينبغى أن يحتل الوساد الشعورى فى تحكم متمكن، فإذا تغير حجم هذا القطاع اتساعا فى رحلة العودة فالنتاج هو النمو٢٢ بالمعنى الذى أعينه.

(١٤١) التراجع مع الاستيعاب:

يتراجع الهوسى من خلال وعيه الجديد عن التوحد مع الله، ومع الكون الأعظم، ومع "الكل" ... الخ، (هذا التوحد المقابل لفرط الترابط، حتى توحد التناغم بين الكون الأوسط (الانسان) والكون الأعظم)، ويبدأ تنظيم بيته (مخه) بحيث تنفصل الذات (بالمعنى السابق) عن بقية الترابطات التى تعود لتكمن فى اتساق مع القطاع (المستوى) المتحكم ..، ومن أقرب اللغات المستعملة فى ترجمة هذه التطورات هى اللغة الايمانية والتصوفية .. الخ، وبديهى - كما سبق أن أكدنا - أنه لابد من التفرقة بين الخبرة الهوسية وبين المعتقدات الدينية والإيمانية المقابلة، حيث يتحتم أن تكون نتاج الخبرة الإيمانية٢٣ هى الاستيعاب والتكامل ومواصلة السعى إلى الله، فى حين أن الخبرة الهوسية قد يطرأ عليها ما يشوهها بطبيعتها الرفضية، وفى الممارسة الاكلينيكية نقابل كثيرين ممن مروا بخبرة هوسية وخرجوا منها بيقين إيمانى إيجابى بقى معهم لفترة قد تصل إلى نهاية العمر، ومن علامات هذا المسار الايجابى (مع اختلاف اللغات المستعملة)

20- أدرك تماما ما أورده من 'تكرار'، ولكنى عدلت عن إلغائه رغبة منى فى تأكيد معان بذاتها، واحتراما منى لجدة اللغة التى أتحدث بها .. فعذرا.

21 -The self, from a biological and neurological point of view, is the sector of neurones which are associatively controlling the rest of the other dormant (potential) neuronal masses at a certain stage of growth. These neurones constituting this sector are active simultaneously at a time. This definition may have its intracellular correspondence in terms of macromolecular organizations.

22- بديهى أن هذه اللغة قد تبدو غريبة على غى العضويين تماما، وتبدو فى نفس الوقت مرفوضة من علماء الأعصاب، فالفريق الأول لا يستطيع أن يحبس فكره فى مفاهيم عصبية محددة، والفريق الثانى يصر على استعمال أبجدية التحديد Locality بنفس الطريقة التى يفسر بها شل العضلة الفلانية إلا أن الحديث هنا بلغة 'المدى والنسق Extont & Organization' وهى لغة جديدة تتعلق بالفرض المطروح، وقد أشرت إليها فى كتابى 'مقدمة فى العلاج النفسي' ص ٢١٧ وما بعدها.

23- حين أتكلم عن الخبرة الإيمانية إنما أعنى الحقيقة الجوهرية فى إيجابيات السعى إلى الله والتكامل دون الخلط وبين ذلك وبين مظاهر السلوك وخطوات الطريق مما هو خارج عن نطاق هذه الدراسة العلمية - مرحليا.

أن تتحدد أبعاد الذات فى نفس الوقت الذى يتحدد فيه مسارها إلى مزيد من التكامل (والسعى إلى وجه الله)، لا أن تنفصل كالجسم الغريب الدائر فى فلكه الخاص هربا ودفاعا مرة ثانية؛ والمناجاة هنا بهذه اللغة الشائعة لها دلالتها الأكيدة على مفهوم الانسان ككائن منفصل مؤقتآ يسعى إلى الاتصال والتواصل بأصله بزيادة الترابط باستمراره دون تخطى الواقع الأقرب فالذى يليه وهكذا.

(يارب الكون:

قد بهرتنى طلعتك الحلوة

وغشى نورك عينى

خذ بيدى وارحم ضعفي

واجعل دورى أن أسهم فى السعى إليه

لا أن أصبح ذاتك)

إذا فالهوس بهذه الصورة هو قفزة تخطت الزمن وتعجلت الوصول إلى التكامل بفرط الترابط مما لا يتناسب مع سمات الانسان الحالية ومسار نموه التدريجى.

(١٤٢) عودة الاعتراف بالضعف والحاجة إلى الناس:

والسبيل العملى والفعلى لتحديد أبعاد الذات (تميز القطاع النيورونى الجزيئى الفاعل) لا يأتى بالتمنيات أو بالرؤية، وحين نقول أن الهوس يعود يحاول أن يحدد أبعاد ذاته لا نعنى - بداهة - أن ذلك حديث أو إرادة كما أسلفنا، بل هو تقريب لفظى لمسار تطور المرض فى هذه المرحلة ..، إذا فلابد من خطوات محددة تسهم فى تحديد هذا المطلب، والمسار - كما يظهر فى العلاج النفسى المتصل مباشرة بهذا التنظير - هو العلاقة البناءة بالآخر (الناس) من واقع الرسالة والعائد ..

(التغدية المرتجعة)، فمن ألزم مقومات النمو البشرى - بل ألزمها إطلاقا - هو الواقع البشرى الحى . كل من جانب، وقبل ذلك كأفراد ذوى أبعاد محددة متميزة، ومن خلال الاحتكاك بهم تدريجيا وتصاعديا يمكن للمسيرة أن تتصاعد فى سبيلها السليم من الفرد إلى الأقربين إلى مجموع الناس إلى العقل الجماعى إلى الكون الأكبر إلى الكون المطلق .. بهذا الترتيب دون قفز أو تخطى (بما يقابله من اتساع دوائر الوعى تدريجيا بما يقابلها بدورها من اتساع مخروط (قطاع) الترابط فى المخ والخلية.

والتواصل الإيجابى بين الناس هو تبادل الألفاظ كما ذكرنا، ولا حتى هو مجرد استيعاب المعانى، وإنما هو جماع بيولوجى ٢٤ Biological Intercourse وهذا الجماع البيولوجى يتم على محاور متعددة منها اللفظى Verbal واللالفظى Non verbal وما جاور الألفاظ Paraverbal وربما يثبت بعمق أكبر

24- استعمل إريك بيرن تعبير جماع اجتماعى Social Intercourse ليصف به الهدهدات Strokes اللازمة للنمو والتوازن، وإن كنت قد استعرت منه التعبير فهى استعارة مؤقتة لشعور بغرابة الاستعارة على الأذن العربية، - وسوف أرجع إلى تفاصيلها فى رحلة التكامل فى الفصل العاشر وما بعده.

بوسائل أحدث وأدق أن هذا الجماع يتم عبر موجات غير قابلة للقياس حاليا[25] والطريق إلى الناس ليس بديلا عن الطريق إلى الكون الأعظم، بل هو السبيل إليه بكل اللغات المتاحة (الدينية والمذهبية والعلمية المتطورة)

(يارب الناس

من لى بالناس

بالكلمة - وبدون كلام

شدنى الناس إلى الناس)

(١٤٣) العودة إلى الواقع:

وبالرغم من إدراك كل هذا الفشل، واليقين الجديد - فى هذه الصورة بضرورة العودة إلى الناس والواقع، فإن الهوسى يدرك أن البديل المطروح هو بديل صعب بقدر صعوبة تجاوز التناقض (الأمر الذى شرحناه تفصيلا فى الاكتئاب أختلفت فيها التفسيرات، ومن أقربها أن الهوس يتأسف (ويتزحم) على فترة المرح والانطلاق التى عاشها، أى أنه يودعها بالأسى المناسب، وهذا فى رأيى ومن خبرتى - تفسير سطحى تماما، لأن الفترة المرحة المزعومة ليست شيئا بكل هذه الروعة التى تستدعى الأسف عليها، وقد أظهرنا كيف أنها تحمل فى عمقها مرارة الاكتئاب مرة، وكيف تتناوب مع الشك والخوف بشكل مفزع، أما التفسير الذى أطرحه فهو أن الاكتئاب بوصفه مرحلة أرقى وأكثر إنسانية وارتباطا بالواقع هو الخطوة الطبيعية فى رحلة العودة وإعادة إدراك الواقع بحجمه

(لمست قدماى الأرض

يا ثقل الجذب إلى الطين)

(١٤٤) العودة إلى حظيرة الزمن:

قد يدرك الهوسى صراحة - أو يقبع فى عمق وجوده - أنه كان قد تخطى حاجز الزمن، فيحاول الدخول مرة ثانية إلى التزام تتابع الأحداث وتناوبها وسرعتها

(قد عشت حياة اليوم الثامن

لكن الأسبوع له أيام سبعة)

وهذا التصوير كجزء من رحلة العودة يذكرنا بأن ما نعرضه هنا ليس المسار المألوف لرحلة الهوس، ولكنه المسار المأمول كما ذكرنا، وهو يحدث بشكل نادر، ووظيفة تقديم هذا العلم، (ومن بعده طبيعة العلاج) هو الزيادة التدريجية فى نسبة هذه الندرة.

(١٤٥) الولاف الواقعى المأمول:

25- المبالغة فى مثل هذا التصور أوقع 'ويلهلم رايخ' فى ما أدرى بعقله وحياته معا، إذ تعجل تطبيق حدسه العلمى الذى لا جدال فيه بوسائل عصره العاجزة مما أدى إلى ما أدى إليه من قصة 'غاز الأرجون' والأشعة إياها.

ولعل أعظم نتاج إيجابى لهذه الخبرة كما قدمناها هو الوصول إلى هذا الولاف الذى يجمع بين السير على أرض الواقع واحترام المنطق العام مع تقبل ذلك كبداية ومنطلق متلاحق فى إيقاع تدريجى مثابر يستوعب الخبرة النبضية لمسار النمو استيعابا إيجابيا باستمرار، ومن علامات هذا الولاف: القدرة على التوفيق بين محدودية دور الفرد البشرى فى نفس الوقت الذى لا يتخلى فيه عن سعيه المتواصل إلى المطلق من خلال الفعل اليومى واللغة العادية

(فلأهبط بين الناس

أتقن دورى المحدود الرائع

......

......

وتصير الأحلام حقيقة

ويسير الشعر على أرجل)

وقد ذكرنا صعوبة علاقة المكتئب بالكلمة بقدر تقديسه لمعناها والتزامه بفعلها حتى التعجيز، وهنا مرحلة بعد ذلك ولكنها ليست هوسا كما أسلفنا، بل إنها النتاج الايجابى لكل من الهوس ثم الاكتئاب كخطوة وسطى، فالهوسى وهو يعود إلى الواقع ويمر بمرحلة الاكتئاب لا يقف عند تصادم المتناقضات، وتحدى الكلمات بل يتخطاها إلى تحمل الغموض وتقبل التعارض وإعادة توجيه التضاد إلى الولاف الأعلى بقدر ما يستطيع أن ينظم إيقاع الفعل اليومى فى إتصاله بالبعد المطلق، فهذا الجزء من الدراسة ليس تصويرا لأعراض الهوس، بل هو تصوير للحل النادر بعد الهوس، بل وبعد الاكتئاب المؤقت، وكأنى أريد أن أقول أن الهوس فى مرحلة عجزه وانهياره إذ لم يستطع أن يتحمل وطأة التناقض وحدة الرؤية فى مرحلة الاكتئاب لقد انسحب إلى هذا الحل السلبى، ولكنه فى عودته وبعد أن استوعب خبرة فرط الترابط وصدق التناغم مع كون أكبر، عاد يواجه الاكتئاب بصعوبته ليتخطاه إلى مواصلة التطور دون انكار أو تشنج متعجل

(لنضيف الحلقة والحلقة

فى تلك السلسلة الحلوة)

(١٤٦) التفاؤل الواقعى:

وإذتنتهى هذه الخبرة إيجابيا إلى أرض الواقع وتتخطى (بل أفضل القول: تخترق) الاكتئاب المؤقت (يا ثقل الجذب إلى الطين) دون أن تلغى كل آثار الرؤية الواعية الأعمق، يغمر التفاؤل الواقعى كل شئ، وهذا التفاؤل يفوق ما أشرنا إليه من تفاؤل وإصرار المكتئب، فهو الخطوة الإيجابية التالية حيث ترى "كل" الأشياء بما تحمل من ألم ومرارة، وربما تفاهة، ترى مهمة فى تكامل المسيرة وصناعة الولاف.

(ما أحلى كل الأشياء

كل الأشياء بلا استثناء

ما أجمل صوت بكاء الطفل

بل صوت نقيق الضفدع

بل صوت الصنبور التالف)

وفى النهاية نلاحظ فى هذه المسيرة فى الفصلين الأخيرين علاقة أخرى بين الهوس والاكتئاب إذا ما نظرنا إلى الجانب الايجابى لمسيرتهما، ونوجز هذه العلاقة فى القول "أن الهوس ليس نقيض الاكتئاب أو عمق الاكتئاب أو العكس، ولكنه أيضا - إذا ما هيئ له مسارا إيجابيا، يمكن أن يكون خطوة تراجعية لاعادة التنظيم والاستيعاب مما يسمح باختراق الاكتئاب إلى ما بعده من احتمال تكامل نسبى، وكأنه مثل حركة اللولب التى تفسر أى نكوص بنائى تكيفى "خطوة للخلف وخطوتين للأمام" على طول طريق النمو".

وبديهى أن هذا ليس هو الحال إطلاقا إذا ما اختلف المسار فى الحالتين بالاجهاض أو التشويه.

خلاصة وتعقيب

١ - إن الشائع عن مرض الهوس بما تصوره الصورة الاكلينيكية الغالبة، إنما يشمل تصنيفات متعددة لابد من تمييزها إكلينيكيا وسيكوباثولوجيا، ومن ثم توقعيا، وعلاجيا.

٢ - يمكن تمييز الهوس - استقطابيا - إلى مجموعات من الأعراض المتقابلة وتشمل:

(أ) الهوس المسامح الآمن فى مقابل الهوس الغاضب الشاك

(ب) الهوس النكوصى فى مقابل الهوس الانشقاقى الملوث

(جـ) الهوس المعدى المتوهج فى مقابل الهوس المتعدى الهائج

(د) الهوس النوابى البيولوجى فى مقابل الهوس النزوى المتفتر.

٣ - تتجمع هذه الأعراض الغالبة نتيجة للتداخلات المتوقعة فى زملات تقريبية فى أنواع يمكن تمييزها وهى: النوع النكوصى الذى يقل فيه النشاط ويزداد الأمن ويشبه الفصام النكوصى قليل الأعراض، ثم النوع المتعدى الشاك ويشمل الهوس المفرط النشاط الهائج المختلط بضلالات الاضطهاد، ثم النوع النوابى البيولوجى: وهو النوع الدورى الأصيل تاريخيا والمرتبط بنبضات السيكوباثوجينى أساسا، وهو موضوع دراستنا، وأخيرا النوع المتفتر الانفصامى وهو أقرب إلى الفصام سيكوباثولوجيا، ويترك ندبا وتليفات فى الشخصية، وهذا النوع ليس مرادفا للفصام الانفعالى الهوسى، حيث تختلط أعراض الفصام الصريحة بأعراض الهوس الأصيلة.

٤ - إن موضوع هذه الدراسة ينصب على نوع واحد فقط من كل هذه التنويعات، وهو النوع الدورى البيولوجى أساسا، وكل ما عدا ذلك فهى تنويعات ومضاعفات قد ينطبق عليها سيكوباثولوجية مرض آخر،

حسب النوع، وبصفة عامة فإن النوع النكوصى والمتفتر أقرب إلى الفصام، أما النوع الشاك العدوانى فهو أقرب إلى حالات البارانويا الحادة أو تحت الحادة.

٥ - إن "هذا" الهوس هو البعد الأعمق للاكتئاب، وليس الوجه الآخر له ففى الوقت الذى يعتبر إنكارا وإلغاء للاكتئاب (ديناميا) يعتبر تدهورا إلى مستوى تطورى أدنى، ورغم عدم وجود موقف هوسى أثناء التطور فإنه يمكن اعتبار الموقف الهوسى موقفا مساعدا بجوار الموقف البارانوى، وفى نفس الوقت مكافئ للموقف الشيزويدى من حيث إلغاء الآخر، ولكن بالاحتواء وليس بالانمحاء.

٦ - إن تفسير الهوس والاكتئاب باللغة التفاعلية يشير إلى تكافؤ قوتى الأنا الطفلية والأنا الوالدية فى مواجهة بعضهما البعض، وفى حالة غلبة **الطفل** يظهر الهوس وفى حالة غلبة **الوالد** وقهر **الطفل** ينتج الاكتئاب، أما فى حالة غلبة **الطفل** واستبعاد **الوالد** فإن الهوس هو النتاج، ونظرا لتكافؤ القوتين فإن الصور الإكلينيكية قد تتبادل، مما أسماه "إريك بيرن": حوارا بينهما، وتكافؤ القوى المواجهة يفسر معنى انتصار **الطفل** فى حالة الهوس بالمقارنة بتعريه مع تشوشه فى حالة الفصام، لأن **الطفل** فى الحالة الأخيرة منسحب وسط تناثر ما عداه.

٧ - إن الهوسى يفقد حدود ذاته، إذ تمتد حتى تحتوى ما عداها وتتوحد مع أبعاد الكون، ويقابل هذا الامتداد عصبيا ما أسميته فرط الترابط، وهذا عكس فقد حدود الذات فى الفصام حيث يكون نتيجة العجز عن الترابط، كما يختلف عن شفافية حدود الذات فى بداية الذهان والاكتئاب.

٨ - إن المريض الهوسى يمر بطورين متلاحقين، أما الطور الأول فيسمى طور فرط الترابط وهو المقابل لمرحلة الحدس المعرفى المصاحب باليقين العميق، ومن خلال هذه المعرفة اليقينية، قد يدرك الهوسى بعض الحقائق التى قد لا تقتصر على تاريخه الفردى، بل تمتد إلى تاريخه الفيلوجينى، وعلى الفاحص ألا يهمل هذه المادة جملة باعتبارها محض ضلالات حيث أن بعضا منها قد يصلح فروضا عاملة، ويشبه هذا الطور خبرة الصوفى والمبدع، ولكن فى حين يتكامل الصوفى من خلالها ويعيد المبدع تنظيم المادة النشطة أثناء فرط الترابط، فإن الهوسى يجهض هذه الخبرة فى عجالة ويفشل فى استيعابها أصلا.

٩ - الطور التالى فى تطور الهوس هو الطور الانشقاقى، فهو لا يطيق استمرار الطور الأول بما يحمل من مشاعر انمحاء الزمن والمكان، ومشاعر الخلود، والتوحد بالكون الأعظم (وبالله) وكل ذلك من نتاج فرط الترابط، لذلك فهو سرعان ما يدخل فى مرحلة الانشقاق حيث ينكر جانبا من رؤيته، أى يفصل جانبا من ترابطاته ليخفف من عبء رؤيته وحدسه المفرط.

١٠- تختلف مسار الخبرة الهوسية بعد ذلك، فهى إما أن تنتهى فجأة إلى ما يسمى بخط الأساس - وهذا نادر فى الواقع إلا بالمقاييس السطحية، وإما أن تترك ندبا فى الشخصية فى النوع المتفتر، وإما أن تعود

للمريض بصيرته، ثم - فى حالات نادرة - تتعمق الخبرة فى المسار الايجابى - حسب الظروف الطيبة المحيطة وتنتهى إلى خطوة نمو حقيقة.

١١- فى الهوس يتعذر النوم، باعتباره موت أصغر يخافه الهوسى، وباعتبار الهوسى غير محتاج له، ومن خلال الخوف من تراخى قبضته على كل أبعاد ترابطاته، كذلك لا يخشى الهوسى الموت فى أول مراحله نتاجا لشعوره بالخلود، ولكنه حين يستشعر ما تعنيه وحدة القمة التى هرب إليها، يتمنى الموت (وليس الانتحار) وهو يكتشف إذ ذاك أن انمحاء الآخر فى ذاته وأن الخلود الهارب هما مكافئى الموت تماما.

١٢- والنتاج الإيجابى للهوس - على ندرته - يتوقف على مدى تمثل الخبرة "الفرط ترابطية" بحيث يصبح ما رآه الهوسى من يقين ... هدفا على المدى الطويل لا يصل إليه إلا الفعل اليومى بين الناس فى جماع بيولوجى خصب، وفى الطريق إلى هذا الحل قد يتذبذب الهوسى فى مزيج من مشاعر الاعتماد والثقة والخوف والشك تؤكد طبيعة السيكوباثوجينى المتلاحق فى هذا المرض بالذات.

الفصل السابع

<u>عناصر الفصل السابع:</u>

- حالات البارانويا – علاقة البارنويا بالعصاب واضطرابات الشخصية
- علاقة حالات البارانويا بالفصام
- حالات البارانويا والهلاوس – متدرج البارانويا

التصنيف الكلينيكى لحالات البارانويا

- حالات البارانويا البيولوجية النشطة
- حالات البارانويا الراجعة المتفترة
- حالات البارانويا الضحوكة الودودة
- حالات البارانويا المعتمدة اللاصقة
- اساليب الإبعاد
- أسلوب المطالبة المتلاحق
- وحدة البارنوى
- ثمن الوحدة (عند البارنوى) والنجاح المترفع
- العلاقات الظاهرية عند البارنوى
- رحلة الوحدة والاستغاثة
- حالات البارانويا الدورية
- حالات البارانويا المستتبة
- حالات البارانويا القاسية الساخرة
- الموقف البارنوى
- الأسلوب القنفدى
- أسلوب الإيهام بالذنب
- ألم البارنوى
- شقاء البارنوى
- الهرب المتلفت
- الحب – الأخذ – المذلة
- الوجود المثقوب
- التكوين البارنوى (وإطلاق الاستعداد الوراثى)
- مسار السيكوباثولوجينى عند البارنوى
- تفسير عدوان البارنوى
- الحاجة إلى الحب
- الجذب النكوصى فى البارنوى
- احتمال استسلام البارنوى

حالات البارانويا

Paranoid States

مقدمة:

لهذه الزملة الإكلينيكية وضع خاص، فهى ليست متواترة مثل الاكتئاب أو العصاب، وهى منكرة من قبل كثير من المشتغلين بالطب النفسى (وخاصة المدرسة الأنجلو ساكسونية)، وهى صعبة التشخيص، ومع ذلك فهى شديدة الأهمية من زاوية دراسة السيكوباثولوجى.

وتعبير حالات البارانويا يعنى تصنيفات مختلفة ومتناقضة مختلفة ومتناقضة أحيانا، إلا أنها كلها تتفق فى وجود منظومة ضلالية بشكل أو بآخر، ولابد أن تفصل إبتداء بين حالات البارانويا الحادة وتحت الحادة التى تعنى – سيكوباثولوجيا – إعادة النشاط مباشرة للمستوى البارانوى (الموقف البارانوى)، وبين الحالات المزمنة التى تعنى إتمام نسيج المنظومه الضلالية كعماد محورى للشخصية.

والدراسة التى نقدمها هنا تشرح أساسا الموقف البارانوى (النشاط البارانوى) وعلى ذلك فإنها تتعلق مباشرة بالحالات الحادة وتحت الحادة، كما أن هذا الموقف هو النواة التى تنشأ منها المنظومة الضلالية.

وقبل أن نناقش طبيعة هذا الموقف البارانوى وأصول جذوره سوف نقدم لماهية الضلال باعتباره محور حالات البارانويا المزمنة، التى سنحاول أن نعرض لموقفها كزملة مستقلة وعلاقتها بالأمراض الأخرى.

ونبدأ بأن نقول إن إهمال – أو أنكار – حالات البارانويا[1] إنما يرجع إلى عمق خاص فى طبيعة حياتنا المعاصرة من ناحية، وطبيعة مرحلة تطور الإنسان من ناحية أخرى، بما يتطلب ضرورة اعتمادنا النسبى على معتقدات خاطئة قاهرة تدعم وجودنا مرحليا.

أما طبيعة حياتنا المعاصرة فهى تسمح – بل وتنمى – أن يعيش الإنسان وحيدا، لا بمعنى التكامل، بل بمعنى العزلة الحقيقية حتى ولو زادت احتكاكاته الظاهرة، وكلما زادت عزلة الإنسان الجوهرية عن أخيه الإنسان، بمعنى افتقاره إلى الرسائل البيولوجية ذات المعنى من إنسان آخر، وبالتالى عجزه عن إرسال مثل هذه الرسائل التى تحفظ الكائن البشرى الحى فى ذاته، أقول كلما تزايدت هذه العزلة احتاج الإنسان أكثر وأكثر إلى أن يدعم كيانه الداخلى بمعتقد ثابت منظوم، يتغذى منه غذاء داخليا خاصا ويستند عليه ضد أى أهتزاز أو هجوم مهدد بالتناثر، وهذا المعتقد المسلسل (المنظومة)[2] هو دعامة

1- إبتداء من وحتى البدء فى شرح المتن سوف تعنى حالات البارانويا النوع الحاد وتحت الحاد فى الأغلب.

2- فضلت ترجمة كلمتى Delusional System إلى منظومة ضلالية وكلمة 'منظومة'، لتفردها، تفضل - من وجهة نظرى - كلمة 'جهاز' وقد سبق أن أستعملت هذا اللفظ 'منظومة' فى كتاب مشترك وهو 'مبادئ الأمراض النفسية' ولقيت قبولا مناسبا.

حياة الإنسان المعاصر بديلا عن التواصل البشرى من ناحية، وبديلا عن السعى إلى الموضوعية المطلقة والتناغم مع الكون الأعظم من ناحية أخرى (إلى وجه الله) – وهكذا ونجد أنفسنا أمام البعد الآخر المعوق لتناول هذه الزملة الإكلينيكية وهو مرحلة تطور الإنسان والتى تؤكد كل المظاهر أن الإنسان غير قادر – حاليا – على استيعاب الحقيقة الموضوعية "كما هي" وعلى أحسن الفروض فهو ساع دائما إليها، وعلى أسوئها فهو متوقف تماما بعيدا عنها.

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه المسلمة الأولية فلابد من الأعتراف بأن كثيرا من المعتقدات الإنسانية هى معتقدات بعيدة عن الحقيقة الموضوعية، وهى معتقدات ثابتة بقدر حاجة الإنسان الفرد إلى التمسك بها للحفاظ على توازنه فى مرحلة ما، وهى لا يمكن إصلاحها بالمنطق الموضوعى المجرد .. لأن هذا المنطق الموضوعى المجرد فى ذاته مسألة نسبية طالما هو صادر من إنسان آخر ... حيث أن حقيقته المجردة – دون عبورها العقل البشرى – ليست فى متناول أحد مهما بلغت رؤيته وكدحه كدحا إلى ملاقاتها، إلا بقدر نسبى يتناسب مع قدر تطوره.

ودون أن نسترسل فى القضية المعرفية (الابستمولوجى) لابد أن نعترف بنسبية حتمية فى تعريفنا لما هو ضلال Delusion الذى هو محور حالات البارانويا) بأنه معتقد خاطئ ... لا ينبع من الواقع ولا يمكن إصلاحه بالمنطق السليم، ولايتفق مع بيئة المريض وثقافته ..

ولابد أن نسلم إذا بأن الفرق بين المعتقد الخاطئ (الضلال) والمعتقد الذى يتصف بالصواب (المفهوم) هو فرق يحتاج إلى أبعاد أخرى غير مدى القرب أو البعد عن الحقيقة الموضوعية صعبة التحديد فى ذاتها، وأهم هذه الأبعاد كما تظهر فى مجال الممارسة الكلينيكية ٣ هى:

١- كلما كان المعتقد مشتركا بين أغلب الناس ... اعتبر أقرب إلى المفهوم منه إلى الضلال.

٢- كلما كان المعتقد نافعا لعدد مناسب من البشر اعتبر أقرب إلى المفهوم منه إلى الضلال - على أن يكون مقياس النفع مرتبطا باستمرار الحياة بشكل أو بآخر (عرضا أو طولا).

٤- كلما كان المعتقد منظما للشخصية .. اعتبر أقرب إلى المفهوم دون الضلال.

٥- كلما كان المعتقد أقدر على الأستمرار ..، وفى نفس الوقت يحتمل قبول التحوير التدريجى .. اعتبر أقرب إلى المفهوم دون الضلال.

ومع ذلك، فإن هذه الملاحظات الاكلينيكية لاتنهى المشاكل التنظيرية المجردة حيث تثار قضايا لا مجال لمناقشتها هنا طالما كان التزامنا وهدفنا محددين منذ البداية (دراسة فى علم السيكوباثولوجى)، ولكن لا بأس من طرح بعض الأسئلة المنبهة - أمانة - حتى لا يحسب القارئ أن الحكم الكلينيكى قد وجد الحل لهذه القضية الأزلية:

3- ترجمنا كلمة Clinical قبل ذلك - أحيانا - إلى 'إكلينيكي' ثم رجحنا هنا أن نحذو حذو بعض الزملاء مستعملين كلمة كلينيكى - أيضا - فهى أقرب تعريبا، رافضين فى الحالتين الترجمة السطحية إلى كلمة 'سريري'، حيث أن المفوم الكلينيكى أعمق وأخطر مما توحيه الترجمة الحرفية 'سريري'.

(ا) ماذا لو اعتقد إنسان مافى معتقد رآه من خلال وعى أعمق، ولكنه غير مناسب لعامة الناس؟

(ب) ماذا لو كان النفع مؤجلا بحيث يكون بعيدا عن متناول المقاييس الحالية؟

(جـ) ماذا لو كان توازن الشخصية هو ثبات متجمد وليس حركة تصاعدية؟

(د) ماذا لو لم يوجد حتى "آخر" واحد يمكن أن يصل إليه المعنى المراد من هذا المعتقد لقصور مرحلى فى الآخرين وليس لخطأ فى المعتقد؟

(هـ) ماذا لو كان هذا الآخر (أو الآخرين) الذين فهم المعتقد من صاحبه ..، واقع تحت تأثير عاطفى لصاحب المعتقد؟

أفلا يحق لنا بعد ذلك أن ندرك وجهة النظر التى رجحت إبعاد هذه الزملة الكلينيكية إبعادا مبدئيا، بل فلنتقدم خطوة لنحاول أن نفهم الأسباب التى تكمن وراء هذا التجنب فى شخصية الممارس ذاته:

(١) الخوف من مظنة الموقف الحكمى Judgmental attitude

(ب) خوف الطبيب والفاحص من مواجهة ومراجعة معتقداته هو على احتمال أنها ضلالات نسبية.

(جـ) الخوف مما يترتب على اهتزاز شخصية المريض إذا ما تخلخل الضلال الموازن قبل ظهور الضلال الأكثر قبولا (أو قبل الأقتراب النسبى أكثر فأكثر من الموضوعية) كبديل ذو فاعلية مناسبة.

(د) الأختباء فى وهم الحرية، تحت زعم أن أى "معتقد" ليس مما هو فى متناول التدخل الغيرى فضلا عن الفحص الكلينيكى..

وكل هذه المخاوف ليست مجرد مهارب، بل إنها وجها نظر لها فاعليتها الإيجابية المناسبة.

***

وبالرعم من كل هذه المحاذير والترددات، فقد وجدت أن دراسة هذه الزملة الكلينيكية (حالات البارانويا) من منظور سيكوباثولوجى، هى دراسة جوهرية يستحيل التنصل من مسئولية مواجهتها، حتى لو تضاءلت قيمتها فيما يتعلق بالصورة الكلينيكية الملغزة.٤

حالات البارانويا والعصاب واضطرابات الشخصية :

إذا كانت حالات البارانويا قد تشابهت علينا حتى كادت تختلط بمعتقدات الأسوياء، فإن لنا أن نتوقع أن يكون التشابة أكبر والخلط أشد مع زملات أخرى أكثر بعدا عن الموضوعية (لأنها أكثر استعمالا للحيل النفسية)، ولنأخذ بالذكر هنا بعض أنواع العصاب المزمن، وبعض نماذج اضطراب الشخصية، ولنأخذ مثلا عصاب الوسواس القهرى وعصاب الهيبوكوندريا المزمن لنلاحظ وجه الشبه الدينامى المباشر مع حالات البارانويا المزمنة، وكل الفرق هو مايدعى من أن مريض العصاب الوسواسى القهرى والهيبوكوندريا عندهم بصيرة بشذوذ معتقداتهم المتعلقة بالسلوك القهرى أو الوهم المرضى، ولكن

4- يلاحظ القارئ فى هذا الفصل وفى الفصل الذى يليه (الفصام) أن المقدمة قد تطول طولا ينسبنا طبيعة، هذه الدراسة، وأنها أساسا شرح لمتن 'سر اللعبة'، إلا أنى لجأت إلى ذلك عامدا لأهمية هذين الزملتين كمحور جوهرى لسائر الأمراض النفسية.

المتمعن فى هذه البصيرة يجد أنها حيلة العقلنة لتثبيت المعتقد وليست بصيرة الوعى للتخلص منه، وكأنها بذلك تقرب هذا المعتقد أكثر وأكثر من المنظومة الضلالية المثبته ببصيرة كاذبة Pseudoinsight، أو على الأقل ببصيرة مشلولة.

وتزداد أهمية وجه الشبه سالف الذكر بالنسبة لتحديد موقع حالات البارانويا بين العصاب والذهان، فمن ناحية إعلان بعدها عن الواقع وفقد البصيرة فى المعتقد تبدو ذهانية بلا جدل، ولكن من الناحية الدينامية وثبات المنظومة الضلالية وتماسك الشخصية (على المستوى المرضى) تقترب من العصاب المزمن حتى لتساويه، وهى تؤدى نفس الوظيفة التى يؤديها العصاب المزمن من حيث أنها دفاع ضد تناثر أعمق أو نشاط بدائى مهدد، ولكن حالات البارانويا تختص مباشرة بأنها دفاع ضد الفصام بوجه خاص، أى ضد التناثر على وجه التحديد، وهى تشبه فى ذلك إلى حد ما بعض اضطرابات الشخصية من النوع النمطى بوجه خاص حيث يتحمل كل من هاتين الزملتين خصائص: الإفراط المزمن فى الحيل لدرجة تشويه الشخصية، والتعود حتى التثبيت على نوع مكرر من الوجود يعوق حركة النمو، والدفاع ضد احتمال التناثر أو التهديد بالتناثر، ونضيف هنا إضافة خاصة وهى أنهما يشتركان - من بعد معين - فى أن وجود كل منهما مبنى على منظومة ضلالية محورية تسهم فى التوازن (المرضى) وتثبته، ولكن فى حين نرى أن المنظومة فى حالة البارانويا تكون ظاهرة، تكون المنظومة فى حالة اضطراب نمط الشخصية غائرة (وهى تشبه فى ذلك إلى حد ما غالبية الأسوياء) ولا يظهر على السطح إلا ما يترتب عليها، ولنفترض مثلا أن وجود صاحب الشخصية المضطربة من النمط الشيزويدى مبنى حول محور المنظومة الضلالية القائلة: "لاوجود فى هذا العالم سواي" أو "كل العلاقات المطروحة كاذبة ولا جدوى منها" ...إلخ فإن هذا الشيزويدى لا يقول بهذا المعتقد ولا يدافع عنه، بل قد يقول العكس أحيانا (تكوين رد الفعل) ولكن كل تصرفاته الثابتة المكررة تؤكد ذلك، وكمثال آخر ما يمكن أن نراه فى حالة الشخصية السيكوباتية المبنية على منظومة ضلالية تقول "أنا ... فقط، حتى ولو أهلكت كل الآخرين" فإن مثل هذا المعتقد أيضا يظهر فى تصرفاته ولكنه غالبا ما لا يبدو صريحا فى أفكاره وآرائه.

وقبل أن نترك هذه المنطقة نشير بوجه خاص إلى الزملة المعروفة بالفصام البسيط والتى يزعم الوصف الكلينيكى العادى أن المريض لا يشكو من ضلالات أو هلاوس إلا نادرا، ولكن واقع الممارسة الاكلينيكية العميقة يؤكد أن الذى يجعل هذا النوع من الفصام يبدو بسيطا هو تماسك نسيج الضلالات تحت السطح مباشرة وليس فى أعماق اللاشعور بحيث تظهر صريحة تحت أى ضغط مناسب، كما أن ضلالات الفصام البسيط تقترب بشكل أو بآخر من الضلالات الشائعة العادية إن صح التعبير، وقد أوردنا الفصام البسيط هنا - وليس فى حديثنا عن الفصام - فى علاقته بحالات البارانويا لشدة الشبه بينهما "تركيبا" (البعد الأول للسيكوباثولوجى) مع ارتباطها باضطراب نمط الشخصية.

ونستطيع أن نقف هنا وقفة مؤقتة لنؤكد على بضعة مفاهيم أساسية خشية الخلط وهى:

أولا: إن وجود ضلالات فى اللاشعور أمر طبيعى وبديهى ومن صلب تكوين الكيان البشرى، كما أن ذلك له علاقة مباشرة بحقيقة مفهوم الحيل النفسية لدرجة تسمح بالقول قياسا "إن الحيل النفسية تشمل تكوين منظومات ضلالية على مستوى اللاشعور".

ثانيا: إن اقتراب هذه الضلالات من الشعور، وكذلك تأثيرها الكامل والمباشر على السلوك بإلحاح مزمن .. لايدع للرؤية الموضوعية إلا أقل قدر من الأتصال بالعالم الخارجى، إنما يدل مباشرة على اضطراب نمط الشخصية والعصاب المزمن والفصام البسيط.

ثالثا: يوجد فى الحياة العادية فى عمق التركيب البشرى ما يمكن أن يسمى ضلالات عمومية (عالمية) Universal، بمعنى أنها تعتبر جزءا لا يتجزأ من التكوين البشرى يكاد لا يخلو منه فرد وإن اختلفت الدرجات، ومن بعض أمثلة هذه الضلالات التى قابلتها فى العلاج الجمعى خاصة:

١- "لافائدة ... إطلاقا".

٢- "وحدى دائما .. وحدى حتى الموت".

٣- "كل الناس يحبونني".

٤- "كل الناس تبغضني".

٥- "لا أحد يحبني".

٦- "لا أحد يريدني".

٧- "لا أحد يراني".

٨- "لا يرجى منى فائدة".

٩- "لا يوجد من يعرف ما أعرف".

١٠- "لا يوجد أحد سواي".

١١- "أنا ... وليحترق الجميع".

١٢- "هذا العالم مخلوق لي".

١٣- "هذا العالم مخلوق لي".

١٤- "حتما .. سيتركوننى ولا يعودون ..'.

إلى أخر هذه المعتقدات التى تتصف بأنها:

(١) جازمة "دجماطية" (لاحظ تكرار "لا أحد"، "أبدا"، "كل" إلخ).

(ب) ذات جانب واحد، (وقد يعتقد الفرد فى الضلال ونقيضه .. ولكن كل منهما فى جانب مستقل تماما عن الآخر)

(جـ) ليست فى متناول النقاش.

(د) حتمية التأثير فى السلوك.

(هـ) غير ظاهرة مباشرة فى الفكر كمعتقد معلن إلا فى ظروف ضغط معينة..

وقد قصدت أن أخلط بين ما هو شائع عن الضلال كعرض مرضى محدد المعالم وبين الضلال كما هو اعتقاد جماطيقى مدخل Internalized أو مثار نتيجة لبعث نشاط مرحلة محددة من نمو قديم ولكنه مازال فى اللاشعور، لأؤكد الفروض التى طرحتها حتى الآن وهى:

١- إن حياة الإنسان مبنية نسبيا وجزئيا على معتقدات خاطئة مرحليا ظاهرا وباطنا.

٢- إن الفرق بين الشخص العادى والشخص العصابى وحالات البارانويا قد يكون فى كشف الغطاء عن هذا الضلال الموجود فى حالة البارانويا دون التشخيصين الآخرين، أى ظهوره هو هو فى دائرة الشعور من عدمه.

٣- إن محتوى اللاشعور ليس مقتصرا على الشائع من ذكريات وتثنيات وأحداث، بل إنه مكون من عقائد ومنظومات لها دور أساسى فى التماسك حتى ولو كانت خطأ (نسبيا بالضرورة).

٤- إن العلاج هنا يبدأ بإرجاع الضلالات إلى جذورها "العمومية Universal' وإعادة معايشتها باتجاه صحيح واستيعاب جديد، وكذلك فإن النمو يستحيل دون اجترار هذه الضلالات فى الوعى (بدرجة نسبية بالضرورة، وإعادة تناولها من منطلقها الصحيح الذى يشمل استيعاب كل ضلال مستقطب مع نقيضه فى تصعيد ولافى[5] (مما يخرج عن نطاق هذا الشرح المبدئى حاليا).

حالات البارانويا والفصام :

أحسب أننا وصلنا بعد كل هذا العرض إلى تفهم وجهة نظر من يقف من هذه الزملة موقف الإنكار حتى ليدرجها مباشرة مع الفصام باعتبارها فصام بارنوى، (غالبية المدرسة الأنجلوسكسونية)، ولعل هناك سبب آخر لهذا الإدراج يتعلق بدراستنا هنا وهو "السيكوباثولوجي"، ذلك أن هدف حالات البارانويا بضلالاتها وشكوكها وتشويهها للواقع هو فى غاية النهاية "محور الآخر ... وتشويه الواقع" الذى هو بعينه هدف الفصامى، ولكن التحذير الذى لاغنى من تكراره هو أن التشابه فى الهدف السيكوباثولوجى لا ينبغى أن يغرى بالإدماج فى الصورة الإكلينيكية، وهذه الملاحظة الأخيرة هى المبرر الحقيقى لفصلهما كزملتين مستقلتين يفرق بينهما فى الصورة الإكلينيكية:

أولا : اضطراب شكل الفكر (تكوين المفهوم وتكوين الضلال معا Both concept and delusional formation).

وثانيا : تفسخ وتناثر الشخصية.

***

حالات البارانويا والهلاوس :

5- راجع أيضا "المسار الإيجابى النموي' لحيل الأدخال عامة ص ٩٢ومابعدها.

أوضحنا فيما سبق طبيعة الضلالات ومكانها وتوقيت ظهورها ووظيفتها فى الصحة والمرض، ولابد من ربطها قبل أن ننطلق إلى شرح المتن بقرينتها "الهلاوس" التى تمثل العرض الأساسى الاخر فى هذه الزملة، وكذلك ربطها بالأخيلة (الصور الخيالية: Images) كأحد التحويرات التخيلية للهلاوس.

ويمكن تناو ل الهلاوس من عدة منطلقات:

الأول: باعتبارها ضلالات على مستوى الإدراك Delusions on perceptual level، أى أن المريض يسقط الضلال الكائن فى داخله - أو الذى قام بنصحه - إلى العالم الخارجى فى شكل مدركات حسية، ثم يستقبلها.

والثانى: من منظور عصبى وتركيبى Structural and neurologement المادة المدخلة فى صورة حالات للأنا Ego states، أى فى صورة مدركات منطبعة لم تهضم، ثم إعادة استقبال هذه المادة بالجزء من المخ على أنها من العالم الخارجى (راجع أيضا ص ٩٥).

والثالث: من منطلق نموذج (فعلنة المعلومات) Information processing حيث تعتبر الهلوسات تغذية داخلية Internal input تعويضا عن العجز فى التغذية الخارجية External input، وبيان ذلك أن الجهاز المخى - حتى يظل فى تماسكه الداخلى وتناسقه الوجودى Internal cohesion and unitary organization يحتاج إلى جرعة مناسبة من المعلومات المدخلة، وهذه المعلومات تصل أساسا من العالم الخارجى فى حالة اليقظة، كما تصل أيضا من العالم الداخلى، حتى لتظهر صريحة فى الأحوال العادية فى صورة الأحلام[6] فى حالة النوم، وليس المهم دائما هو كم المعلومات، ولكن المهم هو تناسب "معانى" المعلومات "ووظيفتها" لاحتياجات الجهاز المخى فى مرحلة معينة من تطوره، فإذا لم تف المعلومة - من الخارج - بهذا الأحتياج، تخلخل جهاز الأستقبال، ومن ثم أثار تعتعه المعلومات المخزونة، وتحركت لتشد هذا الأحتياج من داخل، حتى يظل هذا الجهاز محافظا على توازنه أساسا، وعلى كفاذته بدرجة أقل.

وبديهى أن تكوين الهلوسات ينبع من هذه المنطلقات الثلاث معا وإن اختلف دور كل منها نسبيا حسب مرحلة الهلوسة وطبيعتها كما سيرد حالا.

كما أن محتوى الهلوسات يتوقف أساسا على نوع المادة المطلوبة لتوازن الجهاز المخى من ناحية، وكذلك على نوع المادة المخزونة المشحونة المنطبعة.

حيث أن فرط احتياج الجهاز المخى لتغذية ما يقلقل تناسق المخ كلية، فبتعتع المادة الأكثر شحنا (أى التى لم يعشها الفرد أصلا أثناء حدوثها بدرجة كافية)، ونتاج هذين العاملين معا هو الذى يحدد أى مادة سوف تنفصل وتستقبل بواسطة بقية التكوين المخى خاصة، والتكوين الحيوى عامة باعتبارها واردة من العالم الخارجى.

6- الأحلام هلوسات النائم بالمعنى البيولوجى المباشر، وبالمعنى النفسى كذلك.

ومن هذا المنطلق تقوم أغلب الهلوسات بصفة عامة - وفى حالات البارانويا خاصة - بوظيفتها التماسكية من خلال ثلاث عمليات:

١- أنها تعوض الجهاز المخى وتوفر له احتياجاته من كم المعلومات المطلوبة لكفاءة تماسكه الداخلى ولو على مستوى مرضى.

٢- أنها تفصل المحتويات المشحونة القابلة للتعتعة بحيث لا تهدد بالتناثر إذا استمر شحنها ضاغطا ضغطا عشوائيا فى الكتلة المخية من داخل.

٣- أنها تؤكد معتقدا خاطئا وتثبته باعتباره مدركا حيا بحيث يسهم - مثل الضلال - فى دعامة الشخصية وتأجيل - أو إلغاء- القفز إلى الإدراك الموضوعى المجرد بما لا يحتمله الجهاز المخى فى مرحلة بذاتها.

أما طبيعة الهلاوس (وليس محتواها) فتتوقف على المرحلة التى تظهر فيها، ومدى النشاط النيورونى الحيوى من ناحية - الناتج عادة من التعتعة - فى مقابل مدى تناولها بالحيل العقلية لتحويلها من خبرة معاشة إلى فكرة معقلنة تؤدى وظيفة تماسكية من خلال نسيج جديد بالترميز والإزاحة والإسقاط، وغير ذلك من أساليب محكمة.

ففى بداية الذهان النشطة[7]، تكون الهلاوس حقيقة بيولوجية معاشة إذ أنها تعنى أن مستوى من المخ يستقبل مستوى أخر قد تعتع Dislodged ثم تباعد حتى "الملخ" Dislocation ، أما فى حالات الذهان المستقر والمستتب (حالات البارانويا الهلوسية المزمنة مثلا)، فإن الهلاوس تصبح أكثر فأكثر معتقدا فى صورة إدراك متخيل أكثر منها فى صورة خبرة حيوية نشطة، وأثناء هذه المرحلة النشطة قد يدرك المريض بشكل أو بآخر أن هذه الهلوسات (والضلالات) ليست حقيقة خارجية، وقد يتكلم عنها على أنها "صوت داخلي" inner voice أو قد يصفها بتعبير "كأن" as if quality ، وقد دأب التعليم السائد على اعتبار مثل هذه الهلوسات هلوسات كاذبة Pseudohallucinations والحقيقة أنها على عكس ذلك تماما إذ أنها هى الأصل وهى الحقيقة البيولوجية، وإدراك المريض لها بهذا الوعى الحساس إنما يدل على حيوته من ناحية أخرى، بل إن عقلنتها فيما بعد وتحويلها إلى معتقد هو الذى يفقدها أصالتها فى الوقت الذى يبدأ المريض فى الحديث عنها باعتبارها يقين عقلى وليست خبرة معاشة.

وقد يزداد تناول هذا وذاك بمزيد من الحيل وخاصة حيلة التخيل Fantasy فقد تنقلب الهلاوس - بواقع الإزمان خاصة - أكثر فأكثر إلى صور عقلية خيالية Fantastic mental images تحدث فى حالة من الوعى محورة جرئيا، وتصبح مسطحة ذات بعدين (دون تجسيم) كما قد تصبح فى متناول اللعب العقلى الخيالى بتحويرها حجما ولونا وبعدا وقربا، فإذا غلبت هذه الصفات وقامت بحفظ تماسك الشخصية بدلا من: (١) الهلوسات الحيوية النشطة Active biological hallucinations، وكذلك بدلا من (ب)

7-... وفى الزملات المخية العضوية أيضا، إلا أننا تعهدنا بعدم التعرض لها فى صلب هذه الدراسة، وإن كنا سنرجع إيها فى التعقيب النهائى.

الهلوسات الضلالية المسقطة Projected delusional hallucinations فإنها تصبح صورا تخيلية تستحق أن تستقل بأسم مستقل، وهو حالات البارانويا التخيلية[8]

وهذه الحالات الأخيرة كما شرحنا تستعمل الحيل النفسية بإفراط وخاصة التخيل والإزاحة، وفى حالة خاصة من الوعى بمايقاربها من درجة ما من الأنشقاق بحيث يمكن أن تقربنا أكثر وأكثر من العصاب الأنشقاقى (الهستيرى) بوجه خاص ..، والخلط بين هاتين الزملتين (البارانويا التخيلية المزمنة والهستريا الأنشقاقية) خلط شائع على مستوى التنظير، واختلاف المدارس (فى المدرسة الأنجليزية مثلا يتجهون إلى تشخيص كل مثل هذه الحالات على أنها هستيريا انشقاقية)، وكذلك على مستوى الأختلاف الفردى فى التشخيص.

مندرج البارنويا :

بقى بعد ذلك أن ننظر إلى مندرج البارانويا Paranoid scale حتى نصل هذه النظرية التنظيرية بما يقابلها فى تنويعات عادية وكلينيكية؛ وسوف نحاول - من أجل التبسيط ليس إلا - أن نتكلم عن المنظومة المفهومية (الأساسية) (Conceptual system) فى مقابل المنظومة الضلالية[9] (الأساسية)[10] (Delusional System) باعتبارها ممثلة المنظومات الأخرى.

١- <u>الحياة العادية</u> : وفيها تكون المنظومة (المنظومات) الضلالية غائرة فى اللاشعور ولاتؤثر فى السلوك إلا بطريق غير مباشر، وإن كانت تبدو مظاهرها من خلال الحيل النفسية المختلفة، والممارسة فى حدود متوسطة، وإذا زاد تأثير هذه المنظومة فى اتجاه الشكوك نحو الآخرين مع جرعة أكثر قليلا من الإسقاط، وميل إلى التحفز، فإن مثل هذه الشخصية قد تعرف بالشخصية البارانوية التى لابد - فى حدود المتوسط أن تدرج فى - حدود السواء تماما.

٢- <u>حالات البارانويا</u>: وفيها تسير المنظومة الضلالية جنبا إلى جنب مع المنظومة المفهومية، ولكن فى نفس الوساد الشعورى Conscious Matrix بحيث تظهر الضلالات (أو الهلاوس أو التخيلات) كأعراض محددة تشغل حيزا متوسطا من السلوك بدرجات مختلفة من التعويق.

٣- <u>اضطراب نمط الشخصية البارانوى:</u> وهو نوع من الشخصيات المضطربة نمطيا، بحيث يسرى عليها ما يسرى على سائر أفراد الزملة من حيث هى دفاع ضد التناثر ومكافئة للذهان، أما من ناحية مندرج البارانويا، فإن المنظومة الضلالية تلوث المنظومة المفهومية تماما بحيث تختلطان إختلاطا يصعب فصله، <u>حتي ليكاد أن يكون الأسم علي غير مسمي،</u> لأنه لم يعد هناك منظومة بمحاذاة العقل بعد هذا

8- فى عمق معين، ومن منظور نظرية المعرفة، يمكن اعتبار رأى المثالين الذين ينكرون الوجود الموضوعى أصلا، أنهم يتصورون أن الإدراك البشرى - فى الأحوال العادية - ماهو إلا بارانويا تخيلية مزمنة، ولكن على الأشياء التى ندركها بالمواصفات التى نعتقدها، وهكذا نعود نقترب - كما فعلنا بشأن الضلالات - من وجه الشبه مع الحياة العادية مما لا لتفصيله هنا مرة ثانية.

9- أصل كلمة بارانويا تعنى بارا Para أى 'بمحاذاة' ونويا Noia أى 'عقل' فتكون الكلمة معناها بمحاذاة العقل، وهو المعنى الذى نحاول أن نعرضه هنا باعتبار الحياة الفهومية هى 'العقل' والمنظومة الضلالية هى التى بمحاذاة هذا العقل.

10- بديهى أن المنظومات المفهومية والمنظومات الضلالية عديدة ومتعلقة بكل أتجاه، إلا أننا نقصر الحديث على المنظومة المحورية أو المركزية سواء المفهومية أو الضلالية.

التلوث وهذه الشخصية تبدأ مثل كل اضطرابات نمط الشخصية فى سن مبكرة منذ الطفولة أو المراهقة المبكرة.

٤- البارانويا (الحقيقية) paranoia vera، وهى من الناحية التركيبية تشبه النوع الثالث بدرجة ملحوظة، بالإضافة إلى أن المنظومة الضلالية بتلويثها بالمنظومة المفهومية قد أغتالها تماما حتى كادت تحل محلها كلية، والفرق الثانى هو أن بداية هذه الإغارة الساحقة تبدأ فى سن متأخرة فى منتصف العمر عادة، ونكرر هنا أنه مادام الأمر قد بلغ هذه الدرجة من التلوث والإغارة فإن كلمة بارانويا تصبح - أيضا هنا - اسماً على غير مسمى، لأنه لم يعد هناك منظومة أخرى بمحاذاة العقل.

٥- تنويعات أخرى:

هناك زملتان كلينيكيتان شديدتا الأتصال بمتدرج البارانويا مع فروق تشخيصية وتركيبية (وسيكوباثولوجية بداهة) واضحة وهما:

(أ) الفصام البارنوى: وهو يختلف عن حالات البارانويا فى أنه يظهر التصدع الذى بدأ بدرجة متوسطة فى بناء المنظومة المفهومية بما يترتب عليه من مظاهر اضطراب عملية التفكير (وما يسمى بشكل الفكر) وفى نفس الوقت تصدع مواز فى بناء المنظومة الضلالية، بما يترتب عليه من مظاهر عدم تناسق وتسلسل الضلالات، حيث أن تكوين المنظومة المفهومية والمنظومة الضلالية يتمان بنفس العملية الترابطية بحيث إذا اختلت هذه العملية تصدع الأثنان معا.

(ب) العصاب البارانوى Paranoid neurosis: وهذا العصاب يتميز بأن المنظومة الضلالية تقترب من الشعور، دون أن تظهر صراحة وتلقائيا فى شكل ضلالات، ولكنها تقوم بوظيفة سوء التأويل النشط بما يناسب محتواها، ولكن المريض سرعان ما يصحح سوء التأويل النشط بما يناسب محتواها، ولكن المريض سرعان ما يصبح سوء التأويل هذا، أو يقبل أن يصححه آخر ليساير المنطق العام.

التصنيف الكلينيكى لحالات البارانويا :[١١]

تعودنا فى هذه الدراسة - بدءا بالأكتئاب - أن نصف الزملات الكلينيكية لا بحسب الأعراض الغالبة وتجميعاتها، ولا بحسب الشائع من تصور أسباب ظاهرة وأسباب خفية، ولكن بحسب طبع الزملة الكيانى الكلى، ووظيفتها الظاهرة، ومدى نشاطها المرتبط بالحيوية البيولوجية، فى مقابل مدى استقرارها المتصل بالهمود واستتباب السلوك المعوق.

وأتباعا لنفس الطريقة بالنسبة لحالات البارانويا لن ألجأ إلى التوقف عند ما إذا كان العرض الغالب هو ضلالات أم هلاوس أم تخيلات ... إلخ، ولكنى أقول ما دأبت على شرح أبعاده من واقع ممارستى

11- هذا التصنيف ليس بالضرورة بديلا عن التصنيف الشائع، ولكنه بعد آخر لحالات البارانويا، بمعنى أنه يمكن تصنيف الحالة بالبعد التقليدى: ضلالية أو هلوسية ... إلخ ثم بهذا البعد أيضا بالإضافة.

الاكلينيكية أن حالات البارانويا (النوع الثانى فقط فى متدرج البارانويا الذى ذكرته حالا ص ٢٧٦) يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية:

أولا - حالات البارانويا البيولوجية النشطة : وهى تعنى الحالات التى يثار فيها النشاط البارنوى بمعنى استعادة النشاط الأقدم للمستوى البارانوى والذى كمن بعد مرحلة معينة من مراحل النمو، وهذه الحالات تتصف بأن المريض "يعيش" موقفا بارانويا من العالم من حوله، وتكون علاقته محكومة بنوع خاص من استقبال العالم، والعلاقة بالموضوع (بالآخر)، والخوف من الأقتراب والشكوك الغامرة إلى آخر هذه المظاهر المعروفة عن الموقف البارانوى أثناء النمو الطفلى أساسا (انتوجينا)، والموقف البارانوى المقابل فيلوجينيا، والموقف البارانوى المعاد ماكروحينيا (فى أى أزمة مفترقية تنتهى بالنمو .. وأهمها كمثال أزمة المراهقة)، وأخيرا الموقف البارانوى كعلامة إجهاض لهذه النبضة الماكروجينية، أى الناشئ من عملية السيكوباثوجينى المجهضة عند الموقف البارانوى..، وهذا النوع فقط هو موضوع دراستنا هذه، وكل ماعدا ذلك من أنواع فهو متعلق بهذا الموقف وقد يكون نابعا منه، ولكنه ليس محل دراستنا هنا، بل قد ينتمى كل نوع سيكوباثولوجيا إلى زملة كلينيكية أخرى كما سنضرب أمثلة فى نهاية هذا التصنيف.

ويمكن أن ندرج تحت هذا النوع فئتين فرعيتين شائعتين كلينيكيا وهما:

(١) حالات البارانويا الدوريةPeriodical paranoid states: وهى الحالة التى تعاود المريض بين الحين والحين بصفة منتظمة نسبيا، وفى كل مرة يثار الموقف البارانوى بكل محتواه ومعالمه، ونخفف هذه الثورة جزئيا بالضلالات (والهلاوس المصاحبة) إلى درجة أقل، وتختفى مثل هذه النوبة بالعلاج (وأحيانا تلقائيا)، ولا تترك إلا أقل الآثار، وأحيانا تترك تأثيرا إيجابيا مثلما ذكرنا بشأن اكتئاب المواجهة البيولوجى، ومثلما ذكرنا بشأن الهوس البيولوجى، ومثلما ذكرنا بشأن الهوس البيولوجى الدورى، وقد بلغ من هذا التقارب بين هذه الأنواع البيولوجية الحية أن أعتبر بعض الباحثين هذا النوع ضربا من ذهان الهوس والاكتئاب وإن اتخذ موقفا بارانويا١٢

(ب) حالات البارانويا الراجعة المتفترة Intermittent paranoid state: وهذه الحالات متكررة أيضا، إلا أن أنتظامها أقل نسبيا، كما أن محتواها يختلف فى المرة عن المرة السابقة نوعيا وكميا، وكذلك فإن المريض فيها لا يرجع إلى خط الأساس (ولذلك أسميته متفترا) بل تترك النوبة ندبا فى شخصيته، وإن كان عادة خفيا وأقل كثيرا من المعروف فى حالات الفصام، والزملة الكلينيكية المعروفة بحالات البارانويا الحادة وتحت الحادة تقع - عادة - تحت أحد هذين النوعين.

ثانيا: حالات البارانويا المستتبة Established paranoid states: وهذه الحالات هى أقرب ما تكون إلى المفهوم الفرنسى "الضلال المزمن 'Délire Chronique'، وقد فضلت كلمة مستتبة عن كلمة مزمن

12- أكرر هنا أنى أتجنب عامدا - بطبيعة هذه الدراسة كما شرحت فى التقديم - أن أذكر المراجع الأخرى إلا لماما، وهنا أجد من المناسب التنبيه إلى وجه الشبه بين هذا النوع الدورى وبين إحدى الفئات الفرعية كما أسماها ليونهاتLeonhait الذهان شبه الدورى Cycloid Psychosis.

لأن الإزمان يقترن عادة بالمدة، أما الأستتباب فيقترن بمفهوم تركيبى يؤكد سوء تنظيم Malorganization مستقر لمكونات الشخصية، وهذه المجموعة "ككل" تتصف بأن شخصية المريض فيها مبنية على، ومدعمة بـ ...، منظومة ضلالية مسلسلة وراسخة، وهى تنشأ فى سن متأخرة نسبياً (حول منتصف العمر)، وتتم تدريجيا ثم تستتب بصورة شبه ثابته، وقد تظهر وتختفى حسب الظروف والضغوط، إلا أن ظهورها واختفائها لا يعنى بالضرورة نشاطا بيولوجيا بقدر مايعنى تحويرا كميا ونوعيا نسبيا فى التحكم الشعورى واللاشعورى فى المنظومة الضلالية الكامنة.

ومن واقع خبرتى أستطيع تقسيم هذه الحالات إلى عدة أنواع كلينيكية:

(١) حالات البارانويا الودودة الضحوكة: The smiling warm paranoid states

وتتصف هذه الحالات بأن المريض الذى يحضر بها يظهر فيضا من المشاعر الحقيقية، بالرغم من شكوكه وضلالاته العميقة والثابتة، وأن شعور بالآخرين متدفق رغم سوء التأويل الملاحق، وأنه يستطيع الأختلاط بل ويخاف الوحدة بالرغم مما يحمله الأختلاط بل ويخاف الوحدة بالرغم مما يحمله الأختلاط من أعباء التحمل، أم ما يعرضه له من مضاعفات العراك والتصادم، وهو لا يكف عن المحاولة، وإذا أحبط فى علاقته بالآخر كما هى العادة - بل وأكاد أقول القاعدة - فإنه يصاب باكتئاب حى وأصيل ونابض، بحيث نشعر معه ككل - وليس فقط بعد ظهور الاكتئاب بعد الإحباط أنه أقرب ما يكون إلى اكتئاب المواجهة الولافى الذى شرحناه حيث أن هذه المحاولات المستمرة لعمل علاقة رغم الصعوبة والضلالات وسوء التأويل تذكرنا بإصرار المكتئب على عمل علاقة ومواجهة الواقع بدرجة مؤلمة من الموضوعية، إذا فالبرغم من الود البادى على هذه الحالات (وأسمها "الضحوكة") فإن حقيقة المشاعر هى مشاعر اكتئاب المواجهة، فهذا الود والضحك أبعد ما يكون عن المرح الأنشقاقى فى الهوس الأنشقاقى الملوث، وهو بعيد تماما أيضا عن السخرية القاسية فى الهوس الساخر المتهجم.

وبالتالى فإن سيكوباثولوجية هذا النوع تقترب بدرجة أو بأخرى من نوع الأكتئاب الذى شرحناه سالفا.

(ب) حالات البارانويا القاسية الساخرة: The inclement sarcastic paranoid states

وتتصف هذه الحالات بالقسوة الظاهرة أو الخفية، كما يتخذ المريض فيها موقفا علويا حكيما Superior judgmental attitude، وينجح مثل هذا المريض فى كثير من الأحيان فى أن يخفى ضلالاته، ولكنه عند التصادم يظهر عليه بوضوح آثارها ثم سرعان ما يبوح بها مصحوبة باليقين الذى لا يختل، وقد تختلط، وقد تختلط هذه الحالة عند الفحص المبدئى مع اضطرابات الشخصية من النوع البارانوى أو غيره، إلا أن الفحص المتأنى لابد وأن يظهر الضلالات صريحة مباشرة، ويتصف مثل هذا المريض بأنه يحسن استعمال الآخرين، ولايتردد فى الحصول على مطلبه سحقا لأى معترض، وبالتالى فهو قد يختلط فى مواقف بذاتها ببعض صفات السيكوباتى المتعدى.

أما من ناحية السيكوباثولوجى فهى أقرب ماتكون إلى اضطراب الشخصية النمطى وبالتالى فإنه يسرى عليها على مايسرى على تلك الزملة ما بين الشخصية البارانوية والشخصية السيكوباتية المتعدية.

(جـ) حالات البارانويا المعتمدة اللاصقة: The sticky dependent paranoid states

وهذه الحالات تتصف بالميل إلى الأعتماد الرضيعى الكامل Complete infantile dependency، وقد تختفى الضلالات مؤقتا لو اتيحت للمريض فرصة هذا الأعتماد بالدرجة التى يطلبها، إلا أنه بمجرد تهديد هذا الأعتماد تظهر الضلالات فى التو بحجمها وعنفها، ولكن الضلالات تظهر أيضا وغالبا جنبا إلى جنب الأعتمادية اللاصقة، ويتضاعف اعتماد المريض تدريجيا حتى ينفر منه الشخص المعتمد عليه ولايهدأ إلا حين يعرض عنه أو يتركه فيجد المبرر لإطلاق ضلالاته عليه وعلى الجميع بلا تردد.

وهذا النوع يذكرنا بالأكتئاب الطفيلى النقاق، وبالتالى فإنه يقترب من الشخصية الأنفصامية (وليس الشيزويدية) Schizotpal personality، وبالتالى فهو من وجهة نظر السيكوباثولوجى يكافئ الفصام رأسا.

* * *

من كل ذلك نرى أن الضلال (والهلاوس والتخيل) عامة، وفى حالات البارانويا خاصة، يأتى من مصادر مختلفة، وعمليات متداخلة أهمها:

(أ) إحياء نشاط الموقف (المستوى) البارانوى.

(ب) إزاحة الغطاء Uncovering عن الضلالات اللاشعورية المكبوتة.

(جـ) نسج منظومة ضلالية من كل من: إحياء الخبرات المعاشة، وإزاحة الغطاء ثم أخيرا المادة الخارجية فى البيئة الحالية.

هذه الدراسة :

إذا، فهذه الدراسة تتعلق بنوع واحد من كل هذه الأنواع ولاتسرى إلا بطريق غير مباشر وكمرحلة ابتدائية ونواة لبقية الأنواع بدرجات مختلفة، وهذه النوع كما ذكرنا هو الحالات البيولوجية النشطة، وهى المقابلة لإحياء الموقف البارانوى انتوجينيا وفيلوجينيا.

شرح على المتن:

(١٤٧) الموقف البارانوى:

نعيد هنا فى إيجاز ما سبق أن ذكرنا - متفرقا - من أن الطفل إذ ينمو يمر بمراحل اللاعلاقة (الشيزيويدية) إلى مرحلة العلاقة التوجسية العدوانية (البارانوية) إلى مرحلة العلاقة ثنائية الوجدان (الاكتئابية)، وها قد جاءت الفرصة لتعميق الموقف البارانوى بالقدر الكافى، وكما حددنا من قبل. فإن دراسة حالات البارانويا سيكوباثولوجى سوف تقتصر فى هذه الدراسة على تحليل هذا الموقف بدءا بلغة

مدرسة العلاقة بالموضوع Object Relation مع إضافات ما أنارتنى به الممارسة الاكلينيكية فى هذا الشأن مرتبطا بالمتن ما أمكن.

وقبل أن نستطرد يجب أن نذكر أن "ميلانى كلاين" - إحدى دعائم هذه المدرسة - كان أغلب حديثها عن هذا الموقف مندمجا بالموقف الشيزويدى (أى: الموقف الشيزويدى - البارانويدى Schizoid-paranoid position) دون فصل واضح بينهما، فى حين أن بعض الثقاة الأحدث من هذه المدرسة كان يفصل بينهما، وإن كان فصلا مترددا غير واضح، ولعل وجه الشبه بين الموقفين هو أنهما يحققان فى النهاية هدفا واحدا وهو "إبعاد الاخر" أو بألفاظ أخرى: "العلاقة بالموضوع" No object relation، إلا أن ذلك ليس كافيا لدمجهما معا، أو مساواتهما بعضهما ببعض، ذلك أن وسيلة التحقيق والنشاط المصاحب لذلك، الذى قد يستغرق العمر كله، يختلف اختلافا بينا، فالموقف الشيزويدى يقابل انتوجينا الوجود المميز للفترة داخل الرحم بشكل واضح، وهذا الوجود يمتد لفترة قصيرة جدا بعد الولادة وبمجرد أن يدرك الطفل (لابمعنى الإدراك الواعى وإنما بمعنى الممارسة البيولوجية فى أى بعد عميق من أبعاد الوعى) أن الأعتماد السرى (بضم السين) Umbilical dependency السلبى لم يعد يكفى للحفاظ على وجوده، ولايكفى لنموه، سوف ينتهى هذا الطور الشيزويدى ويتداخل مع الطور البارانوى.

وفى الوقت الذى نجيه فيه العلاقة فى الموقف البارانوى تتسم بالخوف من الآخر (الإضطهاد والمطاردة) والهجوم عليه ودفعه (العدوان) إلى مسافة معينه، نجد أن العلاقة الشيزويدية تتصف بالأستسلام الأعتمادى حتى الإلغاء بالإنسحاب الفعلى أو النفسى، بل وإن الموقف الشيزويدى أحيانا ما يشير إلى استغاثة بالآخر (وصرخت بأعلى صمتى ... حاشية ١٦١) إلا أنها استغاثة الواثق من عدم جدواها وعدم وصولها إلى أصحابها أصلا، فالشيزويدى (الموقف) قادر على عمل علاقة ما لأنه واثق من استحالة العلاقة الفعلية، أما البارانوى فهو لا ينجح فى إلغاء هذا الآخر بالأستسلام أو بالانسحاب أو بالأعتماد، ولا هو قادر على تحمل جانبى الآخر معا بما يحمل من التناقض المثير للأكتئاب (رغم ما يحمل من فرصة ولاف مستبعد تماما فى هذه المرحلة الأولية) وبالتالى فإن موقفه صريح فى تثبيت، موقع الآخر (الموضوع)١٣ على مسافة ما، من خلال هذه المعركة (الكر والفر) بلا نهاية.

ولعل العلاقة بين هذين الموقفين ليست فقط فى أوجه الشبه وأوجه الأختلاف، ولكنها أيضا - وأساسا - فى التبادل المتلاحق بينهما، ذلك أن بنجاح البارانوى فى إبعاد الآخر سيجد نفسه مطروحا فورا ومباشرة فى الموقف الشيزويدى الأدنى، وبالتالى سرعان مايقفز مهاجما حذرا خائفا إلى الآخر الذى نجح لتوه فى الهرب منه، وهذه الحركة التبادلية التى سميت "رحلة الداخل والخارج" In and out Program والتى أشرنا إليها قبلا، وهاهى إلا تبادل متلاحق بين هذين الموقفين، وإن تحورت قليلا فى الموقف البارانوى

13- يلاحظ القارئ أنى أتجنب كثيرا استعمال تعبير العلاقة بالموضوع Object relation وأفضل عنه استعمال تعبير العلاقة بالآخر تأكيدا لوجه النظر الإنسانية من أن الآخر الإنسانى ليس مجرد موضوع.

كما سيأتى ذكره بعد قليل، إذا فالبارانوى[14] يحافظ على وجود الآخر "على مسافة" يحددها هو فى العادة، ولكى يحافظ على الآخر وفى نفس الوقت يضمن عدم اقترابه منه فإنه يلجأ من ناحيته إلى الشك والخوف والتوجس وسوء التأويل، وكل ذلك معروف عن البارانوى فى المرض وموصوف بعضه أثناء النمو، إلا أن الذى أحب أن أقدمه هنا من واقع الخبرة الكلينيكية والعلاج الجمعى هو ذلك الموقف الذى يرسمه البارانوى ويدبره حتى يحقق به هذا المطلب المزدوج (الحفاظ على الآخر- وضمان عدم اقترابه) وهو يلجأ إلى عدة أساليب تجعل الآخر فى النهاية هو الذى يبتعد عنه وأهم هذه الأساليب كما خبرت:

١- الأسلوب القنفدى The hedgehog technique: وهذا الأسلوب يعنى أن البارانوى يسمح باقتراب الآخر للدرجة التى يقررها فقط (والتى تعنى فى التشبيه المستعار أن يدفئ أحدهما الآخر على مسافة، مثل تجمع القنافد فى البرد وأشواكها مشرعة فى نفس الوقت)، وهو يحمى نفسه من مزيد من الأقتراب بالمعاملة القاسية وإيذاء الآخرين وإثارتهم حتى ينفرون منه.

٢- أسلوب المطالبة المتلاحق The demanding prosecution: ويلجأ البارانوى إلى هذا الأسلوب حين يطلب من الآخر مطالب متلاحقة ومتصاعدة باستمرار حتى يعجز الآخر عن الوفاء بها، إما لشكوكه فى طبيعتها وإما لأن الجرعة زادت عن إمكانياته.

٣- أسلوب الإيهام بالذنب[15] (الإذناب) The make believe guilty (Guiltifying) technique: وهنا يقوم البارنوى بدور الضحية المجنى عليه، ويقوم بالمخاطر الحقيقية والمبالغ فيها فى سبيل الآخرين ويتنازل عن حقوقه ويفتديهم وغير ذلك من مظاهر العلاقة التى تحقق له الرضا عن نفسه بشكل مباشر، ولكن الأهم من ذلك أنها تشعر الآخرين بالذنب نحوه، الأمر الذى يضطرهم للتفكير فيقتربون ويحاولون، ولكنهم كلما اقتربوا كلما زاد صاحبنا إشعارهم بالذنب حتى يدركون أن كل اقتراب ما هو إلا مزيد من إيذائه، ويبتعدون ولكنهم لايبتعدون كثيرا ماداموا قد أخطأوا فى حقه فهم تحت الطلب ينتظرون فرصة التكفير، وهكذا يحقق البارانوى ماشاء بإبعادهم عنه دون اختفائهم تماما.

(لاتقتربوا أكثر، إذا أبى، ألبس جلدى بالمقلوب فيخاف ويرتد إذ يصبغ كفيه تزف حى)

وحدة البارنوى:

وهكذا نرى أن وحدة البارانوى هى وحده من نوع خاص تماما، إذ أن فيها الآخر بشكل ملح لا يستطيع الأستغناء عنه، سواء بالهجوم عليه والملاحقة Prosecution أم بالهرب منه تحت مشاعر الاضطهاد Prosecution أم بإذنابه Guiltifying أم بلومه Putting the blame أم بكراهيته أم بتمنى حبه .. فهى وحدة نشطة طول الوقت كحجرة بابها مفتوح ولكن محظور الدخول فيه حظرا باتا.

14- أؤكد مرة أخرى هنا أنى فى شرحى للسيكوباثولوجيا حين أقول إن البارانوى (أو الأكتئابى أو السيكوباتى.. إلخ) يفعل كذا أو كيت فإننى لا أعنى أنه يقوم إراديا بفعل كذا وإنما هذا هو غائية نوع وجوده، كما أؤكد أنى لا أتحدث هنا إلا عن البارانويا البيولوجية النشطة (أساسا) والتى هى هى الموقف البارانوى الأنتوجينى والفيلوجينى معا، فحين أقول البارنوى، فإنى أعنى كلا من هذا النوع وهذا الموقف. مرضيا وتطوريا فى آن واحد.

15- لابد من الإشارة هنا إلى احتمال أن يكون تصرف شعب بأكمله أو مجموعة أقلية هو نفس تصرف الفرد البارانوى، ولا نستبعد أن يكون اليهود - الأسرائليون خاصة - يمارسون هذه الأساليب جميعا من التكوين الذى توقف عنده نموهم مما يحتاج إلى أبحاث محققة.

ولا بأس من مراجعة أنواع الوحدة فى المواقف السيكوباثولوجية المختلفة:

١- **الشيزويدى** يحقق وحدته بإلغاء الآخر تماما، وهو لايخاف اقترابه لأنه قابع طول الوقت فى قوقعته ومهما التصق به الآخر حتى النخاع، فلن يصل إلى جوهر وجوده المتحصن، وهى وحدة الموت، وفى عمقها ضياع وألم متناثر لايكاد يصل حتى إلى صاحبه.

٢- **والبارانوى:** يحقق وحدته بالكر والفر كما ذكرنا، ولكنه أيضا يحققها يجعل الآخرين هو أيضا يبتعدون عنه، وهى وحدة الخوف، فيها من الحاجة مع وقف التنفيذ والألم الحى ما يجعلها وحدة نشطة طول الوقت.

والتبادل بين هذه الوحدة وتلك هو "رحلة الداخل والخارج" In and out progtram.

٣- **والهوسى:** يحقق وحدته باحتواء الآخر، وتخطى By-passing العلاقة بالبشر كموضوعات محددة المعالم، واستبدالها بالعلاقة بالأكوان الأعلى إن أمكن، فهى وحدة الإنكار، وبها مظاهر الفرحة دون ثراء الواقع.

٤- **والعصابى:** يحقق وحدة نسبية بالأكتفاء بالعلاقات الظاهرية المحققة من خلال الدفاعات المختلفة، فهو يعمل علاقة مع "الجزء" الذى يسمح لنفسه برؤيته من الآخر وليس مع الآخر.

٥- **والأكتئابى:** - كما ذكرنا - يفشل أن يحقق أى من هذه الصور السابقة فهو لايطيق الوحدة (الشيزويدى) وفى نفس الوقت هو أعجز من أن يكسرها سواء بالكر والفر (البارانوى) أو بالإلغاء (الهوسى) أو بالطنبلة١٦ (العصابى)، ومن هنا كان ألمه من نوع حى طالما هو محتفظ بأصل الموقف الأكتئابى المواجهى ولم يحوره إلى التنويعات المشوهة الأخرى.

أما **ألم البارنوى** فهو أيضا ألم من نوع خاص به فهو ليس مواجهة موضوعية (جزئيا) مثل المكتئب، ولا هو ألم مسحوق مستسلم مثل الشيزويدى، ولكنه ألم الذى "فعلها بنفسه فى نفسه"، فهو ينحو باللائمة على الآخرين إلا أنه فى نفس الوقت يعيش جزئيا أن هذه إرادته، وبالتالى، فعليه أن يدفع ثمنها مادام قد مارس تلك اللعبة الخطرة **الأبعاد من فرط الخوف من الترك** وهو لذلك يشعر بألم المسؤول ضمنا على الأقل

(وأعيش أنا ألمي أدفع ثمن الوحدة)

(١٤٨) ثمن الوحدة ... والنجاح المترفع :

أشرنا فى الاكتئاب (ص ١٩٧ ومابعدها) إلى العمل التكفيرى، كما عرجنا طوال فصلى الحيل النفسية والعصاب إلى الحديث عن العمل الأغترابى، وهو نفس العمل الذى لم يعد على المكتئب بالعائد المثرى حتى سقط (سقط الهرم الأكبر) ولكنه فى النهاية عاد إليه بصورة تكفيرية أساسا، أما عند البارانوى فالعمل له صفات أخرى ووظائف أخرى:

16- طنبل' كلمة عربية، وتعنى نصا 'تحامق بعد تعاقل' و'الطنبلة' تشير إلى مايسميه العامة قديما 'تنبله' وما أسموه حديثا 'تطنيش' وكل هذه المعانى أقصد بها فى المقام الأول الأغفال والتقاضى على بعض جوانب الموقف باستعمال الحيل أساسا.

١- فهو تعويضى: حيث أن البارانوى يشعر من خلال عمله المثابر الناجح أن له كيان، ويؤكد لنفسه طول الوقت أنه مادام عمل هذا الذى عمله ويعمله فهو "موجود" بالاستنتاج، فهو يعوض ابتعاده-النسبي- عن الآخرين، وهو مايصوره لنفسه أنه ابتعادهم عنه ... (وفى أعماقه يضيف: وذلك "بفضل مناوراتي") وهو يعوض به افتقاره إلى الشعور بالحق فى الوجود لذاته، وهو يعوض به عجزه عن الفرحة الطفلية المشاركة من فرط توجسه.

٢- وهو تحصينى: لأنه يحصن به نفسه ضد الحاجة للأخرين بحيث لاتقل المسافة بينه وبينهم فلا يقع فى مخاطر الأقتراب والعلاقة كما سيرد.

٣- وهو تدعيمى: لأنه يصبح جزءا من شخصيته ذاتها بحيث يمكنه من أن يصطنع منه دعامة تمنع تمادى انهيارها، وكأنه يقوم بالوظيفة الصحية التى كان يمكن لولاها أن يلجأ إلى تكوين الضلال.. وبديهى أن هذا العمل حين يفشل أو يهدد، فإنه يستبدل بالضلالات وينتقل البارانوى من معايشه الموقف البارانوى إلى نسج حالة من حالات البارانويا المزمنة، وعمل البارانوى عادة هو عمل ناجح بالمقياس الموضوعى العادى وكثيرا ما يكون عملا مفيدا للآخرين، ومهما كان هذا العمل مرتبطا بذاته (الطفلية أساسا) وبأنانيته، فإنه يستعمل فى تنفيذه قدرات **الفتى** الحاسبة والواقعية، أى أن المخ الأقدم فى الموقف البارانوى وتعويضه ليس منطلقا مستقلا غير مسئول، بل هو ناجح مسيطر مستغل لكل إمكانيات المخ والشخصية، وهذا بعكس الفصامى الذى تنقطع علاقته بالعمل كما انقطعت بالآخر، اللهم إلا من نشاط دائرى مغلق فنى فى أغلب الأحوال.

ولكن البارنوى فى داخل أعماقه (سيكوباثولوجيا خاصة) يدرك لا جدوى كل ذلك بالنسبة لحل أزمة وجوده الوحيد المتألم فى نشاط المحتاج رغم الأبعاد المستمر.

(لن يغنينى أن أصعد جبل المجد لايخدعك اللون الثلجى على القمة،

لا يخدعك الرأس المرفوع إلى أعلي تمثال الشمع تجمد)

وكلما تمادى البارانوى فى الحصول على المكاسب المتصاعدة وتأكد نجاحه، كلما أدرك فى قرارة نفسه أنه يزداد بعدا (أصعد جبل المجد)، ويرهقه أكثر فأكثر أن الناس (الآخرين) لا يرونه أكثر فأكثر كلما ازداد نجاحا وحصل على مكاسب ناصعة لا يختلف فيها أحد، وهنا تناقض جديد: ففى الوقف الذى يصر فيه البارانوى على التمادى فى النجاح تلو النجاح يخاف من مزيد من البعد والإبعاد، وهو لايستطيع أن يقف عن النجاح، ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يكف عن الإبعاد، ثم فى النهاية يصرخ من الجفاف الداخلى والبرودة المرتجفة (تمثال الشمع تجمد).

(١٤٩) شقاء البارانوى :

لأول مرة استعمل كلمة شقاء فى هذه الدراسة، لأن لها من المعانى هنا ما يتفق مع مشاعر البارانوى خاصة مما لا تغطيه كلمات الأكتئاب أو الحزن، أو الألم كمل وصفناها فى أكثر من موضع، فالشقاء هو

شعور بالسلب أساسا لانعدام شئ غال[17] وهو أيضا شعور مختلط غير نقى بين "الحزن والألم والجوع والضياع" وهو موقف "بيني"، فالبارانوى لايعانى من مرارة ألم الاكتئاب (اللبن المر) ولا هو يختبئ فى لا مبالاه الشيزويدى، ولكنه يعيش موقفا مجمدا بين هذا وذاك فلا هو حزين نابض، ولا هو مستسلم هامد، وشعور البارانوى باللامبالاة ظاهريا له وضع خاص يختلف عن الفصامى، فمشاعره عادة موجودة وحادة وفى متناوله ولكنه لا يخرجها حفاظا عليها وخوفا من الضعف بسببها ومن ثم الأمتهان كما تصوره، وهى لاتختفى تماما ولاتظهر أبدا.

(فتقلصت الضحك كانت تحبو بين دروب الخد

وتوارى الطفل الحزن الأمرد)

وإن كنا قد أشرنا فى تصنيفنا للأنواع الكلينيكية أنه يوجد صنف يسمى "البارانويا الودودة الضاحكة" وآخر هو "البارانويا القاسية الساخرة" إلخ ... فهذه تنويعات لمسار الموقف البارانوى وكيفية تناوله والتخريج منه، وحتى هذه البارانويا الودودة الضاحكة فهى "ودودة ... مع وقف التنفيذ" وهى ضاحكة "من جانب واحد"

فطالما هذا الشخص هو المتحكم فى الموقف بشكوكه وحذره وضلالاته فقد يضحك ويود، ولكنه متى ماتعرض لاقتراب لم يحسب حسابه هربت الضحكة وتحفز للقتال أو للانسحاب.

والطفل[18] لدى البارانوى (هذا النوع الممثل للموقف البارانوى وإحيائه بيولوجيا) هو طفل حيوى نشط تماما، وموقفه صعب للغاية لأنه بين قوتين من أشد ما يكون، إذ هو لم يقدر ولم يرض للاستجابة لأى منهما فهو مبتعد عن الحوار مع **الوالد** خشية القهر فالاكتئاب الذى لم يستطع تحمل تناقضاته، وهو شاك فى معطيات **الفتى** لأنه لم يتم بالدرجة التى تطمئنه، كل ذلك دون أن يتلوث معهما فى حالة من اضطراب الشخصية أو البارانويا المزمنة.

ولو أن الفاحص الكلينيكى، رغم احتمال تحفزه ضد البارانوى ابتداء، صبر على هذا الأنسان الشقى (قاطع الطريق) لتبين كم هو شقى فعلا (ضد السعيد)، **وطفل** البارانوى له وضع خاص لأنه ليس فى قوة **طفل** المكتئب القادر على مواجهة **الوالد** رغم هزيمته فى جولة الأكتئاب، ولاهو قادر على إلغاء **الوالد** كما هو الحال فى الهوس، ولا هو مشوش ناكص متفرج كما هو الحال فى الفصام، ولكنه **طفل** يقظ ضعيف محتاج متماسك موقوف عن العمل فى نفس الوقت، ولا ينتظره إذ يقتربب من التعبير إلا الخوف من فرط الضعف وتعبير "الحزن الأمرد"' هنا يشير إلى جانب آخر من جوانب البارانوى، فإذا كنا قد أشرنا كيف أن الحزن داخل الهوس قابع جاهز ويمكن إخراجه كلينيكيا (راجع مساءلة الهوسى عن "والجزن اللى

17- 'الشقى لغويا غير السعيد' قال تعالى: (فمنهم شقى وسعيد)، والشقى: الضال غير المهتدى والشقى: اللص أو قاطع الطريق' ... (الوسيط) وكل هذه المعانى تصف البارانوى مباشرة، وفى نفس الوقت.

18- حالة الأنا الطفلية.

جواك ص ٢٢٢' فإن الحزن هنا قائم أيضا وعلى مسافة أقرب، ومثل الغلام الأمرد (بلغ خروج لحيته ولم تبد) كذلك الحزن هنا بلغ أوج حدته ولم يظهر.

وهكذا نجد كيف أن الضحكة قد توارت بين دروب الخد خشية إظهار الضعف فالأمتهان، وكيف أن الحزن اقترب ولم يظهر، وهذا البعد السيكوباثولوجى يحمل الفاحص الكلينيكى مسئولية جادة وعلاجية وخطيرة، إذ لو اكتفى بالموقف الظاهرى للبارانوى ولم يلمح هذه الضحكة المتقلصة من فرط الخوف أو هذا الحزن المتوارى خشية الأمتهان، فإنه لابد أن يتخذ موقفا معينا (ربما عدائيا وربما جبانا) من المريض، أما إذا تدرب على احترام ماوراء التركيب الكلينيكى من أعماق سيكوباثولوجية متدرجة فى العمق فلابد أن ذلك سيصل إلى البارانوى (وغيره)، ولابد أنه سيزيد من فهمه للمرض والمريض كما أنه سيسهم فى علاجه منذ البداية.

وحين "ينجح!!) البارانوى فى تأكيد شقائه!! ويطمئن إلى تحقيق وحدته والحر على عواطفه، يواصل سعيه التحصيلى فى العمل التعويضى والتحصينى والتدعيمى، وأعماقه ترى من بعيد هذا الدوران بلا نهاية، ولو لم تثر أعماقه ضد هذه الدائرة المغلقة لكان أقرب إلى اضطراب الشخصية أو العصاب المزمن، (وهو يتطور أمره إلى مايشابه ذلك فيم بعد، حين يشوه هذه الخبرة)، وهو يعرف فى قرارة نفسه أن كل هذا المجد ليس له نهاية وأنه كلما أنتهى ابتدأ قبل النهاية حتى ليكاد أن يعجز عن التقاط أنفاسه، وهو يسقط هذه الدائرة على من حوله من "السادة" ولكن الفرق بينه وبينهم يكمن فى هذا الوعى الأعمق بما يجري

(والثور الأعمى فى تلك دائر

يروى السادةة بالماء المالح

فى سوق المجد)

(١٥٠) العلاقات الظاهرية عند البارانوى:

ومادام البارانوى قد نجح فى وقف الآخر منه "على مسافة" بكل الأساليب التى سبق ذكرها، ومادام قد لجأ نشطا ومثابرا ومصرا على مواصلة العمل رغم كل شئ، فكيف يساير الناس من الظاهر؟ إن البارانوى يمكن أن يعمل علاقات من أوثق مايمكن، وأنفعها، وربما أوضحها، ربما أكثر من العصابى ذى العلاقات السطحية وأنجح من الأكتئابى ذى العلاقات المرة، إلا أن هذه العلاقات إنما تنجح لأنها فى واقع الثراء الوجودى "ليست علاقات".

(يتلقنى الأيدى الصماء)

وكأنه إذ "يترك نفسه" فى هذه العلاقات إنما يعلن طمأنينة ضمنية لتأكده من دفاعاته التى تحفظ له المسافة التى حددها بينه وبين الآخرين، كما أنه يستعمل هذه العلاقات من ضمن وسائل نجاح عمله وصعوده إلى النجاح تلو النجاح، وهو إذ يترك نفسه فى هذه العلاقات السطحية ينسج فى نفس الوقت

مزيدا من التحصينات التى تضمن له استمرار هذه "المسافة" وبالتالى استمرار "مثل هذ العلاقات" النافعة والناجحة.

(١٥١) **الهرب المتلفت**: حل بارنوى آخر للإبعاد المحدود

إذا فهو يحقق "دوام هذه المسافة" بكل الأساليب التى ذكرناها ونوجزها هنا ونضيف عليها:

(١) بالإبتعاد النسبى إذ لا يتعمق فى أى علاقة.

(ب) بالإبعاد المباشر بالتصادم والكر والفر

(جـ) بالإبعاد غير المباشر (بأن يثير إبعادهم له) بالقنفدة، والإيهام بالذنب والملاحقة.

(د) بالصد التأويلى: حيث يجد تفسيرا مباشرا، إن خطأ وإن صوابا لكل ما يجرى من محاولات اقتراب.

(هـ) بالهرب المباشر (فى حدود المسافة) إذ ينتهز كل الفرصة للعزلة المباشرة، ولكنها عزلة موقوتة فى العادة لا يستطيع أن يواصل الأختباء فيها مثل الشيزويدى.

(و) بالحذر والتوجس وفرط الحساسية وهو الموقف الذى يسمى أحيانا بالأنجليزية Chin on the on shoulder "ذقنه على كتفه" إشارة على دوام التلفت والحذر، والتلفت فى عمقه ليس فقط دلالة الخوف ولكنه أيضا دلالة النداء، فالسائر أمام جماعة يتلفت هل هم مازالوا معه أم تخلفوا، والخائف من الهجوم يلتفت، ووظيفة التلفت إذا هى نفس الوظيفة المزدوجة لكل نشاط البارانوى.

(أهرب منكم،

فى رأسى ألفى عين ترقبكم

تبعدكم فى إصرار

أمضى وحدى أتلفت)

وكأن كل نشاطات فى محاولته الأبقاء على الآخر والتخلص من تهديد اقترابه أكثر من المسموح. إنما تحقق نوعا ودرجة من الوحدة المميزة لهذا الموقف السيكوباثولوجى بوجه خاص، وكثيرا ما يلجأ البارانوى لتنفير الآخرين منه، إلى "التعالي" بالنجاح الواقع فعلا "وبالاستغناء"، وهو من نتاج النجاح الذى يساعد على إخفاء المشاعر أيضا وهو لايكتفى باقناع الآخرين بذلك بل إنه يقنع نفسه ضمنا من خلال اقناعهم، حتى أن من أصعب المواقف فى العلاج الجمعى هو أن يواجه البارانوى - بالتفاعل Interaction فى السيكودراما - أنه خفيف الظل مثلا أو أنه يستحق الحب، وهذه المواجهة التى تتناقض مع تسلسل معتقداته الداخليه ترعبه وتهز حساباته وتهدده بالتناثر أكثر من أى عدوان أو مخاوف.

ولابد إذا أن نتطرق الآن إلى الحديث عن "صور الذات" Self image لدى البارانوى، وقد أشرنا من قبل إلى ماقاله أريتى عن "تشويه وضعف الذات لدى الفصامى خاصة، وألمحنا إلى احتمال عمومية هذا المعتقد الضلالى الدفين فى كل إنسان مع اختلاف الدرجات، والتنويعات، وهذا الاحتمال إذا يمكن أن يمتد إلى صورة ذات البارانوى، إلا أن أهم خصائص صورة ذات البارانوى ليست التشويه وإنما الضعف

وعدم أهليتها للرعاية والشوفان (والحب، مع التحفظ فى استعمال الكلمة) وممارسة البارنوى لكل هذه الأساليب الأبعادية هى فى النهاية لحماية ذاته الضعيفة من التعامل بما يحمل احتمال سحقها، أو من دخول اختبارات "العرض" مع احتمال ألا تجد المشترى المناسب كما سيأتى حالا.

وإذا كنا قد أشرنا من قبل ذلك إلى الموقف البارانوى فيلوجينيا، وقلنا أنه أقرب مايكون إلى الموقف النمرى، وأكدنا أن هذا مجاز فقط ينتظر مبحثا فى صفات سلسلة التطور حتى نجد وجه الشبه المقابل لهذه المرحلة فلابد أن نذكر هنا بعض الكائنات الحشرية ذات العيون المركبة التى تملك النظر من كل جهة، أو الحرباء التى تدور عينيها بزاوية ٣٦٠ درجة أى كل عين ١٨٠ درجة دورانا مستقلا وأن تطور الإنسان للنظر المحدود لايعنى تأخرا أو نقصا، وإنما يعنى تركيزا لما هو أرقى من العمليات العقلية اللازمة لتطوير نوعية حياة الإنسان بديلا عن مجرد الحفاظ على الحياة فى الحيوانات البدائية "بالبص" وغيره، لذلك نوصى بدراسة طويلة نحو المقارنة بين سلوك الحيوان وبين هذه المواقف السيكوباثولوجية، وذلك لموازرة الأنتوجينا بالفيلوجينيا على أسس أعمق، وقد حاول داروين بداية محدودة بشأن العواطف إلا أن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى أسلوب فينومينولوجى مباشر يحاول الجمع بين: (ا) عمق السيكوباثولوجى. (ب) أبعاد البيولوجى. (جـ) توازى تاريخ التطور وحكمة الكائنات الحية للحفاظ على ذاتها وكيفية ذلك فى كل مراحل ومقابلاتها الإنسانية. (د) رحلة الماكروجينى الموجه (العلاج النموى) عودة إلى المستوى الإنسانى الخ..، وبديهى أن أجتماع هذا كله فى عالم يستعمل ذاته باعتبارها الوسيلة الأولى لتحقيق الأسلوب الفينومينولوجى المباشر لهو أمر صعب تماما فى المرحلة الحالية، ولكنى أرى أنه ينبغى الإعداد له منذ الآن.

(١٥٢) رحلة الوحدة والأستعانة :

كررنا قبل ذلك ماشاع من أسم "رحلة الداخل والخارج" بمعنى الإلتحام بالآخر داخل الرحم (النفسى) خوفا من العلاقة ومتطلباتها ثم الهرب من الرحم النفسى للآخر خوفا من الأنمحاء ... وهكذا، فإن كان ذلك هو الوضع الحقيقى فى الموقف الشيزويدى، فإننا ينبغى أن نبحث عن تطوير له فى الموقف البارانوى، لذلك فإنى أقترح أن تسمى رحلة البارانوى برحلة "الوحدة والأستغاثة" Loneliness scour program حيث أن البارانوى حين ينسحب لاينسحب إلى رحم نفسى، ولكنه ينسحب إلى "وحدته" وليس إلى رحم نفسى، ولكنه ينسحب إلى "وحدته" وليس إلى رحم أحد، وحين لايطيقها من عظم الشقاء فيها (وليس من خوفه من الألتهام مثل رحلة الداخل عند الشيزويدى) يعود مستغيثا بالآخر منها، والاستغاثة لاتعنى الأقتراب من الآخر لعمل علاقة ... بقدر ماتعنى نداءه (كما عودنا البارانوى) بالشروط المعروفة..، وكما أن البارانوى قد مارس المناورة حتى حقق الإبعاد، فإننا نراه يمارس المحاولة طلبا لتقدم الآخر وهو فى نفس مكانه، وهذا يدل على مزاية جديدة من مزايا هذا الموقف تختلف عن الموقف الشيزويدى الغائر فى الداخل والضائع فى الخارج، وعن الموقف الاكتئابى المغامر بالعلاقة الدافع عنها مرارة وجزعا، إذ نجد

البارانوى يكاد يقف مكانه ويحرك الآخرين بالإبعاد (فيخاف ويرتد) أو الأستغاثة (لكن حياتى دون الآخر وهم) أو التحذير (فلتحذر .... وكفى إغراء) إلخ هو يحافظ على موقفه ومسافته من خلال تحريك الآخرين بالشروط وفى المساحة التى يحددها، ولابأس من التأكيد مرة أخرى على هذا التناقص المتكافئ فى موقفه.

(ا) إذ هو شديد التمسك بوحدته شديد الضجر منها.

(ب) وهو شديد التعلق بالآخر والحاجة إليه شديد الخوف منه وعليه.

(جـ) وهو شديد الإصرار على حركة الآخر إليه شديد التعجيز له. .... إلخ.

إذا فرحلة الوحدة والأستغاثة تفيد أن البارانوى إذ يحقق وحدته، سرعان ما يحن إلى الآخر وبالعس.

(لكن حياتى دون الآخر وهم

صفر داخل صفر دائر

لكن الآخر يحمل خطر الحب

إذ يحمل معه ذل الضعف)

ووحدة البارانوى وحدة حية - كما ذكرنا-، والفراغ الذى يستشعره فيها فراغ مخيف وحقيقى لاتملؤه البدائل الشيزويدية من رموز غير حية وغير إنسانية، وفى نفس الوقت فإن اقترابه من الآخر إقتراب حقيقى بحيث يخشى منه ومايترتب على مغامرة العلاقة من خلاله.

(١٥٣) الحب .. والأخذ .. والمذلة :

وكما قلنا، إن مشكلة صورة النفس عند البارانوى هى مشكلة "الضعف" أساسا، فإننا نقول إن أى حب عند البارانوى يعلن ضمنا حاجته التى هى من صميم ضعفه، ودراسة البارانوى من هذه الزاوية تظهر لنا مشكلة فى التركيب الإنسانى أغفلت أغفالا شديدا بالتناول الأخلاقى المسطح للوجود البشرى، وهى مشكلة "العجز عن الأخذ"، فنحن غالبا ما نعتبر - أخلاقيا - أن العطاء هو قمة التواجد الإنسانى الراقى، سواء كان غطاء تلقائيا أم تساميا دفاعيا، وبالتالى فالعجز عن العطاء هو المرفوض والموصوم، فى حين نعتبر أن الأخذ يحمل مظنة الأنانية، وكأن العجز عنه هو فضيلة إذا بشكل ما.

أما النظرة الأعمق للتركيب البشرى وخاصة فيما يتعلق بمشكلة العلاقات الأولية فهى تعلن أن "عجز الإنسان عن الأخذ"[١٩]، وخوفه من إدراك هذه الضرورة هى من أكبر معوقات نموه، والعصابى والشيزويدى يبالغان فى الأخذ، بل يكاد أن لايعرفا سواه فى العلاقة، ولكنهما عادة مالا يسميانه أخذا، فهو يحدث بعيدا عن دائرة الوعى، وكأنه "سرقة" أكثر منه أخذا حرا مسئولا ..، وبكلمات أخرى فالأخذ يصبح خطرآ مخيفا حين يسمى أخذا فعلا، والبارانوى يعرفه باسمه وبحقيقته وبالتالى فهو يدرك خطره عليه وعلى الآخر..

19- كتب إريك بيرن عن 'الخوف من الحرية' 'كتابا مستقلا' وكتبت عن 'الخوف من الإيمان' فى 'مقدمة فى العلاج الجمعي'، وهذا كله تنبيه إلى أن كثيرا من المقدسات الشائعة والمحببة فى الظاهر، هى مرفوضة ونهاية صعبة فى عمق التواجد البشرى.

والخوف من الأخذ كما ظهر فى ممارستى للعلاج النفسى الجمعى خاصة يحمل تفسيرات عدة:

(آ) الخوف من معرفة حجم الأخذ وليس من الأخذ الجارى فعلا تحت ظل الدفاعات العصابية والإلتهام الشيزويدى.

(ب) الخوف من إعلان الأخذ (بحجمه أيضا) وبالتالى الخوف من المطالبة بالمقابل، أى الخوف من العطاء التالى الملزم.

(جـ) الخوف من إدراك الصد كأحد احتمالات وضوح عملية الأخذ وإعلانها مسبقا إذ أن الأخذ لو تم فى النور وبوعى كاف، فإنه قد يعلن بالطلب القابل للإجابة أو الرفض.

(د) الخوف من "إظهار" الأعتماد وإعلان الضعف.

(هـ) الخوف من مواجهة احتمال توقفت الأخذ مادام قد أصبح عملية شعورية معلنة.

(و) الخوف من تزايد الأخذ وعدم التوقف حتى يصل إلى درجة الألتهام الشيزويدى الكامل، و"السرقة" - أى الأخذ غير الواعى - تخفى كل هذه المخاوف- إلا إن الوعى الذهانى، أو الأقتراب منه فى حالات الذهان النشطة (البارانويا النشطة أى أحياء الموقف البارانوى)، يهدد بإعلان هذا الأخذ، وبالتالى فإن البارانوى من خلال هذا الوعى، أو من خلال التفعيل السلوكى Behavioral acting out لهذه المخاوف الكامنة يرهب الأخذ أضعافا مضاعفة، وهو يدرك فى أعماقة حقيقة مخاوفه من الجانبين، فمن جانبه هو يخشى فتح سعار احتياجه وجوعه بلا توقف، ومن ناحية أخرى هو يخشى من إظهار ضعفه للآخر ومما يترتب على ذلك - فى تصوره - من مذلة..، والحب هنا من وجهة نظر (الموقف) البارانوى هو الأخذ، إذا فهو احتمال الذل

(لكن الآخر يحمل معه خطر الحب

إذ يحمل معه ذل الضعف

يتلمظ بالداخل غول الأخذ

فأنا جوعان منذ كنت)

(١٥٣) الوجود المثقوب : The perforated existence

وأستطيع أن أركز فى مشاهداتى فى الممارسة الإكلينيكية والعلاج الجمعى على أن أعظم خوف يمر به البارانوى هو ألتهام الآخر (أن يلتهم هو الآخر وليس أن يلتهم من الآخر)، وقد أشرت فى صفحة ١٩٢ أن البارانوى قد تعلم من الموقف الشيزويدى أنه يستطيع أن "يحتفظ بالكعكة ويأكلها فى نفس الوقت" ففى حين يلتهمها الشيزويدى (أو يلتهمها - بضم الياء - مجازا)، وفى حين يسيطر عليها المكتئب حتى لقد يقتلها (أضغط تحلب .. أترك تنضب، ...إلخ) فإن البارانوى يحافظ عليها على مسافة، وكل خوفه من الأخذ هو أن يفتح بابا لا يستطيع إغلاقه، فهو يدرك -بعكس الشيزويدى - مدى احتياجه، ومدى سعار هذا الأحتياج (غول الأخذ) ومدى حاجته لوجود الآخر خارجه "على مسافة" فى نفس الوقت.

أما السر وراء ما أسميته "الوجود المثقوب" فهو أنه لم يرتو فى الوقت المناسب - أثناء النمو- وإعادة النمو بالقدر الكافى المطمئن من العلاقة٢٠، ومشكلة النمو عند منظرى العلاقة بالموضوع (جانترب كمثال) هى فى الكينونة قبل أن تكون فى اللذة أو الإلتزام الخلقى أو التوفيق بينهما (كما حاول أن يصورها فرويد)، والكينونة تأتى من تفاعل التكوين Constitution، فإذا تمت الكينونة بهذه الدرجة المناسبة - كما هو الحال عند البارانوى - الذى لم يتخط موقف التوجس والشك - فإن العطاء يصبح بلا جدوى والأخذ - إذا سمح به - يصبح بلا نهاية وهذا ما أسميته "الوجود المثقوب"، وتقابل هذه الظاهرة (الوجود المثقوب) أيضا وأساسا فى الوجود الشيرويدى والسيكوباتى فى العلاج ولكنها لاترفض ولايحذر منها كما هو الحال عند البارانوى، وهى تفشل كل عطاء مهما بلغ، ما لم تتغير التركيبة بوسائل أخرى قبل تقبل هذا "العطاء المسكوب".

إذا فمخاوف البارانوى من الأخذ - على لسان الجزء الأعمق من وجوده - يعلن أنه ليس بداخله سوى دوامة الفراغ ٢١ دون أى كيان ذاتى متلق

(فأنا جوعان مذ كنت

بل إنى لم أوجد بعد)

وحتى "يوجد" الإنسان، فإن مسارا مناسبا لابد أن يتم، حيث تصل إلى الوجود فى كل مرحلة الجرعة الكافية والمناسبة من المعلومات Sufficient and appropriate Information ٢٢ (مما يسمى أحيانا حبا كما ذكرنا مثلا) فينتقل الوجود، (تغذية المخ) من مرحلة إلى مرحلة حتى يستقر إلى المرحلة المناسبة مؤقتا، مع كمون المراحل السابقة التى استنفدت أغراضها، فإذا تم تكوين هذا الوجود، فإن الآخذ يصبح احتمالا آمنا، وإلا فاللاوجود (أو الوجود المثقوب) هو البديل المطروح، وهو الذى يرعب البارانوى خاصة.

(١٥٤) التكوين البارانوى (وإطلاق الأستعداد الوراثى):

على أننا نضع فى الأعتبار التكوين البارانوى نفسه، ذلك لأن المدارس النفسيه التى تؤكد على هذه المرحلة الطفلية تضع المسئولية كلها على هذه العلاقة مع الأم (والبيئة) ولكن النظرة التكوينية البيولوجية الأعمق لابد وأن تضع فى الأعتبار الأستعداد البارانوى، فمن المعروف كلينيكيا أن البارانويا - مثل أفراض أخري- وتتواتر فى عائلات بذاتها بنسبة أكثر من سائر الناس (على الأقل باعتبار الأستعداد لها)

20- تعبير الأرتواء من العلاقة أكثر صحة وعلمية من تعابير الأرتواء من الحب أو من الحنان، لأن المهم هو ماهية ومعنى وثراء وتناسب المعلومات information الواصلة لجهاز فعلنة المعلومات (المخ) فى مرحلة بذاتها، وهذا يمكن أن يسمى مجازا الحب أو الحنان، إلا أن الخلط فى سوء استعمال هذه الألفاظ لا حدود له.

21- وصف جانترب فى كتابه 'الظواهر الشيزويدية والعلاقة بالموضوع والنفس' حلما متكررا كان يحلم فيه المريض وكأنه مكنسة تسحب كل ما يقترب منها.

22- يقابل هذا التعبير فى بعض مدارس سيكولوجية الطفولة تعبير الأم الكافية.Good enough mother

فكيف نوفق بين قبول فكرة الأستعداد التكوينى وبين تفسير التوقف والتثبيت البارانوى لعدم الأرتواء عند الموقف البارنوي؟

الحقيقة أن المقام هنا لا يتسع إلى الإفاضة فى شرح الفرض الذى يوفق بين هذا وذاك، إلا فى الخطوط العريضة التى سبق الإشارة إليها من حيث احتمال أن العادات المكتسبة الدالة تطوريا Evolutionary Significant تورث، ثم من حيث أن الأنتوجينيا تكرر الفيلوجينيا مع اختلاف المجموعات حسب ظروف تاريخها التطورى، فالذى نزل من سلسلة حيوية نمى عندها المستوى البارانوى نموا خاصا نتيجة لفرط تعاملاته البارانوية حتى تثبتت فى داخل الجهاز العصبى والخلايا عامة أكثر من غيرها، إنما يولد وهو أكثر عرضة من غيره للتثبيت عند هذا الموقف، وبالتالى لاستعادة نشاطه عند الضغوط ...

فإذا حاولنا تطوير هذا الفرض مترجمينه إلى لغة نفسية تفاعلاتية Transactional فإننا نقول إن البارانوى يولد وعنده تركيب والدى متضخم بحيث لا يسمح للتركيب **الطفلى**[٢٣] الأقدم بأخذ الجرعة اللازمة من احتياجه

(من فرط الجوع التهم الطفل الطفل)

ويذكرنا ذلك بأن الأنا الوالدية .. ليست والدية بالمعنى الشائع إذ، أنها تركيب مخى يقع على أرجح الفروض فى المخ القديم دون الحديث أساسا، وهى قابلة للطبع من الخارج .. ولكنها ذات أساس ذاتى وتلقائى أيضا، وهذا التركيب إذ هو موروث فى البداية قد ورث أساسا ماطبع قبلا من العالم الخارجى، بما يشمل فى المقام الأول الجوع وعدم الأمان والألتهام أى الصفات البارانوية، التى إذا ماطغت استعدادا ثم قويت من التفاعل المؤكد لضرورتها والمؤدى لتضخمها، طغت على ماسواها، وخصوصا الجزء الأقدم منها (**الطفل**) وأضعفت - نسبيا - الجزء التالى لها.

وأضيف أخيرا التحذير الذى يزيد الأمر تعقيدا من أنى أرى - وإن عجزت الوسائل حاليا عن إثبات هذا الفرض - أن كل هذه التراكيب ليست فقط فى التنظيم المخى، ولكنها لها ما يقابلها ويوازيها فى التنظيم الخلوى Cellular عامة .. وهذا أمر أعمق، ويجدر أن يترك مرحليا .. ولكن تذكر احتمال صدقه باستمرار يخفف من غلواء التحمس للفروض الأحادية أو المسطحة أو الموضوعية أو الميكانيكية.

وهكذا يجتمع الأستعداد البارنوى الجائع، مع العجز البيئى عن الإرواء لتضخم المشكلة البارانوية .. وتعيد ظهورها بعد اختفاء مؤقت فى أى تنشيط لاحق ومادام ظهورها هو فى إطار مرضى - سيكوباثوجينى - فإنه يعتبر تأكيدا لهذا العجز عن الإرواء مرة ثانية مما يزيد تعرض المريض لهجمات تالية، أو لتشويه تلوثى وأنواع مختلفة من المرض. لذلك كان التعبير المناسب هو "بعد فوات الوقت".

(فإذا أطلقت سمادى بعد فوات الوقت

ملكنى الخوف عليكم

23- لاتنسى أن هذه التعبيرات تعبيرات وظيفية مجازية وهى تقابل التركيب الأقدم (الوالدى) والأكثر قدما (الطفلى) مما لا مجال لتفصيله هنا حاليا.

إذ قد ألتهم الواحد منكم تلو الآخر

دون شبع)

ذلك لأنه لو تم إعادة نشاط الموقف البارانوى فى ظروف نموية غير مرضية (ماكروجينى) لعاش نفس الموقف ونفس الأبعاد لا ليزداد خوفه مثل النبضة الأولى، ولكن ليصلح من تناوله للموقف باختلاف المجال المحيط والإرواء الممكن فى هذه النبضة التالية فى ظروف أقوى وأفضل.

ونكرر هنا ما أشرنا إليه فى الاكتئاب من أن العودة إلى الموقف البارانوى فى نبضة السيكوباثوجينى لاتتم فى اتجاه عكسى مباشر، وما هى إجهاض عند الموقف البارانوى بعد محاولة إعادة ولادة فاشلة. **(١٥٥)**

تفسير عدوان البارنوى :

يتجه التفسير السلوكى والدينامى المسطح لعدوان البارانوى باعتباره استجابة لضلال معين أو أنه تفاعل ضد اضطهاد معين، وكأن البارانوى ليحمى نفسه من أوهام الأعتداء، بمعنى أنه إما هجوم لتنفيذ معتقد خاطئ أو أنه هجوم دفاعى ضد أوهام الأضطهاد والتوجس.

إلا أن التفسير الذى أقدمه هنا له أكثر من جانب، وهو مستعد - كالعادة - من واقع الخبرة الكلينيكية والعلاج الجمعى، فهو متصل بشكل جوهرى بالمشكلة الكيانية، وضعف الذات الداخلية، وفرط الأحتياج للاخر - على مسافة - والخوف من اقترابه أكثر ومن بعده أكثر فى نفس الوقت، فالعدوان عند البارانوى.

١- دفاع ضد إقتراب الآخر فهو إبعاد فعلى من خلال نشاط فيزيائى مباشر إذ لم يكتف بالإبعاد غير المباشر بكل حيله وأساليبه (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

٢- دفاع ضد بعد الآخر أكثر مما ينبغى، لأنه فى العدوان عليه طمأنينه ضمنية لوجوده فى متناول التفاعل (وهو قريب من هذه الزاوية بشكل ما من عدوان الاكتئابى).

٣- وهو نشاط من ضمن تكوين رد الفعل Reaction Formation ليخفى ضعفه الداخلى بقوة ظاهرية تسهم فى مزيد من إخفاء داخله إذ يهدد بالظهور نتيجة للنشاط البارانوى المستعاد.

٤- وهو تثبيت لضلال عدم الحب "لا أحد يحبني" وضلالات العدوان .. "الناس أعدائى ... وليس بينى وبينهم إلا المعارك" فهو إذا -ضمنا- إلغاء للتهديد بالأمان، الذى قد يغريه بالتنازل عن دفاعاته بجرعة تعرضه للسحق فالإلغاء فالهلاك، والعدوان يضمن له تحطيم هذا الأمان المحتمل أولا بأول.

٥- وهو طلب مباشر واحتجاجى على النوع المطروح من الحب وعلى كمه وعلى وظيفته وكأنه يقول من خلاله .. "لا .. ليس هذا هو الحب الذى أريده .. وليست هذه هى العلاقة التى تحافظ على وجودي".

٦- وهو فى نفس الوقت إجهاض لأى مشاعر صادقة وتشويه لها حماية لنفسه من الأعتماد على مصدر يصوره لنفسه أنه غير دائم أو غير مؤكد.

والمتن هنا يؤكد أساسا على الخوف من اقتراب الآخر وما يحمل من مشاعر صادقة واحتمال علاقة

(يامن تغرينى بحنان صادق .. فلتحذر،

فبقدر شعورى بحنانك.

سوف يكون دفاعى عن حقى فى الغوص إلى جوف الكهف

وبقدر شعورى بحنانك

سوف يكون هجومى لأشوه كل الحب وكل الصدق)

ويظهر هذا الموقف بشكل خاص فى العلاج الجمعى، سواء بالنسبة للشخص الذى يعانى من معالم بارانوية فعلا، أو بالنسبة للشخص الذى أستعاد من خلال العلاج النشاط البارانوى، فإن مرحلة الهجوم على المعالج ٢٤ تعلن ظهور أغلب هذه العوامل أى أنها تعلن أن المريض كاد يطمئن إلى احتمال وجود علاقة حقيقية تعيد تنظيمه وفى نفس الوقت - ضمنا وبداهة - تهدد تركيبه القائم.

ومن خلال رؤية أعمق يعلن البارانوى خطورة الأقتراب مرة ثانية وخطورة السحب إلى جب بلا قرار.

(إذ فى الداخل

وحش سلبى متحفز

فى صورة طفل جوعان)

ولأول مرة يقترن الطفل أو التركيب الطفلى بما هو سلبى ووحشى، وهذه قضية خطيرة، فقد شاع فى بعض الدراسات النفسية، ما يوحى بتمجيد ما هو طفلى ووصفه بالبراءة والتلقائية وغير ذلك من "فضائل" (i)، وقد نبهنا فى أكثر من موضوع على سلبيات ماهو طفلى فى ذاته .. فإذا تذكرنا علاقة الأنتوجينيا بالفيلوجينيا، فلابد أن نعرف أن مايقابل الطفل فى بعض مراحله الأولى هو أنواع من الأحياء ليست بالضرورة بهذه البراءة والحسن المطلق، وقد قابلنا - مجازا - بين الموقف البارانوى وموقف النمر - مثلا -، والرؤية الأعمق هنا تؤكد الجانب السلبى المتوحش فى الوجود الطفلى المقابل لهذا المستوى إذ يستعيد نشاطه ..، وهذا الجانب إنما ينميه أن يصل الطفل من "المعلومات" - طريقة المعاملة - ما يؤكد ضرورة ضراوته وتخوفه ويثنيه على ذلك، وهو إذ يستقر على هذه الوسيلة البدائية للمحافظة على حياته يتمسك بها كأساس تحت طبقات نموه الظاهرة (فى التكوين البارانوى) كما أنها تظهر مباشرة فى مراحل استعادة النشاط البارانوى كما نشرح هنا ... ويصبح الخطر - من وجهة نظر البارانوي- أن تتغير طبيعة "المعلومات"٢٥ الواصلة إليه، فبدلا من أن تكون معلومات مثيرة لاستجابة البارانوية وتصبح معلومات مثيرة للأمن "وملوحة" لما يسمى "حبا" فتربك حساباته وما تعود عليه

(وكفى إغراء

وحذار فقد أطمع يوما فى حقى أن أحيا مثل الناس

24- أنظر كتاب 'مقدمة فى العلاج الجمعي'، المرحلة الخامسة فى العلاج ص ٩٩ وما بعدها (للمؤلف).

25- كلمة 'المعلومات' تكرر ذكرها بمعنى Information ورغم أنها ليست ترجمة دقيقة فإننا مضطرين مرحليا لاستعمالها، ولكن ينبغى التأكد على أنها ليست معلومة بمعنى 'المعرفة أو الاحاطة أو الأنباء' ولكنها معلومة بمعنى كل الرسائل الواصلة إلى الجهاز البشرى وخاصة المخ البشرى الملخص الأول لعملية 'فعلنة المعلومات'.

فى حقى فى الحب)

إذا فالبارانوى، رغم كل شئ، يدرك فى أعماقه أن هذا الموقف الذى اضطر إليه، وتعود عليه، هو موقف خاص-ليس مثل الناس- كما ينكر أن أستجابته قد حرمته- بإرادة نسبية وعميقة - من حقه أن يتخطى هذه المرحلة التوجسية إلى مرحلة الأمان الثانوى Secondary security التى وصفناها فى دراسة الأكتئاب.

فالهجوم كلما أشتد على المعالج أو على الشريك أو الحبيب ... إلخ كلما أعلن هذا ضمنا شيئين أولهما: الحاجة الشديدة إلى هذا الشخص موضع الهجوم وثانيهما: احتمال اقتراب استقبال عواطف صادقة نحوه .. وهذا وذاك كما يبدوهما عكس الشائع عن مثل هذه المواقف البادية العدوان.

(١٥٦) الجذب النكوصى فى البارانوى :

وخوفا من استمرار هذا التلويح بالأمان المخيف (لاحظ التعبير ظاهر التناقض) فإن الميل إلى الانسحاب بعيدا عن مصدر التهديد (بالأمان) يشتد، ولكن نلاحظ أن البارانوى لا يستسلم أبدا لهذا الجذب مثل الشيزويدى، فهو دائما يتصور أن هذا الأتجاه هو اتجاه إلى الموت ذاته وهو إذا مشدود دائما بين الخوف من الآخر والخوف من الوحدة، ولكن إذا كان الأقتراب حتم رغم مظاهر التألم ومحاولة إيقافه بإشاعة الأنزعاج والاحتجاج

(ألبس جلدى بالمقلوب

فلينزف إذا تقتربوا

ولتنزعجوا)

فإن الاتجاه نحو النكوص يبدو حتما أخطر وإن كان لايتم بمعنى دخول الرحم وإنما فقط بالشعور بالجذب نحوه

(لأواصل هربى فى سرداب الظلمة

نحو القوقعة المسحورة)

(١٥٧) الحاجة إلى الحب:

إذا فحاجة البارانوى إلى الحب هى أصعب مآسيه الوجودية، وإذا كان الشيزويدى يحتاج إلى الأعتماد الأموى المطلق (داخل الرحم)، والمكتئب يحتاج إلى علاقة مع آخر بكل ما تحمله من مخاطر، فقد وجدت فى خبرتى أن البارانوى يحتاج إلى علاقة مع آخر بكل ما تحمله من مخاطر، فقد وجدت فى خبرتى أن البارانوى الذى يحتاج إلى حب والدى حامى وواضح ومباشر، وهذه الحاجة التى تعلن موقفا وسيطا بين الأختباء فى الرحم، وبين المغامرة بالعلاقة تؤكد الموقف البارانوى الذى يأبى الألتهام ولايقدر على الأقتراب فى نفس الوقت، وهو يرفض الوحدة بكل ما يملك من قدرة على تجميد الموقف - وسطا - بعيدا عنها، إذ هو يعلم تماما معنى العدم والموت فيها

(لكن بالله عليكم ماذا يغرينى فى جوف الكهف؟

وصقيع الوحدة يعنى الموت)

وفى نفس الوقت هو لا يضمن إطلاقا أنه إذا رفض الوحدة سوف يحصل على حاجته الملحة والعنيفة إلى الرعاية المباشرة، وجهاز الاستقبال العاطفى عند البارانوى مغلق كل الوقت، وهذا من أهم دفاعاته المتأصله والحامية له من اقتراب الآخرين، وبالرغم من أنه هو الذى لا يستقبل قصدا ودفاعا وحماية فإنه يضع اللوم على الآخرين باعتبارهم نسوه أو أهملوه أو أطعموه وتخلوا عنه، وكثير من قصص البارانوى التى يقوم فيها بدور الضحية يحكى فيها عن خيانة الأصدقاء، ونقص الوفاء وعذر الأحبه، وقلة الأخلاص ... إلخ.

(أما فى بستان الحب،

فالخطر الأكبر

أن تنسونى فى الظل

ألا يغمرنى دفء الشمس

أو يأكل برعم روحى دود الخوف

فتموت الوردة فى الكفن الأخضر

لا تتفتح

والشمس تعانق من حولى كل الأزهار

هذا موت أبشع)

وهكذا يظل البارانوى يتحرك فى مسافة محدودة لايدخل القوقعة المسحورة ولايقترب من الآخر، يتأرجح فى رحلة الداخل والخارج، فى رحلة الداخل والخارج، فى رحلة الوحدة والأستغاثة، فى رحلة الحاجة والعدوان، ولعل أخطر ما يواجه البارانوى هو اعترافه بوجود الآخر وإمكانية الحب، ونجاح الأخرين فى تبادله دونه، وهو شعور يضاعف ويؤكد وحدته وانفراديته وشقاءه الداخلى، ولكنه لايدل على انعزاله وانغلاقه وانسحابه مثل الشيزويدى.

وهنا لابد أن نتطرق إلى التفسير الذى طرحه التحليل النفسى لسيكوباثولوجية البارانويا باعتبارها نابعة من فشل نسبى لكبت الميول الجنسية المثلية ..، والتفسير عندى لهذا الفرض يحتمل أكثر من وجه: أولا: إن حاجة البارانوى هى حاجته إلى "دعم قادر قوي" (الذى عبرت عنه بالدعامة الوالدية)، وقد لوحظ أن المادة المكبوته فى الذكور فى هذه الحالات هى الجنسية المثلية، أما عند الإناث فهى الجنسية المغايرة Heterosexuality ، وهذا يعنى ضمنا حاجة البارانوى إلى القوة أساسا-الممثلة رمزا فى هذا النداء الملح الخائف بالاعتماد على الذكر بالنسبة للجنسين بما يعنيه.. ذلك الأعتماد الذى قد يختلط مع المادة المكبوتة فيظهر فى صورة جنسية، ويوصف بلغة جنسية، وقد لاحظت فى الممارسة الكلينيكية أن هذه الحاجة إلى الوالد قد تمتد إلى حالات الذهان البارانوى المقحم Folie a deux حيث لا تنفك الرابطة المربطة بين

العضو الطاغى (البارانوى عادة) والعضو المستسلم، الفصامى (من النوع الهبيفرينى أو البارنوى عادة) إلا بجرعة والدية للأثنين معا.. ياحبذا من نفس المعالج.

والوجه الثانى: أن حالات البارانويا إذ هى تنتقل بالضلالات من اللاشعور إلى الشعور نتيجة لفشل الكبت جزئيا إنما تظهر الضلالات الكامنة والجاهزة، ومن ضمن الضلالات المترتبة على عدم معايشة مراحل النمو الجنسى المختلفة تلك الخبرات والرغبات التى يرفضها المجتمع، فالمجتمع يرفض الجنسية المثلية عند الذكور بشكل عنيف ومباشر وهو يرفض الجنسية بنوعيها وربما المغايرة أكثر عند الإناث، وظهور هذه أو تلك فى مادة التحليل ماهو إلا إزاحة الغطاء عن ضلالات موجودة فعلا، وبالتالى فلايوجد مبرر لترجيح علاقة سببية بين البارانويا وهذه الضلالات بوجه خاص.

والوجه الثالث: لتفسير الجنسية المثلية عند البارانوى هو أن الوجود الأستقطابى يهتز مع بداية هذا الذهان، وبالتالى فإن احتياجات القطب الآخر للتعبير عن نفسه كمجرد الوجه الآخر (الأنثى فى حالة الذكر وبالعكس) إنما يختلط بالمادة المكبوته، ويظهر على أنه جنسية مثلية بشكل أو بآخر، حسب طريقة استخراج المادة وطريقة تفسيرها.

(١٥٨) احتمال استسلام البارانوى:

ولا يستطيع البارانوى فى هذا الموقف الملح، المهدد بالذل، المعلن للحاجة، العاجز عن الهرب، أن يواصل تثبيت الموقف بكل هذه الأبعاد المتناقضة مدة طويلة، وهو معرض إما إلى اللجوء لإحدى التنويعات البارانوية المزمنة التى أشرنا إليها فى أول الفصل، وإما إلى الأنسحاب الشيزويدى وإلغاء أى احتمال لاقتراب آخر والأستغناء عن هذا الآخر كلية..

خلاصة وتعقيب

١- تعتبر حالات البارانويا مشكلة تشخيصية وسيكوباثولوجية، فهى تتفق مع الفصام فى غائية قطع العلاقات المغذية مع الآخرين، وتتفق مع العصاب المزمن واضطرابات الشخصية فى الإفراط فى استعمال الحيل (وخاصة الإسقاط والعقلنة لتكوين الضلالات والهلاوس)، دفاعا ضد تهديد الذهان الأعمق والتناثر، وعلى سبيل المثال فإن الشخصية الشيزويدية مبنية على ضلال "لا أحد يحبنى" فى حين أن الشخصية السيكوباتية مبنية على ضلال "ليس على الأرض سواي"، وكلاهما بذلك يحافظ على نفسه ضد التناثر.

٢- إن تحديد الخط الفاصل بين ماهو "مفهوم" وماهو "ضلال" صعب للغاية، وهذا يدخل مباشرة فى "قضية المعرفة" وطبيعتها، ويعتبر هذا سبب آخر يفسر الربكة المرتبطة بهذه الفئة.

٣- يتجنب الكلينيكى عادة تشخيص هذه الفئة لتجنب الموقف "الحكمى"، وحتى لايتعرض إلى مراجعة مفاهيمه هو ذاته (أو ضلالاته ... فمن يدري؟).

٤- إن أغلب الحيل الدفاعية إنما يكمن تحتها ضلالات لا شعورية باللغة المعرفية، والضلالات العمومية اللاشعورية هى معتقدات وجماطية، أحادية الجانب، وغير قابلة للتناول.

٥- إن الفرق بين الفصام وحالات البارانويا - برغم تشابههما فى الهدف السيكوباثولوجى - يكمن فى عجز الفصامى عن تكوين مفهوم متماسك أو منظومة ضلالية متنظمة بما يستتبع ذلك - فى النهاية - من تناثر فى الشخصية.

٦- إن تكوين الهلوسات والصور الخيالية إنما يطابق تماما تكوين الضلالات ولكن على مستوى الإدراك الحسى والتخيل بالتوالى.

٧- إن الهلوسات يمكن أن تتناول من زوايا عدة:

(أ) فهى تعلن تعتعة ثم ملخ ثم إسقاط جزئى لحالات منطبعة من حالات الأنا مشحونة بإفراط لم يمكن تمثيلها بدرجة كافية (الهلوسات البيولوجية النشطة).

(ب) وهى تعلن من جهة أخرى قصور "المعلومات" الواصلة لجهاز فعلنة المعلومات المخى، وهى على ذلك معلومات داخلية تعويضية.

(جـ) وهى حين تستتب وتسقط، وتعقلن تمثل "الهلوسات الضلالية المسقطة".

٨- إن متدرج البارانويا يمكن أن ينظر إليه، إذ يتسلسل، من بعدين معا:

الأول: بعد "الشعور واللاشعور".

والثانى: بعد "المنظومة الضلالية (الأساسية) المنظومة المفهومية الأساسية".

وعلى ذلك **ففى الحياة العادية** نجد المنظومة الضلالية تقع فى اللاشعور أساسا، ولايظهرتأثيرها فى السلوك إلا بطريق غير مباشر، فإذا زاد هذا التأثير فى اتجاه الشك والحساسية والشعور بالأستعلاء (والنقص) فإن الشخص قد يوصف - فى حدود السواء أيضا- بأنه ذو شخصية بارانوية، أما فى حالة **اضطراب نمط الشخصية البارانوى** فإن المنظومة الضلالية تلوث المنظومة بدرجة كاملة تقريبا، أما فى **حالة البارنويا الحقيقية** فإن المنظومة الضلالية تحل محل المنظومة المفهومية بشكل شبه تام وتأخذ شكل السلوك شبه العادى.

وأخيرا فإن **حالات البارانويا الأصلية** هى التى تسير فيها المنظومة الضلالية والمنظومة المفهومية جنبا إلى جنب فى نفس الوساد الشعورى.

أما فى **الفصام البارنوى** فإن عاملا جديدا يضاف إلى كل ذلك حيث تكون عملية تكوين المفهوم وتكوين الضلال عاجزة فى ذاتها مما ينتج عنه اضطراب فى شكل الفكر وتصبح الضلالات غير منتظمة (أو سيئة التنظيم).

أما فى **العصاب البارانوى** فإن المنظومة الضلالية تقترب من الشعور دون أن تخترقه ويظهر سوء التأويل أو الضلالات المؤقته .. ولكنها قابلة للتعديل إما ذاتيا وإما استجابة لاختبارات المنطق العام.

٩- يمكن تقسيم حالات البارانويا من خلال بعد إضافى (ليس بالضرورة بديلا عن البعد الشائع) فنقول إنه يوجد حالات **البارانويا النشطة بيولوجيا** والتى تعنى إعادة النشاط للمستوى البارانوى (باللغة الفيلوجينية) أو الموقف البارانوى (باللغة الأنتوجينية) وهذه الحالة هى نواة تكوين الضلالات الأخرى، ونلقاها فى الصورة الكلينيكية - كما هى نسبيا - فى صورة نوبات البارانويا الحادة وتحت الحادة، وهذه الفئة هى أساس موضوع دراستنا للسيكوباثولوجى هنا، وقد تشمل فئات فرعية مثل حالات البارانويا النوابية وحالات البارانويا المتفترة، أما النوع الأساسى الآخر فهو حالات البارانويا المستتبة والتى تقابل المفهوم الفرنسى عن "الضلال المزمن" (باستثناء الفصام المدرج عند الفرنسيين تحت نفس العنوان) وهذه الحالات تمثل تغيرا مزمنا فى تركيب الشخصية نفسها، كما يمكن أن نجد منها تنويعات مختلفة فى الصورة الكلينيكية أيضا مثل حالات "**البارانويا الودودة الضحوكة**"، و"**حالات البارانويا القاسية الساخرة**"، و"**حالات البارانويا المعتمدة اللاصقة**".

١٠- إن مصدر الضلالات عامة (وفى حالات البارانويا خاصة) ينبع من إحياء الموقف البارانوى، وكذلك كشف الغطاء عن المحتوى الضلالى اللاشعورى الموجود فعلا ثم، نسج عقلنى لكل من هذين المصدرين بالأشتراك مع المثيرات البيئية لإخراج معتقد أو مدرك أو صورة خيالية.

١١- الموقف البارانوى أثناء النمو الفردى (وباعتبار أصله الفيلوجينى) لايمكن فصله فى واقع الحال من الموقف الشيزويدى، ويهدف كلا الموقفين إلى إبعاد أو تجنب الموضوع (الآخر)، ولكن بأساليب مختلفة، كما يتبادل الموقفان المواقع فيما بينهما، ولكنهما مختلفان تماما من منظور السيكوباثولوجى وهذه الدراسة تقدم الموقف البارانوى كنشاط مستقل.

١٢- إن البارانوى (الطفل فى الموقف البارانوى الأصلى أو الشخص فى الموقف البارانوى المستعيد نشاطه) ليبعد الآخر باتباع أساليب تجعل الآخر يخشى مزيدا من الأقتراب وأهم تلك الأساليب: (أ) الأسلوب القنفذى، و (ب) أسلوب المطالبة الملاحق، و (جـ) أسلوب الإيهام بالذنب (الإذناب).

١٣- إن وحدة البارانوى وحدة نشطة، تسمح بعلاقة يضع شروطها البارانوى نفسه، وعلى مسافة معينة منه، وينبغى أن نميز هذه الوحدة عن وحدة الشيزويدى التى يحققها بالأنسحاب وعن وحدة الهوسى التى يحققها بالأنكار، أما العصابى فهو ليس وحيدا- ظاهريا- بفضل استعمال الميكانزمات المختلفة.

١٤- إن العمل عند البارانوى، وهو عادة ما يكون ناجحا، يؤدى عدة وظائف معا وهى: (أ) التعويض، (ب) والتحصين، (جـ) والتدعيم.

١٥- إن شقاء البارانوى هو خليط من الحزن والألم والجوع والضياع وهو لايستطيع أن يختبئ فى اللامبالاة مثل الشيزويدى كما لا يستطيع أن يتحمل ألم التناقض مثل المكتئب، وهو لايسمح لمشاعره الداخلية الصادقة أن تظهر فى سلوكه الظاهرى.

١٦- يحقق البارانوى - بصفة عامة - الحفاظ على الآخر على مسافة بوسائل متنوعة من جانبه ومن جانب ما يستثيره فى الآخر، ومن ذلك ريبته، وإخفاؤه عواطفه، وحكمه المتعالى، والكر والفر، والأساليب القنفذية، والإذنابية والملاحقة، وكذلك الصد التأويلى الذى يشوه أى تفسير لأى محاولة صادقة للأقتراب.

١٧- إن "رحلة الداخل والخارج" التى وصفت أساسا فى الموقف الشيزويدى (البارانوى) تتطور إلى رحلة "الوحدة والأستغاثة" فى الموقف البارانوى، ويحقق البارانوى وحدته بحلوسط يؤكد أنه شديد التمسك بوحدته شديد الضجر منها، وهو شديد التعلق بالآخر ومحتاج له، شديد الخوف عليه ومنه فى نفس الوقت، وهو شديد الإصرار على حركة الآخر إليه شديد التعجيز له، معاً.

١٨- البارانوى عاجز عن الأخذ، وعن تلقى الحب أو المساعدة، وهذا يدل ضمنا على خوفه من أن يكشف عن حاجاته الهائلة وعن ضعفه الداخلى.

١٩- إن مفهوم "الوجود المثقوب" إنما يعنى الألتهام غير المحدود الذى يخاف منه البارانوى لو أنه سمح لنفسه بالأقتراب أكثر من الآخر.

٢٠- إن تعبيرات التكوين البارانوى، والاستعداد البارانوى، والعائلة البارانوية، إنما يشير إلى وراثة أسلوب بارانوى خاص للتعامل فى الحياة كان قد غلب على سلوك قطاع من البشر ذوى علاقات جينية. فإذا لم يعش الفرد "انتوجينيا" هذا المستوى البارانوى المحدد فيلوجينيا وعائليا معايشة ملائمة، حتى يستوعبه بدرجة كافية، فإنه يصبح عرضه لاستعادة نشاطه بشكل مفرد عند أية نبضة ماكروجينية تلك النبضة التى قد تجهض عند المستوى البارانوى مما يحولها إلى نبضة سيكوباثوجينية مسئولة عن إحداث حالات البارانويا (من النوع النشط بيولوجيا ... كبداية).

٢١- إن عدوان البارانوى لاينبغى أن يؤخذ باعتباره مجرد من دفاع الكر والفر حيث أنه قد يعنى أيضا:
(أ) دفاعا ضد مزيد من اقتراب الآخر. (ب) وطمأنينة ضمنية على أنه موجود وفى متناول التعامل. (جـ) ونوعا من تكوين رد الفعل يخفى به شعوره الداخلى بالضعف. (د) وتأكيدا لضلال "لاأحد يحبني". (هـ) واحتجاجا على جرعة ونوع المعروض مما يسمى حبا. (و) ومحاولة لتشويه أى علاقة أصيلة خوفا من أن تزداد إلى درجة خطرة.

٢٢- إن استعمال كلمات مثل "الحب" و"الرعاية" و"الدفء العاطفي" فى مجالات العلاقة بالآخر، واحتياجات الأطفال ومناقشة المشكلة البارانوية ماهو إلا استعمال تقريبى، وإن الترجمة الحقيقة لهذه اللغة إلى لغة أكثر علمية يمكن أن تكون بالحديث عن "المعلومات الكافية والمناسبة" التى تسمح بالجرعة الصحيحة للاستيعاب والتمثيل ومن ثم باستمرار النمو.

٢٣- إن حاجة البارانوى للحب، برغم كل دفاعاته ضد ذلك، تمثل محورا أساسيا للمشكلة البارانوية، وهو يحتاج إلى آخر قوى ويعتمد عليه، الأمر الذى يترجم عادة إلى لغة الذكورة مما يفسر المادة المحتوية للجنسية المثلية وللجنسية المغايرة من المرضى الذكور والإناث على التوالى، وهذه المادة الجنسية - إذا لا

تمثل علاقة سببية بالمرض ذاته. ولكن التفسير الأرجح أنها من ضمن الضلالات التى كانت لا شعورية والتى تكونت نتيجة للرفض الإجتماعى والمعلومات الخاطئة أثناء التربية.

الفصل الثامن

عناصر الفصل الثامن:

- الفصام – ماهية الفصام – المفهوم السلوكى – المفهوم التركيبى – المفهوم الغائى
- المفهوم الدينامى – المفهوم المسارى والنتاجى – المفهوم البيولوجى التطورى (التدهورى)
- أنواع الفصام الكلينيكية – الفصام البيولوجى النشط – الفصام البيولوجى الحاد التدهورى
- النوبة الفصامية الحادة غير المميزة – الفصام الراجع المتفتر – الفصام الكاتاتونى
- الفصام الحلوسط – (الفصام البارنوى المزمن، الفصام المزمن غير المتميز، والفصام المتبقى)
- الفصام النكوصى قليل الأعراض – الفصام المستتب المتدهور – مكافئات الفصام
- المسيرة الفصامية – ما قبل الولادة – مسار السيكوباثوجينى فى الفصام – ما قبل المرض
- سوء وفقر التغذية البيولوجية – صورة الذات – مرحلة التعويض – ما قبل البداية
- البداية – بداية البداية – البصيرة بأثر رجعى – سبق التوقيت – إعادة التفسير
- اختيار المرض (بأثر رجعى) – ادعاء محاولة الرجوع للتأكد من إغراق المراكب
- الراحة السرية – الربكة – الشعور بتغير الذات – الشعور التجزيئى للجسد واستقلال بعض أجزائه
- التشكيل التركيبى لمسار الفصام وبدائله فى مراحله الأولى
- مرحلة التعتعة – مرحلة الملخ – مرحلة استقبال أحدهما للآخر – مرحلة فقد التحديد بين الكيانات
- مرحلة تقسيم الوظيفة الوحدة بين كيانين – استمرار المسيرة وتزايد اللاهارمونى
- همود التقابل – ضعف القوة الضامة الداخلية – ظهور الميكانزمات فى نشاز جديد
- تباعد الوظائف النفسية وتفككها – التفكير والفصام – خطوات اضطراب الفكر فى الفصام
- التمهيد بفقر التغذية – الوعى بالفكرة ذاتها، ومنع استقبال معلومات داخلة
- ظهور الفكرة المركزية البديلة (فى نفس الوقت) – تساوى التكافؤ
- الحل الجانبى (غير الفصامى) – انفصال اللفظ عن معناه، ثم استقلال اللفظ وسيطرته
- استقلال التفكير فى ذاته – اللغة الجديدة، واللغة الخاصة
- نوعية الترابطات الجديد – التجريد والعيانية – التواصل الموازى للألفاظ، وبلا ألفاظ
- وظيفة اضطراب التفكير (والكلام) لدى الفصامى – التمهيد للتفكك – تجنب المسئولية
- تجنب التواصل – تجنب الفعل – إعلان الفشل – تبرير النكوص

اضطراب العواطف عند الفصامى:

- ترتيب مبدئى لتسلسل العواطف تطوريا – مراحل اضطراب العواطف فى الفصام
- ظهور انفعالات جديدة ومزاحمة – العجز الوظيفى للعواطف
- تفريغ الفكر ثم اللفظ من معناه – ظهور الانفعالات البدائية بالتدريج وبتزايد مستمر
- العودة للتهيج العام غير المتميز مع التناثر الكامل
- اضطراب الإدارة عند الفصامى – ماهية الارادة – درجات الارادة واللاإرادة
- طبيعة اضطراب الإرادة فى الفصام – الغائية وراء اللاإرادة
- عزلة الفصامى واستغاثته – تعيين المفاهيم – شعور الفصامى بالذنب
- المرحلة القبلفظية – الالتحام الحسى بين القبمدرك والجسد – تعميق استغالة الفصامى
- استقلال الرمز بعد تحلله – تبرير مزيد من التراجع – التصلب الشمعى
- الانتباه السلبى – مواصلة المسيرة الانسحابية

الفصام

SCHIZOPHRENIA

مقدمة:

تتطور هذه الدراسة معنا بتطور نمو العمل الفنى (المتن) من الأسطح إلى الأعمق، وها نحن نصل إلى لب المشاكل وقضية الوجود البشرى ونواة المرض النفسى جميعه، أو ما يمكن أن نسميه "مرض الأمراض" وهو الفصام، وكلمة مرض الأمراض ليس كلمة فنية هنا، فإن كل ما ذكرنا حتى الآن من أمراض من أول العصاب وإضطرابات الشخصية حتى الإكتئاب والهوس والبارانويا، كل ذلك لم نقدمه إلا فى صورة دفاعات ضد التفسخ والتناثر، أى دفاعات ضد الفصام.. وكأننا لابد أن نعيد هنا ما سبق أن ألمحنا إليه من تعليق أحد طلبتى بعد شهر من عمله معى بأن "...أهكذا؟ الأمراض النفسية إما فصام وإما دفاع ضد الفصام".

وأعتذر للقارئ إذا كان هذا الفصل سوف يخرج قليلا عن الإلتزام المبدئى بأن هذه الدراسة ليست سوى شرحا للمتن، لأن الفصام- إذ هو مرض الأمراض - لم يأخذ حقه فى المتن لطبيعته اللالفظية بحيث يصبح التعبير عنه بالألفاظ تعبيرا بعيدا عن عمق ما يمثل من تدهور، كما أن القارئ قد لاحظ أن المقدمات تتزايد كلما أوغلنا فى عمق الدراسة، وله أن يتوقع أننا إذا ما وصلنا الى بؤرة الدوامة أن نوفيها حقها، حتى إذا ما عرفنا أصلها أمكننا سلسلة أطرافها وإعادة التعرف على ما دونها.

وما دام لهذا الفصل وضع خاص، فلابد من تحديد ماهية ما سأضيفه بجوار المتن للتعرف على طبيعة الفصام، وهو كما أسلفت ما تعلمته مباشرة من خبرتى الكلينيكية بشكلها العام، وأخص بالذكر حالة واحدة ظللت أعالجها علاجا نفسيا فرديا طوال ستة عشر عاما بانتظام، بالإضافة الى بعض النشاط البحثى العلمى الخاص فى المدة الأخيرة، وأخيرا وليس آخرا الى تفاعل الفصامين فى العلاج النفسى الجمعى خاصة.

ماهية الفصام:

لا يمكن أن يوجد خلاف فى علم من العلوم حول مفهوم هام وشائع مثل الخلاف فى علم الأمراض النفسية حول مفهوم الفصام، ولا يوجد مجال ولا مبرر فى هذه الدراسة لعرض الآراء المختلفة حول هذا المفهوم التى تعد بالعشرات أو بالمئات لو أراد باحث نقدى أن يلم بها، إلا أن التساؤل الأهم - بعد التأكد من حجم الإختلاف - ينبغى أن يكون عن "لماذا كل هذا الاختلاف؟ عبر التاريخ وحتى الآن؟" وفى تقديرى أن ذلك يرجع للأسباب التالية:

١-إن رؤية الفصام فى عمق تفسخه وتناثره مهدد للفاحص إذا أراد أن يستوعب كل أطراف التفسخ والتناثرفى آن واحد، والفاحص لذلك إنما يركز على جانب دون آخر، أو يكتفى بمستوى دون آخر، حتى

يمكنه أن يحافظ بشكل ما على توازنه هو، وكثيرا ما نسمع الرأى القائل أن الفصام ما هو إلا اضطراب فى الفكر، ورأى آخر يقول إن الفصام ما هو إلا اضطراب انفعالى، وثالث يؤكد على النقطة القرنفلية Pink Spot فى بول المريض (!!)، وعندما كنت أقف موقفا حذرا ورافضا لهذا التجزئ فى أول حياتى العلمية كنت ثائرا غير فاهم لما وراء هذا التجزئ المفاهيمى Conceptual sectorization من دفاعات تحمى الفاحص ذاته من التناثر، ولما طالت ممارستى وتجرأت أكثر فأكثر على الإحاطة بإعماق أكثر غورا، وأطراف أشد تباعدا، ومارست ما يتطلبه هذا وذاك من مسئولية ومعاناة، رجعت أعذر المجزئين لرؤية الفصام بحسب تجزئ مجال رؤيتهم، وقدفهمت طبيعة هذا التجزئ الدفاعى وما يترتب عليه من رؤية الفصام كأجزاء مختلفة بحيث تنتهى الى مفاهيم مختلفة لنفس الظاهرة الكلية، حيث أن كل من يرى الجزء يحسبه الكل ويصف الظاهرة باعتبارها هذا الجزء فحسب.

وإذا كانت هذه هى قضية عامة من مشاكل المعرفة، فإنها فى الفصام بالذات تصبح ذات خطورة خاصة ما لم يوضع فرض مفهوم أشمل تتناسق فى بعض هذه الرؤى الجزئية، لا باعتبارها ممثلة للكل، ولكن فى حدود معطياتها الجزئية إذ هى وحدات فى كل شامل، حتى ولو كان متباعد الأطراف الأمل غامضا فى الوقت الحالى، فالخلط إذا يأتى من <u>حقيقة أن الفصام مشكلة كلية وجوهرية وشاملة ومركزية، وأن قدرتنا على فحصها بكليتها مهددة لنا نحن أنفسنا مهما إحتمينا بأدوات نسميها "موضوعية" لأنها تعرضنا نحن أنفسنا لإستعمال عمق مقابل لإستيعاب هذا المفهوم المترامى، الأمر الذى يبدو أنه من حق أغلب الفاحصين دفاعا عن تماسكهم.</u>

٢- إن الفصام فى غائيته التدهورية هو تحد صريح للحياة ذاتها فى مسيرتها الأمامية، وفحص الفصامى شموليا يتضمن مواجهة التدهور وجها لوجه، مما قد يثير فينا القوة التدهورية الكامنة، الأمر الذى قد يخل أيضا بتوازننا، وبالتالى فإغفال غائية الفصام والحكم عليه من أطرافه هو السبيل الأسلم لإستمرار كمون هذه القوى التدهورية فينا[1] نحن الفاحصين.

٣- إن الخلط بين الصورة الكلينيكية للفصام وبين سيكوباثولوجية الفصام يؤدى إلى الخلط فى مفهوم المرض ذاته، ففى حين نرى أن الظاهرة الشيزويدية (بمعنى الوحدة واللا آخر والإنسحاب) تقبع تحت أى من الأمراض النفسية، وفى حين نرى الفصام (بمعنى التناثر والتقطع والتدهور) فى اللاشعور وفى الأحلام يؤكد طبيعة تواجدنا الملموم من الخارج فقط، فانه لا ينبغى أن نحكم على الشخص بهذا "الداخل" الفصامى بحال من الأحوال[2]، وإنما المفهوم الكلينيكىمرتبط أساسا بالصورة الكلينيكية، أما ما بالداخل من تناثر أو ميل إلى النكوص أو ضلالات، فليس له دخل مباشر بمفهوم المرض كزملة كلينيكية بذاتها،

1- هذه القوة هى المرادفة لغريزة الموت التى وصفها فرويد فى أعظم أعماله (من وجهة نظرى) وهو 'ما فوق مبدأ اللذة' راجع ص ١١٧ أيضا.
2- راجع أيضا 'الجنون داخلنا' ص ٢١ وما بعدها.

ويأتى التشويش فى تعريف مفهوم الفصام من هذا الخلط بين ما هو فى الداخل كمحور للوجود، وبين ما هو ظاهر فى مجال السلوك.

٤- إن الاعتماد على شعور الفاحص بدرجة ما فى تشخيص الفصام، مع تذكر خوفه الأساسى من الرؤية الشاملة للتناثر فى المريض وفى نفسه، أو من الرؤية الموضوعية لقوة التدهور فى الإنسان خارجه ومن ثم داخله، يجعل الأمر متعلق بنمو كل فاحص ودرجة تطوره ونوعية وجوده، مما يترتب عليه أن يختلط الموقف الشخصى بتحديد المفهوم وأبعاد التشخيص مع بعضهم البعض، وسرعان ما تقفز المبررات التى تؤيد التشخيص أو تنفيه، وهذه المبررات تتناسب مع درجة تطور الفاحص ذاته بقدر ما تتناسب مع وجود الأعراض واكتشافها وتقييم أبعادها.

وقد نعزو - مثلا - فرط تشخيص الفصامOverdiagnosis إلى عملية إسقاط التناثر على الخارج من جانب الفاحص، كما نعزو الاقلال المفرط فى تشخيص الفصام Underdiagnosisإلى حيلة "النقطة لعمياء" "blind spot" mechanism التى لا ترينا فى الخارج مالا نحب أن نراه فى الداخل.

٥- إن رؤية الفصام كعملية تدهورية تجعلنا نتساءل عند أى مرحلة من التدهور نطلق على نتاج هذه العملية فصاما، وعند أى مرحلة لا نجرؤ على ذلك بعد؟

٦- إن ربط عملية الفصام بنتائجها يجعل المفهوم معلقا، ويجعل التشخيص مؤجلا أحيانا، ويجعله تشخيصا بأثر رجعى أحيانا أخرى بعد حدوث الأثر المعنى، سواء كان تدهورا فى الشخصية ككل، أو ندبا Scar فى جانب من جوانبها، الأمر الذى يجعل مفهوم الفصام ذاته وليس مجرد تشخيصه "مفهوما مؤجلا" (أو مع وقف التنفيذ).

٧- إن سوء سمعة الفصام تجعل التشخيص متعلق بالجانب التشاؤمى أو التفاؤلى لموقف الفاحص من المريض (ومن الحياة) ومدى أمله فى شفاء المريض مثلا.

٨- إن تغلب بعض المظاهر الفصامية على الحياة العادية العصرية (مثل اللامبالاة والتحوصل الذاتى .. الخ) تجعل هذه المظاهر عند الفصامى غير مميزة عنها عند الشخص العادى.

٩- إن ضعف التواصل بين أصحاب المهنة (الأطباء النفسيين أساسا) لضعف طرق التنشئة كحرفيين يتقنون الحرفة من معلم حاذق، وغلبة التنظير والقراءة والتلقين على تعليمهم ، جعل توصيل هذا المفهوم (الفصام) غير اللفظى أساسا، المشوش أساسا، تقول جعل توصيله إلى "آخر" بلغة مأمونة وموثوق بها، أمر صعب ومتعذر بما يضر فى النهاية بتحديد المفهوم المراد توصيله.

وبعد كل ذلك، ورغم كل ذلك، فهل نجرؤ أن نضع مفهوما للفصام، يتفق عليه أهل العلم دون أن يتدخل خوفهم أو أن تشوه دفعاتهم تعريف الكلمات ووصف الأعراض وطبيعة المفهوم الأصلية؟

لا مفر من ذلك بالرغم من كل هذه الصعوبات التى تبدو معجزة إطلاقا، إلا أن تكوين المفهوم - بمعنى الإتفاق على المعنى الثابت ذى الدلالة المشتركة بين متداولى "لفظ ما " - يحتاج إلى درجة من توحيد اللغة

التواصلية تسمح بذلك، لأن كل من يستعمل هذا اللفظ "الفصام" إنما يعنى - بدرجة ما من الوعى - زاوية وبعدا قد لا يعنيه آخر يستعمل نفس اللفظ .. لذلك نعود فنوجز الأبعاد التى تتناول منها ظاهرة الفصام، وتؤثر بالتالى - ومباشرة - على تنوع مفاهيمه؛ وتتعلق هذه الأبعاد بما يلى:

(أ) بالظاهر السلوكى: لكل ظاهرة صورة وأشكال تبدو على السطح الذى فى متناول الجميع، والذى يسمى عادة "سلوكا"، وهذا السلوك يكاد يكون محددا ومتفقا عليه، وقابلا للقياس، مهما تباعدت مكوناته الجزئية، وأهمية هذا المفهوم السلوكى ودلالته لا يمكن التغافل عنها، بل إن "الظاهرة" المعنية - فى واقع الأمر - تكاد لا تكون هى "الظاهرة" بدونه.

(ب) بالتركيب الداخلى للفصام: سواء ظهر هذا التركيب الداخلى فى شكل السلوك المحدد المعالم أم لم يظهر، فانه يمثل تأثيرا مباشرا على تحديد المفهوم المراد من كلمة "فصام" أى أنه يمكننا القول أن التركيب الداخلى قد يكون تركيبا فصاميا فعلا، لكنه محكوم بتفاعلات تعويضية ضابطة تجعل الشكل الظاهرى لا ينطبق على الظاهر السلوكى المعروف عن الفصام إلا أن الفاحص الكلينيكى قد يدرك نشاط هذا التركيب الداخلى وأثره، مما ينتج عنه الحديث عن زملات غير نموذجية فى الاكتئاب أو الهوس .. الخ، تلك الزملات التى إنما تعنى ما لهذا التركيب الفصامى من نشاط وراء هذه الزملات غير النموذجية، كما يفسر هذا البعد الأعمق أيضا ما نسمع عنه من تشخيص الفصامى إعتمادا على "الشعور الفصامي" (Praecox feeling)[٣] عند الفاحص.

(جـ) بغائية الفصام: (ومعناه على مسيرة التطور): إذا أخذنا بوجهة النظر القائلة بأن الفصام - غائيا ما هو إلا الفصام النكوصى التدهورى المتزايد، وأنا أوافق على ذلك بتحفظ سيأتى بعد، فإنه يمكننا القول أن الفصام يؤخذ عند كثير من الفاحصين باعتباره إعلان لقوة التدهور وخطورتها فى مقابل حتم التطور وحتم الحفاظ عليه، وهذا البعد الغائى التدهورى يعطى للفصام معنى خطيرا من ناحية، وهو يوضح طبيعة الحياة فى حركتها اللولبية المتصاعدة من ناحية أخرى.

وينشأ الخلط إذا كان هناك من يرى الفصام من هذه الزاوية أساسا أو (تماما) ثم يقابل من السلوك أو الزملات الأخرى ما يبدو وكأنه يحقق هذه الغاية أيضا، مما يؤثر على إستعماله "الفصام" إشارة إلى غائيته وليس إلى مظاهره.

(د) بمسار الفصام: لما كان تاريخ الفصام متعلقا تعلقا مباشرا بما ينتج عن التركيب الفصامى من تدهور فى الشخصية، ولما كان هذا المفهوم لم يتغير حتى الآن عند كثيرين من المشتغلين بالطب النفسى (خاصة فى المدرسة الفرنسية) بحيث لا يوجد تعريف للفصام دون أن يشير بدرجة أو بأخرى إلى هذه النهاية واحتمالها وحتمها، فإن كلمة "الفصام قد تحمل عند من يستعملها هذا المعنى التشاؤمى المعلق بالنتيجة بحيث تؤثر على معناها بدرجة أو بأخرى.

3- وصف هذا الشعور رومك Rumke وهو أمر يدور حوله نقاش كبير

* * *

وعلى ذلك، وبعد هذا التكرار الموضح، فإننا لابد أن نحدد إبتداء المفهوم الذى نعنيه من كلمة الفصام على المستويات المختلفة ومن الزوايا المختلفة كالتالى:

١- المفهوم السلوكى The behavioural concept: وهو المفهوم الذى يعتبر أكثر المجالات تحديدا وقابلية للقياس وسماحا بالإتفاق، إذ يمكن - سلوكيا - أن نحدد مفهوم الفصام باعتبار أنه "المرض النفسى (العقلى) الذى تغلب على أعراضه إضطرابات شكل الفكر ٤ Formal thought disorder فى صورة الغموضVagueness والعيانية Concreteness واللاتماسك Asyndesis وغيرها، وكذلك أعراض تفسخ الشخصية ٥ Personality disorganization فى صور تناقض الوجدان Ambivalence والانفعالات اللاملائمة Inappropriate affect وتذبذب العواطف Lability of affect وتباين الفكر والوجدان Incongruity between thought & affect، وأخيرا أعراض الانسحاب Withdrawalوهذا الإنسحاب يشاهد فى المجالات الإجتماعية ونواحى السلوك، فيبدو فى شكل أعراض العزلة الفعلية Isolation أو الانفعالية مثل التبلد Bluntin.

والملاحظ فى تقديم مفهوم الفصام سلوكيا أنه يكاد يكون مباشرا وواضحا، إلا أن المشكلة تنشأ حين نحاول تحديد هذه الأعراض التى قد توجد بدرجات متفاوتة عند الشخص العادى من ناحية، والتى قد يلزم لتحديدها موقفا يتعلق بجرعة هذه الأعراض عند الفاحص من جهة أخرى (كما ذكرنا حالا) بمعنى أن الذى لا يريد أن يرى لا تماسك فكره بدرجة أكبر قد لا يرى تماسك المريض وهكذا، دون داع للتكرار.

وقد إستعان النفسيون بوسائل قياس كمية (سيكومترية) للاسهام فى تحديد هذا المفهوم، ونجحوا بشكل ملحوظ وخاصة فيما يتعلق بقياس اضطراب الفكر كمثال مفيد، ولو أن هذا المفهوم كان كافيا لما أخذت الأبعاد الأخرى والمفاهيم الأخرى حقها المتزايد الأهمية فى التنظير والتطبيق.

إلا أننا ينبغى أن نعلن بوضوح أن الفصام - كلينيكيا - "كفئة تشخيصية" غالبا ما يقتصر، وبحق، على ماورد فى هذا التعريف دون سائر المفاهيم الأخرى.

٢- المفهوم التركيبى للفصام The structural concept: الفصام - تركيبيا٦ هو أن تكون الشخصية متباعدة كياناتها (وأجزاؤها) بدرجة تعمق الإغتراب، بل ويقلل من حدة الصراع بين هذه الكيانات، لدرجة

4- يلاحظ أننا على المستوى السلوكى استعملنا تعبير 'شكل الفكر' لأننا نصف ظاهرة وصفية لها أبعاد فى قطاع مستعرض، ثم سنرجع لوصف نفس الظاهرة باعتبار إنها اضطراب عملية التفكير ذاتها فى مستوى آخر من تقديم الفصام وهو المستوى التركيبى وهكذا ننبه إلى أن نفس الظاهرة ستأخذ إسما وغيره حسب زاوية الرؤية فى هذا التقديم.

5- سبق أن استعملنا طوال هذه الدراسة كلمة (تناثر) بمعنى عام دال على تصدع وتفسخ وتناثر الشخصية معا، وقد حان الحين لنفرق بين هذه الألفاظ فالتصدع سوف يقتصر على معنى الانهيارBreak down ، والكسر المبدئى فى الدفاعات عند بداية العملية المرضية عادة، ثم سأقصر كلمة التفسخ على معنى Disorganization بحيث تعنى التفكك فى وحدات كبيرة نسبيا معتمدا على مستوى المعنى العربى المرادف للإستشهاد، نفى 'الوسيط' تفسخ اللحم عن العظم، أما التناثر Disintegration فسيعنى درجة أعمق وأشد من التفكك إلى وحدات أصغر معتمدا على ما أورده الزمخشرى من معنى العقل المتفكك 'هذريان هذر هذاءة، موشك السقطة ذولب نثر' (فى مادة هذر) ومعنى الفتات، ... مرادفا للنثار فى مادة 'نثر' وحتى لو لم نتفق مرحليا على كل هذه المستويات، فهذه المعانى التى أعنيها فى هدفى المحدود هنا فى هذه الدراسة، حتى لا تختلط الأمور.

6- أستعمل لفظ التركيبى Structuralبشكل جديد كما هو مبين، ولا ينبغى الخلط المباشر بينه وبين مفهوم إريك بيرن عن التحليل التركيبى Structural Analysisأو التركيب النفسى الشكلى Psychostructural configuration الذى استعمله أريتى، وإن كان هنا هو أقرب إلى المفهوم الأخير .... ولا يستبعد الأول تماما فى نفس الوقت.

قد تفكك فى النهاية مكوناتها (ما زلنا نتحدث عن الداخل)، وهذا التباعد مع تجميد الصراع وتزايد التفسخ (الداخلى) يتزايد تدريجيا عادة مع تأثير مباشر وغير مباشر على نوعية السلوك ونوعية الوجود معا، وقد يظهر أثر هذا التركيب - المتباعد المجمد المتفسخ فى تزايد - صريحا فى السلوك الظاهرى، ومن ثم يتفق المفهومان الأول والثانى تماما، كما قد يظهر بشكل غير صريح فى زملات كلينيكية أخرى وخاصة مجموعة كبيرة من إضطرابات الشخصية وزملات كلينيكية أخرى من المسماة "غير النموذجية" إذ أن أغلب الزملات المسماة غير نموذجية إنما تشير إلى تركيب فصامى فعال إلى حد ما تحتها، حتى يصل الأمر بالتقسيم الفرنسى إلى وضع الإكتئاب غير النموذجى والهوس غير النموذجى تحت فئة الفصام وليس تحت فئة الهوس والاكتئاب، وفى هذه الدراسة أشرنا إلى مثل ذلك حين تحدثنا عن "الاكتئاب الطفيلى النعاب" وقلنا إن سيكوباثولجيته متلعقة بالفصام أكثر من تعلقها بالاكتئاب، وكذلك حين تحدثنا عن "الهوس النزوى المتفتر" وقلنا نفس المقولة، وأخيرا حين تحدثنا عن "البارانويا اللزجة المعتمدة"، وقد تصل أهمية هذا المفهوم التركيبى لدرجة تكاد تجتاح الحياة العادية عند كثير من الناس دون ظهور أعراض، وهنا تصبح علامة منذرة بالنسبة لتطور النوع ككل، ولعل هذا ما حدا بعض الغلاة من محبى الإنسان الحريصين على استمرار مسيرته التطورية إلى وصف الحياة العادية بأنها فصامية.

٣- <u>المفهوم الغائى للفصام</u> The teleological concept: ما هو هدف الفصام؟ إذا استطعنا أن نجيب على هذا السؤال فإن الباب سيفتح لرؤية مجموعات أخرى من السلوك الزملات المرضية قد تحقق نفس الهدف بطريق آخر، وقد يتعجب البعض كيف يكون الفصام هدف؟ !٧ ولتسهيل المهمة نقول أنه إذا كان للموت هدف فلا عجب أن يكون للفصام غاية .. وهدف الفصام هو النكوص - باللغة الشائعة - وقد أكد عليه سيلفانو أريتى ٨ تحت عنوان النكوص الغائى المتزايد Progressive Teleological regression، وقد أفاض شولمان Shulman (٨) فى تفسير أهداف أعراض الفصامى : ما بين تسهيل الانسحاب إلى تشويه المجتمع إلى تدعيم المنطق الخاص والموقف الخاص وغير ذلك، ولكن هذا وذاك هو غاية متوسطة لا تفسر بوضوح مرمى الفصام، وعندى أن الفصام هو "الموت" بالمعنى الانسانى التطورى المباشر، فإذا كان التطور هو "<u>تقدم الكائن الحى (الانسان) باستمرار لتسهيل عمل أعضائه مجتمعة فى ذاته ككل، بأكبر قدر من التوافق والفاعلية لدرجة توليد تركيبات جديدة لاحتياجات أرقى وأعمق</u>"، فإن التدهور هو عكس ذلك تماما، أى أنه "<u>تدهور الكائن الحى باستمرار لإعاقة عمل أعضائه "معا"، متفسخا حتى العجز، ثم استمراره بأدنى قدر من التناسق والفاعلية لدرجة ضمور الأعضاء والكيانات غير المستعملة نتيجة للتوقف عند مستوى بدائي</u>" وعلى ذلك فإذا كانت الحياة هى المرادفة لكلمة

7- لا ينبغى الخلط بين أن يكون الفصام وبين أن يكون الفصام هو ذاته هدفا، وإنى قد أعنى الاثنين وأتكلم عنهما الواحد تلو الأخر ولكنهما ليسا مرادفين لبعضهما البعض.

8 - كتاب تفسير الفصام لسيلفانوا أريتى"Interpretation of schizophrenia" Silvano Ariti (1974) ةكتاب مقالات فى الفصام H. Shulman (1968) Essays in schizophrenia (راجع المراجع).

التطور، فإن الموت هو المرادف لكلمة التدهور، وغريزة الموت التى قال بها فرويد والتى فسرناها باللغة التطورية جزئيا (ص ١١٧) هى الغريزة الأعمق التى تستعيد نشاطها فى الفصام وتحقق أغراضها المرحلية فى شكل الفصام، قبل الموت العضوى الكامل، فغاية الفصام فى هذه الصورة وهذا المفهوم هو الموت الإنسانى وظيفيا، أى التدهور بالتوقف عن التقدم، والنكوص **والتفسخ والتناثر**، وهذا التدهور يبدو غير مقبول كظاهرة طبيعية فى الوجود الانسانى بنفس القدر الذى رفض فيه افتراض غريزة الموت كجزء من التركيب الحيوى، إلا أن الموت يخدم الحياة تطوريا بمعنى أنه يتيح الفرصة ويخلى المكان لكيانات أحدث (بالولادة) تحقق فى تقدم البشر ما لم تستطع أن تحققه الكيانات الكهلة التى تقلصت عند مستوى محد للوجود، وبالمقارنة يمكن البحث والتوصل إلى عمق أى فرصة يتيحها الفصامى للتطور، إذ هو يرجح انتصار الموت المرحلى، وإنى أرى من وجهة نظر خاصة أن الفصامى بنكوصه وتوقفه وتفسخه يحقق هدفين معا، الأول: هدف خاص، وهو أن يحافظ على حياة المريض الجسمية على أى مستوى، بالتراجع إلى مستوى بدائى هربا من جرعة غير مناسبة من التعامل البشرى القائم، أو عجزا عن قفزة غير محسوبة تناسبا مع الكفاءة التطورية القائمة، إذا فانه بالرغم من النتيجة السلبية التى ينتهى إليها، فإنه يحمل ضمنا احتمال الانطلاق من جديد ليعاود المحاولة ... ما دامت الحياة العضوية باقية، أما الهدف الثانى: فهو هدف عام، إذ أن الفصامى يعلن بتفسخه وتوقفه حقيقة قوة التدهور القابعة داخل التركيب البشرى، فيثير القوى التطورية المضادة فى بقية أعضاء المسيرة البشرية، وهو فى هذا يكاد يقوم بنفس دور الفنان الذى يعرى الحقيقة الموقظة المفزعة أحيانا حفزا للتقدم.

فالفصام تراجع وتوقف فاشل، ولكنه يحمل معنى الأمل بشكل غير مباشر .... طالما الحياة مستمرة، وهو صرخة لمن يحاول الاستمرار حتى لا يغفل حجم القوى المضادة.

وهناك أهداف جزئية تعمل فى ذاتها لخدمة التدهور لتحقيق هذا الموت والتجمد، هى جماع أعراض الفصامى وغاية وجوده أهمها:

(أ) **توقف التعلم**: بحيث تصبح الحياة مكررة فيتحقق الجمود المطلوب.

(ب) **توقف الزمن**: بحيث تغلق دائرة الأحداث المتتابعة.

(جـ) **إلغاء الآخر**: بحيث يزول التهديد بالسحق، وفى نفس الوقت يزول التهديد بالاستثارة فالنمو.

وهكذا نجد أن الفصام الصريح يمكن ترجمة كل أعراضه لتخدم هذه الأهداف المتوسطة، وفى نفس الوقت توصل للهدف المحورى وهو الموت النفسى، ومن واقع هذه الرؤية، فإن المفهوم الغائى للفصام يفتح بابا واسعا يكاد يدخل منه كثير من صنوف السلوك "العادي" أو المشتمل فى الزملات المرضية الأخرى التى تتفق مع الفصام فى تحقيق هذا الهدف، نرجع مرة ثانية للقول بأن غلاة الثائرين الذين يدمغون المجتمعات المتجمدة والسلفية بالفصامية إنما يتفقون رمزا أو تعميمامع هذا المفهوم الغائى للفصام، أما بالنسبة للأمراض النفسية فإن كثيرا من اضطرابات الشخصية النمطية بوجه خاص، وكذلك

بعض العصابات المزمنة مثل الوسواس القهرى والهيبوكوندريا إنما تحقق هذه الغايات، ولكن دون أعراض فصامية فى الصورة الكلينيكية، ولعل تسميتها أحيانا مكافئات الفصام Schizophrenic Equivalents إنما يعنى إتفاقهما فى الهدف.

ولكنا نكرر هنا التحذير السابق من أن الاتفاق فى غاية السلوك، أو غاية ظهور الزملة المرضية لا يبرر إدراجهما معا فى زملة كلينيكية واحدة، إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن هذا المفهوم الغائى يؤثر فى الفاحص والمعالج معا فى تقييم الحالة كلينيكيا، ومن المعروف أن التخلص من سلوك عصابى معين دون إعداد كاف للبديل التطورى لهذا السلوك، قد يظهر الفصام الصريح بديلا عنه، مما يثبت جزئيا هذا الفرض، لذلك، فإن معرفة المفهوم الغائى للفصام والأوجه المختلفة لظهوره سلوكيا، له أهمية عملية وعلاجية مباشرة، وليس مجرد فرط تداخل Overinclusion لا مبرر له.

٤ - المفهوم الدينامى للفصام The dynamic concept

إن كلمة دينامى نفسى Psychodynamic لابد وأن ترتبط بالتحليل النفسى بشكل مباشر أو غير مباشر، وإن كان التحليل النفسى لم يدع - على الأقل فى بدايته - أنه حل مشكلة مفهوم الفصام، فإننا لابد أن نشير هنا إلى منظوره من حيث أنه يتحدث عنه تحت اسم العصاب النرجسيNarcissistic Neurosis، والذى يهمنى فى هذا التقديم دون الدخول فى التفاصيل التثبيتية والنفسية الجنسية هو ما يقابل ذلك المفهوم الدينامى فى الصورة الكلينيكية، فقد ذهب البعض الى إعتبار العلامة الأساسية فى الفصام هى الشخصية المطلقة Absolute Personification التى تلغى العالم فى النهاية إلغاء كاملا، لحساب الاسقاط الكامل من ناحية، كما أنها تلغى العالم فى النهاية إلغاء كاملا، لحساب الإسقاط الكامل من ناحية، كما أنها تلغى العلاقة بالآخر تماما فلا يصبح الآخرون بالنسبة لمثل هذا المريض (الشخص) إلا ما يصنعونه له، أى يصبحون مجرد أشخاص ذاتية Self Objects، ومن هذا المنطلق النرجسى الكامل يتساوى الفصام ديناميا بشكل ما مع اضطرابات الشخصية السيكوباتية بوجه خاص، على أن للمفهوم الدينامى أبعادا أخرى، بلغات أخرى فإذا اعتبرنا وجهة نظر "مدرسة العلاقة بالموضوع" لوجدنا الفصام يعنى "أن الأنا الناكص" قد نجح فى الاتجاه بالوجود إلى الوراء على حساب أى نشاط واقعى ناضج، ولوجدنا هذا النجاح مصاحب بإلغاء الآخر تماما.

وإذا استعملنا لغة التحليل التفاعلاتى، فإن الفصام يعنى أن حالة الأنا الطفلية هى الطاغية إلا أنها مشوشة Confused child ego state مع وجود بقايا الأنوات الأخرى (**الفتى** خاصة) متفرقة ومتناثرة فى الوساد الشعورى نفسه، إذا فهذا المفهوم هو أكثر اقترابا من صورة الفصام الكلينيكية عن مفهوم التحليل النفسى، أما ما يقابل العصاب النرجسى باللغة التفاعلاتية فهو أقرب إلى اضطرابات الشخصية بمفهوم التلوث وليس بمفهوم **الطفل** المشوش.

ومن هذا يتضح أن لهذا المفهوم الدينامى، وخاصة ما يتعلق بلغة التحليل النفسى، أثره فى الخلط بين اضطرابات الشخصية والفصام.

٥- المفهوم المسارى والنتاجى للفصام

.The "Course and outcome" concept

منذ نشأ مفهوم الفصام وهو مرتبط بمساره ومصيره، وكما أشرنا فقد حتم "كريبلين" لتشخيصه، تدهور الشخصية، وتبنت هذه الفكرة بحماس حتى الآن المدرسة الفرنسية، والحق يقال أن شكا يثور بلا تردد عند أى فاحص وممارس يذهب إلى تشخيص حالة ما على أنها فصام، إذا ما انتهت النوبة دون آثار تدهورية فى صورة ندب Scar فى الشخصية، الأمر الذى يؤكد أن مفهوم الفصام مرتبط فعلا بمساره ومصيره، وكأن الفصام من زاوية هذا المفهوم لا يكون فصاما إلا إذا شوه الشخصية بندب يسرع من تدهورها، فالفصام ما زال - مهما حاولنا التعمية بمستحدث الآراء من أول بلويلر حتى زاس - هو كهولة الشباب اللهجة the hasty youth aging، أوعته المراهقة المبكر adolescent dementia، وعلى ذلك فإن كلمة فصام ما زالت تعنى عند سماعها ومستعملها تدهور مبكر وسريعا فى القدرات العقلية.

على أن بعدا آخر غير العته المبكر وتدهور الشخصية قد بدأ يفرض نفسه بالنسبة لمسار الفصام وهو ما أصبح شائعا - وخاصة بعد استعمال العقاقير المهدئة العظيمة - من نتاج العملية الفصامية فى صورة اضطراب فى الشخصية مكافئ للفصام فى غايته وتركيبه وديناميته، ولكنه خال من الأعراض الفصامية الصريحة، وهذا المسار الذى يتزايد وصفه حاليا إنما يؤكد أمرين؛ الأول: نوع خفى من تدهور الشخصية وتوقف النمو كنتيجة للعملية الفصامية، والثانى هو تكافؤ الفصام مع اضطرابات الشخصية من بعد خاص.

٦- المفهوم البيولوجى التطورى للفصام

The biological evolutionary concept

وهذا المفهوم ليس شائعا، رغم أنه هو أهم ما تقدمه هذه الدراسة حقيقة وفعلا، وهو المفهوم الوحيد الذى يستطع أن يلم بكل ما سبق فى تآلف منطقى يسمح بالتحقيق الفعلى متى تهيأت سبل الدراسة السليمة وأدواتها الدقيقة لمشاكل الانسان فى مسيرته التطورية، فالفصام بيولوجيا هو الانتصار المرحلى أو النهائى لقوة التدهور التى تحملها المادة البيولوجية فى مقابل قوة التطور التى تحملها نفس المادة.

ولا مفر فى دراستنا هذه أن نتكلم بهذه اللغة التى يخاف منها العلميون المجزئون، إذ يتصورون دائما أن الحديث عن شئ غير مقاس وغير ملموس هو حديث فيما بعد الطبيعة (ميتافيزيقيا)، إذا فلابد من إيضاح معنى كلمة "قوة تدهورية" فى مقابل تعبر "قوة تطورية" بأقرب لغة الى الفهم الشائع، فالقوة هنا لا تعنى غريزة بذاتها (مثل غريزة الموت فى مقابل غريزة الحياة)، ولا تعنى أى طاقة خفية منفصلة عن التركيب العضوى البيولوجى لكائن الحى، وإنما "قوة التطور هى الميل الداخلى الحيوى التلقائى إلى التآلف (الهارمونى) بين أجزاء المادة الحية فى ذاتها، وكذلك بين هذه المادة الحية وبين هارمونية الطبيعة الأشمل

خارجها التى هى جزء منها"، أما "قوة" التدهور فهى نتاج اللاتناسق Disharmony على المستويين السابق ذكرهما، واللا تنسيق قوة فى ذاته بديلة للتنسيق وكامنة فيه.

والمسار الطبيعي بالنسبة للمادة الحية يشمل التنسيق كما يشمل اللا تنسيق الذى يؤدى فى نهاية النهاية الى الموت لتترك المادة الحية - إذ تتحلل جزئيتها - مكانها لتنسيق جديد أكثر نشاطا وأقدر على مواصلة رحلة التطور والإسهام فيها بإيجابية وفاعلية.

إذا، فعلى قدر العلاقة بين هاتين القوتين المتداخلتين، وعلى قدر نشاط كل منهما المتناسب عكسيا مع بعضهما يكون مدى عمر الكائن البشرى الحى، وعلى قدر تدرج النشاط تكون سلاسة مسيرة حياته أو تخبطها.

والفصام - من هذا البعد البيولوجى - هو قمة اللاهارموني [9]، وكل الأمراض الأخرى التى تظهر كدفاع ضد الفصام إنما تمثل هارمونية جزئية منحرفة بشكل أو بآخر Partial deviated harmony.

وقد سبق أن ألمحت إلى تصاعد دوائر الهارمونى هذه وارتباطها بعضها ببعض (ص٦١).

ولا أتمادى فى هذه اللغة حتى لا ينزعج من لم يألفها، ولكنى أؤكد على ضرورة كفاءة وتناسب المعلومات الواصلة لجهاز فعلنة المعلومات المخى والحلوى لاستمرار الهارمونى، كما أؤكد على أهمية "المعني" [10] بوجه خاص بالنسبة لنوعية هذه المعلومات الداخلة، لأن الفصام (أو مكافئاته فيما بعد) إنما يحدث إذا عجزت هذه المعلومات عن تنظيم حركة المادة البيولوجية بدرجة كافية.

فالفصام إذ هو قمة اللاهارمونى البيولوجى، وهو إعلان للانتصار التدهورى قبل الموت البيولوجى، وهو فى نفس الوقت إعلان للانفصال ما بين دوائر الهارمونى المتصاعدة داخل المخ من ناحية ومع الهارمونى الكونى الخارجى من جهة أخرى [11]، ففى الفصام تتفصد العلاقة بين مستويات المخ المختلفة، ولا يعود عمل الواحد منها يغذى عمل الاخر، لا فى تبادل متناسب، ولا فى تلاق ولافى ملائم.

وإذا كان هذا اللاتناسق قد يحدث نتيجة لفشل المعلومات الداخلة فى أن تسهم فى الحفاظ عل التناسق وتصعيده، فإنه أيضا قد يكون مهيأ له نتيجة لتضخم مستوى مخى (بالاستعداد الوراثى) عن مستوى آخر، بحيث ينفصلان مستقلين تحت أى ضغط كيانى منساب، ومتى ما حدث هذا العجز وهذا التفسخ فإنه يمكن القول أن قوة "المادة الحية التوازنية الداخلية" تضعف لدرجة لا تعود معها قادرة على لم شمل مكونات المخ ووظائفه جنبا الى جنب، فينفصل المستوى البدائى عن المستوى الحديث، وتنفصل الكلمة عن معناها، وتنفصل الإرادة عن الفعل المناسب لها، وينفصل التعبير العاطفى عن الخبر الانفعالية ... الخ.

9- حتى الموت الفيزيائى يمكن أن يعتبر أقل من الفصام فى اللاهارمونى، لأنه نهاية منسقة بشكل ما

10- انظر ص ٦١ أيضا.

11- وضع أرنست بيكر Ernest Becker نظرية كاملة مبنية أساسا على فلسفة جون ديوى تؤكد على علاقة الفصام بالمعنى فى كتابة 'ثورة فى الطب النفسي' (انظر المراجع).

وهذا المفهوم البيولوجى - رغم حداثته - إلا أنه يمكن - ترجمته إلى كل المفاهيم السابقة من أبعاد مختلفة وإن إختلفت الترجمة فى كل حالة عن الأخرى بداهة.

وبعد:

فقد قصدت عمدا أن أتحدث عن المفاهيم Concepts المتعلقة بالفصام وليس عن تعريف الفصام Definition، وكنت أرمى بذلك إلى التذكرة بأن تكوين المفهوم حول ظاهرة ما يؤثر فى تناول هذه الظاهرة بالضرورة طالما أن هذه الظاهرة لها كل هذه الأبعاد معا، فلا أمل فى اتفاق علمى حقيقى حولها الا اذا حددنا اللغة التى نتحدث بها ابتداء، وكذلك حددنا زاوية الرؤية التى تنظر من تجاهها.

وبالرغم من أن المفهوم السلوكى بدا أقرب المفاهيم تحقيقا للتواصل والاتفاق إلا أن الممارس الاكلينيكى والمعالج بوجه خاص يدركان مدى عجز هذا المفهوم عن الإلمام بأبعاد دينامية وبيولوجية ضرورية فى مسيرة الفهم والعلاج، وأخيرا فإن تحديد المفاهيم للشرح لا يعنى بتاتا تحديدها فى الممارسة، فالتداخل بينهما بغير حدود.

***

ويمكن بعد ذلك تقسيم الفصام كلينيكيا إلى أنواع متعددة متعلقة بدرجة أو بأخرى بما ذكرنا.

أنواع الفصام الاكلينيكية:

يمكن تقسيم الفصام كلينيكيا تقسيما ذا دلالة تطورية، وفائدة علاجية مباشرة على الوجه التالى:

أولا الفصام البيولوجى النشط:

The active biologic schizophrenia

وأعنى بهذا النوع بداية العملية الانشطارية Split process فى مرحلة التباعد قبل أن تعاود مكونات الانشطار محاولة إعادة العلاقة بالمواجهة أو الصراع أو الحلوسط أو التلوث والتفسخ كما سيأتى حالا:

وقد ذكرنا هذه الظاهرة قبلا (ص١٦٢) تحت عنوان المقابلة المتكافئة، كما ذكرنا هناك أن هذه المرحلة يمكن ألا تنتهى الى الفصام فعلا لذلك، إتجه الرأى إلى تسميتها Incipient process، والحقيقة فى هذا الشأن أن هذه الظاهرة إنما تعلن أزمة مفترقية، وفى نفس الوقت تعلن بداية نبضة نمو جديدة إما أن تنتهى إلى "ماكروجيني" ومن ثم ولاف أعلى، وإما أن تتوقف عند أى مرحلة من مراحل "السيكوباثوجيني" إذ هو ماكروجينى مجهض ومشوه، وعموما فإنى ما زلت أدرجها هنا تحت الفصام مع الإشارة الى المفهوم المسارى الذى يقول "انتظر لنري"، إلا أنى أضيف المعالم التى تبرر ترجيح إدراج هذه الأزمة تحت الفصام بشروط معينة:

١- إذا كانت الكيانات متكافئة القوى دو ن مواجهة وبالتالى دون اكتئاب صريح.

٢- إذا احتدت ثنائية الوجدان والميول الأفكار ambivalence ambitentendency، ambithoughts بدرجة معطلة، ودون اكتئاب كاف وإن كان قد يصحب ذلك قلقلة وربكة.

٣- إذا احتد تذبذب القرارات لدرجة التردد المرضى الحاد Acute pathological hesitancy، الذى قد يصل الى التوقف الفعلى عن التوجه إلى أى اتجاه بذاته.

٤- إذا إستمرت هذه المقابلة المتكافئة دون أن تحل فى أى إتجاه أو بأى ميكانزم آخر مدة طويلة (حوالى ستة أشهر)[١٢]

فإذا توافرت هذه الشروط، أو أغلبها، فالأرجح أننا أمام بداية حالة فصام، وإن كان ذلك لا يعنى - مرة ثانية - ترجيح تطور الحالة الى ما هو فصام صريح بشكل حتمى.

إذا فنحن يمكن أن نلقى مثل هذه الحالة فيما يسمى الفصا م الاستهلالى Incipient Schizophrenia، ولكن يمكن أيضا أن نلقاها دورية فى بعض الحالات، بحيث تشبه الى حد كبير "اكتئاب المواجهة البيولوجى الدوري"، إلا أنه لكى تدرج تحت الفصام الدورى فلابد أن ينقصها عمق الاكتئاب فى كل مرة... كما لابد أن يغلب عليها حدة التذبذب والتردد والثنائية وبعض مظاهر التفكك، كما أن نهاية مسار النوبة قد يكون أبعد عن خط الأساس Base line أكثر مما هو الحال فى الاكتئاب[١٣] .. ولكنها دورية فى مسارها، وبصفة عامة فإن الفصام الدورى، حتى لو أخذ شكل أى نوع آخر (مثل النوع البارانوى أو النوع الإنفعالى)، يعتبر فصاما نشطا بيولوجيا، ويستحسن إدراجه تحت هذه الفئة حيث أن تركيبه يختلف ومساره يختلف، ودلالته تختلف كذلك ...، هو يترك أثرا (ندبا) فى الشخصية بالضرورة ولكنه أخف كثيرا من النوع المتفتر.

إذا، فإنه يمكن إدراج بعض تصنيفات الفصام الانفعالى Schizo-affective والفصام البارانوى Paranoid إذا حدثا بصورة دورية، دون أن يتركا أثرا شديدا، تحت هذا النوع.

ثانيا: الفصام البيولوجى الحاد التدهورى:

The acute biologic devolutionary schizophrenia

وأعنى بهذا النوع تلك النوبة التى تأتى بشكل عنيف وصريح، ويصاحبها نبضة مشوهة ومنحرفة منذ البداية، وتحتوى صورتها الاكلينيكية على أعراض التفسخ أو تعدد الكيانات ظاهرة ومباشرة، أو قد تظهر فى شكل استثارات لأعراض ودفاعات كامنة نسبيا مثل الضلالات غير المتسقة أو الانسحاب الكامل أو الهياج النزوى.

وعلى ذلك فيمكن أن ندرج تحت هذه المجموعة عدة أنواع اكلينيكية معروفة وشائعة أهمها:

١- النوبة الفصامية الحادة وغير المميزة

Acute undifferentiated schizophrenic episode

12- نفس المدة اقترحها التقسيم الأمريكى للأمراض النفسية DSM-III بما يخص أعراض شنايدر من المرتبة الأولى Schneider's first tank Symptomsتلك الأعراض تعنى أكثر فأكثر بداية الذهان النشط عامة، إذ لم تعد قاصرة بالضرورة على الفصام فى رأى الكثيرن، وأنا أوافق - من واقع خبرتى - على عدم تخصيصها للفصام إلا بشروط معينة.

13- إذا تركت مثل هذه النوبة - رغم دورية ظهورها - ندبا واضحا فى الشخصية مع تدهور تدريجى بطئ فيمكن أن تعتبر من النوع المتفتر وليس الدورى.

وهذه النوبة تأخذ هذا الاسم عادة إذا حدثت لأول مرة، أو قد يكون قد سبقها مثيل لها دون أن يترك أثرا يذكر (وهذا نادرا جدا)، وتمتلئ فيها الصورة الاكلينيكية بمظاهر التفسخ الحاد المختلط بأى ميكنزمات مساعدة تحد جزئيا من هذا التفسخ ومن تطوره إلى تناثر متزايد، ومثال ذلك الضلالات المتفرقة أو الهلاوس المؤقتة، وتتميز الصورة الاكلينيكية أيضا بالانسحاب المفاجئ والعنيف عن العالم الواقعى، إما بالانزواء الفعلى، وإما بالبلادة المفرطة.

٢- **الفصام الراجع المتفتر** Intermittent relapring schizophrenia

وهذا النوع حاد أيضا، ولكنه يحدث عادة فى مريض فصامى مزمن مستتب من أى نوع من الأنواع الأخرى، ومثال ذلك أن يكون ذلك المريض مصابا بفصام بارنوى مزمن، ثم وهو فى حالة هدوء نسبى وإفاقة مرحلية تأتى فوقه هذه النوبة الحادة من نفس النوع أيضا (فصام بارنوى) أو من أى نوع فصامى آخر (غير مميز، أو كاتاتونى مثلا)، وبعد كل نوبة من هذا النوع لا يعود المرض أبدا الى ما كان عليه بل تترك النوبة أثرا أسوأ، ويعاد تركيب الشخصية بسوء تنظيم أبلغ Worse malorganization، ولابد من التنبيه هنا أن تحديد أنواع الفصام سواء المستتب الأساسى أو النوبة التى تحدث فوقه أصبح أكثر تشويشا عن ذى قبل، خاصة بعد استعمال العقاقير المهدئة العظمية (الفينوثيازين مثلا) وطويلة المدى بالذات، كما أن هناك مشكلة أخرى تتعلق بتسمية المريض الفصامى بين النوبة والأخرى ومع اختفاء الأعراض النشطة المعوقة، إذ هل هو ما زال مريضا فصاميا من نفس النوع الأصلى، أو من نوع المتبقى Schizophrenia : residual أم هو قد شفى حتى لتعتبر النوبة الجديدة بداية جديدة، وكل هذه المشاكل تتضاعف أكثر وأكثر ولا يحلها إلا رؤية الفصام كعملية بخطوات محددة وتفريعات معروفة كما سيأتى بعد فى دراسة السيكوباثولوجيا لهذا المرض.

٣- **الفصام الكاتاتونى:** وهذا النوع قد ظل طول تاريخ الفصام ملغزا، إذ أن لايدرج تحت الفصام إلا "بالمفهوم المسارى والنتاجى" فقط، ونرى أنه فى عنفه وحدته ... سواء كان هياجا أو سباتا، يستحق أن يوضع هنا تحت المفهوم البيولوجى التدهورى الحاد كذلك.

ولابد إذا من تفسير وضع هذه الفئات الثلاث تحت مفهوم الفصام البيولوجى الحاد التدهورى، وماذا يجمع بينهم من وجهة نظر هذه الدراسة فأقول:

(أ) إنها جميعا تمثل نبضة سيكوباثولوجينية فاشلة منذ البداية.

(ب) إنها جميعا تتوقف (تجهض) عند مستوى بدائى فاشل تماما من محاولة إعادة التنظيم بحيث لا يظهر مباشرة إلا نتاجها المتفسخ والمتناثر مع نبض الميكنزمات المانعة نسبيا لتمادى التدهور.

(جـ) إنها جميعا - لابد وأن تترك أثرا معجزا (ندبا معوقا).

(د) إنه لا يمكن تتبع خطوات العملية الفصامية فى حركتها النشطة وخاصة فيم يختص بخطواتها الأولى، وإنما نحن نواجه نتاج التفكك وميكانزمات الحد منه مباشرة، وهذا من أهم الفروق بينها بوصفها "حادة وبين النوع الأول "النشط"...

ثالثا: الفصام الحلو سط (أو الحلوسط الفصامى)

Schizophrenic compromise

وهذا النوع يمثل فصاما مزمنا وصل الى حالة من الاستقرار النسبى رغم وجود الأعراض الصريحة والمباشرة التى تجمع بين أعراض التفسخ والتناثر والانسحاب جزئيا من ناحية، وبين الأعراض الناتجة عن الدفاعات المانعة لمزيد من التناثر من ناحية أخرى مثل الضلالات والهلاوس وإلى درجة أقل الاكتئاب والقلقلة، ويصل الأمر بتقابل هذين الجانبين إلى درجة من الاستقرار والإزمان بحيث يهدأ النشاط وتتوقف مسيرة العملية الفصامية التدهورية دون حدة تفككية أو نشاط تفسخى حاد متزايد.

أما الفئات الفرعية الشائعة التى تمثل هذا النوع فهى: الفصام البارنوى المزمن Chronic paranoid schizophrenia والفصام المزمن غير المتميز Chronic undifferentiated schizophrenia والفصام المتبقى Residual schizophrenia ويمثل هذا الفصام نوعا من الوقفة الطويلة لحلوسط بين التدهور الفصامى من جهة، وبين محاولة لم الشمل والعودة إلى السواء من جهة أخرى.

رابعا: الفصام النكوصى قليل الأعراض:

Regressive oligosymptomatic schizophrenia

ذكرنا قبل ذلك (ص ٥١) أن الذهان النكوصى تنهار فيه الحيل، وأن مايسمى الفصام النكوصى قليل الأعراض يمثل تنويعة من هذا الذهان، كما ذكرنا وجه الشبه بينه وبين الهوس النكوصى (ص ٢١٣)، وأضيف هنا إلى أن هذا النوع لايعنى نشاطا بيولوجيا استعاديا مثل النوع النشط (الاستهلالى أو الدورى)، كما لايعنى نشاطا بيولوجيا حادا تدهوريا مثل النوع الثانى، ولاحتى حلا وسطا مجمدا مثل النوع الثالث، وإنما هو إلغاء لأحد شقى المقابلة بالتراجع النشط **للطفل** (باللغة التفاعلاتية) والاستبعاد الجزئى **للوالد** مما يجعله قريب الشبه من الإنكار فى الهوس، وعادة مايقتصر هذا النكوص على المرحلة الطفلية دون المراحل الأعمق فيلوجينيا.. إلى الحياة الحيوانية أو حتى النباتية، ولأن معركة الجذب إلى الواقع قد انتهت أو تجنبت فإن الدفاعات الوسطية (الضلالات والهلاوس) لا يصبح لها وظيفة فتختفى. وكذلك فإن التفسخ والتناثر لايظهران لأنهما عادة يؤديان وظيفة تفكيك الواقع المهدد باستقباله مجزءا حسب التجزئ الحادث فى الذات، أما وقد انسحب المريض بالنكوص من الواقع تماما، واختفى كل من **الوالد والفتى** من الصورة، فإن الحاجة إلى التفكك تختفى، إلا إذا سحب المريض سحبا إلى مسئوليات الواقع ومواجهة الآخرين أثناء العلاج مثلا فإنه يستجيب بالدفاعات (الهلاوس والضلالات) والتفكك معا.

فهذا النوع استسلامى خادع، وهو لايتفق كثيرا مع "المفهوم السلوكى للفصام"، وإلى درجة أقل مع المفهوم التركيبى، وإن كان يتفق مع المفهوم "الغائي" والمفهوم "الدينامي" بدرجة واضحة ومباشرة، وهنا يتبين أهمية تقدمة المفاهيم المختلفة لظاهرة الفصام بحيث نستطيع أن نفسر مثل هذا التداخل من أكثر من بعد.

خامسا: الفصام المستتب المتدهور:

Established deteriorated schizophrenia

وهذا النوع يتفق أساسا مع المفهوم السلوكى من ناحية، ومع المفهوم المسارى من ناحية أخرى، حيث يتصف أساسا بمظاهر التفسخ والتناثر الصريحة الظاهرة فى الصورة الكلينيكية والذى يمثله أساسا فى التقسيم الشائع هو النوع الهيبفرينى١٤، وفيه يتعمق التفكك أساسا، وهو الدال على بقايا تناثر الوظائف العقلية الناضجة (أشلاء الفتى باللغة التفاعلية) مع مظاهر متفرقة من النكوص، ويشمل هذا النوع أيضا النوع التدهورى النهائى Terminal deteriorated type وكذلك النوع النباتى المتناثر Vegetative disintegrated type

وهذا النوع يشير إلى انتصار القوة التدهورية انتصارا نهائيا (تقريبا) وشاملا.

سادسا: مكافئات الفصام Schizophrenia equivalents

هذا التعبير "مكافئات" شائع فى كثير من الزملات الكلينيكية النفسية، وخاصة فيما يسمى مكافئات الاكتئاب Depressive equivalents أما فيما يختص بمكافئات الفصام، فهو نادر الاستعمال فعلا، وكلمة مكافئ تستعمل لأغراض مختلفة:

(١) إذا حلت زملة كلينيكية بديلا عن زملة أخرى كنا نتوقع- تسلسلا وحسابات- أنها أولى أن تحدث، ومثال ذلك إذا حدث موقف إحباط يثير الحزن، فجاء المريض يشكو من آلام بالمعدة، فقد يذهب البعض إلى القول بأن هذه الجسدنه مكافئة للاكتئاب.

(ب) إذا كانت استجابة زملة ما (فرعية فى العادة) للعلاج هى نفس استجابة زملة أخرى شائعة ومعروف علاجها بوجه أكثر دقة، ومثال ذلك إذا استجاب عصاب الوسواس القهرى النوابى Periodical obsessive neurosis إلى علاج الصدمات الكهربائية، فنقول إن هذا العصاب مكافئ للاكتئاب الدورى، أو إذا استجاب مرض جسمى لمضادات الاكتئاب (ذات الثلاث دوائر Tricyclic مثلا)، فنقول إن هذا المرض مكافئ للاكتئاب وهكذا.

(جـ) إذا ظهر مرض وأدى الوظيفة الدينامية لضبط، أو الدفاع ضد، ظهور مرض أعمق (عادة أخطر) فنقول إن هذا المرض الذى ظهر على السطح هو مكافئ للمرض الأعمق، مثلما أشرنا إلى أن بعض أنواع

14- سمى هذا النوع فى التقسيم الثالث الأمريكى للأمراض النفسية (1978) DSM-III بالنوع المتفسخ Disorganised typeوهذا اسم أفضل كثيرا، حيث لم يعد يعنى فصام المراهقة وإنما يشير الوصف إلى المفهوم التركيبى مباشرة .

العصاب مثل الوسواس القهرى والهيبوكوندريا هى دفاع ضد ذهان أعمق (الفصام عادة)، ويثبت دلالة هذا التعبير ظهور الأعمق محل الأكثر ظهورا بالتبادل فى حالات العلاج المتحمس الخاطئ الذى يزيل الدفاع قبل أن يحل محله بديلا صحيا مناسبا.. وهذا أضعف استعمال لكلمة مكافئات لأنه يفتح الباب على مصراعيه لخلط شديد.

(د) إذا حققت زملة اكلينيكية من نوع معين الأهداف الغائية أو الدينامية المرضية لزملة أخرى، ومثال ذلك فى حالة اضطراب نمط الشخصية السيكوباتية، إذ يحقق إلغاء الآخر والذاتية المطلقة والانسحاب الفعلى من المجتمع (بالعدوان عليه)، وكل هذه الأغراض من غائية الفصام، وعلى نفس القياس- كما أشرنا فى تقديم المفاهيم- نجد الذهانات الأخرى وبعض الزملات الأخرى غير النموذجية داخلة تحت هذا التصنيف، ومثال ذلك- مرة ثانية- الاكتئاب الطفيلى النعاب والهوس النزوى المتفتر... الخ.

إذا فاستعمال كلمة مكافئ هو استعمال دقيق وخطير، وينبغى أن يقتصر ما أمكن على الاستعمال السيكوباثولوجى دون الاستعمال لوصف الصورة الاكلينيكية، وهنا فى مجال مكافئات الفصام أقول إن النوع الأخير هو الذى أعنيه تحديدا سيكوباثولوجيا وهو "الزملة المرضية التى تقوم بتفعيل acting out الصفات والغائية الفصامية فى السلوك الظاهرى فى صورة أعراض تعتبر غير فصامية بالمفهوم السلوكى"[15]

وبالرغم من أن هذه المجموعة تفتح أبوابا خطرة لدرجة فرط التداخل overinclusion فى هذا المفهوم، فإنها من الناحية الدينامية والغائية، وأهم من ذلك هى من الناحية العلاجية وتوقع سير المرض، ذات فائدة مباشرة وعملية ولايمكن الاستغناء عنها.

وبعد

إذا كان الأمر بهذا التداخل والخلط، فإنه يكاد يبدو واضحا أن "الفصام" كما يقول زاس Szasz (١٩٥٧) "مفهوم احتوائى خطر"[16] من حيث أنه يشمل كل شئ، ولكنه لايزيد الأمور إلا إلغازا، الأمر الذى دعا كيوبى Kubie(١٩٧١)[17] إلى القول بأن هناك درجات مختلفة من التفسخ الذهانى، ولكنه أضاف أنه لاتوجد حاجة إلى فئة فرعية مستقلة بين الاضطرابات الذهانية تستحق أن تسمى "الفصام".

ولكن هذا الاتجاه وذاك هو "أمانة العجز" بلا أدنى شك.

وما سأقدمه هنا فى هذه الدراسة - باختلاف كل ماقدمته فى الفصول السابقة - سوف لايقتصر على سيكوباثولوجية نوع محدد من كل هذه الأنواع المطروحة، ولكنه محاولة محورية لتقديم سيكوباثولوجية

---

15 -The term schizophrenic equivalent is used for syndromes that fulfill acting out the schizophrenic character and schizophrenic teleological goals the overt behaviour, but not in form of schizophrenic symptomatology in behavioural terms.

16- استعمل زاس كلمة Panchhreston وهى كلمة استحدثها هاردن Harrdin وليس لها ترجمة مباشرة.

17- أكرر التزامى بعدم الاستشهاد إلا بأقل القليل من المراجع للمحافظة على تسلسل وأصالة الدراسة تاركا هذه المرحلة كما ذكرت لطلبتى فى طور قادم، إلا أن الاستشهاد دال لايمكن تجنبه (راجع ثبت المراجع).

العملية الفصامية ذاتها ومسيرتها، تلك المسيرة التى يمكن أن تتوقف أو حتى تتراجع جزئيا فى أى معركة، وأن تعادل Neutralised بدفاعات مناسبة، وأن يكون النتاج السلوكى لهذا القطاع المستعرض هو زملة بذاتها ليست بالضرورة فصاما، وكأن الذى يعنينى هنا هو تقديم المسيرة المرضية بأكملها من حيث غائيتها التدهورية القصوى، مع وضع احتمالات التوقف دون تحقيق هذه الغاية القصوى باستعمال دفاعات تحقق حلوسط مناسبا ومرحليا.

ولعل فى ذلك ما يشير إلى طبيعة هذه الدراسة باعتبارها سلسلة متصلة تبحث فى المسيرة التدهورية التى تسمى بالأمراض النفسية مما أسميتها بلغة التطور والاعادة "السيكوباثولوجيني".

إذا فإن حديثى عن المسيرة الفصامية هو حديثى عن "المسيرة المرضية الغائية"، أو عن "العملية الذهانية الأساسية بما يشمل مقابلاتها العصابية ومكافئاتها من اضطرابات الشخصية"، ولن أحاول أن أقدم حديثى هذه المرة بأكثر من لغة سيكوباثولوجية مكتفيا فى المقام الأول باللغة التركيبية، ومترجما لها فى النهاية إلى اللغة البيولوجية المحتملة.

ولاينبغى أن يستعمل لفظ الفصام - إذا- من الناحية الكلينيكية والسلوكية إلا إذا ظهرت الأعراض الفصامية سلوكيا فى الصورة الاكلينيكية، أو إذا تطورت المسيرة لتحقيق غائية الفصام الانسحابية التدهورية مباشرة، أما كل مادون ذلك فلا يطلق عليه سلوكيا إلا مايتفق مع ماظهر من أعراض فى الصورة الكلينيكية فى القطاع المستعرض الخاص بلحظة معينة من تطور المسيرة الذهانية (التدهورية).

المسيرة[18] الفصامية

THE SCHIZOPHRENIC MARCH

أولا: ماقبل الولادة

للوراثة أثر هام لايمكن إنكاره فى حدوث الفصام، وكل من حاول إنكار هذا العامل أو التقليل من خطورته، إنما ظن أنه بذلك يؤكد معنى غائية الفصام أو أهمية العلاقات الانسانية المباشرة المسئولة عنه، ولكنه بذلك يغفل كثيرا من الحقائق والاحصاءات والمشاهدات الكلينيكية فى العائلة الواحدة[19] مما لايستقيم معه علم يحترم المشاهدات وتواترها.

١- إن وراثة الفصام تعنى وراثة الاستعداد للمرض من واقع التاريخ "الفيلوجينى الخاص" لقطاع من البشر، كما أنها تعنى غلبة انتقال سلوك مطبوع خاص يرجح نوعا خاصا من الوجود، وهذا النوع يعتبر صفة لمرحلة بدائية من التاريخ الحيوى بقدر مايصف استعدادا لمرض، بمعنى نوع معين للحياة، ونشاط هذه المرحلة البدائية النسبى والمحدد بتثبيت وتدعيم أسلوب سلوك خاص، هو الذى يورث، فإذا نشط

18- اخترت كلمة 'مسيرة March 'وفضلتها عن كلمة 'عملية Process 'حتى أؤكد المفهوم الغائى للفصام.

19- قمت بالاشراف على بحث للدكتوراه عن عائلات الفصام فى البيئة المصرية، أثبتت أهمية الوراثة ليس بالنسبة لوراثة الفصام فحسب بل لأمراض أخرى وخاصة اضطرابات الشخصية، هذا بالاضافة إلى تأكيد أهمية العائلة بيئيا، والتفاعل بين العاملين هو تفاعل أعمق من مجرد الجمع أو حتى التداخل حيث أنه تفاعل دوامى Perpetual متصل.

Sherbini, G. (1976) Families of Schizophrenia in Egypt، Tanta University- Unpublished Thesis.

مستقلا وعلى حساب مايليه سمى فصاما، وإذا تداخل فيما يليه كان جزءا من مكونات التطور. فوراثة الفصام إذا هى وراثة الحياة ذاتها.. وإن اختلفت قوة نشاط الجزء البدائى بين قطاعات البشر المختلفة حسب تاريخ نشأتها.

٢- إذا، فنشاط هذا الجزء مستقلا هو الاستعداد التدهورى الذى يمكن أن يورث بقدر قوة هذا الجزء عبر التاريخ الحيوى وعبر الأجيال، ونشاطه هو هو متداخلا فى الكل هو من جزء لايتجزأ الاستعداد التطورى، والذى يحدد هذا أو ذاك هو الظروف المهيئة والمحيطة أثناء النمو الذاتى (الانتوجينى) والظروف المحيطة مؤخرا أثناء نبضة النمو بوجه خاص.

٣- إذا تعثر النمو فى أزمة مفترقية (نبضة مفترقية (نبضة ماكروجينية) فإنه قد يتوقف بسهولة عند هذا المستوى البدائى، حسب قوته الذاتية الموروثة، والمدعمة بالتنشئة (المهيأ فيلوجينيا)، فلا تعارض إذا بين التأكيد على الوراثة والاعتبار الخاص للبيئة بطريقة دوامية perpetuated متشابكة.

٤- إن غائية الفصام كمرض يصيب فردا بذاته يمكن أن نجد له جذورا فى غائية بيولوجية، تعنى أن هذا الكيان البدائى له منطقه ومبرراته وتاريخه الناجح فى زمانه، وبالتالى فهو وجود هادف وجاهز للحفاظ على استمرار الحياة إذا ما فشل ماهو أرقى منه.

٥- إن وراثة الفصام- إذا- ليست وراثة بذاته، (وخاصة مع اعتبار وتداخل أنواعه ومفاهيمه) ولكنها تشير إلى وراثة قوة تدهورية كبيرة (بالتعريف السابق ص ٣٢٩)، التى تعنى مباشرة وراثة قوة تطورية بنفس القدر وأكبر (بالتعريف السابق ص ٣٣٠).

٦- لما كانت المسألة تتعلق بوراثة استعداد بيولوجى عنيف من الناحيتين، فإن البيئة التى تنمى أحدهما (النشاط المستقل فى مقابل النشاط الكلى) أثناء النمو، والمجال الذى تتم فيه نبضة الماكروجينى (أو السيكوباثوجينى عند الفشل) يسهمان إسهاما مباشرا وحادا فى تحديد وترجيح النتاج السلوكى لنبضة النمو: قفزة تطورية[20] أو مرض توقفى تدهورى.

٧- إن تحديد الصورة الكلينيكية لمرض بذاته التى هى نتاج الفشل النموى (السيكوباثوجينى) يترتب أيضا على قوة المستوى الأكثر بدائية (المقابل للفصام) بالنسبة لقوة المستويات البدائية الأعلى (المقابلة للبارانوية- والاكتئابية.. الخ) كما يتوقف على احتمال الحلوسط، والعوامل البيئية التى ترجح هذا أو تجهض ذاك.

٨- إذا فوراثة الاستعداد "التطوري- التدهوري" هى وراثة إجمالية وأساسية، ويساعد فى تشكيل نتاجها سلوكيا عوامل سلوكية مطبوعة وموروثة أيضا وعوامل بيئية محيطة ومؤثرة دوما.

20- فى الدراسة سالفة الذكر وجدت نسبة المبدعين غى عائلات الفصاميين أكبر منها فى العينة الضابطة.

٩- يثير بعض المهتمين بالوراثة قضية كيف أن الفصام مرض خبيث تطوريا[21] Evolutionary Malignant، وفى نفس الوقت، هو "شائع"[22] Common ومع ذلك فإن الجنس البشرى لم ينقرض، حيث أن قوانين التطور تؤكد أن المرض إذا كان خبيثا تطوريا وفى نفس الوقت شائعا فلابد أن ينقرض الجنس المصاب به[23] ،

(وقد وضع "فرض" يفسر ذلك يقول "إن وراثة الفصام ليست وراثة لمرض الفصام ذاته، ولكنها وراثة لسمة تطورية إيجابية، ولاتصبح سلبية إلا فى اللقاح المماثل (هوموزيجوس Homozygos) فتحدث الفصام أما فى اللقاح المغاير(هتيروموزيجوس Heterozygos) فتظل إيجابية، مما يفسر بعض السمات المميزة لأقارب مرضى الفصام".

والأرجح عندى، أن الفرض الأقدر على تجميع هذه المشاهدات المتنافرة يجدر أن يصاغ هكذا "إن الذى يورث هو قوة هذا المستوى البدائى، التى لاتصبح تدهورية إلا إذا عملت مستقلة، وهى ذاتها تصبح تطورية إذ عملت فى الكل"، أما الذى يحدد هذا من ذاك فليس هو اللقاح المماثل أو المغاير، وإنما ظروف تعهد هذه القوة ومجالات إطلاقها.

١٠-إن مايسرى على الفصام يسرى على المستويات البدائية الموروثة الأخرى، والتناسب بين قوتها يتحدد ضمنا باختلاف التاريخ البشرى والفيلوجينى لكل قطاع من البشر، متأثرا بطبع السلوك ونقله عبر الأجيال، وهذا الاختلاف لايميز قطاعا بذاته، وإنما يشير ضمنا إلى تاريخه التطورى الخاص.

١١- إذا، فالفصام سلوك تدهورى دال على قوة سلوك بدائى متعلق بالتاريخ الفيلوجينى لقطاعات البشر المختلفة، وهذا السلوك (بالطبع) ينتقل عبر الأجيال[24]، ويتوقف النتاج المرضى للأزمة السيكوباثولوجية على قوته النسبية بالمقابلة بقوة المستويات التالية من جهة، وكذلك على تدعيم أيها أثناء النمو، وأخيرا على المجال الذى تحدث فيه النبضة.

هذا وتجهض نبضة النمو فى الفصام عند أول مستوى (أكثرها بدائية) فى نتاج سيكوباثولوجى تدهورى غائى.

السواء ـ شيزويدى (توقف)... بارنوى... اكتئابى... الخ

مسار السيكوباثولوجى فى الفصام

(قارن مسار الاكتئاب ص ١٨٧، ومسار حالات البارانويا ص ٣٠١)

===

والخلاصة

21- أى أن مدى عمر المصاب به أقل من الشخص العادى ونسبة الانجاب معه أقل .

22- نسبته ١% في التعداد العام، والمرض يعتبر 'شائعا' إذا زادت نسبته عن١ /١٠،٠٠٠

23- لذلك فإن أي مرض خبيث تطوريا لابد وان يكون نادرا، والمثال المعروف لذلك هو كوريا هانتنجين Huntington chorea حيث لاتزيد نسبته عن ١/١٠،٠٠٠ وهو خبيث تطوريا بدرجة هائلة.

24- هذه الدراسة مبنية علي فكرة انتقال العادات المكتسبة (الدالة تطوريا) بالوراثة وهي فكرة لها أنصارها وإثباتاتها المعاصرة.

إن أول خطوات المسيرة الفصامية تتحدد قبل أن يولد المريض من خلال:

(١) أنه إنسان ذو تاريخ فيلوجينى، فهو يحمل جذور الفصام لامحالة، إذ يحمل مستوياته البدائية الجاهزة للعمل كبديل مستقل فى ظروف معينة.

(ب) أنه انسان من عائلة خاصة تحمل قوة مستوى بدائى خاصة، وقد عاش أجداده خبرات تدعيمية لهذا المستوى خاصة، وطبعت هذه الخبرات، وهى مستعدة للعمل منفردة (تدهوريا) أو فى الكل (تطوريا).

ثانيا: ماقبل المرض[٢٥]

(١) مقدمة:

يتوقف ظهور المرض على عاملين متضادين يتعلقان بالتنشئة الفردية وهما:

الأول: إلى أى مدى عاملت البيئة (الأم خاصة) طفلها بحيث غذت ودعمت قوة المستوى البدائى حتى أصبح جاهزا وقادرا على العمل مستقلا عن الظروف الضاغطة.

الثانى: إلى أى مدى عاملت البيئة (الأم فالعائلة فالمجتمع) الفرد بحيث غذت ودعمت قوة المستويات التالية، وخاصة المستويات الإنسانية الأحدث، المؤكدة لضرورة عمل علاقة مع آخر "كموضوع حقيقى آخر" Real object وليس كموضوع ذاتى Self object.

وعلى قدر ترجيح العامل الثانى فى مقابل العامل الأول تكون حصانة الفرد ضد الفصام، بل تكون قابليته لاحتواء قوة الفصام فى الكل التطورى.

وبديهى أن العوامل التى ترجح أى العاملين أقوى تتعلق بظروف مجتمع التنشئة ككل، وظروف احتياجات الأم بوجه خاص، فالأم التى تحتوى طفلها أكثر من حاجته، وتلغى استقلاله بالامتلاك المفرط، وتسمح بإطالة الاعتمادية، لابد وأن تهيئ لتدعيم المستوى البدائى (المخ الانعزالى) بحيث إذا ترك هذا المستوى إلى المستوى التالى يظل متحفزا لأى فشل، وجاهزا للعمل كبديل مستقل نشاط

(٢) سوء وفقر التغذية البيولوجية:

Biological under-and mal- nourishment

يقسم "أريتي" الشخصية قبل الفصام إلى نوعين:

الأول: الشخصية الشيزويدية (الشبفصامية) وهى الشخصية الشائعة من قديم والدالة على قوة الاتجاه إلى اللاعلاقة حيث يبدو الشخص منذ طفولته منعزلا، حساسا، متعاطفا (من أعلى)، أو مغرورا، أو متفردا.

والثانى: الشخصية العاصفية Stormy personality التى يبدو عليها اندفاعات فجائية وعدوانية وأحيانا محطمة سرعان ماتزول ويرجع الشخص إلى طبيعة عادية أو هادئة.

25- لن أعود ثانية ابتداء من هنا للاشارة إلي الوراثة علي أن نتذكر:-

(١) أن كل هذه الخطوات تسهلها وتسرع بها وراثة إيجابية للفصام بالمعني السابق.

(ب) أن هذه الخطوات ذاتها تترك في الجينات الأثر الذي قد ينتقل إلي الجيل القادم.

وفى خبرتى الكلينيكية وجدت أن العامل الهام فى الشخصية قبل المرض ليس نوعها الخاص بل نوع علاقاتها وفائدة مايصلها من "رسائل" وماتجيب به من "عائد"، فكثير من الشخصيات الانطوائية ظاهريا تعيش حياة غنية "بالرسالة والعائد" فى صمت ودعة بحيث تنمو بسلاسة دون أدنى تعرض لهزات انقلابية تظهر الفصام حتما، وكثير ممن يقال لهم انبساطيون إنما يمارسون النشاط القهرى الكلامى والعلاقاتى نحو الآخرين من جانب واحد بحيث لايستقبلون رسائلهم، وبالتالى لايكون نشاطهم عائدا حواريا مثريا..، أما تواتر الشخصية "العاصفية" فى خبرتى، فقد كان أقل نسبيا إلا أنها كانت أعمق دلالة، إذ أن هذا النشاط العاصفى كان يدل عندى على أمرين معا أولهما: قوة الداخل البدائى وعنفه وقدرته، وثانيهما: ثقب الحائط الخارجى واحتمال كسره، وإن كانت هذه النوبات العاصفية كثيرا ماتعتبر تفريغية وتؤجل ظهور النشاط البدائى بشكله المرضى المباشر.

خلاصة القول: إن ماقبل الفصام يشير عادة- بغض النظر عن نوع الشخصية أو نوع البيئة أو نوع الوراثة - إلى جوع شديد إلى استقبال "رسائل" لها معنى٢٦، كما أنه يفتقر إلى إرسال "رسائل" تجد من يستقبلها بقدرها، وعلى ذلك فإن العائد يصبح ضعيفا للغاية "منه وإليه"، والنتيجة أن تتقطع المواصلات البيولوجية القادرة على حفظ التوازن البشرى بالدرجة التى تسمح له بالاستمرار والنمو.

فمشكلة ماقبل الفصام- ومايهيئ له - هو فقر التغذية Undernourishment للجهاز البيولوجى الإنسانى، ويكون ذلك بالاهمال الكامل فى الحياة الشيزويدية المعاصرة، كما قد يكون بسوء التغذية Malnourishment التى قد تتم بأى من الأساليب التالية:

(١) بالتركيز على جانب واحد من جوانب الشخص دون بقية وجوده (مثلا: صفته كطالب أو كابن أو كعازف أو.. أو.. الخ) دون سائر جوانب كيانه الأخرى، وخاصة الضعيف منها.

(ب) التركيز على نوع معين من "الرسائل والعائد" دون بقية الأنواع، مثل التركيز على نوع العلاقات الاستثمارية Investment relations أو الاحتوائية أو التشكيكية أو الثنائية، دون العلاقات البنائية أو التعاونية أو الموضوعية.

(ج) معاملة الشخص المسقط projected دون الشخص الحقيقى، فإذا كانت الأم- مثلا- ذات وجود فصامى ملوث (اضطراب فى الشخصية) وليس عندها سوى مواضيع ذاتية Self object إذ تفتقر إلى درجة من الرؤية الموضوعية، فإن طفلها- مهما حاولت ظاهريا - لن تصله أى رسالة بنائية لأنه لم- هو هو- يوجد أبدا فى مجال إدراكها.

وإذا لم يتغذ الفرد غذاءآ بيولوجيا مناسبا وكافيا (ذا معنى) ضعف جهازه الأحدث مهما بدا متماسكا ظاهريا، مما يجعل الجهاز البدائى أقوي- ولو نسبيا- وبالتالى أكثر تحفزا للعمل.

26- 'المعني' كما سبق أن أشرت إنما يقصد به هنا تناسب وكفاءة المعلومات ' الواصلة لجهاز فعلنة المعلومات في مرحلة بذاتها.

وقد تنشأ من نتاج فقر التغذية وسوء التغذية أنواع من السلوك شائعة كمهيئة للفصام مثلما ذكرنا عن الشخصية الشيزويدية أو الشخصية العاصفية، وأضيف هنا بعض أمثلة من مشاهداتى وخاصة فى مرحلة الطفولة (مما تتداخل قليلا مع مشاهدات شولمان أيضا)، مما أعتبره من علامات الاستعداد للفصام:

١- الطفل الفائض: وهو الطفل الذى جاء زيادة عن احتياجات الأسرة فيستقبل دائما باعتباره رقما زائدا.

٢- الطفل الخاص المميز: وهو الطفل الذى تستقبله الأسرة على أنه "مختلف" إما إلى أعلى أو إلى أدنى، المهم أنه مختلف.

٣- الطفل الفرجة (الزينة): وهو الطفل الذى يقوم بوظيفة العرض على الآخرين مثل الصورة (التابلوه) إما بشكله أو بعض سماته أو ظاهر سلوكه.

٤- الطفل المشروع الاستثمارى: وهو الذى يقوم للأسرة بدور تعويضى أساسا لخيبة أمل ظاهرة أو باطنة فى آمال وخطط الحياة بالنسبة للوالدين أساسا.

٥- الطفل البديل: وهو الذى يقوم بدور البديل "لوجود" الوالدة أو الوالد الفاشل والمحبط، وهو يقوم بهذا الدور ليس بالضرورة فى مجال التعويض الاستثمارى ولكن فى مجال الاحتياجات العاطفية والانسانية أساسا.

خلاصة القول أن الشخص المهيأ للفصام هو الذى تميز من ناحية خاصة ليست هى وجوده الكلى، وفى نفس الوقت أهمل من ناحية حقه المتواضع فى أن "يستقبله" آخر "كما هو" بالتالى أن "يرسل" لآخر ماهو "هو".

(٣) صورة الذات:

لابد من التمييز ابتداء بين صورة الذات Self image وبين الذات الداخلية Inner self فالذات الداخلية (أو الذوات الداخلية) متعلقة بمفهوم تعدد الذوات داخل النفس (ص ٢٦ ومابعدها)، وهى كيان تركيبى قائم له مقوماته العصبية الجاهزة، والمعدلة بالنمو والسلوك والطبع والتعلم.. الخ، أما صورة النفس- فمثلها مثل صورة الجسم- تأتى من تكون مفهوم نتيجة لإدراك شعورى ولاشعورى لما هو "أنا"، وهذا الإدراك يأتى ابتداء من الخبرات الخاصة كما يستقبلها الفرد- كما هي- كما أنه يأتى من مصدر هام آخر وهو صورة الفرد عند الآخرين، أما المصدر الثالث فهو صورة الفرد كما يتصور أن الآخرين يستقبلونها، وجماع هذه المصادر الثلاث يرسم صورة مدركة ومنطبعة داخل التكوين العصبى.

وصورة النفس عادة أقل كفاءة وأضعف شأنا من حقيقة النفس، إلا أنها فى الشخص المهيأ فى الفصام (وكما سبق فى حالات البارانويا كذلك) ٢٧ هى شديدة الضعف، وشديدة البعد، وشديدة التشويه، وأهمية ذلك فى الإعداد للفصام هو أن هذه الظاهرة تعتبر استجابة للتشويه الذى لحقه من "عدم الرؤية" الشاملة

27- راجع أيضا ص ٩٦.

لوجوده كما تعتبر فى نفس الوقت احتجاجا على ذلك، وتبريرا لإبعاد حقيقة ذاته عن متناول "الاهمال"، وكأنه عملها "بيده لابيد الآخرين".

وأهمية ذلك أنها تزيد المسافة بين السلوك الظاهرى وبين التكوين والقصور الداخلى، مما يجعل الوجود هشا بحيث يصبح الكسر خطيرا متى حدث.

(٤) مرحلة التعويض:

وفى ظل هذه الظروف من الجوع (فقر وسوء التغذية البيولوجية) ومن الإهمال وعدم الرؤية، ومن التشويه الداخلى والبعد عن التناول، يبذل الفرد جهدا شعوريا ولاشعوريا فى مواصلة مسيرته بأى جهد وأية حيل عقلية تحافظ على صلابة القشرة الخارجية فى مقابل الفراغ والتشوش الداخلى، وقد تظهر السمات العصابية أثناء ذلك، وقد تصل إلى بعض مظاهر العصاب (وإن كان ذلك غير متواتر بشكل خاص فى خبرتى).

ويستعمل الشخص منذ البداية قدرا متزايدا من الحيل النفسية، التى تختلف باختلاف الفروق الفردية والسمات الشخصية، وأغلب الحيل التى يستعملها القبفصامى ٢٨ فى خبرتي- هى الكبت والانكار، وإلى درجة أقل: الإسقاط وتكوين رد الفعل والتبرير، وإن كانت كل الحيل تستعمل فى العادة، وأحيانا مانجد أن من بعض الأشخاص ذوى التركيب الشيزويدى بالذات من يبدو وكأنه لايستعمل كل هذا القدر من الحيل، ولكن يحل محلها جميعا حيلة "العقلنة" بوجه خاص٢٩، حيث يبدو الشخص وكأنه يعرف داخل ذاته تماما، ولكنها معرفة للتجميد والتخدير وليست للمسئولية والتغيير كما أسلفنا.

ثالثا: ماقبل البداية:

إذا راجعنا الفصل الثانى والثالث وجدنا كيف أن كل الحيل النفسية والأمراض العصابية تقوم بدورها- بكفاءة متوازنة فى الحياة العادية، وبانحراف متوازن فى العصاب - لتحكم فى الداخل المتحفز، ولكن باقتراب هذا الداخل وعدم كفاية الحيل تبدأ٣٠ الأعراض العصابية فى أن تصبح غير مألوفة ، وغير مترابطة ويحتاج هدفها الدفاعى إلى خطوات وتفسيرات أعمق وأكثر تر؛كيبا من التفسيرات المباشرة للحيل النفسية العادية وللعصاب وغرابة هذه الأعراض وشذوذها تجعلها توضعهع تحت زملة خاصة يطلق عليها "الحالات البينية"٣١، مما يشير ضمنا إلى وقوعها بين العصاب والذهان، والنوع الذى أشير إليه هنا هو النوع المسمى باسم شائع هو "الفصام شبه العصابي"، وهذا الإسم يدل على أن غرابة الأعراض العصابية، وعدم تماسكها، وصعوبة تفسيرها، دال فى ذاته على أن الفصام قد بدأ فعلا ولكنه مازال متخفيا

Preschizophrenic -28

29- راجع الفصل الثاني 'الحيل النفسية وضرورة العمي النفسي برمته في هذا المقام.

30- راجع هذه المراحل بتفصيل نسبي وعينات كلينيكية في بحث أنواع الفصام للدكتورة يسرية أمين سليم- بإشراف المؤلف Types of schizophrenia (1978) Cairo: Dar EL Ghad publications. P. 98-

31- يمكن الرجوع لدراسة هذه الحالات إلي بحث الدكتور محمد هويدي- بإشراف المؤلف- عن 'الحالات البينية: دراسة دينامية' القاهرة، دار الغد للثقافة والنشر ١٩٧٨.

وراء مايشبه العصاب، والواقع أن هذه المرحلة- قبل الكسر كما سيأتى حالا- يصعب وضعها كمرحلة بداية فعلية للفصام، كما يصعب إدراجها كنوع خاص منه، بل إن هذه المرحلة أحيانا ماتطول وتزمن وتستتب حتى لتصبح جزءا لايتجزأ من الشخصية، مما حدا التقسيم الثالث الأمريكى للأمراض DSM-III أن يضعها تحت زملة خاصة فى اضطرابات الشخصية وأسماها الشخصية البينية Borderline personality، وأحب أن أوضح معالم هذه المرحلة من عدة زوايا، مؤكدا أنها ماقبل الفصام وليس الفصام ذاته، ولكنها منذرة، وتحديدها وتمييزها عن العصاب مفيد جدا فى الإسراع بالعلاج والوقاية، وهى تتصف عادة بما يلى:

(أ) البداية المتدرجة: والمريض عادة لايدرك متى بدأ التحول نوعا أو كما، وقد لايدرك الآخرون المحيطون به ذلك أيضا، إلا أن الذى لم يره منذ مدة ثم رآه فى هذه الفترة قد يلاحظ ذلك أكثر من المحيطين به، ثم إنه - بعد الكسر - وحين يسأل عن بداية المرض قد يرجعه إلى هذه المرحلة، وكيف أنه تغير منذ كذا وأنه "الآن" يتذكر كيف اختلفت آراؤه بالنسبة لعمل ما، أو لعلاقة ماقبل "التوقف الكامل" أو "الكسر" أو "الانهيار" أو "الرؤية" أو "الحادث" أو "الذى جري"، ولكن المهم فى هذه الظاهرة التى سوف نسميها بعد ذلك "الوعى بأثر رجعي"، (والتى أشرنا إليها فى الاكتئاب وفى حالات الهوس خاصة على المستويين الأنتوجينى والفيلوجينى) أنها تحكى عن بداية "تغير ما" لو سئل المريض عنه فى حينه لكانت إجابتة سلبية وأن كل شئ كما هو وعلى مايرام، أما فيما بعد فالأمر يختلف كما أو ضحنا.

(ب) الشعور الغامض The vague feeling : قد يدرك المريض فى هذه الفترة السابقة للبداية أن اختلافا طفيفا قد حدث، ولكن أهم ما يميز هذا الإدراك هو صفة هذا الاختلاف بأنه "ليس معتادا على كل حال"، "إنه مختلف"، "إنه غير"... الخ، وهذا الاختلاف لايصل إلى درجة التغير النوعى المحدد، ولكنه اختلاف نسبى، كما أنه لايشبه "الظاهرة بلا إسم" التى سيرد ذكرها بعد قليل (والتى أشرنا إليها فيما سبق ص ١٦٥).

(حـ) ثورة الأحلام : قد يصاحب هذه الفترة بالذات تغير فى كم الأحلام وفى نوعها كذلك[32]، فهناك من الأشخاص المهيئين للفصام، وخاصة من تزايد عندهم الكبت بشكل ظاهر، من يقول أنه لايحلم أبدا (بمعنى أنه لايتذكر الحلم أصلا، لأن تعبير أنا لا أحلم غير صحيح فسيولوجيا)، وهذه الظاهرة توجد عادة فى أنواع خاصة من اضطرابات نمط الشخصية، وتدل على جرعة هائلة من الكبت، ومثل هذا الشخص يأتى فى هذه المرحلة ويقول أنه بدأ يحلم، وقد يعلق على ذلك بأن هذا أمر غريب عليه، وأنه مندهش منه، أو أنه خائف من عواقبه، دون إبداء أسباب لذلك..

32- راجع أيضا ص ٦٩.

أما التغير النوعى فقد يظهر فى هذه الفترة صورة أحلام الزلازل وأحلام المطاردة وأحلام الامتحان، وأحلام الوقوع من شاهق (وليس الطيران) ٣٣، وأحلام التقطيع الجسدى، وأحلام الحيوانات المفترسة، وأحلام الأشكال المشوهة والبشعة، وأحلام الأجنة الميتة، وأحلام النعوش، وأحلام الصحارى والأراضى البعيدة، ومجال هذه الدراسة المحدود لايسمح بالتمادى فى تحديد معنى الأحلام فى هذه الفترة ومابعدها الجنسية أو غيرها) فهى تدل (١) على أن مستوى اللاشعور قد اقترب من السطح (٢) وأن تجزيئاته وتقطيعاته وبشاعته تهدد بالظهور (٣) وأن بقية الوعى السائد غير قادر على استيعابها (ومن ثم التكرار)، وقد يحاول المريض إخماد هذه الحركة بالإفراط فى النوم ٣٤

ولكن هذه الدلالات كلها لاتؤثر فى الصورة الكلينيكية مباشرة، إذ تظل التفاعلات الظاهرة والسلوك الواعى عصابيا أو قريبا من العصابية، ومتصفا بنفس المواصفات المألوفة فى الفترة السابقة.

(د) المحاولة التعويضية: تتصف هذه الفترة أيضا - تلقائيا أونتيجة لإرادة واعية - بظهور بعض السلوك العادى التعويضى، بمعنى أن نجد الشخص فى هذه الفترة - رغم ظهور الأعراض العصابية الغريبة - وقد أقبل على عمله بشكل خاص، أو أخرج عملا كان مؤجلا تأجيلا بلا مبرر كاف وقام بإنجازه، أو بدأ مشروعا لتحسين أحواله الاقتصادية أو التحصيلية، أو حاول إعادة تنظيم علاقاته مع أسرته بادئا بوضع الخطط وتنفيذ الخطوات الأولى منها، وكل هذه النشاطات إنما تعتبر نشاطات تعويضية فى محاولة كبح جماح الحركة الداخلية الزاحفة.

(هـ) مساومات إعادة النظر ثم التراجع : قد تساور المريض فى هذه الفترة بعض الأفكار التى توحى له بإعادة النظر فى حياته أو معتقداته أو أهدافه، وعادة ماتمر هذه الأفكار فى هذه الفترة مرورا عابرا يقابلها أغلب المرضى بمزيد من اعتقاد ماهم معتقدون فعلا، ومزيد من تقديس الأهداف التى هى أهدافهم سابقا وهكذا، وأحيانا ماتتطور الحالة إلى بعض مظاهر الوسواس الاجترارى أو القهرى، ولكنه يأخذ شكلا متقطعا، ولا تأخذ المقاومة والتوتر شكل التكرار المألوف.

(و) التهيج الجنسى والاضطرابات الأخرى: وقد يصاحب هذه المرحلة تغير فى النشاط الجنسى، يغلب عليه الإثارة المفرغة أو المحبطة حسب المجال المتاح، لكنها إثارة عامة وشعورية بعكس المرحلة التى تسبق ذلك، حيث كانت الإثارة تتناول مباشرة بالكبت والحيل الأخرى، وفى وصف هوك Hoch المبدئى لهذه المرحلة باعتبارها "الفصام شبه العصابي" أكد على ما أسماه الجنسية الشاملة pansexuality، وهذا يدخل ضمن التهيج على أكثر من مثير، وإن كنت فى خبرتى لم ألاحظ ظهور الجنسية المثلية فى هذه المرحلة، ولكن قد ينشغل المريض بالخوف منها، ولكن بطريقة عابرة.

33- راجع للمقارنة علاقة أحلام الطيران بالهوس (ص ٢٣٨).

34- راجع أيضا ص ٧٠، ٧١.

(ز) الخوف : فى هذه المرحلة أيضا قد يتغير شكل الخوف المعتاد، فبدلا من أن يكون خائفا من مجهول كما كان الحال فى مرحلة القلق، وبدلا من أن يكون الخوف محددا من موضوع خارجى كما هو الحال فى الرهاب، يصبح هذا وذاك معا، بالاضافة إلى غرابة يضيفها المريض إلى الوصف، ويظهر بوجه خاص ماسبق أن أسميناه "رهاب الضياع" (ص ١١٢).

وبعد

فهذه المرحلة هى المرحلة التى تسمى "**الفصام شبه العصابي**"، فإلى أى مدى ينطبق عليها الاسم؟ فى خبرتى أستطيع القول أن هذا الاسم (وهو غير الفصام الاستهلاكى كما سيرد ذكره) اسم لايصف "زملة كلينيكية" بقدر مايصف "رؤية سيكوباثولوجية"، إذ مهما كان التفكك والتقليب والإثارة قد تمت فى الداخل فإنها ينبغى ألا تسمى باسم الزملة الكلينيكية المعنية إلا إذا ظهرت فى السلوك الظاهر أقرب ماتكون إلى المفهوم السلوكى للزملة المعنية، وإنى أرى الاحتفاظ باسم الزملة القبفصامية العصابية preschizophrenic neurotic syndrome أفضل من اعتبارها فصاما فعلا ولكنه شبه عصابى، فهذا الاسم المقترح إنما يؤكد نوعية الزملة ودينامياتها وطبيعتها على أنها عصابية دفاعية، ولكنها تعنى دفاعا مرهقا أمام التفكك القائم أو المتزايد.. يرهص بفشل الدفاعات.

رابعا: البداية:

والبداية فى الذهان بصفة عامة كما ذكرنا قبلا (ص ١٦٨ فى الاكتئاب) بداية فجائية تتم فى لحظة أو جزء من لحظة بشكل محدد، وقد أشرنا إلى كيفية السؤال عنها وطبيعتها، وهى فى الفصام تتصف بنفس الصفات، ويمكن تقسيمها إلى مراحل محددة[35]

(١) بداية البداية The onset of the onset:

وهذا التعبير الذى سبق أن ذكرناه أيضا (نفس الصفحة) هو الدال مباشرة على ماعنيته بالفجائية، ولاأجد مناصا هنا من أن أكرر أن المريض قد لايذكر اليوم أو الشهر أو السنة أو المدة التى مضت على هذه اللحظة، إلا أنه يذكر هذ اللحظة فى أغلب الحالات[36] يذكرها مباشرة باعتبارها بداية المرض، وقد يرجع المرض بأثر رجعى إلى ماقبل ذلك كما ذكرنا فى المرحلة السابقة، كما أنه قد يحدده بفترة لاحقة التى سنسميها "البداية" onset وليست بداية البداية، وكل مريض يستعمل لوصف هذه اللحظة صفات خاصة به، فأحيانا مايسميها "الحادث" أو "الكسر" أو "التغيير" أو "القلب" (الانقلاب)، أو "المفاجأة" أو "العملة"، وأحيانا مايفردها إلى حادث بذاته قد يؤخذ على أنه سبب مرسب، وقد لايكون له علاقة مباشرة

35سوف أقوم بوصف بداية الفصام بتركيز علي السيكوباثولوجي وخاصة من البعد التركيبى، أما أنواع البدايات الكلينيكية الأخري وتصانيفها فلن أعرج إليها تفصيلا، وهي عموما ترتبط بعوامل كثيرة منها (١) سرعة تقدم المرض (٢) الوعي بالبداية (٣) قوة الدفاعات التي تقفز للحيلولة دون ظهورو الفصام وتطور الحالة إليه (٤) المجال الذي حدثت فيه، وبالتالي فيمكن أن نجد بدايات متعددة مثل البداية: **المتسللة، والنشطة، والحادة المفككة، والحالمة بلا غيبوبة، والمتصلبة الهياجية، والمتصلبة السباتية، والاكتئابية غير النموذجية، والهوسية غير النموذجية** وغيرها من الصور الكلينيكية المعروفة.

36- كلمة أغلب الحالات هنا تعني في خبرتي المبدئية، وفي محاولة تقريب إلي رقم دال، أكثر من ٩٠% من الحالات.

بالبداية، وأحيانا مايعزوها إلى حلم بذاته، وأحيانا ماتحدث أثناء عمل خاص له دلالته، إذ يكون هذا العمل هو المحتج عليه بوجه خاص من ثورة الداخل[٣٧]

وإذا لم تظهر البداية فى أثناء اليقظة ويحكيها المريض مباشرة باعتبارها "هذه اللحظة بذاتها" فقد يحكيها باعتبار أنه استيقظ فوجد نفسه قد تغير، وفى الأرياف يقولون عن هذه الخبرة "اتبدلت"، وهذا يدل على أن البداية حدثت أثناء الحلم.

التفسير السيكوباثولوجى لطبيعة هذه البداية المحددة المفاجئة: إن لهذه البداية عدة دلالات تتعلق بدراستنا هنا أوردها كما يلى:

١- إنها إعلان لتغير نوعى نتيجة لتراكم كمى كان يتجمع بالداخل.

٢- إنها إعلان ضمنى لتغير الوعى (الوساد الشعورى)، وبالرغم من أنه قد سبق أن أشرت فى هذه المرحلة إلى ظهور كيانين فى نفس الوساد الشعورى، إلا أ ن ذلك لايعنى أن هذا الوساد الشعورى هو هو الذى كان قائما قبل الكسر، وليس هنا مجال لتفصيل ماأعنيه بالوساد الشعورى كوظيفة أساسية[٣٨]، ولاتفصيل علاقته المتبادلة بالكيانات التى تحتله وتسهم فى تركيبه فى نفس الوقت، إلا أن هذا التغير فى نوع الوعى هو الذى يعطى التفسير المباشر، لأن كل الذى يجرى، إنما يجرى كما كان يجرى، ولكن ... بطعم آخر، أو بلا طعم حسب اختلاف تعبيرات المرضى.

٣- إنها إعلان لكسر الغلاف الخارجى للشخصية (أو اختراق الذات) بقوى أخرى لم تكن من المفروض أن يسمح بالتعبير أو الظهور إلا من خلال هذا الاختلاف.

٤- إنها إعلان أن هذا الذى حدث - نوعيا- لايمكن إلا أن يكمل إلى أعلى أو أسفل قليلا أو كثيرا، وبالفحص المجهرى (المكبر) للتغيرات على المدى الطويل يمكن تحقيق هذا الفرض القائل بأنه بعد مثل هذه البداية، تستحيل العودة.

خلاصة القول:

إن تحديد هذه اللحظة ونوعيتها، والموقف الذى حدثت فيه، وإدراك المريض لها، يعتبر ضرورة كلينيكية لاغنى عنها فى تحديد المسار التالى وتوقع سير المرض، وبغير هذه البداية فإنه يستحسن البحث عن تشخيص آخر غير الذهان، تشخيص أقرب إلى العصاب أو اضطراب الشخصية، أو .. إذا كان الذهان واضحا- حتى ولو كان تدريجيا- فيستحسن إعادة البحث "عنها" بصبر أكثر وتدقيق أكثر وبعد عمل علاقة علاجية أقرب.. وبعد فهم لغة المريض واستعمال رموزه بشكل أفضل، واحترام توقيته الخاص للزمن وخاصة بعد بداية الفصام.

37- كثيرا مايكون هذا العمل هو الاستذكار، وكثيرا مايكون اليوم هو يوم بداية العام الدراسى، وكثيرا مايكون يوم بداية تنفيذ جدول ما، ومن أهم الحالات الدالة حالة طالب نابه حصلت له هذه البداية بوضوح تام أثناء لعبة الشطرنج الذي كان يعرف عنه بتفوقه الخاص في لعبه، وكان تفسيري لهذا الانتقاء بالذات أنه رفض التفكير الشطرنجي المنطقي بوجه خاص وأنه رفض لهذا التفوق عامة علي حساب ذاته.

38- راجع تقسيم الوظائف النفسية إلي وسادية، ودافعية، وترابطية في كتاب 'مقدمة في العلاج الجمعي' ص ٢٠٦ للمؤلف.

(ب) **البصيرة بأثر رجعى** Insight in retrospect : بعد هذه البداية يظهر ماسبق أن أشرنا إليه وأسميناه "الرؤية بأثر رجعي"، ويمتد الأثر الرجعى هذا أبعادا مختلفة، ويشمل مناطق سلوكية متنوعة، ويشمل ذلك:

١- سبق التوقيت Amtedatimgأنه قد يرجع بداية المرض إلى ماكان يحس به غامضا قبل ذلك ثم تتضح معالمه بعد "فتح الباب" عليه وإعادة رؤيته.

٢- إعادة التفسير Reinterpretation لأنه قد يرجع تفسير أحلامه بشكل أكثر مباشرة وأوضح تحديدا، وقد يختلط عليه أمر ماإذا كان هذا الحلم مثلا قد حدث قبل "الكسر" (بداية البداية)، أم بعد الكسر ٣٩، وهذا دال على أن الزمن المسجل فى اللاوعى يختلف عن الزمن المسجل فى الوعى، وبمجرد إزالة الحاجز بين الاثنين، تتفق الوحدة الزمنية ويصبح الحدث الذى كان فى اللاوعى وكأنه حدث فى الوعى.

٣- اختيار المرض بأثر رجعى Choice of the disease in retrograde كثيرا مانسمع أن الجنون اختيار، ودائما مانقابل الاحتجاج تلو الاحتجاج من العصابيين والعلماء معا بأن هذا منطق معكوس: أما العصابيون فهم يريدون أن يحتفظوا بخط الرجعة لأنفسهم حتى "قد يفعلوها فى الأزمات دون مسئولية"، أما العلماء فعندهم كل الحق فى الاحتجاج على مايحمله هذا التعبير من تناقض واضح، وطوال هذه الدراسة حاولت أن أفسر معنى هذه الكلمة، حتى أنى حين تحدثت باللغة البيولوجية عن الوراثة- هنا، حاولت أن أتكلم على لسانها مباشرة، والحل الذى يفسر كل هذه البلبلة هى أن الجنون يصبح اختيارا أو بتعبير أدق يتبين أنه كذلك بعد حدوثه وليس قبل ذلك، وبقدر مايعترض الهستيرى والعصابى بصفة عامة على مسئوليته عن ظهور المرض وظهور الأعراض، يوافق الذهانى (المجنون) ضمنا على احتمال أنه هو الذى اختار هذا الحل، ولكنه لو قوبل قبل هذا الكسر وقيل له هذا الاقتراح لثار ثورة العصابى وأكثر، ولكن بمجرد حدوث هذه البداية فإن المريض يقر بشكل بسيط ومباشر أن مابه هو اختياره، وأحيانا مايقول إنه "الحل"، ، وأحيانا مايقول "هكذا آحسن".

وأحيانا مايقرها بطريقة ضمنية قائلا إن ذلك مادام قد حدث فهو اختياره.

ويتعلق بهذه الظاهرة أمران:

(I) شعور المريض، وشكواه، فى هذه المرحلة على أنه مدع أو كالمدع، الطبيب (والفاحص) المبتدى قد يتصور أن هذا تصنعا، ولو كان الأمر كذلك فلماذا يعترف المتصنع أنه متصنع، ولكنه يشعر بأثر رجعي- بدور إرادته فيما يحدث- فهو لذلك يتصور، بغير وضوح، أن ذلك تمثيل أو ماشابه.

39- أخيرا حكي لي أحد الشباب حلما لم يستطع أن يحدد زمنه ولكنه كان حول البداية من أنه كان يحمل نعشا وكان بداخل النعش إمرأة ميتة كانت حاملا، وثقل النعش علي كتفه ومال عليه مباشرة فوقعت الجثة والجنين عليه ولم يتأكد إذا كان الجنين ميتا أم حيا داخل المرأة، ولهذا الحلم دلالته المباشرة في وصف الكيانات المتعددة، وعلاقتها ببعضها مما لامجال لذكره هنا تفصيلا (جاري بحث هذه الحالة في بحث يقوم المؤلف بالإشراف عليه).

(II) شعور المريض بالذنب "الخاص" (ليس كما هو الحال فى الاكتئاب بمعنى الاثم) ولكن المريض- من خلال وعيه الضمنى بإرادته التى ظهرت مسئولة مؤخرا عما حدث، وبما أن ماحدث كان ممنوعا من الظهور ثم بناء على قرار بناء على قرار داخلى (جزئيا بالضرورة) فإنه مسئول عن ذلك، وبالتالى فهو مذنب بشكل ما.

(ج) ادعاء محاولة الرجوع للتأكد من إغراق المراكب:

The pretension as if trying to go back to be sure that it is impossible.

ويلاحظ فى هذه المرحلة أيضا أن المريض يكرر باصرار أنه "يريد أن يعود كما كان"، وأنه يشكو أنه لم يحب أو يكره مثل "زمان"، وأنه ياليته يرجع إلى سابق عهده، إلا أن هذا التكرار الملح قد يحمل معنى أعمق عند التحليل المتأنى الأعمق، وهو أنه يريد أن يطمئن إلى أنه لن يرجع كما كان، أى أنه يريد أن يطمئن إلى أنه قد حرق كل مراكبه بمجرد أن تجرأ وأخذ قرارا رفض به ماكان، أيا كان..، وقد يحدث حين يشكو المريض من أنه لايحس بأى مشاعر (لايحب ولايكره ولايحزن ولايفرح) أن يتطور النقاش مع الفاحص الفاهم ليسأله وهل كان يحب أو يكره أو يفرح أو يحزن "زمان"، فلا يجيب المريض بالإيجاب دائما، وإنما يرجح أن يقول "أهه والسلام"، أو "مثلى مثل الناس"، أو "كانت ماشية"، وكأنه فى موقعه الجديد هذا يرفض أن يدرك سطحية العواطف التى كانت غالبة، والتى كسرها بحثا عن البديل ففقدها ولكنه لم يجد البديل[40] (بعد)، والفاحص السطحى كثيرا مايأخذ هذه الظاهرة على أنها من قبيل عرض "اللامبالاة" أو "فقد الشعور" إلا أن العمق الكلينيكى ينبغى أن يدرك ويميز بين "فقد الشعور" وبين الشعور بفقد الشعور الذى قد يشير إلى حساسية خاصة، أو حتى إلى الحاجة إلى "ممارسة شعور أعمق" أو "شعور آخر".

(د) **الراحة السرية** The secret content وفى هذه المرحلة يبدو للفاحص المتأنى وكأنه قد وصل إلى غايته بشكل ما، فعلى الرغم من شكواه وربكته الظاهرية فإن استقراره الداخلى وإصراره الفعلى على ماهو فيه يشيران ضمنا إلى راحة ما، أو إلى الوصول إلى حل ما، ولاينبغى مواجهة المريض فى هذه المرحلة بالسؤال عن مثل هذه الراحة وإلا تصور أنها نوع من الاتهام، بل إنما يبحث عن مثل هذه الراحة فى تصرفاته ومن خلال مشاركته مشاعره الأعمق.

(هـ) **الربكة** Perplexity: يصاحب هذه المرحلة عادة مشاعر ربكة واضحة، وقد يشكو المريض منها مباشرة، أو قد تبدو على تصرفاته، وقد يبلغ من حدتها أن يبدو المريض وكأنه فى حالة حالمة Oneiroid state (وإن كانت الحالتين غير مترادفتين وإنما تؤدى إحداهما للأخرى)، وهذه الحالة لايشكو منها المريض بقدر مايلاحظها الفاحص، وهى أخطر من الربكة المعلنة، وهذه الحالة الحالمة لاتغيب المريض عن وعيه وإنما يظهر فيها وكأنه يعيش فى وعى خاص رغم يقظته وانتباهه السلبى، وهى عادة ماتنتهى

40- راجع أيضا بداية الإكتئاب ص ١٦١ ومابعدها، ولا تنسي أت البدايات مه إختلاف فيما بعد، قد تقترب من بعضها البعض تماما.

بصفاء عميق سرعان مايدل على ماوراءه من تكوين سريع للمعتقدات الضلالية المبدئية التى أسماها "البصيرة الذهانية".

(و) **الشعور بتغير الذات**: وقد سبق شرح هذه الظاهرة فى بداية الاكتئاب بشكل واضح (ص ١٧٠)، وإن كان الشعور هنا بهذا التغير قد يتميز بمصاحبته بهذه الراحة الخفية أكثر من مصاحبته بالانزعاج والدهشة كما فى الاكتئاب.

كما أن تغير الذات هنا يشمل الشعور "بذاتين معا" أكثر من الشعور بأن الذات السابقة هى هى، ولكنها تغيرت.

(ز) **الشعور التجزيئى للجسد واستقلال بعض أجزائه**: ويشعر المريض فى هذه المرحلة أيضا بجسمه "بشكل مختلف" فيعبر عن ذلك مباشرة، أو بتعبيرات دالة على عدم التحكم الكامل فى أعضائه مثل "عينى بتبص بعيد عني" "حاسس إن إيدى ممكن تتحرك وحدها"، "زى ما يكون إيدى منفصلة عن كتفي"..الخ.

طبيعة هذه البداية ومساراتها الأخرى:

وهذه البداية دالة - كما ذكرنا - على ظهور كيانين معا فى الوساد الشعورى وتسمى هذه البداية فى كثير من الأحيان "الفصام الاستهلالي"Schizophrenia Incipient وقد سبق أن ذكرنا عدة شروط (ص ٣٣٧) حتى يمكن أن تسمى مثل هذه البداية "فصاما" أصلا، ونلاحظ أن هذه المرحلة مشتركة فعلا مع أى بداية ذهانية، (بل وتشترك فى معالم الأزمة المفترقية بصفة عامة)، ومسار هذه البداية قد يتفرع وينتهى الى زملات أخرى كما سيرد حالا (وكما سبق ذكره)، أما إذا زاد تباعد الكيانين فإن تشخيص الفصام الاستهلالى هو الأرجح، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الحالات التالية:

(أ) إذا كان فى العائلة تاريخ إيجابى للفصام وخاصة من النوع المتدهور.

(ب) إذا كانت الشخصية قبل المرض تعانى من نقص (أو سوء) تغذية بيولوجية مزمن (الشخصية الشيزويدية أو العاصفية أو المهملة أو المجزءة ...الخ)

(جـ) إذا كانت الراحة السرية واضحة لدرجة تلغى احتمال معايشة الاكتئاب بدرجة أصيلة.

(د) إذا كان تغير الذات هو ثنائية الذوات أكثر منها تغير نوعى فى الذات القائمة.

(هـ) إذا كانت الربكة تحمل قدرا أكبر من التذبذب والتردد الحاد Acute vibrating hesitancy ، أى أنها لا تمثل عجزا عن القرار بقدر ما تمثل تنقل سريع ومتكافئ بين قرارين.

(و) إذا كان الشعور الجسدى التجزيئى غريبا وشاذا ومستمرا.

خامسا: التشكيل التركيبى لمسار الفصام وبدائله فى مراحله الأولى:

The structural configuration of the "schizophrenic march" and its substitutes in early stages.

إن هذه البداية التفككية بين كيانين أساسا (ثم أكثر فيما بعد) هى المبرر الحقيقى لاسم المرض الذى أطلقه "بلويلر" Beluler باعتبار أنه انشطار العقل (Split-mind)، ومع ظهور فكرة تعدد الكيانات ومقابلاتها العصبية كتركيبات متصلة ومنسقة ومتعاونة، أصبح كلمة الانشطار أقل دقة فى الوصف، وأصبح من الجدير أن يرجع مفهوم سترنسكى Stransky عن الهزع[41] داخل النفس[42] إلى الظهور بشكل فينومينولوجى يتفق مع التقدم الذى أتيح فى فهم النفس والتراكيب العصبى المقابل أكثر فأكثر.

لذلك فإن مسار الفصام بعد هذه الفترة الاستهلالية يتوقف على ما يحدث فى هذه الكيانات المتعددة داخل الوساد الشعورى الواحد، ولنبدأ فى قصر حديثنا - كما فعلنا قبلا - على كيانين أساسيين يمثلان قوتان متنازعتان، أو شخصان متنافسان، أو تركيبيان عصبيان متزاحمان لتملك نقطة الانبعاث، وقد ذكرنا هذه التنويعات المحتملة (صفحات ١٦٢ - ١٦٤) ولكن يجدر بنا أن نوجزها ثانية - بما ينتج عنها من زملات كلينيكية - فيما يلى:

١- حين تنقلب خبرة المواجهة معا الى **عقلنة** للثنائية على مستوى واحد مستعرض نلقى الحل الوسواسى بأنواعه.

٢- حين يقل التباعد بين الكيانين وتبدأ **المواجهة** مع الغلبة النسبية للكيان القائم (القاهر: **الوالد**) فإن الاكتئاب هو النتاج الكلينيكى.

٣- حين يحدث **تواز** بين الكيانات بما يصحب ذلك ويتبعه من عقلنة ثم تكوين المنظومة الضلالية (أو الهلوسية أو التخيلية المناسبة) وينتج عن ذلك حالة من حالات البارانويا.

٤- حين يحدث **تلوث** بين الكيانات والوصول الى حلوسط يخفى الانشطار ولكنه يحقق المطالب البدائية بلغة عادية ينتج عن ذلك اضطراب شخصية (وخاصة النمط غير الكفء والسيكوباتى).

٥- نادرا ما تتطور هذه المرحلة الاستهلالية الى إنكار الكيان القديم وتحويلها إلى هوس.

أما إذا لم يحدث شئ من هذا وظل التباعد قائما أو تزايد تدريجيا فإن مسيرة الفصام تتطور تدريجيا، وبالنظر المتأنى الأعمق من واقع خبرتى الكلينيكية تشخيصا وعلاجا يمكن متابعة خطواتها - تفصيلا - على الوجه التالى:

(١) **مرحلة التعتعة**[43] Dislodgement:

وقد سبق أن ذكرنا أن هذه المرحلة طبيعية وأساسية فى مسيرة النمو كخطوة أولى نحو إعادة هضم الكيانات المنطبعة فى ظروف لم تسمح باستيعابها المسهم فى النمو، والتعتعة هنا لاتختلف كثيرا عن مثيلها فى مسار النضج، إلا أنها لاتستمر طويلا، حيث تحل الخطوة التالية محل التعتعة بلا تباطؤ.

41- هزع الأشياء: فرق بينها الوسيطAtaxia
42- Intrapsychic
43- راجع أيضا من ص ٩٢ إلى ص ٩٤.

وقبل أن ننتقل إلى الخطوة التالية لابد أن نفرق بين هذه العملية (التعتعة) وعملية أصعب كثيرا تحدث عادة بقصد علاجى وتسمى فض التلوث Decontamination وهى تحدث بالنسبة للكيانات الملوثة مع بعضها البعض الناتج عنها اضطرابات الشخصية النمطية خاصة، حيث أن تداخل الكيانات فى بعضها فى هذه الزملات يكون شديدا وخفيا بحيث يمنع التعتعة ويحتاج إلى تدخل أكثر عنفا فى حالة العلاج، وإلى ظروف أقسى وأفشل فى حالة المرض، وفى خبرتى قبل ممارستى للعلاج الجمعى كنت ألاحظ أن المريض السيكوباتى لا يؤمل فى شفائه إلا إذا مر بخبرة ذهانية بدرجة ما، وبعد ممارستى العلاج النفسى الجمعى المكثف بدأت هذه الضرورة تصبح جزء لايتجزآ من خطوات العلاج مما جعلنى أطلق عليه اسم علاج "إحياء الولاف النموي" "Reactivation of growth synthesis"

(٢) **مرحلة الملخ**[44] Dislocation

وهى المرحلة التالية مباشرة لمرحلة التعتعة والتى تكاد من سرعة حدوثها تبدو وكأنها تحل محلها مباشرة، وهى تعنى مزيدا من التباعد بين الكيانين، وتتصف هذه المرحلة عامة بظاهرة الثنائية (ثنائية الوجدان، وثنائية الميول، وثنائية الأفكار.. وهكذا) Ambivalence، & ambitendency ambithoughts، etc

إلا أنى فى خبرتى الكلينيكية لم أجد أن تعبير "ثنائية" ambi يكفى لوصف المشكلة التركيبية، ومن ثم الدينامية ومن ثم الكلينيكية، فالأهم فى هذه المرحلة هو تساوى الشحنات تماما فوق الكيانات المتباعدة وهو ماأسميته تساوى التكافؤ Equivalence

(٣) مرحلة استقبال أحدهما للآخر:

وهذه المرحلة بعد التباعد تصف خبرة معاشة بالاضافة إلى درجة محدودة من الاسقاط، وهى تقابل كلينيكيا مايفسر بعض أعراض الصف الأول لشنايدر Schneider، s first rank symptoms وخاصة "الهلوسية"، وهذه الأعراض التى سبق الإشارة إلى أنها لم تعد تعتبر (عند كثيرين) خاصة بالفصام من ناحية، وكذلك فهى أكثر تواترا فى الفصام المبكر (المراحل الأولى) عنها فى الفصام المستتب المتدهور..، وتفسير ذلك أن الكيانات كلها تتناثر فى المراحل الأخيرة فلا يعود من الممكن أن يفضل أحدهما الآخر.

وهلوسات أعراض شنايدر لها طبع خاص عن الهلوسات المعتقدية (الضلالية) فهى تتصف بالمميزات التالية:

(I) أنها ليست مسقطة تماما بحيث يعبر عنها أحيانا بالصوت الداخلى Inner voice أو بالأفكار المسموعة Audible thoughts وهذه تفسر مباشرة بأن كيانا يسمع كيانا آخر.

(II) أنها قد تشير لأكثر من كيانين وخاصة أن الأصوات المسموعة قد لاتخاطب المريض مباشرة بل قد تناقش بعضها البعض فى أمره Voices arguing أو تعقب على أفعاله مع بعضها البعض أو مباشرة له

44- راجع أيضا ص ٩٥.

Voices commenting والتفسير المباشر هنا أن التباعد والتفكك بين أكثر من كيان، قد حدث وأن كيانا واحدا يستقبل أكثر من كيان، أو أن كيانا يفعل الفعل وآخر يلاحقه، وكل هذا من أدلة استقبال كيان آخر "مباشرة" كخبرة معاشة.

(III) أن بعضها يشير إلى تحكم خارجى وتوجيه خارجى، مثل أن يشعر المريض بأن حركة يده صادرة من مصدر خارجى، أو أن شعورا بالفرح مقحم عليه .. ا لخ Made feelings & made volitional acts وهذا يدل أيضا على تأثير الوساد الشعورى٤٥: أما "الادراك الضلالي" فإنه يشير إلى استقبال معنى مؤثر خاص استقبالا خاطئا لكن بيقين لايفسره إلا أن كيانا يستقبل وآخر يحمل المدرك وعاطفته ويقينه.

٤- مرحلة فقد التحديد بين الكيانات: وخاصة حدود الكيان القائم قبلا، وهذا يدل عليه مايسمى "فقد أبعاد الذات"٤٦، حيث يصبح معنى الفقد هو عدم القدرة على الإبعاد المنظم، وهذا يفسر مجموعة أخرى من أعراض الصف الأول لشنيدر وهى المجموعة التى تشمل انسحاب الأفكار Thought withdrawal

وإقحام الأفكار Thought insertion وإذاعة الأفكار Thought broadcasting وكلها تعنى أن آخرا (الكيان الآخر عادة) أصبح يستطيع الدخول والخروج إلى المحتوى الخاص (للكيان الأول) دون استئذان، ومع درجة من الإسقاط تبدأ الأعراض.

(٥) مرحلة تقسيم الوظيفة الواحدة بين كيانيين:

وهذا مايفسرالضلالات الأولية، والإدراك الضلالى، Primary delusions and Delusional perception وغيرها، فوظيفة الإدراك، حتى تتم، لابد أن يصاحبها فى نفس الوقت إعطاء معنى للمدرك وتحميله بعاطفة تتناسب مع معناه المألوف، أما إذا تعددت الكيانات المستقبلة مع "تساوى التكافؤ" فى عملية الإدراك فإن كيانا قد يقوم باستقبال المؤثر وآخر يقوم بتفسيره وإعطائه جرعة اليقين المعنوى المخالفة للاستقبال، الأمر الذى ينتج عنه أن سوء تأويل إدراك بذاته يحمل يقينا ووجدانا ضلاليا فى نفس الثانية، ويكون فى غاية الرسوخ والثبات.

وقد تسبق أى من المراحل السابقة زميلتها فى الترتيب، وقد تحدث جميع الظواهر سويا لأنها كلها متعلقة "بالملخ" دون المواجهة أو التوازى أو التلوث...

خلاصة القول:

45- لعل أقرب مايكون إلي هذه الظاهرة هي الزملة التي وصفها كليرامبو Clearambault وأسماها الذا حركية العقليةautomatism mental حيث يصدر من المريض ويشعر بحركات وأحاسيس ويكاد ينطق بأصوات لايدري كيف، وهو لايقاومها بالمعني الوسواسي ولكنه يتحدث عنها ويشكو منها، وللأسف الشديد فقد بطل استعمال هذه الزملة باعتبارها وسوسة عصابية من ناحية، أو باعتبارها أعراض سلبية فصامية من ناحية أخرى، مع أن لها استقلالها عن هذا وذاك، حيث أنها خبرة معاشة أكثر منها فكر معلق، ويبدو أن الطب النفسي الحديث يتجنب أكثر وأكثر مواجهة مثل هذه الخبرات وتسميتها.

46- يمكن الرجوع إلي ترجمة هذا التعبير إلي مفهوم عصبي ص ١٧٢

إن هذه المرحلة الدالة على مزيد من التفكك هى مرحلة تالية للمرحلة الاستهلالية، وأهم مايميزها هو ظاهرة "الملخ"، وهى الظاهرة المميزة لما يمكن أن يسمى مرض بلويلر Bleuler disease's (دون مرض كريبلين Kracepelin، diseases) حيث يعنى فصل مكونات (كيانات) الذات .. (الملخ أصلا) عن بعضها البعض حتى يبرر معنى الانشطار.. مع الاحتفاظ باحتمال الالتئام ثانية على مستوى آخر، دون حتم التدهور كما هو الحال فى وصف كريبلين ومن قبله موريل Morel :

وهذه المرحلة خبرة معاشة أساسا، ولصعوبة معايشتها بعمقها فإن بعض الحيل مثل العقلنة والإسقاط تساعد فى التخفيف من وطأتها.

سادسا: استمرار المسيرة وتزايد اللاهارمونى:

وبعد هذه المرحلة من التفكك ومعايشته تبدأ الأمور فى الاستقرار على مستوى تجزيئى يكاد يسمح لكل كيان بمزيد من التباعد عن الكيان الآخر، وبالتالى بمزيد من الاستقلال، وبالتالى بظهور أعراض التفكك المتباعد أكثر وأكثر، ومظاهر هذه المرحلة تتوالى أو تواكب كالتالى.

١- <u>درجة من الاستقرار وهمود التقابل</u> : بدلا من أن يتقابل الكيانان (أو أكثر) ويستقبل أحدهما الآخر أو يقتسمان وظيفة ما.. الخ، مما يميز المرحلة السابقة، تبدأ الأمور فى الاستقرار النسبى على مستوى أدنى (١) فيحل العجز الإرادى الاستسلامى محل الربكة (ب) ويحل اليقين الضلالى الرائق (البصيرة الذهانية عند أريتى) محل التشوش (Confusion) وحالة شبه الحلم Oneiroid state (ج) ويحل النشاط المستقل لكل كيان- منفصلا عن الآخر تماما- محل "تساوى التكافؤ".

٢- <u>اختفاء الهارمونى وضعف القوة الضامة الداخلية:</u>

Loss of the harmony and weakening of the internal cohesive power

باستقلال كل كيان عن الآخر، وتجنب حتى التقابل، يصبح التوازن النفسى غير منسق بأى صورة ويبدأ التفسخ فى الاستتباب، ومع زيادة التفسخ لايوجد جذب تناسقى بين أى تركيب وأى تركيب (كيان وكيان)، وبالتالى فإن قوة الضم داخليا تنعدم، وقد يلجأ المريض فى هذه المرحلة إلى الاعتماد المتزايد (أو المطلق) على قوة ضم من الخارج تعوضه عن هذا العجز الداخلى، ويظهر ذلك كلينيكيا فى صورة الاعتماد الكامل، أو الانعزال داخل الجدران، ولكن هذه المرحلة الاعتمادية- إذا استمرت المسيرة نحو التدهور- سرعان ماتفشل هى الأخرى.

ومع تضارب وتعدد الكيانات العاملة <u>معا فى نفس الوقت، غير المدرك لأحدها الآخر</u>، تضطرب الوظائف النفسية بالتالى، وتختلط الحقيقة بالخيال بلا حدود.

٣- <u>ظهور الميكانزمات بنوعية مختلفة وتناسب مختلف:</u> وإذ تضعف القوة الضامة الداخلية وتفشل القوة الضامة الخارجية فى تجميع التفسخ، تبدأ محاولات أخرى للتجمع باستعمال مختلف الحيل العقلية بنسب جديدة مختلفة وأهمها الإنكار والإسقاط فى هذا المقام، وإلى درجة أقل العقلنة والتبرير، وبقدر نجاح هذه

الحيل بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة تتشكل الصورة الكلينيكية فى كل مرحلة حسب ظروف كل مريض وسرعة مساره التدهورى.

ومن نتاج هذه المرحلة: تكوين الضلالات والهلاوس بشكل متفرق، والإستغراق فى الخيال فى عالم منفرد، واستعمال الأشخاص من واقع إسقاطى خاص.

وتتميز هذه المحاولة بوجود مناطق سلوك تعمل فيها الميكانزمات بقدر متزايد يصل إلى أضعاف ماكان الحال فى ماقبل المرض، فى حين أن مناطق أخرى من السلوك تكون عارية ومعرضة لأى خبرة مباشرة، وهذه الجزر المتفرقة المتناثرة من الخبرة الفجة وسط هذه الجبال من الحيل تعطى الصورة الكلينيكية عدم تجانس هو من أهم مميزات الفصام فعلا.

سابعا: تباعد الوظائف النفسية وتفككها الداخلى:

مع مزيد من تطور المرض واستتبابه تقوم الكيانات بالعمل منفصلة عن بعضها البعض، مما يترتب عليه اختلاط وظائف كل منها وتعارضها وتداخلها وتصادمها.. (ولكن إلى درجة أقل: صراعها)، وهنا تنشأ مشكلة بالنسبة لفحص وظيفة بذاتها، فإذا فحصنا التفكير مثلا ووصفنا مايعتريه من تحول واضطراب، فإننا أولا: نصف وظيفة التفكير بصفتها صادرة من وحدة إنسانية واحدة (كيان واحد)، ثم إننا ثانيا: نقيسه بما هو معروف عن تعريف التفكير (حل المشاكل مثلا والتجريد) وبمقاييس المنطق العام ٤٧ عند الناضج، فى حين أن مايظهر على السطح بالنسبة لمثل هذه الظاهرة هو عينات متفرقة متصادمة من فكرا أكثر من شخص داخلى (كيان) فى نفس الوقت، بما ينتج عن ذلك من تجزئ وتداخل يبدو فى الظاهر على أنه "لاترابط" مثلا، فى حين أنه فى الواقع النتاج الظاهرى لأكثر من فكرة صادرة من أكثر من مصدر ثم متداخلة فى بعضها وكأنها فكرة واحدة، (وسنرجع إلى هذا بشئ أكثر تفصيلا حالا)، ويتكرر هذا التفسير لنتاج الوظيفة المتعددة إذ تصدر من عدة كيانات على أنها وظيفة واحدة. ويأتى وصف أعراض الفصامى بكل التشويش المعروف عنه، ولو أرجعت كل وظيفة إلى أصول مصادرها من "كيانات متعددة ومختلفة" لأمكن فهم ظاهر الوظيفة أكثر وأكثر، حتى لتصبح الجملة الواحدة مكونة من عدة مقاطع يرجع كل مقطع منها إلى جزء من جملة صادرة من كيان قائم، ومن أمثلة نتاج هذا الخلط المباشر أعراض مثل فرط التداخل Overinclusion واختلاط مايسمى بالحقيقة مع الخيال Interpenetration of themes

خلاصة القول إن الاضطراب الظاهرى فى الوظائف النفسية هو نتاج تعدد الوظائف وتداخلها نتيجة لتعدد الكيانات، وأخذ هذا التعدد باعتباره وظيفة واحدة.

وفى الشرح الوصفى والتركيبى لابد من الالتزام باعتبار كل وظيفة واحدة لتسهيل دراسة اضطرابها، وإلا فستختلط الأمور خلطا يصعب معها وصف الظاهرة بأى وصف قادر على التواصل، أما فى التحليل

47- بني أريتي تظريته في الفصام علي اضطراب معرفي أ أساسا، وأفاض في تفسير ضعف المنطق الأوسطي عند الفصامي وإحلال المنطق البدائي محله (منطق فون دوماروس -Von domarous)

الأعمق و"الترجمة العلاجية" ٤٨ Therapeutic translation فينبغى محاولة رد الوظيفة الواحدة لأكثر من كيان.

ولنأخذ بعد هذا كل وظيفة على حدة:

وفى هذه المرحلة من تقدم المرض سوف نتناول "بعض" وظائف الفصامى حتى استتباب المرض بدرجة متوسطة دون التزام بتطور كامل وتفصيلى لكل وظيفة على حدة.

التفكير.. والفصام

سأبدأ بعرض تطورات وظيفة التفكير عند الفصامى، لا باعتبارها الاضطراب الأساسى كما يحاول البعض جعل الفصام مرادفا لاضطراب التفكير، ولكن باعتبارها الوظيفة الأوضح فى التناول والأقدر على وصف التفكك، لأن الاضطراب الأساسى فى الفصام هو التفكك ذاته لدرجة تعدد الكيانات، واستقلالها النسبى، وتصادمها، وحتى انسحاب العواطف كاضطراب أساسى قبل اضطراب التفكير إنما يكمن وراءه أيضا- بدرجة ما- تفكك الكيانات وتعددها، ومن الصعب إذا تحديد اضطراب وظيفة بذاتها كاضطراب أساسى يفسر ماعداه ومابعده، ولكن من المنطقى أن نصف اضطراب العلاقات الأساسية فى تركيب الشخصية، مما ينتج عنه اضطراب هذه الوظيفة أو تلك.

ولابد قبل أن نذهب لحديث عن اضطراب ما، أن نعرف- بصفة شديدة الإيجاز - مانعنى هنا بالتفكير، فمن الشائع أن التفكير فى شكله الإنسانى الأرقى هو "استعمال الرموز والذكريات لحل مشكلة" Problem solving، والوصول إلى هدف (مسبق فى العادة)، إلا أن التفكير- على المستوى الأشمل- هو الترابط وإعادة الترابط على المستوى النيورونى والجزى العظيمىMacromolecular لتحقيق الوصول إلى غاية ليست بالضرورة فى المستوى الشعورى.

والعلاقة بين هذين المستويين علاقة وثيقة ومباشرة وتكاد تكون سببية.

وأهمية ذلك ألا يؤخذ ماهو لاشعورى على أنه مجرد نشاط بدائى مشوش، أو نشاط معرفى غير هادف، أو نشاط انفعالى غير ترابطى.

وهذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل خاص ليس هذا مجاله، إلا أن الإشارة إليه لازمة لفهم مانعنيه فيما بعد " بالفكرة المركزية" باعتبارها محور قطاعات التفكير المتصاعدة، رغم كونها فى كثير من هذه القطاعات والمراحل ليست شعورية بالضرورة.

كيف يحتفظ التفكير بتسلسله وترابطه فى الأحوال العادية؟ ذكرت فيما سبق (ص ٥٨ ومابعدها) فكرة مبدئية عن بعض أنواع الأفكار وعلاقاتها بعضها ببعض، ونبدأ هنا- مع بعض التكرار اللازم- فى تحديد

48- هذا التعبير وضعته لوصف عملية علاجية يقوم بها المعالج، وذلك بترجمة اللغة الخاصة واللغة غير اللفظية للمريض إلي اللغة العامة واللغة اللفظية التطبيقية، وقد وصف مثل هذه الوظيفة العلاجية شولمان وأريتي في العلاج الفردي والعلاج المكثف علي حد سواء، وغيرهما إلا أن التعبير الذي أدخلته يختص بوصف هذه الوصفة العلاجية الخاصة في الفصام.

ماهية التفكير السليم، وكيف يحتفظ بتسلسله، كما ظهر لى فى ممارستى الكلينيكية والعلاج الجمعى خاصة:

١- حتى يكون التفكير واحدا ومسلسلا ينبغى أن تكون هناك فكرة مركزية أساسية، وهى غائية فى نفس الوقت، وكلمة "فكرة" على المستوى المركزى ليست بالضرورة شعورية، بل إنها ليست بالضرورة لاشعورية بالمعنى الشائع، بل هى بيولوجية [49] بالمعنى الأعمق إذ تسهم فى الحفاظ على الحياة نفسها بتصاعد التنظيم وتواصله.

٢- تترتب حول هذه الفكرة المركزية الأولى أفكار مركزية أخرى أقصر فأقصر (هدفها أقرب فأقرب)، ولكنها تتصل اتصالا متناسقا مع بعضها البعض فى تصاعد مرتب.

٣- يوجد حول كل فكرة مركزية أفكار تابعة مكملة ومنجذبة لها وتدور فى فلكها.

٤- يوجد مع كل فكرة مركزية (فى عمقها وبديلا عنها) فكرة مركزية أخرى متنحية وجاهزة للعمل بالتبادل- مثل التبادل بين الشكل والأرضية- فى حالة عجز الفكرة المركزية الأولى عن الاستمرار كمركز للشكل وعجزها عن الاحتفاظ بما حولها ومامعها فى تناسق هادف مستمر (مثال: فى عمق الوجود: الحياة وبديلها الموت، وفى السلوك اليومى: الوحدة ضد الصحبة [50] ....

٥- تحتفظ الفكرة المركزية [51] (الغائية) بسلطتها وقيادتها وترابطها وتسلسلها من خلال عمليات مدعمة ومستمرة نوجزها كما يلى:

(أ) تستمر الفكرة المركزية ثابتة وقوية وجاذبة ومحورية طالما هى متصلة بهدفها ومتجهة إليه، فإذا كانت فكرة الحفاظ على الحياة مثلا هى الفكرة المركزية، فإنها تظل قوية ومحورية طالما هى متجه إلى هذا الهدف ومتصلة به طول الوقت.

(ب) تستمر الفكرة المركزية ثابتة وقوية وجاذبة ومحورية طالما هى فى تناسق مع الأفكار التى معها والتى حولها.

(ج) تستمر الفكرة المركزية (ثابتة وقوية وجاذبة ومحورية) طالما لها من الوسائل مايدعم وجودها من خلال "الفعل" و "التواصل"، أى طالما هى مؤثرة تأثيرا مباشرا فى الفعل الداخلى (الهيموستازيس Homeostasis النفسى والجسدى.. وهما واحد) ومؤثرة تأثيرا مباشرا فى السلوك الظاهرى (القرار والإرادة والتنفيذ الفعلى)، وكذلك طالما استطاعت أن تصل من خلال كل ذلك إلى كائن حيوى آخر <u>من نفس النوع فى أغلب الأحوال</u> - كرسالة، وبالتالى أن تستقبل من هذا الكائن الحى الآخر "العائد" (أو

49- راجع التعبير المجازي ص ٢٠١ 'ياحكمة الأميبا في إصرارها علي الحياة !!'

50- حاول ترجمة 'رحلة الداخل والخارج' ص ١٩٠، و 'رحلة الوحدة والإستغاثة' ص ٢٩٤ إلي هذه اللغة.

51- ولابد أن نشير إلي أنه يمكن إن بوجد أكقر من فكرة مركزية نهمل معا حسب مجال السلوك بلا تعارض حقيقة إلا في مراحل خاصة من القصور.

التغذية "المرتجعة") الذى يؤيدها ويدعمها، ويؤدى التواصل اللفظى فى أسلم أحواله هذه الوظيفة السليمة بكفاءة خاصة.

(د) تستمر الفكرة المركزية (.. .. ..) طالما أن وحداتها مترابطة بعضها ببعض فى اتجاه هدفها.

(هـ) تستمر الفكرة المركزية (.. .. ..) طالما علاقتها بالانفعال المناسب وثيقة ومباشرة، حتى يتوافق اللفظ حامل الفكرة مع معناه ممثل الانفعال فى أعلى درجات تطور الانفعال فتصبح الفكرة هى لفظها، هى.. هى معناها دون حاجة إلى إرتباط بانفعال خاص، إذ يختفى الأخير رويدا رويدا ليحل محله المعنى المحدد النابض.

(و) تستمر الفكرة المركزية (.. .. ..) طالما هى تسير - فى هدفها واتساقها- فى نفس اتجاه وهدف واتساق أنظمة أخرى موازية ومتصلة، مثل نظام الذرة ذاتها أو نظام الخلية و نظام الأكوان الأعظم.

ولاشك أن هذه "الصورة المطلقة" هى شرح نظرى لتكامل قد يكون هو هدف الوجود البشرى فى قمة قدرته الترابطية الهارمونية داخل الخلية، فالجهاز العصبى، فالكون الأعظم، بما يقابل ذلك من هوميوستازس ذرى، فسيولوجى، نفسى، كونى، على التوالى، أى بيولوجى متكامل.

أما واقع الحال فى مسار النمو، فإن الأمر لايكون بهذه الصورة المتكاملة، بل إن الأفكار المركزية المرحلية الظاهرة يمكن أن تتطور تصاعديا- كما توحيه خبرتى الكلينيكية- بشكل متناسق، ومن أمثلة ذلك:

١- فى الرضيع تكون الفكرة المركزية على مستوى "الانعكاس البدائي"، وتظل احتمالات الأفكار الأكثر ترابطا مشروعا كامنا ليس إلا- وبديهى أنها تتعدد بتعدد المنعكسات الفسيولوجية البدائية.

٢- يبدأ الارتباط الشرطى فى تجميعات (ترابطات أولية)، ويصبح هو الفكرة المركزية البديلة التى ترتبط بها الفكرة الأولى كفكرة تابعة ومكملة، وبديهى أنها تتعدد ولكن بدرجة أقل من سابقتها وهكذا.

٣- تتجمع الارتباطات الشرطية فى تزايد مستمر، وتنقسم حسب درجات ومدى علاقتها بالوعى البشرى اليقظ (الوساد الشعورى القائم) أو كمونها بعيدا عنه.

٤- فى نبضات الماكروجينى (الأزمات المفترقية فى النمو) يزيد البسط فرص التحام مجاميع الأفكار المركزية الشعورية والكامنة من خلال عمليات البسط Unfolding والولاف..Synthesis، فإذا نجح هذا الولاف نشأت فكرة مركزية أشمل تحتل الوساد الشعورى، وكمن الأعمق منتظرا نبضة تالية جديدة، وإذا فشلت فقد تتفكك الفكرة المركزية التى كانت قائمة إلى مكوناتها الأولية فى المرحلة السابقة.

ولاأطيل فى هذه الرؤية الفرضية بالضرورة حيث هى مستمدة من واقع كلينيكى أساسا ومنتظرة لتحقيق أعمق وأكثر تفصيلا، ولكن قبل أن أنتقل إلى مايحدث فى هذه المرحلة من الفصام، لابد أن أشير إلى إمكان ترجمة الفكرة المركزية مباشرة إلى قطاع الترابطات العصبية Neurological associations وتنظيمات الجزئيات العظيمة Macromolecules ومايقابل ذلك من مفهوم حالات الأنا، وتعدد الذوات،

والكيانات... الخ، إذ لايوجد تعارض بين أى من ذلك من حيث المبدأ، اللهم إلا اختلاف اللغة، وإنما تستعمل اللغة المناسبة فى المقام المناسب بلا تعصب لأى منها- بشكل منظم للفهم والتواصل.

خلاصة القول:

أنه بالنسبة للتفكير، فإنه فى لحظة زمنية بذاتها فى الأحوال العادية توجد فكرة مركزية متوسطة واحدة، تحتل الوساد الشعورى القائم، وتحدد الهدف من طبيعة الوجود المرحلى، وتمثل هذه الفكرة تجميعات ناتجة عن سابق مراحل التطور، كما تجذب وتنظم سائر الأفكار الموجودة فى الوساد الشعورى أو القادمة إليه، وفى نفس الوقت تظل بقية الأفكار الكامنة (مركزية أخرى أو غير ذلك) بعيدة عن مجال الوساد الشعورى القائم، وإن كانت مرتبطة به.

خطوات اضطراب الفكر فى الفصام:

١- التمهيد:

لما كان الفصامى يعانى منذ قبل ظهور المرض مما أسميناه فقر التغذية البيولوجية، وسوء التغذية البيولوجية، ولما كان "المعني" من أهم مقومات التغذية البيولوجية فيما يتعلق بالتواصل اللفظى والأفكار، فإننا نؤكد منذ البداية أن من أكبر مايمهد للاضطراب الفصامى عامة ولاضطراب الفكر فيه خاصة، هو أن تكون الفكرة المركزية التى تحتل الوساد الشعورى فى مرحلة ما (أو عدة مراحل) غير مغذاة بالدرجة الكافية بمعناها[52] وذلك بافتقارها إلى التوافقية (مع آخر) Consensuality أو إلى الترابط التسلسلىChain association أو إلى السلوك الغائى المناسب Appropriate، goal- oriented behaviour أو إلى الارتباط بامكانيات التنفيذ relation of possible execution ، أو إلى أى عامل من عوامل تغذيتها "بالمعني" من داخل أو من خارج، فإذا حدث ذلك فإن مثل هذه الفكرة قد تشتد صلابة من الخارج وتغلق على نفسها فى دائرة مقفلة لتحمى بقاءها وتتثبت، ولكنها مهما بلغت صلابة ظاهرها (الذى يظهر كلينيكيا فى شكل اغتراب ثابت أو عصاب وسواسى) فإنها هشة وعرضة للكسر تحت أى ضغط أو امتحان أو أثناء نبضة نمو تالية.

٢- الوعى بالفكرة ذاتها (وبالتفكير) ثم محاولة الحيلولة دون استقبال المعلومات الداخلة:

يجرى التفكير فى الأحوال العادية دون وعى مباشر بعمليته ذاتها، وإنما يكون الوعى بناتجه فحسب، أما فى بداية الفصام (وبداية الذهان عامة) فإن المريض يصبح واعيا بداخله وخارجه بدرجة مفرطة ومعوقة فى النهاية، وبالنسبة للتفكير فإن المريض- من خلال الانشطار المبدئى والثنائية غير المدركة بعد- يصبح

(١) واعيا بالتفكير ذاته وخاصة فيما يتعلق بالتذكر

(ب) ثم يبدأ المريض فى التشكك حول سلامة هذه العملية ويشكو من ضعف الذاكرة أو التركيز (رغم ثبات كفاءتهما بالأقيسة غير المباشرة فى هذه المرحلة وكأنه بشكه هذا يتمناه أو يمهد له)، حتى أنه من

52- راجع تفسير كلمة "المعني" (ص ٥٧)

المألوف فى الفحص الكلينيكى بالنسبة لهذه النقطة أن يسأل المريض "أنت مش فاكر إيه؟" "وقد يجيب المريض مش فاكر كذا وكذا" بالتفصيل.

وقد يكتشف- بنوع من المداعبة- أنه يذكر كل شئ قال أنه لايتذكره، وقد يصاب حين اكتشافه ذلك بخيبة أمل أو اكتئاب، مما يدل على أنه ربما كان يرجو العكس تمهيدا لخطوات أعمق، ثم هو (ج) يشكو من أن عملية التسجيل Registration غير ثابتة ويلحقها مباشرة طرد فورى للمادة المسجلة ٥٣ (أو محاولة ذلك على الأقل) مع اتهامها بأنها لاتثبت

(د) ثم بعد ذلك تأتى مرحلة الانكار التام " أن شيئا كائنا ماكان لايمكن أن يسجل أصلا""، وهذه المرحلة تعلن ضمنا فشل الفكرة المركزية القائمة وعجزها عن أن تستمر فى قوة جذب المعلومات (الرسائل) الداخلة بطريقة تلقائية كما كان سابقا، كما تسهم فى خلق دائرة مفرغة لمزيد من العجز نتيجة لمزيد من فقر التغذية، وأخيرا فهى تعلن أن بديلا لها يقترب ويناقضها ويتدخل فى عملها، ولكنه غير قادر بعد على أن يحل محلها.

٣- ظهور الفكرة المركزية البديلة (فى نفس الوقت):

ومع زيادة الانشطار وبداية ظهور الثنائية، يظهر الكيان الآخر، الذى هو هو بهذه اللغة تجميع سلوكى وفينومينولوجى حول فكرة مركزية كانت كامنة، ويصحب ثنائية الفكرة المركزية ماأسميناه "تساوى التكافؤ" Equivalence وهذه الثنائية مع هذا التساوى تفسر عدة أعراض أهمها:

(١) عرقلة الفكر Thought block، وهو نتيجة للتصادم التعطيلى للفكرتين والتنافس بينهما وهنا يتوقف مسار التفكير (والكلام) فى الفكرة الأولى لفترة زمنية، ثم بعد ذلك ينتقل إلى موضوع آخر منفصل تماما عن الموضوع الأول، وقد يشكو المريض مباشرة من هذا التوقف

(ب) الخروج عن المسار (القضبان Derailment)، وهو عرض مثل مظهر العرقلة الأخير ولكن بغير وقفة حيث يخرج مسار التفكير من الفكرة الأولى إلى الثانية مباشرة، وهو قريب من طيران الأفكار إلا أنه ليس هو هو،

(ج) ثنائية الأفكار Ambithoughts، وهى تعنى وجود فكرتين متضادتين معا فى نفس الوساد الشعورى بنفس القوة.

٤- تساوى التكافؤ Equivalence :

شرحنا فيما سبق تساوى التكافؤ فيما يتعلق بالانشطار وتعدد الكيانات، وكذلك شرحناه فيما يتعلق بثنائية الأفكار، إلا أن هذه الظاهرة قد تتطور حتى تصف مجاميع من الأفكار وليس مجرد فكرتين مركزيتين، بل ويصل التساوى أحيانا إلى الشحنات (المعنى) المحمولة على الألفاظ بدرجة معجزة تماما، وقد وصف أحد

53- سبق أن وصفت هذه المراحل في بحث أنواع الفصام
Youseria Seleim (1978) Types of schizophrenia. Cairo: Dar El- Ghad (P. 123- 121)

المرضى فصامى انفعالى هوس Schizoaffective : manic هذه المرحلة فى بداية المرض وصفا مباشرا بالنسبة لتساوى قوة كل فكرة ونقيضها وبدائلها فى نفس الوقت حتى أصبحت أى قضية بالنسبة له لها كل الاحتمالات بالتساوى تماما ، وينتج العرض المسمى الربكة Perplexity من هذا التساوى والتصادم، بل إن البكم فى حالات الفصام الكاتاتونى (والسبات أحيانا) قد يكون نتيجة لهذا التساوى فالتصادم فالتوقف الكامل.

٥- الحل الجانبى (غير الفصامى) The side solution :

وعند هذه المرحلة قد تحل المشكلة مرحليا أو نهائيا بأحد الحلول التى سبق الاشارة إليها مثل الوسواس- حين تعتبر فكرة منهما مركزية والأخرى طفيلية، أو الاكتئاب- حين يترتب على المواجهة مزيد من الوعى بعجز الفكرة المركزية الأولى عن الوفاء بالاحتياج الانسانى المرحلى ومواصلة المسيرة، أو حالة البارانويا- حين تتوارى الفكرتان وتتخذ إحداهما مسارا ضلاليا (أو هلوسيا أو خياليا) وتحتل شريطا شعوريا محاذيا فى نفس الوساد الشعورى القائم.

٦- **انفصال اللفظ عن معناه، ثم استقلال اللفظ وسيطرته:** ومع عجز الألفاظ عن القيام بدورها فى التوافق (مع آخر) والتواصل وتثبيت الفكرة، والتغذية الداخلية، وإثارة العائد، تصبح أصواتا ليس لها علاقة مباشرة بالأفكار السائدة فى الوساد الشعورى القائم وينتج عن ذلك عدة معقبات:

(١) أن تصبح الألفاظ مجرد أصوات، ويجرى التجميع بينها مجرى أقرب إلى الصدفة، ولايربطها إلا ترجمة على أعمق مستوى من التواصل اللالفظى.

(ب) أن تصبح للألفاظ ذاتها قوة ذاتية، وشخصية ذاتية، وتبدأ عملية التفكير بمجرد نطقها، إذ تجلب المعنى المناسب لها وتثير الفكرة المقابلة لها دون أن تكون لهذه الفكرة وظيفة هادفة، أو يكون المريض قاصدا التفكير فيها٥٤

وقد لاحظنا فى الاكتئاب (ص ١٧٤) علاقة المريض بالكلمة، وقلنا إنها تصبح لديه أكثر نبضا وأكثر موضوعية ولكنه يظل أسيرها يتألم لعجزه عن الوفاء بحقها، وينبض لما يصله منها من مشاعر ومعانى، وعلاقة الفصامى بالكلمة من حيث المبدأ علاقة قوية كذلك- رغم مايبدو من الفاحص الكلينيكى (ص٣٨١) السطحى، إلا أنها تبلغ من القوة والتحدى ماتعجزه بها، فإما يصبح عبدا لها مجزأة فى ذاتها، وإما أن ينفصل عنها حتى لتسوقه هى فى ربكة مقطعة أيضا، وقد أشار أريتى إلى تضخم عملية التلفيظ Verbalization مع ضعف العملية الدلالاتية Denotation وهذا الرأى يساير ماذهبنا إليه من استقلال اللفظ باعتبار أن هذا الاستقلال هو ليس تضخما بل ورما مغيرا يصيب اللفظ.

54- راجع بحث الدكتورة يسرية سليم 'أنواع الفصام' ص ١٨١ ومابعدها (انظر المراجع يقول المريض: (انا مجنون مع الألفاظ.. يعني أنساق معاها.. (ثم) خيالي ينتقل مع الألفاظ..' الخ).

٧- **استقلال التفكير فى ذاته**: ويحدث مع استقلال اللفظ حتى ليصبح هو نفسه المثير لنمو الفكرة التى تصبح وكأن لها ذاتيتها الخاصة ومسارها الخاص[٥٥] وتفسير ذلك أنها تنبع من مصدر (كيان آخر) بعيدا عن تحكم الوعى القائم، وقد تأخذ هذه الظاهرة مسارا جانبيا يركز على الشكوى من عدم التحكم فى الأفكار مثل الوسواس أو الذاحركية العقلية Automatism mental وقد تستمر عملية الاستقلال دالة على تعدد الأفكار المركزية وفقد قدرتها على جذب الأفكار الأخرى.

٨- اللغة الجديدة، واللغة الخاصة:

حين تنفصل الألفاظ وتستقل، وتنفصل الأفكار وتستقل، يصبح تكوين الكلام فى جمل هادفة أمرا شديد الصعوبة وأحيانا مستحيلا، وقد يوصف المريض الفصامى بأنه يتكلم لغة جديدة أو لغة خاصة، وأنواع هذه الظاهرة الكلينيكية قد تأخذ المظاهر التالية (من واقع خبرتى الكلينيكية):

(١) قد يستعمل المريض الألفاظ العادية استعمالا خاصا لاتعنى إلا معنى هو يقصده فقط، ولكن هذا الاستعمال لايستقر ويتثبت إلا باستقرار المرض وثبات مرحلة التفكك، وفى هذه الحالة يمكن ترجمة لغته هذه "بالترجمة العلاجية" إلى اللغة العامية رويدا رويدا، ويستحسن أن تسمى مثل هذه اللغة.. اللغة الخاصة وليس اللغة الجديدة.

(ب) قد يؤلف المريض بين مقاطع الألفاظ فى كلمات جديدة تعنى له معان جديدة، ولكن لضعف التدعيم بالتشريط- نتيجة لانعدام التواصل مع آخر والتوافق معه- لاتستمر مثل هذه الألفاظ الجديدة وتصبح سريعة التغير، وهذه هى اللغة الجديدة Neologism المميزة لشدة تدهور الفصامى.

(ج) قد يستعمل المريض لغة بأصوات جديدة تماما، وتعنى معنى رمزيا دائما أو متغيرا حسب استقرار الحالة، وإن كان فى كثير من الأحيان لايحمل الأصوات التى يصدرها معان بقدر مايحول بها دون أى احتمال للتواصل، (وقد تظهر مثل هذه الظاهرة بشكل سطحى ومباشر وظاهر وذلك فى الانشقاق الهستيرى).

<u>والذى يهمنا من هذه الأنواع هو النوع الثانى بوجه خاص، والأول لدرجة أقل</u>، للدلالة على مانقدمه من مراحل تدهور التفكير وتفكك الترابط.

٩- نوعية الترابطات الجديدة:

ويجرنا هذا إلى الحديث عن منطق الفصامى، فاستعمال الفصامى للمنطق والألفاظ فى هذه المرحلة المتوسطة قبل التدهور النهائى هو استعمال خاص ذو دلالة، ويمكن معرفة قوانينه، وفهمها، ومن ثم إتاحة الفرصة لترجمتها، وهنا تثار عدة قضايا يستحسن التعرض لها:

(١) هل الفصامى لايستعمل أى منطق أصلا يربط به بين الحدود Predicates؟

55- وصفت هذه الظاهرة في روايتي 'الواقعة' يقول البطل: وكنت أتعجب من هذا الذي يحدث الفكرة في متناول يدى، المسها وأتركها تبتعد قليلا لألاحقها بثقة القط يلاحق الفأر، ولكن المطاردة تنقلب فجأة لتصبح بين غزال جامح وديناصور غبى، يركض الغزال ويختفي بين غابة المشاعر والديناصور فاتح فاه في دهشة الأبله متجمدا من هول المفاجأة.

(ب) هل الفصامى يستعمل نفس المنطق البدائى أو الطفلى بديلا عن المنطق الناضج والمسلسل؟

(ج) هل الفصامى يستعمل منطقا مريضا جديدا ليس بالضرورة هو هو المنطق البدائي؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال لابد من الإشارة إلى أنه مهما بدا كلام الفصامى متناثرا وتفكيره غير مترابط، ومادمنا قد سلمنا منذ البداية بأن للمرض غائيته الحتمية، فلابد أن نعرف أنه بقدر مايعانى الفصامى من عجز فى الوسائل المتاحة للتواصل، فإنه يستعمل وسائل جديدة بطريقة جديدة وخاصة وتعويضية تبدو له أكثر أمانا من سابقتها وإن كانت أدنى لامحالة.

وقد قال أريتى بأن الفصامى يستعمل المنطق البدائى Paleologic المحكوم بقوانين فون دوماروس Von Domsrus إذ يفشل عنده المنطق الأرسطى، واعتمد أريتى فى تحليله فى ذلك على شواهد تثبت أن الفصامى يتصور أن "الشئ" يمكن أن يكون "ذات الشئ" وأن يكون "غيره" ضاربا بذلك قانون "الهوية" الأرسطى الذى يقول بأن "الشئ" هو دائما نفس الشئ وليس أبدا "غيره"، كما قال أيضا بأن قانون "عدم التناقض" الأرسطى عند الفصامى مضروب حيث أن الفصامى يمكن أن يتصور الشئ هو ذات الشئ وهو نقيضه (أو ليس هو ذاته) فى نفس الوقت، وأخيرا فالفصامى لايعترف بالقانون الأرسطى الثالث باستبعاد الحد الوسط، وعنده أن الشئ ليس بالضرورة إما أن يكون هو ذاته أو نقيضه بل يمكن أن يكون شيئا ثالثا آخر، والناظر فى هذه القوانين يتصور لأول وهلة أن الفصامى قد عاد وببساطه إلى القوانين البدائية، وخاصة إذا أخذ فى الاعتبار أنواع الارتباطات التى تسمح له بهذا المنطق البدائى، مثل "أن يقوم الجزء مقام الكل" أو "الارتباط بالتجاور اللفظي" أو "الارتباط بالتلاحق الزمني" أو "الارتباط بالنغم"، وعندى أن المسألة ليست مجرد نكوص إلى منطق بدائى، كما أنها ليست فى نفس الوقت خبطا أعشى، وإنما الذى يتحكم فى ترابطات الفصامى هى عوامل متداخله، أهمها من واقع خبرتى:

(١) أن المنطق العام (الأرسطى) فشل فى الوفاء بالمعنى الأعمق، فهو مضروب قصدا ومرفوض ابتداء.

(ب) أن المنطق البدائى ليس البديل المباشر، وإن كان يحتمل أن يمثل البديل الأسهل لمرحلة مؤقته.

(ج) أن الترابط الجديد له قوانينه التى تحكمه، والأهم ..أن له غايته التى توجهه ومن ذلك:

(I) أن الفصامي- فى بداية الأمر خاصة- يبحث عما هو أعمق، وماهو (ص٣٨٤) أعمق بالنسبة لأى شئ هو نقيضة، فهو يقبل أن يكون الشئ هو نقيضة لأن هذا عمق أكبر، وليس مجرد تناقض لايجوز.

(II) أن اللفظ حين "ينفصل فى ذاته" يصبح عرضة لأن يملأ بمعنى صادر من فكرتين مركزتين متناقضتين مشحونتين بالتساوى، وبالتالى يمكن أن يحمل معنيان متناقضان فى نفس الوقت[56]، رغم شكله الظاهرى الواحد، مما يجعل الفصامى يستعمله الاستعمال ونقيضه.

56- في كل لغة كلمات تحمل المعني ونقيضه أو مخالفه، مما يدل علي أصل نشأة الألفاظ من ناحية، وعلي تساوي الأضداد من ناحية أخرى، كما قد يدل علي عمق معين لما يبديه الفصامي من تداخل وتكثيف (مثال: جلل 'الوسيط' الجلل: الشئ الكبير العظيم - والصغير الحقير).

(III) أن اللفظ إذ يستقل يستجلب وراءه من المعانى مايتفق له، وبالتالى فهو جزء من حد قد يستعمل للدلالة على أى معنى مراد.

(IV) أنه مادامت الألفاظ قد فشلت بمعانيها القديمة فأى شئ جائز.

(V) إن الترابط النغمى وبالتجاور وبالتلاحق الزمنى يعنى ضعف جذب الفكرة المركزية للأفكار التابعة والعابرة .. بحيث يرتبط أى شئ بأى شئ.

(VI) إن هذا النوع من الترابط يؤكد العزلة، أو يعلن رفض التواصل، إذا فالمسألة ليست مجرد عودة لمنطق بدائى ولكنها عجز من ناحية، وفقد الترابط من ناحية آخرى، وتحد من ناحية ثالثة.

كما أن هذا الترابط يعلن أيضا محاولة فاشلة نحو ولاف أعمق، لأن إحياء النقيض من داخل الظاهر هو الخطوة الأولى لتنشيط المسار الديالكتيكى الصاعد، (الهابط إذا فشل).

ويلاحظ فى بداية الفصام أن المريض قد يبدى قدرة أعلى للتجريد Hyperabstraction الأمر الذى يفسر كيف أن بداية الفصام تشبه بشكل ما بداية الإبداع أو النمو (فهى أزمة معترقية)، كما تؤكد أن تخطى قوانين منطق أرسطو قد يكون سعيا إلى منطق أكثر ترابطا[٥٧]، ثم فى النهاية فشل وتراجع وتخبط واستعمال اللفظ لأكثر من معنى مما يسمى أحيانا فرط التداخل Overinclusion فهذه الظاهرة إذا ليست مسئولة عن حدوث الفصام ولكنها نتيجة لحدوث الفصام.

١٠- التجريد والعيانية:

فالعجز عن التجريد يتطلب أن نبحث وراءه عن نوع التجريد الجديد، قبل أن نصفه كظاهرة بالسالب فحسب، أما العيانية التى تعنى المعنى الحرفى للألفاظ فهى تعنى عند الفصامي- مرة ثانية- أن الألفاظ قد استقلت واستعادت كيانها الذاتى حتى لم تصبح مجرد أداء لمعنى أبعد، وإنما هى تفيد معناها فى ذاتها، وكأن هذا "التعيين" هو رفض ضمنى للفظنة، ولسوء استعمال الألفاظ، ومن ثم إعطاء اللفظ- فى ذاته- حقه الأصلى بعد هجر وإفراغ، ولكنه حق عاجز ومخل لامحالة.

ومما يؤكد حاجة الفصامى إلى اقتراب أعمق، بعد يأسه من فشل فرط التجريد الظاهرة التى سماها أريتى Arietiالتعيين النشط Active concretization، حيث يقلب المريض ماهو "مجرد" إلى تجسيد عيانى فى شكل ضلالات أو هلاوس، مثال ذلك: أن يحكى كيف رأى ناسا فى الجمعية الاستهلاكية تأكل أذرع بعضها أثناء وقوفها فى الصف مثلا، وهذا تعيين لقول تجريدى يقول مثلا "الناس فى الجمعيات بتأكل بعضها".. وهكذا، كل ذلك ينبهنا إلى رحلة الفصامى اندفاعا نحو الواقع والموضوعية، بعد يأسه من الإفراط فى التجريد حتى الاغتراب، ثم ردته فاشلا عن توظيف التعيين الجديد إيجابيا بقدر فشله عن العودة للتجريد القديم والمنطق العام، أى تفكير الفصامى يمر بمراحل متعاقبة لها دلالتها، كما أنه يتبع قوانين تتفق مع التفكك التركيبى الذى اعتراه من ناحية، كما يتبع قواعد خاصة هى خلط من البدائية

57- أسميت ذلك- إذا نجح عند المبدع- في كتاب 'مقدمة في العلاج الجمعي' (ص ٢٠٨) التفكير البعترابطيMeta-associative thinking

والاستسهال والعجز من ناحية أخرى، وليست مجرد نكوص إلى مرحلة سابقة فقط، فالطفل الذى يستعمل اللفظ للدلالة على عدد من الأشياء يختلف بعضها عن بعض، بل ويتناقض مع بعضها البعض، يفعل ذلك لنقص فى المعلومات، أما الفصامى الذى يفعل ذلك فهو إنما يفعله كرفض لتجريد حبس الكلمة- مثلا- فى معنى واحد لم يغنه (لم يغذه بيولوجيا)، ثم هو يحاول أن يبحث عن معنى آخر أصلى حقيقى أو إضافى مفيد داخلها، وكأنه يحاول ولافا جديدا، ثم هو يمارس تجريدا أرقى يشمل أكثر من معنى غير شائع نتيجة لاكتشافاته المبدئية، وفى النهاية يفشل ولايستطيع أن يرتد إلى التجريد القديم الذى تجاوزه (بعكس المبدع والشاعر خاصة)، وأخيرا ينفصل اللفظ عن معناه الأصلى دون أن يكتسب معنى جديدا[٥٨]

ويقال عادة إن تكوين المفهوم عند الفصامى ناقص وفاشل، والذى ينبغى أن ننبه له فى هذا الشأن هو مايلى:

١- إن تكوين المفهوم غير استعمال المفاهيم المكونة فعلا فى تكوين مفهوم أعلى، أى تصعيد الترابطات العقلية التى تستعمل المفاهيم التى كونت فعلا.

٢- إن تكوين المفهوم من مفاهيم قديمة، لم تغن الفصامى فى الماضى وحتى بداية المرض- بدليل مرضه، يجعل عجزه عن تكوين المفاهيم الأعلى (من مفاهيم أدنى مرفوضة أصلا) عجزآ مقبولا ومبررا لأنه يبدو احتجاجا غائيا.

٣- بعد هذه الخطوة، ومادامت المفاهيم القائمة غير نافعة ومرفوضة، فإنها تستقل بذاتها ثم تتحلل إلى مقوماتها الأولية من مدركات، وألفاظ، ومؤثرات عيانية متفرقة، يصاحب ذلك محاولة تعينConcretization المفاهيم التى انفصلت بذاتها- قبل تفككها- إلى مدركات صورية حسية.

٤- تعتبر هذه الخطوة أساسية ولازمة- تمهيدا لعملية جديدة لتكوين مفاهيم أخرى، لعلها أغنى، ولكنها تفشل فى العادة فى حالة المرض.

٥- يتصف الفصامى من وجهة نظر أعمق بأن عملية تكوين المفاهيم الأساسية قد نشطت من جديد مثلما كانت عند الطفل.

٦- بعد هذا التنشيط يفشل الفصامى فى تكوين المفهوم الجديد (فى حين يمر المبدع بنفس الخطوات.. ولكنه ينجح فى تكوين هذا المفهوم الجديد).

٧- يفسر هذا التسلسل مايبديه الفصامى من "جزر إبداع متفرقة"، وتفوق فى التجريد... ولكنه غير مستمر، وعمق فى إعادة النظر... ولكنه مجهض.

٨- إذا فاضطراب فكر الفصامى من هذه الزاوية ليس فى العجز عن تكوين المفهوم، وإنما هو فى العجز أساسا عن إستعمال المفاهيم القائمة، وكذلك تحلل المفاهيم القائمة إلى أولوياتها، ثم إجهاض إحياء عملية

58- في كتابي 'عندما يتعري الانسان' وصف المريض في الجزء الأول 'الضياع' ص ٣٦ '.. وحاول في أوقات تصالحه مع أجزائه وتجميعه لها بجهد جهيد، حاول أن يجد ألفاظا جديدة للمعاني القديمة، حتي يجد المعاني الحقيقية للألفاظ القديمة'.

تكوين المفهوم ومنظومات المفاهيم الأعلى.. خوفا من إعادة النمط الفاشل السابق، وكثيرا مايتصف الفصامى رغم كل هذا التفكك بقدرته على حفظ بعض النصوص عن ظهر قلب، وقد تكون هذه الصفة امتدادا لنفس الصفة التى كانت موجودة قبل المرض، وقد تكون مكتسبة بعد المرض[59] ، إذ قد يتم الحفظ عن ظهر قلب دون انفعال ولاعلاقة وجدانية أو رغبة فى الحفظ، وفى حالة أخرى أظهر المريض ظاهرة التميزالحسابى المفرط Hypercalculia حتى سن متأخرة (٥٦ سنة)، وذلك رغم مرضه الفصامى الذى طال أكثر من عشرين عاما، ورغم أخذه مايفوق عن مائتى صدمة كهربية فى هذه الفترة، ودخوله المستشفى العقلى خمس مرات، وكل ذلك قد يشير إلى استقلال اللفظ أو العمليات العقلية إنما تجعلها قائمة بذاتها منفصلة عن جوهر الكيان، وتجعل لها تسلسلها وترابطها غير الهادف، وإن كان يبدو أنه استمرار مشوه للأتونومية الثانوية، كما يدل باللغة العصبية على مايسمى فرط التجنيبHyperlateralisation الدال فى ذاته على فرط انفصال نصفى المخ كنوع من الانشطار فى الفصام.

(١١) التواصل الموازى للألفاظ وبلا ألفاظ:

ومع سقوط الألفاظ كوسيلة للتواصل، واستقلالها، يصبح الفصامى أكثر قابلية لتواصل آخر بجوار الألفاظ Paraverbal أو بدون ألفاظ أصلا، وهذا فى ذاته دال على النكوص من جهة، وعلى استمرار رغبته وحرصه على التواصل من جهة أخرى، وأن انسحابه ليس مجرد تراجع بعيدا عن الواقع وعن التجريد، ولكنه تراجع بعيدا عن "هذا الواقع"، وعن سوء التجريد حتى اللفظنة والاغتراب.

والمعالج المتمرس يستطيع أن يستفيد من هذه الظاهرة كبداية للتواصل الذى سيساعده حتما على تفهم المريض، ثم يساعده فى مابعد على ماأسميناه "الترجمة العلاجية".

وظيفة اضطراب التفكير (والكلام) لدى الفصامى:

من كل ذلك نستطيع القول أن الفصامى إذ يتفكك عنده التفكير، ويستقل الكلام فى ذاته ويسيطر، وتختلط المفاهيم وتتداخل، إنما يريد أن يحقق بذلك مطلبا يساير غائيته، وفى نفس الوقت فإن كل هذا مظهر لتفكك تركيبى يخدم غائية الفصام كذلك، ومن هذين الواقعين معا نقول إن فشل التفكير بهذه الصورة يؤدى للفصامى عدة وظائف أهمها:

١- <u>التمهيد للتفكك</u>: فى البداية، ومع محاولة <u>فرط التجريد</u>، أو التجريد الأعمق والأشمل يحاول الفصامى أن يحقق علاقة أوثق باللفظ ووظيفته، ففرط التجريد يعلن صدق محاولته، ولكنه يعلن أيضا بداية قفزته غير المحسوبة، وبالتالى هو يبرر فشله الآتى سريعا.

٢- <u>تجنب المسئولية</u>: إن تجنب الفهم- لعجز الألفاظ عن ذلك- يعفيه مما يترتب على مسئولية الفهم، وخاصة بعد أن أصبح- ولو من خلال محاولته الفاشلة- أقل اغترابا (من حيث المبدأ فحسب)، أى أنه بقدر رفضه للأغتراب التجريدى يقع فى هوة عيانية مطلقة للفظ بلا دلالة عامة ولامسئولية.

59- راجع بحث للدكتورة يسرية أمين عن 'أنواع الفصام' ص ١٨٥ الحالة الثانية (انظر المراجع).

٣- **تجنب التواصل:** إن عجز الألفاظ والتفكير يؤديان أيضا وظيفة تجنب التواصل مع الآخر، فإذا كان التعرى الفصامى قد جعل العلاقة باللفظ خطرة، فإن العلاقة بالآخر تبدو أشد خطرا وأكبر عبئا، وبما أن غائية الفصامى هى الانسحاب النهائى بعيدا عن الآخر فإن عجز التفكير يحقق له ذلك ضمنا، وتجنب الفهم والتواصل هو أصلا من قبل حماية الفصامى من أى أمل فى "إنسانية بيولوجية" تقدم له تغذية مناسبة، ثم من إحباط مؤلم حين لايحصل عليها.

٤- **تجنب الفعل:** مع تجنب الفهم والتواصل والمسئولية، يسقط الفعل وحده، لأن الفعل المرتبط بالفكرة وبإعلانها فى الكلمة وبمعناها هو نهاية رحلة التسلسل الموضوعى، فإذا كانت الرحلة مقطوعة من البداية فالفعل مستحيل بداهة، وبالتالى نقول إن تفكك التفكير يعفى الفصامى من الفعل، ومن ثم من مسئولية الإرادة والاختيار.

٥- **إعلان الفشل:** إن تفكك الفكر هو قمة التحدى لمكاسب الإنسان المنطقية واللغوية، وبالتالى فهو يعتبر قمة الاحتجاج وإعلان فشل أرقى مافى الإنسان أن يحقق ماهو إنسانى.

٦- **تبرير النكوص:** بعد كل هذا الفشل والإفشال تصبح الخطوة التالية- وهى النكوص- وجيهة كنتيجة منطقية للعجز عن مواصلة الحياة على المستوى الإنسانى الناضج، وهذا هو فى النهاية غائية النشاط الفصامى كمثل لغريزة (أو طاقة) التدهور Devolutionary force

خلاصة القول:

إن الفصام تنشيط متساو للكيانات المتنافسة حتى الإعاقة- والمقابلة لأفكار موكزية مترابطة، بما يستتبعه ذلك من تزاحم للسيطرة على اللفظ واستعماله "معا" وفرط تداخل المعانى فيه، حتى يستقل وينفصل، ويتزايد التفكك حتى يفشل الترابط بكل احتمالاته، وهنا يحقق الفصامى غايته النكوصية بقطع مواصلاته مع الآخر، وإعفاء نفسه من مسئولية الناضج.. ومن ثم تسهيل وتبرير النكوص... غايته القصوى.

اضطراب العواطف عند الفصامى

الشائع أن يوصف الفصامى مباشرة بفقد العواطف Apathy، أو فتورها، أو تسطيحها، ومفهوم العواطف غامض ابتداء، رغم أنه مفهوم شائع أشد الشيوع فى اللغة النفسية، ولست هنا فى مجال مناقشة هذا المفهوم[٦٠] ولكنى انتهز الفرصة لأؤكد من الناحية العملية على النقاط التالية:

١- أنه لا يمكن الزعم علميا بفقد ظاهرة إنسانية بالمعنى الذى توحى به كلمة 'فقد' مهما بدت من الظاهرة أو بعيدة.

٢- أنه لا يمكن الزعم بفقد ظاهرة إلا بعد تحديد معنى هذه الظاهرة وأبعادها تحديدا يسمح بمعرفة ماذا فقد وماذا يبقى.

---

60 - ناقشت هذا المفهوم تفصيلا في بحثي عن 'النظرية التطورية للعواطف والانفعال' (تحت النشر).

٣- أنه فى خلال الفحص الكلينيكى المعتاد يحدث التركيز على المفهوم السلوكى للفصام، وبالتالى على المفهوم السلوكى للعواطف، وهذا المفهوم السلوكى يصعب ربطه ربطا مباشرا وواضحا بماهية العواطف.

٤- أنه يجدر بنا ونحن نتناول مفهوم العواطف وفحصها، أن نركز على مستويات مختلفة حتى نلم بأبعاد الظاهرة من أكثر من جانب:

أولا: السلوك العاطفى كما يظهر فى التعبيرات الظاهرة على الوجه والجسم، مثل الضحك والبكاء وتقاسيم الوجه الباسم والعابس ... وهكذا.

ثانيا: السلوك العاطفى كما ينطقه المريض ألفاظا (أنا حزين، أنا قلق ... الخ).

ثالثا: الخبرة العاطفية كما يعيشها المريض بإدراك هامشى، ولكن بعمق أكبر، مما قد لا يظهر فى ظاهر سلوكه لأول وهله، إلا أنه يظهر بتتالى تعميق وسائل الفحص وتأكيد العلاقة العلاجية.

رابعا: الخبرة العاطفية للمريض كما يعيشها الفاحص من خلال الحدس الإكلينيكيى مباشرة.

خامسا: السلوك العاطفى للفاحص كما يظهر فى تعبيراته الظاهرة.

سادسا: الخبرة العاطفية للفاحص بما يتفق مع السلوك العاطفى له أو يختلف مع ذلك، ومدى أثرها الإسقاطى فى تقييم خبرة المريض العاطفية.

فإذا كان ثمة ظاهرة بكل هذا الغموض وهذا التداخل فكيف يمكن أن نحكم عليها حكما مميزا إذ تضطرب، فضلا عن الحكم بفقدها..

والحقيقة أنه قد بلغ من صدق بعض الباحثين أن أنكروا ظاهرة الانفعال Emotions أصلا، كما ينبغى أن نتذكر كيف أن فرويد العظيم بكل نظرياته المبنية على الجنس والليبيدو لم يتطرق إلى نظرية خاصة بالانفعال، بل ويوجد فى كتاباته ما يشير الى أن الانفعال فى ذاته ظاهرة تحولية conversion ليست سوية، فكيف يمكن أن تتكر ظاهرة بهذه الأهمية أو على الأقل أن تهمل؟ ولعل مما يؤيد ذلك أيضا أو وظائف الأنا Ego Functions لم تشر الى العاطفة أو الانفعال فى ذاتها كوظيفة من وظائف الأنا، بل أشارت إلى التحكم فيها واستيعابها.. ليس إلا، فهل يعنى ذلك أن الانفعال والعواطف فى ذاتها ليست ظاهرة سوية وأن آثارها هى التى تعنينا فى واقع الحال؟

وهل ياترى يترتب على ذلك أن تقييمها فى ذاتها أمرصعب إلى درج مخلة بالتقييم الكلينيكى، ومتداخله.. فى التقييم الكمى السلوكى؟

وماهو السبيل لوضعها فى حدودها حين نصف مايحدث لها وفيها بالنسبة للفصام بالذات؟

وفى وصف الاكتئاب كان حديثنا عنه من خلال بعد محدد وهو 'إصرار المكتئب على العلاقة بالآخر وتحمل التناقض بنتائجه المرة الواقعية الأليمة المعجزة'، إذا فقد تطرقنا إلى الحديث عن العواطف عند المكتئب من هذا البعد أساسا (العلاقة بالموضوع).

وحين تحدثنا فى البارانويا كان أساس الحديث عن إثارة سلوكى الكر والفر، ثم تحويرها وامتصاصها فى منظومة أو منظومات ضلالية حسب النوع الكلينيكى الحادث..

وأنتهى من هذا الاستهلال بإعلان رأيى الذى فصلته فى بحث مستقل آخر للتمييز بين هذه الألفاظ المتداخلة التى تستعمل فى مجال الحديث عن الانفعال والعواطف.. الخ، فأقول: إن مظهر **الانفعال** Emotionهو النشاط البدائى الدال على مدى انفصال الوظائف الدوافعية (وظائف الطاقة) عن الوظائف الترابطية (التعبيرية والتفكيرية والتواصلية).

أما **العواطف** Feelings فهى الأثر الشعورى المدرك ذاتيا الدال على درجة من التواصل بين الوظائف الدوافعية والوظائف الترابطية والتواصلية، فهى حالة نوعية من حالات الشعور والوعى كما يقول الفكر الوجودى الفينومنولوجى، ولكنها فى نفس الوقت مازالت تحمل طاقة دافعية كما يحب أريتى أن يؤكد وأوافقه على ذلك، أما **الوجدان** Sentiment فهو الدرجة الأرقى لهذا الترابط حين يلتحم الانفعال (الوظائف الدوافعية عامة) أكثر فأكثر بالفكر واللغة، ولايقتصر على صبغ الأرضية الشعورية فحسب (عواطف)، كما لايعود ينفصل مستقلا بدائيا عن كليهما (انفعال)، وتنتقل الطاقة الدوافعية إلى الواقع المعرفى فى ذاته لتشكل الوحدات الدالة على العواطف الإنسانية المعرفية الأرقى.

أما **المعنى** فهو غاية تطور الانفعال إذا مااستوعبه الفكر لدرجة تجعل رموز اللغة كوسيلة للفكر هى هى المعنى المقصود بحجمها لاأكثر ولا أقل.. وهنا ينبض كل لفظ بطاقته المناسبة من الدفع القادر على بعثه للنفاذ تحمل مسئولية مايحمل من الدقة والثراء بالمعنى، والترجمة للفكر، والظهور فى الفعل، بحيث يختفى كل مايسمى من مسميات الانفعال والعواطف والوجدان ويحل محله 'المعنى- الفعل'، إذ لاتكتفى الطاقة الدافعية بإحياء نبض المعرفة وإنما تمتد إلى توقيعها فى فعل إرادى مباشر، ويبدو مثل هذا الإنسان بالغ النضج وكأنه بلا عواطف أصلا.

وفى ألفاظ أخرى نقول إن الوظائف الدوافعية تبدأ منفصلة عن الوظائف الترابطية فى أول الأمر.. كما أن الوظائف الوسادية (الشعور- الوعى) تكون مجزأة فى أول الأمر.. وهذه **مرحلة الانفعال**.

وبزيادة النضج تدريجيا تتداخل الوظائف الدوافعية بالوظائف الترابطية رويدا رويدا بما يجمع الشعور المجزأ فى وحدات أكبر تصطبغ بالصبغة الناتجة من هذا الالتحام وتحتويه فى نفس الوقت، وبزيادة درجات أخرى من النضج يتجه الأمر- غائيا على الأقل- إلى أن تلتحم الوظائف الدوافعية بالوظائف الترابطية فى وساد شعورى يكاد يمتلى بنتاج هذا الالتحام تماما حتى لايصبح مستقلا بعد، وتصبح الثلاث وظائف واحدة، يقوم عنها '**المعنى**' الذى يحمله لفظ قادر (وبالضبط) وينفذه فعل مناسب (وبالضبط)، وعلى ذلك فإن الحديث عن الوحدات: العواطف والانفعال يصبح حديث أثرى لامكان له فى هذه المرحلة المتقدمة من النضج.

فإذا حاولنا أن نصنف الانفعال والعواطف والوجدان (مع تداخل معانيها معا) فلابد أن نأخذ التصنيف باعتباره مجازا لأقرب وصف تحتمله اللغة فى مرحلة التواصل الحالية، وكل ماأستطيع أن أوجزه هنا هو معالم تطور الانفعال ليس إلا، أولها: أننا نجد فى كل مرحلة عواطف غير مميزة تماما وأخرى دافعة إلى المثير وثالثة مبعدة عنه، وثانيها: أنه بتطور العواطف تزداد ارتباطا ببعضهما وبالوظائف الأخرى وخاصة التفكير، وثالثها: أنه باستمرار النضج يصبح المدى الزمنى للعاطفة أطول وأطول فتنطلق من الفعل المنعكس اللحظى إلى بعد النظر والتوقع والبحث الفرضى، ورابعها: أن تقارب العواطف فى المراحل العالية تقربها بعضها من بعض بشكل يكاد يعجز تمييزها تماما.

ثم نكتفى بهذه القواعد لنعدد المراحل لمجرد التعرف على أسمائها:

المرحلة الأولى: الهياج البيولوجى العام

Generalized biologic excitement

المرحلة الثانية: التوتر، اللذة الحسية، الألم الحسى

Tension Sensual Pleasure & Sensual Pain

المرحلة الثالثة (١): الدهشة (الوهل)، النشوة، الضيق

Delight & Distress ‹Orientation

المرحلة الرابعة (ب): الشك، الزهو، الحقد

Exaltation & Envy‹Suspicion

المرحلة الخامسة: القلق، الفرح، الاكتئاب

Elation & Depression‹Anxiety

المرحلة السادسة: الرجاء (والتوقع)، الحزن الأسف (والحياء)، العرفان

Sorrow (Disgrace) & Gratitude‹Anticipation

المرحلة السابعة: البحث الفرضى، المعنى (الموضوعية)، الهارمونى.

Meaning (Objectivity) & Harmony ‹Hypothetical search

المرحلة الثامنة: الجزل الخالقى Creative Joy

وقد اضطررت إلى ذكر هذا الهرم التطورى حتى أعود للتساؤل الأول الذى بدأت فيه النقاش حول ذلك الرأى الشائع أن الفصامى عنده 'فقد العواطف Apathy، إذ لابد أن نتساءل على الفور أى عواطف يفقدها، وأى عواطف لايفقدها؟ بل وأى عواطف قديمة تعود إلى الظهور من جديد؟ إذ بغير الإجابة على هذه التساؤلات يصبح فحصنا للفصامى وفهمنا معاناته ومعنى وجوده عاجزا لامحالة.

كما لابد من توضيح قاعدة أساسية فى هذا التسلسل الهرمى سوف تفيد كثيرا فى تفسير اضطرابات العواطف عند الفصامى، ألا وهى القاعدة التى سبق الإشارة إليها فى أكثر من موضع وبأكثر من أسلوب،

والتـى يمكن إدراج كل مـايتعلق بهـا تحت اسم 'القاعدة التطوريـة Evolutionary rule، ويمكن صـياغة هذا الجانب منها بقولنا: 'كلما تصاعدنا على سلم التطور فى أولى المراحل كلما تجمعت الجزئيات الأولية فى ترابطات متميزة، لتعود هذه التقسيمات فى المراحل المتقدمة لتتقارب مرة ثانية فى تفاعل ولا فـى حتـى ليصبح الفصل بين الوظـائف لـيس إلا فصلا موقفيا وترجيحيا وحسب اللغـة التـى تتنـاول بهـا ٦١، ومعنـى ذلك باختصار - يفصل فى البحث الخاص به- أنه فى بداية تكون الوظائف تكون غير مميزة بحيث يصعب تحديد الانفعال من التفكير البدائى من الشرطى.. الخ، وفى متوسط الرحلة تصبح الوظائف مميزة ومحددة المعالم ومختلفة بحيث يمكن تحديد العواطف من التفكير من التصرف تحديدا نسبيا، وفـى المراحل الأكثر تقدما تعود الوظائف فلا تتميز عن بعضها ولكن بشكل ولا فى بحيث يصبح 'التفكير النـابض بـالمعنى' هو عاطفتـه ذاتهـا، ويكـون مصحوبا فـى نفس الوقت بفاعليتـه دون إمكـان فصل جوهرى فـى الأسـاس، وإنمـا يكون الفصل حسب المجال والموقف وما نركز عليه فى لحظة بذاتها دراسة أو تعبير أو توصيلا.

ماذا يحدث إذا فى الفصام؟

قدمت كل ما تقدم لأصل إلى عرض مشاهداتى الكلينيكية من خلال واقع (فرض) نظرى يفيد فى تجميع هذه المشاهدات بشكل متناسق، فأسجل مراحل اضطراب العواطف علـى المسار الفصـامى علـى الوجـه التالى:

أولا: حدة الانفعـالات وظهـور انفعـالات متزاحمـة معـا: فـى بدايـة الفصـام (مرحلـة ماقبـل البدايـة- أى المرحلة شبه العصابية، وفى البداية- أى المرحلة الاستهلالية ٦٢ إذ تتفكك الترابطـات القائمـة إلـى كيانـات متساوية التكـافؤ Equivalent ومتباعدة نسبيا، يظهر فـى الصـورة الكلينيكيـة حسب مـاخبرت، وبـأقرب التسميات المناسبة مرحليا:

(١) حدة الانفعال: Acuity of emotions وهذه الظاهرة تعنى أن العواطف العاديـة تـصبح أكثـر حـدة وبدائية، والحدة acuity لاتعنى العمق أو الأصـالة، وإن كانت هذه العواطف قد تبدو وكأنهـا كذلك فـى أول الأمر(٦٣)، ويبدو المريض حينذاك أنه يفرح أكثر حدة ويحزن أكثر حدة، ويخجل أكثر حـدة..، وهكذا..، وأحيانـا مايشكو المريض من هذه الحدة وأنهـا أصـعب مـن أن تحتمل، أو أنهـا 'تشيله وتحطـه'٦٤ بدرجـة عنيفة.

---

61 - The more we go up on the evolutionary scale in the first sieges، the more the elementary Paris aggregate in distinct functions through associations، In later stages of development these distinctive functions come bake to reunion but in a synthetic quality so much so that are hardly distinguished from each other short of the situational implications and the predominant features as well as according to the language by which they are described

62 - لاأكرر هنا أن هذه المرحلة قد لاتتطور إلي الفصام حتما، وقد تصف بدرجة أو بأخري أي بداية ذهانية

63 - ولو تطورت الأزمة المفترقية إلي إبداع لانقلبت الحياة إلي عمق وأصالة وتحديد بناء.

64 - في روايتي الواقعة ص ٤٠ '.. إما أني أعيش اللامبالاة بكل برودها وجمودها، أو **أني أتفجر بالحب والصدق الوقح**....'

(ب) نوبات الخوف: Fear spell فى البداية أيضا، قد يظهر على المريض- أو يشكو من- نوبات خوف حادة وفجائية ومحددة، ولكنها لاتدوم أكثر من لحظات وأحيانا دقائق، وحين تذهب لاتعود إلا بعد فترة، وقد تتبادل مع نوبات من السعادة بلا سبب.

(ج) تردد العواطف ٦٥ : Hesitancy of emotions ويعنى ظهور عاطفة ماثم إجهاضها تعبيرا أو خبرة، ثم محاولة ظهورها ثم إجهاضها قبل أن تكمل وهكذا، وبديهى أن هذه الظاهرة موجودة فى الشخص السوى وخاصة فى المواقف الضاغطة، ولكن الفرق يكمن فى أن الشخص السوى قد يساهم فيها بإرادة نسبية، وأن كمها واستمرارها فى بداية الفصام يتخطى الجرعة السوية المألوفة.

(د) تبدل العواطف: Shift of emotions وهذه المرحلة أيضا توجد فى السواء بدرجة بسيطة، ولكن فى بداية الفصام تسرع العواطف فى الاستبدال واحدة مكان الأخرى بدرجة تلفت النظر، وتزعج صاحبها وقد يشكو منها، وتمنع أى تعميق لأى خبرة حقيقية، وتسهم فى إجهاض أى إكمال مشاعر عاطفية، وبمجرد الإجهاض أى إكمال مشاعر عاطفية، وبمجرد الإجهاض لاتتراجع العاطفة وتتذبذب مثل التردد بل تحل محلها أخرى، وهكذا.

(هـ) ثنائية العواطف: Ambivalence والحديث عن هذه الظاهرة شائع مألوف، وهى تعنى العاطفة ونقيضها فى نفس الوقت تجاه موضوع (عادة إنسانى) واحد، مع العجز عن ترجيح أى منها.

وكل هذه المظاهر المبدئية إنما تدل على العلاقات التركيبية والدينامية التى تصف هذه الأدوار الأولى وهى كما قلت:

إن التركيب الواحد القائم المنظم يتفكك إلى كيانات متباعدة ومتنافسة ومتساوية التكافؤ، وأن هذه الكيانات فى أول الأمر تكون متجمعة فى كيانين أساسيين متضاديين، وهما "الكيان الأثرى المستعيد للحيوية" Reactivated archaic organization و"الكيان المكتسب المنهك المنهزم" The acquired exhausted organization(وهو مايقابل عادة **الطفل والوالد** عند إريك بيرن- وإن كانت هذه التسميات غير منطقية تماما)، ومن خلال هذا التفكيك المبدئى تحدث المنافسة بغير تصادم أو مواجهة، كما أن الحدة والنوبات ماهى إلا نتيجة للتعرى الناتج عن ضعف وتفكك التركيب القائم المنظم (وهو أقرب مايكون إلى مفهوم الأنا عند فرويد) الذى كان يقوم بكفاءة بدور إبعاد المزيد من المثيرات الداخلية والخارجية، وضبط جرعة التفاعل والانفعال أو مايسمى بالحاجز للمثير Stimulus barrier 66 وباختفاء هذا الحاجز تصبح التفاعلات أكثر حدة، ولكن أقل إسهاما فى التكيف أو الاستمرار أوالأستيعاب بالتالى، أما العرض 'نوبات الخوف' فهو دال على اندفاعة الكيان القديم المنشط ليحتل الشعور فجأة بما يترتب عليه من خبرة مباشرة بعالم جديد متحد مهاجم (هكذا يستقبله)، ومن ثم الخوف الفجائى والتراجع

65 - سأستعمل في الوصف الكلينيكي بالذات كلمتي العواطف والانفعال كمترادفين مرحليا وذلك لشيوع استعمالهما في الممارسة الجارية

66 - وهذه الوظيفة من أهم خطوات فعلنة المعلوماتInformation processing

الفورى بما يسمح بتسميتها نوبة، والمصدر الثانى للخوف ينبع من الداخل كنتاج لتصادم عضوى فجائى بين الكيانات المتنافسة، وليست المواجهة (اكتئاب) ولا الموازية (حالات بارانويا) ولاالمتصارعة (عصاب) ولا الملوثة (اضطرابات شخصية)، أقول أن الفصامى- تركيبيا- يتجنب كل هذه المقابلات ويحل عبء الصراع بالتفكيك المتباعد، وفى أول المرض قد يحدث مع التنافس المزاحم تصادم أعنف، بما يترتب عليه من إدراك جزئى لخطورة مايجرى من تفكيك، وبالتالى خوف فجائى وشديد من خطر ما، سرعان مايختفى بتزايد التباعد بين المتناقضات المتزاحمة.

ثانيا: العجز الوظيفى للعواطف:

بعد هذه المرحلة الأولى التى تضطرب فيها العواطف نتيجة للتفكك، تظهر المرحلة التى يمكن أن نسميها وظيفيا المرحلة الصفرية The zero- function stage بمعنى أن العواطف الموجودة تزداد تباعدا وتبادلا حتى تعادل بعضها بعضا من ناحية، ـ أو تتخلى عن ترابطاتها الهادفة من ناحية أخرى، بحيث تنتهى إلى نتيجة سلبية تماما تساوى صفرا وظيفيا، وذلك باعتبار أن وظيفة العواطف وظيفة دافعية على مستويين:

الأول: باعتبارها الطاقة اللازمة للوظائف الترابطية الأخرى كالفكر، والثاني: باعتبارها دافع التواصل الإنساني للحفاظ على الوجود الإنساني 'مع آخر' بصفة أن ذلك هو مايميز الإنسان، ويظهر هذا العجز الوظيفى فى شكل أعراض كلينيكية على الوجه التالي:

١١- إذا زاد التناقض ' وتساوى التكافؤ Equivalence' فإن العاطفة تعجز عن أى دفع للوظائف الأخرى من ناحية، وعن دفع الإنسان إلى التواصل مع أخيه من ناحية أخرى.

وقد يظهر على المريض فى هذه الحالة أحد مظاهر تناقض الوجدان سالفة الذكر، كما قد يظهر على المريض التبلد واللامبالاة Apathy & Indifference 67 ، إذا فحكاية فقد العواطف خطأ فى ذاتها، وإنما التعبير الأصح هو فقد فاعلية العواطف حتى الصفر، بما يصاحب ذلك من جمود التعبير وكأنها قد انعدمت.

٢- إذا زاد تردد العواطف بعد تباعدها ظهرت فى شكل تذبذب العواطف وسيولتها Liability of affectكما ذكرنا بحيث تتبادل العواطف بسرعة مع نقائضها فى العادة حتى لايسمح لأى منها بالاستمرار لدرجة الفاعلية، فيكون الناتج صفرا كذلك.

٣- مع انفصال العاطفة عن التفكير وعن الفعل تظهر فى شكل الانفعالات اللاملائمة Inappropriate affects(مما يسمى أحيانا تباين العواطف Incongruity of affect)، ودلالة ذلك هو أن العاطفة لاتعود متصلة بالفكر أو بالإرادة بحيث تمثل دافعا مباشرا للترابط أو للفعل، ويكون النتاج أيضا: صفرا.

---

67 - شاع استعمال لفظ اللامبالاة بمعني فقد التعبير العاطفي مع الإحتفاظ بالخبرة العاطفية، ولو أني أفضل اعتبارها مجرد درجة من التبلد، ومع ذلك،. وحتي لو أخذنا بالتعريف الأول فان الفاعلية التواصلية للعواطف تنعدم مادام التعبير عنها منعدما.

ثالثا: فقد التفكير لدافعيته العاطفية ثم انسلاخ المعنى عنه (باعتبار المعنى هو قمة التطور الولافى للعواطف) : إن الاتجاه التدهورى لتطور العواطف مع التفكك والانفصال من جهة، والعجز الكامل للعواطف عن القيام بوظيفتها الترابطية من جهة أخرى، يؤدى إلى أن يصبح التفكير بلا رابط ولا غاية، وإن كان هذا لايعنى أن الفصام غير غائى فى ذاته، حيث أن من بين غائيته أن يتفكك- كما ذكرنا- تسهيلا للنكوص الغائى المتزايد.

فإذا أصبح التفكير خلوا من هذا وذاك استمر فترة من الزمن يتردد ويتكرر بالتعود والقصور الذاتى فحسب، بمعنى أن المريض لاتدفعه عاطفة لتفكير ما، فيظل المخ يربط بين مكونات التفكير مسلسلة جنبا إلى جنب بفعل التعود شبه الآلى فى هذه الحالة، إلا أن ذلك لايستمر طويلا، ويعبر المرضى عن هذه المرحلة بتعبيرات عددة منها:

١- ' أن الألفاظ تدخل المخ الآن فتلتصق بظاهرة ولاتلتحم به مثل زمان'.

٢- 'أن السطور تدخل كما هى وتلصق بأكملها على سطح المخ دون أن أستوعبها حتى ليخيل إلى أنى أستطيع أن أخرجها سطرا سطرا منفصلا'.

٣- 'أن الكلام (تعبيرا عن التفكير) يخرج منى جامدا خاليا من الدافع الحماسى لإخراجه'.

٤- أن عقلى يعمل الآن كمكنة تحتاج تزييت'.

إلى آخر هذه التعبيرات الدالة على استمرار عملية التفكير بالقصور الذاتى فحسب كما أوضحنا.

ومن المتوقع أن هذه الفترة لايمكن أن تستمر مدة طويلة، فسرعان مايتفكك الفكر ذاته كما شرحنا سابقا، أما مايحدث للعاطفة التى تعتبر مسئولة مسئولية مباشرة عن المعنى الذى يشحن الرمز، فإنه متى ماانفصلت عن الفكر وأصبح اللفظ بلا معنى (بلا وظيفة توصيلية أو تواصلية) ارتدت طاقة المعنى إلى أولوياتها، وانتكس تطور الطاقة الانفعالية بدرجات متزايدة فى اتجاه عكسى من المعنى إلى الوجدان إلى العاطفة إلى الانفعال..، وبديهى أن هذا الانعكاس يتم على مراحل متفاوته ومتذبذبة..، ولكن الأخذ بهذا المبدأ التدهورى يوضح عدة مظاهر:

١- أنه قد يظهر على الفصامى مظاهر حساسية وعاطفية شديدة وواضحة، برغم عدم ترابطها وعدم فاعليتها.

٢- أن زيادة الانفعال البدائى المنفصل عن الفكر يعتبر مسئولا ضمنيا عن الاضطرابات الجسمية المصاحبة للفصام، إذ ترتد اللغة التعبيرية من اللغة الرمزية إلى اللغة الحشوية وخاصة فى مراحل الفصام النشطة وأثناء النقلات الحادة فى المسار التدهورى.

٣- إن الفصامى قد يتحدث عن عواطف حية وإنسانية وتلقائية بشكل مفرط ومثالى، دون أن يربطها بفكر مناسب أو عمل واقعى، مما يشير إلى وجود العواطف والانفعال كطاقة مشتتة دون وجودها كدافع وظيفى.

ومن هنا نقول: إن التفكك فى الكيانات، ثم التنافس المتباعد، ثم العجز الوظيفى للعواطف، ينتج عنها جميعا خلو الفكر من المعنى، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى مزيد من تراجع الطاقة عن الالتحام بالرمز لأداء المعنى وتدهورها إلى مراحل أدنى فأدنى من التواجد المنفصل.

رابعا: ظهور الانفعالات البدائية بالتدريج وبتزايد مستمر: ولعله يجدر هنا أن أوكد إبتداء أنى أعنى بالبدائية كلا من 'الطفلية' (انتوجينا) و 'الحيوانية' (فيلوجينيا)، فالقول بأن الفصامى منعدم العواطف قول مخالف للمعلومات العلمية التى أقدمها، ومخالف لطبيعته التدهورية، بحيث نستطيع أن نتبين فى كثير من الحالات المتأخرة من الفصام عواطف مقابلة لمراحل تطور فيلوجينية تحتاج إلى دراسات تفصيلية أعمق حتى يمكن الجزم بأصولها ٦٨، فنشاهد فى الفصامى حسب الانفعالات الأدنى فالأقل ما يلى:

(١) الهلع :Apprehension 69 حيث يبدو على المريض خوف مؤكد وساحق من خطر خارجى (أو من كل ماهو خارجي وخاصة ماهو جديد أو غريب)، ويستمر هذا الشعور أحيانا مددا طويلة فى تطور الفصام، وقد تختفى المشاعر ظاهريا فى محاولة لتجنب فرط المعاناة المصاحبة لهذا الشعور.

(ب) القسوة العدوانية البدائية: وهنا يبدى المريض- مع الهلع- مظاهر قسوة وتحفز عدوانى مباشر وكأنه سينقض على هذا العالم الخارجى من فرط هلعه، حتى ليبدو كوحش متنمر وقد يقدم، فعلا على هجمات فجائية خطرة، وتختلف هذه الظاهرة كلينيكيا عن عدوان وشكوك البارانوى، حيث يتم عدوان البارنوى عن طريق التواصل مع التفكير (الضلالى طبعا)، حيث أن العواطف مازالت عند البارانوى متصلة بالتفكير، أما القسوة العدوانية فى الفصامى فهى انفعال فج أساسا.

(ج) انفعالات الحقد المباشر (عين الشر) : (Evil eye) (تعتبر هذه الانفعالات من الانفعالات البدائية (وليست الطفلية) بشكل ما، وأول مالاحظتها حين جاءنى مريض يشكو منها مباشرة، بمعنى أنه قد شعر فى نفسه بقوة شريرة حاقدة، وأنه لاحظ لها بعض المفعول السى على الآخرين أحيانا، وقد حاولت أن أترجمها كالعادة إلى اعتقادات خاطئة وضلالات تتعلق بتشويه لذاته من ناحية، وتبريره البعد عن الآخرين من ناحية أخرى، إلا أن محاولتى تصديقى له، وتقديرى لمعاناته الظاهرة، وأنه يشكو شكوى حقيقية بلا نفع أولى أو ثانوى Primary or secondary gain، وأخيرا حساباتى لاحتمال الصدفة فى الأحداث التى ذكرها، لم يبرر كل ذلك هذا الحكم المبدئى، ومنذ ذلك الحين بدأت أبحث عن هذه الظاهرة فى الفصام خاصة، وفى الكسر الذهانى عامة، وجمعت من المشاهدات مايبرر وضع فرض يقول: إن من بين الانفعالات البدائية انفعالا يمكن أن يسمى رمزا 'عين الشر'، وهو يشمل قدرة خاصة قد تؤذى مباشرة، وهى القدرة التى إذا إرتبطت مع الفكر فيما بعد قد تسمى حقدا أو حسدا، أما طريق عمل هذه القوة

68- لذلك نؤكد أن أي أشارة لحيوان بذاته هنا هي إشارة رمزية أكثر منها احتمال علمى، ولكنها تثير حفزا نحو دراسة مقارنة فينومينولوجية مسئولة لتحقيق بعض جوانب مانعرض من مشاهدات كلينيكية.

69 - لن أطيل هنا في تفسير المعاني المحددة التي أعنيها باستعمالي هذه الألفاظ فقد تناولتها تفصيلا في البحث المستقل الخاص 'النظرية التطورية للعواطف والانفعال' تحت النشر.

بيولوجيا، فقد يرتبط بظواهر مثل السيكوكينيزس (الحركة النفسية)psychogenesis وماشابه، وأرجو ألا تختلط هذه المشاهدة الكلينيكية بأى تبريرات خرافية، وإنما نتذكر أنى قد وصفتها فى شكل فرض يحتاج إلى تحقيق من جهة (بالنسبة لتواتره وآثاره)، كما يحتاج لتفسير حالى أو مستقبلى من جهة أخرى.

(د) الوجد الحالم :Aneroid ecstasy وقد سبق أن أشرت إلى انفعال الوجد أثناء حديثى عن الهوس، وذكرت أنه يحدث فى الفصام بكل أكثر تواترا، وقد أضفت له لفظ 'الحالم' وأنا أتحدث عن الانفعالات البدائية تأكيدا لطبيعته المختلطة بتغير 'خاص' فى الوعى، والحالة شبه الحالمة Onerous عند الفصامى لاتعنى انشقاقا أو هبوطا فى مستوى الوعى، وإنما تفيد- كما أشرنا سابقا- إلى حالة تشبه الانجذاب السحرى، وهوبدائى على قدر مايوحى به من انقطاع عن العالم واستغراق فى الذات، وأقرب مايشبهه (رمزا بالضرورة) هو منظر حيوان (بقرة على قدر ماأذكر) شبعان مستظل يجتر طعامه فى هدوء صامت.

خامسا: العودة الى التهيج العام غير المتميز مع التناثر الكامل: وفى نهاية المسيرة الفصامية، بعد التفسخ فالتناثر، تختفى هذه المظاهر بدرجة تكاد تكون تامة، وتصبح انفعالات الفصامى أقرب إلى المرحلة البدائية الانعكاسية قبل أن تتجمع فى أى درجة تسمح بتسميتها انفعالا، ويصبح الوجود بصفة عامة مشتتا انعكاسيا أكثر بدائية من أى كائن حى سابق، لأنه عبارة عن الوجود البدائى وقد تغطى بقايا آثار التحطيم الذى لحق بكل مابعده انتولوجينيا.

وبعد:

أعتقد أنه بعد هذا العرض المختصر لطبيعة اضطراب العاطفة فى الفصام يمكن أن نتبين مدى توازى المسيرة الفصامية بالتدهور المتزايد انتوجينيا وفيولوجينيا، ويمكن أن ندرك مدى الخلط الناشى من تصور- أو الحدث عن- فقدان العواطف والانفعال عند الفصامى، وأخيرا يمكن أن ننتبه وننبه إلى أن المسألة ليست مجرد رجوع إلى حالة طفلية أو بدائية، ولكن الصورة الكلينيكية عبارة عن مظاهر إحياء ماهو بدائى مختلطة ببقايا حطام ماكان ناضجا، حتى إذا تم التناثر، فإن بقايا الكائن الحى الانسان، تصبح مجموعة من حطام نفسى تكاد تتقارب من بعضها ميكانيكيا بفعل تواجد خلايا الجسم بجوار بعضها ليس إلا، ولن أطيل فى هذه الدراسة فى شرح المنعكسات البدائية التى تظهر فى هذه المرحلة المتأخرة مثل منعكس القبضةGrasp reflex ، أو منعكس اليد للفم Hand to mouth reflex ، لأن ذلك يخرج عن نطاق حجم هذه الدراسة المحدود، وقد يفصل فى حينه فى عمل قائم بذاته للفصام وحده.

غائية اضطراب العاطفة عند الفصامى:

كما شرحنا وظيفة تفكك التفكير، نعود هنا فنشير إلى مايحققه الفصامى بهذه الاضطرابات فى الانفعال والتدهور المتلاحق.

إن انسحاب المعنى من اللفظ هو إعلان أنه لم يكن المعنى المناسب القادر على ملء كيان اللفظ بكفاءة تسمح له بتوصيل 'الرسالة' واستقبال 'العائد'، ثم إن تدهور العواطف المتلاحق يعلن فشل التواصل مع الآخر الإنسانى، ورفضه بالتالى، كما يعلن إصرار الفصامى على الانسحاب من عالم الواقع طالما أن هذا العالم لم يقم بدوره فى التغذية المرتجعة والجماع البيولوجى.

وكل الأعراض التى ذكرت بالتوالى تؤكد وتدعم هذا الانسحاب، فهى نتيجة لعجز التواصل، وهى مؤكدة ومسهلة له فى نفس الوقت.

اضطراب الإرادة عند الفصامى

مقدمة:

لعل الحديث عن الإرادة كظاهرة نفسية، ثم الحديث عن اضطرابها كأعراض نفسية، هو من أصعب الأمور كافة وذلك للأسباب التالية:

(١) فالإرادة متعلقة أشد التعلق بالمفهوم الغامض للحرية.

(ب) وهى متعلقة أشد التعلق بالوعى ودرجاته.

(ج) ومفهوم الإرادة شديد الارتباط بالقدرة المعرفية للالمام بأبعاد مانختار وماندع.

(د) كما أنه شديد التعلق بتداخل الحيل النفسية وأثرها الخفى غير المباشر على الاختبار الوعى.

(هـ) وكذلك فإن الإرادة محكومة فى قياسها فى مجال التنفيذ بقوى خارجية تعوق تحقيق ماتصدره من قرارات، بحيث يختلط الأمر مالم توجد مقايس أعمق وأدق.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف نحكم على أن شخصا سويا يمارس بحق إرادته الإنسانية؟ وكيف نحكم بالتالى على أن شخصا قد نقصت إرادته حتى لتعد من أعراض مرضه؟ هذا فى سائر الأمراض فما بالك بالفصام وأحواله الغامضة المتناثرة المتداخلة.

ماهية الارادة:

وبدون الدخول فى تفاصيل أكبر من نطاق هذا العمل نستطيع أن نقول:

إن الإرادة دائما نسبية، وإن نموها مثل سائر الوظائف النفسية، يتناسب تناسبا طرديا مع مسيرة التامل، أى مع المساحة من النفس التى تعمل 'معا '، أى مع مدى الترابط وعمق الولاف المتصاعد ومستواه.

ثم نعود فنقول:

إن الإرادة هى اختيار بين أمرين- على الأقل- وبدون وجود أمرين يختار بينهما فلا محل للحديث عن الإرادة أصلا، وأبسط صور انعدام الإرادة هو الفعل المنعكس، وأبلغ صور نمو الإرادة غير معروف على وجه التحديد، حيث أنه نادر فى الحياة العادية، وفتح باب الحديث عنه سوف يجرنا إلى مستوى من الوجود البشرى لايقابل كثيرا فى الممارسة الكلينيكية على الأقل، وهو مستوى التكامل، والاستغناء، وانعدام الاحتياج.. الخ، إذا فلابد من الاكتفاء بمستوى دون الكمال لكى يصف لنا إيجابية مستوى ناضج من

مستويات الإرادة، وأعتقد أن خبرتى المحدودة تكاد تصدر حكما مطلقا على أن من أدعى الإرادة الكاملة، أو الحرية الكاملة (أى الاختيار الكامل)، أو الاستغناء الكامل، كان منشقا محكوما بجانب واحد من وجوده، وهو الجانب المتسلط عليه ضلال الحرية وعبودية اللاقيود، وبالتالى فإنى - فى إطار خبرتى الكلينيكية المحدودة- أرى أن أرقى درجات الإرادة التى قابلتها هى المتعلقة بموقف: الوعى المواجهى بتناقض الذات، بما يصحبه من اكتئاب ثم اختيار 'المجال' الذى يحافظ على هذا الوعى، وفى نفس الوقت: الوعى بكلية الآخر بتناقضاته المخلة، ثم اختيار صحبته عن إلغاء جزء منه، ومن ثم اختيار الوعى والمجال الذى يسهم فى ترجيح الممارسة الواقعية المتصاعدة، أو ما دون ذلك. وقد تطرق الحديث قبلا إلى هذا الموقف المواجهى، وتحمل التناقض، وهنا أشير إلى مابه من عامل إرادى:

فالإنسان باكتسابه الوعى، وبعد النظر، واستعمال الرمز، أصبح فى مقدوره أن يرجح المجال الذى يرجح بدوره اختيلر جانب على الاخر..

والعلاج النفسى الجمعى الذى أمارسه إنما يهدف إلى الوعى بالجانب الآخر من كل قضية وأى قضية، فإذا كان هناك جانب آخرر، فهناك اختيار، وإذا أتيح الاختيار فى مجال العلاج ونجح، إذا فهو متاح فى مجال المجتمع الأوسع، وهو حقيقة إنسانية يدركها المريض ويحل بها مسئولية وجوده، إذ يعتبر مرضه من ضمن وجوده، فلو أنه عاوده بعد اختياره فهو حامل لمسئوليته لامحالة..

وعلى ذلك فلكى يقال إن هذا الفعل إرادى فإنه يلزم له عدة شروط أهمها:

١- أن يكون هناك وعى 'بالجانب الآخر' من ذاته، وبكلا الجانبين فى ماهو خارجه.

٢- أن تكون 'المعلومات' المحيطة بالجانبين 'كافية'.

٣- أن تكون هناك 'قدرة' على ترجيح أحد الجانبين مرحليا.

٤- أن تكون هناك قدرة على إحتمال ترجيح أى جانب من الجانبين اعتبارا لاستمرار الجانب الآخر فى ناحية مامن أبعاد الوعى، وضمن هذا الجانب المرجح، بمعنى ألا يكون ترجيح جانب ما، هو مجرد عكس سطحى للجانب الآخر، بل هو متضمن له جزئيا وداخليا.

٦- أن تكون هناك فرصة لتحقيق الاختيار عملا نافذا عيانيا قابلا للقياس والتقدير.

٧- أن يتحمل صاحب الاختيار مسئولية نجاح اختياره فى تحقيق ماهدف إليه، أو مسئولية فشله على حد سواء.

٨- أن يولد هذا الاختيار اختيارات تفريعية متصاعدة باستمرار.

هذا بالنسبة لحقيقية الإرادة ومتطلباتها التى تكاد تجزم أنه لاإرادة لمن لاوعى له، ولاإرادة لمن لاقدرة له.. ٧٠ ، أما الحديث من واقع سيكوباثولوجى تركيبى فإننا نقول:

---

70 - الحديث عن علاقة 'الضرورة' و 'الحرية' مرتبط إرتباطا مباشرا بهذا البعد المذكور هنا.

أنه فى لحظة ما، توجد قوة واحدة (نقطة انبعاث) فى مستوى بذاته من مستويات النضج، تتمتع بدرجة مناسبة (لمستواها) من الوعى، وتقاس الإرادة بتناسب المساحة من الوعى، مع الإدراك المعرفى، مع القرار الصادر، مع التنفيذ المناسب.

درجات الإرادة واللاارادة:

ولايوجد هنا مجال لذكر مراحل نمو الإرادة انتوجينيا بالتفصيل، وسوف أكتفى بعرض بعض درجات وأنواع الإرادة واللاإرادة بحيث تنطبق اللاإرادة مع المراحل الأولى للنمو من جهة، وفترات توقفه من جهة أخرى، فى حين تنطبق الارادة مع مراحل متقدمة من النمو، وأطوار نشطة من حركته فى نفس الوقت.

ويمكن تقديم بعض أشكال اللاإرادة كما يلي:

١- لاإرادة بالإنعكاس: حيث يتقلص الوجود البشرى فى أن يكون أشبه بالانعكاس الميكانيكى التلقائى، ويصف هذا النوع المراحل الأولى للرضيع، كما يصف بعض الكبار المستسلمين القدريين الحتميين الخائفين، كذلك يصف بعض المتحمسين العقائدين الذين يفتقر فكرهم وحوارهم إلى قدر كاف من الكمون الخلاقcreative latency

٢- لاإرادة بالتقمص الكامل: حيث يصبح الوجود مجرد إعادة لوجود سلفى بكل الأبعاد، وإن اختلف الشكل الظاهرى فى بعض التفاصيل.

٣- لاإرادة بالعمى الكامل: حيث يصبح الوجود مجرد إعادة الحالات التى تعمل فيها الحيل الدفاعية بشكل كاسح، والخطر فى هذا النوع أنه قد يوهم صاحبه بما له من درجة هائلة (وأحيانا مطلقة) من الإرادة.. مثل الشخص السيكوباتى كما سيأتى الحديث عنه.

٤- لاإرادة بالخلف الكامل: Absolute negativism وهو نوع عكس النوع الثانى تماما، ويبدو فى النهاية أقرب إلى تكوين رد الفعل Reaction formation فيعمل الفرد عكس ماتقمص من سلفه، أو عكس مايواجه من واقعه باستمرار.

٥- لاإرادة بتكرار 'النص' [71] (بفتح النون) Repetition script وفى هذه الحالة ينعدم اللاختيار نتيجة لتوقف النضج بسبب التثبيت على طريقة محددة متتابعة من السلوك الذى يتكرر باستمرار، مع اختلاف طول الشريط المسجل، وعادة مايكون التكرار خوفا من الرؤية ومن ثم المغامرة بالتجديد.

وهكذا نرى أن كل الصور السابقة تفتقر إلى نوع من الاختيار الحقيقى بين أكثر من موضوع، فكلها تلف وتدور تلقائيا حول موضوع واحد.

كما يمكن تقديم بعض أشكال الإرادة كما يلى:

---

71 - ترجمت كلمة script إلي نص ولست راضيا عنها إلا كمرحلة حتي أجد الكلمة الأفضل، وسوف أكتبها ببنط خاص، مرحليا للتذكرة

١ - **الإرادة الطرفية** : Peripheral volition وهنا يتحرك الفرد إراديا فيما يتعلق بالتفاصيل وبدائل الطرق، ولكن فى إطار مركزى لايتغير، وهو يشعر بحريته طالما هو يمارسها فى هذه المنطقة الجانبية، وهذا النوع هو إرادة لاشك فيها، وقد يحدث تأثيرا على الحتم المركزى بطريق تراكمى غير مباشر.

٢ - **الإرادة الموقفية إلى رجعة :** وهى ممارسة نوع من الاختيار الحقيقى فى ظروف خاصة، إلا أنه متى انتهت هذه الظروف، تراجع الاختيار إلى معاودة استكمال **النص**.

٣- **الإرادة (الحقة) المركزية:** وهى التى تأتى مع تزايد القدرة وفى نفس الوقت تزايد الوعى وخاصة الوعى بالنقائض داخليا وخارجيا، وهى التى شرحنا بعض أبعادها.

اضطراب الارادة فى الفصام:

الشائع فى وصف أعراض الفصام أن نتحدث عن 'فقد الارادة'.. أو 'الافتقار إليها Lack of volition ' ، ويرتبط هذا التعبير مباشرة - وخاصة فى مجتمعنا المرهق بالأعباء الحياتية اليومية لكسب لقمة العيش - بمواصلة 'العمل الراتب' (الروتينى) من عدمه، فالطالب - كمثال- حين لايستذكر عاما بعد عام يوصم فورا ومباشرة بفقد الإرادة..، وهكذا.

والواقع أن هناك مايبرر احترام هذا المقياس بدرجة معقولة - وخاصة فى مجتمعنا- بالنسبة إلى أنه يشير إلى أن الطالب - بكونه طالبا- قد قرر أن يكون كذلك، ولكنه عاجز عن تنفيذ ذلك، ولهذا فإن إرادته مشلولة أو ضعيفة، ولكن البعد السيكوباثولوجى الأعمق، ومن خلال صعوبة المشكلة المتعلقة بالإرادة، والتى أشرنا إليها سابقا، لابد أن يعيد النظر فى الأمر برمته ولايكتفى بهذا الحكم المسطح.

إن الذى يحدث فى الفصام إنما يتم - من واقع خبرتى الكلينيكية- على الوجه التالى، (وسوف أعرضه فى شكل مراحل وإ كان التتابع بهذا النظام ليس لازما ولاحتى مألوفا وإنما يكون متبادلا ومتداخلا).

١ - **المرحلة التذبذبية المترددة:** مع تفكك الكيانات إلى اثنين فأكثر تصبح الإرادة إرادتين على الأقل، وهذا مايفسر ثنائية الميول Ambitendency ، كما يفسر أعراضا أخرى مثل 'المصافحة الموقوفة' ٧٢ ، ومثل أى عرض فيه تناوب متكافئ.

٢ - **المرحلة الوعائية المستسلمة:** مع انسحاب المعنى من الفكر، وتزايد تساوى التكافؤ Equivalence، وتأكيد النتاج الصفرى لكل هذا الإشلال، يصبح الكيان البشرى بلا قدرة أصلا على: القرار، أو الفعل، أو الرفض أو القبول.. ويظهر شلل الإرادة فى شكل يدل على أن الكيان الإنسانى قد أصبح وكأنه وعاء يوضع فيه مايوضع وينزع منه ماينزع، ويحرك كما يراد، ويتردد فيه أصداء خارجية، ومن الأعراض الدالة على ذلك: إقحام الأفكار Thought insertion ونزعها withdrawal وإذاعتها broadcasting والأفعال الإرادية المصنوعة Made volitional acts وتردد الحركة والكلام كالصدى

---

72 - هذا التعبير أطلقته لوصف المتوسط المستمر ليد الفصامي بين المد للمصافحة وإرجاعها بجوار الجنب، وأصل هذا العرض اسم مشتق يعرف بكلمتي Propf hand،وقد أسميتها قبل ذلك في كتابي مع ا.د عمر شاهين (مباديء الأمراض النفسية) 'اليد المترددة'

Echolalia & Echopraxia، وكل مايدل على عدمية التلقائية، وقد وردت أغلب هذه الأعراض تحت اضطراب الكر، وليست فى هذا غرابة، بل إنه تأكيد على أن حديث السيكوباثولوجى واحد، والأعراض تفسر وتختلف باختلاف اللغة وزاوية الرؤية ليس إلا.

٣- __المرحلة العاجزة المشوشة__: وفيها يعجز المريض عن استبعاد أى مثير أو حركة صادرة من داخله، وهنا تظهر النمطية Mannerism واللزمان Preservation، وعادة ما لا يعى المريض وعيا واضحا أنه يأتى هذه الحركة أو يكررها.

٤- __المرحلة الانعدامية المتجمدة__: وهذه المرحلة تشير إلى درجة الجمود الكامل الذى يعلن بطريقة مباشرة مدى التساوى الذى وصلت إليه قوة الكيانين (أو أكثر) معا حتى لم يبق أى احتمال لأى منهما (منهم) للتعبير حتى بإرادته المنفصلة عن الكيان الآخر أى تعبير سلوكى مباشر، وتكون النتيجة هى السبات والجمود والتصلب الشمعى.

الغائية وراء اللاإرادة:

إن ماذكرنا هو ظاهر الأمر، وقريب التفسير، للأعراض الظاهرة المتعلقة بالفعل والقرار والتنفيذ وظاهر السلوك، إلا أنه فى عمق غائية الفصامى نجد أن تعارض الإرادات المتقابلة نتيجة لتفكك الجارى إنما يخدم إرادة خافية، وهى إرادة التدهور المتلاحق الناكص، كما أنه، وخاصة فى المرحلة الأولى، يدل على احتجاج الفصامى على قرار مفروض عليه، وكأنه قراره، ولذلك فإننا نلاحظ أن الطالب الفصامى يعجز عن الاستذكار، ولكنه قد يقرأ كتابا فى الفلسفة (ليس مقررا عليه)، أو ينقد رواية فى الأدب نقدا كاملا ومسببا (لأنه فى قسم علمى)، وهكذا نجد أن الفصامى لايفقد إرادته بالمعنى السطحى الشائع، وإنما هو يرفض مافرض على إرادته، ولعل فى هذا إرادة أقوى وأعمق، ولكن لو أحسن إخراجها وتحمله المسئولية عنها، أما فى المراحل المتأخرة بعد الانهاك والتفسخ، فإنه يصعب العثور على هذا التماسك الأعمق، وهنا يجدر بنا التفرقة بين الإرادة المتصلة بالشعور والوعى ضرورة، وبين الغائية التى تعلن القوة الأرجح المواجهة لمسيرة الحياة إن تطورا وإن تدهورا، كما يجدر بنا أن نتذكر مرة ثانية أن الحديث عن الفكرة المركزية لم يكن يشير بالضرورة إلى فكرة شعورية، بل كان أقرب إلى مستويات متصاعدة من الغائية المتصلة بترابط الفكر إلى آخر ماذكرنا فى موقعه.

وبعد.. وبعد..

وإلى هنا تنتهى المقدمة !!!

ومازلت أرى أنه كان لزاما على هذه الدراسة أن تخرج هذا الخروج المطول عن الالتزام بالمتن، لأن رحلة الفصامى هى محور علم السيكوباثولوجى كافة كما ذكرنا، ولكن بعد هذه الدراسة التجزيئية التحليلية لنا أن نتساءل : أين 'الانسان' الفصامى خلف كل هذا الحطام، ووراء كل هذه الأجزاء.

ولعلنا لاحظنا أن وراء كل تفكك.. صيحة، ووراء كل تناثر احتجاج، ووراء كل عجز إرادة عكسية، ومن هنا نعود إلى:

المتن

وسأقدم فى هذا الجزء من الدراسة زاوية واحدة من مأساة الوجود الفصامى من بعد وجودى إنسانى أساسا:

(١٥٩) عزلة الفصامى واستغاثته:

إننا إذ نقول إن الفصامى يهدف إلى 'اللاعلاقة' وإلى 'العزلة' وإلى التدهور بعيدا عن الواقع تأكيدا لبعده عن 'الآخر' إنما ننظر إلى المستوى الأظهر من المشكلة، فالفصامى لايفعل هذا حبا فى الوحدة وتمجيدا للتدهور، وإنما إعلانا لعجز كامل عن الارتواء بالبضاعة المعروضة كما ذكرنا، ونقدم هنا من خلال المتن أن الفصامى فى عز وحدته وأثناء هربه بالخطوة السريعة، إنما يستغيث بكل مايحمل من قدرة عاجزة بأن الحقونى وامنعونى، لو تسمعونى وتفهمونى، وهذا هو مفتاح العلاج المكثف للفصامى، ونحن إذ نصدر حكمنا على الفصامى بفقد الشعور أو بالامبالاة أو حتى على المستوى الباثولوجى 'باختيار العزلة' فإنما نعفى أنفسنا ضمنا من مسئوليتنا وواجبنا تجاه حاجته إلى أن نخترق وحدته، بل وندائه الملح دعوة لذلك، إذا فلابد من التأكيد ثانية وتفصيلا على:

(١) أن العزلة هى اختيار الفصامى بعد سلسلة طويلة من الحرمان من أى كيان تصل إليه رسائله، وبعد الافتقار الكامل لأى عائد (تغذية مرتجعة) يرتد إليه، حقيقة أنه 'اختار مافرض عليه'، ولكنه هو 'مسئول' بقدر فرصته للعودة ليس إلا.

(ب) أنه فى عمق هذه العزلة الميتة يوجد نبض الحياة ذاتها يستغيث بمن يستطيع أن يخترقها، ويحتج على من لايسمع استغاثته.

(ج) إذا، فالحل الواجب والفورى هو احترام هربه وسماع استغاثته فى آن واحد، ومن ثم هو تحميله مسئولية هربه- أى نعم- وفتح الباب- يصدق سمعنا لاستغاثته - لعودته.

واستغاثه الفصامى رغم صدقها وعنفها ودويها لمن يسمعها، إنما تحمل فى نفس الوقت عناصر فشلها مسبقا، فالفصامى عادة يستغيث بمن لايغيث، وكأنه رغم علو صراخة (الصامت كما سيأتى) يحاول فى نفس الوقت أن يؤكد ويبرر لنفسه أنه على حق فى الانسحاب، وأنه لاجدوى إلا بمزيد من الانسحاب.

ولابد أن نفرق بين عدة استغاثات وردت فى هذا العمل (الدراسة كلها): فاستغاثه الفصامى مهزومة قبل صدورها.

واستغاثه البارانوى موقوفه عن التنفيذ (لكن حياتى دون الآخر وهم'... ولكن سرعان مايلحقها ب "فبقدر شعورى بحنانك.. سوف يكون دفاعى عن حقى فى الغوص إلى جوف الكهف'.. الخ ص '٣٠٢' ومابعدها).

واستغاثة الهوسى فى رحلة عودته نحو التكامل إن حدث (يارب الناس.. من لى بالناس) هى استغاثة الذى عرف ثمن الوحدة المر حتى بالتوحد الإلهى.

(الوحدة موت حتى لو كنت إله.. ص ٢٤٣).

وأخيرا (أولا) استغاثة المكتئب هى استغاثة آملة وواقعية (.. هل حقا؟ أن الدار أمان، أن الناس بخير ص ١٩٠).

ونستطيع أن نلاحظ ملاحظة أخرى فى تدرج هذه الاستغاثات، وهى أنه كلما كانت الاستغاثة تكاد تجزم مسبقا باستحالة الاستجابة فإنها تكون أعلاها وأقواها، فنحن نرى فى الاستغاثة الفصامية سخرية يائسة واحتجاج متحد:

(يا أسيادى

يا حفاظ السفر الأعظم

يا جمال سر المنجم

يا كهنه محراب الفرعون)[73]

ويظهر هنا وراء كل هذا التعظيم جرعة هائلة من الاستهانة، وربما الاحتقار الخفي،لأنه لاالسفر الأعظم، ولاسر المنجم، ولاصلوات المحراب قد وصلت إليه وأفادته ومنعته من هذا الانسحاب الذى يبدو- إذا- حتميا.

تعيين المفاهيم:

ذكرنا أثناء شرح اضطراب التفكير أن الفصامى يصيغ 'مفاهيمه' تعينا فى صورة حسية، فالمجرد لايتراجع إلى العيانى بل إنه يتقدم إلى العيانى بتصويره مجسدا (هنا) لتأكيد بشاعته.

(يا أفخم من لاك الألفاظ تموء كقطط جوعى فى كهف مظلم)

وكأن الفصامى يشير إلى طبيعة ماقذف به فى حب الوحدة المظلم، فإذا خلى اللفظ من معناه أصبح صوتا جائعا.. وبالتالى هو لايشبع أحدا، ثم يأتى الظلام يؤكد استحالة التواصل.

ولايخفى هنا احتمال أن يكون فى هذا الاتهام جزء إسقاطى يعلن أن الألفاظ عنده هو أيضا- أو هو قبلا- قد فقدت وظيفتها كحاملة للمعانى ووسيلة للتواصل.

شعور الفصامى بالذنب:

ويعود الفصامى بعد أن يعلن موت الألفاظ فى شكلها الأول، أو بعد أن يشوهها ويعلن عجزها، يعود فيستغيث، ولكنه فى هذه المرة يطلب عفوا.

---

73 - بعد كتابة هذا النص تذكرت مقطوعة لصلاح جاهين فيها بعض التلاقي، وسوف أستشهد بما يقابلها في هذا النص مرة ومرات، وفي هذه الوقفة نجده يقول في قصيدته 'المرافعة' (سيادي القضاة، ياذمم ياهمم ياقمم ياعتاه...، ويقول: سيادي القضاة، سيادي الكرام النظام الفخام العلاة إلي أن يقولها صراحة : سيادي الحدادي الي حايمة علي رمتي).

والفصامى إذ يفعل ذلك، يفعله فى سخرية المعجز، لافى اعتذار المجرم، أو ملتمس العفو، وكأنه يقول إنه بلا ذنب- فى هروبه- فها هى صفحته بيضاء، ولكنه يأخذهم على قدر عقولهم، فيقف موقف المتهم أمام قاتليه بالاهمال والنسيان واللامعنى.. وكأنه بهذا الرد يشير ضمنا بادعائه الشعور بالذنب، إلى حقيقة دورهم فى الجريمة.

(يا أذكى من خلق الله وأعلم
يا أصحاب الكلمة والرأي
هل أطمع يوما أن يسمع لى
هل يسمح لى
هل يأذن حاجبكم أن أتقدم
لبلا طكمو ألتمس العفو
أنشر صفحتى البيضاء
أتكلم).

فهو لايعلن جريمته، ولكنه يدافع عن اتهامه بالانسحاب[74] بما يضمن ضمنا اتهامهم- كما قلنا- بالاهمال والصم والإلغاء، وكأن الفصامى لايشعر بالذنب حتى لو أعلنه سخرية واحتجاجا.

(١٦٠) المرحلة القبلفظية:

وحين يسمح الفصامى لنفسه بمواصلة الدفاع، ربما بعد تأكده من أن أحدا لايسمعه، لايدافع، وإنما يحكى، فحكايته ليست دفاعا إذا ولكنها أنين محتج[75]، هو لايحكى لسببين أولهما أن الألفاظ ماتت ولم تعد صالحة لتنقل دقيق مشاعره، وثانيهما لأنه يعلن نكوصه إلى مرحلة أولية حيث كانت المشاعر شائعة لم ترتبط بعد بلفظ، هذا هو أقرب مايكون إلى مرحلة الاندوسبت Endocept الذى وصفه أريتى والذى أسميته من قبل 'القبمدرك' وهو ظاهرة كما وصفها أريتى ذات معان، فالقبمدرك مختلط أشد الإختلاط بالإحساس وبالإنفعال، وهو غير مميز وغير محدود، وفى حين أن الطفل فى نموه- ونمو اللغة خاصة عنده- يقبل، بل، ويسعى إلى أن يتطور هذا القبمدرك إلى مدرك percept ، ثم إلى مفهوم رمزى، نجد أن الفصامى يرجع بعد نكوصه إلى هذه المرحلة رافضا أى عودة إلى سجن اللفظ الذى ثبت عجزه، ذلك العجز الذى يبدو أنه المسئول الأول عن طرد الفصامى من ملعب التواصل، فالطفل إذ ينمو من القبمدرك إلى المدركت إلى المفهوم يأمل فى تواصل أعمق وأسهل وأكثر إتصالا، أما الفصامى فهو راجع مهزوم من هذه الرحلة الفاشلة، وهو غير مستعد لمعاودة المحاولة، فلتبق الصيحة أنينا مكتوما، وليبق القبمدرك عائما بلا لفظ يمتهنه أو يشوهه

---

74 - في مقطوعة صلاح جاهين المشار إليها (دفاعي، قوي، قوي زي صرخة غريق، بينده لقارب نجاة، بينده بينده بآخر قواه للحياة).
75 - في قصيدة صلاح جاهين نفسها (دفاعي مؤيد بكل أنين الكمنجات في كل الوجود).

(أحكى 'فى صمت' عن شى لايحكي،

عن إحساس ليس له اسم،

إحساس يفقد معناه: إن سكن اللفظ الميت)٧٦

(١٦١) الالتحام الحسى بين القبمدرك والجسد:

هذا المدرك القبلفظى يعتبر خليطا من فكر أولى بدائى لم يتحدد بمدرك أو مفهوم، مع إحساس فج، مع انفعال بدائى غير مميز، والفصامى إذ يتراجع إلى منطقة عميقة من وجوده، يعيش إحياء هذه الوحدات الأولية بعد تفككها، وهو لايستطيع التعبير عنها كما جاء فى المتن، فإذا إستطاع فإنها تخرج فى شكل أعراض جسمية شاذة وغير متماسكة ونشاز، وتسمى أحيانا الأعراض الهيبوكوندرية النشاز Bizarre hypochondriasisولكن الواقع أنها ليست 'توهما لمرض عضوي' وإما هى ترجمة لفظية عاجزة لما يمكن أن يسمى 'مشاعر حشوية' تترجم مباشرة عن الإنفعالات البدائية، ولابد أن يعاد النظر فى تقييم هذه المشاعر التى تظهر فى الخبرة الفصامية، وفى أثناء العالج المكثف (الجمعى الخاص)، وفى مقابلاتها مما يصاحب النكوص الحيوى أثناء الأورجازم الجنسى، إذ أن كل ذلك يدل على عودة الإنفعال البدائى للالتحام بأصوله الجسدية، وهذه الخبرة النكوصية ليست مرضية فى ذاتها، ولكنها تكون مرضية أو بنائية نمويه حسب مسارها ونتاجها، وهذا الإنفعال الحشوى Visceral emotion هو إنفعال الطفل الرضيع أصلا، وبما هو لغة فإن المتن. هنا يشير إلى طبيعة هذه الإنفعالات الحسية المرتبطة مباشرة بالقبمدرك.

(شىء يتكور فى جوفى،

يمشى بين ضلوعى،

يصاعد حتى حلقى،

فأكاد أحس به يقفز من شفتى)

وكثيرا مانشاهد هذا العرض مباشرة عند الفصامى حين يهم بالكلام فعلا ويفتح فمه ثم يغلقه فجأة، وكأنه: إما عدل عن القول، وإما عجز عن القول، وهذا العرض ليس بالضرورة نتيجة لهذا الموقف الخاص، بل قد يكون نتيجة لعرقلة Block فى التفكير أو فى التعبير، ولكنه ورد هنا فى المتن ليؤكد حقيقة عجز اللفظ عند الفصامى عن نقل هذه الخبرة الحشوية فى ألفاظ.

ثم تأتى الصورة التى أفضت فى شرحها فى حديثى عن تفكك المفهوم إلى المدركات الأولية، وتحل اللفظ إلى مكوناته البدائية، الذى هو أساس نوع من إضطرابات اللغة الجديدةNeologism حيث يذهب الفصامى إلى إعادة تركيب مقاطع الألفاظ المتحللة فى ألفاظ جديدة بلا معنى، كما يشرح هذا المقطع

---

76 - في القصيدة نفسها لصلاح جاهين (وبارفع صباعي الضعيف وباقول كلمتي....... لكن قبل ماانطق وأقول كلمتي...) ولايقولها أبدا أيضا.. حتي تنتهي القصيدة

ظاهرة فصامية أخرى وهى إحساس الفصامى بوظائفه الحيوية إحساسا قد يصاحبه نوع من الرعب أو من اللذة الحسية البدائية

(وفتحت فمى،

لم أسمع إلا نفسا يتردد،

إلا نبض عروقى)

(١٦٢) تعميق إستغاثة الفصامى:

ونؤكد مرة ثانية أن فهمنا للفصامى يبدأ حين نسمع جانبى حديثه معا، حين نسمع وقع خطوات هربه مع أنين إستغاثته، وهذه مهمة المعالج فى المقام الأول، وهذا ما أشرنا إليه بشأن ضرورة التواصل غير اللفظى مع الفصامى خاصة، ولا تأتى هذه القدرة للمعالج إلا من خلال ظروف خاصة تتعلق بشخصيته وتدريبه ونظريته المعرفية السيكوباثولوجية معا، فالأمر يحتاج إلى قدرة خاصة لتحمل التناثر بما يمكن أن يثيره من تناثر مقابل فى الفاحص الجاد المقترب، كما أنه يتطلب ردحا من الزمن بقضية المعالج مع المرضى مباشرة فى صبر وإصرار، وأخيرا هو يتطلب قدرا من الإطار المعرفى الذى يسهل عليه الترجمة وفهم معنى الأعراض، ولابد أن نؤكد هنا ضرورة قتل الكذبة التى تحكم على الفصامى بأنه متباعد منفصل منزو فقط، والكذبة الأكبر التى تتصور أنه سعيد بهذا الحل المرضى الهروبى البشع، فصرخته رغم صمته أعلى من كل صرخة، وألمه رغم تناثره أكبر من كل ألم، لو أحسنا الرؤية، أو لو تشجعنا فرأيناه بحق إنسانيته علينا وبحقنا على أنفسنا.

(وبحثت عن الألف الممدودة،

وعن الهاء،

وصرخت بأعلى صمتى،

لم يسمعنى السادة)

كما أن يقين الفصامى أن أحدا لن يسمعه ماهو إلا إصرار من جانبه على تبرير هروبه، بقدر ماهو حقيقة نابعة من خوفنا منه وحكمنا عليه.

(١٦٣) إستقلال الرمز بعد تحلله:

وكما أشرنا سابقا إلى إستقلال اللفظ، ورسمنا كيف أن الفكرة تهرب من المفكر حتى ليتعذر عليه الإمساك بها والسيطرة عليها، فإننا نعرض هنا صورة أخرى من زاوية أخرى لنفس الظاهرة، مع إضافة مثال أعمق للتعيين Concretizationالفصامى، فهذه الصورة تشير إلى تحلل لفظ الاستغاثة بعد عجزه عن حمل صوت صاحبها إلى أى سامع، تحلله إى مكوناته الأولية، وإذا لايتبقى منه إلا شكله تتأكد لعبة التعيين، ولكنها ليست مجرد تعيد تكوين الألفاظ كيفما اتفق، ولكنها دائما محاولة جديدة يصحبها من باب

جديد صراخ يطلب العون ويعلن الألم، لعل وعسى، وحتى اللغة الجديدة المكونة من تداخل المقاطع المحللة عشوائيا، لابد وأن وراءها محاولة نداء ملح بأن 'لاتتركونى'.

وارتدت تلك الألف الممدودة مهزومة،

تطعننى فى قلبى،

وتدحرجت الهاء العمياء ككرة الصلب،

داخل أعماقى)

(١٦٤) تبرير مزيد من التراجع:

وإذ يتأكد الفصامي- ويعمق فى نفس الوقت- إستحالة التواصل، يتمادى فى الإبعاد والتفرج على الآخرين من جزيرته التى أحرق ماحولها من قوارب الرموز، ولكل فصامى فى هذه المرحلة جزيرة خاصة، أو موقع خاص، أو كوكب خاص[77] يؤكد به وحدته ويتفرج منه على الآخرين، ونحن نخدع أنفسنا كفاحصين حين نتصور أننا نحكم على المريض وننسى أنه يحكم علينا حكما أقسى وربما أصدق.

ومن أشهر أعراض الفصامى مايسمى بالضحك الفاتر Facile smile، أو مايطلق عليه أحيانا 'ابتسامة بلهاء لامعنى لها'، لربما خجلنا مما يليه علينا علمنا أحيانا بطريق مباشر أو غير مباشر بحيث يبعدنا تماما عن أى إحتمال للفهم أو للتقارب.

(ورسمت على وجهى بسمة)

وهذه الابتسامة 'التى لامعنى لها !!' قد وجدت لها من خبرتى وخاصة - من خلال العلاج النفسى الجمعى - معان غائرة وأكيدة فهى تعني:

(أ) تأكيد الوحدة اليائسة.

(ب) عزل الآخرين عن الاقتراب بإيهامهم ببله ظاهر.

(ج) سخرية من عدم فهمنا له.

(د) إستغراق فى لمحة فكرة عابرة سرعان ماتختفى ولكنها تؤكد أنه يفضل عالمه الداخلى عن الإنتباه لنا.

(هـ) إختبار لنا متكرر.

(و) تفكيك لأى تجميع ينذر بمواجهة اكتئاب غير محتمل.

وما أن أنجح فى العلاج الجمعى أن أحول دون الإستغراق فى هذه الإبتسامة حتى يحل محلها الحزن الأعمق، أو العدوان المباشر، مما يدل على مكافئاتها ودلالاتها الأكيدة.

(١٦٥) التصلب الشمعي:

---

77 - في روايتي الواقعة (ص ٤٥) '.. أو كأني كائن من كوكب آخر يتخفي في ثوب إنسان ليجمع المعلومات عن هذه المخلوقات العجيبة.. الخ

ذكرنـا فيمـا سبق أن هذا العرض يشير إلـى تضارب الإرادات حتـى درجـة النـاتج الـصفرى، ومـن ثـم تفريغ المريض من إرادته، كما أنه قد يشير إلـى انـسحاب وتراجـع كامل إلـى الحالـة الماديـة قبل الحيويـة، وكأنه تمثال متجمد، وقد يصل بنا درجة الغفلة إلى إثناءه مثلما نثنى تمثال الشمع فيستجيب لنـا فنسمى ذلك 'الانثنائيـة الـشمعية Flexibilities cerea 'وفـى رأيـى أن الفصامى إنمـا يعلن بذلك قمـة التحدى بـالخلف والإستسلام العنيد، وكأنه يقول من خلال هذا العرض 'أنظروا مـاذا فعلتم بـى.. هكذا أردتمونـى دميـة بـلا رأى وكنتم تحاولون إخفاء جريمتكم تحت عناوين عصرية براقة، ولكن هأنذا أعلن جريمتكم ولـو علـى حساب وجودي:

(تمثال من شمع)

(١٦٦) الإنتباه السلبى:

وقد لوحظ فى الفصامى الكاتاتونى أثناء سباته، مع مزيد من التعمق أثناء العلاج، أوبعد الإفاقه، أنـه يكون منتبهـا لكل مـايجرى مـن حولـه أشد الإنتبـاه وأبلغـه، بل أنـه مـع انتباهـه لالتقـاط مـايجرى وتسجيله والإحتفـاظ بـه، هـو يتفـرج علـى ماحولـه ويـصدر أحكامـه ويبـرر ويؤكـد حلـه التجميـدى والإنـسحابى والتدهورى

(ورأيت حواجب بعضهمو ترفع،
في دهشة،
وسمعت من الآخر مثل تحية،
ظهرت أسنانى أكثر،
وكأنى أضحك)

وهنا تجميع وتوحيد لوظيفة الضحك الغائر والإنثنائية الشمعية، حيث تتاح الفرصـة للمريض بـأن يبتعد إلى أعمق درجات وجوده، مع إحتفاظه بحق الفرجة والحكم على الآخرين.

(١٦٧) مواصلة المسيرة الإنسحابية:

من كل ماسبق نرى كيف دخل الفصامى الحلقة المفرغة منذ بداية التفكك المتباعد، فالعرض النـاتج عن التفكيك، يزيد فرصة العزلة، والعزلة الجديدة تؤكد مزيدا من التفكيك ومن إنسحاب مقومات الوظـائف عن بعضها، ممـا يترتب عليـه مزيـدا مـن العزلـة وهكذا، وهكذا. وبـالرغم مـن أن الـصورة التـى عرضـناها للبارانوى إنتهت بالعزلة أيضا، إلا إنها كانت عزلـة فيها الآخر بشكل مؤلم حقا ولكنـه موجود، أمـا عزلـة الفصامى فهى إصرار سلبى على التمادى فى أغوار الهاوية طبقة بعد طبقة

(ومضيت أواصل سعيى 'وحدى'،
وأصارع وهمى بالسيف الخشبى،
السيف المجداف الأعمى،

والقارب تحتى مثقوب،

والماء يعلو فى دأب،

والقارب تحتى يتهاوى،

فى بطء لكن فى إصرار،

فى بحر الظلمة)

وبالرغم من تقديمنا للفصام بكل هذا الاصرار على التدهور ومواصلة السعى إلى الوحدة والانفصال عن العالم، إلا أننا نؤكد أن هذه الصورة تعليمية بالضرورة، إذ أن المسيرة الفصامية يمكن أن تتوقف فى أى وقت، بل يمكن أن تتراجع فى أى وقت، بل إن واجب العلاج الأول، ووظيفة هذا الإقتراب الفاهم (كفرض.. أو كحقيقة) هو أن يبعث الأمل الواقعى والعملى فى منع المسيرة من إتخاذ هذا المسار التدهورى المتلاحق منذ البداية، وفى إيقافها فى أى مرحلة، وفى النهاية فى ردها إلى إتجاه نموى حقيقى، وبديهى أن سرعة المسار الفصامى ونتائجه تتوقف على كل ماذكرنا من أول ماقبل البداية ، والعوامل الوراثية (المكتسبة فيلوجينيا وانتوجينيا أصلا)، إلى طبيعة المجال المحيط بالفصامى، وتوقيت سماع صيحته، ومدى الخوف منه، وكيفية المسارعة إلى إنقاذه، كما أن نوع الفصام يحدد مساره كذلك مما لامجال لتفصيله هنا، ونكتفى بعرض مثال بسيط وهو أن الفصام البيولوجى النشط بنوعيه له فرصة أكبر فى تعديل مساره فى مرحلة مبكرة من تطوره، ويليه فى ذلك الحلوسط الفصامى لو نجحنا فى إعادة تفكيكه فى ظروف أفضل، ثم يأتى بعد ذلك الأسوء فالأسوء فى سائر الأنواع الأخرى.

وفى كل الأحوال لابد من الوعى بطبيعة المسار الفصامى، وعدم فقد الأمل فى إيقافه وتحويره كما قلنا..، وما أصعب ذلك... ولكن ماألزمه فى نفس الوقت.

خلاصة وتعقيب

١- مازال مرض الفصام محل خلاف لاينتهى، ويمكن أن نعزو ذلك جزئيا إلى دفاع الفاحص ضد أن يرى تفسخه الداخلى شخصيا، وضد تنشيط قواه التدهورية، والاقتصار على تناول هذا المرض بهذا التجزئ المشوه يمكن أن يدرج تحت ماأسميناه 'دفاع تجزئ المفهوم' وتتداخل عوامل أخرى من بينها ضعف التواصل بين الأطباء النفسيين كحرفيين وفنانين.

٢- إن تعبير 'الفصام' إنما يشير إلى مفاهيم متعددة متنوعة، فهو يعنى **سلوكيا** مجموعة من الأعراض غير المتجانسة وغير المحددة تماما فى كافة مجالات السلوك، بما يشمل اضطرابات شكل الفكر والتبلد العاطفى والانسحاب وفقد الإرادة، بالإضافة إلى متناثرات الدفاعات المختلفة، وهو يعنى **تركيبيا** تباعد مكونات ومستويات تنظيم الشخصية (المخ) إلى حد التفسخ والتناثر فى النهاية، والفصام يعنى من وجهة نظر **غائية** نكوصا متزايدا مع استعادة النشاط البدائى (ومن ثم التدهورى)، وهذا كله يشمل توقف الزمن

وظيفيا على الأقل وتوقف التعلم وإلغاء الآخر، **أما المفهوم الدينامى للفصام** فهو يشير مباشرة إلى وجود ذاتوى مطلق.

٣- يمكن تقسيم الفصام من منظور تطورى إلى عدة مجموعات. أولها: الفصام البيولوجي النشط: ويشمل الفصام الاستهلالى (العملية الاستهلالية) والفصام الدورى (بعض تنويعات الفصام البارانوى والفصام الانفعالى)، وثانيهما: الفصام البيولوجي التدهورى الحاد: ويشمل النوبة الفصامية الحادة غير المتميزة، والفصام الراجع المتفتر، والفصامى الكاتاتونى

وثالثهما: الفصام الحلوسط (أو: الحلوسط الفصامى): ويشمل الفصام البارانوى المزمن، الفصام المزمن غير المتميز والفصام المتبقى، ورابعها: الفصام النكوصى قليل الأعراض: الذى يشبه الهوس النكوصى دون فرط النشاط، وأخيرا: الفصام المستتب المتدهور: ويشمل الفصام الهيبرفينى والفصام المتدهور النهائى والفصام النباتى المتناثر.

أما مكافئات الفصام فهى تشمل اضطراب الشخصية (من النوع النمطى غالبا) والعصاب المزمن مثل العصاب الوسواسى القهرى وعصاب توهم المرض (الهيبوكوندريا).

٤- إن هذا المنطلق يجمع كلا من المنظور البيولوجى مع المنظور العلاجى.

٥- يمكن إعتبار الاضطرابات النفسية بصفة عامة أنها دفاع ضد، أو تفعيل، أو الظهور المباشر... الفصام.

٦- إن المسيرة الفصامية، إذا هى المسيرة المرضية الغائية، أو هى العملية الذهانية الأساسية، ويمكن لهذه العملية أن تتوقف، أو تستبدل أو تحور أو تتراجع، بما ينتج عن ذلك من مختلف الزملات الفصامية وغير الفصامية.

٧- يمكن تتبع المسيرة الفصامية- فيلوجينيا- حتى نصل إلى الكائنات اللاجنسية أحادية الخلية، ثم إن هذا الوجود الطبيعى الكامن فى أى ميتازوا- بما فى ذلك الإنسان- قد يتدعم بوجه خاص من خلال سلوك وجودى مكتسب ينطبع طبعا ثم يورث بالتالى، وقد يحدث هذا بشكل أكثر تواترا فى قطاع معين من البشر نتيجة لظروف فيلوجينية خاصة بهذا القطاع، ومن بعد... نتيجة لظروف وملابسات عائلية خاصة، وكل هذا هو الذى يرجح ما يسمى بوراثة الفصام فى عائلة أو أخرى، وعلى أى حال فإنه بقدر تدعيم هذا المستوى البدائى (التدهورى) يكون تدعيم مقابله التطورى لتستمر المسيرة إلى ماهو إنسانى، ويمكن بهذا أن نقول إن وراثة الفصام (النشاط التدهورى الجاهز للعمل) يشمل ضمنا وتلقائيا وراثة قوة تطورية متحفزة وقادرة، أو بتعبير آخر: إن الفرد لايرث الفصام ولكنه يرث كلا من التنظيم التدهورى بنفس القدر الذى يرث به تنظيما تطوريا فائقا.

٨- إن هذا الفرض يمكن أن يفسر عدة حقائق وملاحظات مثل:

(أ) تواتر الفصام الشائع (أكثر من ١/١٠,٠٠٠) بينما هو مرض خبيث تطوريا،

(المريض أقل إنجابا وأقصر عمرا)، ومع ذلك فإن الجنس البشرى لم ينقرض.

(ب) ظهور الفصام صريحا ونموذجيا فى عائلات ليس بها فصام.

(ج) ظهور ميزات تطورية (بما فى ذلك الإبداع) فى أقارب الفصاميين ممن لم يصبهم المرض.

(د) تراجع الفصام عن كونه مرادف لتدهور بشكل مباشر.

٩- إن وراثة الفصام إنما تشير إلى وراثة تنظيمات (قوى) تدهورية - تطورية قريبة التكافؤ، ويفسر هذا الفرض أيضا تبادل الوراثة بين الفصام والأعراض النفسية الأخرى، وبالتالى إن عوامل البيئة تعتبر عوامل نشطة وذات أثر فعال فى تحديد النتاج الكلينيكى فى أحوال كثرة.

١٠- يمكن إعتبار الفصام إذا أنه نشاط بدائى مستقل يخل بالنشاط الأحدث ثم فى النهاية يحطمه ويفتك به.

١١- ويسهم فقر التغذية البيولوجية، وكذلك سوء التغذية البيولوجية فى التهيئة للتقهقر السريع فى الوقت المناسب (الفصام). ويشمل فقر التغذية البيولوجية: الإهمال، والإفتقار إلى الدعم الحسى، وقلقلة الرحم النفسى (الأم عادة)، والولادة النفسية والفطام النفسى قبل الأوان، كما يشمل سوء التغذية البيولوجية: المعاملة الجزئية، والعلاقة التكافلية الثنائية مع إلغاء الآخرين، والمعاملة باعتبار الشخص (الطفل مجرد موضوع ذاتى (للاستثمار أو التعويض والإمتداد)، والبيئة غير الآمنة أصلا، أما تفضيل استعمال صفة البيولوجية هنا بديلا عن صفات مثل الإجتماعية، أو العاطفية، أو التعليمية (السلوكية) فهو مقصود بشكل خاص، وأريد به أن أحدد طبيعة العلاقة البشرية من حيث هى علاقة وجود حى بين إثنين أو أكثر من البشر، أهم مافيها علاقة الرسالة- والعائد، ومالعلاقات اللفظية والعاطفية إلا العلاقات المعلنة التى نقدر على التعبير عنها، أما العلاقات غير اللفظية والمحاذية للفظية فلابد من وضعها فى الاعتبار فى انتظار لغة المستقبل القادرة ومناهج المستقبل القادرة على الوصول إليها ووصفها.

١٢- إن '**الذات الداخلية**' للقبفصامى ذات (أو ذوات) قوى متحفزة، أما '**صورة النفس**' فإنها مشوهة وضعيفة، ولابد من التفرقة بين هذه وتلك، ففى حين تعنى الأولى التنظيم الداخلى الساكن مؤقتا (حالات الآنا.. أو المستويات الخ)، فإن الثانية تشير جزئيا إلى نسيج ضلالى مقحم، وهذا وذاك يدعو إلى مزيد من الكبت والإنكار والعقلنة وفرط التعويض مما يهى للكسر القائم.

١٣- إن مرحلة ماقبل البداية تتصف بأعراض متماوجة عصابية ولاإرتياحية٧٨ ولكن دون نقطة تحول محددة ومؤكدة، ويظل المريض هو 'هو' واحدا، كما كان رغم ماطرأ عليه، ويقابل هذا الطور مايسمى بالفصام شبه العصابى، وعادة مايصحب هذه المرحلة بعض المظاهر المتنوعة مثل المشاعر الغامضة، والأحلام العاصفة، والعمل التعويضى (المقطوع عادة)، وإعادة النظر فى المعتقدات والمواقف، ورهاب الضياع، والتهيج العام (بما يشمل التهيج الجنسى).

---

78 - لم اجد ترجمة للفظ Dysphoric أفضل من هذه الكلمة المركبة، فلنستعملها مرحليا

١٤- إن بداية الفصام تكاد تكون دائما فجائية ومحددة ونوعية، وحتى فى الأنواع التى يقال أنها تدريجيا، فإن الفحص المكبر سوف يحدد نقطة التغير حتى ولو تمت أثناء حلم من الأحلام، وقد سميت هذه اللحظة 'بداية البداية'، وهذه البداية تعلن تحول التراكم الكمى إلى تغير نوعى، كما أنها تعلن كسر التنظيم الشعورى المغلف للشخصية وظهور وجود 'آخر' يحتل نفس الوساد الشعورى القائم.

١٥- ويصحب هذه البداية عادة مايسمى 'البصيرة بأثر رجعى'، ومن مظاهرها: سبق التوقيت، وإعادة التفسير بما يشمل الأحلام، وإرادة المريض بأثر رجعى كذلك، وكذلك يصاحبها الشعورية وكأنه يتمارض، وكذلك بأنه مذنب لأنه مرض، ويكثر المريض من إصراره على رغبته فى العودة إلى ماكان ولكنه يخفى وراء ذلك محاولته التأكد والطمأنينه بأن ذلك قد أصبح مستحيلا، كما يصاحبها أيضا مظاهر الربكة، والراحة السرية، والشعور بتغير الذات (تغير الأنية) والشعور باستقلال الجسد (فى بعض أجزائه أو ككل).

١٦- وهذه البداية ليست خاصة تماما بالفصام وإنما يرجح المسار الفصامى إذا كان تاريخ العائلة إيجابيا للفصام، وكانت الشخصية قبل المرض من النوع الشيزويدى وفقيرة فى التغذية البيولوجية، وكانت الراحة السرية غالبة، وكان تغير الذات هو أقرب إلى التعدد فى الوساد الشعورى الواحد منه إلى التغير، وظهر على المريض مظاهر التردد الحاد المتذبذب وكان استقلال الجسد وتجزيئه شاذا وغريبا.

١٧- وتستمر المسيرة الفصامية، تركيبيا بنمط متعاقب، وإن اختلفت سرعة كل خطوة حسب مسار كل حالة، وتبدأ الرحلة بمرحلة 'التعتعة' ثم 'الملخ' (ما بين الكيانات أو حالات الأنا أو المستويات) وتمثل الأعراض فى المراحل الأولى (وخاصة أعراض شنايدر) استقبال حالة من حالات الأنا لنشاط أخرى بأقل قدر من الإسقاط والعقلنة.

١٨- إن ظاهرة 'تساوى التكافؤ' تفسر أعراض الترد، وثنائية الوجدان، وثنائية الميول، وعرقلة الفكر، وكثيرا من الأعراض الأخرى التى تؤدى فى النهاية إلى شلل الفصامى.

١٩- تستمر المسيرة ويزداد اللاهارمونى ويصبغ الصورة مظاهر إستقرار خبيث حيث تتحول الربكة إلى إستسلام عاجز (مقصود)، ويحل اليقين الضلالى محل التشوش، وتمتد ظاهرة تساوى التكافؤ' إلى أجزاء أقل فأقل، إذا فهى لاتقتصر على الكيانات الأكبر، وإذ يختفى الهارمونى تضعف القوة الضامة الداخلية، ويبدأ التفسخ.

٢٠- مع تزايد التفسخ تختلف نوعية الحيل الدفاعية وتناسبها وتوزيعها.

٢١- مع مزيد أكبر من التفسخ ينفصل كل كيان جزئى ويعمل مستقلا بهدف مختلف، وعلى مستوى تطورى مختلف، وبوظائف نفسية مختلفة، ويكون نتاج هذا التعدد المتباعد المستقل هو مايظهر فى الصورة الكلينيكية من تشوش شاذ حيث ينظر إلى كل هذا السلوك باعتبار أنه صادر من شخص واحد

ومتعلق بذات واحدة وهو أمر ينافى الوقع (الفينومنولوجى) ، ومثال ذلك حين يشحن كيانان رمزا لفظيا بمعنيين مختلفين فى نفس الوقت، مما ينتج عنه ظاهرة 'فرط التداخل'.

٢٢- إن الإضطراب الأساسى فى الفصام لايمكن أن يكون فى هذه الوظيفة أو ذلك السلوك، وإنما يكمن الإضطراب فى التخلخل الأساسى فى التركيب، مما ينتج عنه اضطراب الوظائف الذى يظهر فى شكل سلوك أعراضى.

٢٣- ليس التفكير نشاطا شعوريا صرفا، وإنما أعنى بالتفكير هنا كل الترابطات الهادفة وما يليها من إعادة الترابطات والبعترابطات٧٩، ويقف على قمة هذه العمليات ما هو ظاهر فى شكل التفكير الرمزى المنطقى لحل المشاكل، وبالرغم من أنه على القمة النامية لتطور الانسان إلا أن ذلك لايعنى أنه أعمق أنواع التفكير ولا أكثرها رقيا.

٢٤- إن تنظيم الفكر الأساسى فى الأحوال العادية يكمن فى تواجده فى تصعيد هرمى من الأفكار المركزية المتصاعدة المتصلة بعضها ببعض، وتقوم كل فكرة مركزية فى قطاعها بوظيفة التنظيم والضم وتحديد الاتجاه إلى الهدف، وهى متصلة بالتالى بالفكرة الأساسية الأعمق التى تليها فى هيراركية التنظيم الفكرى.

٢٥- كلما زادت الترابطات أثناء النمو تكونت أفكار مركزية أكثر وزاد تماسكها ببعضها، وفى كل بسط نبضى أثناء عملية النمو يزيد التنظيم والتماسك ويستقر بشكل مضطرد.

٢٦- هذا التنظيم يفترض فيه أن يوجد على كل مستوى النيورونات ومستوى الجزئيات العظيمة.

٢٧- إن ما يحفظ وينمى هذا التنظيم هما أمران معا، الأول هو القوة الضامة الداخلية (ذات المداومة الذاتية)، والثانى هو التواصل بواسطة 'الرسالة- والعائد' مع تنظيم إنسان آخر (التواصل البشرى ذو المعنى)، وبدرجة أخطر من الفروض أقول إن التواصل مع تنظيمات أبعد من الإنسان (الكون الأعظم) أو بمحاذاة الإنسان (كل ما هو كائن حى حتى النبات) يمكن أن يحقق هذه الفاعلية الضامة من الخارج، وهذا الفرض الأعمق خارج عن نطاق تخصصنا هنا إذ يقع فى نطاق الدين أو مجالات علمية أخرى.

٢٨- إن الاضطراب الأساسى فى الفصام هو عجز القوة الضامة الداخلية (ذات المقاومة الذاتية) عن ضم أجزاء التنظيم النفسى (العصبى والجزيئى) وكذلك عجز التنظيم التواصلى بالرسالة والعائد المناسب، وأى من هذين الجانبين يبدأ يلحقه الآخر ويضاعف من التفكك المتصاعد.

٢٩- إن العجز فى القوة الضامة الداخلية ينشأ من عنف الموروث من تثبيت على النشاط البدائى بلا موضوع، كما ينشأ من تشويش٨٠ (عدم تناسق) الرسائل الواصلة إلى الطفل أثناء تنشئته وفيما بعد.

---

79 - راجع مقدمة فى العلاج الجمعى للمؤلف ص ٢٠٨

80 - كمثل لمثل هذه العلاقة ما هو معروف من علاقة تسمى العلاقة مزدوجة الوثاق Double bind relation، وهى مسئولة - من وجهة نظر البعض - عن حدوث الفصام.

٣٠- إن الظاهرة المسماة فقر التغذية البيولوجية وكذلك سوء التغذية البيولوجية لهى شديدة الاتصال بهذا الحديث عن مفاهيم التناسق الضام الذى أوردناه حالا.

٣١- إن تعاقب الأحداث يبدأ بشرخ فى التنظيم البيولوجى كنتيجة للافتقار إلى التوافقية أو الترابط التسلسلى أو إلى السلوك الغائى المناسب، أو إلى العرقلة الجسيمة فى مسارات التواصل، ومن هنا تبدأ الألفاظ (باعتبارها أهم معبر للتوافقية)، ومن وراءها الأفكار فى الانفصال عن التضام العام، ويبدأ المريض فى الوعى بأفكاره، بل وبعملية التفكير ذاتها، ويشرح انفصالا زمنيا بين استقبال المؤثرات وبين امتلاكها وإدخالها، ويمكن أن تظهر هذه الظاهرة سلوكيا فى شكل شعور المريض الذاتى بضعف ذاكرته (دون ضعف حقيقى)، وكذلك فى العجز عن التركيز، ثم تقفز بعد ذلك أفكار مركزية منافسة فى مجال الشعور، وتظهر ظاهرة تساوى التكافؤ' إذ تشحن العديد من الأفكار بشحنات متساوية مما يترتب عليه- سلوكيا- أعراض عرقلة الفكر والربكة.

٣٢- وفيما بعد تنفصل الألفاظ (الرموز) عن معناها، وتبدأ فى الاستقلال (هى والذكريات) والمداومة الذاتية، وتصبح هدفا فى ذاته (وليست وسيلة) وتوجه وتقود عمليات التفكير الدائرية (المغلقة- بلا هدف) ثم المشوشة.

٣٣- إن اللغة الجديدة يمكن أن تكون استعمالا خاصا للألفاظ أو تكثيفا غير عادى لمقاطعها، أو وسيلة اغترابية تؤكد اليأس من التواصل.

٣٤- إن الفصامى لا يفقد تماما استعمال المنطق، كما لا ينكص إلى المنطق البدائى فحسب، ولكن له منطقه الخاص الذى هو : (أ) بقايا المنطق العادى (الأرسطى) (ب) ومظاهر تنشيط المنطق البدائى (فون دوماروس) بالاضافة إلى (جـ) منطق خاص مخترع.

٣٥- إن الفصامى لا يفشل ببساطة فى عملية التجريد، بل إنه يعيد تعيين المفاهيم فى مدركات حسية، وينبغى اعتبار هذه الظاهرة دليلا آخر على أن الفصام ليس مجرد فشل وتراجع، ولكنه نبضة تقدمية مجهضة فى النهاية، وتشمل عملية إعادة التعيين هذه (المسماة التعيين النشط عند أريتى) أن يحمل الرمز نشاطا أكبر، كما أنها تعلن استقلال اللفظ والفكرة وفى نفس الوقت حركتهما الدائرية بلا غاية، ثم التشتت.

٣٦- إن ترابطات المفاهيم فى نظام المفاهيم تفشل، ويستمر بقاء المفهوم لفترة مؤقتة بالعادة والقصور الذاتى، ثم يتفكك إلى مكوناته الأولية فى النهاية نتيجة لضعف العلاقات البينية التى تحافظ على تماسكه.

٣٧- وبانفصال الألفاظ، وتفكك الأفكار، يعود النشاط يدب فى وسائل التواصل الأخرى (القبلفظية والمحاذية للألفاظ).

٣٨- إن إضطراب الفكر، الناتج عن ضعف التناسق الناتج (جزئيا) بدوره عن ضعف التواصل، يسهم فى الانفصال عن الاحتكاك مع الآخرين وبالتالى فهو يسارع فى تحقيق هدف الفصامى فى الأنسحاب والانفصال.

٣٩- إن اضطراب العاطفة عند الفصامى لايمكن أن يكون انعدام العاطفة أو حتى انسحابها، إنه نتاج انفصال اللفظ عن المعنى وكذلك تنشيط العواطف البدائية الكلية الفجة، والعواطف رغم وجودها فإنها تفقد وظيفتها كدافع للتواصل والفعل، فالعواطف موجودة ولكنها طيارة، وبدائية ومتضاربة لدرجة تعطل بعضها البعض.

٤٠- فى بداية الفصام تبدو العواطف العادية أكثر حدة، كما تبدو العواطف بصفة عامة غير مستقرة لفترة طويلة، وكذلك تبدو مترددة ومتساوية التكافؤ، وتظهر نوبات من الخوف المفاجى لمدد قصيرة وقد تتبادل مع نوبات من السعادة لاتفسير لها.

٤١- تظهر الانفعالات البدائية مثل الهلع، والعدوان البدائى، وقد يشكو المريض من قوة شريرة فى داخله لا يستطيع التحكم فيها.

٤٢- فى النهاية، لاتعود العواطف متميزة، ويتراجع النشاط العاطفى إلى حالة التهيج العام الانعكاسى غير المحدد وغير المتميز، وهذه الحالة تصبغ الصور المتدهورة للفصام، ويصاحب ذلك إحياء ما يمكن أن يسمى العواطف الحسية البدائية.

٤٣- إن تدهور العواطف، إذ هو نتاج التواصل، إنما يداوم بدوره فى مزيد من الانسحاب واللاتواصل، ويصحب ذلك إعادة النشاط فيما يمكن أن يسمى الانفعالات الحسية التى تعتبر نرجسية إلى حد ما.

٤٤- يبدو أنه يستحسن وصف المسار الفصامى بأنه قرار داخلى مفروض على الوجود الظاهرى عن وصفه بأنه اختيار، حيث أن الاختيار مرتبط مباشرة بالوعى وبالإرادة، فى حين يفتقد الفصامى الظروف الملائمة التى تسمح بالحديث بلغة الإرادة والاختيار.

٤٥- إن خلل الإرادة إنما يعلن بظهور الميول متساوية التكافؤ التى تؤدى إلى التردد المشل، ثم يتبع ذلك تأكيد الوجود الوعائى السلبى الذى ينتهى بالوجود العدمى المتجمد والمشوش.

٤٦- بما أن الفصامى مازال يعيش- جسديا- فلا يمكن الزعم بأنه يعيش بلا آخر (موضوع) تماما، بل بالعكس لو أحسنا الاستماع إلى صرخته، فإننا سوف نجد أن حاجته إلى الآخر نشطة طول الوقت، حيث استغاثته صادقة وعميقة، ولكنها محكوم عليها مسبقا بيقين مطلق بالا جدوى.

الفصل التاسع

<u>عناصر الفصل التاسع:</u>

– اضطرابات الشخصية – مفهوم استمرار مسيرة النضج فى مواجهة مفهوم اضطرابات الشخصية

– علاقة اضطرابات الشخصية بالعصاب – علاقة اضطرابات الشخصية بالذهان

– صعوبات التشخيص – تقسيم اضطرابات الشخصية

– اضطرابات دالة على تأخر النمو وتعثره وتماوجه – الشخصية غير الناضجة

– الشخصية الهستيرية – الشخصية المذبذبة عاطفيا

– اضطرابات دالة على تجمد النضج وتصلبه – الشخصية الشبفصامية

– الشخصية البارانوية – الشخصية الاكتئابية – الشخصية الوسواسية – الشخصية الهيبوكوندرية

– الشخصية المضادة للمجتمع – الشخصية العاجزة – الشخصية السلبية المعتمدة

– الشخصية التجهوسية – اضطرابات دالة على انحراف مسار النضج

– الشذوذ الجنسى (بعض انواعه) – الشخصية (الطبع) المغايرة للمجتمع – الاغتراب الهواياتى

– الشخصية المتمارضة – اضطرابات دالة على إجهاض نبضة النمو فى نشاط اندفاعى نزوى

– الشخصية الانفجارية – الشخصية العاصفية – هوس السرقة المرضى – نوبات التبجر الكحولى

– الانغماس الجنسى النزوى – هوس الحرق المرضى

– اضطرابات دالة على إفراط نبضى مغلق بديلا عن النشاط النبضى اللولبى النامى

– الشخصية الفرحانقباضية – الشخصية المغير انسحابية – الشخصية الشكاحتوائية

– اضطرابات دالة على نمو معكوس (مقلوب) – الشخصية الانفصامية

– الشخصية البارانويكية – الشخصية المجرمة المتحجرة – الشخصية السيكوباتية

– الشخصية الذهانية غير المتميزة

الشخصية السيكوباتية:

– القوة الزائفة فى السيكوباتى – العدوان دفاع ضد الضعف – بصيرة السيكوباتى

– الاستعمال السطحى للكيان الطفلى – تكوين السلوك السيكوباتى – الحل بالتفعيل النكوصى

– السيكوباتية دفاع ضد الذهان بأنواعه – سلوك السيكوباتى اللا أخلاقى وتبريراته

– السرقة – الكذب – السيكوباتى واللذه – السيكوباتى والجنس

– إعلاء قيمة الجسد عند السيكوباتى – الممارسة الشاذة – سلوك السيكوباتى سلوك تعويضى

– السيكوباتى والذهان – فشل الحل السيكوباتى واحتمال العودة – معنى فشل السيكوباتى

اضطرابات الشخصية

Personality disorders

تمهيد:

سوف نقدم هذه المجموعة من الاضطرابات بشكل عام فى مقدمة نظرية كما ألفنا فى الفصول الأخيرة، ثم سننتقى منها نوعا واحدا هو ماورد فى المتن، وهو ما يعرف بالشخصية السكوباثية لنتحدث عنه تفصيلا.

مقدمة:

تعتبر دراسة هذه الفئة مواجهة صريحة مع مشكلة الحد الفاصل بين السواء والمرض..، وهى تحمل كثيرا من معالم المشكلات التى طرحناها سابقا فيما يتعلق بحالات البارانويا وما أسميناه بالضلالات العمومية (ص٢٦٩) من جهة، كما تتعلق أيضا بما أسميناه مكافئات الفصام من جهة أخرى، وأخيرا فإن علاقتها مع العصاب من حيث المظاهر السلوكية ونوعية استعمال الحيل الدفاعية (الميكانزمات) علاقة دقيقة تماما.

مفهوم استمرار مسيرة النضج فى مواجهة مفهوم اضطرابات الشخصية

The concept of continuity of the march of 'growth', vis a vis te concept of personality disorders.

إنه يلزم لفهم اضطرابات الشخصية أن نحدد مفهوم النضج وحتم استمراره مدى الحياة، بديلا عن مفهوم السلوك السوى وقياسه بالوسط الحسابى، وبدون تحديد هذا المفهوم فلا بد أن نتفق مع من ينكر هذه الزملة أصلا، من حيث أنها ليست مشكلة طبنفسية وإنما هى مشكلة اجتماعية، وأن مجرد دخولها إلى مجال الممارسة الطبية يجعلها تنظر من بعد آخر، بحيث ينصب الاهتمام أساسا على ظاهر السلوك الذى أتى بها إلى مجال الممارسة الطبية دون حقيقة المشكلة فى تركيب الشخصية الكامن وراءها.

إذا فلكى نفهم هذه الزملة، وخاصة من بعد سيكوباثولوجى، فإننا لابد أن نواجه مشكلة الطبيعة البشرية فى مسيرتها النموية، ولابد أن نتذكر قبل أن نلقى بالفروض جزافا خطورة ما يمكن أن يعنيه مفهوم النمو المستمر، من حيث هو نادر عددا، وغير ظاهر ولا مألوف شكلا، ولكن بغير اقترابنا من هذا المفهوم، فإنه يصعب علينا تماما أن نعرف ماهية الزملة (اضطرابات الشخصية).

ولعل صعوبة تشخيص هذه الزملة ناشئة أساسا من صعوبة الإلمام بهذا المفهوم النموى الدائم، لأننا نقدمها الآن بقولنا "إن اضطراب الشخصية كمفهوم وكلينيكي هو النتاج السلوكي لتأخر مسيرة النضج أو تعثرها أو تجميدها أو فرط حدتها أو انحرافها"[1]

وعلى جميع الأحوال إذا، لابد من معرفة ماهية هذه المسيرة حتى يمكن الحكم عليها من حيث كل هذه الصفات التى تنسب إليها، إذ بدون أن تعرف ماهيتها فكيف يمكننا الحكم على توقفها أو انحرافها مثلا؟

وسوف نعود فى فصول تالية إلى تفصيل بعض نواحى هذه المسيرة، إلا أننا سنتقدم هنا ماسبق أن ألمحنا إليه وأعلناه فى مواقع أخرى وأعمال أخرى مما يتعلق بمسيرة النمو، تمهيدا لفهم كيف أن نتاج توقفها أو انحرافها هو "اضطرابات الشخصية"، وموجز الرأى فى حدود التقديم الضرورى يقول:

١ - إن النمو الفردى عملية مستمرة طوال الحياة.

٢ - إن التدهور الفردى عملية بديلة، كامنة وجاهزة لأن تنشط وتظهر فى أى مرحلة، وهى مستمرة أيضا إذا مانظرنا إليها من بعد أعمق.

٣ - إن النمو يسير فى نبضات تتكون من اندفاعة (بسط Unfolding) يعقبها تمدد (Diastole) وهكذا..

٤ - إن النمو يستلزم أن يتجرع الفرد جرعات أكبر من قدرته على الاستيعاب، ثم يجترها ويتمثلها وينمو بها فيما بعد، وذلك من خلال نوبات البسط المتلاحقة فى النوم والحلم واندفاعات النمو معا.

٥ - إن العملية تبدأ حادة ومتداخلة فى الطفولة، ثم تزيد أطوار "التمدد" على أطوار "البسط" كلما تقدم العمر.

٦ - إن هذه النبضات لاتتوقف فعلا ونهائيا إلا بالموت الجسدي.

٧ - إن أبسط أشكال هذه النبضات هو النوم واليقظة، إذا ما كان النوم يقوم بوظيفته الوقائية التفريغية والنموية الاستيعابية معا. إذا، فالنمو دائم لا محالة طالما هناك نفس يتردد.

٨ - إن ترجيح كفة التدهور لايتعلق بالسن الزمنى بقدر ما يتعلق بمرونة الشخصية فى نبضاتها من جهة، وكذلك باستيعابها المتزايد للخبرات التى تنمو بها من جهة أخري.

ودون الدخول فى تفاصيل هذه العناوين جميعا، يمكن القول إن اضطرابات الشخصية كما سبق أن عرفناها هى اختلال أو تجميد أو انحراف عن هذا المسار سالف الذكر، ويحدث هذا نتيجة أحد الاحتمالات التالية:

١ - أن ينتج عن تذبذب عملية النمو وعدم كفاءة أطوار النبضات المتلاحقة تأخر فى اكتساب سمات سلوكية تتناسب مع مسيرة النمو فى أطوار العمر المختلفة، مما ينتج عنه تأخر النضج وظهور مظاهر

---

1 -Personality disorders, as a clinical concept, are the behavioural outcome of the retardation, stumbling, deviation, consolidation or overaccentuation of the march of growth.

طفلية ومخلة فى تصرفات الشخص البالغ، ومثال ذلك الشخصية غير المستقرة انفعالى Personality Emotionally unstable

٢ - أن يحدث طور الاندفاعة (البسط) فى ظروف غير ملائمة، مما يعرض الكيان النامى إلى إحباطات ورعب وانكماش بحيث تجهض النبضة لدرجة ألا يجرؤ الفرد على معايشتها ثانية، ولايعود ينبض إلا نائما فى السر، بل إن هذا النبض فى النوم والحلم يكون غائرا فى طبقات الشخصية الأعمق بحيث لايتبادل مع أى أطوار أخرى، وينتج عن هذا وذاك توقف النضج بالمعنى النابض المتبادل الذى قدمناه،

ويحل محله نمط شبه ثابت من الوجود البشرى لايسمح بأى نبض تال، ويسمى نتاج هذا التوقف أحيانا اضطرابات نمطية للشخصى Personality pattern disorders، بمعنى أن نمط الشخصية أصبح سئ التركيب Malorganised بشكل شبه ثابت، وأضيف هنا أن هذا التركيب السئ يصل لدرجة تمنع نبضات النمو التالية من الظهور، وبالتالى توقف مسيرة النمو المستمر، وهذا النوع بالذات يمكن النظر إليه، بنظرة مجهرية معظمة، على أنه نتاج تركيبى لتجربة ذهانية خفية ومصغرة، أو ما أسميته فى هذه الدراسة بالسيكوباثوجينى Psychopathogeny، ومصداقا لذلك فإن معظم ماوصف من أنواع اضطرابات الشخصية التى تعقب الفصام الصريح وتسمى اضطراب الشخصية بعد الفصام أو بعد الذهان، إنما يقع تحت هذا التركيب السئ لتنظيم الشخصية بعد تفسخها الذهانى كما سيأتى فيما بعد، ومثال هذه المجموعة الشخصية الشبفصامية (الشيزويدية).

٣ - قد تمر الشخصية أثناء نموها بهذه الخبرة المرعبة المجمدة، إلا أنها لاتنجح فى إيقاف ظهور نبضات النضج تماما، التى تستبدل بانطلاقات فجائية تفريغية ومندفعة، سرعان ما تعود بعدها الشخصية إلى خط الأساس دون استفادة حقيقية من هذه الانطلاقه، لأنها ليست نبضة وإنما دفعة محكومة بتخلخل فى التجميد وليس ببسط استيعابى، ومن أمثلة هذه الصورة من الإجهاض التفريغى لنبضة النضج ما يعرف بالشخصية العاصفيةStormy personality ، وقد تحدث هذه النزوة الاندفاعية فى جانب واحد من جوانب السلوك، مثل هو س السرقةKleptomania وماشابه كما سيأتي.

٤ - قد تحدث نبضات النضج بشكل دائرى ثابت ومبالغ فى حدته دون أن يترتب عليه أى أثر نموى واضح، بحيث تتكرر النوبات فى عنف متلاحق مع اختلاف مظاهرها السلوكية، ولكنها تعود دائما إلى نفس النقطة دون استيعاب نموى يقلل من حدة النوبة التالية ويحسن توجيهها، وهذا النوع هو أقل الأنواع تجمدا أو تشويها للنضج وهو المسمى بالشخصية النوابية، التى يتراوح مزاجها بين قطبين متقابلين، لبسا بالضرورة هما المرح والاكتئاب (وإن كان ذلك هو الأغلب) بل.

المهم هو التناوب بين قطبين يبدو أحدهما - سلوكيا - بعكس الآخر، ففرط حدة النبضة النموية هنا لايؤثر على السلوك لحد الاضطراب الذى يدرج تحت هذه الزملات النوابية الصريحة، ولكنه يعتبر سمة دائمة من سمات الشخصية، وإدراج هذا النوع تحت اضطرابات الشخصية له مبرر واحد، وهو أن النبضات -

فى حالة السواء - تظهر وتهدأ فى دورات ثمائيه لولبية، إذ تعود دائما إلى نقطة أعلى، أما هنا - فى هذا النوع من الاضطراب - فإن الحلقة تبدو دائرة مقفلة تعود دائما إلى نفس النقطة، مما يعلن توقف النمو رغم النشاط المفرط.

٥ - قد ينحرف النضج عن المسيرة السوية المستمرة، فيحدث تخلخل فى مكونات تركيب الشخصية، ويعود التركيب - بعد النبضة غير الصالحة فى هذه الحالة - لامتجمدا معوقا من كل الجوانب .. ولكن يبدو الأثر فى شكل الإفراط فى جانب محدد من جوانب السلوك الذى يبدو أنه تضخم بشكل خاص ومفرط ومنحرف وغير مألوف، ليحافظ على توازن الشخصية دون تشويه تركيبها العام تمطيا، وهذا النوع، الذى يبدأ عادة أثناء طور بسط فاشل، يتأكد بتدعيم الارتباط الشرطى التعودى المنحرف أثناء طور التمدد التالى، وينتهى الأمر فى النهاية إلى تضخم هذه السمة الخاصة أو هذا الجانب من السلوك بحيث يصبغ سمات الشخصية صبغة خاصة من جهة، وفى نفس الوقت يعوق نبضات النمو لأنها عادة ماتمتص أولا بأولا فى تدعيم هذا الانحراف النموى من جهة أخري..، وأمثلة هذا النوع تظهر فى أشكال متنوعة مثل الانحرافات الجنسية أو الشذوذ عن المجمتع، بل إنها قد تظهر فى أى أغتراب سلوكى يبعد الإنسان عن "كلية" تواجده واستكمال مسار نموه، مثل الاستغراق فى هواية انعزالية خاصة (تربية الصبار، أو جمع طوابع البريد أو نوادى السمنما .. وغير ذلك) ٢

٦ - قد يحدث بعد محنة ذهانية مصغرة وعابرة (أو عدة محنات) أن ينقلب تركيب الشخصية رأسا على عقب، بمعنى أنه بدلا من إعاقة النمو، أو سوء تركيب الشخصية نمطيا، أو أى نوع مما ذكرنا حالا، يحدث إبدال كامل بين الأقدم والأحدث

من مستويات تركيب المخ (ومايقابلها من مستويات التنظيم الوجودي) حتى يصبغ السلوك البدائى والطفلى والذاتوى النرجسى كل مظاهر السلوك الخارجى، ولكن بأسلوب يتكلم اللغة العادية ليخدم الأغراض البدائية الفجة، أى أن نوعا من التشويه "بالقلب" Mutilation by inversion يتم لحساب قلب تركيب الشخصية رأسا على عقب، وهذا النوع من أخطر الأنواع، ويشمل الشخصية السيكوباتية، والشخصية الانفصامية (وليس الشبفصامية)(Schizotypal (and not schizoid ، وأى شخصية يقلب تركيبها، وقد يدرج هذان النوعان وماشابههما من نتاج هذا الانقلاب الكامل تحت اسم شامل هو الشخصية الذهانية Psychotic personality، وهى الشخصية التى تخدم أغراض الذهان (من ذاتوية وتحوصل وانسحاب) مع استعمالها اللغة السلوكية العادية، وليس لغة الأعراض والاغتراب والانشطار الصريحة.

٧ - وقد تتراجع مسيرة النمو بعد مرحلة ناجحة من مراحل تقدمها، وقد كان هذا التراجع يدرج مباشرة تحت مفهوم مرضى أقرب ما يكون إلى الفصام، إلا أن التراجع قد يحدث فى كثير من الأحيان دون حدة

2- سوف نرجع حالا إلي التمييز الكمي بين مثل هذه المظاهر السلوكية المعتادة في الحياة السوية ... وبين الإفراط فيها لدرجة إدراجها تحت هذه الزملة.

وتفسخ وانشطار واضح، مما يجعل إطلاق اسم الفصام عليه أمر يجانب الوصف الكلينيكى النموذجى، اللهم إلا إذا كان يفسر - جزئيا - كيف يختلط هذا النوع باضطرابات الشخصية..، ويلاحظ هذا التراجع فى فترات خاصة من مراحل الحياة، مثل فترة المراهقة وبعد التخرج، أو الاستسلام الزواجى والانمحاء فى الأولاد كنوع من استبدال نموهم بنمو الفرد ذاته.. الخ.

وقد يظهر هذا التراجع بعد نوبة صريحة زاهية من الذهان التفسخى عادة، وتسمى الزملة فى هذه الحالة اضطرابات الشخصية عقب الذهانpost psychotic prsonality disorder ، وقد يأخذ فى هذه الحالة أى شكل من الأشكال سالفة الذكر، وإن كان الأغلب أن يأخذ الشكل النمطى Pattern أو المقلوب Inversed

ولابد من الإشارة ابتداء إلى أن كل هذه الإعاقات والانحرافات تحدث بصورة مخففة أثناء مسيرة النمو عند الشخص العادى فى مرحلة تطور الإنسان الحالية، إذا، لابد من التأكيد على ما يفرق بين السواء والمرض بهذا الصدد، وخاصة أن اضطرابات الشخصية ليس لها بداية ظاهرة ومحددة، كما أنها لاتحدث فى شكل أعراض ذات أبعاد خاصة كما هو الحال فى العصاب والذهان، وحتى نستطيع الفصل بين السواء واضطرابات الشخصية، لابد من التقدم بخطوة جريئة تتناسب مع مفهوم النمو، وهو التفرقة بين أربعة مستويات من الوجود:

١ - الصحة الإيجابية: وهو الوجود الذى يعنى استمرار مسيرة النمو فى نبض هادئ ولافى متصاعد دائم.

٢ - الحياة العادية: (السواء بالتوسط) وهو الوجود الذى يؤكد التشابه مع الآخرين حتى ولو على حساب توقف مسيرة النمو لفترات طويلة أو دائمة.

٣ - التوقف والانحراف: (اضطرابات الشخصية وبعض أنواع العصاب المزمن) وهو الوجود الذى يعنى تجمد غائر، أو سوء تركيب نمطى، أو ماشابه، حتى يتأكد توقف الشخصية تماما.

٤ - التدهور التفسخ: (الذهان الفصامى خاصة) وهو الوجود المتراجع فى فى نبضات سلبية مفككة، ثم فى تباعد تنازلى مضطرد.

ونلاحظ من هذا الترتيب أنه فى النوع الثانى من الوجود قد تتوقف مسيرة النمو، ونضيف أنها قد تنحرف، إذا فالفرق فى هذه الحالة بين هذا النوع وبين النوع التالى - اضطرابات - هو فرق كمى بالضرورة، كما أنه فرق يتعلق بعامل الزمن وسوء التناسب كذلك، فتوقف النمو بعد منتصف العمر ليس خطيرا، بل يكاد يكون متوقعا (وإن كان ليس حتما بدليل وجود النوع الأول كمثال للنمو المستمر).

خلاصة القول أن الفرق بين السواء واضطرابات الشخصية يمكن أن يوضع فى هذه النقاط:

١ - المقياس الزمني: أن يحدث توقف النضج النبضى فى الطفولة المبكرة تماما، بحيث يصبح النمو بعد هذا التجميد الطفلى مجرد زيادة فى حجم الشخصية وليس إعادة تركيب مكوناتها، وكثيرا مايظهر هذا فى هؤلاء الذين "لايراهقون" على حد قولهم أحيانا.

٢ - المقياس التوسطي: أن يحدث التوقف مصاحبا بأشكال غريبة وشاذة عن المتوسط الحسابى لسلوك المجموع فى بيئة ما، فى فترة معينة من الزمان.

٣ - المقياس التكيفي والنتاجي: (الكمى: ضمنا) أن تكون مظاهر التوقف أو الانحراف النموى شديدة لدرجة تعوق التكيف، أو تسئ إلى الآخرين إساءة مباشرة وصادمة، أو تشل الكفاءة الانتاجية والاستقلال تماما.

علاقة اضطرابات الشخصية بالعصاب:

إذا كانت علاقة اضطرابات الشخصية بالحياة العادية بهذه الصعوبة، وإذا تذكرنا كيف أن العصاب - فى أغلب الأحوال - هو تغير كمى بشكل أو بآخر للحياة العادية، وأنه فى نفس الوقت، مثل أغلب أنواع اضطرابات الشخصية، يستعمل الحيل الدفاعية بإفراط شامل، فإن لنا أن نتوقع شدة التماثل بين ما هو عصاب وماهو اضطرابات شخصية، الأمر الذى جعل بعض الثقاة فى الطب النفسى يدرجهما فى فصل واحد وتحت تصنيف واحد.

إلا أننا ينبغى أن نبحث فى تأن عن بعض الفروق الدقيقة بين هاتين الزملتين لاختلاف مسار كل منهما من ناحية، وكذلك اختلاف التناول العلاجى لكل منهما أيضا، وبيان ذلك:

١ - أن أغلب أنواع العصاب الموقفية والتفاعلية تحدث لأشخاص ليسوا بالضرورة ذوى شخصية مضطربة أو متجمدة نمويا..

٢ - أن للعصاب بداية (نسبيا) يمكن تحديدها فى أغلب الأحوال، فى حين أن اضطراب الشخصية ليس له بداية ظاهرة، بمعنى أن بدايته تسللية Insidious ومتدرجة Staircase (حتى لتكاد تختفى بين ثنايا انحناءات النضج العادية) وفى سن مبكرة لايتعدى مرحلة المراهقة المبكرة.

٣ - أن الصورة الكلينيكية فى العصاب (سلوكيا) هى صورة مجموعة أعراض لها أبعاد، أما الصورة الكلينيكية فى اضطراب الشخصية فهى كلية تشمل، نمطا أوسمة أو عادة غائرة لايمكن تحديدها تجزئيا على ظاهر السلوك.

وقبل أن نترك هذه النقطة لابد أن نشير - مكررين - إلى وجه الشبه مع العصاب وأهم معالمه كما ذكرنا:

١ - أن كلا منهما يستعمل الحيل الدفاعية بإفراط شامل (فى أغلب الأحوال).

٢ - أن كلا منهما تغير كمى فى السلوك بشكل أو بآخر، فى أغلب الأحوال.

٣ - أن كلا منهما يمثل وجودا واحدا (لامتعددا) فى الوساد الشعورى الواحد.

٤ - أن كلا منهما يشير إلى حلوسط ثابت - نسبيا - ودال على تلوث تركيبى بين حالات الأنا.

علاقة اضطرابات الشخصية بالذهان:

يلاحظ القارئ فى هذه الدراسة أننا تعمدنا فى حديثنا عن الذهان فى كل مرة أن نشير إلى نوعين (على الأقل) فى كل زملة، نوع يدل على نشاط بيولوجى Biological activity وإن انحرف مساره فى النهاية، والآخر يدل على استتباب نتاجى منحرف [٣] Established deviated outcome وعلاقة اضطرابات الشخصية بالذهان لابد وأن تختلف - سلوكيا - باختلاف مانعنيه من أن النوعين:

١ - فهى - سلوكيا نقيض صريح للنوع النشط بيولوجيا.

٢ - وهى - سلوكيا أيضا - شديدة الاقتراب من النوع النتاجى المستتب. ولكن إذا نظرنا من زاوية أخرى - أى من زاوية غائية - فإننا سوف نتبين كيف أن كثيرا من اضطرابات الشخصية (إن لم يكن كلها) هو مكافئ[٤] غائى مباشرة للذهان عامة وللفصام خاصة، بمعنى أنه يحقق أغراض الذهان التدهورية من توقف وتشويه وإضرار وإعاقة.

صعوبات التشخيص:

بالرغم من المحاولة العنيدة السابقة فى تحديد أبعاد هذا الاضطراب فإن تشخيصه يعتبر من أعقد المشاكل، ولايرجع ذلك إلى تداخل هذا الاضطراب مع غيره من الزملات فحسب، بل إنه يمتد إلى عوامل حضارية وشخصية لايمكن إغفالها، ومن أهم ما يفسر هذه الصعوبة:

١ - لايمكن تشخيص اضطرابات الشخصية بكفاءة معقولة إلا تبنى مفهوم النمو الدائم، الأمر الذى يعتبر مسئولية مباشرة وتكليفا خطيرا على وجود الفاحص ذاته، لأن متنى هذا المفهوم (النمو) لايكتفى "بفهم أبعاده" أو "الاعتقاد بصحته" بقدر مايهتم بمعايشته شخصيا بمخاطره التجديدية.

٢ - إن الإقدام على تشخيص اضطرابات الشخصية من واقع هذا المفهوم النموى يحمل ضمنا موقفا قد يساء تفسيره على أنه موقف تمييز طبقى، فالتفرقة بين مستوى الصحة الإيجابية والحياة السوية العادية ثم مستوى التجمد والانحراف، سيضع البشر فى فئات يكاد يعلو بعضها بعضا، بما يترتب عليه من مخاوف التمييز الذى يعتبر مسئولا مسئولية جزئية عن كل المصائب التى حلت بالبشر نتيجة الخلط بين هذا البشعة - بالولادة أو بالوطن أو باللون ..، ولايمكن أن نمنع هذا الخلط من عقول المشخصين فى هذه المرحلة من نمو البشرية التى اختلطت فيها رشاوى الديمقراطية العفنة، بفجائع العنصرية المجرمة، بأوهام المساواة الشمولية الآنية، والمسئول عن التشخيص يعيش كل هذا التضارب العصرى، والأفضل له - والأسلم - أن يكتفى بمقاييس مستعرضه جزئية (لايمكن أن تميز اضطراب الشخصية بأبعاده الحقيقية)، بدلا من أن يعرض ذاته الداخلية لمخاوف تمييز لايستطيع أن يتحمل مسئوليته.

3- راجع تقسيم الاكتئاب (ص ١٥٣ وما بعدها) وحلات البارانويا (ص ٢٧٨ وما بعدها والفصام (ص ٢٣٦ وما بعدها).

4- راجع معنى 'مكافيء' ص (٣٤٢).

٣ - إن تشخيص اضطرابات الشخصية - إذا - تدخل فيه محاذير ماذكرنا فى حالات البارانويا من اتخاذ "الموقف الحكمى" Judgemental attitude بما يحمل من بعد أخلاقى يلتزم المشخص - عادة - أن يطرحه جانبا فى تقويم الحالة وعلاجها معا.

كما أن اضطرابات الشخصية - منها خاصة - مبنية حول محور من الضلالات الغائرة فى اللاشعور، لامناص من استنتاجها ومواجهة تأثيرها المباشر وغير المباشر على السلوك - وفى هذا يمكن مراجعة كل ماذكرناه فى هذا الصدد بشأن حالات البارانويا (ص ٢٦٧ وما بعدها.)

٤ - عدم وجود بداية واضحة لهذا الاضطراب يجعل التشخيص هو وصف لشخص، وليس تحديد "ما" أصاب هذا الشخص، وبديهى أن وصف شخص ما - هو إنسان بالضرورة - من جانب إنسان آخر هو مخاطرة تعوق الاقدام على التصنيف لامحالة.

٥ - حيلة النقطة السوداء مسئولة عن الإفراط فى عدم رؤية الاضطرابات التى تماثل شخصية الفاحص، وعلى النقيض فإن حيلة الاسقاط تعتبر مسئولة عن الإفراط فى اكتشاف صفات، مرفوضة فى ذات الفاحص، فى المفحوص وخاصة فيما، يتعلق بالمعايير الأخلاقية، وبالتالى هى مسئولة عن الإفراط فى تشخيص من يماثل داخل الفاحص (راجع أيضا ص ٣٢٤).

٦ - موقع هذا الاضطراب بين العصاب والذهان فى موقع جامع (وليس فى موقع مانع) يجعله يدرج من الحالات البينية ولكن من بعد أعمق، وتفسير ذلك أنه يبدو من منظور سلوكى أقرب إلى العصاب، حيث لايوجد تغير نوعى ظاهر فى.

السلوك، ولاتفسخ فى الشخصية، ولا انفصال - محسوس - عن الواقع، ولكنه فى نفس الوقت ومن منظور غائى هو ذهان واضح وفعال، ومن هنا جاءت صعوبة أضافية تتعلق بتشخيصه نتيجة لهذا التباين حسب المفهوم الغالب، إذ هو يجمع بين ظاهر سلوكى عصابى وبين تحقيق غاية ذهانية (فصامية فى العادة) ذاتية انسحابية، ومن هنا جاء إدراجه مع الحالات البينية.

خلاصة القول:

يعتبر اضطراب الشخصية نوعا خاص من الأمراض الطبنفسية، فهو يصف شخصا أكثر مما يصف مرضا، وهو يصف نوعا من الوجود أكثر مما يصف مجموعة من الأعراض، وهو تعلقا بمفهوم النمو، إذ هو مظهر للإعاقة والجمود والانحراف عن المسار النموى المتصاعد المستمر، ويبلغ من تأصل هذا الجمود النموى أنه لايتغير - فى أغلب الأحوال - تغيرا جوهريا ذا دلالة إلا من خلال خبرة وجودية عنيفة، قد تصل معايشة نوع من الذهان النشط لفترة من الوقت فى ظروف أكثر تلاؤما.

تقسيم اضطرابات الشخصية وأنواعها

وهكذا نجد أنفسنا الآن فى موقف نستطيع فيه أن نعيد النظر فى تقسيمات اضطرابات الشخصية٥، وذلك من خلال مفاهيم النمو وإعاقاته أكثر من أى شئ آخر، ولابد أن نقر ابتداء أن هذه المحاولة بدأت واضحة فى التقسيم المصرى للأمراض النفسية (١٩٧٥)، وإن كنت هنا سوف التزم بمنظور النمو ومضاعفاته، بحيث سوف اضطر فى النهاية إلى إعادة ترتيب كثير من الفئات شارحا إياها ببعض التفاصيل المتعلقة كثيرا من الفئات لابد ينقسم إلى أكثر من فئة حسب دلالته النموية، ومثال ذلك فإنه لايمكن إدراج كل الانحرافات الجنسية مثلا تحت فئة بذاتها، حيث

قد يكون الاضطراب نمطيا تجميديا كما هو الحال فى الجنسية المثلية المطلقة فيدرج مع الاضطراب التجميدى النمطى، كما قد يكون من نوع الاضطراب الانحرافى يصف سمة خاصة مثل التوثين (الفيتشية)، فيدرج مع الاضطراب الانحرافى - السماتى، وأخيرا فقد يكون نزويا متفترا مثل الغلمة (النيمفومانيا)، فيدرج مع الانحرافات النزوية المجهضة، وهكذا فالعبرة فى هذا التقسيم ليس بمجال السلوك أو تفاصيل السمات، وإنما العبرة بالدلالة النموية، وطبيهة إيقاف مسيرة النمو، وكيفية ذلك.

اولا: اضطرابات دالة على تاخر النمو وتعثره وتماوجه:

يتبع كل جانب من جوانب الشخصية - أو وظيفة - خطوات معروفة بمعدل التوسط والتوزيع الاعتيادى، تدل على أن أغلب الأشخاص فى عمر معين يتمتعون بصفات معينة، ويحصلون على قدرات معينة فى هذه السن بالنسبة لهذه الوظيفة، وأظهر ما تكون هذه القاعدة فى تناول الدراسة النفسية نقابله فى دراسة علم نفس الطفولة، حيث يشرح كل باحث أو مؤلف ماذا يتوقع فى سن كذا بالنسبة للوظيفة الفلانية ... وهكذا، ولعل أشهر تحديد هو تحديد نمو الذكاء، وذلك بالنسبة للتقدم الهائل الذى أحرزته اختبارات الذكاء (رغم ماوجه إليها من نقد عنيف)، ويمكن القول أن قياس الذكاء فى مراحل العمر المختلفة قد بلغ ما يقارب بداهة "جدول الضرب"، بحيث نستطيع - مع المبالغة - أن نحدد تماما درجة تأخر نمو الذكاء عن المتوسط الاعتيادي.

وقد اتجه الرأى أخيرا إلى استعمال تعبير "التأخر العقلي" بديلا عن التعبير الأقدم "النقص العقلي"، وهذا التغيير له فائدة قصوى فى تناولنا لنمو الشخصية، حيث أننا إذا تبنينا فكرة أن النمو عملية دائمة، فلا يحق لنا أن ندعى أن نقصا مطلقا قد أصاب هذه الوظيفة أو تلك، إذ من يدرى إذا ما كان هذا النقص سيستمر أم سيتناقص مع مرور الزمن، فإذا جئنا إلى نمو الشخصية عامة وجدنا أنها أصعب تحديدا، وإن كانت أغلب الاتجاهات تشير إلى الشخصية فى كليتها المتفاعله مع أجزائها من ناحية ومع المجتمع من ناحية أخرى، إلا أننا إذا انتقلنا إلى قياسها.

وتحديد وحدات نموها على الطريق، فابلنا صعوبات لايدولها فى الأفق القريب حلا مرضيا، المهم أن المشتغلين بهذا الصدد قد اتفقوا على عدة اتفاقات مرحلية تسهل تناول هذا الأمر، ومن أهمها:

5- لابد من التذكير هنا بحتم التداخل بدرجات متفاوته بين الأنواع المختلفة.

١ - أن الشخصية هى الكل، فى حين أن الذكاء - مثلا - هو القدرة الذهنية (العلاقاتية التجريدية بوجه خاص).

٢ - أن قياس الشخصية هو قياس "عينة نموذجية من السلوك"Test of typical behaviour ، أما قياس القدرات عامة (والذكاء خاصة) فهو قياس "عينة قصوى من السلوك" Test of maximum behaviour .

٣ - أن أول مايتبادر إلى الذهن عند الحديث عن الشخصية هو النواحى الانفعاليه والاجتماعية، وإلى درجة أقل النواحى الأخلاقية (وأخيرا النواحى الذهنية Intellectual كعامل غير مباشر).

وعلى ذلك يصبح الحديث عن تأخر نضج الشخصية حديثا يشير مباشرة إلى نوع من تأخر النضج الانفعالى، وتأخر القدرة على التكيف الاجتماعى، بما فى ذلك تأخر اكتساب القدرة على احترام القيم الأخلاقية الاجابية فى المجتمع، وهكذا نستطيع مقابلة هذا النوع مقابلة موازية للتأخر العقلى، مع التفرقة بينهما فى أن فرصة استكمال النضج فى حالة تأخر نضج الشخصية أكبر بكثير عنها فى حالة التأخر العقلى.

والصفات العاملة التى تصف هذه المجموعة ككل هى:

١ - وجود انفعالات طفلية ظاهرة فى مواقف لاتناسبها حتى سن متأخرة.

٢ - وجود "ذاتوية طفلية" تصبغ أغلب تصرفات هذه المجموعة.

٣ - العجز عن الاستقرار على رأى معين أو وجدان معين.

٤ - وجود ميول اعتمادية ظاهرة.

٥ - الميل إلى المبالغة والتهويل والتأجيل والإثارة.

٦ - الانصاف "بالتخلي" دون أدنى شعور بالذنب، وأقصد بالتخلى آن مثل هذا الشخص "لايعتمد عليه" رغم وعوده وحماسه وأحلامه.

٧ - اتقان "البدايات" فى معظم المجالات، مع الافتقار الواضح إلى المثابرة بأى درجة حقيقية.

٨ - الرضا الزائف، الذى سرعانماينكشف زيفه بالقياس إلى الأطماع البادية فى تصرفات وأحلام واعتمادية صاحب هذه الشخصية.

٩ - الطيبة العاجزة، وذلك نظرا لغلبة الصفات الطفيلية على مثل هذا الشخص، فإنه قد يبدو وكأنه طيب متسامح سهل المسار، إلا أن ذلك قد يثبت أنه مجرد عجز عن الشر والأيذاء، وليس اختيارا للخير والتسامح، وقد يظهر هذا فى تصرفات فجائية متباعدة، أو فى أشكال الأيذاء السلبي.

وقد يمكن تقسيم هذه المجموعة إلى فئات فرعية حسب غلبة أى من الصفات السابقة على شخص ما، وغلبة صفات أخرى على آخر، ولكنى سوف لا أتطرق إلى وصف الفئات الفرعية وصفا سلوكيا تفصيلا،

حيث أن هدف هذه الدراسة هو هدف سيكوباثولوجى محدد، فهى تهتم أساسا بالبعد الأشمل والأعمق، ويكفى هنا أن نقول أن هذه المجموعة تشمل[6]

(ا) الشخصية غير الناضجة: وهى التى تتصف بأغلب الصفات السابقة بدرجات معتدلة دون ظهور سمة بذاتها أكثر من أخري.

(ب) الشخصية الهستيرية: وهى التى تتصف أساسا بالميل إلى التهويل والمبالغة وجذب الانتباه والاغماءات الاستعراضية (لاشعوريا بالضرورة - دون حلجة إلى تشخيص عصاب هستيرى مادامت صفة شبه دائمة).

(حـ) الشخصية المذبذبة عاطفيا: وهى التى تتصف أكثر بصفات التقلب الوجدانى السريع، والتردد فى الرأى، والتخلى عند الضغوط فورا، وتجديد العلاقات وإنهائها بقفزات لاهثة، ومن منظور سيكوباثولوجى لابد من إيضاح عدة نقاط أساسية (دون تفصيل أيضا).

(i) إن مثل هذه الشخصية قد ينطبق عليها سيكوباثولوجيا - أغلب المعروف فى حالات النمو الطفلى العادى، والفرق الواضح هو أن هذه العلاقات التركيبية والدينامية المعقولة باعتبارها سوية فى مراحل نمو الطفل، لا يمكن اعتبارها كذلك فى سن متأخرة.

(ii) أننا قد نجد خليطا من أنواع العلاقة بالآخر (الموضوع) فى نفس الوقت، فمثلا يمكن أن نجد إلغاء الآخر من خلال الذاتوية الطفلية مما يشير إلى علاقة شيزويدية، أو أن نجد مخاوفا تشككية موقفية غالبة (سرعان ماتزول) مما يماثل الموقف البارنوى، وإن كانت العلاقات الاكتئابية الحقيقية تكاد تكون شديدة الندرة فى هذا النوع من الشخصيات، لأن الاكتئاب النموى انفعال دال على درجة أكبر من النضج، كما أنه يحتاج - للتأكد من طبيعته والاستفادة من فاعليته - درجة من الاستمرار لاتتوفر مع الذبذبة التى تتصف بها هذه الفئة.

(iii) أن مثل هذه الشخصية - تركيبيا - يشير بدرجة أو بأخرى إلى تعدد نشاط الذوات (حالات الأنا) ولكن بالتبادل السريع وليس بالتداخل الولا فى كما هو الحال على مسيرة النضج، ولا بالتفسخ المعجز كما هو الحال فى الفصام مثلا، وينتج عن هذا النشاط المتعدد مظاهر التذبذب الفكرى المتنقل (وليس المتصادم)، والتغير السريع فى الوجدان، ولاستجابة القصوى للمواقف والرجوع عنها ...، إلا أن شعور الشخص يكون دائما واحدا (أى أن الشخص لايشكو عادة من التعدد أو تغير الذات أو العالم) لأن هذا النشاط المتعدد متبادل بالضرورة، ولعل هذا التبادل السريع المستمر هو المسئول عن تأخر النضج بإفراغ أى احتمال للالتقاء الولافى الضرورى لاستكمال المسيرة.

ويجدر بنا قبل أن نترك هذه المجموعة أن نشير أن بعض صفاتها قد توجد.

6- خلافا لما جاء في التقسيم المصري (١٩٧٥) لم أدرج هنا الشخصية السلبية الاعتمادية Passivc-dependent ولا الشخصية العاجزة Inadequate personality وفت نقلها إلي الاضطرابات النمطية كما سيأتي ذكره

عند كثيرين ممن يتميزون فى بعض النواحى الفنية وشبه الفنية، وقد نعزو ذلك إلى أن عدم النضج الانفعالى فى نفس الوقت الذى يكتمل فيه أو يتفوق النضج الذكائى والمعرفى، قد يسمح للفرد أن يحقق بعض الانتاج، أو يمارس بعض النشاطات التى تتطلب هذه الطفولة الحية، رغم ضعف مسئوليتها الآنية وضعف علاقتها بالواقع.

كما ينبغى أن نشير هنا أيضا إلى أن هذه المجموعة تتميز بأن لها فرصة مستمرة فى استكمال النمو، لأن مشكلتها هى التأخر لا التجمد ولا التشوه، وأحيانا مايتم هذا النمو بعد سن الثلاثين أو الأربعين بشكل طيب ومتناسق وفعال.

ثانيا: اضطرابات دالة على تجمد النضج وتصلبه:

تدل هذه المجموعة على أن النضج قد توقف عند مرحلة بذاتها من مراحل النضج، ونقصد هنا بالتوقف ما يفيد النمطية المتكلسة، حيث يأخذ التركيب التشكيلى للشخصية نمطا شبه ثابت هو نتاج حلوسطى يخفى تأخر النضج من ناحية، حيث يبدو الفرد وكأنه استقر على طبع أو نمط معين، ثم هو يمنع التفسخ الصريح من ناحية أخرى، ولكنه فى نفس الوقت يجمد تركيب الشخصية، ويحول دون نبضها المتناوب الذى يسمح بالاستيعاب فالبسط على مسار النمو.

وهذه المجموعة ككل تتصف بصفات مشتركة نورد أهمها فى ما يلي:

١ - أنها مستقرة على وضع مميز وواضح المعالم، بغض النظر عن كفاءته أو سوائه من عدمهما، وبتعبير آخر إن من يندرج تحت هذا النوع له من الصفات الثابته والسمات الغالبة والتفاعلات المكررة والطبقية ما يجعله ذو نمط جامد محدد.

٢ - أن هذه المجموعة قد استبدلت بنبضات النمو، تدعيمات شرطية جعلت تركيبها نتاجا سلوكيا شرطيا بدلا من كونه ولانا متجددا ناميا متغيرا، وبتعبير آخر فإن هذه الشخصية - بالاضافة إلى الاستعدادات القبلية - هى مجموعة من الارتباطات الشرطية المكثفة والمدعمة ليس إلا.

٣ - نتيجة لذلك، فإن مثل هذه الشخصيات تتمتع بأقل قدر من الإرادة الحقيقية أو من الحرية الفعلية، لأن نتاج سلوكها ما هو إلا الارتباط الشرطى المدعم بشكل مكثف.

وكأنى أريد أن أنبه إلى خطورة هذا التوقف عن النمو، ليس فقط على نمو الفرد الذاتى، وإنما على إنسانيته الواعية المرتبطة أشد الارتباط بقدرته على الاختيار بين بديلين من خلال وعى متجدد، وليس مجرد تكرار شرطى يتناسب مع "شخصيته"، أو بمعنى آخر "إن الحرية تبدأ حين أتمتع بشجاعة أن أكون لست أنا كما ضنونى أو حيث توقف نموى، ولكن أن أكون "أنا" كما يمكن أن أكون مما لا أعرف بالضرورة".

ونستطيع أن نستنتج - إذا - أنه كلما زاد اضطراب نمط الشخصية تأصلا، زادت الشخصية تحديدا وثباتا، وقلت فرص الحرية والاختيار الحقيقيين.

ولنـا أن نتوقـع - إذا - أن أصـحاب مثـل هـذه الشخـصيات هـم أكثـر النـاس حـديثا عـن الحريـة والذاتيـة والانفراديـة والاختيـار، ويمكـن تفسير ذلك بحيل دفاعيـة متنوعـة، أهمهـا تكـوين رد الفعل Reaction formationوالإنكارDenial والخيال Fantasy

وكثيرا ما يقضى أصحاب الشخصيات فى هذه المجموعة حياتهم كلها فـى معـارك وهميـة تخفـى افتقـارهم العنيف لأى درجة من الحرية الداخلية.

٤ - يميل كثير من أفراد هذه المجموعة - ككل - إلى إخفاء جمود نموهم الشخصى بالاتصال بمجموعات وتنظيمات اتصالا سالبا أو موجبا عنيفا، ومن أمثلـة الاتـصال الـسالب الـنمط المـضاد المجتمـع، ومـن أمثلـة الاتصال الموجب التجمعات الحزبية والطبقية والنوادية المتحيزة.

٥ - يلجأ بعض أفراد هذه المجموعة إلى الإفراط فى أساليب تبرر توقفهم النمـوى، ويـتم هـذا الإفـراط فـى كل المجالات، ففى المجال الفكرى قد يختبئ المضطرب نمطيا فى سجن عـادات عقليـة تكراريـة وسواسية (مثـال: الشخـصية الوسواسـية)، أو فـى سـجن جـسده بـالتركيز عليـه وعلـى أوهـام أمراضـه (الشخـصية الهيبوكوندرية)، أو فى سجن أوهام عجزه (الشخصية العاجزة)... الخ.

٦ - تتصف هذه المجموعـة بـأن الاضـطراب الـشامل الـدال علـى توقـف النـضج وجمـوده فـى حلوسـطى سجنى معوق، يشمل كل نواحى الشخصية طـول الوقـت فـى كـل المجـالات (بعكـس اضـطرابات انحرافـات الشخصية التى ستأتى حالا).

٧ - تتصف هذه المجموعة بأنها غير قابلة لاستعادة مسار النمو إلا بعد "كسر" واضـح لهـذا الـنمط نتيجـة لفشل متراكم أو واهم، ويبدو هذا بشكل واضح وصريح فى مسيرة العلاج، حيث يتطلـب الأمـر - عـادة فـى العـلاج الجـذرى - أن يوقـف التـدعيم الـشرطى الـسائد، ويفـشل الـنمط الـسلوكى بمـا يعـرض صـاحب هـذه الشخصية إلـى اختلال تـوازنـى قد يصل إلـى "ذهـان مـصغر" Minipsychosis أو ذهـان كامـل، ثـم يبـدأ التأهيل فورا لإطلاق مسار النمو ثانية، وكل هذا يختلف عن المجموعـة الـسابقة التـى يمكـن أن تـستمر فـى النضج - رغم تأخره - دون توقف أو حاجة للتفكيك

٨ - لاتتفق هذه المجموعـة فـى الـسمات الـسلوكية بـل قـد تجمـع النقـائص معـا، مثـل الشخـصية البارانويـة ونقيضها الشخـصية العـاجزة، أو مثـل الشخـصية الاكتئابيـة ونقيضـها بعـض أنـواع الشخـصية التحهوسـية [7] وهكذا

وتشمل هذه المجموعة فئات متعددة أهمها:

(ا) <u>الشخصية الشبفصامية</u>: تسمى هذه الشخصية باسم شائع هو الشخصية "الشيزويدية"، وهـى تـشير كمـا وصـفت فـى كثيـر مـن المـصادر إلـى نمـط سلوكى ونقيضـه فـى نفـس الوقـت، ومـن أمثلـة ذلـك نجـد أن كلمـة

7- تحهوسية هي إضغام لكلمتي تحت هوسية ترجمة لكلمة Hpomania التي تترجم أحيانا إلي الهوس الخفيف لكن استعمالها في صيغة لغتية تطلب هذا الإضغام

"شيزويدي" (شبفصامى) تعنى الشخص شديد الحساسيةThe sensitive schizoid ، كما تشمل الشخص شديد البلادة متحجر العواطفThe callous schizoid ، وهى تشمل الشخص عظيم الرقة The decent schizoid كما تشمل نقيضه شديد الجسارة نتيجة لسهولة تلونه - كالإناء الشفاف - بسلوك من حوله (تلك الشخصية التى أسميناها الشخصية المتلونة، وأسمتها هيلين دويتش شخصية "كأن" As if personality)

والسر فى هذا التعدد تحت عنوان واحد هو الخلط بين التصنيف السلوكى والتصنيف الدينامى والتركيبى، فلاشك أن هذه الأنواع جميعا تشترك فى خاصة الانسلاخ Detachment عن الآخرين، والتحوصل فى داخل الذات، وعدم قابلية التوصيل إلى داخلها بسهولة، إلا أن ذلك لايبرر هذه السهولة التى تدرج بها تحتها الفئة الفرعية ونقيضها، وفى رأينا أن نقصر استعمال اسم الشخصية الشبفصامية (الشيزويدية) ونقيضها، وفى رأينا أن نقصر استعمال اسم الشخصية الشبفصامية (الشيزويدية) على النمط الانطوائى الرقيق الحساس، أما مادون ذلك فيجدر أن يصبح فئة فرعية قائمة بذاتها، أو أن يقرب إلى أقرب فئة مناسبة، فمثلا نجد أن الشخصية المتلونه والشخصية المتحجرة هى أقرب إلى الشخصية الانفصامية وليس الشبفصامية، فهى تكاد تكون نقيضها، وعادة ما تنتقل الأولى إلى الأخيرة بعد كسر نشط يقاس كلينيكيا فى أحيان كثيرة بمقياس الأزمة الفصامية، أو قد يمردون تشخيص فى الأحوال الطفيفة، فالشخصية الشبفصامية هى عكس الفصام سلوكيا وكلينيكيا وإن كانت قرينته ديناميا ووجوديا، والنوعين الفرعيين "المتبلد" و "والمتلون" هما أقرب إلى "الفصام المتبقى" Residual schizophrenia سلوكيا وكلينيكيا، وبالتالى فهما أقرب إلى الشخصية الانفصامية كما ذكرنا، وإذا عدنا لنتذكر الفرض القائل: إن اضطراب الشخصية يحدث بديلا عن الذهان أو بعده (الفصام خاصة) فإننا نقول أن هذين النوعين (المتلون والمتبلد) يغلب أن يكونا من النوع الذى يحدث عقب نوبة فصام مفسخةDisorganizing ، ومن حيث التوقف النموى فإن الشخصية الشبفصامية (الشيزويدية) (التى سنقصرها ابتداء من الآن على النوع الحساس والرقيق الخجول) إنما تدل على توقف النضج فى حلوسط مبكر، يحقق الابتعاد عن "الآخر"، والذى هو دلالة الموقف الشيزويدى، ولكنه يتم بلغة الخجل والحياء التى يتصف بها الشخص اليافع .

٢ - الشخصية البارانوية: إن هذا الاضطراب النمطى نوع شائع فى توقف النمو عند المستوى البارانوى بكل سيكوباثولوجيتة التى سبق ذكرها فى حالات البارانويا (الفصل السابع)، ويمكن أن نجد لها من الأنواع ما يقابلها من حالات البارانويا المستتبة المختلفة (ص ٢٨٠، ٢٨١)، أما ما يفرق هذه الحالات الصريحة عن اضطراب الشخصية النمطى من النوع البارانوى فهو ماذكر ص ٢٦٧، ٢٦٨ وكذلك ص ٢٧٦ من وجود منظومة ضلالية بجوار المنظومة المفهومية فى حالات البارانويا يمكن تمييزها بصعوبة فى أكثر الأحيان، فى حين أن هاتين المنظومتين تتلوثان ببعضهما البعض تماما فى حالات اضطراب الشخصية النمطى البارنوى .

والشخصية البارنوية تعلن توقفا عن النضج فى مرحلة مبكرة أيضا، حيث تلوث معالم الموقف البارنوى أغلب التصرفات العادية منذ سن مبكرة وحتى اليفوع يتزايد تدريجى ثم باستقرار نمطى متجمد.

وهذه الشخصية تنتج عادة - بعد التهيؤ الوراثى - من استمرار وزيادة جرعة اللا أمان التى تفرض على الطفل من زمن مبكر، وكذلك نتيجة لعدم تناسب ضغوط المجتمع مع قدرة الطفل (والمراهق) على استيعابها أو حتى إلغائها لإعادة تمثلها مستقبلا.

ولهذا نستطيع أن نقول أن الشخصية البارنوية هى (بعد الوراثه) نتاج المجتمع الخائف البدائى المتنافس.

أما الشخصية الشيزويدية فهى (بعد الوراثة) نتاج المجتمع المهمل المنعزل المتباعد أفراده

وأنا هنا لا أعدد الصفات والأعراض الكلينيكية التى تصف كل نمط، وإنما أركز على التقسيم النموى بشكل خاص، أما السيكوباثولوجى الخاص بكل نمط فيمكن أن يستنتج بدرجة كافية من التقريب من الزملة الكلينيكية المقابلة له .

٣ - الشخصية الاكتئابية: قصدت عمدا أن أفصل هذه الشخصية عن الشخصية النوابية، كما قصدت إلى عدم اعتبارها أحد وجهى هذه الشخصية عن الشخصية النوابية، كما قصدت إلى عدم اعتبارها أحد وجهى هذه الشخصية ذات الوجهين، حيث أنه فى خبرتى الكلينيكية قد تبين لى أن هذا النوع الاكتئابى هو نمط سلوكى قائم بذاته، ليس نابضا بالضرورة، وإنما هو - مثل كل اضطراب نمطى - إعلان توقف النضج وجموده، ولذلك فإنى أعتبر أن هذه الشخصية - بخلاف سابقتيها - لاتعبر عن توقف عند الموقف الاكتئابى، بل إنها تلويث مشوه للموقف الشيزويدى مع الموقف الاكتئابى المجهض، وهذا التلويث يمنع استمرار النبض (ص ٤٧٥) النموى كما أنه يرتد بالنمط السلوكى إلى خدمة غائية موقف سابق هو الموقف الشيزويدى عامة، وإن كان هناك أنواع من الشخصيات الاكتئابية الأكثر تشويها بحيث تصبح أقرب إلى الشخصية الإنفصامية، وهذا وذاك يقتربان من الصورة المستتبة لبعض أنواع الاكتئاب التى ذكرت ص ١٥٤ وما بعدها وهى على وجه التحديد: الاكتئاب التبريرى العدمى، والاكتئاب الراكد المذنب، والاكتئاب التعودى الطبعى، والاكتئاب الطفيلى النعاب، والفرق بين هذه الأنواع هو فرق درجة (كمى) ومسار، فالشخصية الاكتئابية تبدأ المذكورة - وغيرها - فقد تحدث متأخرة، وقد يتزايد الاكتئاب أو يتناقص مساره بمرور الزمن، أو قد يزول إلى رجعة أو إلى غير رجعة، واختفاء النبض فى مثل هذه الشخصية يبرر إدراجه هنا مع هذه الفئة الدالة على توقف النضج بالمقارنة باضطرابات الإفراط فى النبض الدائرى الذى يصف المجموعة الدائرية .

التى سيرد ذكرها حالا، فالشخص ذو الشخصية الاكتئابية متجمد النمو معوقه فى سجن التشاؤم والعدمية والاعتمادية الخفية، ونكرر أننا نعنى بالسجن دائما كل ما يعوق انطلاق النمو فى نبضاته اللولبية المتوالية.

٤ - الشخصية الوسواسية: وهذا الاضطراب النمطى هو السجن التكرارى، أو التوقف بالإعادة، وهو سيكوباثولوجيا ينطبق تماما على ما أوردناه فى وظيفة الوسواس والتكرار فى إيقاف مسيرة النمو ص ١٢٥ إلى ١٣١، وقد ألحقنا هذا الحديث مباشرة بمقابلة بين العصاب المزمن واضطراب الشخصية ص ١٣٣ ومدى وجه الشبه بينهما، الأمر الذى يسوغ الإشارة إلى الرجوع إلى سيكوباثولوجية التوقف بالسجن التكرار فى العصاب ليصبح هو هو ما ينبغى أن نورده هنا، مع الفارق العام وهو البداية التدريجية المتكررة والتوقف النموى المزمن وأخيرا درجة الإعاقة المتوسطة واختلاط سمات الاضطراب بالسلوك اليومى العادى.

أما دلالة التوقف ونسبته إلى أى المواقف النموية، فإن الشرطية العصابيةNeurotic conditioning دالة بصفة عامة على دفاع مفرط ومستتب ضد الذهان والتفسخ بصفة عامة على دفاع مفرط ومستتب ضد الذهان والتفسخ بصفة عامة، وبالتالى فلا يمكن استنتاج عند أى من مواقف النمو قد تم .

التجمد النمطى إلا من خلال منظور التكافؤ، وهنا نقول بلا تردد أنه - منظور غائى - توقف شيزويدى.

٥ - ويسرى نفس هذا القول على الشخصية المسماة بالشخصية المضطربه نمطيا من النوع الهيبوكوندرى أو الشخصية الهيبوكوندرية Hypochondriacal personality حيث تجد النمو وقد اعتقل فى سجن التركيز على السجد والانشغال به عصابيا بديلا عن النمو المتتالى، وهنا يستوعب هذا الانشغال بالبدن والجسدنه أى نبضة نموية ويجهضاها ويحولان مسارها إلى مزيد من الانشغال بالبدن والجسدنة، لإعاقة النمو .

٦ - الشخصية المضادة للمجتمع Antisocial personality يعتبر هذا الاضطراب النمطى نوعا قائما بذاته رغم وجه الشبه بينه وبين أنواع نمطية وغير نمطية أخرى، فمن حيث العدوان والتوجس وعدم الأمان هو قريب من الشخصية البارنوية، ومن حيث التبلد والقسوة هو أقرب إلى الشخصية الشبفصامية، وعموما فإن القاعدة التى ينبغى أن نتبعها أنه مهما كان الشبه فى وجه من وجوه السلوك مشترك بين نوعين أو أكثر، فإن المهم هو مجموع السمات معا بدلالتها التوقفية نمويا.

وهذه الشخصية تمثل - سيكوباثولوجيا - تفعيلا acting out لمرحلة عدوانية بدالية كانت لازمة فى مرحلة من مراحل النمو، ولكنها معطلة للنمو الانسانى فى ضرورة التحامه بآخر وآخرين، وتأتى الإعاقة هنا من أن تفعيل هذا الشعور العدوانى البدائى بما يصاحبه من اعتداء وجريمة وتبلد، ومشاكل عدم التكيف، كل ذلك لا يسمح للشخص باختبار الجانب الآخر من الوجود البشرى بعطائه وضرورة تواجده، أو حتى بتناقضاته اللازمة لنمو الفرد من خلال مواجهتها، وعلى ذلك فإن السلوك يتجمد عند هذه المرحلة الأولية، ويتأكد بالارتباط الشرطى المدعم الناتج عن الحلقة المفرغة ما بين: الاعتداء، فالرفض، فالفشل، فمزيد من الاعتداء، فمزيد من الرفض، وهكذا، أما أنه اضطراب، نمطى فإن ذلك يرجع إلى شمولية.

هذا السلوك واستتبابه معا، مما يميزه عن نوع تال سيأتى ذكره فى تفريعات قادمة مثل السلوك المغاير للمجتمع.

٧ - الشخصية العاجزة Inadequate personality

وهذه الشخصية من أخفى الأنواع إذ أن لها من الصفات الطيبة والوديعة ما يخدع فى حقيقة اضطرابها، إلا أن فشل هذه الشخصية فى تحقيق أى نجاح حقيقى فى المجالات المختلفة التكيفية والتحصيلية والعملية هو الدليل على توقف نضجها عند المرحلة الاعتمادية، مثل هذا الشخص يميل إلى الدعة وعدم المحاولة، وقد نقلناه هنا إلى النوع النمطى دون النوع غير الناضج كما ورد فى التقسيم المصرى، ذلك أن هذا الاضطراب دال على توقف فى النضج لاعلى تأخر أو ذبذبة، كما أنه يشمل الشخصية ككل، ولا يعالج بالتأهيل مباشرة، بل لابد من الكسر المبدئى للنمط السائد، وإنشال التشريط التجميدى، ثم إعادة التأهيل مثل سائر أنواع هذه المجموعة.

٨ - قد يظهر العجز فى صورة اعتمادية أكثر تحديدا وهذا النوع قد يسمى فى بعض التصنيفات "الشخصية السلبية المعتمدة "، Passive-dependent personalittوهو يختلف عن الشخصية العاجزة فى ظهور مظاهر الاعتماد المباشر بشكل زائد، وكذلك فيما يحمل من عدوان خفى يظهر أحيانا بشكل مباشر، أما الشخصية العاجزة فقد يختفى الاعتماد وراء واجهة من الطيبة والتسليم وفقد الطموح، ولايظهر عدوانه صريحا إلا نادرا.

٩ - الشخصية التحهوسية: (بعض الأشكال) ذكرنا فى المقدمة أن هذا التقسيم قد يضع فئة شائعة تحت أكثر من مجموعة حسب السمة الغالبة فى الفئة، فليس كل شخصية تحهوسية يمكن أن تعد توقفا تجميديا، ومن ثم اضطرابا نمطيا، لذلك فإنى أدرج هنا ذلك النوع دائم النشاط بلا جدوى، دائم المشاريع بلا تنفيذ، دائم الحديث والعلاقات بلا تواصل، ويعتبر مثل هذا الشخص متوقف النضج من عدة نواح، فهو قد استبدل بالنضج المواجهى الانكار الدائم كحيلة متأصلة تعوق أى مواجهة واقعية، ومن ثم .. أى احتمال نضج حقيقى، كما أننا أشرنا فى الهوس إلى أن الموقف.

الهوسى رغم عدم وروده كموقف نموى مستقل، إلا أنه موقف مقابل ومساو للموقف البارنوى، وهذا النوع يعلن التوقف عند هذا الموقف البديل.

ولم أدرج هنا كل أنواع الشخصيات التحهوسية لأن منها ما هو نزوى سيأتى (فى المجموعة الرابعة) ومنها ما هو نوابى دائرى (المجموعة الخامسة)، وأخيرا فإن منها من يتبع أساسا سلوكا عدوانيا أو مضادا للمجتمع مما قد يقربه بدرجة أو بأخرى للشخصية المضادة للمجتمع..

وسيكوباثولوجية هذا النوع هى خليط من سيكوباثولوجية الهوس والبارانويا والفصام من حيث الإنكار والعدوان وإلغاء الآخر من الناحية الجوهرية والعميقة.

١٠ - يمكن أن ندرج هنا بعض أنواع الجنسية المثلية المطلقة Exclusive homosexuality كنوع من التوقف النموى، وإن كان أقل نمطية من غير من الأنواع حيث قد يصبغ جانبا واحدا من السلوك الجنسى، إلا أنه يتفق مع المجموعة المضطربة نمطيا فى أنه توقف وتجميد عن مراحل خاصة من النمو الجنسى، وأنه شديد المقاومة لأى تغيير، وأنه بالتالى يتوقف نضجه ويعاق نتيجة لتحوير المسار النموى إلى هذا النشاط الشاذ، وقد يؤثر ذلك على بقية التصرفات فى مجالات السلوك تأثيرا مباشرا، أما إذا كانت الجنسية المثلية مجرد انحراف جزئى فى مجال محدود، فإنه قد يجدر بنا أن ندرجه مع الفئة التالية، أى المجموعة الدالة على انحراف النمو وليس تجمده وتوقفه.

تعقيب

وهكذا نجد أن هذه المجموعة برمتها يربط بينها عامل مشترك هو تجميد النضج وتوقفه وتشويه الوجود بنتاج سلوكى متكرر، يحول دون حرية الفرد الحقيقية، ويمنع نبضه الولا فى المحتمل، ولكن ينبغى علينا أن ننبه أن مجرد وجود هذه المواصفات أو تلك بدرجة مخففة فى فترة ما؛ ليس مبرر الإدراج هذا الشخص تحت هذه المجموعة، إذ يلزم أن يكون الاضطراب النمطى شاملا وغائرا وموقفا للنمو تماما؛ فالطبيعى أنه فى فترة الكمون: التمددDiastole ، لابد وأن يتصف السلوك بسمات غالبة قد تكون أميل إلى هذا النمط أو ذاك، إلا أن هذه السمات - لتعتبر طبيعية - لاينبغى أن تعوق النبضة التالية والبسط الولا فى بأى درجة معطلة وكما ذكرنا بالنسبة للمجموعة الدالة على تأخر النضج وتذبذبه من أن بعض المتفوقين فى هذه الناحية الفنية أو تلك الموهبة الخاصة قد يتصفون بتأخر فى النضج الانفعالى خاصة، لايسعنا هنا أيضا إلا أن نشير إلى مثل هذا الاحتمال ولكن من بعد آخر، فالتفوق هنا عادة تعويضى وليس من صلب النتاج التركيبى للاضطراب النمطى، والتفوق فى جانب من الجوانب مثل نجاح البارنوى فى جمع المال مثلا لايدل فى كثير أو قليل على استمرار عملية النضج، بل يصبح هذا التفوق الجزئى بديلا عن النضج ومبررا للتوقف فى أغلب الأحيان ونذكر القارئ فى النهاية كيف أن هذه المجموعة لاتعاود النمو إلا بفشل متراكم، بالصدفة أو بالترتيب العلاجى، مما يؤدى إلى فقد التوازن النمطى التجمدى، ويتيح الفرصة إما لانطلاق النمو واستعادة النبض الحيوى أو لتدهور أخطر وتكيف نمطى أو عكسى أدنى.

ثالثا: اضطرابات دالة على انحراف مسار النضج (التوقف الانتقائى والتعويض الجانبى).

تتصف هذه المجموعة بأن النضج يتوقف فى جانب بذاته، فتظهر سمة ثابتة أو سلوك أو طبع خاص فى ناحية من نواحى الشخصية، وتنحرف هذه الناحية عن المعايير المألوفة إما إفراطا أو نقصا بينا، وتسمى أغلب الفئات التى تندرج تحت هذه المجموعة اضطراب سمات الشخصية Personality trait disorderوإن كنا لانضمن هنا كل تنويعات هذه المجموعة وإنما ننتقى منها ما يتميز بانحراف محدد دال على توقف انتقائى، أو تعويض جانبى، مما يشير جميعه إلى نضج غير متوازن، ومعوق بالتالى، بشكل أو بآخر.

وتتصف هذه لمجموعة، ككل، بالمواصفات التالية:

١ - قد تطول مرحلة عادية من مراحل النضج، وتتدعم بوجه خاص، بحيث لايستطيع الفرد أن يتخطى هذه المرحلة إلى المرحلة التالية، فتظل المرحلة الأولى ظاهرة فى السلوك تمثل جانبا واضحا محددا رغم نمو بقية نواحى الشخصية.

أو تختفى جزئيا ومؤقتا ثم تعود للظهور بحجم كبير لايتناسب المرحلة التى وصلها نمو الفرد، إذا فهى ليست تأخرا فى النضج أو توقفا وتجميدا للنضج، بل إنها.

عرقلة جانبية ومحددة فى مجال بذاته، والمثال الواضح لذلك هو بعض أنواع الشذوذ الجنسى، فمن المعروف أن الجنسية المثلية - مثلا - هى مرحلة من مراحل النضج سرعان ما يتخطاها الفتى والفتاة بهدوء، ولكن إذا تدعمت وقويت وأصبحت ذات دلالة خاصة، فقد تستمر أوقد يعود إليها الفرد فيما بعد وتصبح سمة من سمات شخصيته دون المساس بسائر نواحى النضج الأخرى[8]

والمثال الآخر، هو الموقف المغاير للمجتمع الذى يمر به أغلب المراهقين أثناء محاولتهم التميز والتفرد على طريق النضج، فإذا استقر هذا الموقف، وخاصة إذا أجمع فريق من هذه السن على مغايرة المجتمع لمجرد المغايرة دون ثورة أو بناء، فإن مثل هذا السلوك قد يتدعم ويصبح سمة من سمات الشخصية لاتعوق استمرار نضجها وإنما تنحرف به بالنسبة لجانب بذاتة.

٢ - قد ينتج هذا الانحراف نتيجة لتأصل عادة سيئة، نابعة أساسا من ظروف اللا أمن فى البيئة، وقصور النضج السوى المنتظم عامة، وذلك مثل سلوك التمارض الذى يبدأ كسلوك طبيعى نتيجة لمبالغة طفلية للحصول على مكسب أو جذب الانتباه، ولكنه قد يتدعم ويستمر بعد ذلك، دون أن يوقف ومع ذلك فهو لا يحول دون نضج بقية نواحى الشخصية، ومثله فى ذلك مثل سلوك الكذب المرضى الذى يبدأ هادفا وتعويضيا، ولكنه ينتهى عادة يأيتها الفرد حتى ولو لم يحصل على مكسب من وراثها.

٣ - قد يظهر هذا الانحراف فيما يمكن أن يسمى "الاغتراب الشائع"، ويظهر هذا فى بعض الميول المبالغ فيها والتى تدرج أحيانا تحت اسم اهتمام أو هواية، ولكن عمق وظيفتها بمقاييس النمو قد يكون تفريغا للطاقة فى هذه الناحية أو تلك، بحيث تصبغ النمو صبغة خاصة وتوجيهه وجهة خاصة، ويكون التميز بهذه العادة أو الهواية جذريا وأساسيا وتعويضيا أيضا، إذ يعوض التميز الانسانى النموى العادى، ولكنه لايؤثر إلا بطريق غير مباشر على بقية اتجاهات النمو ف سائر نواحى الشخصية، ونلاحظ أن مثل هذا السلوك قد يظهر بشكل واضح فى فترة للمراهقة والشباب المبكر ثم يتحول بعد ذلك ويدخل ضمن أبعاد نمو الشخصية.

8-ينبغي التفرقة بين الجنسية المثلية كسمة جانبية، وبين ما أسميناه الجنسية المثلية المطلقة ص ٤٦٩ كنمط كامل في الوجود.

أما إذا أفرط فيه، وتمادى صاحبه فى إحلاله محل ذاته أو محل اهتماماته الخارجية، أو محل ضرورة وحتم علاقاته بالناس واستمرار انتشار مدى وعيه، فإنه لابد وأن يعتبر - بمقاييس النمو - نوع خاص يمكن أن يسمى "اضطرابا" للشخصية إذا أفرط فيه.

يمكن أن تصنف أنواع الشخصيات فى هذه الفئة الفرعية تبعا لما تقدم من احتمالات إلى عدة فئات نورد هنا بعض أمثلة لها:

١ - بعض أنواع الشذوذ الجنسى الدال على التوقف عند جانب من مرحلة مبكرة من النمو الجنسى ثم يلحق ذلك تدعيمها بالربط الشرطى عادة مثل الجنسية المثلية والمص، .. الخ

٢ - الشخصية (والطبع) المغايرة للمجتمع: التى تظهر فى التجمعات الثللية، والهيبية، وأحيانا فى المبالغات فى السلوك الدينى (فى مجتمعات ليست متمسكة بالدين بصفة سلوكية شائعة) وهى تدل على انحراف تعويضى، وأحيانا محتج، وكثيرا ما يمضى صاحبها رافعا شعارات ثورية وربما محاولا تحقيق بعضها دون مثابرة.

٣ - الاغتراب الهواياتي وهو الذى يعنى الاستغراق فى هواية أو عادة تشغل على الشخص فكره واهتماماته وتستغرق طاقته بديلا عن نموه، وتعويضا عن إعاقة هذا النمو، وقد يدخل فى هذا الباب الإفراط الشطرنجى، أو إدمان السينما، أو الانشغال بماركات العربات أو هوس جمع طوابع البريد، وكل هذه النشاطات نشاطات مفيدة فى حدود السواء، ولكنها انحرافية تعويضية بديلة عن النمو إذا ما أفرط فيها.

٤ - الشخصية المتمارضة، والكذب المرضى، وكلاهما يدل على هذا النوع من الانحراف الخاص فى جانب محدد من جوانب السلوك بصفة شبه ثابتة، مع خلو سائر نواحى الشخصية من الآثار الأخرى.

رابعا: اضطرابات دالة على اجهاض نبضة النمو فى نشاط اندفاعى نزوى:

وفى هذا النوع، يتصف تصرف الفرد بأنواع مختلفة من الاندفاعات النزويةimpulsive ، وقد تكون هذه النزوية صفة شاملة لكل - أو أغلب مناحى لسلوكExplosive personality ، كما قد تكون فى تصرفات بذاتها كما يحدث فى نزوات هوس الحرق Pyromania أو هوس السرقة Kleptomania أو هوس الانغماس الكحولى (التبجر) Dypsomania وما شابه مما سنعدده حالا.

وهذه المجموعة بأكملها تتصف أساسا بأن من يتصف بها يحرم من استيعاب التوتر الداخلى المتراكم، الذى لابد وأن يتجمع فى نبضة نمو إذا تركت له الفرصة حتى تكتمل حضانته ليظهر فى نبضة بناءة فى وقتها المناسب، أما وأن يجهض أى استيعاب لأى خبرة وأى تجمع لأى استعداد نموى متراكم عن طريق هذه الاجهاضات النزوية المتتالية، فإن ذلك إعاقة حتمية للنمو، مما يسمح لنا بأن ندرج هذه المجموعة ككل تحت اضطرابات الشخصية، من واقع أنها دالة على إعاقة النمو.

وبالرغم من أن هذا التركيب يجهض نبضة النمو، إلا أنه فى نفس الوقت يعتبر صمام أمن - مرضى بالضرورة - ضد تفكك الشخصية بوجه خاص.

وتتصف هذه المجموعة ككل بما يل:

١ - يتصف الفرد هنا بسرعة الاستثارة وانعدام فترة الكمون ما بين المثير والاستجابة

٢ - قد يبدو على الشخص من هذه المجموعة هدوء ظاهرى ومبالغ فيه ما بين النوبة والنوبة.

٣ - قد يقرر مثل هذا الشخص بين النوبات عزوفه عما يفعل وعزمه على الرجوع عنه تماما.

٤ - قد يصاحب النزوة تغير طفيف نوعى فى الوعى بصفة عامة.

٥ - قد يلحق النزوة نوع خفيف من النسيان، وإن كان الشخص يستطيع أن يتذكر ماحدث إلا أنه قد لا يستطيع أن يجد ما يفسره، أو أن يحكى كيف تطور الأمر إلى أن خرج إلى مجال السلوك.

٦ - قد يذكر الفرد فى هذه المجموعة أنه يكاد يجزم أنه أثناء النوبة يكون شخصا آخر، لابمعنى ازدواج الشخصية أو الانشقاق الهستيرى، وإنما تأكيدا على التغير النوعى الذى يصبغ التصرف النزوى ككل.

٧ - قد يظهر السلوك بوجه خاص فى شكل معين، مثل الحرق المرضى، وقد يظهر فى عدة أشكال متبادلة مثل التبادل بين السرقة المرضية والتبجر الكحولى .. وهكذا.

٨ - قد تقل هذه النوبات بالتقدم فى العمر، مما يشير إلى أحد احتمالين: إما أن ذلك دال على أن نبضات النمو ذاتها قد تباعدت، وبالتالى فإن النزوات المجهضة البديلة لم يعدلها ما يبررها، أو أن ذلك دلالة على أن الشخصية قد تكلست وانقلب الحال بمرور الزمن وتكرار الإجهاض إلى اضطراب نمطى تجميدى لايسمح بظهور النبضة النموية أو بديلها أصلا ويمكن أن نعدد بعض الشائع من أنواع هذه المجموعة كما يل:

١ - <u>الشخصية الانفجارية</u>: وهى الشخصية التى تتصف بالميل إلى الاندفاعات الفجائية فى كل (أو على الأقل: أغلب) نواحى السلوك، استجابة لمثير طفيف أو دون مثير إطلاقا، وقد ينتج عن هذا الانفجار بعض المشاكل الاجتماعية أو المضاعفات الشخصية التى تنتهى (دون آثار طبعا) بانتهاء النوبة، وقد سميت هذه الشخصية أحيانا الشخصية الشبصرعية Epileptoid إلا أنها تسمية غير دقيقة لأن علاقتها بالصرع لاتزيد - تركيبيا ومويا - عن علاقة بقية المجموعة ككل، فلا داعى لأن تختص بكونها شبصرعية، بل إن العلاقة بالصرع - كما سيأتى فى التعقيب العام - شاملة لأنواع أخرى من الاضطرابات بشكل نفضل معه عدم تخصيص زملة بذاتها بهذا الاسم.

٢- <u>الشخصية العاصفية</u>stormy personality :، قد تختلط هذه الشخصية مع سابقتها، إلا أن بعض التفاصيل قد تميزهما من بعضهما البعض، ففى حين أن الانفجار يحدث فى نوبات فى الشخصية الأولى، وكذلك قد يحدث تلقائيا وموضعيا، أى دون إغارة تتعدى الشخص إلى الآخرين، نجد أن الشخصية العاصفية تمارس نشاطها الاندفاعى فى موجات تكون متلاحقة أحيانا، كما أن السلوك الاندفاعى يتصف بأنه يجتاح ما حوله من أشياء وآخرين، وهذه الشخصية الأخيرة قد تسبق فى أحيان كثيرة ظهور الفصام الصريح، مما قد يدل على ذلك أثر هذه النوبات المفكك للشخصية، بالاضافة إلى أثرها المجهض للنمو.

٣ - هوس السرقة المرضى Kleptomnia يظهر هذا السلوك أكثر ما يظهر عند السيدات، وعادة ما تكون السيدة عزوفة عنه، ولكنها لاتتمالك نفسها إذا ما وجدت فى المكان المناسب، وهذا السلوك نزوى مفاجئ فى العادة وكثيرا ما تقدم السيدة على سرقة أشياء لاتحتاجها، ثم تعيدها إلى أماكنها بعد انتهاء النزوة دون الإبقاء عليها، وأحيانا ما تلقيها بعيدا فى إهمال.

٤ - نوبات التبجر الكحولى (الانغماس الكحولى المتفتر) يدرج هذا الاضطراب عادة مع الاضطرابات الناتجة من تعاطى الكحول، وهذا مقبول من منظور وصفى مسطح، أما وظيفة هذه النوبات، وما يحدث أثناء التعافى منها، فهو لابد أن يندرج تحت هذا النوع النزوى المجهض من اضطرابات الشخصية، ذلك أنه ليس مرضا بالمعنى المحدد وإنما هو اضطراب يكاد يشبه فى بعض نواحيه السلوك العادى، إلا أن الافراط فيه - مثل سائر المجموعة - هو الذى يدرجه تحت هذه الفئة.

أما وظيفة التبجر - كمجهض للنمو - فهو أن التبجر يطلق محتوى اللاشعور إطلاقا صناعيا وفجائيا، وفى نفس الوقت هو يخل بالوعى بحيث يمنع استيعاب ما أطلق، وما أن تنتهى النوبة حتى يعود المنغمس إلى حالتة الأولى وقد أجهض نبضة نموه المحتملة، وهكذ نجد أن هذا الاضطراب - بما يتصف به مما قدمنا - هو أقرب ما يكون إلى الاضطرابات النزوية المجهضة للنمو من الناحية التركيبية، من منظور النمو النبضى.

٥ - الانغماس الجنسى النزوى عند الرجل والمرأة: بنفس الطريقة التى أدرجنا الانغماس الكحولى تحت هذه الفئة من الاضطرابات يحق لنا أن ندرج أنواع الانغماس الجنسى عند المرأة (التى يمكن أن تسمى الغلمة النزوية) وعند الرجل باعتباره نشاطا فجائيا مفرطا، يقوم بعملية إبدال رمزى إذ يضع نشاط حفظ النوع بما يصاحبه من لذة وشبق لايفسره إلا الخوف من الانقراض بديلا عن نشاط نمو الذات إلى مستويات أعمق ووعى أشمل، وبألفاظ أخرى نستطيع أن نقول إن نزوة الانغماس الجنسى هنا هى إفراغ أيضا لاحتمال استيعاب جزء أعمق من الذات، وهى بهذا الانغماس تخرج عن النشاط الجنسى النامى إلى النشاط الجنسى البديل، وبوظيفتها المجهضة هذه، يحق لنا أن ندرجها تحت هذه الفئة.

٦- هوس الحرق المرضى: Pyromania، وهذا النوع لايستمر عادة فترة طويلة إذ قد يظهر فى الطفولة أو المراهقة وقد يستمر عدة سنوات ثم يختفى تدريجيا، وقد يعنى ديناميا إطلاق طاقة العدوان التخريبية فى مجال محدود، وبذلك يحقق مثل سائر المجموعة - إجهاضا لأى احتمال استيعاب لهذه النزعة، وفى نفس الوقت يحمى الشخصية ولو مؤقتا من التفكك.

تعقيب

وعلى نفس المنوال يمكن أن ندرج فئات أخرى من الاضطرابات تحت هذه الفئة طالما هى نشاط نزوى ومجهض، يتمتع الشخص بين فترات ظهوره بنوع من الوجود أقرب إلى السواء، وإن كان أبعد عن استمرار مسيرة النضج.

خامسا: اضطرابات دالة على افراط نبضى دائرى مغلق، بديلا عن النشاط النبضى الولبى النامى:

حتى تفهم هذه الفئة لابد وأن نحدد المعالم التى تتميز بها نبضة النمو، حتى تعتبر نبضة صحية سوية، وقد أشرنا إليها فى مواقع متفرقة إلا أننا نعود فنوجز معالمها ومميزاتها فى بضعه نقاط كالتالي:

(ا) أن تتناوب شقى النبضة (التمدد والاندفاع Systole & Diastole أى الاستيعاب والبسط& Assimilation) تناوبا منتظما يسمح لكل طور أن يؤدى وظيفته.

(ب) أن يكون شق النبضة متناسبا مع الشق السابق لها، بمعنى أن تكون درجة البسط ملائمة لدرجة الاستيعاب السابقة لها، وأن تكون درجة الاستيعاب ومدته مناسبة لنشاط البسط ومحتواه السابق، وهكذا.

(حـ) أن تكون نوبات البسط متوسطة الحدة بحيث لاتخل بالتوازن إخلالا جسيما.

(د) أن تكون نوبات الاستيعاب نشطة بحيث لاتصبح كمونا خاملا.

(هـ) أن يحدث بعد كل نوبة بسط تغير فى اتجاه النمو، بحيث لايعود الفرد النامى إلى نفس مستوى نشاطه السابق أبدا، بل يرجع إلى مستوى أعلى دائما مما يجعل حركة النمو لولبية وليست دائرية مغلقة، وهذه الحركة اللولبية تستكمل بداهة بالتقدم التدريجى النامى باستيعاب المادة التى بسطت أثناء نوبة البسط.

وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نشرح هذا النوع من اضطراب الشخصية قائلين: أنه إذا استبدل بهذا النشاط المثرى المتناوب، نشاط شبيه به، لكنه أكثر حدة لدرجة أنه لايحقق الغاية منه إذ يرجع الحال بعده إلى نفس نقطة البداية (وربما إلى مستوى أدنى بالفحص المجهرى الدقيق) فإنه لايعود نشاطا ناميا، بل إنه يعتبر نشاطا موقفيا، لأنه حل محل النشاط اللولبى النامى، ومن هنا أسميناه نشاطا دائريا مغلقا، لأنه يغلق النمو فى دائرة موضعية بدلا من أن يبسطه فى تصاعد لولبي.

وتتصف هذه المجموعة بأن الشخصية تتميز بتناوب نشاطها بين قطبين دون حتم انتظام هذا التناوب، ومع وجود فترات كمون متفرقة ومختلفة الطول بين كل نوبة والأخرى، وذلك دون أن تترك هذه النشاطات المتناوبة أى أثر مثر أو مفيد بعد حدوثها، وتسمى مثل هذه الشخصيات باسم "اضطراب الشخصية" النوابيةCycloid-personality disorder ، ويمكن تمييز بعض أنواع هذه الاضطرابات بعرض الأمثلة التالية:

١ - <u>الشخصية الفرحا نقباضية</u>the depressive-elated، وتتميز هذه الشخصية بتناوب مزاجها بين الحزن والفرح بشكل متلاحق دائرى كما أسلفنا، قد يتخلله فترات كمون هامد، ولابد أن نعيد التذكرة بأن كلا من الفرح والانقباض

هما من أنشطة "البسط"، فالفرح ليس نقيض الانقباض إلا من الناحية التركيبية الدينامية فهما مظهران لنشاط واحد وهو النشاط الاندفاعى أساسا، ولكن التناوب بين الفرح والانقباض قد يكون متلاحقا بدرجة لاتسمح للنشاط الامتدادى أن يأخذ فرصة استيعاب خبرات البسط هذه، وبالتالى فإن هذا التناوب الاندفاعى

(البسطى) المتلاحق يوقف النمو بطريق غير مباشر إذ لا يسمح للنشاط المكمل لـه أن أن يأخذ فرصـة حقيقية لاستيعاب هذه الخبرات.

ويمكن أن نفرق هذا الاضطراب فـى الشخصية عن قرينـه من أمراض (أو ذهـان) الهوس والاكتئـاب بـالفروق العامـة التـى ذكـرت فـى مقدمـة البـاب، وإن كـان هـذا النـوع هـو أكثـر الأنـواع اختلاطـا بقرينـه المرضي.

كما نشير أيضا هنا إلى أن نوع الاكتئـاب هنـا هو من النوع المجهض أكثر منـه أكتئـاب المواجهـة الـذى يسمح بالتمهيد لاستيعاب الخبرة الموضوعية اللازمة لاستمرار النمو.

<u>٢ - الشخصية المغير انسحابية</u> The invasive-withdrawn :وتتميز هذه الشخصية بالتناوب بين قطبين أقل شيوعا من قطبـى الفرح والاكتئـاب وهمـا قطبـى ومثـل هـذا الشخص يوجـه طاقـة نبـضات الاندفاع(Systole) المتلاحقـة مـا بين اكتساح مـا أمامـه فـى إغـارة مسيطرة لا تسمح لـه بـأن يرى الآخر منفصلا عن اندفاعتـه بحيث تتـاح لـه الفرصـة فـى احتكـاك يـؤدى إلـى النمـو، ومـا بـين انـسحاب حقيقـى (فيزيائى) أو عاطفى يلغى به الآخر تماما، وقد يصاحب هذا الانسحاب بعض مظاهر الكمون الظاهرى إلا أننا نعنى هنا الانسحاب النشط المحتج الذى قد يعقبه اندفاع تـال وهكذا أمـا الانسحاب النمطـى المتحوصـل فهذا من صفات الشخصية الشبفصامية وهو مـالا نعنيـه هنـا، ونتيجـة لهذا التنـاوب المتلاحق يتوقف النمو نتيجة لانغلاق الدائرة دون تصاعد لولبى كما ذكرنا.

<u>٣ - الشخصية الشكا حتوائية</u> The suspicious-incorporative أما قطبى التنـاوب فـى هذه الشخـصية فهما ما بى الشك والاحتواء، إذ يغمر الشك والتوجس مثل هذا الشخص إذا مـا اضطر لاستقبال الآخر، كآخر، وقد يكون هذا الشك والتوجس مجرد تمهيد لخطوة أخرى من الانسحاب، وعلـى قدر غلبـة الشك واستمراره دون التسرع بالانسحاب يكون الاسم جديرا بهذا السلوك، أما القطب البديل لهذا الشك والتوجس فهو الاحتواء، فإنه قد يبدو أن هذا الشخص الشكاك نـاجح فـى علاقاتـه مـع آخـرين نجاحـا ملحوظـا، وهو يقربهم إلى نفسه ويضع فيهم ثقة خاصة ومبالغة، والواقع أنه لا يفعل ذلك إلا بقدر مـا استطاع أن يحتوى هؤلاء الأشخاص داخل عالمه الذاتى (أى داخل ذاته نفسها)، فهم ليسوا شخوصـا بـالمعنى الموضوعى بل مجرد موضوعات إسقاط، وقد ذكرنـا مثل السلوك الأول فـى الشخصية البارانويـة وذكرنـا مثل السلوك الأخير فـى الشخصية الشبفصامية، وكذلك أكدنا عليهمـا فـى مقابلهمـا المرضـى الـصريح فـى البارانويـا والفصام، إلا أن المهم هنا هو وجود التناوب بين هذين القطبين بشكل يجهض النمو بـإغلاق دائرتـه، ولكنـه لايصل إلى تحديد مرضى صريح، أو إلى الاستقرار على سلوك نمطى تجاه قطب بذاته.

تذييل:

لـو تتبعنـا هـذه التنويعـات المختلفـة للشخـصية النوابيـة للاحظنـا تنـاقص النوبـات بمـرور الـزمن تكـرارا، وتناقصها حدة كذلك، وذلك لأن النبض النموى يتناقص بطبيعة النمو، كما أن أحد القطبين المتناوبين يتدعم

أكثر من قرينه حتى يطغى ويقلب الشخصية إلى النوع النمطى بديلا عن النوع النوابى الدائرى، وهذا الانحياز لأحدة القطبين يصاحبه تشويه وتبلد للظاهرة المعينة، لأن تحول النوع الدائر circulerإلى النوع النمطى التجميدى pattern إنما يتم من خلال ندوب متلاحقة، وإن كانت صغيرة إلا أنها سرعان ماتتراكم حتى ترجح أحد القطبين من ناحية، وتشوه وتكون محتوى القطب الأرجح من ناحية أخرى، فالا كتئاب إذ يرجح قد يصبح أقرب إلى الاكتئاب الطفيلى النعاب، والشك إذ يرجح قد يصبح أقرب إلى الشك الساخر المتبلد وهكذا.

سادسا: اضطرابات دالة على نمو معكوس (مقلوب)

لعل هذا النوع هو أخطر أنواع اضطراب الشخصية قاطبة، بل إن هناك من يحاول أن يقول إنه أخطر أنواع الأمراض النفسية أيضا بما فى ذلك الذهان الصريح المتدهور، وقبل أن تعدد أسباب هذه الخطورة نحاول أن نقدم مميزاته ومعناه.

فهذا النوع يعنى أساسا أنه لسبب ما - يغلب أن يكون ذهانا مبكرا أو بيئة ذهانية منعزلة - ينعكس تركيب الشخصية تماما بحيث ما يسمى لاشعورا عند الشخص العادى هو لاشعور مثل هذا الشخص المضطرب، إلا أن هذا الوضع المعكوس لا يظهر فيه اللاشعور فى صورة محتوى مشوشا متباعدا مضطربا ليس له كيان متماسك، كما لا يظهر فى صورة هلاوس أو ضلالات أو عواطف بدائية فجة أو ما إلى ذلك مما ألفنا اقترانه بالحديث عن محتوى اللاشعور، بل بالعكس إن هذا اللاشعور (سابقا) يكتسب "أسلوب" الحياة العادية ويتقن لغتها ويحذق التعامل فيها، إلا أنه يفعل كل ذلك ليحقق أغراضا ذهانية ذاتية وشاذة، ويمارس حياة التهامية بدائية خفية، وحين يجتمع الهدف الذهانى الصريح مع الخفاء السلوكى، فإن ذلك يشير إلى ما يمكن أن يمثله مثل هذا الشخص على المجتمع من خطورة، فهو متماسك أشد التماسك، وبالتالى هو أبعدما يكون عن متناول العلاج والترشيد، بل إن مثل هذا الشخص رغم احتمال قيامه بنشاط إجرامى صريح أو مضاد للمجتمع تماما، فإنه نادرا ما يقع تحت طائلة القانون.

والحقيقة أننا قد نجد بعض وجوه الشبه بين هذا التركيب المعكوس وبين اضطرابات أخرى للشخصية وخاصة من النوع النمطى، إلا أن ذلك التشابه هو تشابه جزئى وظاهرى فحسب، فالشخصية المضادة للمجتمع قد تشبه بعض ما سنطلق عليه هنا المجرم المتبلد، إلا أن الاختلاف يكمن فى أن السلوك المضاد للمجتمع فى الحالة الأولى هو نمط سلوكى أساسا أما شخصية المجرم المتبلد فهو وجود راسخ بحيث تصبح فيه القيم الانسانية العادية مكبوته فى لاشعوره تماما، ويتدعم سلوكه الإجرامى بمزيد من الاجرام تأكيدا لوجوده أساسا وليس تضادا للمجتمع فحسب، وهكذا.

وتتميز هذه المجموعة من الاضطرابات - بصفة عامة - بما يلى:

١ - أن مثل هذا الشخص يتصف عادة بالغرابة أو الشذوذ، بمعنى أن سلوكه.

خاص أو نادر ولكن الملاحظ عليه أن وجوده (أو ما يمكن أن يسمى بين العامة روحه أو حضوره) له ريح خاص مخيف فى العادة أو منفر فى أحيان كثيرة وذلك بالنسبة للشخص العادي.

٢ - أن مثل هذا الشخص تختلف تفاعلاته الوجدانية بحيث لاتسير على النمط المألوف الشائع، وإن كان يغلب عليها التبلد (بالمقاييس العادية على الأقل).

٣ - أن مثل هذا الشخص قد يتمتع بجاذبية طفلية خاصة فى مجال العلاقات العاطفية والجنسية مما يجعله ناجحا نجاحا خاصا فى هذه المجالات (وإن كان مؤقتا فى العادة).

٤ - أن مثل هذا الشخص قد يتمتع بجاذبية قيادية خاصة مما قد يجعله ينجح فى بعض الأحيان فى المجالات السياسية أو بعض القيادات الانحرافية الأخري.

٥ - أن مثل هذا الشخص قد يعرف عنه - إن صدقا وإن باطلا - أنه يتمتع بقوة غامضة أو تأثير خاص لا يخضع للحسابات العادية أو لحقائق العلم المألوفة، مثل أن يكون معروفا عنه أنه حسود قادر، أو أنه مشؤوم أكيد، أو ما إلى ذلك، وهذا الأمر كا أشرت سابقا يمكن أن يرتبط ببعض القوى البدائية التى تختفى عادة فى النمو العادى، أما فى النمو المعكوس فقد تحتاج إلى بحث على متأن قبل التسرع برفضها.

ويمكن بعد ذلك تمييز بضعة أنواع - كأمثله - من هذه الفئة التى يمكن أن تسمى ابتداء بشكل إجمالى الشخصية الذهانية Psychotic personaliry

١ - الشخصية الانفصامية Schizotypal personality وهذه الشخصية قد سبق أن أشرنا لها وميزناها عن الشخصية الشبفصامية وهى تعنى بوجه عام أن الفصام ذات نفسه قد تجسد فى شخص يمارس حياته ظاهريا بالأسلوب العادى، فهو شخص لايبالى، ولايضع علاقات بأى درجة من السطحية أو العمق، ولايشعر بثقل ظله على الآخرين، ولايعترف بأى مساحة خارج حدود ذاته (جغرافيا)، ويسهم بشكل أو بآخر فى إعاقة نموه من حوله بالمعنى الأشمل للنمو، وهذه الشخصية هى التى كانت تدرج أحيانا الشخصية الشبفصامية من النوع البارد اللامبالى (أو المتكلس) إلا أننا رأينا أن تدرج هنا وحدها لأنها - سلوكيا على الأقل - نقيض الشخصية الشبفصامية، وقد يحدث أن تكون الشخصية من النوع الشبفصامى ثم تحدث لها أزمة كيانية تصل، أو لا تصل إلى درجة الذهان الصريح، يخرج بعدها الشخص متغيرا نوعيا إلى هذا النوع الذى أسميناه الشخصية الانفصامية، وقد يحدث أن يبدأ السلوك منذ الطفولة بهذا التبلد وهذه الانعكاسية ويزداد تدريجيا حتى يستتب عقب المراهقة أو فى أو اخرها بشكل ثابت ومقيم.

٢ - الشخصية البارانويكية Paranoiac Personaliry وهى تتميز عن الشخصية البارنوية تميزا يقر بها مما أسميناه سابقا البارانويا الحقيقيةParanoia Vera ذلك أننا أشرنا إلى أن هذه البارانويا الحقيقية تدرج تحت حالات البارانويا بالقياس وليس بالتماثل التركيبى، حيث لايوجد منظومة ضلالية بمحاذاة المنظومة المفهومية أصلا، بل إن هذا الاضطراب هو نوع من اضطراب الشخصية البارنوية المفرط، أصلا، بل إن هذا الاضطراب هو نوع من اضطراب الشخصية البارنوية المفرط، إلا أننا نضيف هنا بعدا

آخر، إذ أن الافراط ليس فقط كميا وإنما هو يصل إلى تغير نوعى فى النظام التركيبى حين تصبح الحياة الضلالية هى التى تشغل حيز الشعور تماما أما الحياة السوية فلا تتلوث بها كلية، وإنما يبقى جزء منها مكبوت فى صورة لاشعور، وبالتالى فإن التركيب المعكوس هو الذى يميز هذه الشخصية بوجه خاص، وهذه الشخصية الذهانية تمارس الحياة العادية باللغة وبالتواصل العادى إلا أنها لاتخدم إلا أعراض التوجس، والعلاقة على مسافة، والسخرية والاستعلاء، كما أن مثل هذا الشخص قد يحقق نجاحا مميزا، ليس بالمقاييس العادية فحسب بل بالمقاييس الابداعية كذلك، فإن وجوده المفرد والمتوجس، مع عكس تركيبه، واقترابه الشديد من محتويات ماهو لاشعور عند الآخرين، يتيح الفرصة فى الحصول على مادة نادرة، يستطيع من خلال تماسكه الضلالى أن يعيد صياغتها فى مادة إبداعية جديدة، لاتخلو فى أحيان كثيرة من أفكار أصيلة ونظريات مستحدثة.

٣ - الشخصية المجرمة المتحجرة Criminal callous personaliry ، وهذه الشخصية المقلوبة تتصف باللامبالاة أساسا، وبقسوة ما تقدم عليه من جرائم وعدم تناسب المكاسب التى تحصل عليها من هذه الجرائم مع شدتها وبشاعتها، كما يتصف صاحبها بافتقاره إلى أى درجة من الاستفادة من النتاج المترتبة على فعاله، على المستوى (ص٤٨٣) الشخصى والمستوى الاجتماعى على حد سواء، وقد يتصف أيضا بأنه يجد متعة ظاهرة أو دفينة فى تنفيذ جرائمه.

٤ - الشخصية السيكوباتية Psychopathic personality بالرغم من أن هذا الاسم قد اختفى من أغلب التصانيف المتفق عليها للأمراض النفسية، فإنه من خلال هذا المفهوم التركيبى والنموى لابد وأن يحتفظ به إذ يعرض تركيبا خاصا وفريد يستحق أن يظل مستقلا دون أن يدرج فى غيره من فئات، وسوف لانطيل الحديث عنه لأنه موضوع شرحنا على المتن فى هذا الفصل.

٥ - الشخصية الذهانية غير المتميزة The undifferentiated psychotic personality وهى الشخصية التى تتصف بالصفات العامة التى ذكرت فى التقديم لهذه المجموعة دون أن تتميز بأحد مظاهر السلوك الخاصة السابقة.

٦- أنواع أخرى: قد نقابل بين الحين والحين بعض تنويعات الشخصيات المضطربه نمطيا، مما يدانى هذا الوصف الذى قدمناه والذى أكدنا فيه على معنى انعكاس التركيب، ومن ثم فلابد أن تدرج هذه التنويعات - بالرغم من مظهرها التوقفى نمطيا - تحت هذه الفئة المعكوسة، ومثال ذلك بعض حالات الشخصية التحهوسية، وبعض حالات الشخصية الاكتئابية النعابة .. وغيرها.

وهذا النوع من الشخصيات عادة ما يستمر هكذا معكوس التركيب طول الحياة، إلا أنه قد يمر عليه أزمة كيانية تختلف فى عنفها مما يترتب عليه أحد احتمالات ثلاث: فإما أن يعود الشخص إلى التركيب، العادى، وهذا نادر، وإذا حدث فإنه عادة ما يكون عاديا على مستوى أدنى من الوجود والتكيف، وإما أن يلوث

ويتجمد نموه مما يؤدى إلى الاضطراب النمطى، وإما أن نتاح له فرصة التكامل إذا ما كانت هناك ظروف واستيعاب سابق يسمح بالولاف بين شقى الشخصية.

تذييل:

هنـاك نـوع "خـاص" مـن الشخـصيات يمكـن أن نطلـق عليهـا اسـم "الشخـصية الخاصـة " special personality التى يبدو نموها وكأنـه نمو منعكس لغلبـة مظـاهر محتـوى اللاشـعور فـى الوسـاد الـشعورى الظاهر، ولغرابة موقفها من الحياة واختلاف تفاعلاتها الفكرية والوجدانية ... الخ، ولكن قد يثبت بـالفحص الأعمـق أن فكـرة النمـو المـنعكس لاتـصفها وصـفا حقيقيـا رغـم تـشابهها - ظـاهريـا - مـع هـذه الفئـة أو تلـك المندرجة تحت هذا النوع، ولن أطيل فـى وصـف هـذه الشخـصيات "الخاصـة" (المبدعـة أو المتـصوفة فـى العادة) لأنه من الصعب مرحليا أن تقع تحت طائلة الدراسة العلمية، كما أن تكوينها المختلف، رغم اقتراب مظـاهره مـن الاضـطراب المنقلـب، هـو فـى واقـع الأمـر أقـرب إلـى المفهـوم التكـاملى، أمـا مـا يظهـر علـى السطح من غرابة ورهبة يستشعرها الآخرون تجاهه، وماله من تأثير خاص يحدثـه فيهم ... الخ فقد يشير إلـى نـوع خـاص مـن الوجـود التكـاملى وإن لـم يكـن مكـتملا، لأن الاكتمـال عـادة مـا يخفـى هـذه المظـاهر المرحلية التى تظهر كمظهر جانبى على مسيرة النمو، وهذا يشير أيضا - مما لا مجال لتفصيله هنـا الآن - إلـى أن طريـق التكامـل والنـضج قـد يمـر بمحطـات يـنعكس فيهـا الوجـود مرحليـا ولكـن ليعـود فيتكامـل، لا ليستمر منعكسا شاذا إلى غير نهاية .. وهذا كله ليس موضوع اهتمامنا فى هذه المرحلة من الدراسة.

تنبيه

إن كل الأنواع التى سبق الاشارة إليها - بلا استثناء - قد تحدث كنتـاج لأزمـة ذهانيـة صـريحة مـن النـوع الفصامى بوجه خاص، وكأننا يمكن أن نعيد تقسيم كل هذه الأنواع تحت عنوانين منفصلين وهمـا "دون نوبة ذهان صريح" أو "عقب نوبة ذهانية" ثم تدرج سائر الأنواع هى هى تحت كل عنوان منهما.

المتن

الشخصية السيكوباتية

(١٦٧) القوة الزائفة فى السيكوباتى:

موقف السيكوباتى موقف خاص، ففى كل ما عرضنا من أمراض حتى المرض البارنوى، يبدو المريـضا مريـضا يـستحق الـشفقة، ولكـن الـسيكوباتى علـى العكـس مـن ذلـك يبـدو أنـه شـخص واثـق مـن نفسه، قـوى لايهمه شئ، مهاجم بلاترو، معتز بذاته على حساب الآخرين صراحة، حتى أن وصفه الأساسى يتم بألفـاظ أخلاقيـة مثـل الكـذب والنفـاق والأنانيـة والنذالـة إلـى آخـر هـذه القائمـة مـن الـسباب، وفـى نفـس الوقـت نقـل الأوصـاف الأعراضـية مثـل الاكتئـاب والهـلاوس والقلـق ... الـخ، وصـعوبة رؤيـة الـسيكوباتى مـن الـداخل صعوبة شديدة، وقد ذكرت فى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعى" (ص ٢٤٢) أنى لـم أتعـرف علـى مـشكلة هذا السلوك حقيقة إلا بعد فترة طويلة من خبرتى ومثابرتى مع المرضـى وصبرى عليهم ومحاولـة اقترابـى

رغم الحواجز الحكمية المسبقة، ذلك أن البحث فى أعماق السيكوباتى يحتاج إلى أمرين من الباحث أولا: أن يرى هذا الجزء هو ذاته وأن يقبله تدريجيا ليستطيع توجيهه والسيطرة عليه ثم استيعابه ولافيا، وثانيا: أن يصبر على طول سوء الفهم والإنكار الذى سيرفضه بهما السيكوباتى رفضا ملحا ومناورا.

ومشكلة السيكوباتى ليست فى ظاهر سلوكه بقدر ما هى فى ضعف كيانه الداخلى (الذات الداخلية) وتشوهه وعجزه، وإذا كان البارنوى قد حل هذه المشكلة بالتوجس والحذر والاقتراب مع وقف التنفيذ، وكان الفصامى قد حلها بالانسحاب العدمى والنكوص والتفكك، فإن السيكوباتى يحلها جزئيا بإطلاقها فجة منفرة متحدية، ثم بإخفاء ما تبقى منها بالاضافة إلى ماتيسر من السلوك الدمث العادى داخل أعماقة..، وفى قمة تحديه باللا أخلاق والتعدى والأنانية يمكن إذا أحسنا الانصات إلى عمق أعماقه .. يمكن أن نسمع صراخه .. "الست أنا .. لست أنا" .. هذا الذى ترونه لست أنا.

"لاتجزع منى

إذا لو أمعنت الرؤية

لوجدت الإنسان الضائع بين ضلوعى

طفلا أعزل"

(١٦٨) العدوان دفاع ضد الضعف:

وإذ يبدو متوحشا معتديا لاخلاق له فى ظاهر الصورة الكلينيكية يمكن للباحث أن يتبين أن هذا السلوك هو دفاع عن ذلك الضعف الداخلى، وفى نفس الوقت فإن هذا السلوك هو تفعيلActing out لمحتوى اللاشعور، بمعنى أن الذاتية والانفرادية وإلغاء الآخر بدلا من أن تكون قابعة فى اللاشعور فى الأحوال العادية تظهر فى السلوك بطريق غير مباشر، فإنها عند السيكوباتى تخرج فى سلوك يلبس شكل السواء مباشرة، ولكنه يحقق هذه الذاتية فى فعل معلن مباشر، وهذا ماعنيته فى التقديم العام "بالتركيب المعكوس"، ورغم هذا التفعيل الذى يطلق للأنانية العنان، والذى يسمح للعدوان بالظهور متحديا إلا أن الأمر ليس مجرد ردة إلى المراحل البدائية بقدر ما هو أسلوب دفاعى ضد الضعف الداخلى والهجوم الحقيقى والمتخيل من جانب العالم الخارجي.

"لا تتعجب، لست الوحش الكاسر والشعر الكث على جلدى هو درعى، يحمينى منكم"

(١٦٩) بصيرة السيكوباتى:

ويبدو موقف السيكوباتى من الداخل موقفا متحديا يريناما نحاول أن تخفيه فى أنفسنا عن أنفسنا، وإدراك هذه الحقيقة ابتداء يعتبر من أهم الخطوات الأولى التى تسمح لنا برؤية حقيقته، والسيكوباتى بوجه خاص يعرف السيكوباثولوجى ويتكلم بطريقة تقترب من الرؤية الذهانية والوعى الذهانى الذى سبق الإشارة إليهما (وعى يقظة - المجنون ص ٤٤، البصيرة الذهانية ص ٢٢٥ وما بعدها)، وكثيرا ما يخدع الفاحص والباحث فى هذه الرؤية التى تبدو صادقة وعميقة، وكثيرا ما تحاك القصص وتكتب الروايات عن هذه

الرؤية الأعمق، وكثيرا ما يقع الرواة والأدباء والمتأديون فى الإعلاء من شأن مثل هذه الرؤية، ومن شأن صاحبها حتى ليبدو السيكوباتى وكأنه البطل عميق النظرة العارف بالحقيقة، ومثل هذه الصورة هو ماقمت بتقديمة هنا حتى قال لى بعض طلبتى مباشرة"إنك تتعاطف مع السيكوباتى بشدة" بل إنى لاحظت أن أكبر صورة كانت تجذبهم فى المتن الشعرى كانت هذه الصورة التى تلوح فيها معالم ثورة على قيم الزيف وفى نفس الوقت ملامح صدق الرؤية الناقدة المتحدية، دون أن يلفت نظرهم ما بها من سلبية فى نهاية الأمر كما سيرد حالا، إذا ... فالسيكوباتى، رغم اتباعه لهذا الأسلوب اللاأخلاقى - إنما يدمغ الأخلاق المسطحة التى لم تثر وجوده الحقيقى، ولم ترض احتياجه الأعمق، وهو يحتمى صراحة بعدوانه وأنا نيتة من هذه الخدع الجارية على حد إدراكه، الأمر الذى لابد أن يوضع فى الاعتبار كوجهة نظر، إذ ليس معنى أن الشخص العادى يرضى بهذا المستوى من التواصل أن نقر ونعترف أن هذا المستوى المسطح هو الجرعة الكافية لإثراء وتغذية الوجود البشرى المعاصر، وصيحة السيكوباتى المحتجة - قولا أو سلوكا - على هذا الذى يجرى هى صيحة لها وجاهتها

"...

يحمينى منكم

من كذب الحب، من لغو الصدق

من سخف الحق".

وهو إذ يحتج على هذه القيم، لايعدل عنها، بل يتمادى فى تفعيلها تفعيلا سلوكيا مباشرا، وكأن لسان حاله يقول بسلوكه "هذا أنا ذا بيشاعتى أريكم ما هو أنتم فى خداع وجودكم" والكراهية والرفض التى يدمغ بها المجتمع السلوك السيكوباتى هى خوف ضمنى من كشف جوهر بعض الخدع التى يعيشها الفرد العادى، وعلى النقيض من ذلك، فإن إعلاء شأن ثورة السيكوباتى فى الأعمال الفنية أساسا، والأنشطة العدمية والشللية المنحرفة، هى الوجه الآخر لهذا الاحتجاج رغم عجزه وإشلاله.

فإعلان السيكوباتى رفضه لكذب الحب، ولهذا اللغو الذى يسمى صدقا، ولما يحوى ادعاء الحق من سف خداع، وهو إعلان من قبيل الألعاب النارية لأنه لا يعطى بديلا، وليس على السيكوباتى (مثله مثل الفنان) - بداهة - أن يعطى البديل، إلا أن الطب النفسى، وعلم السيكوباثولوجى خاصة لابد وأن يقوم هذه الرؤية <u>فى حجمها العلمى، وليس فى بريقها الفنى أوفى رفضها الأخلاقى</u> وحجمها العلمى يقول إنها رؤية صادقة ولكنها فاشلة وهى احتجاج له ما يبرره ولكنه يتم بطريقة تحطيمية عدوانية مرضية بالمقاييس الصحية البنائية، وبالرغم من أنه يقوم بالنيابة عن بعضنا بإعلان زيف هذه القيم بتفعيلها سلوكا منفردا رغم بريقه، فإنه يسهم فى رفض رؤيته لأنه يمثل الفشل مجسدا رغم صياحه بما هو صدق من خلالها.

وقد أفضت بعض الشئ فى شرح هذا الموقف لما يترتب عليه من موقف الفاحص الكلينيكى تجاه سلوك السيكوباتى، حيث أن الصورة الكلينيكية لاتظهر فى شكل أعراض محددة ولكن فى شكل سلوك لايمكن

فهمه، ومن ثم علاجه، دون تقويمة إيجابيا وسلبيا بأكبر قدر من الموضوعية، كذلك الحال فى فهم أبعاده السيكوباثولوجية ومبرراته الدوافعية، فالسيكوباتى عادة ما يعود باللائمة بشكل مفرط على المجتمع، والقوى الخارجية، والقوى القاهرة، والقوى الفوقية .. الخ، ونحن إذ نعرض هذه الصورة من وجهة نظر السيكوباتى إنما نعرض ضمنا أسباب سلوكه، ومهما اتفقنا معه - ولو جزئيا - فى الأسباب، فإن قبول الوسائل التى واجه بها هذه الأشياء هى التى تدرجه سيكوباتيا، أو ثائرا، أو فنانا .. الخ. فهو إذ يعلن للآخرين أنهم أهملوه فأثاروا عدوانيته إنما يبرر موقفه أساسا

"أنتم سبب ظهور الناب الجارح داخل فكى

أنتم أهملتم روحى

أذبلتم ورقى

فتساقط زهرى"

إذا فعدوان السيكوباتى يأتى من مصادر مختلفة، ويبدو فى أشكال متعددة، أما مصادره فيمكن تعدادها فيما يلى:

(ا) فرط الضعف الداخلى، فالعدوان هنا هو الغطاء الذى يخفى هذا الضعف

(ب) الحاجة الملحة إلى الآخر مع اليأس الشديد من إمكان تحقيق هذه الحاجة من واقع هذه الرؤية القاسية الصريحة.

(حـ) التفاعل للإهمال والترك، فهو "يفرض نفسه" من خلال عدوانه.

(د) الانتقام من الظلم (الحقيقى، أو المبالغ فيه، أو المتصور) الذى لقيه طفلا .. وكبيرا

(هـ) تأكيد الذات ... مع المبالغة فى الذاتوية المصاحب بعدم مراعاة الآخرين بأى صورة وبأى درجة.

أما أشكال العدوان فمنها السلبى: بالتخلى، والذاتوية، والإغفال، والإلغاء والطنبلة، ومنهما الإيجابى المباشر: بالايذاء والاعتداء على ما للغير، أو حريتهم، أو حتى حياتهم

(١٧٠) افتقار السيكوباتى الى مايدعم كينونته:

إن المشكلة السيكوباثولوجية فى هذا النمط - كما هى فى الفصام بوجه خاص - هو أن السيكوباتى منذ نشأته الأولى يفتقر إلى التغذية البيولوجية التى تسمح له بالنمو التلقائى الذاتى، فإن السيكوباتى عادة ينشأ فى بيئة تتصف بأقل درجة من الاعتراف كآخرين، وأكبر درجة من استعمال الآخرين كأشياء. وهذا يتم بوجه خاص حين يكون المجتمع عامة، ومجتمع الاسرة خاصة غير آمن بأى درجة كافية، الشخصية متوقفى النمو، وأخيرا حين تكون الأهداف التنافسية مستنفذه لكل المستقبل) غير موجود (بذاته) فى وعى الآخرين.

"هل تذكريا من تشكو الآن كيف لفظت وجودي"

الاستعمال السطحى للكيان الطفل: ومن أهم مظاهر "لفظ وجود الطفل والغاؤه" هو ما سبق أن ذكرنها فى الفصام (مع اختلاف النتاج) ص ٣٥٢، حيث أن الطفل فى هذه الظروف يقوم بأدوار كلها لاتتعلق بوجوده هو، بل بقيمتة المفترضة التابعة من احتياج الآخرين القريب وتعبير:

"كيف لصقت ضياعيك بى"

لايشير إلى عملية مباشرة، وإنما هو دال على أن الوجود المتجمد (ضد النامي) هو وجود ضائع لامحالة، وهو الوجود الغالب فى بيئة السيكوباتى (طفلا)، ونتاجه الطبيعى هو:

(ا) أن يقوم الطفل بنقيض الوجود الظاهر للوالدين (أو أحدهما) ومثال ذلك أن الوالد المتزمت خلقيا، المحبوس فكريا، المقهور اجتماعيا، يسقط داخله على طفله ليقوم عنه وله بالوجه الآخر مما لم يستطع هو تحقيقه، لذلك ترى أن عددا لا بأس به من السيكوباتيين يأتون من أسر متزمته، والتفسير السطحى لهذه الظاهرة هى أنهم يحتجون على هذا التزمت، فى حين أن التفسير الأعمق هو أن هذا السلوك النقيضى قد يكون الوجه الآخر المعبر عن "لاشعور" الوالد (مثلا) وقد يتم ذلك شعوريا تحت عناوين العطف والحنان والتعلق المفرط، وقد يتم لاشعوريا بالسماح الفعلى (دون القولى) لتثبيت عادات التسيب وعدم الالتزام ... الخ

(ب) قد يمثل الطفل مجرد أمل أطول عمرا لتحقيق كل ما حرم منه هو، فالوالد (أو الوالدة) الذى كتعويض مباشر لقهره الداخلى وخوفه المفرط من تكرار ذلك، وهنا ترتفع شعارات التربية الحديثة وما إليها لدرجة تحرم الطفل من معالم التعليم الأساسية، لالحساب انطلاق قدراته الفطرية، ولكن لحسابات والدية تعويضية، وبالتالى فهذا نوع آخر من الضياع من خلال إطلاق حرية طفلية "مستمرة" يدفع ثمنها الطفل بالتالى ضياعا من نوع آخر، عكسى فى الظاهر ولكنه مساو فى الواقع.

(جـ) بمجرد ظهور السلوك السيكوباتى (وهو يظهر كسلوك طبيعى - على فترات - أثناء النمو فى الطفولة) قد يوجه الوالد (أو الوالدة) الهجوم الحاد على هذا السلوك فى محاولة إخفاء جذوره داخل الوالد من ناحية، وفى محاولة تبرير شقائة وضياعه وخيبة أمله ... الخ، وهذا وذاك - طالما أنه يقوم بوظيفة لدى المهاجم - إنما يثبت هذا السلوك ويدعمه، وبدلا من أن يمر به الطفل كفترة عابرة وطبيعية، يتوقف عنده ويتكرر فى طبقيةStereotypy ثابتة.

والمعلملة مزدوجة الوثاقDouble bind تعد مسئولة عن هذا الاضطراب بنفس القدر التى تعتبر فيه مسئولة عن حدوث الفصام سواء بسواء، وفى حالة السيكوباتى نجد أن نوعا خاصا من المعاملة مزدوجة الوثاق هى المهيئة لتنمية السلوك السيكوباتى، ألا وهى المظهر الخلقى المتزمت فى ظاهر السلوك المواكب فى نفس الوقت لرسائل غير لفظية نابغة من اللاشعور، تدل على عكس ذلك تماما من تسيب، ولا أخلاق.

"هل تذكر كيف لبست قناع الوعظ والشيطان بداخلك يغنى ..."

الأمر الذى قد يظهر أحيانا فى السلوك الواعى فى جزئيات متفرقة غير مترابطة، ومن خلال استقبال الطفل الكلى لهذا التناقض المخلى بأى تناسق لازم للنمو يكون النتاج لا تناسق مقابل يظهر كما هو فى حالة الفصام، أو يرجح تفعيل الجانب اللا أخلاقى التسيبى كمهرب من - ودفاع ضد - هذا اللاتناسق السلوكى الفصامى المحتمل.

(١٧١، ١٧٢) تكوين السلوك السيكوباتى:

حتى الآن .. نلاحظ التشابه الشديد (بل التماثل) بين مشكلة الاهمال الكيانى، والضعف الداخلى وراء السلوك السيكوباتى، وبين مثيل ذلك عند الفصامى والبارنوى بوجه خاص، إلا أن كل من هذه الاضطرابات مختلف - كما ذكرنا - فى كيفية تناول هذه المشاكل الجوهرية الأساسية، والسيكوباتى يمر بنفس المراحل التى ذكرناها طوال هذه الدراسة بنفس التتالى الذى وصفنا مراحله أنتوجينيا، وهو يعيش المرحلة الشيزويدية بعنف أشد من الجرعة الطبيعية، سواء من حيث حقيقة وحجم الظروف التى تبررها، أم من ناحية استعداده لاستقبالها، فالجزء (الأنا) الناكص هنا - أو بتعبير بيولوجى: النشاط الساحب المنسحب - يشمل مساحة أكبر ويمارس جذبا أعمق

"لما عشت الوحدة والهجر

أغرانى الطفل الهارب بالغوص إلى جوف الكهف

وتهاوى القارب فى بحر الظلمة"

وفى حين يقنع الشيزويدى بهذا الانسحاب الذى يبدو ظاهرا فى السلوك.

وفى حين ينشطر الوجود وتنسحب أغلب الطاقة الضامة - مع الجزء الناكص مع آثار التفسخ فيما تبقى من معالم الشخصية - فى الفصام.

وفى حين يحاول البارنوى الخروج من هذا الجذب فى توجس إلى عالم الآخرين - مع الاحتفاظ بالمسافة الدائمة بينهم.

نجد أن السيكوباتى يرفض هذه الأساليب جميعا، أو بمعنى أدق يعجز عن الاستسلام لأى منها فهو، أعجز من الاستسلام الشيزويدى للوحدة

"لكن هناك كما تعلم يا صاحب سر اللعبة

موت بارد"

كما أنه لم يقبل أن يتفكك، ولم يكفه التوجس البارانوى والتلفت المضطهد.

(١٧٣) الحل بالتفعيل النكوصى

ومن خلال كل ذلك يواصل السيكوباتى نموه بشكل مقلوب، بمعنى أن هذه النزعات والقوى البدائية المهددة بالهرب وبالتوجس وبالتناثر، يسمح لها بالظهور فى السلوك شبه السوى، فالانسحاب يتحقق بالذاتية المطلقة، والموقف البارنوى يمتصه العدوان بصورتيه السلبية والايجابية، والتفسخ ينوب عنه

التركيز على "الآن" بحيث تنفصل كل لحظة عن اللحظة التى تليها بدلا من أن ينفصل جزء ما من الشخصية عن جزء آخر ومن هذا الوجود المعكوس نستطيع أن نتتبع جذور النكوص الفيلوجينى المقابل للنكوص الأنتوجينى، وهذا النكوص - كما أوضحنا - لابد وأن ويؤخذ بمحدوديته الزمزية حتى تتقدم وسائل الدراسة المقارنة، ولكن المهم هنا صفات بدائية - أشبه ما تكون حيوانية - ونحن لانطلق اسم الحيوان على الانسان تحقيرا للحيوان فى ذاته، فالحيوان فى تكامله ودفاعه عن نوعه وبقائه لايدمغ بالصفات الخلقية التى يتداولها الانسان فيما بين أفراده، وإنما يعتبر السلوك الحيوانى صفة بدائية مرفوضة بدلالته النكوصية فى الانسان، فنكوص السيكوباثى يحمل معالم التعامل الحسى البدائى المباشر بما فيه من انتقاص لإرادة واختيار الانسان.

أى قدرته على التأجيل والانتقاء بين البدائل، فهو سلوك فج منعكس آنى لذى لا أكثر ولا أقل، وكل الصفات الواردة فى المتن إنما ترمز إلى بعض معالم السلوك يلجأ إليه السيكوباتى، ومن ناحية أخرى تشير إلى صدق رؤيته (الموقوفة التنفيذ) لما اضطره إلى ذلك، مثل تبرير النكوص عامة بصعوبة التواجد وسط هذا الكم الهائل المتزاحم المتنافس من الناس

"فطفقت أجمع قوة أجدادى

من بين خلاياى

حتى أخرج وسط البحر المتلاطم بالكتل البشرية

حتى أجد طريقى الصعب"

وكذلك فإن السلوك السكوباتى قد يتصف بمجموعة من الصفات الت يرمز لها حذر "النمر" وغدره وفجائيته، ومناورات الثعلب وروغانه، وتلفت الحرباء والحية وتلونهما، وتلمس وسائل الاتهازية فى العلاقات النفعية .. وهكذا

"واستيقظ فى ابن العم النمر

ولبست عيون الثعلب

ونمت فى جلدى بعض خلايا بصيرية

مثل الحرباء أو الحية

وبدأت أعامل عالمكم

بالوحش الكامن فى نفسى

أرسلت زوائد شعرية

مثل الصرصور أو الخنفس

أتحس ملمس سادتنا"

(١٧٤) السيكوباتية دفاع ضد الذهان بانواعه:

ثم يعود السيكوباتى يبرر كل هذا النكوص والصفات الحيوانية البدائية يخلو عالمه من أى علاقة تسمح للاخر بالحركة الذاتية فهى إما لزجة أى ملتصقه به تثلل حركته هو

"ووجدت سطو حكمو لزجة

تلتصق بمن يدنو منها"

أو هى علاقة سريعة غير ذات معنى يسمح لها بالاستمرار حتى الإفادة التى تسمح بالنمو

"أو ملساء،

تنزلق عليها الأشياء"

فهو لايستقبل من العلاقات القائمة إلا تهديدها وألمها

وتصبح بذلك كل تفاعلاته دفاعية ضد كل هذه المواقف المهددة، وفى نفس الوقت دفاعية ضد الأمراض الأعمق (الفصام والبارانويا بوجه خاص)

"هربا من هربى ..

... ... وشكوكي"

وكذلك فإن السيكوباتى يتجنب بوجه خاص مشاعر الاكتئاب الحقيقي

"هربا من همى و ...."

ذلك أن الاكتئاب شعور أقسى، وهو لكى يظهر - كما ذكرنا - يحتاج إلى الأمل فى تواجد "آخر" وفى نفس الوقت احتمال التهديد باختفاء هذا "الآخر"، والسيكوباتى ليس عنده هذا أو ذاك، ولذلك فإن الاكتئاب مرفوض قبل ظهوره.

وقد لاحظت فى خبرة العلاج النفسى الجمعى أن السيكوباتى قد يتناوب سلوكه بين الهرب والعدوان والمناورة والسلوك اللا أخلاقي، ولكنه يستمر فى التردد للعلاج بشكل أو بآخر، إلا أنه بمجرد أن ينمى علاقته بالآخر إلى أى درجة .. يبدأ التهديد بالألم الحقيقى المسمى "الاكتئاب" فى الظهور.

فالموقف السيكوباتى باختصار هو حل دفاعى تفعيلى ضد كل المخاطر الخارجية (خيالا أو حقيقة) والمخاطر الداخلية (الانسحاب - الفصام - والتوجس والخوف - البارانويا - والألم النفسى - والعلاقات المهددة - الاكتئاب) والحديث عن السلوك السيكوباتى كمكافئ للذهان إنما يشير إلى هذا البعد الدفاعي بقدر ما يشير إلى البعد الغائى الذى أشرنا إليه سابقا قائلين أنه يحقق أهداف الذهان، ولكن باستعمال أسلوب شبه سوى فهو سلوك ناجح مظهريا ضد هذه الاحتمالات الذهانية المتربصة

(١٧٥، ١٧٦) سلوك السيكوباتى اللا اخلاقى وتبريراته

والسيكوباتى لا يخفى عن نفسه سلوكه اللا أخلاقى عادة، بل هو يدرك أغلبه، ويمارسه بوعى شبه كامل ويبرره فى كثير من الأحيان، وهذا السلوك اللاأخلاقى ليس مرادفا للجريمة على كل حال، إذ يجب التنبيه ابتداء على أنه ليس كل مجرم سيكوباتى وليس كل سيكوباتى مجرما بمعنى أنه يقع تحت طائلة القانون.

والسرقة عند السيكوباتى قد تأخذ أشكالا متعددة، من أصغر التهاونات (مثل المراوغة والتهرب من دفع حق الدولة والآخرين) إلى الغش إلى النصب صعب الاكتشاف، إلى السرقة المباشرة الصريحة، والسيكوباتى يعتقد - حقا أو تبريرا - أن الفرق بينه وبين أى آخر مدعى الخلق أنه يسمى سرقته سرقة، أو أنه يأتى من السرقات ما يمكن أن يعتبر بالمقاييس المسائدة سرقة، رغم أن هناك من وجهة نظره - حقا أو تبريرا - سرقات أكبر وأخطر لا يلقى أحد لها بالا لأنها تحدث (ا) من أغلب الناس سواء بسوا (ب) من أهل السلطة والقوة (حـ) بطريقة أكثر خفاء وأكثر بعدا عن تناول القوانين (د) باتفاق بين الأطراف على تحديد مناطق (هـ) باتفاق مع المجتمع أو السلطة على التغاضى عنها لصالح فئة خاصة أو معاملات خاصة أو مرحلة خاصة-

وكل هذه الشروط التى تجعل السرقة العادية ليست سرقة لابد وأن تتم (أو عادة ماتتم) بعيدا عن وعى أصحابها، وبالتالى يتحمسون فى اتهامه والحكم عليه ودمغه وحده دون أنفسهم

"وسرقت

لاتتهمونى ياسادة

لم أفعل رلا ما يفعله الساسة

أو أصحاب المال الكاسح

أو من حذقوا سر المهنه"

وعلى الرغم من أن كل هذه التبريرات - أو وجهات النظر - قد يكون لها مايؤيدها حقا وصدقا، فإن موقف السيكوباتى منها هو موقف حكمى تبريرى أساسا، وقد يكون له فاعلية إن هو اقترن بالرفض المسئول ولم يقف عند مرحلة التبرير الخاص، وهو نفس موقف الشيزويدى مع فارق قد يرى هذا الموقف الذى يمكن أن نسميه "السرقة العمومية" ويحكم عليه ويدمغه بالانسحاب الكامل منه ومن غيره أو قد يلجأ إلى أسلوب آخر وهو ألا يلجأ إلا إلى السرقة التى لايمكن هو ذاته أن يراها فى نفسه، أو بألفاظ أخرى هو يسرق مستعملا دفاعات أعمق هو ذاته أن يراها فى نفسه، أو بألفاظ أخرى هو يسرق مستعملا دفاعات أعمق وأكثر التواء، أما السيكوباتى فهو يعلم ما يفعل ويكتفى بالعلم .. بل ويطلق سهام قذائفه على الجميع.

الكذب:

وكذب السيكوباتى عادة مصحوب بالسعى إلى مكسب بذاته، وهو يكذب عن وعى وإرادة وتقرير، وقد يحصل على المكسب أولا يحصل ولكن قصد المكسب يكون موجودا لا محالة منذ البداية، وهذا يختلف عن الكذب المرضى الذى قد يصل إلى درجة الكذب للكذب إن صح القول، والذى ينشأ كنتاج جانبى ومتواصل لخيال مفرط مبالغ، والسيكوباتى - مثلما كان الحال فى السرقة - يعرف أنه يكذب تمام المعرفة، وهو يكاد يكرر نفس الموقف "الناقد" "التبريري" فى نفس الوقت إذ هو يرى أن الفرق بينه وبين الآخرين - الأسوياء - هو أنه يعلم ما يفعل ويكاد يقر بما فيه، أما الآخرون من وجهة نظره - حقا أو تبريرا - فهم

يكذبون دون أن يعلموا وبالتالى يكون أثرهم على الآخرين شديدا ومضاعفا، ومطالبة السيكوباتى الآخرين بقيم مطلقة لاشك يبرر له أفعاله وموقفه، ولكنه فى نفس الوقت يعلن عمق رؤيته لنفسه وللاخرين، والتبرير هنا شديد القسوة لأنه يهاجم أى علاقة سطحية باعتبار أن العمق يرفضها ويعلن كذبها، فهو يهاجم الزواج كمثال لصفقة غير متكافئة يخفى كل شريك فيها نوايا استغلال شريكه على اعتبار أنه يرفع شعارات عاطفية أو أخلاقية؛ ولكن السيكوباتى ينسى أو يتناسى ما يحويه هذا التنظيم الاجتماعى الاضطرارى من احترام مرحلة تطور الانسان وتطلبات نمو الأطفال، وهو يهاجم أى معلومه حتى فى مجال العلم لاتدل على حقيقة ما تشير إليه من محتوى، والبحث العلمى بالذات .. وهو من أرقى مسئوليات أعلى الطبقات الفكرية فى المجتمع البشرى، إذا مارآء السيكوباتى أو غيره مرتعا لعدم الأمانه أى للكذب .. بدا ذلك له مبررا بلا حدود، لكل ما هو دون ذلك من أكاذيب، وهذه الرؤية التى يبرر بها السيكوباتى أفعاله ليست رؤية خاصة تبريرية على إطلاقها إنما هى فى واقع الحال رؤية لها ما يدعمها من المقاييس الأخلاقية، إلا أنه يستعملها ولتحقيق ملذاته لا أكثر ولا أقل

"وكذبت

لاتتعجل فى حكمك

ولينظر أى منكم فى أوراقه

فى عقد زواج

أو بحث علمى يترقى به

أو ينظر داخل نفسه

إن كان أصيب ببعض الحكمة

وليخبرنى

هل أنى وحدى الكذاب"

وهو يتحدى من موقفة هذا أى إنسان يعمق وعيه وتمتد بصيرته ليرى فى داخله التناقض الذى يدمغ أغلب أفعاله الظاهره ويخرج من كل هذا بتبرير استمراره فى كذبه مادام أنه ليس وحده الكذاب

لابد لنا من إعادة وقفة أمام رؤية السيكوباتى هذه، تلك العميقة لذاته وللآخرين، فهذه الرؤية بوجه خاص هى التى تجعل للسيكوباتى سحره، تجعله ومادة ثرية للأدب الروائى خاصة، كما صورته أحيانا كثيرة كبطل سياسى أو ثائر اجتماعى، وكل ذلك يستدر جنا إلى الوظيفة الإيجابية للسلوك السيكوباتى باعتباره الأطروحة المضادة Antithesis ، إذ لابد وأن يثير من خلال مواجهته للأطروحة محاولة ولاف قد تنجح أو تفشل بقدر تناسبها مع مرحلة نمو والمجتمع، ولعل هذا الموقف الايجابى المحدود بالإضافة إلى هذه الرؤية المخترقة التى لاتخلو من صدق، هو الذى حدا ببعض الثقات فى تصنيف المرض النفس إلى إدخال تصنيف اسمه "السيكوباتى الخلاق" Creative Psychopath وإن كنت أحب أن أميز فى عجالة دون

تفصيل إلى أن هناك لتفرق بين إبداع وإبداع، فهناك الإبداع الفنى الإبد إلى The artistic creation وهناك الإبداع الخالقى المسئول The responsible caeative creation والأول تكون فيه الرؤية عميقة وثرية وقريبة قربا هلائلا من رؤية السيكوباتى، إلا أن الفنان هنا يستطيع - كما ذكرنا - أن يترجمها إلى فن يكتب ويقرأ أو يستعمل أى أداة فنية أخرى، وفى هذه الحالة قد يكون الفنان منفصلا عن فنه إلا فى لحظة إبداعه، وفى هذه الحالة أيضا يكون الفن بديلا - كما ذكرنا - عن الحياة، للشخص ذاته، ولكنه يؤدى وظيفته الإيجابية للآخرين، أما الإبداع الخالقى المسئول فقد يكون أقل بهرا للمستمتع إلا أنه أكثر تناسبا مع وجود صاحبه من ناحية، ومع مرحلة مجتمعه من ناحية أخرى ...

ويمكن أن نصيغ الناشئ من درجة التبايين بين الرؤية، والفن، والخلق، كالتالي:

(ا) السيكوباتى = رؤية صادقة + أداة فنية عاجزة + وجود شخصى ضائع ضار مغترب.

(ب) الفنان = رؤية صادقة + أداة فنية قادرة + وجود شخصى مغترب فى كثير من الأحيان

(جـ) الخالق = رؤية صادفة + أداة فنية (وعملية) قادرة + وجود شخصى موضوعي

ونلاحظ من هذا التقسيم كيف تتفق الرؤية فى الأحوال الثلاث فى حين يختلف نتاجها فى كل حالة.

(١٧٧) السيكوباتى واللذة:

تذهب بعض تفسيرات السلوك السيكوباتى إلى أنه وجود يرجح فيه انتصار مبدأ اللذه على مبدأ الواقع، ولكن هذا التفسير - رغم صحته من حيث المبدأ - لايمثل إلاجزءا من كل أشمل، وهو تفسير مسطح إذا اقتصر على هذه المقولة، نبا لرغم من أن سلوك السيكوباتى تحكمة اللذه العاجلة، إلا أن لذته غير مشبعة إذ سرعان ما تثير فيه جوعا أكبر إليها، فالسيكوباتى يلف حول نفسه متوهما التلذذ وهو لايزيد إلا بعدا عن ذاته وعن الارتواء.

ومن معالم موقف السيكوباتى تجاه اللذة أنه يتعجلها وبأى ممن

"وتعجلت اللذة"

(١٧٨، ١٧٩) السيكوباتى والزمن

ووراء هذه العجلة درجة هائلة من عدم الأمان تجعله غير واثق بأى درجة من احتمال بقائه أو عودة فرص مماثلة وأفضل، فتقديسه للآن ليس تعميقا للحظة الحاضرة، ولكنه عدم ثقة باللحظة القادمة، وبهذا فإن أى تأجيل يمثل له خطر العدم ذاته، وقد سبق أن أشرنا كيف يمكن أن يكون التركيز على "الآن" نوعا من إلغاء المسئولية (ص ٣٩) كما أشرنا كيف يختفى بعد الزمان ويضعف إدراكه كظاهرة متلاحقة عند الهوسى (ص٢٣٤)، كما أشرنا إلى ظاهرة توقف الزمن عند الفصامى، وهنا يجدر بنا أن نقف قليلا لتفسير هذا الإلغاء للزمن عند السيكوباتى فأرجعه إلى عدة عوامل كما لاحظتها من خبرتى الكلينيكية:

(ا) إن السيكوباتى يشعر أن أحداث الزمن الماضى "قد خانته وخدعته"، فهى لم تثر وجوده ولم تشبع احتياجه، وذلك بال ذنب جناه، ولكن لأنهم استعملوه لغير حسابه، وكأن الزمن هو حقه لأنه حياته، فإذا لم

يعشه ويثرى منه بحقه البسيط مادام قد جاء إلى هذه الدنيا إنسانا، فإنه يشعر أن أحدا سرقه، أو "أنهم" (الآخرين بصفة عامة) قد اغتالوا زمنه، وأول ما انتبهت إلى هذه الظاهرة حين سألت أحدهم عن طفولته فأجاب لتوه: ليس لى طفولة .. أخذوها من ورائى.

(ب) إنه يشعر بعدم الأمان المطلق، فهو يتصور أن انتظاره سيحرمه من العصفور فى يده الآن، حتى ولو كان هناك مائة على الشجر، فهو يغتال غده فى مقابل اغتيالهم أمسه

"فكما اغتلتم أمسى ألغيت غدى"

(جـ) إن وجوده المستعرض ينتهى عند حدود ذاته، ووجوده الطولى ينتهى أيضا عند لحظة آنه، وهذا يغذى ذاك وبالعكس، فبيما يشعر أنه ليس له امتداد فى أى اتجاه نتيجة لأنانيتة المطلقة وتحوصله الخائف، فلا امتدادله فى الطول كذلك، والامتداد الطولى هو البعد الزمنى.

(د) إن السيكوباتى لايستطيع أن يتحمل أدنى قدر من المسئولية، وبما أن الحياة فى بعد زمنى تتطلب بداهة ومباشرة تحمل قدر من المسئولية يتناسب طرديا مع مساحة الزمن الذى تمتد فيه حياته وإدراكه لذلك، فإن السيكوباتى يسقط الزمن من حسابه مع إسقاط مسئوليته كلية ونهائيا.

(١٨٠) السيكوباتى والجنس

وأشكال اللذة اللحظية تأخذ أى مظهر من مظاهر الاستغراق فى الوقتى فى نهم بدائى لايروى ولايغنى، ومن أهم أواع هذه اللذة العاجلة، اللذة الجنسية، والسيكوباتى بصفة عامة يبدو ناجحا بوجه خاص فى علاقاته الغرامية بما يصاحبها من نجاحات جنسية تختلف صورها، وهو لاشك له من مقومات سمات وجوده ما يؤهله لمثل هذا النجاح، فهو يحمل (ا) إغراءات إشراقة الطفولة غير المسئولة، (ب) وجسارة اللامبالاة، (جـ) وعنف الاندفاع بأقل درجة من الحسابات، (د) كما أنه يخاطب الغرائز مباشرة لأن وجوده معكوس كما ذكرنا، وبتعبير رمزى إنه يعيش بغرائزه على السطح، وبهذا يستطيع أن يخاطب ويثير الغرائز المقابلة فى رفيقه أو فريسته بسهولة ويسر، (د) ثم إن إعلانه لمبدأ اللذة يثير المقابل فى الآخر ويغريه باحتمال تحقيقة تحقيقا شبقيا حافلا، (هـ) وكذلك فإن تركيزه على "الآن" يجعل تصرفاته أعمق وبالتالى أكثر اختراقا، (و) ثم إن حاجته الصريحة للآخر وللعودة إلى الاحتماء به واحتوائه باندفاع وجودى غير محسوب يجعل سلوكه الغرامى والجنسى مدفوع بغرائز بقائية نابعة من فرط عدم أمانه (ز) كما أن اختفاء الواعز المانع من استعمال الآخرين مع استسهال الكذب وسهولة التبرير يسهلان له مهمته (ح) وأخيرا فإن إحياء علاقتة بجسده يجعله أكثر حيوية وحيوانية ولو لفترة موقوته

"واللذة عندى تعنى كل وجودى

هذا قانون الأجداد

تلتصق بنصف آخر تبقى"

فالغريزة الجنسية واندفاعاتها الناجحة عند السيكوباتى موضوع يعلن "وجوده العكوس"، ونكوصه البدائى، ولا أمانه المفرط.

(١٨١، ١٨٢) اعلاء قيمة الجسد ... عند السيكوباتى:

إن ظهور الوعى عند الانسان، وتطور التفكير الرمزى إلى غايته القصوى، جعل إنسان العصر ينفصل عن جسده بشكل متزايد حتى كاد يصبح الوجود السوى هو أن يعيش الانسان فى "جسد متخيل" لافى "جسد حقيقي"، والسيكوباتى يتسعيد علاقته بالجسد نكوصا لاتكاملا، فالجسد عنده هو مركز اللذة وغاية الوجود، بل ربم يصل الأمر أن يكون هو الوجود ذاته، وهو يعلن رفض الانشقاق والاغتراب والتسامى أو ادعاء التسامى مما يسمى أحيانا الحب الروحى أو الحب العذرى، وهو يبدو لذلك - فنيا - أكثر صدقا وصراحة، فهو يرفض فصل الروح عن الجسد باعتبار الجسد هو الثورة وهو الأصل، ويقلب الأوضاع قصدا ويعيد تسمية الأمور بطريقته الخاصة، فالدعارة عنده هى أن يستعمل اللفظ خداعا لا أن يباع الجسد ويشترى، والردة الحيوانية عنده هى الاغتراب عن الجسد لا إحياء النزعات الجسدية وتقديسها

"وكلامكمو المعسول عن العذرية

وعن الحب الأسمى

وهو يخفى ردتكم للحيوان الأعمى

ياسادة:

ماذا يتبقى إن فصلت روحى عن جسدى الثائر

ياسادة:

لم تختبئون وراء اللفظ الداعر"

وهكذا يثير قضية موازية لانقطاع امتداد ذاته إلى الآخرين، كم أثار قضية نقطاع امتداده الطولى فى البعد الزمنى، فهو هنا يعلن انقطاع نشاط الجسد الحيوى المباشر عن امتداد نشاطه عبر حدوده فيما يسمى بالروح، وهذا الانقطاع الشامل للأبعاد المختلفة هو تأكيد جديد على طبيعة وجوده الذاتية اللاغية لك ماعداها.

(١٨٣) الممارسة الشاذة:

وقد يمارس السيكوباتى - محتميا بكل هذا الهجوم والتبرير والرؤية التى تحمل معالم الصدق دون مسئوليته، قد يمارس كل أنواع الشذوذ دون تمييز بما فى ذلك الشذوذ الجنسى وهو يحتج لذلك مرة ثانية بضياعه طفلا تحت عنوان حب لم يثر وجوده ولم يقرر أحقيته فى الحياة

"إذ لو صدق الزعم

فلماذا أترك هملا

أين الحب المزعوم، إذا لم ينقذ روحى طفلا"

(١٨٣) وقاحة السيكوباتى وصراحته:

وهو عادة لايخفى سلوكه، إما لأنه لايستطيع، أو لأنه لايهتم، لا بصورته أمام الناس، ولا بالناس.

"لا .. لا .. لا ... حسبكمو

فلأرو خلايا جسدى بالجنس

وتقولون الحيوان تلمظ

وأقول نعم

فوجودى يعنى امرأة ترغبنى

أو حتى رجل يلصق بى"

(١٨٤) سلوك السيكوباتى سلوك تعويضى

من كل ذلك يبدو لنا السيكوباتى كمشكل حقيقى لما يحمل نوع وجوده من تناقضات متنافره (رؤية صادقة، ونكوص حيوانى، ولذة غير مسئولة، وصراحة وفحة .. ووحدة قاسية واحتياج طفلى .. الخ) وكذلك بشأن الدوافع التى ألجأته إلى كل ذلك.

ونلاحظ من كل ما تقدم أن الدافع الجوهرى هو إهماله ابتداء، ثم تدريبه على تسيب بلا رادع أو استعماله كمسقط للاشعور بيئة متزمته، وأخيراجو هائل من اللا أمان يغلف كل كينه ... الأمر الذى يبرر ويفسر هذا التحدى اللامبالى

"لاتنزعجوا

فخلايا جسدى تعرف لغة الحس

وجنابكمو .... أهملتم حسى وكيانى"

(١٨٥،١٨٦) السيكوباتى والذهان:

ذكرنا منذ البداية، وبصفة عامة بالنسبة لاضطرابات الشخصية

وخاصة النمطى منها والانعكاسى، كيف أنها مكافئة للذهان بمعنى أنها تحقق أغراضه ولكن باللغة العادية، وهنا تفصيل خاص بالسيكوباتى، "فالمكافئ" (كذلك) كما سبق أن ذكرنا أيضا ص ٣٤٣ يطلق على ما يؤدى وظيفة، أو يدافع ضد، ظهور مرض أعمق (عادة أخطر)، والشخصية السيكوباتيه ينطبق عليها الوصفان معا، فالسيكوباتى مكافئ للذهان غائيا، ومكافئ للذهان بديلا، والواقع أن السلوك السيكوباتى بوجه خاص يحمى صاحبه بشكل ما من مواجهة الإحساس بالإهمال والترك والاستعمال الأعمى، وكذلك هو دفاع مباشر ضد التفسخ والتناثر وفقد التحكم، والاختيار السيكوباثولوجى هنا يكون بين هذين التهديدين معا بديلهما من سلوك سيكوباتى صريح، هذا بالاضافة إلى ماذ كرنا (ص٤٩٢) كيف أن السلوك السيكوباتى ("هربا من هربى .. هربا من همى وشكوكي") أما هنا فتأكيد جديد لنفس الفكرة من بعد آخر

"كان على أن أختار:

إما أن أمضى وحدى فى ذلك الهجر

أو خطر ذهاب العقل..

أو أن أطلق نارى

أسرق حق وجودى

أمحو الدنيا إلا ذاتى"

(١٨٧) فشل الحل السيكوباتى واحتمال العودة:

تعودنا فى هذه الدراسة إلى أن نذكر فى بعض ما جاء فيها من أمراض واضطرابات كيف أن الحل المرضى فاشل لا محالة، وأننا إذا كنا قد بررنا ظهوره واعتبرناه نوعا من الاختيار المحتج، أو أنه وجهة نظر، فقد أظهرنا كيف أن هذا الاختيار هو اختيار الأفشل، وأن بجواره وملاحم له دائما اختيار كيف أن هذا الاختيار هو اختيار الأفشل، وأن بجواره وملاحم له دائما اختيار مضاد هو اختيار إفشاله، وهذه هى نقطة البداية فى كل العلاجات الحقيقية وبدونها لا يمكن الأمل فى أدنى علاج ذى معنى وفائدة، ونذكر هنا كأمثله وعى الهوسى بحقيقة وحدته رغم مظاهر علاقاته الاحتوائية، ثم رحلة عودته نتيجة لذلك "الوحدة! يامر الوحدة، الوحدة موت حتى لو كنت إله"، ثم نذكر وعى البارنوى الأعمق فى شكل تساؤله الرافض "لكن بالله عليكم ماذا يغرينى فى جوف الكهف، وصقيع الوحدة يعنى الموت؟" ثم نذكر حتى صرخة الفصامى "هل أطمع يوما أن يسمع لى، هلى يسمح لى ... الخ"

إذا فكل ذلك يشير لا محالة إلى العمق التالى لاختيار المرض، وهو اختيار الصحة، وكأننا نريد أن نؤكد مباشرة فرضا يعرفه كل معالج جاد متفائل يجرؤ أن يسير غور العمق تلو العمق: هذا الفرض يقول "إنه إذا كان المريض يختار مرضه فى طبقة معينة من ذاته، فإن طبقة أعمق وأقوى تختار التخلص من هذا المرض بشكل لاجدال فيه" ومن المعروف كلينيكيا أن السلوك السيكوباتى يقل بتقدم المضطرب فى العمر، فهو سلوك منشق رغم ظاهره العميق، ورؤية السيكوباتى رؤية وقف التنفيذ مما يؤكد فشلها وطبيعتها التبريرية والانشقاقية، الأمر الذى يقصر من عمرها لامحالة، كما أن حيوية السيكوباتى بنكوصه تبعده عن استمرار النجاح لأنها منشقة أيضا، فهو إذ أحيا نبض جسده مثلا أحياه بديلا، فقد عن علاقات أكمل وليس تحقيقا لتكامل أشمل، ولذلك سرعان ما يفشل هذا الجسد فى الوفاء بكل ما يطلب منه لملء احتياج الإنسان فى تكامله الشامل، فالسيكوباتى ينتقص من قدراته الاندفاعية باستهلاكها الأعمق بلا ارتواء، فإذا قلنا التشبيه قلنا كمثال "إن السيكوباتى الدون جوان - مثلا - سرعان ما تفرغ بطارياته (إذ هو قد أفسد مولد نموه من قديم) وبعدها يلقى فى حجرة الحزين (الكرار) بعد أن كان زينة صالون الغرام (مثلا) " ومع هذا الإنهاك والفشل، قد يمر السيكوباتى بخبرة ذهانية صريحة، كاملة أو مصغرة، وقد يصاحبها شعور باختلال الإنية وتغير نوع الإدراك، وهذه الخبرة قد يعقبها تكيف إلى أعلى بعد أن أنهك

التكيف الأدنى، وقد يصاحب تلك الخبرة وعى آخر يعلن له فشله الصريح وأنه هو الخاسر بعد كل ما كان، وما يجرى، وقد يدرك أن وضع اللوم على الآخرين الذين أهملوه وأضاعوه لم يفده فى واقع الأمر ولم يعد عليه إلا بضياع أكثر وتحطيم أشد

"لم أحبس نفسى فى قفص التهمة

لأدافع عن ذنبكمو أنتم

عن تهمة كونى بينكمو وحدى

وضياعكمو أصل ضياعى؟"

فهو بهذا الحل السيكوباتى إنما يشوه كيان شخصيته وكأنه يهدمها على نفسه وعلى من تصور أنهم أعداؤه .. والخاسر - بالمعنى الانسانى - فى أغلب الأحوال إنما هو السيكوباتى نفسه فى أغلب الأحوال.

ولعل من أهم خبرات العلاج النفسى والعلاج الجمعى خاصة هو ما يترتب على خبرة مواجهة السيكوباتى بفشله الانسانى، الأمر الذى يترتب عليه عادة موجات من العدوان أو الاكتئاب يعقبهما - إن احتملهما بدرجة كافية - تلك الخبرة الذهانية المصغرة التى قد تعلن بداية التراجع أى بداية التقدم.

(١٨٨) معنى فشل السيكوباتى:

تعتبر قيمة النجاح والفشل من أصعب القيم تحديدا، إذ لابد أن ندخل فيها طبيعة المقاييس التى يقاس بها الفشل أو النجاح وكذلك مداه ومدته وآهاره ونوعه ... الخ.

(ا) والسيكوباتى قد يعتبر أنه نجح فى أن يتجنب أعراض الجنون ولكن ليمارس الجنون ذاته فى سلوك شبه سوى أخفى وأخطر وأدنى.

(ب) والسيكوباتى قد يعتبر أنه نجح فى علاقاته الغرامية أو الجنسية الموقوتة المعطلة قصيرة الأجل فى العادة، ثم ليعانى الترك والرفض بمجرد أن يفقد لمعانه، ثم ليلقى فى جب الوحدة الصريحة من جديد

(حـ) والسيكوباتى قد يعتبر أنه نجح فى ما جمع من مال وعدده، ولكنه يفشل فى أن يجعل من ماله هذا وسيلة لنموه أو إسعاد الآخرين حتى بمنطق اللذة البحته، لأن عدم الأمان الذى يعيش فى قرارة نفسه يحرمه من أى تقدير لقوة هذا الذى جمعه وكذلك لإدراك حقيقة جدواه وإمكان توجيهه.

ويمكن أن نعدد كل ما يظهر وكأنه نجاحات، لنتعمق فيها قليلا بمقياس النمو والتكامل الانسانى لنجد الخسارة لاجدال فيها مهما طال الزمن.

وحين يدرك السيكوباتى ذلك، يكون الوقت قد مضى ولايبقى إلا الإنهاك والعجز، وأغلب السيكوباتيين فى هذه المرحلة يختلف نوع وجودهم أو طبيعة أعراضهم، ولكنهم لايتغيرون إلى أفضل إلا نادرا وفى ظروف خاصة وعنيفة تعرضهم لإعلان الفشل ومغامرة عدم التوازن مرحليا ثم إعادة التأهيل، والرؤية هنا هى رؤية من داخل السيكوباتى وليت حقيقة مشاعره بعد الفشل (إلا فى النادر تحت ظروف العلاج أو ظروف الضغوط فى جو ملائم) فهو يدرك - من داخل - أن هذا النجاح الذى حققه ليس سوى نجاح

استمرار عدة أجهزة للعمل بكفاءة حيوانية، أو حتى نباتية، لفترة محدودة، ذلك أنه نجح أن يمنع التناثر ويحقق الاستمرار الآلى، ولكنه أبدا لم يحقق أى درجة من الوجود البشرى بمعنى الوعى الممتد والمسيرة المتصلة.

"قد أنجح أن أبقى

أن يدفع قلبى الدم

أن تطحن أمعائى ما يلقى فيها

أو يقذف جسدى اللذه

لكن أن أحيا إنسانا؟

هذا شئ آخر"

إذا فصحوة السيكوباتى تعلن بمجرد تغير المقاييس التى يحكم بها على النجاح والفشل، فهو ناجح طالما النجاح هو"الشطارة للشطارة"، و"الكذب للوصول"، و"الاغراء للاستغلال"، و"الاعتماد للامتصاص"، و"الإلغاء للراحة"، و"الطنبلة للتغافل"، و "الجنس للجنس"، و"الغش لاختصار الطريق"، و"التبرير للاستمرار" "والزعامة للتصفيق" و"الكرس للوهج" الخ ... الخ، ولكن بمجرد أن يعيد تقييم موقفه بمقاييس أخرى للنجاح، مقاييس تسمى أحيانا "إنسانية" لابدو أن يواجه مرارة فشله، وهو إما أن يلغيها ويطرحها جانبا ويستمر فى التبرير لمظاهر الفشل أيضا ملقيا اللوم فى معظم الأحوال على الآخرين، وإما أن يمر بخبرة كيانية جديدة تسمح له بإعادة تنظيم ذاته حتى ولو كان العمر قد تأخر به

ومن أهم مظاهر الفشل التى تصيب السيكوباتى بعد منتصف العمر ضروب مختلفة من الاكتئاب، وكذلك من العجز، على أن الاكتئاب يكون عاده من النوع الطفيلى واللزج والنعاب، ونادر اما يكون من نوع المواجهة والألم الموقظ، أما مظاهر العجز فقد تظهر فى مجالات الجنس فيشكو الرجل من العنه والمرأة من البرود الجنسى، وقد يشكو من الشعور بالاضطهاد والظلم بعد أن تكون أساليب شطارته قد أنهكت، وهذا الاضطهاد والظلم عادة ما يبرر فشله، وقد يتمادى فيه لدرجة تكوين الضلالات وبصفة عامة فإنه لايعود قادرا على العدوان ولا مستغرقا فى اللذة بعد إعلان عدم جدواهما بالمقاييس الانسانية الجديدة، فنجاح السيكوباتى هزيمة مؤجلة لا أكثر ولا أقل، فكل ما حققه العدوان أو القسوة أو الهرب أو اللذه لايعدو أن يكون مناورات للبقاء الأجوف، أما تواجده كبشر يسعى فقد حرم منه بالإهمال والهجر فى أول الطريق، ثم بالاندفاع والانتقام فى وسطه، ثم بالفشل والضياع والحسرة فى نهايته

"لكن أن أحيا إنسان؟

هذا شئ آخر

لايصنعه العدوان أو القسوة

لا يصنعه الهروب أو اللذة"

وفى عمق فشله يدرك السيكوباتى بنفس بصيرته النافذة ورؤيته الصادقة ما الذى ينقصه وينقص الناس ليكملوا مسيرة نموهم الإنسانية، ولكن كالعادة نجد أن إدراكه هذا هو إدراك مع وقف التنفيذ، وإن كان مازال يتميز بالصدق والعمق والدقة.

"لكن يبنيه الحب "النبض" الرؤية

الألم .. الفعل .. اليقظة

الناس الحلوة"

وهذه "التجميعة" من الرؤية المكثفة لاتعنى مجرد رص ألفاظ بجوار بعضها أو التلاعب بمترادفات أو متقاربات، وإنما هى تشير إلى درجة من التداخل الولا فى سوف نعود إليها فى وصف رحلة التكامل، ولكن المهم هنا هو أن نشير إلى أن الحب يتضمن الرؤية، وأنهما يواكبان النمو المستمر (النبض)، وأن الألم ليس نقيض الحب ولكنه ضوء الموقظ والدافع للفعل والمزيد من اتساع دائرة الوعى (اليقظة)، وأن كل ذلك لا قيمة له مالم ينبع من الناس ليصب فى الناس..

ولكن هل يستفيد السيكوباتى من كل هذه الرؤية حتى بعد فشله والتخفيف من غلواء اتهام الآخرين بظلمه؟ الجواب: أبدا فى أغلب الأحوال، إن السيكوباتى لايستفيد لامن فشله ولامن رؤيته، وإن تغير نوع وجوده ونوع أعراضه يقلل من إيذائه ويعوق تماديه فى العدوان الإيجابى أو السلبى، أما التغير الجذرى والبناء فيحتاج لمسيرة أخرى تدخل ضمن رحلة التكامل والمسيرة العلاجية، وليس ضمن هذه المرحلة من تقديم وصف الأعراض وطبيعة جذورها السيكوباثولوجية.

إذا فقد آن أن نترك السيكوباتى مهزوما، متألما بقدر محدود، صائحا بلا جدوى.

"من لى بالحب!

أين الناس؟"

حتى نعود إليه وإلى غيره فى مرحلة أخرى من الدراسة، أو دراسة تالية تجيبه فيها على تساؤلاته.

الخلاصة

١ - اضطرابات الشخصية مفهوم بينى، ويلزم لفهمها أن نحدد مفهوم النضج حيث أن هذه الدراسة وضعتها مرادفا لتوقف النضج أو تشويهه أو انحرافه، وكأن استمرار النضج هو الصحة بمعناها التطورى، ونتاج توقفه ما هو إلا اضطراب الشخصية ما لم تظهر أعراض محددة المعالم.

٢ - إن اضطرابات الشخصية - إذا - هى اختلال أو تجميد أو انحراف عن مسار النمو المتصل النابض المستوعب الذى هو الطبيعة السوية للتركيب البيولوجى البشرى.

٣ - إن هذا الاضطراب يحدث نتيجة لأحد الأسباب التالية:

(ا) تأخر فى عملية النضج وتذبذبها وتباعد مكوناتها

(ب) توقف عملية النضج نتيجة لسوء التنظيم الناتج عن تخلخل أو تفسخ باد أو خفى أعقبه ندب معوق دائم.

(حـ) إجهاض نبضة النمو فى نشاط نزوى عاصف بدلا من النشاط النابض المستوعب.

(د) إغلاق دائرة النضج فى نشاط دورى مغلق بديلا عن النبض الدورى اللولبى المتصاعد

(هـ) تضخم جانب من السمات حتى يصبح انحرافا يثقل خطوات النمو

(و) قلب تركيب الشخصية بحيث يصبح الداخل (اللاشعور) خارجا، وبالعكس، مما ينتج عنه ما يسمى "التشويه بالقلب" محققا نوعا من الوجود الذهانى دون أعراض الذهان

(ز) تراجع مسيرة النمو بعد ذهان صريح، عادة من النوع الفصامي.

٤ - إن هذا التصنيف يتطلب تفرقة بين أربعة أنواع متتابعة من الوجود التنازلى بادئين بالصحة الايجابية (السواء بالنمو). فالحياة العادية (السواء بالتوسط)، فاضطراب الشخصية (التوقف والعرقلة بلا أعراض محددة) فالتدهور والتفسخ.

٥ - يمكن اعتبار اضطراب الشخصية نوعا من الاضطرابات العصابية، إذا ما ركزنا على المدى، والنسق الكلى والإعاقة التى يتم بها استعمال الميكانزمات الدفاعية، إلا أن هذا الاضطراب (اضطراب الشخصية) يتميز عن العصاب بالافتقار إلى بداية معينة، وعدم وجود أعراض محددة، وعدم الاستجابة للعلاج، وأخيرا أن اضطرابات الشخصية أكثر قربا من الذهان من حيث غائيته على الأقل.

٦ - إن لاضطراب الشخصية علاقة مزدوجة بالذهان، فبينما يعتبر نقيض الذهان البيولوجى النشط نجد أنه مكافئ - غائيا - للذهان النتاجى المستتب.

٧ - إن الصعوبة التى نقابلها فى تشخيص اضطرابات الشخصية يمكن إرجاعها إلي

(ا) الخوف الشخصى من جانب الفاحص ذاته من تبنى مفهوم النمو المستمر

(ب) تجنب اتخاذ موقف حكمى أخلاقي

(حـ) ميكانزم "النقطة العمياء"

(د) الافتقار إلى بداية معينة، أو أعراض محددة المعالم

(هـ) طبيعتها البيئية حيث تقع بين السواء والمرض كما تقع أيضا بين العصاب والذهان - فبينما يمكن اعتبارها اضطرابا عصابيا من منظور سلوكى نجد أنها تعتبر اضطرابا ذهانيا من منظور غائي.

٨ - يمكن تقسيم اضطرابات الشخصية، من منظور النمو، تبعا لأشكالها المختلفة الناتجة عن مختلف وسائل التأخير والتعويق والتشويه والانحراف إلى مايلي:

(ا) اضطرابات متعلقة بتأخر عملية النمو: وتتميز هذه المجموعه بوجود سلوك طفلى مفرط (وخاصة فى المجال الانفعالي) لدى الشخص الناضج، وهذه المجموعة تشمل: الشخصية غير الناضجة، والشخصية الهستيرية، والشخصية المذبذبة عاطفيا.

(ب) اضطرابات دالة على توقف النضج وتجمده: وتتصف هذه المجموعة باتخاذ نمط ثابت رغم اختلاف سوء الترتيب التركيبي. وهذه المجموعة تشمل: الشخصية الشبفصامية "الشيزويدية" (مع استبعاد النوع متحجر العواطف)، والشخصية البارانوية، والشخصية الاكتئابية، والشخصية الوسواسية، والهيبوكوندرية، والشخصية العاجزة، والشخصية السلبية المعتمدة، والشخصية التحهوسية، والشخصية المضادة للمجتمع.

(حـ) اضطرابات دالة على انحراف مسار النضج (التوقف الانتقائى والتعويض الجانبى): وتتميز هذه المجموعة بأنها تشير إلى توقف انتقائى عند جانب بذاته من جوانب النمو العادى (مثل: الجنسية المثلية) أو بفرط نمو جوانب سلوكية بذاتها، وهذا وذاك ينتجان تعويقا فى النضج وانحرافا بمسيرته، على أن بقية جوانب الشخصية تبقى سليمة وعادية، ويمكن اعتبار الإفراط فى هوايات اغترابية من قبيل هذا الانحراف ولكن على مستوى السواء، وتشمل هذه المجموعة: بعض الانحرافات الجنسية (مثل الجنسية المثلية)، والشخصية (أو الطبع) المغايرة للمجتمع، والشخصية المتمارضة، وطبع الكذب المرضي.

(د) اضطرابات دالة على اجهاض نبضة النمو فى نشاط الدفاعى نزوى: وتتصف هذه المجموعة بإفراغ نشاط ما بشكل نزوى قادر على أن يجهض أى احتمال لبسط ولافى أو استيعاب كاف، وتشمل هذه المجموعة: الشخصية العاصفية، والشخصية الانفجارية، وهوس الحرق المرضى، وهوس السرقة المرضى، ونوبات التبجر الكحولى، والانغماس الجنسى النزوى عند الرجل والمرأة.

(هـ) اضطرابات دالة على إفراط نبضى دائرى مغلق بديلا عن النشاط النبضى اللولبى النامى: وتتميز هذه المجموعة بالتبادل النوابى بين قطبين يمثلان نوعين متضادين من السلوك، وينشأ عن هذا التبادل العنيف إغلاق مسيرة النضج فى حركة دائرية مغلقة بدلا من إطلاقها فى حركة لولبية متصاعدة. وذلك حيث أن كل نبضة عظيمة تنتهى حيث بدأت بلا زيادة ولا نقصان، مما يعوق أى تقدم فى النضج، وتشمل هذه المجموعة: الشخصية الفرحانقباضية، والشخصية المغير انسحابية، والشخصية الشكاحتوائية.

(و) اضطرابات دالة على نمو معكوس (مقلوب): وتدل هذه المجموعة على أن ما يسمى "الاشعورا" ينقلب بعد التفعيل إلى سلوك شعورى، فى حين يختفى ما هو شعورى باعتباره لا شعوريا، وتشمل هذه المجموعة: الشخصية الانفصامية، والشخصية البارانويكية، والشخصية المجرمة المتحجرة، والشخصية السيكوباتية، والشخصية الذهانية غير المتميزة.

٩- يوجد نوع مميز من الشخصيات التى يمكن أن نطلق عليها (مرحليا) "الشخصية الخاصة"، وهى تشبه فى كثير من أمورها النوع المنعكس، إلا أنها ليست منعكسة تماما بل إن جزءى الشخصية المفترضين (من شعور ولا شعور) يظهران كسلوك إرادى فى ظاهر الوعى، ويتصف بعض الخالقين والمتصوفة بهذه الصفات البعيدة حاليا عن متناول الفحص العلمى، وهى لا تمثل اضطرابا فى الشخصية بل إنها تشير إلى درجة قصوى من التكامل.

١٠- إن كل ما سبق من أنواع اضطرابات الشخصية قد يحدث عقب نوبة ذهان صريح (وبشكل خاص عقب نوبة فصام)، وفى هذ الحالة لابد من تصنيفها ثم إضافة "عقب ذهان" بعدها.

١١- تمثل الشخصية السيكوباتية النموذج المختار فى هذه الدراسة لعرض النوع المعكوس من اضطراب الشخصية.

١٢- إن عدوان السيكوباتى إنما يعلن درجة العجز القصوى التى يعانيها فى الداخل.

١٣- يتمتع السيكوباتى ببصيرة حادة ومخترقة يمكن الاعتماد عليها، اللهم إلا أنها بصيرة بلا أدنى فاعلية إيجابية.

١٤- يستعمل السيكوباتى عمق بصيرته فى زيف الحياة العادية، وضعف وجود الآخرين فى تبرير موقفه الذاتوى غير الأخلاقي.

١٥- إن السلوك السيكوباتى للطفل قد يدل على إسقاط ما باللاشعور عند والدين محافظين، كما قد يشير إلى موقف أسرى غير ملتزم، وأخيرا فهو قد يعلن نوعا من العلاقة مزدوجة الوثاق (وخاصة فيما يتعلق بالمواقف الأخلاقية).

١٦- يعتبر السلوك السيكوباتى دفاعا ضد التفسخ الفصامى، والنكوص الانسحابى، وموقف الكر والفر التوجسى، وأخيرا ضد الاكتئاب العلاقاتى غير المحتمل.

١٧- إن السيكوباتى إذ يتبع مبدأ اللذة لا يحقق أى ارتواء مهما بلغت جرعات لذته، كما أن تركيزه على "الآن" إنما يعلن تخليه عن المسئولية وانعدام استمرارية بعد الزمن فى وعيه المباشر.

١٨- إن بصيرة السيكوباتى الصادقة قد تصبح ذات نفع فى مرحلة متأخرة من الحياة حين ينهك السلوك السيكوباتى ويثبت فشله، ولابد أن يستفاد من هذه الظاهرة ما أمكن فى التطبيق العلاجى حيث أنها نافعة تماما.

الفصل العاشر

- النمو والتكامل

الجزء الاول: الطفل العملاق الطيب

- أزمة منتصف العمر، وفرصة التكامل - اكتمال النجاح: من خارج - سخف التقديس الاعتمادى
- حتم النمو والأمل الجديد - التراجع الخطر - التأجيل الحذر - الخوف من الذات (من الداخل)
- إنذارات التصدع - إنكار حق الضعف .. سلاح ذو حدين - حتم التفكيك الواعى
- الإنذار (بالتصدع) يقترب- ولاف الطيبة الحكيمة والبراءة العملاقة - أبعاد أمل الولاف الصعب
- الضعف للقوة - الصرخة المسموعة - الطفل القادر- الفرصة.. مع التوعية - الغد.. أفضل
- بعض متطلبات التربية الصحيحة (الحرية الداخلية) - الحب المطلق، والحب المسئول، والحب المشوه
- الألم الفعل.. والناس الحب - استمرار المسيرة رغم قصور الرؤية

الجزء الثانى: تفاصل اللعبة، وحسن الختام

- قوالب بغير خدش - خطورة القيم الزائفة - قيمة كلمة السر (السيم) - القيمة التنافسية
- القيمة الترديدية - القيمة التسهيلية - القيمة التخزينية - القيمة السلطوية
- الدورة الخطرة (جرعة الرضا وجرعة الألم) - البديل الفنى للنمو
- تناسب زيادة القوة مع زيادة اليقظة - الضمان ضد السرقة (والامتداد بين الطين والسحاب)
- تصاعد المنفعة: الفرد - الآخر - الخلود - حتم التكامل.. وقوة الإعاقة
- استعمال القدرة وتحويل المسار - المواجهة العلنية - انتهاء المناورة والخداع
- الثقة بالقدرة - المواجهة بين الزائل والباقى، بين الخداع والأصالة - الوحدة الجديدة
- الذنب الوهمى، وانطلاقة العمل - المعركة الجديدة: التناثر فى وعى مسئول
- الصراع الجديد: استحالة التوقف - اليقين اليقين بالبقاء للأنفع - العطاء الجديد: أخذ فى ذاته
- الوجود الإيجابى - عودة إلى وظيفة التكامل (التناسب بين جرعة الألم، وجرعة السماح، وجرعة الدعامة)
- الآخرون.. بديل عن الذات - حق الضعف - صعوبة "من" يعطى الأقوى
- الوحدة الأولى.. وصراع البقاء العنيد - الإغراء بالاغتراب الأسهل - المهارب: (استعادة ذكرى)
- تصعيد الوحدة - الانسحاب للقديم - الاستغراق فى اللذة الحسية
- الاختباء من اللا أمان بالتخزين (المال) - استعمال الآخرين - البكاء الجديد: غسيل الروح
- صحوة الشك - احتمالات التراجع - تبرير التراجع - الوعى بالشك والمخاوف.. يدعم الاصرار

- أمان أكثر ودمع أكثر – وصف عمق الخبرة النكوصية (النموية) – عمق الخبرة إلى ما قبل الحـــب (واللفظ)

- "هذه الخبرة" والتصوف – مخاطر عدم كفاءة المعالج فى خبرة الأمان المفرط – التجمع من جديد

- صعوبة المواجهة والتبلد المؤقت – المخاوف المعوقة فى رحلة التكامل – الخوف من المجهول

- الخوف من التجاوز المفاجئ – الخوف من الحرية – خوف الذات الوالدية من الأنمحاء فى الكـــل الجديد

- استحالة التراجع – إعادة رفض الحلول الاستسهالية – تزايد الصعوبة بعد التراجع

- الوعى باليأس يضاعف اليقين – العودة إلى الناس وبالناس – ولاف الأضداد – مصير التناقض

- توحد التباين – الهارمونى مع الكون والتوحد – الحركة داخل الولاف الأعلى

- حركة التواصل الجديد – الأخذ والعطاء– التميز فالتقسيم فالتكامل – الديالكتيك

- الأساس البيولوجى – الفصام: عكس الديالكتيك– عينات التناقض (التى وردت بالمتن)

- نشأة الاستقطاب ثم التصعيد به فى مسيرة النمو

النمو.. والتكامل

Growth and integrotion

(الوجه الآخر لعلم السيكوباثولوجي)

مقدمة:

بنيت هذه الدراسة، كما هو واضح طوال الفصول السابقة، على فرضين أساسيين:

الأول: هو أن الإنسان كائن دائم النمو فى نبضات حيوية **(بيولوجية)** متوالية متجهه دائما إلى الولاف الداخلى المتصاعد من ناحية، الذى يضمنه ويغذيه وينميه ولاف خارجى مع المجتمع والكون فى تناسق متصاعد أبدا، من ناحية أخرى.

والثانى: هو أن إعاقة أو تشوية أو مضاعفات هذه العملية هى الأمراض النفسية بمختلف صورها: بما فى ذلك اضطرابات الشخصية.

وقد جاء الوقت لنتساءل: هل يمكن فهم الفرض الثانى دون إيضاح الفرض الأول بدرجة كافية؟

وإنى أعترف ابتداء أن هذه الدرجة "الكافية" يستحيل الوفاء الآن بها للأسباب الآتية:

١ – إن هذا الفرض يتعلق ببعد زمنى يصعب مواكبته من باحث واحد، وبالتالى فلا مفر من رسم خطوط اتجاهاته والاكتفاء بالتوصيل بينها وعلى امتدادها.

٢ – إن اللغة المستعملة لغة جديدة نسبيا، وإن كانت غير غريبة على مجالات أخرى فى الدين والتصرف، إلا أن الحديث بها فى مجال قياسات السلوك ودراسة تطور النفس البشرية فى محدودية حياة الفرد يبدو أشد جدة من أن يستوعب بالدرجة الكافية.

٣ – إن قليلا من البشر هم الذين يكملون مسيرة النمو نحو غايتها الولافية العليا، وهذه الندرة تضيق من فرص الدراسة أصلا.

٤ – إن من تضمه هذه الندرة، يمثل عينة من البشر غير متاحة للدراسة والتجريب أصلا، لأن دوره فى الحياة يقع فى المقدمة، ولأن المتاح من سلوكه من أجل الدراسة ليس هو حقيقة عمق وجوده الدال على طبيعة مسار النمو فى شكله الإيجابى المتصاعد.

ولاعتبار كل هذه الصعوبات تجنبت دراسات السيكوباثولوجيا أن تقترب من هذه المنطقة من حيث المبدأ ومع ذلك فكيف يمكن فهم "اضطراب" شيء ما دون معرفة طبيعة هذا الشيء فى أعظم أحوال "سوائه"، وكيفية خطوات مساره، وحقيقة هدف اتجاهه؟

لذلك فقد وجدت أنه لابد من المغامرة لإ كمال هذا العمل بشرح الاتجاه الآخر للمسيرة، وحتى أكون أمينا فى المادة التى أقدمها، كما حاولت أن أكون كذلك فيما سبق، لابد من تحديد مصادر دراسة هذا الوجه الآخر للوجود البشرى، وقد أشرت فى مقدمة الدراسة عامة أن هذه الدراسة ذاتية بالضرورة،

وفصلت ذلك بمعنى أن ذات الدراس أو الفاحص هى المعبر الذى تمر به الملاحظات، وهى المعمل الذى تختبر فيه الفروض، وحين كنت أقدم صنوف الاضطرابات النفسية، كنت أستمد مادتها أساسا من الملاحظات الكلينيكية عبر خبرتى العملية الطويلة، ولكنى لم أكن استمدها بالشكل الكمى المباشر، ولكن بمعنى هضمها، وإثارة المقابل لها فى ذاتى، وتركها للحضانة، ثم إعادة صياغتها من واقع تكاملى هادف، أما فى هذا الفصل فالأمر يختلف، لأن المادة الكلينيكية لاتعطى عادة "نموذج النمو" فى شكل أعراض واضطرابات اللهم إلا فى مسار العلاج النفسى، وكعينات مؤقتة ومرحلية، فلماذا كانت مادتى أساسا فى هذه المرحلة من الدراسة؟

الحق أقول – بقدر اجتهادى – إن إثارة الجانب التركيبى المقابل للزملة المعينة فى نفس الفاحص هو أساس فهمه لهذه الزملة، هذه خطوة واحدة، أما مايليها من خطوات فهو أن ما يثار يصعب – إن كان الفاحص صادقا مع نفسه – أن يعود إلى ما كان عليه، وبالتالى فإن هذا الجانب الذى أثير لابد أن يتناول تناولا مغايرا لما يتم فى حالة المرض، وهذا التناول عادة يكون بالبحث عن الخطوة الأعلى التى تستوعب ما أثير فى كل تصاعدى جديد، فإذا لم تحدث هذه الخطوة فالبديل لها أن ثمة حلوسط يستتب، وأن ثمة انشقاقا يجرى، ولابد أن ينتقص هذا وذاك من خبرة الفاحص وفرصة الدارس فى معرفة البدائل الإيجابية المتاحة، والتى هى بالضرورة البديل السوى عن الخبرة المرضية السلبية التى أثارت مقابلها.

ومن هذا أقول أن هذين الفصلين التاليين فيهما من الخبرة الشخصية جرعة أكبر بكثير من الفصول السابقة ..، ولكن الحديث فيهما بهذا القدر من التفصيل لايعنى بالضرورة أنى ككيان شخصى أمثل أيا مما جاء فيها، فهذا ادعاء لست أهلا له، وتصور أبرى نفسى منه، ولكن لا مفر من إعلان أن خبرتى من الممارسة الحية أتاحت لى هذه الفرصة لرؤية أبعاد المسيرة بالقدر الذى تحملته وقدرت على ترجمته إلى فروض وألفاظ. على أن تقديم هذا هذا الجانب من الدراسة له وظيفة أخري؛ وهى مدى الاسهام الذى يمكن أن يؤدى إليه فهم السيكوباثولوجى فى العلاج النموى الفعال، ذلك أننا مادمنا قد اعتبرنا أن الأمراض النفسية هى مضاعفات النمو؛ وأنها تبدأ بأزمة مفترقية؛ ثم تنتهى إلى الحل المرض الفاشل، فينبغى أن نعلم على وجه التحديد ما هو البديل النموى الناجح، فهذا الجزء له هدف علاجى لا محالة، وقد عرضت مصدر دراسة هذا البعد من موقع توجيه ما يثار لدى الدارس والفاحص من مستويات مقابلة للمستويات المرضية، إلى حد سوى، وهذا بعينه هو ماينبغى على المعالج أن يضعه نصب عينيه، ليس فى ذاته فحسب ولكن فى مسيرة المرضى أساسا، وخاصة فى أزمتهم المفترقية قبل أن يستتب التركيب الشخصى سيء التنظيم.

الجزء الأول: الطفل العملاق الطيب

(١٨٩) ازمة منتصف العمر وفرصة التكامل:

تغفل دراسات النمو (فيما عدا ماقدم إريك إريكسون وبعض كتابات يونج والإنسانيون) التركيز علـــى النمو أثناء أهم مرحلة فى نمو الإنسان، وهى منتصف العمر، ويوقف علم النفس دراسة النمو عادة بعد مرحلة المراهقة مباشرة، فى حين أن النمو الحقيقى والمثمر، الذى يدفع بعجلة تطوره، لايــتم ويــؤتى أكله إلا فى نمو منتصف العمر فالطفولة والمراهقة وصدر الشباب هى المرحلة التمهيدية بصفة عامـــة، ومنتصف العمر هو مرحلة النمو الحقيقى، والاستيعاب والعطاء المثمر، والاكتشاف المغــامر القــادر على التحدى والبقاء.

تأتى بعد ذلك مرحلة الاستثمار الممتد الواثق الراسخ، تلك المرحلة التى تسمى بغيــر مفهــوم النمــو "الشيخوخة" فى حين أنها القطاف الرائع لكل مراحل الحياة ..

والحديث هنا يحاول أن يصور تلك الأزمة فى حدتها الوجودية، مع ترجيح احتمال نتاجها الإيجــابى، بديلا عن مظاهر الإجهاض السيكوباثوجينى الذى سبق الإشارة إليه.

(١٩٠) اكتمال النجاح من خارج:

ومنتصف العمر يتصف أساسا باستكمال مقومات النجاح الظاهرى، هذا النجــاح الــضرورى لــصنع الهيكل الأساسى القادر على احتواء نبض الحياة الممتد تصاعدا، ويتم هذا النجاح أحيانا بصورة مبــالغ فيها، بناء على الإفراط فى تقديس القيم الوسيطة، وكذلك بناء على القصور الذاتى والاستمرار القهــرى التلقائى، ويؤكده ويدعمه هذا التقدير الذى يلقاه الإنسان الناجح عندما يبلغ هذه المرحلــة مــن الكفــاءة والقدرة، وكل هذا على حساب إغفال الجزء الداخلى الأصيل

وتبدأ الأزمة حين يتعارض احتياج الإنسان فى هذه المرحلة أن يرى كما هو بكل أبعــاده الداخليــة .. وحتم نموه .. وطبيعة ضعفه العادى، وبين إصرار الحائفين (عليه ومنه)، والمقدسين له على ألايــروا إلانجاحه الظاهرى، وكأنهم يضحون بأغلى مافيه من قوى فطرية جاهزة لاستيعاب هذا النجاح لــصالح قوتها واستمرار نموها لحساب اعتمادهم على نجاحه. وهذه القوى الداخلية المغفلة هــى قريبــة مــن التركيب الطفلى الذى سبق الإشارة إليه، وهى تصبح بهذا الإهمال قربانا لنجاح زائف (وهو زائف فقط إذا لم يستغل بحق فى استمرار المسيرة)، وإذا استمر هذا الموقف فإن النتاج الطبيعى هو كهولة مبكرة، وجفاف عقيم نتيجة لتوارى الطفل داخلنا أكثر فأكثر، وإنهاك الناجح خارجنا أكثر فأكثر. رعــب فــى الداخل من عدم الاعتراف أو مزيد من الإهمال والإغفال، ونمو شكلى فى الخارج تحت مظاهر النجاح وصور الحكمة والتعقل دون جوهرهما

"قربان المعبد طفل،

يرنو من بعد،

لايجرؤ أن يطلب أو يتململ

أقعى فى رعب فى جوف كهوف الصمت

خلف عباءة كهل قادر"

وهكذا يكتشف الحدس الداخلى للناضج – فى هذه المرحلة – أنه رغم قدرته ونجاحه، قد شــاخ قبــل الأوان – لو لم يلحق داخله بخارجه – وأنه فقد القدرة على التراخى والتمدد لاستيعاب كل هذا، وأنــه عاجز عن الانطلاق واللعب الحر رغم شدة حاجته إليهما وحقه فيهما كنتيجة مباشرة لجهــده وعرقــه واحتماله وتماسكه وتأجيله، وهذا التركيب الشائع يزداد خطورة نتيجة أخطاء محددة فى التربيــة ســبق أن أشرنا إليها؛ وهى ترجيح قيم النجاح المعروف والجاهز على قيم التجديد والمغــامرة المــسئولة، أو ترجيح قيم خداع الانطلاق شبه الطفلى فى نشاطات زائفة وكأنها حرة بــديلا عــن الحريــة الداخليــة والتلقائية، (حتى اللعب يمكن أن يكون نشاطا غير طفلى بالمعنى الحقيقى – ص ٦٤).

وفى ظروف هذه التربية التحصيلية الجافة، وضغوط الحياة المستمرة، وعدم الأمان الداخلى العنيــف، قد تلغى الأزمة أصلا، بحيث قستمر قيم النجاح كافية لتغطية كل ما بالداخل، وقد أشرنا فــى الفــصل الخاص باضطرابات الشخصيه أن ذلك لايمكن اعتباره بحال من الأحوال وجودا بشريا سويامهما افتقر إلى الأعراض . و "فك" هذا التركيب هو ما يسمى أزمــة منتــصف العمــر، وهــو أزمــة مفترقيــة بالضرورة؛ ولكنها تحدث فى عمر بذاته؛ وتحت ظروف ملائمة خاصة، يتباعدفيه شــطرا الشخــصية ويتحاوران ولكن دون إلغاء كامل لأيهما ودون اغتراب دائم .. بل فى محاولة ولا فية متصاعدة تسمح بتسميتها نموا، لامرضا.

(١٩١، ١٩٢) سخف التقديس الاعتمادى:

وقد ذكرنا أن من أهم ما يعنف من هذه الأزمة ويعمق من حدتها أنها تدعم بتقدير خارجى وتــصفيق أجوف، ويبدو هذا التدعيم نتيجة طبيعية للانبهار بالنجاح، إلا أنه فى واقع الحال دليل على الأفراط فى حيلة التقديس (راجع أيضا ص ٩٧، ٩٨)، والبعد الذى نؤكده هنا هو الثمن الذى يدفعه الشخص الــذى ينال درجة أكبر من التقديس والتمجيد والمديح والتصفيق، إذ أنه يسجن نفسه فيه، إن هو قبل به وخدع له، ذلك أن هذا المديح والثناء والتصفيق إن أغنوه بعض الوقت، فإنه، حين يصدق مع نفــسه ويــسمح لنموه بالاستمرار من خلال هذه الأزمة، سوف يرفضها جميعا، وكلما خلا إلى نفسه بدرجة معقولة من الصدق رفضها أكثر فأكثر

"... وكلام غث:

ما أحكمه .. ما أنبله

ما أعلمه .. ما أولاه بالحب"

وحتى الحب المزعوم لشخصه الناجح لايقبله؛ لأنهم يحبون قشرة لا تمثله فى العادة
" الحب ؟؟؟ من لى بالحب ؟ ؟
إذ كيف يحب الجوهر من لا يعرف إلا السطح اللامع؟"

وقد سبق أن تحدثنا عن الحاجة إلى "الشوفان" (ص ١٩٣) وعلاقتها بالحب، والشخص فى منتصف العمر بوجه خاص يحتاج أكثر ما يحتاج إلى يشاف بكليته، بشقيه، بنجاحه وماوراء هذا النجاح من حاجة وعجز واجتهاد منهك، وكل من لايرى هذا فهو لايعطى مثل هذا الشخص حقيقة احتياجه حقا وفعلا، وتزداد أزمة مثل هذا الإنسان كلما ازداد إحساسه بعدم رؤية أحد لكلية أبعاده، وبخاصة ضعفه
"لم يعرف أى منهم أن صلابته هى من إفراز الضعف،
وحصاد الخوف"

ومن هنا نبدأ فى شرح أهمية ما نقدمه عن مفهوم التكامل، فالذى نريد أن نؤكده أن التقسيم الاستقطابى للوجود البشرى بين الخير والشر، بين الخوف والجسارة، بين الضعف والقوة، هو تقسيم مستعرض لا يخدم قضية التطور الطولية، والذى يؤكده المتن هنا أن الصلابة – وهى ميزة وقيمة وفرصة كما سيبدو – هى هى من إفراز الضعف وحصاد الخوف، ولكنها فى شكلها الظاهرى وحسب القيم الجديدة المطروحة فى أزمة منتصف العمر ليست كافية، كما أن الضعف والخوف كبديل عنها يعتبر ان نكسة خائبة. فإذا كان الضعف والخوف هما اللذان أفرزا الصلابة، فهما قوة داخلية دافعة، ولكن إفراز الصلابة الخارجية لايعنى اختفاءهما، بل ربما هو يؤكد بطريق غير مباشر قوتهما الداخلية.

ثم تأتى أزمة منتصف العمر لا لتقول للصلابة: لانفع منك، ولا لتقول للضعف: آن لك أن تنتهى فى الخفاء، ولكن لتحاول ولافا جديدا بين الصلابة والضعف.

والاعتراف بالضعف، وجذور الخوف من موقف النجاح، واستنادا إلى أرض الصلابة، هو البداية الحقيقية المثرية لهذه الأزمة المفترقية البناءة، إلا أن الإشكال الأكبر فى هذا الموقف هو إصرار هم على التصنيف الاستقطابى: إما نجاح وتصفيق وتقديس، وإما شجب وشفقة ومثالية معطلة كما سيأتى .. ، ويبلغ من قسوة هذا الرفض أنه يؤدى إلى أن حركة الطفل فى الداخل تصبح هى المشكلة التى يسعى صاحب الأزمة إلى التخلص منها (أى التخلص من الطفل)، وقد سبق أن أشرنا كيف يقهر الطفل فى مرض الإكتئاب بواسطة الوالد، أما هنا فالطفل ذات نفسه قد يتمنى الموت ما دام أحد لا يسمعه، و التنظيم الآخر الناجح (الوالد أو الفتي) قد يتمني– من واقع النضج والرغبة فى التصعيد النموى – إتاحه الفرصة للطفل دون خوف منه[1] ودون قهر له (مثل الاكتئاب ص ١٦٩) ودون تفخيم لشأنه

1- قارن "المواجهة" فى وعى المجنون ص ٤٤، وكذا بداية الاكتئاب ص ١٦٤ .

(مثل الهوس ص ٢٢٣، ٢٢٤) ودون تشويش مثل الفصام. وهذا التصالح المبدئى بين مكونات الشخصية فى أزمة النضج فى منتصف العمر هو الذى يعطى هذه الأزمة إيجابياتها النموية .. ، إلا أن الإشكال فى هذا الموقف ينشأ من المجتمع المحيط الذى يصر على الرؤية أحادية الجانب لهذا التكوين البشرى السليم المستمر

"لم يسمع أحدهمو نبض أنينه،

والطفل الخائف يقهره البرد الهجر،

نظر الطفل إلى كبد الحق

وتمنى الموت"

(١٩٣) حتم النمو والأمل الجديد:

ولكن لأن الأزمة أزمة نمو، فإن الموت لا يأتى، بل يظل الكيان الطفلى يأمل فى الخروج ليحصد نتاج النجاح الذى أسهم فيه بطريق مباشر وغير مباشر، وهو يتمنى أن يرى بحجمه وأن تسمع صرخة نجدته فى نفس الوقت الذى يقبل النجاح كوسيلة دعامية تمهد لانطلاقته الجديدة

"لكن النور يداعب بصره

وحفيف الدفء يدغدغ جلدة،

فيكاد يصيح النجدة،

يتحرق أن يظهر ضعفه"

وإظهار الضعف هنا يختلف عن الاستجداء الاعتمادى، الذى يتصف به الاكتئاب النعاب (ص ١٥٥) أو حالات البارانويا اللاصقة (ص ٢٨١) أو الشخصية العاجزة (ص ١٦٨) كأمثلة.

(١٩٤) التراجع الخطر:

وبالرغم من هذا الأمل فى أن يرى أحدهم هذا الضعف، ويقبله دون أن يعايره، ويقبل معه نجاحه ليسمح بالولاف الجديد، فإن عدم تحقيقه أو الخوف من إساءة فهمه، أو تجزى رؤيته يدفع به لامحالة إلى التراجع هاما وجزعا

"لكن الرعب الهائل يكتم أنفاسه،

ويعوق خطاه

الضعف هلاك، والناس وحوش"

وهذه الرؤية الخطرة تقرب الأزمة من مثيلاتها فى تطور الأمراض، وفى هذه النقطة بالذات: من التطور البارانوى، والفرق الحقيقى بين تطور أزمة النمو هذه وبين التطور البارانوى هو نهاية مسار كل منها كما ذكرنا ..، فرؤية أن الضعف هلاك، وأن الناس وحوش عند البارانوى تنتهى به إلى نسج

منظومات الضلال الدفاعية وضلالات الاضطهاد وانفعالات التوجس، أما نفس الرؤية هنا ومن موقع البصيرة المسئولة والنجاح الصلب قد تؤجل الانفتاح الذاتى لا أكثر ولا أقل .. ولكنها لاتلغيه ولاتنحرف بمساره.

(١٩٥) التأجيل الحذر:

وقد سبق أن ذكرنا أيضا أن إلغاء هذا الداخل نهائيا إنما يتم لحساب تحويل الوجود البشرى النابض إلى وجود اضطراب الشخصية المتجمد، وهنا فى هذه الأزمة، ورغم الرعب الحقيقى المصاحب ومخاطرة الترك والإهمال، فإن اكتساب مزيد من القوة، والدفاع بمزيد من النجاح لايعدو أن يكون مجرد تأجيل وتدعيم إلى رجعة، وإن كانت هذه اللقطة فى المتن الشعرى تبالغ فى هذه الخطوة حتى لتبدو تراجعا كاملا، إلا أن الاستمرار فى تتبع النص، سيثبت غير ذلك

"فلتتجمد أعماقى، ولتتم القشرة

ولينخدعوا،

وليكن المقعد أعلي

ثم الأعلى فالأعلي

حتى لو كان بلاقاع"

فالشخص الناضج هنا يستعمل النجاح ولايمتص فيه، وهو يحمى نفسه لمرحلة معينة تمهيد المغامرة أكبر فى ظروف أوفق، وهو يعلم تماما أن نجاحه (بلاقاع)؛ هو لمجرد خداع من لم يره، انتظارا لمن يستطيع أن يراه ويتقبله بخبره وشره، وهو إذا يدعم ذاته فى أعينهم، ويلتحف بالألفاظ درعا يحميه منهم

"ولأجمع حولى فى إصرار مايدعم ذاتى فى أعينهم

ولأصنع حولى سورا من ألفاظ فخمة

درعا يحمينى منهم"

وهو إذ يفعل ذلك إنما يحاول أن يحمى نفسه من المغامرة غير المحسوبه أمام من لا يستطيع رؤيتة كله بضعفه ونجاحه معا، بخوفه وصلابته معا ..

(١٩٦) الخوف من الذات:

إذا كان التراجع والتأجيل يبررهما خوف من الآخرين: (ألايروا .. أن يهملوا .. أن يرفضوا ... أن يشفقوا ... أن يسحقوا ... الخ)؛ فإن هناك خوف آخر؛ هو خوف من أن ينسى صاحب الرؤية اليقظة حدود الانطلاق .. ويتابع السماح لأجزاء شخصيته بالظهور الواحدة تلو الأخرى دون اختفاء الأخرى،

وهذا الخوف من النفس قد يبرر التمادى فى رؤية عقلية بديلة عن يقظة غائبة، أو قـد يبـرر جرعـة مفرطة من اللفظنة (سورا من ألفاظ فخمة) تمنع انطلاق الذات الداخلية.

إلا أن الخوف من عدم ضبط الجرعة ومن الناس فى الحارج، لايؤدى إلى التراجع عن خوض غمار الأزمة، فبالرغم من أن التمادى فى اكتساب أساليب النجاح يؤجل انطلاق الداخل حتما – بلا اختيار – (لم يدعوا لى أن اختار) إلا أنه حتم مرحلى، لأن هذه الأزمة بطبيعتها – مادامت توصف على طريـق النمو – إنما تعلن حتم النمو حتى ولو أفرط فى أكتساب مزيد من القوة لأنها تتميز – كما أشرنا – بقوة الجانبين معا: الداخل الفطرى والخارج، لذلك كانت أقرب ما يكون إلى الاكتئاب حيث شـرحنا تكـافؤ القوتين بدرجة أو بأخرى (ص ١٦٩).

(١٩٧) انذارات النصدع:

ووجه الشبه هذا بين الاكتئاب وبين هذه يذكرنا بما أسميناه "اكتئاب المواجهـة الـولافي" (ص ١٥٦)، ولكن الأزمة هنا لاتسمى اكتئابا عادة إذ أن الأعراض لاتظهر صريحة فى صورة اكتئاب كما يحـدث فى الحالة المرضية، والأزمة كثيرا ماتكون داخلية صرفة، كما أنها تبدو نتيجة مباشرة للإفـراط فـى القوة والنجاح

"لكن ويحي

من فرط القوة وقع المحظور

أو كاد"

والحقيقة أن المحظور لايقع هنا، بل هو "يكاد"، فالإنسان هنا مهما بلغ به ألمه الداخلى يظـل ملمومـا متماسكا صلبا، ولعل هذا فى ذاته هو من أكبر روائع هذه الأزمة وأشرف مميزاتها، حيث أنهـا خبـرة صاحبها الخاصة وعمق رؤيته وروعة ألمه دون امتهان الشكوى ومذلة الاستجداء والنحيب.

(١٩٨) انكار حق الضعف .. سلاح ذو حدين:

وحين ينكر الناس على صاحب هذه الأزمة حق الضعف، فإنهم يلقونه أكثر وأكثر فى غيابات الوحدة، وكلما زادت مظاهر قوته نجاحه زاد هذا الضعف الداخلى وتعمقت الوحدة، لأن الوحدة، كمـا ألمحنـا تنشأ من عدم الرؤية، والحاجة إلى "الشوفان" (ص ١٩٣) هى الحاجة الأساسية التى إذا غذيت كـسرت الوحدة فى عمق تركيبها، وهى لاتكسر هنا بسبب سمك طبقات النجاح التى تحول دون رؤية ماسواها، والمرء فى هذه الحالة يتحمل مسئوليته مضاعفة، فلا هو يتخلى عن نجاحه ولا يخدع فيـه، كمـا أنـه لايلغى وحدته بأى علاقة زائفة، ولاهو يشكو منها بالقدر الذى يهز كيانه ويفقده تماسكه، وهذا العـبء فى حد ذاته له نتاج إيجابى بناء، لأنه يعمق من خبرة الإنسان الناضج دون أن يطرحه أرضـا، فتحتـد بصيرته دون تنازل عن تماسكه، ويشتد ألمه دون أن يتوقف عمله، ويواجه مسيرة نمـوه ولـو وحـده

تماما. ويواصلها بالرغم من كل شيء، إذا فإنكار الضعف فيه قسوة وإهمال بقدر ما فيه من فرصة حقيقية لمن أنكر عليه حق الضعف تتيح له أن يحمله على صدره ويكمل به – وبحجمه تماما – مسيرته دون انتظار أى عون من آخر يفتح باب اعتماد لم يعد يجدي.

وشعور الإنسان فى هذه الأزمة بتهاوى القوة المفردة تحت ضربات حقه فى الحياة الأكمل، ولامتداد التمزق تهيئة لإعادة البناء فى نفس الوقت دون تفسخ أو استسلام، هذا الشعور الحاد المواكب لبعضه البعض لايقدر عليه بحجمه إلا القليل من البشر، ولهذا كانت رحلة التكامل كما ذكرت هى خبرة نادرة لامحالة، ومن مهام هذا العلم ورؤية الإنسان من هذا المنظور فى مجالات التربية والسياسة، هو أن تتاح فرص أكبر وإسلم لعدد أكثر من البشر ليمر بها بسلام نسبى، وهذه الفرصة لاتكون بالفهم أو بحسن الاستماع أو عمق الرؤية لضعف الناجح وآلام القوى فحسب، بل إنها تتهيأ بشروط محددة تتبع أساسا من تبنى هذا الفكر النموى الناضج:

١ – فهى تتطلب "تربية" تسمح بطورى البسط والاستيعاب Unfolding assimilation & الاندفاعة والتمدد diastole &Systole

٢ – وهى تتطلب مجتمعا (بيئة) فيه درجة من الفهم والسماح واحتمال التناقض، بحيث تتخطى الاستقطاب التصنيفى إلى خير وشر، وإلى ضعف وقوة، وإلى نجاح وخيبه ... الخ، وأن يكون هذا متناسبا فى مرحلة نضجه مع مرحلة نضج الأفراد المارين بهذه الأزمة فى الوقت المناسب.

٤ – وهى تتطلب جرعة من الاتجاه المشترك، للهدف المشترك، تكفى لأن توجه حدة التناقض المواجه إلى إمكان نسج الولاف التصاعدى. والعلاج النفسى (أو علاج النفوس بتعبير أدق) يهدف أساسا إلى تحقيق هذه المتطلبات الأربعة، ولكن فى الوقت المناسب، فإذا لم تتناسب الظروف كاملة للمرور بهذه الأزمة بسلام: مثلا: لوقوعها فى سن مبكرة أو بيئة متحوصل أفرادها، فإن هدف العلاج يكون حينذاك هو تأجيل هذه المواجهة بأقل قدر من المضاعفات، لحين الظروف الأنسب لها، فى الوقت اللائق بها.

إذا ... فإنكار حق الضعف بالنسبة لهذه الندرة من البشر ليس مصيبة تستأهل العويل والاستجداء ولكنه مسئولية تحتاج إلى إكمال الطريق وحتم الاستمرار.

(١٩٩) حتم التفكيك الواعي:

ومع كل هذا الألم الداخلى وتضاعف مسئولية مواجهته مهما بلغت الوحدة، يزداد حتم تحمل التصدع دون تصدع، واليقين بأن هذا التشقق قد يظهر دون أن يسمى تشققا أو مرضا بالضرورة

"لكن الشق امتد

من داخل داخلنا الأجوف

لا لم يظهر بعد

لكن لابد وأن يظهر"

(٢٠٠) الانذار:

وظهور الشق هنا لايعنى بالضرورة مرضا بالمعنى الشائع، ولكنه يعنى أساسا حتم الاعتراف بالضعف، وحتم الانتباه إلى الجانب الآخر من الوجود، وظهور الشق بما يحمل من تهديد إنما يعتبر إنذارا للجميع بضرورة التخلى عن الوجود المسطح، وضرور قبول عمق التجربة فى مواجهة تناقضات الوجود البشرى ..، وإلا فالتهديد بمزيد من الاغتراب حتم لامفر منه، والتهديد بالتناثر المفكك خطر متزايد، ويتناسب هذين الخطرين مع تناسب قوة النجاح وبعد الشقة بين جانبى الوجود

"وكما كان الصخر قويا صلدا

وكما كان الضم مهابا فخما

سوف يكون الصدع خطيرا فاحذر

وليحذر ذلك أيضا كل الناس"

(٢٠١) الولاف الصعب:

ومع تزايد هذا الحتم، واستبعاد المرض، وفى نفس الوقت استبعاد الاستمرار فى النجاح بنفس القصور الذاتى ونفس الحسابات الوسيطة، نقترب من خطوة الولاف التصاعدى الرائع، والصعب بقدر روعته، وهذا الولاف يتطلب عدة مطالب، بالاضافة إلى التهيئة التربوية والبيئة المناسبة، والتوقيت اللائق التى أشرنا إليها، فهو يتطلب فى نفس الوقت:

١ – أن تطلق الطاقة الطفلية الحرة بما تحمل من احتمالات الضعف والخطأ والمخاطرة، فى وسط هذا الإطار من النجاح المبهر دون الوقوع فى تناقض شاذ، أى أن تطلق بكل مواصفاتها المغامرة القوية ليست بديلا عن النجاح والتماسك لكن مصاحبة له ومغيرة لنوعه.

٢ – أن يستمر التمسك بكل مكسب قديم ليخدم نوعية الوجود الجديد إذ يذوب فيه، فتجتمع قوة الفطرة مع صلابة التماسك مع حكمة الخبرة فى ولاف النضج الشامل.

٣ – أن تتزايد جرعة البساطة والتواضع بشكل يزيد فى التناسق، مع تزايد القوة والقدرة بحيث تختفى معالم القوة فى الوجود اليومى الهادىء دون أن تفقد سمو هدفها، وإيقاع قدرتها، وحتم مسارها.

٤ – أن تلتحم الطهاره والبراءة بالحذر واليقظة بحيث لا تصبح الطيبة مرادفة للسذاجة، ولاتصبح الطفولة مرادفة للضعف والاعتمادية

"لن ينجو أحد من هول الزلزال

إلا من أطلق للطفل سراحه

كى يضعف ... أو يخطيء .. أو يفعلها،
لن ينجو أحد من طوفان الحرمان،
إلا من حل المسألة الصعبة،
أن نعطى للطفل الحكمة والنضج
دون مساس بطهارته، ببراءته، بحلاوة صدقه،
أن نصبح ناسا بسطاء ...، فى قوة
أن نشرب من لبن الطيبة سر القدرة،
كى .. نهلك – حبا – غول للشر المتحفز
بالإنسان الطيب"

وهذا الموقف الصعب يستدرجنا إلى مواجهة عدة قيم لابد من إعادة النظر فيها حتى نتخطى الاستقطاب "الخيرى – الشري" للحياة، أو الاستقطاب "المثالى – النفعي" للسلوك، وأنا أعرف أن هذه مغامرة على المستوى الفردى، وعلى المستوى الاجتماعى، مخاطرها أكبر بكثير من مقومات سلامتها، حتى أنى ترددت فى شرحها وعرضها كاحتمال حتمى للنمو (رغم ندرته)؛ إلا أنى فى موقف علمى بالضرورة؛ أرسم صورة لماهية الإنسان، ولست فى موقف أخلاقى أو اجتماعى، فأنا أحاول أن أحدد معالم الحقيقة من خلال تناسبها مع مرحلتنا الراهنة بحجمها العلمى المتاح.

إذا فأنا أكرر اعترافى بهذه المخاطرة التى لابد وأن التمس الغفران على خوضها من خلال هدف الدراسة التكاملي.

والقضية الخطيرة المثارة هنا (والتى ستتكرر فى المقطوعة التالية) هى شجب المثالية بمعناها المسطح، حتى أن الحب ينفض عنه مثاليته التسامحية ليصبح قوة مواجهة لغول الشر بالمعنى الشائع، وهذه المواجهة الصعبة التى تتطلب من مفهوم رخو كالحب (بقدر مايشاع عنه) أن يواجه غولا متحفزا، تنبع مرة ثانية من ضرورة المواجهة لشقى الولاف وليس التقسيم الاستقطابي.

فالحب الطيب والشر المتحفز هما كذلك طالما هما على طرفى نقيض، وباقترابهما واستمرار احترام ضرورة توليف الطيبة مع القدرة، والبساطة مع القوة يذوب الشر (يهلك) فى حتم الحب، ليصيغا كيانا أكبر من اليقظة الشاملة القادرة على استيعاب المعانى والتواصل مع مساحة أكبر وعدد أكبر من وجود الآخرين، وبذا يهلك الشرو يختفى فى الولاف الجديد، بل ويكاد يختفى الحب بمعناه القديم فى نفس الولاف الجديد: الوعى والمعنى والواقع والناس فى آن واحد.

(٢٠٣) تاكيد جديد لصعوبة المسألة:

ولعل القاريء إذ وصل إلى هذه النقطة يتصور أن المسألة أصبحت أقرب إلى الأوصـــاف الــشعرية منها إلى مظاهر سلوكية يمكن وصفها وقياسها والتدليل عليها، وأنا اعترف مرة ثانية بهذه الــصعوبة، وأكرر أنه لامفر من خوضها، فصعوبة التكامل: فهما وشرحا وتقديما لاتبرر إلغـــاء دراســـتة وبحثـــه ومحاولة وصفه مهما حف المهمة من مشاق، والذى أريد أن أؤكده فى هذا المقام قبل الاســـتطراد فـــى الشرح الخطر، هو ضرورة مراجعة الكلمات واحدة واحدة واحترام تجاورها وتلاحقها وترتيبها فى هذه المنطقة بالذات من الدراسة، قبل الحكم على الصعوبة والسهولة، أو الشعرية والجفاف، كذلك أنبه إلـــى ضرورة التخلى عن الأبجدية القديمة لدراسة النفس فى هذه المنطقة بالذات من الدراســـة، ورفـــض أى محاولة مسطحة لترجمة هذه الأوصاف المتداخلة إلى أبجدية سلوكية مختزلة.

ثم نعود فنطرح المسألة – فى صعوبتها الحتمية – فى صورة التساؤل الملح الذى يجعل هذه الصورة المتكاملة كالهدف المطلق أو الأمل المحتمل أكثر منها عينة وجود يمكن قياسها ووصفها.

فهذا الأمل المحتمل على طريق التكامل يصف مرة ثانية "قوة فطرية اكتسبت وســـائل واقعيـــة، مـــن خلال الخبرة، والنمو اللولبى، والتآلف الداخلى بين أجزائها وبعضها، وبينها وبين خارجهـــا"، وبـــذلك أصبحت تتمتع بهذا الخليط الرائع من الوجود المتكامل الذى لم يتخل عن براءته وفطرته فى سبيل قوة ضرورية أو تعامل ناجح، ولم يتخل عن قضية نصرة ماهو حق وامتلاك الوسيلة لذلك مـــع الاحتفـــاظ بالتواضع البسيط وامتلاك زمام اللغة العادية

"هل يمكن؟

هل يمكن ان نجعل من ذاك الحيوان الباسم

إنسانا يعرف كيف يدافع عن نفسه ..

ببراءة طفل، وشجاعة إنسان لايتردد فى قول الحق

بل فى فرضه؟"

والمتن إذ يرسم الصورة فى شكل تساؤلى ينبه إلى إنها صعبة، وأنها هدف نسعى إليـــه أكثـــر منهـــا حقيقة واقعية قريبة.

(٢٠٤) الضعف للقوة:

لابد أن نبدأ من هنا وصف بعض التفاصيل فى هذه الأزمة – ومثيلاتها – ؛ بحيث يمكن ترجمتها إلى ما يتعلق بعلمنا وما يتصل به من مهنة وخاصة فى ممارسة العلاج النفسى، بحيث ننزل بالقاريء إلـــى واقع عملى بعض الشيء، يعنيه على تقبل هذه الصورة الصعبة نسبيا.

وقد ذكرنا قبل ذلك كيف أن هذه الأزمة – منتصف العمر فى مرحلة النمو التكاملى – قد لاتصل إلى أى درجة مرضية، وبالتالى لا تحتاج إلى علاج، إلا أننا نقدم هنا كيف أن العلاج يمكن أن يستفيد مـــن

فهم أبعادها لتحويل مسار المرض – وخاصة فى بدايته – إلى مثل هذا الهدف الممكن، ولوعلى مراحل متلاحقة.

والضعف للقوة هو المقابل لما أسميناه قبلا النكوص فى خدمة الذات Rcgression in the service of egoأو النكــو ص التكيفــى Adaptive regression ويــسمى فـــى مجـــال العـــلاج النكـــوص العلاجTherapeutic regression وكل هذه الأبعاد التى تسمى نكوصا هى ليست بالضرورة كـــذلك، أى أنه ليس حتما أن يدفع النضج أو تحمى مسيرة التكامل بنكوص بمعنى التراجع إلـــى حالـــة طفليـــة سابقة، بل إن ذلك يعنى أن يسمح للجانب الآخر من الوجود بالظهور والتقبل بحجمه وتفاصيله كمرحلة نحو الولاف الأعلى، والتعبير الذى استعملته هنا هو تعبير "الضعف"، الذى بدأنا به هذا الفصل كـــدافع داخلى أكيد يفرز الصلابه ويسهم فى النجاح، وهذه الفرصة لإظهار الضعف والاعتراف به سعيا إلـــى مزيد من القوة الأكثر صلابة وعمقا، هى مايمكن أن توضع تحت المفهوم الأشمل "النكوص"، والإنسان الذى تبلغ به القوة الذاتية أن يسمح لنفسه بالنكوص الحقيقى والضعف بكل مخاطره إنسان نـــادر كمـــا ذكرنا، ومسيرته صعبة، وفى أزمة المرض تكون أصعب، والعلاج النفسى قد يتيح فرصة بديلة لمثـــل هذه المسيرة لو أنه قام بدوره الإيجابى التحويلى المسئول.

ولعل أبلغ صور الضعف الفسيولوجى الدورى هو "النوم"، إلا أنه ضعف بعيد عن دائرة الوعى عادة، فى حين أن الضعف الحقيقى البناء هو الذى يتم أثناء حدة الوعى وكمال اليقظة.

والمعالج النفسى إذ يدرك ذلك، يقوم بدور الآخر الفاهم الرائى المتقبل، وهو يـــسمح بهـــذا الـــضعف بالجرعة المناسبة:

(ا) التى تتناسب مع كم الضعف الملح فى الظهور فى شخص بذاته، وليس مع الكم المطلق للـــضعف الداخلى الشامل.

(ب) التى تتناسب مع كم الصلابة الخارجية وتماسكها واحتمال استمرارها جنبا إلى جنب مع ظهـــور الضعف.

(ح) التى تتناسب مع المسافة النفسية بينه وبين مريضه فى مرحلة بذاتها من مراحل العلاج.

(د) التى تتناسب مع احتمال المعالج ذات نفسه أن يساهم فى حمل جرعة هذا الضعف، وأن يسهم فى المعونة لتقبله للهدف الولافى الأعلي.

(هـــ) التى تتناسب مع بصيرة الشخص بطبيعة ضعفه، وقدرته على السماح بالقدر المناسب منه.

وكل هذه الأمور متروكة لخبرة المعالج أساسا، إلا أن ما أريد تقديمه هنا هو فكرة الضعف للقوة "هل يمكن

هل يمكن أن نضعف دون مساس بكرامتنا؟

أن نضعف كيما نقوي؟"

والخوف من الضعف قد سبق أن أشرنا إلى مخاطره من احتمالات يقابل بالترك والإهمال وعدم الرؤية وعدم الاعتراف به، وهنا بعد آخر نابع من معتقد .

شائع هو أن الضعف قرين المهانة أو المذلة، وبالتالى فإن الخوف من الضعف ومن إظهاره بشكل خاص يرجع أساسا إلى مظنة الحفاظ على الكرامة، ولا يسمح الإنسان لنفسه – إذا – بالضعف، إلا إذا اطمأن إلى أن الآخر سيحترم ضعفه هذا فى الأغلب لأنه ضعيف مثله، وفرق بين هذه المشاعر وبين أن يقبل ضعفه لأنه قوى بجواره، فهذا يحمل امتهان الشفقه ومخاطر الاعتماد، وكأن المعالج الناجح هو الذى يقبل الضعف بضعفه الشخصى، وفى نفس الوقت يحتوى الضعفين (ضعفه وضعف مريضه) بقوته الذاتية فى آن واحد، وفى هذه الحالة يستحيل افتراض أى امتهان يلحق بمن يظهر ضعفه أمام مثل هذا المعالج (أو مثل هذا الإنسان).

(٢٠٥) الصرخة المسموعة:

تحدثنا فيما سبق عن الآه المكتومة عند الفصامى وعن دلالتها لطبيعة استغاثته (ص ٤١٢) وعن صرخة البارنوى واستنجاده (ص ٢٩٤ وبعدها) وعن استغاثة الهوسى فى رحلة العودة ... (ص ٢٤٣، ٢٤٩)، وهنا نعرض البعد الإيجابى لما يمكن أن يسمى الصرخة المسموعة أو الصرخة الآمنة The heard scream (or the safe scream).ولابد أن نشير هنا إلى علاج خاص ظهر فى الولايات المتحدة وسماه صاحبه (أرثر جانوف) علاج الصرخة الأولى Primal scream[2]

وأهمية الصرخة هو أن تجد من يسمعها، ومن يعيد صاحبها إلى توازنه، أو بتعبير أدق من يسمح لصاحبها بأن يعود إلى توازنه .. فى وجوده، وهذه الصرخة إذا عمقت للدرجة الكافية فإنها قد تمس جوهرا عميقا يكاد يقابل المرحلة الجنينية أو الصرخة الأولى عقب الولادة مباشرة .

"أن يصرخ كل جنين فينا حتى يسمع"

وسماع الصرخة هنا يتعدى – بداهة – مجرد السماع، إلى مفهوم "الرسالة – والعائد" (ص ٦٠)، لأن سماع الصرخة فى ذاته لايعنى شيئا ولايبنى شيئا ، وإنما ما تحمله الصرخة من الإقرار بالسماح، والطمأنينة إلى وجود الآخر، والأمان إلى القدرة على إعادة التوازن بعد إظهار كل هذا الضعف، هو الذى يؤدى بالفرد إلى الاستفادة من هذه الخبرة.

ولابد من الإشارة هنا إلى التفرقة بين هذه الصرخة المسموعة (أو الآمنة) وبين الصراخ الانشقاقى الصاخب فى بعض النشاطات التفريغية المسطحة مثل حفلات الرقص الصاخب، أو الذكر الانشقاقى،

2- ظهر هذا العلاج حول الستينات ثم أنحسر رويدا رويدا بعد أن بولغ فى النتائج المتوقعة منه، وهو علاج يعتمد على خطوات محددة تبدأ بنوع نسبى من الحرمان الحسى، يعقبها تدريبات خاصة يسمح فيها للشخص أن يصرخ وأن يتصاعد صراخه حتى يستعيد ألمه الدفين الذى ألغى به جزءا من وجوده، ويتكرر هذا التدريب فترة محدودة تصل إلى أسابيع يلتحق بعدها المريض بالعلاج الجمعى التأهيلى.

أو الزار التفريغى، وكل هذه النشاطات قد تكون لها فاعلية تفريغية، ولكنها ليست وظيفة بنائية بالمعنى الذى نقدمه فى هذه الأزمة النموية الخاصة.

(٢٠٦) الطفل القادر:

وإذا أصبح الضعف ليس إهانة، ووجد من يسمع الصرخة بحقها ومعناها، وكان هذا وذاك من خـــلال يقين بقدرة صاحب الأزمة على استيعاب الكاسب السابقة والاعتماد على الصلابة التى تحققــت حتـــى منتصف العمر، إذا تم كل ذلك أصبح إطلاق الطاقات الداخلية التى يمثلها ما يـــسمى "الطفـــل" ممكنـــا، "والطفل" إذ ينطلق فى ظل هذه الظروف الجديدة إنما يكمل مسيرة التربية، ويصلح ما فـــات الـــشخص من فرص سابقة.

وأحب أن أؤكد فى هذه النقطة أنه بقدر ما افترضنا أن النمو عملية مـــستمرة لابـــد أن نفتـــرض أن التربية عملية مستمرة، وأن فرصة إصلاح أى خطأ ممكنة، وخاصة إذا لحقناها أثناء الأزمات التاليـــة، وإطلاق الطفل فى هذه المرحلة المتأخرة من النمو (منتصف العمر) أكثر أمانـــا، لأن الإنـــسان يطلـــق طفله من موقع القوة وفى حماية القوة، فلا خوف هنا من إطلاق ما بالداخل، لاخوف عليه، ولاخـــوف منه، وكذلك لا مطمع فيه بمعنى أن ماتحقق من نجاح لم يعد يحتاج إلى أن يـــصبح الطفـــل داخلنـــا أو خارجنا مجرد مشروع استثماري

"أن نطلق قيد الطفل بلا خوف .. وبلا مطمع"

ولابد أن نضيف هنا بعدا يوضح العلاقة بين مفهوم الطفل فى الداخل، ومفهوم الطفل الحقيقـــى فـــى الخارج، ونستطيع التعميم فى هذا الموقع قائلين:

إنه بالرغم من اختلاف التفاصيل .. فإن التشابه شديد لدرجة أن القواعد العامة يمكن أن تنطبق علـــى الحالتين بدرجة ما من الاتفاق، ومعنى ذلك أنه إذا كان يلزم لنمو الطفل عادة درجة من الانطلاق دون خوف، ودون استغلاله المطلق كمشروع استثمارى، فإن نفس الشروط لابد وأن تنطبـــق علـــى إعـــادة إطلاق الطفل من داخلنا فى نبضات النمو التالية، فى مثل هذه الأزمة المسماة "أزمة منتصف العمـــر"، أما كيف يكون الطفل آلة استثمارية فى هذه الصورة الجديدة، فقد سبق أن أشرنا إلى مثل هذا الاحتمال فى عرض اضطراب الشخصية السيكوباتية حين ينقلب نركيب الشخصية ويطلق الطفل إلى الخـــارج لا انطلاق نمو نابض، وإنما ليستغل فى إعطاء النوازع الأولية والغريزية شرعية تخدم البدائية والحـــسية اللذية دون النمو فى المسيرة الولافية.

وفى الموقف العلاجى، يسمح المعالج بإطلاق الطفل فى أمان نسبى، يعوض به ما كان من خـــوف أو استغلال، شريطة أن يتمتع المعالج بالصفات المسئولة اللازمة التى تجعل هذا الإطلاق لحـــساب النمـــو

وليس لحساب التلوث والاعتمادية، ولا بأس من أن نكرر ضرورة تمتع مثل هذا المعالج بصفات "السماح .. والرعاية .. والاستقلال .. والوعى الحذر معا".

(٢٠٧) الفرصة .. مع التوعية:

وإذ ينشأ الطفل – صغيرا – أو يطلق كبيرا – فى هذا الجو الواعى الآمن معا، ويدرك من خلال الممارسة أنه ليس "شيئا" يستعمل فحسب، وأنه امتداد حقيقى للأقدم، وأن نجاحنا ونجاحه هو أن يكون أفضل، وأن كل ما أخر إطلاقه وحد من حريته فى فترة سابقة كان بقصد أن يكتسب من الخبرة والوعى ما يؤهله هو إلى أكمال المسيرة فى ظروف أفضل .. إذ يدرك كل هذا، يصبح خروج طاقاته إلى عالم الواقع تنمية حقيقية لقدراته، وإضافة لازمة لمسيرة التطور عامة، وتصبح خطواته قوية وتلقائية دون خوف عليه من سوء الاستعمال باعتباره ذلك "الطيب الأبله"، أو من طول الكبت باعتباره ذلك "الساذج العاجز"

"هل يمكن

....

أن يعرف أنا لا ترجو منه شيئا

إلا أن يصبح أسعد منا

ألا يخدع"

(٢٠٨) الغد .. افضل:

وهذا اليقين التطورى بأن الغد دائما أفضل هو الذى يحافظ على استمرار المسيرة، ذلك أن طريق التكامل يبنى أساسا على اعتبار أن فى الامكان – دائما – أبدع مما كان، وأن "فرط الحرمان" .. حتى لو غطى مرحليا "بفرط القوة" ليس إلا اضطرارا سابقا لاينبغى أن يتكرر هو هو بنفس حجمه، وإلا انغلقت دائرة التطور فى حلقة مقفلة، فالاعتراف بقسوة الحرمان، وريف القوة (مالم تستعمل كوسيلة لضمان ثبات خطوات مسيرة التطور) هو السبيل لإعطاء فرصة أفضل لجيل أفضل.

والواقع أن التربية لايمكن أن تتصاعد أو تتقدم إلى الأحسن إلا من واقع نمو شخصى للمربى ذاته، أى أنه مالم نجرؤ على إطلاق الأطفال داخلنا فى ظروف أفضل صنعناها نحن بالخبرة والآلم والحرمان واكتساب مقاليد القوة والصبر على التأجيل ، فلن نستطيع بحال من الأحوال نعطى أطفالنا مالم نقدر عليه ولو بدرجة متواضعة.

فمسيرة التكامل بما فيها من فرص إطلاق الطفل داخلنا فى ظروف أفضل هى الضمان الوحيد لنوعية ما نعطيه لأطفالنا (خارجنا) من فرص أفضل

"فلكم قاسينا من فرط الحرمان ..

وفرط القوة

ولكم طحنتنا الأيام

والأعمى منا يحسب أنا نطويها طيا"

(٢٠٩) بعض متطلبات التربية الصحيحة:

فالأساس الأول للتربية السليمة هو "تهيئة الظروف الأمثل فى نوعية المحيطين بالشخص النامى – الطفل أساسا – بحيث يمكنهم بتلقائية أن يحققوا تهيئة الظروف المناسبة للأصلاح المستمر للمعوقات المرحلية الضرورية أولا بأول" وأهم معبر للتوجيه والتعليم هو "نوع" العلاقة القادرة على الدعامة دون خنق

"سأقول لكم كيف

كيف يكون "الإنسان الحر"

والحرية التى أعنيها هنا، هى القدرة على النبض المتلاحق السامح بالتغير، أى أنها الحرية الداخلية التى تتيح فرصة الحركة القادرة على اختراق الحواجز التى كانت لازمة ومقبولة فى مرحلة سابقة، وبدون هذه الحرية الداخلية يستحيل أن نطمئن إلى أى حديث حول حرية خارجية.

والحرية الداخلية هى التى تسمح بالحركة، وبالتغيير فى أى اتجاه، وبالتخلى عن أى عقيدة ثابتة، أى باختصار: باستمرار حركة النمو.

على أن أى انبعاث للطفل الداخلى، بعد فرط هذا الحرمان وطول ذلك التأجيل، هو انبعاث يتطلع إلى فرصة كاملة فى الحنان والانطلاق غير المشروط والتقبل الكامل غير الموجه، ورغم أنه من حق أى كيان نام أن يأمل فى مثل هذا القبول أو أن يحلم به إلا أنه مطلب محفوف بالمخاطر، وقد علمنى مريض فى وهدة مرضه الفصامى أن الحب ينبغى أن يكون غير مشروط، إلا أنى تبينت فيما بعد استحاله ذلك، وفى العلاج النفسى يقع المعالج فى مأزق خطير تجاه هذه المشكلة، فمن حيث المبدأ يجد أن من حق المريض (والطفل الخارج) أن يحصل على حب غير مشروبا ولكنه فى نفس اللحظة يشعر بمسئولية توجيه هذه الطفولة إلى البناء والتكامل مع بقية أجزاء الشخصية؛ فإذا هو وضع شروطا مسبقة نقصت درسه اللازمة للبناء، وإذا هو ترك الحبل على غاربه تخلى عن مسئوليته التربوية، والحل الواجب الذى لايقدر عليه إلا ذو خبرة وموقف يحتمل التناقص (والد أو معالج)

هو السماح الكامل الحقيقى من حيث المبدأ، مع اليقين بالقدرة على التدخل المناسب بعد الطمأنينة المبدئية التى يتلقاها المريض بصدق كاف

"يترعرع فى أمن الخير

ينمو فى رحم الحب

حب الكل بلا قيد أو شرط"

(٢١٠) الحب المطلق، والحب المسئول، والحب المشوه:

إذا، فهذا النوع من الحب المطلق هو الأرضية الأساسية لأى نمو تربوى، وأى تكامل محتمل، ومن صفات الحب الإيجابى أيضا قبول الخطأ .. مع القدرة على المساعدة على منع التمادى فيه وهذا هو الحب المسئول .. وفى نفس الوقت فتح الباب دائما للتراجع عنه 3

"حب يقبل خطئى قبل نجاحي،

حب يقظ يمنعنى أن أتمادي،

يسمح لى أن أتراجع"

أما الحب المشوه فهو الحب الذى يركز على القشرة الخارجية، ومجرد النجاح والإعلاء من شأن القيم التنافسية (كما ورد سابقا وكما سيرد بعد).

واحتياج الإنسان أساسا وهو طفل صغير، ثم وهو يسمح لطفله الداخلى باستعادة النشاط للحصول على مافله، يعتمد أساسا على تغذية الحاجة الأساسية للشوفان، وللاعتراف، وللتقبل الكلى

"حب الأصل، لاحب المظهر والمكسب

وبريق الصنعة

تمشى فى غير هدي

تلبس أقنعة المال، أو نيشان السلعة"

وسوف نعود فى الجزء الثانى من هذا الفصل لتفصيل هذه المكاسب "الوسائل" إذا ما أحسن استعمالها، أو إذا ما انقلبت إلى غايات فى ذاتها.

(٢١١) الألم الفعل .. والناس والحب:

مرة ثانية لامفر من مواجهة شرح هذه المفاهيم الضرورية لاستيعاب مواصفات التكامل، وقد سبق أن أشرنا إلى "الألم النفسي" باعتباره قيمة قائمة إيجابية بذاتها، ولايمكن أن نعلى من قيمة الألم فى ذاتها لأنها تصبح تعذيبا لامبرر له، وإنما الألم الإيجابى هو الشعور الدال على الوعى بعدم التكامل والدافع فى اتجاه التكامل من خلال إرادة مناسبة للتقليل من فائض حدته مع المحافظة على ثروة طاقته، وهذا "الألم الفعل" هو أسمى شعور إنسانى إذ يحمل معنى عمق الوعى وشرف الحركة.

أما مفهوم الحب فلن أعيد الحديث فيه بعد أن طرقته فى أكثر من موقع فى هذه الدراسة، أما التأكيد هنا فينصب على هذا الترادف "الناس الحب"؛ بمعنى أن الحب بالمفهوم التكاملى إذ يبدأ باثنين قد يجمع بينهما الاحتياج أساسا لا يمكن أن يستمر مستحقا هذا الاسم إلا إذا شمل الناس حتى ليصبح لفظ الناس بالمعنى الأشمل هو هو معنى الحب الذى يراد فى هذه المرحلة.

(٢١٢) استمرار المسيرة رغم قصور الرؤية:

ومع استمرار هذا الولاف التصاعدى ننتقل إلى مرحلة أخرى من التناسق وهو التناسق بين الذات ككل وبين الكون الأوسع، والمعنى الصو فى الذى سبق ذكره، وهو السعى إلى وجه الله تعالى "يسعى نحو الحق القادر"، ربما يكون موازيا لهذا المعنى المراد تقديمه هنا، وهو المعنى الذى يوائم بين الإنسان كبداية محدودة باعتباره موجز التطور جمعيه أو الكون الأوسط، وبين الكون الأعظم كنهاية المطاف إذا ما بلغ التكامل مداه، وحين يتفق تناسق دورات الإنسان الفرد مع دورات الكون الأعظم يصبح التكامل فى قمة توافقه

"مثل الأول . مثل الآخر"

ولكن هذه الدرجة غير معروفة إلا باعتبارها هدفا مطلقا فى مختلف لغات العلوم والفنون، ولذلك فإن الاتجاه إليها هو غاية ما يمكن وصفه مرحليا

"القمة تمتد إلى مابعد الرؤية"

وهذا الاعتراف المتواضع بعجز الوعى البشرى عن الإلمام بالغاية القصوى للتكامل هو الباب الذى يمكن أن يدخل منه إعادة النظر فى علوم دينية وتوحيدية وصوفية ليست فى حدود هذه الدراسة، وإن كان لايمكن فصلها بحال من الأحوال عن معنى التكامل ومعنى الصحة الإيجابى المراد من هذا الجزء من الدراسة.

الجزء الثانى: تفاصيل اللعبة .. وحسن الختام

فى هذا الجزء سأحاول تقديم تفاصيل طولية لطبيعة المسيرة اللولبية الهادفة إلى استيعاب قيمة النجاح لخدمة حركة النمو الواقعية المسئولة، وهو جزء – كما ذكرت فى مقدمة هذا الفصل – محمل بجرعة شخصية لابد من الاعتراف بحجمها ابتداء.

(٢١٤) "قوالب .. بغير خدش":

ذكرنا منذ قليل (ص ٥٤٢) كيف أن الحب البناء هو الذى يقبل الخطأ قبل النجاح (أو مثلما يقبل النجاح)، وهو القادر على السماح، وفى نفس الوقت القادر على المنع، كل ذلك فى إطار الاعتراف بحق الآخر فى الوجود "لذاته"، وليس كمشروع استثمارى فحسب، وهنا نبدأ برسم صورة للتربية الاستثمارية التى تحرص على صناعة "القوالب السليمة بغير خدش" Sans defaut فى خط طولى منتظم .. وهى من أقسى أنواع التنشئة وأكثرها تشويها لطبيعة النمو النابضة اللولبية

"وتعلمنا

تاتا ... تاتا

لاتتعثر"

والمشكلة فى هذا الفصل، لن تتركز على **شجب** أنواع التربية الخاطئة التى أشرنا إليها فى الفصل الثانى والثالث، بل سوف أحاول أن ننظر إليها من بعد تكاملى آخر يبدأ بالقبول المرحلى .. ونبدأ بالاعتراف أنه يستحيل أن ينشأ الطفل إلا تعبيرا عن الإناء الذى نشأ فيه (كل إناء بما فيه ينضح)، وأن الزعم بأن التربية الحديثة، أو الصحية، هى نتاج نظم تعليمية أو قيم سليمة توضع فى عقول ووجدان الأطفال من خلال خطط خاصة .. هو زعم يحتاج إلى تقييم عميق قبل التمادى فى الأخذ به، حيث أنه فى خبرتى – كما ذكرت – أن الشيء الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه لأطفالنا هو "تغيير جذرى فى أنفسنا وفى مجتمعنا"، ثم ينضح هذا التغير بما يسهل مسيرة الطفل التلقائية، ومادام الأمر كذلك، فإن اكتساب القيم القائمة، مهما كانت بشعة، هو أول خطوة لإمكان ضربها فى الوقت المناسب بالقدرة الكافية، بل إنه لاسبيل غير ذلك، أما المعارك قبل الأوان والمثالية .. فهى مفيدة فى إعلان طبيعة الاحتياج وضرورة التغيير، ولكنها خطر فى أنها قد تعطل المسيرة؛ لأنها قد تكتفى بهذا الإعلان؛ وقد تكون دالة على مجرد "تكوين رد فعل هروبي" ليس ذا فاعلية.

ففى المجتمع التنافس .. لابد أن يكسب الناشيء قيما تنافسية.

وفى المجتمع العمل القهرى .. لابد أن يكسب الناشيء قيم العمل القهري.

وبعد أن يحذق هذا أو ذاك أو غيره بالقدر الكافى، يمكنه أن يستعمله هو هو للتغير إلى الأحسن الذى قد يكون عكس ما بدأ به تماما، وهكذا ...

والخوف من أننا بهذا الحذف المرحلى لما هو قائم قد لا نفعل إلا أن نكرر وجودا عاجزا أو فاشلا أو مهزوما، يرد عليه بأن اكتساب مهارة الخصم هى أول الخطوات للانتصار عليه.

والسؤال التالى يقول .. ومن يضمن عدم النسيان والتمادي؟

والجواب .. لا مفر من المخاطرة!

أى أن من يريد التغيير الجوهرى لمسيرة الإنسان فى الاتجاه النابض السليم لابد وأن يأخذ بالمخاطرة وبحسابات فى غاية الدقة والألم ...، وهذا الأمر يتوقف على ظروف متعددة لا مجال لشرحها هنا تفصيلا، إلا أنى اعترف مع الحائفين أن هذه المغامرة خطرة بكل معنى الكلمة، وأنى لا أقدم ضمانا لنجاحها إلا إذا كانت هناك خطة مسئولة وشاملة للأخذبها والمناورة من خلالها، حتى يتزايد بذلك عدد القادرين رويدا، بحيث يصبح خطرها أقل من خلال بذل الرواد الأوائل دون الانخداع فى الشعارات أو الاكتفاء بالمثالية العاجزة، والخطر ينشأ من أن الاحتمال الأغلب لمن يقدم على هذه المغامرة (اكتساب القدرة ثم استعمالها للتغيير) يأتى من مصادر متعددة:

١ – أن طول العهد باستعمال وسائل اكتساب القدرة قد يجعل صاحبها يتعود على أساليب فى الحياة لايستطيع التخلص منها حين يأتى الوقت المناسب.

٢ – أن فرط الألم الذى يبذل (ضد الطبيعة الداخلية النقية) لحين الوصول إلى الموقف الــذى يــصبح الرفض فيه بناء، أقول إن فرط الألم يحدث الإنهاك مما يعجز الإنسان عن إ كمال معركتــه الحقيقيــة حين يأتى أوانها.

٣ – إن فرط الألم الذى يحدث عادة إنما يحدث تحت الوعى بدرجة ما، بحيث تصبح الإفاقة لتحويــل المسار خطرا يحمل التهديد بمواجهة مجموع "كم" الألم الذى صاحب هذه المسيرة بكل عنفها .. جرعة واحدة، وبالتالى فإن الشخص يفضل التمادى فى اكتساب مزيد من الوسائل تجنبا لمواجهة "حجم" مادفع لاكتساب القدرة اللازمة للتغيير.

٤ – إن تحمل مسئولية هذه المخاطرة بوعى كامل منذ البداية يعتبر تهديدا شديدا، لأن مثل هذا القرار يبدأ منذ الطفولة، ويكون داخليا فى العادة (فى اللاوعي)، وإن كانت طبيعة خطوات المسيرة يمكــن أن تقترب من الوعى أكثر فأكثر فى أزمات النمو المتلاحقة ..، وإعلان هذا القرار الداخلى بمسئولية كافية يصاحبه تهديد مباشر بالتناثر.

لكل ذلك كان النصح بهذه الوسيلة أمر مشكوك فى احتمال نجاحه لكل الناس إلا أن اتباعها أمر شــائع أكثر من ادعاء غير ذلك، والذى نقدمه هنا هو اقترب أكثر فأكثر من واقع الأشياء بحيث نقول بإيجاز: "لامفر من اكتساب القدرة حتى لو بدت خطرة ومشوهة، .. حتى يمكن التغيير" والتناوب الــذى أشــرنا إليه بين الاندفاع والتمدد، بين البسط والاستيعاب فى مسيرة النمو يسمح بذلك، إذا فنحن نؤكــد طبيعــة بيولوجية ونسمح لها بمداها الطبيعى ونساير إيقاعها، لا أكثر ولا أقل ..، والنصيحة الواقعية فــى هــذا الصدد هو أن نتبع فى ذلك أسلوبا مرنا فى استيعاب القدرة، يسمح للنبضة التالية، وخاصة فى منتصف العمر، باختراق الدعامات السابقة وتخطيها، أى أن القدرة التى لابد من اكتسابها ينبغى أن تكون "سندا" تحت إبطنا يسمح بالتدريب على المشى حتى نصبح أكثر طولا منه فيقع وحده، وقد نلجأ لغيره وهكــذا، ولكن لاينبغى أن يكون حذاء فولاذيا فى أقدامنا يحول دون أى نمو فى أى اتجاه.

(٢١٥) خطورة القيم القائمة:

والمشكلة الأكبر هى أن القيم المطروحة فى مجتمع خائف منافس متجمد هى قيم شــديدة الإنهــاك .. ويمكن أن تكون مشوهة تشويها لابد منه، ومع ذلك فحربها والانتصار عليها لن يتم بالأمــانى الطيبــة والصياح الطفلى رغم بشاعتها الظاهرة

"وتعلمنا ... سرا أخطر

قال الكلمة : شيخ المنسر

افتح سمسم : أنت الأقدر

تحفظ أكثر : تعلو المنبر

تجمع أكثر : ترشو العسكر

وخيوط التشريفة من جلد الأفعى المغبر"

ويمكن إيجاز ماورد فى هذا المقطع من قيم سيئة فى ذاتها ... (لازمة مرحليا فى نفس الوقت) على الوجه التالي:

١ – قيمة كلمة السر (السيم):

لكل حرفة، أو صنعة، أوحتى تجارة "لغة خاصة"، تسمى بين أهل الحرفة "السيم"، ويعنون بها أحيانا "سر المهنة" الذى لايصح أن يشيع بين العامة، ولا أن ينتقل لمن هم فى خارج دائرة حاذقى الحرفة أو محتكرى "الكار"، حتى لاتسهل منافستهم، وهذه القيمة تعلن أمرين: الأول: الخصوصية فى التعليم، والثانى: التنافسية فى عراك الحياة، والمتعمق فى ما يجرى فى التربية يجد أن هذه القيمة موجودة بشكل أو بآخر فى كل مجتمع يتصف بهاتين الصفتين "الخصوصية – والتنافسية"، فلكل أسرة فى المجتمع التنافسى "سيم" تربى به أبناءها، وتميزهم عن غيرهم، وتوحى لهم أن من يتبعه يفوز على العالين لامحالة، وهذه القيمة تسرى فى العائلة، وفى المجتمع الصغير (مايقابل القبيلة) بشكل لاشعورى، فهى ليست بالضرورة كلمة معلنة، وإنما هى تشير إلى أسلوب خاص ينبغى أن يحذفه من أراد أن ينتمى لهذه المجموعة ليحظى بتفضيل خاص ومزايا خاصة، وعادة ما ينفى ويضطهد ويتهم بالفشل من يعجز عن اكتساب هذه القيمة بغض النظر عن قيمتها الحقيقية، ويتم ذلك على نفس قياس تعليم الحرفة، فإن من لايحذق سرها يطرد من ممارستها، كذلك من لايحذق "كلمة سر" العائلة الخاصة (أو المجتمع الخاص) ينفى منها بشكل أو بآخر.

وخطورة الإعلاء من هذه القيمة تأتى مما يترتب عليها من (ا) تحديد حركة النمو فى إطار مسبق، و (ب) التمييز الفئوى المعوق للانتشار العرضى لكل الناس، و (جـ) السرية الخاصة التى تتغلف بها فى العادة.

فهذه القيمة كما ذكرنا ليست قيمة ظاهرة ولكنها نمط داخلى يمكن استنتاجه حدسيا أولا وقبل كل شيء.

وأى سمة خاصة، أو كلمة سر أوسيم تميز فئة من البشر تقابل من الآخرين الذين لايعرفونها بالرفض والنفور حتى ليعتبروها سلبا لحقهم فى المساواة على الأقل.

ولابد من الاعتراف أن هذه القيمة تدخل ضمن واقع الإنسان الحالى فى هذه المرحلة من تطوره، أما بالنسبة للرؤية الطولية فهى لابد ستتمحى مع تواصل الإنسان مع أخيه الإنسان أكثر فأكثر، وخفوت الألوان فاقعة التمييز بين الفئات، أما بالنسبة لمفهوم الصحة والمرض، فإن هذه السمة تقل قيمتها ويزداد الاعتراف بها فى نفس الوقت كلما صعدنا درجات سلم التكامل على مسار النمو.

٢ – القيمة التنافسية:

سبق أن أشرنا إلى هذه القيمة ص ٦٦ و ٦٧، وكل ما يمكن إضافته هنا هو أن هذه القيمة الذاتوية الفئوية الحاصة رغم ما تحدثه من تشويه لاجدال فى خطره تبدو – أيضا – لازمة فى هذه المرحلة من تطور البشر، لكن واجب المربين والحريصين على استكمال مسار النمو أن يحددوا الجرعة التى تحافظ على الفرد فى دنيا الواقع التى ليست هى الجنة، وفى نفس الوقت، أن تسمح له مرونة الحركة بتخطى هذه القيمة فى الوقت المناسب.

٣ – القيمة الترديدية:

سبق أيضا أن أشرنا إلى نوع التعليم الذى يعلم نفس الكلمات بنفس المعانى، ثم إلى ترجيح المنطق الخطى والحفظى، فأشرنا إلى مافى التربية التى ترجح التفسير المنطقى الحاسب المجزيء على التفكير الفنى الارتباطى من نقص (ص ٨٣)، كما سبق أن حذرنا مما أسميناه "العلم اللفظى" فى إعاقة الإحساس بالنبض الأعمق للمعرفة (ص ١٣٧)، وهنا نشير إلى نوع التعليم الذى يعلى من هذا وذاك، فإن التركيز على الحفظ والترديد هو القيمة الغالبة وخاصة فى المجتمعات ذات الفرص الأقل، والتنافس الأكثر، وبديهى أن فرط الترديد – مهما أتقن – يتناسب تناسب عكسيا مع قدرة إعادة الترابط والخلق، ومع ذلك فنحن نورد كل سلبيات هذه القيم حتى إذا ما أشرنا إلى ضرورة اكتسابها لمرحلة محدودة كنا نقول ذلك من موقع التأكيد على سلبياتها من حيث المبدأ.

٤ – القيمة التسهيلية:

كذلك يغلب على التربية قيمة اختصار الطريق إلى ماهو أسهل، وما يظهر على أنه أربح بأقصر الطرق، والتحذير هنا، وقد سبق أن أشرنا إليه أيضا فى أكثر من موقع، ينصب على ضرورة إعادة تعريف كلمات "الأربح" "والأسهل"، فإذا قبلنا بالتعريف الشائع تأكيد لهذا الطريق النموى المناور الذى نؤكده فلا بد أن يكون قبولنا حذرا ومرحليا مثل كل قيمة نعرضها فى هذا الموقع.

٥ – القيمة التخزينية:

أشرنا أيضا (ص ٧٤) إلى ظاهرة التخزين، ودفاع التكاثر (ص ٧٥) وكيف أن هذا وذاك يدل على عدم أمان، كما أشرنا إلى أن هذا اللا أمان لايؤدى إلا إلى "الوجود المثقوب" (ص ٢٩٧)، ومع ذلك فنحن نرجع هنا نشير كيف يمكن أن تكون هذه القيمة، مثل القيمة التحصيلية، هى وسيلة للحصول على أبجدية لقدرة، والموقف يتوقف بعد ذلك على كيفية استعمالها واتجاه استعمالها.

٦ – القيمة السلطوية:

سبق أن شرحنا ثمن السلطة والقيادة، وكيف يدفع. الشخص القائد أو الطاغى أو المعتمد عليه ثمنا هائلا من حقه فى الوجود (راجع ص ٩٨)، ونعود هنا نؤكد أن هذا التحذير ينبغى ألا يعنى التوصية

بالتنازل عم مسئولية القيادة، وإنما ينبغى أن يؤكد أن السلطة إن لم تكن وسيلة لاتساع دائرة النفع، وتسهيلا لدفع عجلة التواصل ومسيرة النمو، فهى قيمة خادعة محفوفة بالمخاطر ...

***

وهكذا وبعد تجميع هذه القيم التى تغلب على حياتنا المعاصرة بشكل مفرط، مباشر أو مخادع، ماذا يكون موقف الشخص على طريق التكامل منها؟

إن رفضها المبدئى بشكل مطلق ومثالى لابد وأن يرمى بالشخص النامى فى انشقاق نكوصى يحول دون اكتسابه قدرات أسلحة الرحلة الطويلة ..، كما قد يثير شكوكا حول حقيقة الرفض، وما إذا كان من نوع تكوين رد الفعل، Reaction formation أم لا.

كما أن قبولها تحت عناوين براقة وخادعة، سوف يخفى حقيقة بشاعتها وخطرها على النمو.

ثم إن القول بها تحت أمل المناورة والتخلى عنها، حين يلزم ذلك، لهو مخاطرة لاأمان منها، ولايمكن معرفة كم التبرير فيها.

أما قبولها بحجمها الحقيقى: أى بشاعتها المشوهة، وخطرها المحدق، وخداعها الاغترابى، وضرورتها الوسيلية، أقول إن هذا القبول إذا تم بوعى كامل، لابد أن يحمل جرعة من الألم لازمة للحد من خطورة النسيان والتبرير والتأجيل، ولكن ضبط جرعة الألم، مع ضبط سرعة الحركة واتجاهها أمر صعب لايقدر عليه إلا من أتيحت له فرصة الاستمرار فى مسيرة النمو فى ظروف ملائمة.

من هنا، ونكرر ثانية، لابد من تحديد طبيعة الموقف الأخلاقى فى ممارسة الطب النفسى من ناحية، وفى رحلة التكامل من ناحية أخرى، ولابد أن نعترف أن التكامل كما يوصف هنا ليس رحلة عامة لكل الناس أو هى حتمية، بقدر ماهو وصف محدد من منظور واحد يتعلق بممارسة الطب النفسى والعلاج النفسى بوجه خاص.

فالموقف الأخلاقى الذى طرح فى بداية هذه الدراسة قد حاول أن يشجب قيما أسماها زائفة، فى مقابل إعلاء قيم أخرى أسماها فطرية أو أصيلة، ولكن هذا الموقف لم يكن موقف المؤلف أو موقف هذه الدراسة بقدر ماكان تقمصا لموقف "الداخل البشرى الطفلى أساسا"، الذى يستعيد نشاطه فى أزمة المرض، فيعيد النظر فى "الخارج السلوكى" المسطح الذى أعاق حركة النمو البشرى والتكامل، ونحن نعود هنا لنطرح القيم الزائفة أو بتعبير أدق الزائلة أو المرحلية، لابوصفها الأخلاقى، ولكن بوظيفتها فى رحلة النمو.

ولابد أن نعترف أننا فى ذلك نعترف بشكل أو بآخر بعلاقة التطبيب النفسى بما يمكن أن يندرج تحت "الأخلاق النفعية"، فممارسة الطب النفسى، بما فى ذلك العلاج النفسى، هى حرفة تحترم قيما نفعية

(براجماتية) مرحلية، وتعتمد على اجتهادات اختبارية (إمبريقية) أساسا، وتهدف إلى استمرار المسيرة بالقدر الممكن بالتوازن دون النظر إلى مطلقات نظريه، ولانفتح الباب أكثر من ذلك لنقاش نظرية في طبيعة الأخلاق أو تعريفها أو فاعليتها، فهذا ليس مجال دراستنا، ولكن اعترافنا هنا ينبع من منطق التزامنا بإيضاح مسيرة الإنسان الصعبة على طريق التكامل.

وهذه القيم الست التى وردت فى هذه الفقرة .. هى التى يرفضها المثالى من موقع خوفه من مغامرة خوضها، خوفا من الخلط بين الغاية والوسيلة، وهى التى يرفضها المريض – بلا بديل – فى أزمته الحادة من موقع فشلها فى إثراء وجوده وتطوير مسيرته، وهى هى التى يرفضها الفرد السائر على طريق التكامل فى أزمته المفترقية ولكن من موقع استنفادها أغراضها وانتهاء مرحلتها، ثم يقوم بتسخيرها كوسيلة للخطوة التالية، والمقياس النفعى فى هذا المقام يصبح بالضرورة مقياسا نسبيا يتعلق بعدة مستويات وأبعاد لابد من أخذها فى الاعتبار بدقة متناهية، إذ يتغير معنى النفع مع مدى الرؤية وطبيعة الوجود فى كل مرحلة:

١ – فالنافع أو القيمة النافعة: هى ماتحفظ على الشخص تماسكه بأى صورة – لفترة ما – فى مقابل تناثره وعجزه.

٢ – ثم تصبح القيمة النافعة: هى التى تحمل فى ذاتها مقومات هدمها منذ البداية بحيث تسمح بالقضاء عليها من داخلها .. كما تقبل – ضمنا – التراجع والتحلل تحت ضربات حركة النمو الداخلية، ومرتبة الانتماء الأعلى والأقدر خارجيا، ونفعها ينبع من سماحه للفرد بنمو أكثر ووجود أعمق.

٣ – ثم القيمة النافعة: هى القيمة محددة المدة، بالقدر الذى تستنفذ فيها أغراضها المرحلية، وبالتالى هى القيمة المتغيرة نوعيا لدرجة اختفاء معالمها الأولية.

٤ – وكذلك تكون القيمة النافعة: هى القيمة التى تحافظ على التماسك فى نفس الوقت الذى تسمح فيه بحركة النبض الداخلى، حتى إذا آن الأوان وتهيأت الظروف لأن يحدث البسط الداخلى، لاتقوم بمقاومته والحيلولة دون انطلاق النمو.

٥ – أى أن القيمة النافعة: هى التى تحقق أهدافها فى الدائرة التى تمثل مركزها، وذلك أثناء مرحلة فاعليتها المحدودة بتحقيق هدفها المؤقت.

ودوائر النفع تبدأ بأنانية الطفل الواقعية العملية المحافظة على الحياة، وتنتهى بإصلاح العالم بداية بالفعل اليومى الموضوعى المستمر.

ومن هذا المنطلق نجد أن رحلة التكامل كما تقدمها هذه الدراسة، هى الرحلة التى يتم فيها تعميق كل مرحلة من مراحل النمو بالدرجة التى تسمح بانتهائها.

فإذا تحدثنا مثلا عن "أنانية الطفل" كان الهدف التربوى والنموى هو هو تعميق هــذه الأنانيــة ولــيس وصمها أو إبدالها قبل استنفاد أغراضها، فالطفل أنانى للحفاظ على حياته، وعلى ممتلكاته، بما فى ذلك امتلاكه لأمه وأبيه، وعلى نوعه بالتالى، وبقدر ما يسمح له بتعميق هذه القيمــة، بقــدر مايــستطيع أن يتخطاها بعد أن يطمئن إلى قدرته على تخطى مرحلتها .. وهكذا وهكذا، والمشكلة التربويــة القائمــة لاتكمن فقط فى جهلنا بطبيعة النمو النابض المتتالى للإنسان، ولكن تنشأ أيضا فــى فــى نقــص نمــو المربين، مما يترتب عليه أن يستعمل الأطفال والصغار "مسقطا" لأمانينا وأحلامنا أكثر مــنهم كيانــات بيولوجية متعددة المراحل، متغيرة الأحوال من البداية إلى النهاية حتما.

والموقف العلاجى – الذى هو تصغير وتكثيف لرحلة التطور – يعلن فى بداية تقويمه لأزمة المرض، يعلن حجم الرفض لهذه القيم التى استنفدت أغراضها، ويظهر ذلك فى شكل مــرض نفــسى أو عقلــى (بداية الذهان النشط خاصة)، كما أنه يعلن أيضا حجم التشويه الناتج عن استمرار هذه القــيم بعــد أن استنفدت أغراضها (العصاب واضطراب الشخصية)، ووظيفة العلاج (التى هــى – للمــرة الثانيــة – مصغر ومكثف رحلة النمو) هى قبول هذا الرفض من حيث المبدأ، ثم إتاحة الفرصة لاستثماره وإعادة توجيه مساره إلى أعلى أو – إذا لم تتح الفرصة – فالوظيفة العلاجيــة هــى تأجيلــه حتــى يــستكمل ويستوعب المرحلة السابقة.

(٢١٦) الدورة الخطرة:

ومن هذا الواقع المؤلم تصبح رحلة النمو – إذا أريد لها دوام الاستمرار – رحلة خطرة، إذ أنها لابــد وأن تسير على أرض الواقع، وأن تغامر بخوض المراتب المتتالية من القيم المتغيرة، والدوائر المتغيرة المتعلقة بمفاهيم النفع المختلفة، ولا يحمى هذه المسيرة من التعجل أو الانشقاق أو السرقة .. إلا تناسب جرعة الرضا بتحقيق أهداف المرحلة، مع جرعة الألم المتحفز للحد دون التمادى فيها ...، ولهذا، فإن ما فى هذه العملية من عبء ومخاطرة يشير إلى ضرورة ضبط جرعة نضج المسئول عنها، بتناســب درجة السماح مع درجة الالتزام فى البيئة التى تتم فيها.

وأول خطوات هذه المغامرة هو اتقان "كلمة السر" أو "السيم" السائد الذى يسمح للشخص بالقبول مــن مجتمعه، ويطمئن المجتمع إلى قدرة الفرد على الاستمرار بنجاح، حتى إذا ما حان حين الرفض، جــاء من موقع القدرة، وباللغة السائدة القادرة على التواصل والتوصيل.

"وحفظت "السر"

وبعقل الفلاح المصرى ... أو قل لؤمه

درت الدورة حول الجسر"

ومن موقع شخصى، ومن خلال خبرتى العملية أيضا، يأتى هذا النموذج ليعرض "مثـالا" للرحلـة .. وحكمة الفلاح المصرى – كمثال – متعلقة بعدة قيم تطورية مرتبطة بمدى التقمص الـذى اضـطر أن يتقمصه هذا الإنسان "بالأرض وماتنبت"، وتحايل الفلاح المصرى عبر عشرات القرون على "المعيشة" يشبه بشكل أو بآخر تحايل النبات على اختراق طين الأرض، والـصبر أمـام تغيـرات الجـو حتـى الاستمرار فالإثمار، وما يقال عن لؤم الفلاح المصرى – تندرا أو إشاعة أو حقيقة – يمكـن ترجمتـه إلى لغة البقاء والتطور معا، فاللؤم الشائع يعلن من واقع خبرتى (الاكلينيكيـة خاصـة) حـب الحيـاة والإصرار عليها والتحايل للبقاء فردا ونوعا استجابة لشعور داخلى عارم وعنيف بعدم الأمان، وكأنـه يمكن أن يترجم إلى واقع مباشر يقول لسانه '..... رغم كل احتمالات الضياع، واختفاء الأمـان تحـت أكوام ما أحوى من آثار قسوة العدوان ... رغم كل ذلك فأنا أستطيع الاستمرار"

واستمرارا لهذه المقابلة بين الفلاح والأرض والنبات يمكن التأكيد على ضـرورة التوقيـت، وتـلاؤم البيئة لاستمرار عملية النمو (التكامل)، أما التوقيت فيشار إليه "بالدورة حول الجسر"، وكلمـة الـدورة يمكن أن تحتوى المقابل المعروف من الدورات الزراعية، كما يمكن أن تشير إلى دورات النمو اللولبية أو إلى التحليل لتجنب الاصطدام قبل الأوان.

والطفل (والنبات) لايدور دورته وعيا وبإرادة شعورية، ولكنها تعرض هنا – كما تعودنـا فـى هـذه الدراسة – من واقع رؤية تقمصية بأثر رجعي.

(٢١٧) البديل "الغني" ووظيفته:

والقيمة الشائعة على ألسنة الكافة، بديلا عن هذه الرحلة الصعبة، هى الإعلاء اللفظى للقـيم المثاليـة، وهذه القيم ذاتها هى فى الواقع هدف رحلة التكامل ولكـن بـشرط إمكـان تطبيقهـا باللغـة اليوميـة المتواضعة، وهذه القضية قد أرقتنى طويلا فى مجال عملى ونموى على حد سـواء، فكـل المرضـى تقريبا (عدا قلة قليلة من الذهانين والسيكوباتيين) وكثير من الشعراء، وغالبية الأقوال المعلية من شـتى الفرق (مع تضاد مواقفها) تحلولهم مشاهدة الصور الوردية والتغنى بالمطلق، أما إيقاع الحيـاة اليـومى وصراع البقاء فهو يحتم خوض المعركة بأسلحة الواقع، وأسلحة الواقع – كما سبق أن أشرت – ثمنهـا باهظ، وحين كنت أدفعها بوعى كامل أو نصف وعى أو حين كنت أعرضها على مرضاى، كنت أشعر بفداحة المقابل المطلوب، وأحاول أن أواصل دفعه مقسطا، واعذر المرضى الذين يعجزون عن دفعـه إلا بإلغاء الوعى بأبعاد هذه القضية وتناقضها أصلا، وفى قائمة أسعار هذه اللغة الواقعية (حمل السلاح اليومى .. والثورة باللفظ العادي) يوجد: الوقت (التأجيل)، والصبر، واحتمـال الاتهامـات المـشوهة، والنبذ من مجتمعات الاغتراب الكلامى ... الخ الخ، فإذا تحمل الفرد كل ذلك وأصر علـى الاسـتمرار الواقعى مع اليقظة العنيفة، والألم المناسب، فهو قادر على "حسن التوقيت" ومغـامرة التحـول، لكـن

المريض النفسى (والشاعر والثائر على الشاطيء، ومن على شاكلتهم) لايقدرون على هـذا الامتحـان اليومى الصعب، والأسهل لهذا وذاك هو ارتقاء منصب المصنف الأزلى لإصدار الأحكـام وتـصنيف البشر.

ولاشك أن هذا الموقف البديل هو موقف "فني" بالضرورة، بما فى ذلك الموقف المرضـى إذا أعـدنا رؤيتة من منطلق فنى، ولاشك – كما سبق أن ألمحنا – ان له دورا إيجابيا فى التحامه مع الكل .. وفى إنذاراته المتلاحقة لمنع التمادى فى وهم القدرة والاستدراج اللانهائى فى القيم المرحليـة، فهـو يمثـل الأطروحة المضادة Anti-thesis حفزا للولاف الأعلي.

أما فى مسيرة النمو، فلابد من اعتبار هذا البديل مجرد مرحلة (طفلية أو مرضية، أو فنية) سرعان ما يستطيع الشخص تخطيها إذا كان لنموه – الفردى – أن يكتمل، وكأنى بهذا أقول: إن الفـن (وبعـض المرض) مرحلة تبادلية لازمة أثناء النمو، ولكن التمادى فيها والتوقف عندها له من المخـاطر نفـس ماللقيم الزائفة (التخزين ... والقوة ... الخ) من آثار توقيفية لمسيرة النمو.

والخوف من هذه المرحلة الفنية ينبغى أن يكون محدودا بلزوم استمرار التطور، وليس خوفا مطلقا أو رفضا دفاعيا.

والتمادى فى الانخداع بهذه المرحلة الطفلية الفنية قد يسمح بالانشقاق المعطل، لا للفرد فحـسب، بـل للمجتمع كذلك، وذلك تطول أم تقصر حسب حركة المجتمع التطورية ومسيرة الفرد على طريق النمو.

ويتم الانشقاق بأن يختص من يمتلك والرؤية المثالية بالبريق الطفلى والأحـلام الورديـة، علـى أن يختص من يملك القوة والقدرة بتصريف الأمور لصالح التوقف المحلى فى أغلـب الأحـوال، وهـذا الانشقاق خطير على التطور بصفة عامة، بل لعلنا نلاحظ، من عمق معين، أن هذا الانشقاق قد يؤكـد كل جانب منه الجانب الآخر، بمعنى أن قوى السلطة والمال قد تشجع وتنمى قوى المثاليـة والطفليـة الفنية، مع ضمان مبدئى بعجزها عن الفعل المغير، كما نلاحظ مصداقا لهذا الفرض، أنه فـى أوقـات التحولات الثورية (نبضات البشرية عبر التاريخ: مع ظهور الديانات الجديدة أو بداية تحقيق الثـورات) يقل دور الفن ويخفت بريقه.

والحل التكاملى وسط هذا الانشقاق، هو الزيادة المضطردة فى عدد من يستطيع أن يمـسك بـالقطبين معا، ومن يستطيع أن يدخل فى كل دور بقدر الحاجة إليه فى مرحلة بذاتها.

وطبيعة عملى مع المرضى (وليس مع الفنانين) جعلتنى أتحيز تلقائيا ضد هذا الحـل الفنـى – رغـم تقديرى الشديد لوظيفته المرحلية –، وقد انعكس هذا التحيز على خطواتى الشخصية، فرجحت من واقع طبيعة ارتباطى بهذه الأرض، والتزامى نحو هذه العينة من البشر، أن اتقان استعمال وسائل القدرة هـو ضرورة لمسيرة النمو؛ أولا: لأنه دخول الاختبار الحقيقى لمعرفة ما إذا كانت الأحلام المثاليـة التـى

يحلم بها الشخص فى أول الطريق هى مجرد مهرب العاجز، أم أن تحقيقها (أو السعى إليها) هو مطلب الوجود، وثانيا: لأن متطلبات استمرار الحياة بفاعلية قادرة على توقيع الحلم من خلال امتلاك أسـباب القدرة يلزم خوض هذه المخاطرة بلا بديل (وذلك بلغة النمو المستمر للفرد وليس للمجموع).

"حتى لا تخدعنى كلمات الشعر

أو يضحك منى من جمعوا أحجار القصر القبر

أو يسحق عظمى وقع الأقدام المتسابقة المجلي.

..."

(٢١٨) تناسب "زيادة القوة" مع "زيادة اليقظة":

إن من يختار هذا الطريق الغائص فى طين الأرض رافضا التحليق الدائم فى سماء الحلم، هابطا مـن منصة الحكم على – الناس، إنما يغامر – كما قلنا – بكل شيء، والمنقذ الوحيد له مـن أول الطريـق حتى نهايته (وهو بلا نهاية) هو تزايد اليقظة (ألا أنسي) بنفس الدرجة التى تتزايد بهـا القـوة ... (ألا أضعف)

أقسمت بليل .. ألا أضعف

ألا أنسي".

وهذا تناقض جديد لابد من احتماله ودفع ثمنه على طريق التكامل، فالقوة والسعى إليها ينسيان غالبـا الهدف الأساسى من وراء اكتسابهما، واليقظة وعدم النسيان يعوقـان – غالبـا – الحركـة اللازمـة للحصول على مقاليد القوة وأسلحة القدرة، ورحلة التناقض – كما ستتكشف رويـدا رويـدا – يتوقـف تصاعدها على مدى تحمل استمرار المتناقضات فى مواجهة لفترة كافية، وهذان النقيـضان همـا مـن أصعب تناقضات المسيرة .. وألزمها .

(٢١٩) الضمان، والطين والسحاب:

ولايوجد أى ضمان لاستمرار تحمل هذا التناقض، لأنه لوزادت جرعة الألم الناشيء مـن اسـتمرار مواجهة شقى التنافض، لدرجة عجز الإنسان عن الاستمرار بهما معا؛ فإن أحد احتمالات ثـلاث تطـل برؤوسها كبدائل سبق أن تعرضنا لها فى أكثر من موقع، ونعود ونوجزها ثانية باختصار:

(ا) التنارل عن شق "القوة" مع نتائج العجز (المثـالي)، أو الـشلل الإرادى، أو المـرض (وخاصـة الفصام) أو على أحسن الفروض: الحل الفنى الاغترابي.

(ب) التنازل عن شق "اليقظة" مع اضطرابات الشخصية، والعمى العصابى، والاغتراب القطيعى٣

3- أطلق هذا اللفظ علىالاغتراب الذى يعنى اضمحلال الوعى الموضوعى لصالح التشكل الآلى مع النمط السائد عندالكافة باستسلام تخديرى.

(حـــ) تصاعد جرعة الألم لدرجة وصوله إلى مايسمى الاكتئاب بحدة تسمح بإدراجــه تحــت زملـــة مرضية ما. ولاضمان من هذه التهديدات إلا تناسب جرعه الألم والمواجة مع اتساع خطوات المسيرة، وهذا التناسب يتوقف بدوره على تناسب جرعات النمو السابقة، وتناسب طورى البسط والاستيعاب مــع بعضهما البعض، كما يتوقف على قدرة الحتم الداخلى ونشاطه الملزم بالتطور. والتصوير هنــا يمتــد لعرض بعد آخر لأبعاد التناقض

"وأخذت العهد

غاصت قدماى بطين الأرض

وامتدت عنقى فوق سحاب الغد"

فالعهد الداخلى (وهو يحدث فى مراحل من النمو بعيدا عن دائرة الوعي) هو حتم النــشاط التطــورى الساعى للتكامل، ولعل الشائع حول تعبير "أخذ العهد" فى بعض الطقوس والمراسيم الصوفية مــاهو إلا أسلوب رمزى يعلن به هذا العهد الداخلى ضرورة تحمل أعباء المسيرة تحت كل الظروف.

والعهد الذى يؤخذ بين المرء ونفسه بوعى أو بعيدا عن دائرة الوعى، ويوصــل بــين حركــة ذاتــه الداخلية وبين التزامه بالواقع، هو عهد مقابل ومواز للضمير الدينى فى التزامه وتواصله مــع الكــون الأعظم، فإذا تذكرنا التشابه الهارمونى بين الأكوان (الذرة والإنسان والكون) التى سبق الإشارة إليهــا وجدنا تفسيرا يربط بين مسيرة التكامل وما يسمى السعى إلى وجه الله تعالى (علوا كبيرا).

أما أن يكون القسم بقلبك، ويكون العهد مع داخل الداخل ومطلق الكون فى نفس الوقت، فهذا كله إنمــا يعنى أن هذه القضية هى قضية مسيرة الوجود البيولوجى ذاته، وليست قضية "المعلن من ألفاظ"، وكــل ماخالفها فهو تشويه وتعويق للمسيرة البشرية. والمرض النفسى، والاغتراب القطيعى ما هما إلا إعلان لهذا التشويه والتعويق.

ولكن لاينبغى الركون إلى ضمان "سريتها"، فالسرية هنا مجرد تأكيد لطبيعتها الداخلية، وليس ضــمانا لها، إذا فلابد من أن نعود فنقول إن الضمان الوحيد هو التناسب من ناحية، والبيئة الملائمة من ناحيــة أخري.

أما شقى التناقص الجديد بعد الحديث عن "القوة فى مقابل اليقظة" فهما: الطين فى مقابل الــسحاب، أى الواقع فى مقابل الأمل، والمواجهة هنا أن مسيرة التكامل تتطلب إدراك الواقع بكــل أبعــاده ومرارتــه وخطورته: الواقع الداخلى بنوازعه الجنسية والذاوية والعدوانيــة والانتهازيــة .. والواقــع الخــارجى بصراعاته التنافسية والاستغلالية والظلمية والاغترابية، إدراك هذا وذاك إدراكا واعيا وبحجمه، وفــى نفس الوقت يدرك الفرد منا واقع الخير الداخلى والعمل الايجابى الجماعى الخارجى رغم مايبــدو مــن

اعتباره حلما أو غاية، وهذا وذاك عبء شديد شدة الممدود بين الأرض والسماء المصر علـــى رفــض الغرق فى الطين أو التحليق فى الفراغ فى آن واحد.

وبما أن هذا الموقف بهذا العنف المطلق أقوى من احتمال أى فرد هكذا – جرعة واحدة، فإن الرحلـــة تأخذ شكل مراحل لولبية مجزأة مناسبة.

(٢٢٠) استعمال القدرة:

والضمان الثانى فى رحلة التكامل – بعد التناسب – هو استعمال القدرة أولا فـــى مكانهـــا الـــصحيح استعمالا تدريجيا متصاعدا، وهذا المضمان .. يضمن بالتالى الوقاية من المرض النفـــسى والاغتـــراب باعتبارهما نقيضى التكامل، لأنه ما لم تستعمل القدرة فى هدفها الأصلى وهو: النفـــع للفـــرد فـــالآخر، والعمق للوعى فالامتداد الخلودى، فهناك مخاطر النسيان والقصور الذاتى والتبرير إلى مالانهاية، ولعل التبادل بين البسط والاستيعاب، يشمل بوجه أو بآخر استعمال نتائج البسط فى فعل مثمر هادف للغرض الأصلى، ثم إن هذا التناوب هو الذى يضمن التقاط الأنفاس بين اكتساب القوة وتوظيفها ويـــضمن دوام استمرار المسيرة، ولعل هذا التناوب هو مايقابل التناوب فى تاريخ الشعوب بين الثورية والدســتورية، بين التغير الجذرى النوعى نتيجة للاستيعاب (اللاشعوري) الكافى للمرحلـــة الـــسابقة وبـــين التغييـــر السطحى غير المستوعب للمرحلة السابقة وهكذا.

ولكن لابد من تسمية الأشياء بأسمائها تجنبا للسرقة فى ألفاظ مثلية أوتبريرات دونية

"هذبت أظلفر جشعي

ولبست الثوب الأسمر

ولصقت اللافتة الفخمة

وتحايلت على الصنعة

وتخايلت طويلا كالسادة وسط الأروقة المزدانة

برموز الطبقة"

إذا فاكتساب القدرة يشمل الحصول على قوة المال أو مايكافئه من سلطة، أو الحصول على الاسم، أو المحصول على المركز، أو اتقان سر المهنة، أو الحصول على تأشيرة دخول إلى أهل الحل والـــربط، كل ذلك بقدر محسوب بحسابات توظيف القدرة أولا بأول، ومحسوب بحسابات اليقظة الدائمـــة والألـــم المصاحب والشك المكرر، واحترام الهجوم والنقد والتشويه والظلم من جانب من يعرف بعض الحقيقة، لعل فى رأيه وهجومه وظلمه مايورى صاحبنا جرعة أكبر مما يعرف عن نفسه فى هذه المخاطرة.

والاختبار الحقيقى لاتجاه مسيرة النمو والتكامل يأتى عادة بعد الحصول على كـــل هـــذه الوســـائل أو أغلبها

"هأنذا أتقنت اللغة الأخرى

حتى يسمع لى فى سوق الأعداد وعند ولى الأمر"

ويحدث هذا عادة فى منتصف العمر، لذلك فالاسم الشائع لهذه الخبرة هى "أزمة منتصف العمــر"، إذ أن كل الشعارات والآمال لاتقوم إلا بوظيفتها الإثارية والفنية مالم تدخل اختبار الواقع، وكذلك فإن كــل المزاعم حول ضرورة اكتساب الوسيلة لايمكن التأكد من حقيقة الفصل فيها بين الغاية والوسيلة إلا بعد اكتمال اكتساب الأخيرة، وهكذا نجدنا نضع ثورة الشباب بين أقواس فى انتظار ضــرورة اســتمرارها، ونضع عديدا من علامات الاستفهام بعد كل قدرة تكتسب، وكل قوة تزيد، منتظرين اتجــاه توجيههــا، فمنتصف العمر وما بعده هو ثورة التغيير الحقيقى، ورحلة التكامل تصبح كذلك حقا وفعلا ابتداء مــن هذه المرحلة.

(٢٢١) التحدى .. والتحويل:

ولاشك أنه مهما صدقت النية فى تحويل المسار بعد اكتساب القدرة لذلك، ومهمــا بــدت الــضمانات كافية، فإن القوى التى تعمل لتعويق المسار ليست بسيطة ولاضعيفة، وهــى قــوة الجمــود والــسلف والخوف معا، ولابد من احترامها من حيث المبدأ، فرغم دلالتها التوقفية، ومخاطرها التدهورية، إلا أن لها وظيفة ما بحساب التطور على المدى البعيد، (وحتى الموت قمة السلبيات: هو فى ذاته خادم للحيــاة كما أسلفنا)، وهذه القوى تناور هى الأخرى بقدر مايناور حتم التكامل وربما أكثر.

فحتم التكامل (الدال على قوة النبض البيولوجى المستمرة) يحاول أن يتقن اللغة الــسائدة، لا ليخــضع لها، ولكن لينتصر بها.

وقوة الإعاقة تحاول أن تترك له الحبل على الغارب، خادعة مخدوعة فــى آن، خادعــة إذ تأمــل أن ينسى نفسه وسط هذه المكاسب الوسيطة، ومخدوعة .. لو استطاع أن يناور الشخص لدرجة الانتــصار باستعمال نفس الأسلحة التى أريد بها خداعه أصلا، وكأن المسألة تأخذ شكل المناورة مــن الجــانبين، والذى يكسب أخيرا هو الذى يحقق هدفه الأصلى.

وحين نتكلم عن قوة السلف، أو قوة التدهور، لانقصد تلك القوى فى خارج الذات، وإنما نعنى أيــضا، وربما فى المقام الأول، القوى السلفية داخل الذات (ما أسماه إريك بيرن: **الوالد** أو الــذات الواليــة). والقوى الخارجية (الوالدان والسلطة) التى تحاول أن تعطى الشخص (الطفل عادة) فى أولــى مراحــل نموه أسباب القوة ولبنات القدرة، تفعل ذلك باعتبار الطفل مشروع استثمارى ناجح فحــسب، ورفــض هذه المحاولة فى سن المراهقة قد يخرج فى صورة اضراب محتج (سلوك مغاير ومضاد للمجتمــع) أو فى شكل نكوص خامل (فصام)، أما رفض هذا المحاولة الاستثمارية (من جانب السلف والم والمجتمــع الخائف لصالح الاغتراب السلطوى والاستحواذي) فى منتصف العمر فإنه يمكــن أن يعتبــر الفرصــة

الأكبر والأعمق لتحويل المسيرة إلى اتجاه التكامل، لأن الفرد، فى منتصف العمر وعلى طريق التكامل، بعد حصل – بخدعة ذكية – على كل هذه المكاسب، إنما يستطيع من موقع القدرة أن يستعملها لصالح وجوده هو، وصالح تخطى أهداف والديه وسلفه إلى أهدافه الأشمل والأعمق، فهو أكثر مناعة ضد مصيدة الفصام النكوصية، فالصيحة فى منتصف العمر – لو أحسن التمهيد لها فى كل نبضة سابقة – إنما تعنى المواجهة للانتصار، لامجرد صرخة استجداء أو تنفيث سخط، ولكنها تحمل ألم المواجهة والاصرار على المسيرة

"مرحى ولدى حققت الأملا

– .....

– اسمك أصبح علما

– ......

وثمارك طابت فاقطفها

– ....

– وفتات المائدة ستكفى القطط الجوعي"

فالوالد (السلف) – داخل الذات وخارجها – يفرح بهذه المكاسب، ويحاول أن يلهى الجيل التالى (الخلف) عن تحويلة التغيير، كما يحاول السلفه أثناء الخلف عن الامتداد للآخرين، باعتبار أن المشروع الاستثمارى يعود بفائدته على ذاته أولا وقبل كل شيء، وهو قد يعود بالفائدة من موقع طبقى استعلائى رشاوى تصدقى على من دونه دون اهتمام تطورى أساسى بهم وبمسيرتهم وبمسئوليته تجاههم كجزء لايتجزأ من وجوده .

(٢٢٢) المواجهة العلنية:

ومن موقع القدرة التى دفع فيها الثمن غاليا بيقظة مضاعفة، وحذر يقظ، وألم مواجه، من هذا الموقع يمكن للفرد فى الوقت المناسب أن يعلنها بهدوء وفاعلية أن "لا"، وذلك بعد أن يتصور الجميع – وخاصة السلف – أن الرحلة انتهت بالنجاح لصالح قيمهم[٤]، فإذا بهم يفاجأون بالمواجهة القادرة غير المتوقعة

" لا يا أبتى لن تخدعنى بعد اليوم

صرت الأقوي"

فالتكامل هو حرب "الاستمرار" بكل معنى الكلمة، والحرب خدعة، وهى تمر بمرحلة التمهيد والعهد الداخلى، والسرية، وإتقان لغة الحصم، ثم المواجهة، وحين تبدأ المواجهة نقل المناورة، ويصبح الأقوى

4- راجع معان قريبة من هذا التصوير فى "أغوار النفس" المتن ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ والشرح ص ٤٦٤ .

والأكثر ثقة بهدفه هو المنتصر، ومن أهم مكاسب هذا التحول ما يلقاه الشخص من تخلص من عـبء التحليل والتأجيل، وكذلك التخلص من مخاوف الرفض والإبعاد والاستهزاء لأنها كلها محاولات تتكسر على صلابة قدرته التى اكتسبها بالاسم والمادة واللقب والشهادة وحذف اللغة السائدة، من هنـا ينتهـى اضطراره للمناورة (الكذب) مع رعبه من السحق قبل الأوان ومن الاستهانة والنفى.

"للرعب الكذب نهاية"

وهذان المكسبان من أعظم الدوافع لاستمرار الخطوات التالية.

(٢٢٤) الثقة بالقدرة:

والكاسب فى حرب التغيير على طريق التكامل هو الأصدق عهدا (وأخذت العهد)، والأوضح هـدفا، والأعمق وعيا، والأنفع انتشارا، وما إن تعلن الحرب مواجهة حتى يكون الأكسب هو الأكثر أصـالة، فلو أن من ناور إنما ناور لمجرد الحصول على هذه المكاسب، وقد برر لنفسه ذلـك بحجـج التأجيـل والإعداد، فإن صوته سيكون خافتا، وسرعان ما سينضم إلى السلف تحت تبريرات استسلامية تعقليـة جديدة، وبألفاظ أخرى .. إن إى تراجع عن استكمال مسيرة النمو بالتغيير المتلاحق، والعطاء المتزايـد فى الدوائر المتعاقبة اتساعا، لهو إعلان بالفشل، ليس فى هذه الأزمة فحسب، بل فشل يعم كل المكاسب الزائفة السابقة، ويسقط كل الحجج التى التمسها – حتى أمام نفسه – ليحصل من خلالها على احتـرام ذاتى داخلى يواصل به مسيرته.

والمواجهة فى هذه المرحلة تبدو ضرورة لاخيار فيها، فإنها تساعد الفرد على الالتزام – مـن موقـع القدرة – بتحقيق قيمه التى طال تأجيل إعلانها، وهى تدخل صاحبها امتحانا عسيرا مـن خـلال هـذا الالتزام، وهى تعلن كذلك ثقته بنفسه وبموقفه وباستمراريته

"تكشف ورقك

أكشف ورقي

هذا دوري

.... أربح"

فالريح فى هذه المواجهة التى أعد لها طوال هذه السنين ربح مضمون، وهو يذكرنا بموقفنا من معنى القيم (والأخلاق) النفعية، فإذا كان الربح فى أول مراحل الرحلة يقاس بمـدى النجـاح فـى اكتـساب مقومات القدرة وأسباب القوة، فالربح هنا يقاس بمدى حسن استعمالها وسلامة توجيهها لاستكمال نمـو الذات وإتاحة فرص أكثر تناسبا للآخرين.

ولعل هذه اللحظة – ومثلها فيما بعد – هى أعظم لحظات مسيرة النمو كلهـا، وهـى لحظـة دقيقـة التوقيت، إذ لولم ينتهزها صاحبها فى وقتها؛ فقد لايستطيع أن يستعيدها بعد ذلك أبدا.

(٢٢٥) المواجهة بين الزائل والباقى، بين الخداع والاصالة:

قلت فى الفقرة السابقة أن رحلة التكامل إن كانت حقيقية، وإذا كان العهد فيها أصيلا .. الخ، فإن المواجهة ستنتصر لصالح استمرار المسيرة نحو الأنفع والأبقى بلا أدنى شك.

والتصوير الرمزى هنا يعلن عدة حقائق خليفة أن تؤخذ فى الاعتبار لفهم مسيرة التكامل

" ألقيت بحياتى السبعة

تلتقط الديدان المرتجفة فى أيديهم"

(ا) تفسير مواز[5] لقصة سيدنا موسى، حيث تهزم الرؤية الحقيقية والموقف الأصيل خداع البصر والمكاسب الزائفة، وإن كانت الصورة هنا لاتوحى بأن قوتهم هى فى خداع حركة الحبال وكأنها الحياة ذاتها، ولكنها فى ضعف منطقهم وخوفهم المعجز (الديدان المرتجفة فى أيديهم) الذى يصيبهم عند المواجهة بالأقدر والأكثر أصالة.

(ب) سبق أن أشرت (ص ٤٢) إلى مستويات المخ المتعددة والمحتمل أن تكون سبعة، وكيف ترتطم (ترتطم الأفلاك السبعة)، فى خبرة الرؤية الذهانية وبداية الذهان النشطة، وكيف أن نتاج هذا أشير إلى أن التكامل إنما يعنى أن مستويات المخ (المقابل لشخوصه) المتعددة إنما تعمل معا فى رحلة التكامل، وبألفاظ أخرى أقول: إن الهدف من التكامل هو أن تعمل مستويات المخ معا وفى اتجاه ولافى متصاعد، بعد أن كانت تعمل بالتبادل فى اتجاه لولبى ممهد، ونتيجة عمل هذه المستويات معا وفى اتجاه واحد هو (ا) عمق الوعى واتساع دائرته (٢) تحمل التناقض وتغير اتجاه

اطرافه من المواجهة المضادة إلى الولاف النامى (٣) تضاعف قوة الوجود وتأكيد فاعليته نتيجة لتضاعف هارمونية مستوياته وتآلفها معا.

(حـ) إن الانتصار فى معركة المواجهة ينبع من اكتساب القدرة التى مهدلها كل المكاسب السابقة، وأصالة الهدف وحيويته فى نفس الوقت.

(د) إن البقاء فى معركة المواجهة وبلغة مسيرة التطور هو للأنفع والأعمق والأقوى لصالح الأعداد الأكبر من النوع البشري.

(٢٢٦) الوحدة الجديدة:

سبق أن أشرنا إلى أنواع الوحدة فى كل مرض على حدة، وها نحن نقترب من الحديث عن حتم الوحدة على مسيرة التكامل

"وحملت أمانة عمرى وحدى"

5- أقصد بالتفسير الموازى هنا، وفيما يأتى بعد ذلك، أنها رؤية حدسية علمية مباشرة من واقع شخصى وكلينيكى، قد تبدو موازية لآية مقدسة أو فكرة دينية، وقد تجنبت أن أعتبرها تفسيرا مباشرا، لأنى لم أقصد هذا أصلا، كما أنى أتجنب هذه المحاولة التعسفية غير المفيدة للعلم والدين معاً، أما التوازى فلا ضير عليه وإن اختلفت التفاصيل.

والوحدة هنا تحتاج لعدة إيضاحات:

(ا) أن هذه المسيرة – فى عمقها – مسيرة فردية لامحالة، ومهما حاول آخـر (معـالج، أو قائـد، أو مجتمع، أو شريك) أن يصنعها، فهو لايستطيع إلا أن يهيء الفرصة لها؛ ولكنها فـى النهايـة مـسيرة فردية ومسئولية فردية وحق فردى وشرف فردى يعمله الإنسان فى لحظات الاختيار العظيمة، وحـده تماما، ويحصل على نتاجه له تماما، ويوجه نتاجه إلى مدى انتشار وجوده هو على حجم اتساع دائـرة وعيه.

(ب) كلما اقترب الإنسان من ولاف التكامل واتساع دائرة الوعى، ازدادت وحدته لأنه سيزداد اختلافا وتغيرا عن ذى قبل، وفى نفس الوقت سيزداد اقترابا من اللغة العادية، وهذا التناقض العميق هـو بعـد آخر لتناقضات التكامل الحتمية، فبعد أن شرحنا بعدى القوة واليقظة، وبعدى الطين والسحاب، نجد هنـا بعدا أصعب؛ وهو ضرورة التفرد وعمق الوعى فى نفس الوقت الذى تتحتم فيه أكثرو أكثر ضـرورة الالتحام بالناس والتكلم باللغة البسيطة والمباشرة وإتقان "صلاة الحياة اليومية"، وهذا التناقض الجديد هو الذى يعمق الوحدة أكثر وأكثر.

(حـ) إن هذه الرحلة الشامله: لعمق الوعى وتزايد الوحدة الصحية ومواجهة التناقض هـى شـرف الإنسان وإمانته لتحقيق إنسانيته، ونظرا لأنه هو وحده الذى سيختار وهو وحده الذى سيحـصل علـى نتاج اختياره، فإنه حامل أمانة وجوده بقدر عمق وعيه وشرف اختياره.

(٢٢٧) الذنب الوهمى .. وانطلاقة العمل:

ويكتشف الإنسان أيضا بإنتصاره فى هذه الأزمة أن شعوره المتواصل بالذنب، الذى كان يشككه فـى سعيه المتواصل، وفى نفس الوقت كان يحميه من التمادى إلى غير رجعة، يكتشف أنه لـم يعدلـه مـا يبرره، فما دام اليقين قد أعلن انتصار التغيير واستمرار التطور، فكل مكسب سابق هو حـق صـاحبه لأنه أمين عليه، وهنا يختفى الشعور بالذنب لأنه يثبت من واقع النهاية أنه ليس ذنبا بل ربمـا لعكـس، لذلك فإن التكفير عن ذنب وهمى هنا لابد وأن يأخذ مسارا آخر، فبدلا من أن يصبح العمل، كما كـان، من نوع العمل التكفيرى، أو العمل القهرى، يصبح عملا نتاجا طبيعيا لقدرة موجهة فى اتجاهها السليم، وبدلا من أن تستمر الحياة معركة مستمرة بين الشك واليقين، بين الذنب والتفكير، بين المثالية والواقع، بين الوسيلة والغاية، بدلا من كل هذا تصبح هارمونية الوجود الفردى جزاء مـن هارمونيـة التناسـق الأوسع، وتصبح القيم الأعمق والأبقى "العدل الصدق الحب" إنما تعنى مدى التناسق بين الفـرد وبـين المجتمع، وبين الفرد وبين الكون

"وفردت شراعي

لتهب رياح العدل الصدق الحب"

ولكن هذا يتم فى لحظة هل يستمر؟

(٢٢٨) المعركة الجديدة:

ولابد للمعركة أن تستمر بعد المواجهة، ولكنها تصبح من نوع جديد وبعبء جديد، فالمسيرة لايمكــن أن تسير بالسهولة التى تبدو بها وقت انتصار الجوهر والتأكد من سلامة الخطــوات الــسابقة، ولكنهـا تتعرض لهجوم من الخارج يتزايد أكثر فأكثر كلما احتدت المواجهة

"لكن العاصفة الهوجاء تبدل سيري"

* * *

والهجوم يزداد ضراوة كلما كانت القدرة المكتسبة قوية، وكانت اللغة المستعملة نافذة، فــالهجوم هنـا أعتنى من الهجوم على ثائرى المراهقة، أر على صراخ الطفولة، بل أن المجتمع المتجمد الخائف قــد يسمح بصياح الأطفال، وتشنجات المراهين لأنها بغير قدرة، أما أمام هذه الثورة الناضجة فإن مقاومقــه تزداد وهجومه يعصف بلا هوادة.

وصلابة الفرد بعد زوال الشعور بالذنب، وطمأنينته على اتجاه المسيرة لايعدلها صلابة، ومهما انتقــل موقعه أو ادلهمت الظروف من حوله .. فإنه يعاود السير بنفس الاصرار، واليقين، وهذا هــو المقابــل الصحى (التكاملي) لحالات البارانويا.

ويراعى فى مسيرة التكامل أن معظم المراحل لها مقابل مرضى مع اختلاف المحتوى والنتــاج مــن النقيض إلى النقيض، فاليقين هنا مثلا قد يقابل يقين البارانوى فى عنفه وعدم قابليته للتصحيح حتى من خلال الواقع القريب والمنطق السائد، إلا أنه ينبع من واقع أعمق قابل للتحقيق، وكذلك يتفق مع المنطق الأشمل، وليس لمنطق القريب الغالب، ويستمر هذا اليقين مهما تغيرت المواقع واللغة واشتدت الوحــدة وكاد اليأس يغلف الأجواء

"......

ورست فلكى فى أرض حمئة

فوق سنان جبال الكلمة"

أى أنه مهما حدث فإن اليقين يزداد والمسيرة تستمر.

وحتى التناثر فى هذه المرحلة (وهو المقابل للتفسخ الفصامي) لايكون تناثرا وتفسخا مهــزو مــاينتهى بالتفكك الفصامى العاجز، ولكن كل تناثر فى مسيرة التكامل، سواء كان تناثرا فــى الحلــم، أو تنــاثرا يشعر به الفرد فى وعى واضح، لابد وأن يتجمع بقوة وصلابة يغلب أن تكــون متزايــدة باســتمرار، ولاخوف هنا من أى تناثر مهما بلغ، وإن كان لايظهر أبدا فى شكل أعراض مرضية، وإنما هو شعور ذاتى صادق، يترجم عن حقيقة بيولوجية دالة على نشاط مستويات الخ معا، وإن كانت تحــت ضــغط

متزايد قد تبدو أنها لا تعمل معا حتى تستقبل وكأنها تناثرت، وفى الواقع أنها تعددت لدرجة الشعور بالتناثر، ولكن دون تفسخ أصلا بل بفرصة أكبر للتنظيم والتآلف، فمن هذا التناثر نفسه، وليس التفسخ، ومن هذه الألواح ذاتها (مستويات المخ المتعددة .. . أو شخوص الذات النشطة) يصنع الوجود الجديد، هذا الوجود الذى يمكن أن يتصف بأنه :

(ا) وجود متواضع (الكوخ) يسير مع كافة الناس، ويستطيع الكلام بلغتهم رغم اتساع الوعى وعمق الرؤية.

(ب) وجود قوى غير مهتز (القلعة)، غير قابل للاختراق أو الاهتزاز مهما بلغت الضغوط والرفض والنبذ.

(حـ) وجود مواجه (وسط الغابة)، لاتلجئه قسوة الحياة ومعاركها اليومية إلى الانسحاب

"وتناثرت الألواح ..

فصنعت الكوخ القلعة وسط الغابة"

ويمكن مقارنة هذا التفاعل بما فيه من وحدة ذات نوع خاص، وقوة ذات تحد خاص، وإصرار ذى مواجهة خاصة، بما يقابله من تفاعلات انسحابية مرضية (انسحاب البارنوى ص ٢٩٣، وانسحاب الفصامى ص ١٦٩) أى أن الانسحاب والوحدة فى مسيرة التكامل هما عكس نوعى الانسحاب والوحدة فى هزيمة المرض.

الانسحاب والوحدة فى مسيرة التكامل هما احتماء فى قلعة الصلابة، والتفرد بتواضع الشخص العادى فى وسط الناس، والفعل اليومى، أما الانسحاب والوحدة فى هزيمة المرض فهما قطع للعلاقات، وتجنب للاحتكاك، ورفض للتواصل، ونكوص هارب باعتبار الآخرين هم الخطر الداهم غير المحتمل.

(٢٣٠) الصراع الجديد العنيد:

وبعد هذه المرحلة تصبح المسيرة أكثر نهبا للهجوم الظالم العاتى، ولكن موجات الظلم لاتفرقها أبدا، وكثيرا مايحس الإنسان فى هذه الوحدة القاسية بموجات اليأس الحقيقية تتلاحق من فرط ما يرى من هجوم بلاهوادة، ولكن إحساسه باليأس لايعنى اليأس، ورؤيته للهجوم لايعنى الكف عن مواصلة المسعى، فالكف بعد هذه المرحلة يصبح مستحيلا إلا بالموت، وحتى الموت لايشعر معه الشخص فى مسيرته هذه أنه يأس أو نهاية بل يستمر يقينه بالحقيقة وحتم التطور ممتدا فى الأحيال من بعده، وتظل كلمته – من موقع رؤيته – قادرة على البقاء بعد موته تؤدى عملها الممتد

" والزيف الظلم يطاول أملى حتى يطمس أنفه

لكن الحق النور يذيب جليد اليأس على قمم الوحدة"

(٢٣١) اليقين اليقين بالبقاء للانفع:

ولعل المعتقد الراسخ الذى يحافظ على توازن مثل هذه الشخص أمام كل هذه الضغوط هو اليقين بـأن البقاء للأنفع، فإذا كان هو الأنفع – وينبغى أن يكون كذلك، وإلا أخطأ الطريق – فهو على يقـين مـن بقائه هو، أو من على شاكلته، أذا فهو منتصر فى كل حال، ومن ثم فهو مستمر بكل أسلوب

"والزبد يروح جفاء

لايبقى إلا ما ينفع"

(٢٣٢) العطاء الجديد:

ومن هذا الموقع الجديد .. . يصبح الشخص أقدر على التعرى، لأن داخله يصبح جزاء من خارجـه من عدة مواقع:

١ – أنه قبل بالتناقض فى الداخل والخارج، وأصبح قادرا على استيعابه واحتماله والطمأنينة إلى مآله الولافي.

٢ – أنه تخلص من الذنب واطمأن على سلامة خطوه، وقدرته على وضـع الغايـة فـى مركزهـا المصان، والوسيلة فى وظيفتها التى تخدم الغاية.

٣ – أنه اكتسب من القدرة مايستطيع به أن يحمى تعريه، وأن يلعـب بـورق مكـشوف، فالمـستور شرف، والظاهر شرف، والشر فى قبضته والخبر فى حوزته.

٤ – أن اليقين قد رسخت أقدامه حتى أصبح لاخوف عليه من الاهتزاز أو الضربات أو حتى مـوت صاحبه

"فلأ فتح قلبى .. يحمى رقته درع القوة"

الوجود الايجابي:

وقد أشرنا منذ قليل إلى أن الضمان الأكبر لاستمرار مسيرة التكامل هو فى تهيئة المناخ المناسب لها.

والشخص الذى وصل إلى هذه المرتبة من الرؤية والقدرة واليقين يحس على الفور أن وجوده مـرتبط بالاسهام فى عمل هذا "المناخ المناسب" لأعداد أكثر وأكثر من الناس ليواصلوا بدورهم رحلة التكامـل، ومجرد وجوده بهذا اليقين وهذا الصبر وهذه القدرة دون أن يسرقه بريقها أو ينسيه خدرها هـو مـن ضمن تهيئة المناخ المناسب لعدد أكبر وأكبر من السائرين على الطريق، ثم إن هذا الوجود بتناقـضاته (الرقة والقدرة، التعرى والمسئولية، الطين والسحاب ... الخ) يسمح لأعداد أكبر من البشر أن يجـرؤا على استكشاف تناقضاتهم بالتالى، وعلى قبول الخصوصية من واقع مهنتى، إلا أراه ممكنا من خـلال أى علاقة نامية متكاملة فى أى موقع من مواقع الحياة، فوجود الإنسان القـادر المتواضـع المحتمـل لتناقضاته وتناقضات الآخرين المواصل سيره رغم عمق رؤيته هو الدور العلاجى والتطورى للوجـود البشرى، سواء كان هذا العلاج فى عيادة أم أسرة أم مدرسة أم موقع أم قيادة جماعة ... الخ

"وليطرق بابى الطفل المحروم ليظهر ضعفه
ثم يصير العملاق الطيب
وليثتم الجرح الغائر تحت ضماد القوة
وليتألم فى كنفى من حرموا حق "الآه"
لتعود مشاعرهم تنبض"

وإذا قام هذا الوجود الإيجابى بوظيفته، فانه سيسمح بحركة أكبر فى الوجود البشرى، وأمـــان أكبـــر، ووعى أوسع، و "حق الآه" ينبغى أن يؤخذ بحذر، وأن يسمح به أيضا بحذر، وإلا تطـــور الأمـــر إلـــى موقف طفيلى خطر، فالتناسب هنا – مرة ثانية – هو الأهم، وسوف نرجع بعد قليل إلـــى هـــذا الحـــق وخبرة الضعف من موقع صعب وفى ظروف خاصة، أما حكاية العملاق الطيب فهو تنـــاقض جديـــد: **الطيبة** فى مقابل **العملقة**، معا، ودون أن تغتال إحداهما الأخري.

(٢٣٣) عودة الى وظيفة التكامل فى التربية:

قلنا إن كل ما يمكن تقديمه لأطفالنا فى التربية، هو أنفسنا، وقلنا إن اللغة التى يمكن توصيلها للطفـــل هى لغة الوجود المباشرة وليست دروس تحفيظ الحرية، وادعاء الحـــب، وأشـــرنا كيـــف أن الوجـــود الايجابى للشخص المتكامل يغير البيئة فيما حوله، وأخيرا فقد أشرنا إلى حركة النبض النموى تحتـــاج إلى تناسب دقيق بين جرعة الألم، وجرعة السماح، وجرعة الدعامة فى آن واحد.

ولعل أعظم ما يمكن أن يقدمه الشخص على طريق التكامل [6] الذى انتصر على نفسه وشكوكه بعـــد المواجهة، هو أن يساهم فى وقاية الجيل القادم من حجم الألم المفرط الـــذى يحـــيط بهـــذه المغـــامرة الخطرة، ففى مجتمع خائف معتمد متجمد، يمكن لبعض الأفراد القلائل أن يخترقوا الحـــواجز ويـــدفعوا الثمن، وهم يفعلونها بشرف وصبر وألم الأنبياء، إلا أنه يستحيل أنه يستحيل أن تكون هذه المسيرة هى الأسلوب العادى فى التربية، فالتربية لاتهدف إلى صنع الأنبياء، ولكن الأنبياء يهـــدفون إلـــى تخفيـــف أعباء المسيرة على البشر مع التأكد من سلامة الاتجاه، ولابد من أن يقدم كل جيل درجـــة أكبـــر مـــن الأمان للجيل التالى حتى تكون: (ا) المعاناة محتمله (٢) ثمن الحـــصول علـــى الوســـائل (المكاســـب الوسيطة) مناسبا (٣) وتوقيت الوصول إلى مرحلة الاختيار "القادر" مبكرا (٤) واحتمالات التراجع أقل (٥) ومخاطر التناثر أبعد.

وكل ذلك لايتم بالأمانى الطيبة، أو بجداول ضرب التربية الحديثة، ولكن – كما ذكرنـــا – بالمحاولـــة المستمرة من جانب الجيل الأقدام أن يواصل مسيرته الذاتية بشجاعة وشرف، وتـــأتى الفرصـــة التـــى يعطيها للجيل القادم من تواجده الايجابى مباشرة

6- لاحظ أننا نستعمل غالبا تعبير "الشخص على طريق التكامل" بدلا من الشخص المتكامل لأن الأخير لايوجد إلا كهدف تصورى.

"ولأحم الجيل القادم أن يضطر ..

لسلوك طريقى الصعب"

على أن المبالغة فى تسهيل الطريق للجيل القادم هو ضرب من المخاطرة أيضا، لأن الطريق السهل ليس طريق التكامل بحال من الأحوال، فطريق التكامل صعب فى أى جيل وتحت أى ظروف، وغاية ما يمكن الإسهام به هو تقليل الجرعة الساحقة من الألم .. وليس إلغاؤها.

(٣٣٤) "الآخرون .. بديل عن الذات":

بعد الاختيار القادر، ومن موقع ارتقاء القيمة النفعية للوجود الذاتى باعتبار أن النفع هو مايشمل دائرة أكبر فأكبر من البشر، يظهر خطر آخر ينبع من أن يحل العطاء والاهتمام بالآخرين محل الحق الفردى فى الوجود والتكامل، وهذه الخدعة تعليها كل القيم الأخلاقية تحت اسماء مختلفة مثل "التضحية" و "البذل" .. الخ، وإن كانت هذه القيمة الأخلاقية نافعة لمرحلة معينة من النمو، وبالنسبة لمجموع الأفراد، فإنها بالنسبة لمسيرة الفرد الفريدة ليست سوى مرحلة سرعان ماتتعمق لتصبح عطاء سلسا هو والأخذ سيان.

وفى غمرة الانتصار بالاختيار القادر، ومع عمق الاحساس بالثمن الباهظ الذى دفع حتى وصلت القدرة إلى ما يسمح به، قد يندفع الشخص إلى الاستغراق فى تمهيد الطريق للآخرين، وظبط جرعة الألم للجيل القادم، فإذا تمادى فى ذلك فلسوف تتوقف مسيرة التكامل فى منتصف الطريق، قد يكون هذا التمادى فى ذاته مهرب من استكمال رؤية نفسه٧

وصيحة الشخص على طريق التكامل بعد هذه الدرجة من الوعي

"لكن . . .

وأنا . . وأنا؟"

هى صيحة الوعى الذى يعلن تناقضا جديدا يتطلب الاعتراف به، ومواجهته سعيا إلى الولاف الأعلى من خلال تلاحم شقيه، وهذا التناقض هو "أنا فى مقابل الآخرين" إذ لايعود التقابل يعنى التضاد دائما كما كان .. . بل لعل العكس يصبح أصح كلما زادت جرعة التكامل.

(٣٣٥) حق الضعف:

أشرنا إلى حق الضعف (حاشية ٢٠٤ ص ٥٣٥) وكنا نقصد الطفل أساسا، ونعود هنا لنؤكد هذا الحق لكل إنسان، وفى كل عمر، وخاصة من سار على طريق التكامل، واحترام الضعف يحمل فى طيانه إصرار على استكمال المسيرة، لأن الضعف نقص يسعى إلى الا كمال، ومن الثمن الذى يدفعه الشخص على طريق التكامل فى مجتمع ساحق، أن يحرم حقه فى الضعف، ورغم وعيه طول الوقت

7- راجع أيضا "إوزار النفس" للمؤلف" : "ياهلترى عمال باشوف الناس علشان أهرب، ماشوفشى مين أنا؟" ص ١٨٠ والشرح ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

– على درجات متفاوته – بهذا الحرمان، فإن الوصول إلى مقومات القدرة يغرى بالعودة إلى استكمال هذا الحق الضرورى، لأنه الضمان الوحيد لحقيقة القوة، ولاستمرار نوع العطاء السلسل النافع، وهنا تبدأ مخاطرة جديدة لبعد الشقة بين النجاح وما يوحى به من استغناء، وبين حقيقة "**حق الضعف**" وضرورة إعلانه والسعى إلى أخذه، وتبدأ هذه المخاطرة بهذه الرؤية المؤلمة: إذا لم يسمحوا لى أن أضعف .. فكيف أضمن أن أستمر؟

"وأنا إنسان لم يأخذ حقه

طفلا أو شابا .. أو حتى شيخا!!

هل يمكن أن تغنينى تلك القوة

عن حقى أن أحيا ضعف الناس؟"

وبديهى أن هذا التساؤل هو تقرير بالإجابة بالنفى، إذ أن أى قدرة مهما بلغت .. لاتغنى عن حق الإنسان الفرد فى الضعف مثله الناس، ولايكفى أن يكون مستنتجا مفترضا دون ممارسة ومواجهة واستيعاب .. فهو حق .. والحق حق .. ومالم يأخذه صاحبه ويستوعبه بالقدر الكافى .. فإ كمال المسيرة مشكوك فيه لامحالة.

(٣٣٦) "من" . يعطى "من"؟

وهنا تعرض مشكلة إنسانية عنيفة، تظهر فى الحياة العامة، كما تتجسد فى العلاج النفسى كنموذج، فالإنسان الذى تعود العطاء وجودا وهدفا ودورا أساسيا فى رحلته الفرديه يصل إلى مظهر قوى، ورؤية أشمل، تجعل قدرته أكبر، وحساباته الواقعية والمستقبلية أرجح، وهذا وذاك يقلل من فرصة أخذه حقه فى الضعف، لأن الضعف الحقيقى (وليس الحديث عنه أو وصفه أو افتراضه) يحتاج إلى مصدر "أقوي" ليرتوى منه، وهذا نادر وصعب توافره فى الوقت المناسب وبالجرعة المناسبة.

والمثال الذى طرحناه كنموذج هو دور الطبيب النفسى، فإذا كانت وظيفته الأساسية هى قبول ضعف الآخرين، والوقوف بجوارهم من موقع السند والعطاء فى أغلب مراحل العلاج وخاصة مراحله الأولى، فإنه يحتاج بدوره إلى من يقبل ضعفه هو ذاته، وقد يحصل عليه من معالج أكبر، أو أستاذ، أو زوجة، أو غير ذلك، إلا أن هذا يبدو خبرة صعبة، وتوفير مقوماتها ليس سهلا بحال من الأحوال.

وحين يندر المصدر المناسب لمثل هذا الشخص بادى القوة، المعترف بالضعف، لابد من النظر فى احتمالات تعويضية غير مباشرة يعتمد عليها مثل:

١ – الانتماء إلى الوطن .. ومن ثم الاعتماد عليه.

٢ – الانتماء إلى مجموع الناس .. (أو مجموعة من الناس) الأمر الذى نشأت منه بدرجة أو بأخرى فكرة العلاج النفسى الجمعي.

٣ – التوجه إلى الله .. انتماء وسعيا (فى أطار السعى إلى الهارمونى بين الكون الأوسط والأعظم)، ومن هنا تظهر أهمية فكرة العبودية فى الأديان، ومظاهر "التذلل" التى تصبغ الطقوس الصوفية بوجه خاص، ومع ذلك فهذه الحلول كلها مشكوك فى جدواها كبديل كامل، فالإنسان يحتاج إلى إنسان محدد من لحم ودم يسمح له بهذا الحق، والشخص على طريق التكامل يعلم ذلك من جهة، ويعلم ندرة المطلوب من جهة أخرى

"لكن من يعطى جبل الرحمات الرحمة؟"

وهنا تبدأ المخاطرة الأعنف.

(٣٣٧) الناس ... الناس:

وفى غمرة الإدراك بضرورة نيل هذا الحق مع ندرة إمكان تحقيق المصدر القادر على السماح به والمشاركة المؤقته فى تحمله، يبدو أسلم الحلول فى الالتجاء إلى أكثر من مصدر فى نفس الوقت، وهذا هو دور الانتماء لمجموعة بذاتها يقوم أفرادها معا أو بالتتالى بحمل هذا العبء الذى يمكن أن ينتج عن "السماح الإرادى بالتهاوى لهذا القادر الناجح".

وتبدأ الخطوات الأولى لهذه المخاطرة إذا ما أدرك صاحبها أن أحدا قد رأى ضعفه بصدق وتواضع وسط هذه الأكوام من القدرة الظاهرة، وأن هذا الأحد هو "آخر" [8] (أو آخرين) مستقل، قادر نسبيا، يستطيع من واقع بشريته المتواضعة أن يقبل ويتحمل التناقض (القدرة الحقيقية .. والضعف الطبيعى معا)

"أصغى بعض الناس لنبض أنينه".

والذى يشجع أكثر على خطوات أبعد، هو أن سماعهم لهذا الأنين، أى رؤيتهم لهذا الضعف، لايهز تماسكهم، مما يدل تناقض اعتماديتهم على صاحب القدرة الفائقة.

وفى العلاج النفسى – الجمعى خاصة – تعتبر هذه الخطوة من أهم خبرات البناء والتحول، وهى خطوة السماح بالضعف، وحتى التناثر، دون اهتزاز التوازن الخارجى المستقبل الحامى[9]

"أصغى بعض الناس لنبض أنينه

لم يضطربوا أو يختل المسرح"

ومن واقع هذه الفرصة الحقيقية يمر الإنسان (المعالج أو المعالج أو أى فر دتتاح له هذه الفرصة للاسترخاء الضعيف أمام آخر أو آخرين يفهمون ويقدرون ويحترمون) .. أقول يمر بلحظات ارتواء يقظ شامل هى الحياة ذاتها، ويشعر فيها بعدة مشاعر خالصة ونقية رغم مايترتب عليها من رعب ومخاوف.

8- قد يكون هذا الآخر ابنا أو تلميذا أو صديقاً أو غير ذلك . . من زرع يديه أو من فضل بيئته. .

9 - راجع أيض مقطوعة "القط" فى أغوار النفس للمؤلف وخاصة ص ٩٢ ، ٩٣ ثم شرح المتن المقابل.

(ا) فهو يشعر بحقه المبدئى فى الوجود ذاته.

(ب) وهو يشعر "بالحق" كمرادف للهارمونى الداخلى الهاديء وأنه جزء منه

(جـ) وهو يشعر بالطمأنينة الآملة (الفجر).

(د) وهو يشعر بيقظة حادة وشاملة تؤكد أن الخبرة ليست انشقاقية.

(هـ) ثم هو يسمح لمخزون خبراته – مهما كان مهينا أو مؤلما – بالاقتراب والاستعادة والتسلسل

"وتهادى الحق ..

أشرق نور الفجر الوعى الصدق

وانساب الفكر الألم النبض يعيد الذكري:"

وترادف الفكر مع الألم مع النبض له معنى خاص يؤكد أن المقصود من استعادة الذكريات فى العلاج النفسى ليس "الحديث عن التجارب السابقة" و "تفسيرها"، ولكن أن تتاح الفرصة للنبضات التى أجهضها ألم ساحق أن تعود للظهور ملتحمة مع الفكر قادرة على الظهور اللفظى فى جو أكثر أمانـــا، وأرحـــب صدرا، وأقدر تقبلا.

ولايمكن أن يجرؤ النبض على العودة فى هذا الشكل المتلاحم فيه الفكر مع الألم إلا من خلال راحـــة عميقة ليست هى راحة الاستسلام أو النكوص، ولكنها النور والوعى واليقين.

(٣٣٨)١٠ الوحدة الأولى .. وصراع البقاء العنيد:

ويتذكر صاحبنا كيف كان يخوض معركته وحده تماما قبل هذه الخبرة المثيرة المطمئنة التى غمرتـــه الآن.

"فى ذاك اليوم الدابر قبل النور

كان وحيدا ..."

وإذا كانت وحدة عمق الرؤية هى وحدة السماح والتواضع واحترام الفروق، فـــإن وحـــدة الـــصراع البقائى كانت مفروضة على صاحبنا من خلال إصراره على اكتساب القدرة تمهيدا لهذه اللحظـــة، دون التنازل للحظة واحدة عن حتم الوصول والمواجهة وعدم استسهال أى حل جانبى أو منشق، وهى وحدة قاسية عنيدة مفروضة طالما أن صاحبنا مصر على عدم الانحياز هنا أو هناك.

(٢٣٩ – ٢٤١) الاغراء بالاغتراب الاسهل:

والمعروض على سائر هذه المسيرة – كلما زاد الألم – هو الحلول الاغترابية السهلة التى كم أشـــرنا إليها طوال هذه الدراسة، ونوجز بعض ماجاء منها فى المتن هنا فنقول:

(ا) الاكتفاء بالألفاظ الجوفاء بديلا عن نبضها الواقعى المسئول.

10- من هنا يغلب الجزء الذاتى على المتن، إذ يستبعد خبرات بذاتها قد تصلح نموذجا لما يحدث فىالعلاج النفسى من اجترار الألم بشكل جديد بناء. وما يمكن أن يترتب على ذلك.

(ب) الاكتفاء بالأفكار بديلا عن إمكان تحقيقها.

(جـ) الاكتفاء بالنكوص الحسى كمظهر للحرية بديلا عن الوعى اليقظ الأشمل.

"وصليل الألفاظ يغنى اللحن الأجوف

والفكر سحاب يخفى النور المأمول

والحس الأعمى يرقص فى حلم النشوة"

ولكن هذه العروض ومثلها مرفوضة يقينا بعد الاختيار الحاسم الأقدر.

(٢٤٢) ذكريات الوحدة:

ومن أكبر وأهم مايستعاد من آلام فى هذه الفرصة المتاحة، هى آلام النبذ أو الترك أو الهجر التى فرضت على صاحبنا وحدته القاسية مقابل تمسكه الخاص بموقفه الخاص، والذى يحدث فى هذه المسيرة – بوعى أو من وراء الوعى – هو أن يعرض الحل تلو الحل وكأنه حل بهيج لتخفيف الألم، وهو فى الحقيقة سرقة تجربة المعاناة.

"وتراءت صور الخدعة

تتلاحق تحكى قصة سرقة"

ومن أعمق مايثير الشعور بالرفض والنبذ هو أن يجمع الناس – أغلب الناس – على استمرار الاغتراب، فمن واقع حبه لهم وضعفه الطبيعى الذى يظهر فى صورة الحاجة إليهم هو لايستطيع أن يهمل رأيهم أصلا، فإذا أصروا فى مجموعهم على الابتعاد عن وجه الحق، حتى لو كان لديهم مبراراتهم، فإن وحدته تزداد قسوة وألمه يتضاعف فى يقظته الحادة الدامية

"يوم تنكر جمع الناس لوجه الحق"

وهنا تلوح مهارب جديدة قديمة فى صور متنوعة:

(ا) **تصيعد الوحدة** وهذا هو الحل الشبفصامى الذى يقول: مادمتم لفظتمونى سألفظكم والبادى أظلم، ولكنه سرداب الظلام، وإعلان لتوقف المسيرة بلاعودة.

"يوم تفتح سرداب الهرب بلا رجعة"

(ب) **الانسحاب للقديم**: ليس بمعنى النكوص كما سبق أن ألمحنا، ولكن بمعنى التمسك بأهداب قيم نجحت فى زمان غير الزمان، على أساس أن الذى تعرفه خير من الذى لاتعرفه. وهذا المهرب تتبين لذته فى مدى مايوحى به من تجنب المغامرة أصلا

"يوم تنمر كل قديم حتى يفرض نفسه"

(٣٤٣) (حـ) الاستغراق فى اللذة الحسية: وقد سبق أن أشرنا إليها، حيث يقوم الجنس المنشق بهذا التعويض الهيدونى الخاص بديلا عن التواصل البشرى المتطلب تحمل التناقض

"يوم انطلق يلوح باللذة والمتعة

الجن الجنس الشيطان

بدلا من حب قرب أكمل"

(٢٤٤) (د) الاختباء من اللاأمان بالاستغراق فى جمع المال: بما يحمل من مخاطر الاستغناء عن الناس، وبالتالى يبرر الانسحاب ويدعمه.

وهنا ينبغى أن نذكر أن الجنس، والحاجة إلى الدعم المادى هما دافعين للحفاظ على النوع، والحفاظ على مقومات الحياة ... وفى نفس الوقت، ومن فرط قوتهما البقائية، نجد أنهما يتيحان فرصة أعمق للتواصل بين الناس اضطرارا بقائيا، وهذا الخطر الاستغنائى الذى يترتب على الثراء المفرط ينبغى أن يوضع فى الاعتبار عند تعديد مزايا الحد من هذا المهرب

"يوم تراءت للنفس مزايا الخدعة

أن تجمع ما تجمع حتى تأمن غدر الأيام

حتى لاتحتاج إلى الناس"

(٢٤٥) (هـ) استعمال الآخرين: وهذا الثراء أيضا، الذى يهدد بالاستغناء عن الآخرين، هو الذى يتيح فرصة استعمالهم – حتى دون استغلالهم – رغم ترجيح هذا الاحتمال أيضا.

"حتى تشترى عبيد الله"

وهذا الاستعمال – عن طريق القدرة المادية – يؤكد الانسحاب الشيزويدى ويسهله، ولكنه يمثل أكبر خطر على محاولة التواصل الحقيقية.

وبعد:

فإذا كانت المسيرة قد استمرت رغم كل هذا الاغراءات وإمكانية الاختباء فيها، ورغم الوعى بها، ورغم رفض الانزلاق إليها، فكم كانت مسيرة مؤلمة حتى النخاع، وإذا كانت الفرصة قد أتيحت لأن يسمع أنين صاحبنا بمجرد أن أتيحت له هذه الفرصة، فتحرك الألم النابض فى هذا التسلسل الفكرى الحاد، فإن ذلك كله يعنى أن الفرصة حقيقية، والتغيير جذرى، والحق يعود لصاحبه ليكمل المسيرة.

ولكن ياترى هل تسير بعد ذلك الأمور فى سلاسة وتلقائية؟ إذا، فهى الجنة .. ولكن ...

(٢٤٦،٢٤٧) البكاء الجديد .. غسيل الروح:

كنا قد حذرنا من قبل كيف يمكن أن يكون البكاء إجهاضا للحس المواجهى الأعمق، وإعلانا لاعتمادية خطرة، إلا أن الدموع هنا – وليست بالضرورة البكاء – لها وظيفة صادقة إذ تعلن "<u>الفرحة بإمكان الألم</u>"، فحين يسمح للفرد فى مسيرة التكامل وخبرة العلاج (وهى نموذج مصغر لمسيرة التكامل) أن يتألم بهذا الصدق، فإنه يسمح لنفسه بشجاعة البكاء الذى يشعر به صاحبه وكأنه الماء المقدس الذى

يغتسل به إذ يولد من جديد .. .، وفى هذه اللحظة .. ومن واقع هذا السماح وهذا التجاوب، يكاد يتأكــد أنه لم يعد وحيدا، فهل يصدق الأمل حقا وفعلا؟

"وبكيت ...

يافرحتى الكبري...

ما أقدس ماء الدمع الدافيء يغسل روحي

.... هل قتلوا غول الوحدة؟"

(٢٤٨) صحوة الشك:

إن هذه الخبرة إذ تبدو غاية التكامل وعمق الوجود البشرى الحى، هى أصعب الخبرات كافة، سواء فى رحلة التكامل أم فى العلاج النفسى، ذلك:

(ا) أنها خبرة صادقة صدقا أكبر من قدرة استيعاب المجتمع القائم، وبالتالى فهى تزيد من الوحدة ولاتقلل منها فى نهاية النهاية لو لم تستوعبها حركة جديدة قادرة ويقظة، وهى نادرة إلا قرب اكتمال الرحلة.

(ب) إنها خبرة مؤلمة، إذ تسمح للنبض المسحوق القديم بالحركة من جديد، ومالم يحترم هذا الألم بالدرجة الكافية فإن سحقا جديدا قد يضر أكثر مما ينفع.

(حـ) إنها خبرة مؤلمة، إذ تسمح للنبض المسحوق القديم بالحركة من جديد، ومالم يحترم هذا الألم بالدرجة الكافية فإن سحقا جديدا قد يضر أكثر مما ينفع.

لكل هذا، ورغم ما قدمتها به من شرح يبدو وكأنه يعلى من شأنها، أعلن من مسئوليتى كإنسان وكمعالج أن السعى إليها بغير حسابات كافية، والتبكير بها قبل إعداد مناسب، والاستغراق فيها أكثر من احتمال صاحبها، واستمرارها أكثر من ضرورة فاعليتها، كل ذلك خطر أى خطر ينبغى أن يتجنبه المعالج بكل وسيلة، وإلا ..فإن الناتج منه قد يكون (ا) نكوصا فتلوثا فإعاقة، أو (ب) اندمالا وتشويها نتيجة للسحق الجديد الأخطر.

وأغلب المرضى فى العلاج النفسى يتجنبون هذه الخبرة لأن حساباتهم الداخلية أقوى من آمال المعالج فى العادة.

وأغلب الناس يتجنبون هذه الخبرة ويستبدلون بها بدائل انشقاقية لذية عابرة، أو بدائل لفظية عقلانية واصفة، ولنا - من موقع علمى - أن نحترم هذه الحسابات الهيابة، وهذه البدائل المؤقتة، ما دامت هذه الخبرة - رغم روعتها .. بل وضرورتها - بكل هذه الخطورة، وموقف الشخص على طريق التكامل لايختلف كثيرا من حيث الحذر والحسابات عن موقف غيره، ولكن رحلته الطويلة تسمح له بالمغامرة أكثر، لأنه هو فى النهاية الذى يستطيع أن يتحمل المخاطر، ألم نقل أنها رحلة فردية وحيدة على مسئولية صاحبها فى غاية الأمر؟ وأن كل ماهو دون ذلك لايعدو أن يكون عوامل مساعدة؟. ، . ونضيف هنا: بما فى ذلك العلاج النفسي.

ونظر الهذه المخاطر جميعا التى لاتخفى عن الشخص على طريق التكامل من واقع طول تاريخه وعمق وعيه، فإن الشك يساوره فى إمكان! كمال الخبرة، ويرجح هذا الشك إحساسه (وحساباته الداخلية) بأن حجم من سمحوا له بذلك لن يستطيع أن يستوعب ألمه النابض المستعيد نشاطه بلاتلكؤ، وإذ يبدأ الشك من موقع فيه درجة طيبة من الموضوعية .. يتمنى إنهاء الخبرة، أوعدم سوء تأويلها، أو الانسحاب خوفا من معقباتها، أو إحباط هو غير مستعد له بعد أن أعطى الأمان

"ساورنى الشك

ياليت الكل تلاشي،

حتى لا أبدو جبلا يتهاوى من لمسة حب صادق"

فالشك هنا ليس مثل شك البارنوى فى أن يحب (أما فى بستان الحب، فالخطر الأكبر أن تنسونى فى الظل) (ص ٣٠٦) أوشك الفصامى أن يسمعه أحدهم (ص ٤١٤)، بل إنه تعترف موضوعيا بأن ما سمح له بهذا الألم هو حب صادق، ومع ذلك فالشك يساوره فى احتمالهم لرؤية حقيقة ضعفه، ومدى عمق ألمه، وطبيعة تركيبه رغم مظاهر قوته.

(٢٤٩) احتمالات التراجع:

ومثل هذا الشخص، إذ يدرك خطور هذه الخبرة[11]، ويعلم خطرهم، لابد وأن يمنعه شكه أن يتمادى تحت أوهام أمان لاوجود له بالقدر الذى يسمح له بالاستمرار، أو تحت أوهام وجود أشخاص ليسوا حمل ألمه لو أطلق له العنان، وتبدأ محاولات التراجع من موقع موضوعى بدرجة مناسبة، وإن كانت حركة وتبدأ محاولات التراجع من موقع موضوعى بدرجة مناسبة، وإن كانت حركة التقدم والتأخر من طبيعة رحلة النمو والتكامل، إلا أنها حركة حية وقصيرة هذه المرة بالمقارنه برحلة "الداخل والخارج" (ص ١٨٤) أو رحلة الوحدة والاستغاثة (ص ٢٩٤)، ونحب أن نظهر هنا وجه الشبة بين الحركة النموية فى بداية مراحل النمو بعيدا عن الوعى، وبين الحركة السيكوباثوجينية التى تجهض لولبية النمو وتنتهى بالإجهاض، وبين الحركة التكاملية التى تتم بدرجة أهدأ وبوعى صاحبها واختياره (ص٥٨٤) النسبى على الأقل، (وهذا من ضمن فائدة تقديم فصل عن رحلة التكامل فى هذه الدراسة)

"داخلنى خوف متردد

وتراجع بعض يتساءل

ماذا لو أضعف؟"

فالتراجع هنا - بعد الشك - ليس كاملا، (تراجع بعضي)، والخوف ليس كاسحا ولكنه خوف متردد، والتساؤل يحاول أن يجد المبرر الموضوعى للتراجع من خلال حسابات نتائج إظهار الضعف، وكل ذلك -

---

11- راجع الخبرة المقابلة التى انتهت بالانسحا الكامل والموقف البارنوى فى "أغوار النفس" للمؤلف ص ٩٣ ومابعدها، ثم مايقابل المتن الشعرى من شرح ص ١٣٠ ومابعدها.

كما ذكرنا - يتم فى دائرة الوعى، ولايمنع، إلا جزئيا، عمق الخبرة التى سمحت له بالألم والدموع والأمان.

(٢٤٩، ٢٥٠) تبرير التراجع:

ويمكن أن تكون أسباب التراجع بعد هذا الاختيار موضوعية جزئيا كما ذكرنا، إلا أن كثيرا منها قد يبدو مجرد تبرير ومبالغة، كما أنه يحدد ضمنا خطورة هذه الخطوة وضرورة حساباتها بمقياس دقيق تماما، وصاحبنا يعلم ابتداء أن هذه المبالغات من نسج خياله، ومع ذلك فهو يتمادى فيها، وخياله يصور له - تبريرا لإيقاف هذه المغامرة أو التخفيف منها - أن قوته الظاهرة التى اكتسبها عبر رحلته الطويلة لها من الأهمية مالا يمكن السير بدونه، وهو لا يصورها بأنها مهمة لحفظ تماسكه هو فحسب .. بل إنها مهمة أهمية مطلقة للناس أجمعين

"وخيال جامح :

وكأنى أرفع وحدى الكرة الأرضية قوق فروني"

وهذه الخدعة قد تؤجل مسيرة التكامل، أو توقفها، إلى مالا نهاية، وفيها لمسة من شعور الهوسى بالقدرة المفرطة، والفرق بينهما أن كل ما يقوله صاحبنا هنا ينبع، ولو جزئيا، من حقائق موضوعية، بعكس الهوسى الذى يتمادى فى تصوير قدراته والاعتقاد بها لدرجة ضلالات العظمة بلا أدنى فعل مناسب (وهذه فرصة جديدة لنؤكد وجه الشبه بين "الشخص على طريق التكامل" وبين نظيره فى مختلف الزملات المرضية) وصاحبنا يبرر عدم تماديه فى الضعف بتصوير دوره بأكبر من حقيقته، وبتصوير الشر المتحفز فى داخله وداخل الناس وخارجهم بأخطر من قدرته.

وهو يسترجع كيف أدت قدرته دورها فى الأخذ بيد الناس، وترويض شرهم المتحفز

"من يروى عطش المحرومين

من يمنع ذاك الوحش القابع فى أنفسنا

أن ينتهز الفرصة؟"

ثم يصور - نفسه - من واقع نسبى - أن دوره، إذ عرف السر وتحمل آلام المسيرة واكتسب القدرة، أن يحمى من لم يعرف (الأطفال خاصة)، ومن ينشق ويستسهل (الاغتراب اللفظى خاصة)

"من يقضم أنياب الليث الكاسر حتى لايغتال طهارة طفل

"إذ تخدعه الغنوة :

الحل الأوحد يا أحبابى .. فى الصدق

وفى الألفاظ الحلوة"

كما أن حذقه للغة السائدة، وطول خبرته فى التحايل للوصول إلى هذا الموقع القادر، قد أتاحتا له أن يعرف زيف الشعارات القائمة وخطورة خداعها وضرورة ضربها بلغتها فى بيتها، وليس بلغة الضعف،

أو لغة الصدق العارى، أو لغة الأمان المستسهل، وهو إذ يعرف ذلك يكاد يزداد تمسكا بقدراته وتبريرا لإيقاف التمادى فى الضعف أو الأمان

"من يلعب بالبيضة فى سوق العلم الزائف؟

حتى يعلم أصحاب العمم الخضراء

أو اللعبة ليست حكرا يعطيهم حقا قدسيا

فى إصدار اللائحة الرسمية لحياة الناس؟

وهو يكاد يبرر إذا، بعد كل هذه الحيثيات، أن يستمر فى عطائه القهرى وفى دوره القادر، وبالتالى هو يتجنب مخاطر الضعف والتعرى والأمان الخطر مما سبق ذكره

"من يفعل ذلك عنى يا حبابى إذ أكشف أوراقي

إذ أبكي.. أضعف.. آتمدد

دون سلاح الشك القدرة؟"

ولكن هذا الوعى كله - رغم ما يحمل من صدق - لايبرر استمرار نوع المسيرة كما كانت، ذلك أن التكامل هو التغير لا محالة، ومن ضمن مقومات التغير أن يتغير الدور الفردى، وأن تزداد الثقة بالناس وقدراتهم، إن لم يكن فيهم فردا فردا، فلا أقل من أن يكون فى مجموعهم.

وإذ يقابل المعالج هذا الدفاع (الميكانزم)، الذى يحول دون استكمال المسيرة أو إذ يتعثر فيه الشخص على طريق التكامل، ينبغى أن ينتبه إلى مخاطره ولايخدع فى صدق مبرراته:

١ - فمن طبيعة التكامل أن يحدد الفرد دوره المتواضع مهما بلغ ذروه النبوة، فالمسيرة الجماعية هى الأصل.

٢ - ومن ضرورة التكامل أن يكون لكل مرحلة مهماتها ودورها، بحيث إذا استمر دور واحد - مهما بدا إيجابيا ورائعا - أكثر من أبعاده، فلابد أن نشك فى استمراره وأن المسيرة توقفت مع حركة موضعية خادعة.

٣ - ومن حتم التكامل الوعى بالموت طول الوقت، ومهما بلغت أهمية فرد أو قدرته فى نظر نفسه لدرجة يبرر بها استمراره، فإن وعيه بالموت يتأكد فى قدرته على التوقف عن دور سابق بملء اختياره، مهما صور لنفسه أهميته وأهمية الدور الذى يبدو وكأنه لاغنى عنه.

٤ - من طبيعة التكامل أن يحصل المرء على عائد جهده أولا بأول، حيث أن طول التأجيل يشكك فى المسيرة لا محالة.

ولعل خير من يعرف كل هذه المحاذير هو ذات "الشخص على طريق التكامل"، ومن خلال وعيه بها نراه لايستسلم لأى بوضوح كيف يزين له التراجع، ومن خلال هذا الوضوح يستطيع أن يستمر، أو غير ذلك.

"زين لى خوفى آن آتراجع

أن أجمع نفسى وأواصل لف الدورة.

(٢٥١) الوعى بالشك والمخاوف .. يدعم الاصرار:

وهكذا يعود لإصراره من واقع تعميمه لحتم الاستمرار رغم صدق كل هذا، وهو يصر على حقه فى الضعف مهما كانت النتائج، وفى هذا الإصرار وحده مافيه من قوة.

"لكن لا..

خلق الله الدنيا فى ستة أيام

والضعف الصادق فى ظل حنان الناس

دور أقوي"

(٢٥٢) أمان أكثر .. ودمع أكثر:

ونرجع لوصف عمق هذه الخبرة "الأمانية الخطرة" على مسيرة التكامل، فنخطو خطوة أخرى نحو مزيد من التنازل عن الشك وعن الخوف وعن تبريرات الاستمرار، فنرى صاحبنا وهو يستسلم لأمان الناس رغم يقينه بعجزهم النسبى، وهو يسمح لنفسه بأقصى درجات التفكك، مع علمه بأغلب ما يمكن أن ينتظره

"وتساقط دمعى أكثر

والتف الكل حوالي

يغمرنى بحنان صادق

هدهدة حلوة

وصف عمق الخبرة:

وهذه الخبرة النادرة تشمل تناقضا جديدا هو من أعمق تناقضات المرحلة، إذ تمثل "قمة النكوص فى مقابل قمة الاستيعاب المسئول معا "

"وتكور جسدى مؤتنسا

فى حضن الدفء ودغدغته

واهتز كيانى بالفرحة،

ليست فرحة

بل شيئا آخر لا يوصف

إحساس مثل النسمة

أو مثل النسمة فى يوم قائظ

أو مثل الموج الهاديء حين يداعب سمكة

أو مثل سحابة صيف تلثم برد القمة

أو مثل سوائل بطن الأم تحتضن جنبا لم يتشكل"

والنكوص هنا نكوص عارم يصل إلى استعادة (ولورمزية) لأمان ماقبل الولادة (سوائل بطن الأم)، وقد يتخطى هذا الإحساس إلى نكوص فيلوجينى أو نباتى، إذ يظهر فيه التناسق مع الطبيعة فى تناغم فائق.

وهذه المشاعر هى حقيقة واقعة وليست وصفا شعريا، وهنا يكمن الفرق بين معايشة هذه الخبرة لدرجة الشعور بالنبض الحقيقى فى كل كلمة تصفها، الأمر الذى سرعان ما يتطور - من فرط صدقها - إلى رعب (صادق أيضا).

(٢٥٣) هل هو الحب:

وقد تظهر مثل هذه المشاعر فى مواقف يطلق عليها الحب، ولكن من يعايشها يعرف أنها مشاعر يجب أن تكون خاصة لدرجة أن أى لفظ شائع لا يصلح لوصفها، فهى مشاعر تشمل ما قبل ما يعرف بالحب، بل ما قبل ظهور الألفاظ لوصف المشاعر أطلا، وفى نفس الوقت تصف ما هو يتخطى قدرة اللفظ على وصفها، والجمع بين ما قبل وما بعد هو منظور آخر لشكل تناقض جديد فى عمليه ولاف مستمر، فما قبل اللفظ Preverbal يعنى البدائية والشمولية والخلط، ومابعد اللفظ Metaverbal يعنى الاستيعاب الحدسى اليقظ لخبرة شاملة تعلن التحام الفكر بالحس بالوجدان التمحاما أعلى يعجز اللفظ عن الوفاء بحقيقته، والفرق بينهما يصل إلى التضاد، إلا أنهما فى رحلة التكامل يعلنان تناقضا جديدا يهيىء لصنع لفظ أرقى، أو وسيلة للوصف والتواصل أقدر، وهذا من قمة مكونات الوجود الجديد.

(٢٥٤) هذه الخبرة .. والتصوف:

سبق أن أشرنا إلى مايمر به الهوسى من خبرة شبه بشكل أو بآخر خبرة التصوف، وقلت إن الفرق بينهما فى ما يخرج من هذه الخبرة أو تلك.

وفى الخبرة الهوسية يكون اليقين أكبر، والخلط أكبر، والنشاط أكبر، والعجز اللفظى أكبر.

أما فى الخبرة الصوفية فاليقين كبير ولكنه متصل بالذات العليا، والخلط موجود ولكنه محاولة للوصول فيما بعد ذات الشخص حتما، والنشاط قليل فى العادة، والعجز اللفظى شديد (فيما عدا الأحوال الانشقاقية الناقصة).

أما خبرة التكامل فهى أقرب إلى الصوفية، إلا أن ارتباطها بالواقع عميق ومباشر، وارتباطها بالذات وثيق وشامل، والعجز عن اللفظ قليل ومناسب، وحتى اليقين متعلق مباشرة بدور الفرد ومسيرة الناس فى الحياة اليومية، وهو يترجم هذه المشاعر مباشرة بالتواصل الكامل مع الكون الأعظم.

ويصاحب هذه المشاعر ما سبق أن أشرنا إليه من أنه مع خبرة النكوص تعود المشاعر الجسدية إلى الحياة، وهنا خبرة نكوصية كذلك، إلا أن المشاعر الجديدة إذ تدب فيها حياة نابضة من جديد تكون متصلة طول الوقت بالفكر وبالوجدان اتصالا وثيقا ومتناغما

"شيء يتكور فى جوفى لافى عقلى أو فى قلبي

وكأن الحبل السرى يعود يوصلنى بحقيقة ذاتي..

هو نبض الكون،

هو الروح القدسي،

أو الله"

ولعل مثل هذه الخبرات هى التى فتحت الباب أمام بعض الصوفية للحديث عن التوحد والحلول، حين أرادوا أن يترجموها إلى لغة دينية أو صوفية حسب مايمكن أن يتواصل به الناس فى عصرهم وظروفهم.

والسيكوباتى حين يعلى من شأن المشاعر الحسية الجسدية "فخلايا جسدى تعرف لغة الحس" أو إذ ترتبط بالنشاط الجنسى "فلأرو خلايا جسدى بالجنس" إنما يعلن تحيزا فى الاتجاه البدنى بديلا عن نتاج هذا البدن، أما هنا فعودة النبض إلى البدن هى عودة ولافية للتوليف بينه نتاجه (بين الجسم والروح، بين المخ والعقل .. بين الجسد والعيادة ... الخ) فلا ترجح وظيفة على وظيفة مقابلة فى حركة نكوصية بحته، بل إن النكوص هنا يتم مع مزيد من تعميق النشاط الأنضج وتلاحمه مع النشاط الفطري.

(٢٥٥) مخاطر عدم كفاءة المعالج فى خبرة الأمان المفرط:

نورد هنا عينة تظهر ماسبق أن أشرنا إليه من أن هذه الخبرة تحتاج إلى بيئة مسئولة وتوقيت سليم، ومسئول حاضر مشارك (معالج فى حالة العلاج النفسي)، ومن واقع ممارستى الشخصية والمهنية رأيت كيف تسمح هذه الخبرة لمخاوف الآخرين - بما فيهم المعالجين - أن تتجسد فتهاجم وتشكك فى كل ما يجرى .. وترجح الحلول "الأسهل" و "الألذ" اختصارا للطريق ورفضا للرؤية.

وتأتى المخاطر على من "يحضر" هذه الخبرة من عدة مصادر:

١ - قد يرى الجانب النكوصى منها فحسب، فيخاف من نكوصه هو ذاته ويدفعها ويرفضها.

٢ - قد يرى جانب الوعى الفائق منها، مما قد يدفعه هو ذاته إلى انتشار وعيه، فيعرضه لرؤية مناطق فى ذاته ليس مستعد لرؤيتها "الآن" (حينذاك).

٣ - قد يشعر بمسئوليته الجديدة إزاء هذا الصدق العارى، وهذا النكوص اليقظ، ومسئوليته تجاه صاحب الخبرة وتجاه كل الناس، مما يجده أكبر من قدرته فيشكك فى صدق الخبرة ويدفعها أو يهاجمها.

٤ - قد يكون حاضر هذه الخبرة (معالجا أو شريكا) معتمدا على قدرات صاحبنا الفائقة وقوته القادرة، وإذابه يفاجأ بكل هذا الضعف أمامه، مما قد يجعله يفاجأ بفقد الدعم، ومن ثم بمسئولية استقلاله الذى لم يستعد له بعد (ولاننسى أن المعالج قد يعتمد اعتماد هائلا على مريضه وليس فقط العكس).

٥ - قد يمثل نجاح عبور هذه الخبرة بسلامة تهديدا مباشرا لمن برر لنفسه - فى أعماقة - توقفه على اعتبار استحالتها.

ومع اعتبار كل هذه الاحتمالات والمخاوف يمكن أن نفهم كيف يكون الهجوم على صاحب هذه الخبرة: (ا) بالاستهانه (٢) أو الشفقه (٣) أو بالاهمال (٤) أو بالشماتة (٥) أو سوء الفهم (٦) أو بالتشكيك، ويتم

هذا كله بكل وسائل التوصيل اللفظية وغير اللفظية، لكن صاحب التجربة يتلقاها بحدسه وفرط يقظته كأقسى مايكون، وبسبب استسلامه الآمن فإنه قد يتعجب أول الأمر لهذا الهجوم غير المنتظر.

"واستسلمت، لكن.. لكن، ماذا يجري؟

وتزيد الهدهدة علوا..، ماذا يجري؟

تعلو أكثر...

ليس كذلك

تعلو أكثر..

ليست هدهدة بل صفعا

تعلو أكثر

بل ركلا ضربا صحنا

تعلو أكثر.

وهذا التصور يورى كيف أن الأمور تبدأ بحسن نية، ثم تختلط، ثم يتبين وجهها الآخر، واختلاف شعور المستقبل لعواطف الآخرين بهذا التدريج قد يشير إلى صدق موقفهم فى البداية، ثم انسحابهم للأسباب سالفة الذكر رغم استمرار سلوكهم الظاهرى كما هو .. إلى أن محتواه ينقلب إلى الاحتمالات السابقة.

وإذ تتعمق الخبرة إلى هذه الدرجة، ومع يقظة صاحبها وشعوره بالتهديد، يتضاعف الألم أضعافا مضاعفة إذ أنه يصعب عليه أن يجمع فى لحظات ويتراجع، وعليه أن يشرب الكأس حتى نهايته

"أنياب تنهش لحمي

الكلب الذئب انتهز الفرصة

اغتنم الضعف وأنى ألقيت سلاحي"

وتعبير الكلب الذئب هنا يشير إلى معنى أن من آمنه صاحبنا (معالجا.. أو شريكا) ليحرس خبرته هو الذى افترسه فى وهدة ضعفه.

(٢٥٦) التجمع من جديد[١٢]:

وكما كنا قد نبهنا من قبل أن صاحب هذه الخبرة يدخلها عادة على مسئوليته، ومع السماح بالنكوص والتعرى والضعف يتمتع بيقظة ترصد له الخداع وتنذره بطبيعة العواطف الكاذبة، فهو إذا قادر، رغم ضخامة الخبرة وعظم ألمها، على أن يتجمع من جديد وبمسئولية كاملة، فهو إذ يتفق أن الهجوم قائم، وأن الحنو لم يحتمل أن يستمر، وأن الدفاعات قد أطلقت من مخابئها تحمى أصحابها من ألم المشاركة، سرعان ما يبدأ فى تجميع أجزاء ذاته من جديد

"هل لبس الشر مسوح الأب الحاني؟

12- راجع أيضا "أغوار النفس" للمؤلف ص ٩١ ومابعدها.

هل خدعنى المظهر؟

وتلفت حوالي

فإذا يقناع الود يدارى شبه شماته

ففزعت"

وجعلت ألملم أجزائي

وأحاول أن أتشكل"

(٢٥٧) الصعوبة، والنبلد المؤقت:

وبقدر صدق المحاولة الأولى "النكوص المسئول اليقظ" تكون صعوبة التجميع من جديد، فى هذا الجو القاسى الشامت، حيث أن المطلوب من صاحب الخبرة أن يصعد حتى قمة التماسك وهو بعد فى وهدة التفكك الإرادى النكوصى الآمن، وهذه الرحلة الطويلة، خبرته السابقة كلها وأطول، لايمكن أن تتم - بأمان - فى لحظات، بحيث يصبح انسحاب المشاعر والأحاسيس ضرورة حتمية، لأنها دفاع ضد استقبال كل هذا الاحباط، كما أن ذلك يتيح للفكر أن يتجمع بسرعة ليواجه الموقف

"وصليل حار يغمر عقلى

وكأن نحاسا يغلى فى فروة رأسي،

والضوء النور أنى يخفت يخفت يخفت،

أنطفأت روحى أوكادت،

انسحب عصير حياتي"

ومثل هذا يحدث حين حدوث بداية الفصام، إلا أنه هنا يحدث بوعى شديد، كما أنه مؤقت بالضرورة، وموقفى كذلك ..، وذلك لما سبق له من إعداد مناسب، ومكاسب قدرة متزايدة جعلت من هذه الخبرات مسئولية صاحبها بالكامل، ومع هذا الانسحاب يبدو التبلد كدفاع موقفى نافع إلى أبعد مدى والفرق بينه وبين الانسحاب الفصامى هو شعور الفرد فى هذا الموقف، وما يداخله من اختيار واع، ومايطمئن حوله من كونه مؤقتا بالضرورة، أما لولم تتوفر هذه الشروط، قد يخرج منها الفرد بندبة عميقة فى شخصيته تشبه "الفصام المتبقي"، أو اضطرابات الشخصية.

"جف كيانى: خشب أجوف،

وصليل نحاس الرأس يجلجل

فكر صلب أملس[13]

واختفت الآلام مع الأحزان مع الفرحة[14]

13- قارن خبرة الفصامى ٣٨٠ ، ٣٨١

14- قارن خبرة الفصامى ص ٢٩٨

(٢٥٨) الجانب الشخصى فى التراجع:

ولكن هل يمكن أن نصدق أن كل هذا الضرر قد نشأ من هجوم حقيقى من الخارج؟ وهل يمكن أن يكون الاهمال، أو الترك، أو الشماتة مهما بلغت مبررا لهذا الخوف وهذا التراجع مهما كان مؤقتا؟

الواقع أن الإنسان الفرد، مهما كان موقعه من مسيرة التطور، فإنه هو ذاته لايزال يحمل من القوى المعوقة، ومن المجتمع السلفى الذى يكون جزءا قويا من شخصيته، ما يساهم فى المبالغة فى الشكوك والمخاوف وتصوير إهمال الآخرين وتركهم ونسيانهم بما يذكرنا بموقف قريب من الموقف البارنوى الذى سبق شرحه

والشخص على طريق التكامل يدرك هذا بشكل أو بآخر، ومخاوفه - من واقع وعيه بها، وحسب واقع الحال - تأتى من عدة مصادر:

١ - **الخوف من المجهول**: إذ مهما بلغت خبراته السابقة، فهذه الخبرة تحمل من الجدة مايجعلها مخاطرة غير محسوبة، مهما كانت قوة قدراته السابقة.

(٢٥٩) ٢ - **الخوف من التجاوز المفاجيء** Sudden transcendence :فعلى الرغم من أن المسيرة كلها هى سعى لنوع من التناغم بين الكون الأوسط (الفرد الإنسان) والكون الأعظم .. (السعى إلى وجه الله)، فإن تركيز تحقيق هذا التناغم فى لحظة أو لحظات يحمل من الدهشة والإرعاب مايبرر الخوف منه حتى التراجع.

(٢٦٠) ٣ - **الخوف من الحرية**: إن الخوف من الحرية الداخلية - كما أشرنا يعتبر حقيقة علمية لامراء فيها، ذلك أن الإنسان إذ يعيش وجزء من ذاته مجهول لديه ومؤثر فيه فى نفس الوقت، يكون بداهة غير حر تماما، وبالتالى يجد مايبرر به أخطاءه ويخفف عنه حمل مسئوليته، أما أن يجد المرء نفسه وقد انتشر وعيه حتى أدرك كل أبعاده، فإنه سوف يتمتع بحرية داخليه بلاحدود، ولكنه فى نفس الوقت سوف لايجد أى مبرر يبرر به عجزه أو نشله أو قصوره أو تقصيره، فالخوف من الحرية مرتبط ارتباطا مباشرا باتساع مجال الرؤية، ومن ثم اتساع أبعاد الإرادة فالمسئولية.

وهذه الخبرة بما فيها من وعى منتشر تحمل كل هذه المخاوف مجتمعة.

٤ - **خوف الذات الوالدية من الانمحاء فى الكل الجديد**: وهذه الخبرة تحمل خطرا ينصب بوجه خاص على ذات من ذوات الشخصية، هى ماتسمى بالذات الوالدية باعتبارها المجتمع المنطبع Imprinted society، فهى بلاشك لايمكن أن تستسلم لهذه الخبرة التى تهدد بانمحائها بصفتها الكيانية الخاصة، ومن ثم تثير مخاوفها، وكل هذه المخاوف هى التى تبالغ من استقبال الخطر الحقيقى النابع من الخارج للأسباب التى ذكرناها سالفا.

(٢٦١) **استحالة التراجع:**

لو أن هذه المخاطر الخارجية، مظافا إليها هذه المخاوف النابعة من الداخل والمسئولة عن تجسيم الخطر الخارجى وتهويله، حدثت فى الظروف العادية بلا إعداد مناسب، لكان التدهور وإجهاض النمو هو المصير الأغلب بلا جدال، أما ونحن نتكلم عن الخبرة التكاملية، فقد أكدنا أن ذلك كله موقفى ومؤقت، لأن التراجع بعد الرؤية المواجهة التى أشرنا إليها (هذا ورقى .. أربح) يعتبر مستحيلا، مستحيلا بكل أسلوب

"فات أوان الردة

والفطرة نضجت فى نار القدرة"

والضمان الذى يضمن هذا اليقين باستحالة التراجع هو تزاوج الفطرة مع القدرة .. وهذه هى فائدة الإعداد الطويل باكتساب القدرات، وفائدة الحفاظ على الفطرة الداخلية وعلى قدرتها على النبض المستمر بالقدر التدريجى المتزايد.

(٢٦٢) اعادة رفض الحلول الاستسهالية:

ومن موقع استحالة التراجع، تنشأ مواجهة جديدة (قديمة) لتقويم الموقف قبل مواصلة المسيرة رغم كل شيء ..، والتساؤل هنا تساؤل استنكارى لامحالة، وقد سبق تناولنا الردود على كل محتوياته فى أكثر من موقع.

"لكن بالله عليكم:

ماذا هيج ضدى الشر؟ لم شوه طفلى الحر

لم عيرنى بالضعف؟ لم لبس الإنسان السلبى درع الرحمة؟

فانطلق يلوح بالراية وكأنه داعى الحرية

وهذه التساؤلات كلها تعيد إلى أذها نناقضية الشعارات فى مقابل خبرة التكامل، وقضية مهرب الحرية فى مقابل ضرورة امتلاك ناصية القدرة

"يهرب من عبء القدرة تحت ستار بريق الثورة

ثم يحطم ذاته إذ تغريه اللعبة:"

كذلك فهنا تكرار وتلخيص لما سبق أن طرحناه عن الدور الذى يمكن أن يشوه المسيرة ووظيفته فى إلغاء خبرة الوحدة البناءة أولا بأول

"أن يتمرغ فى نهر اللذة، هربا من ألم الوحدة،

جسد رخو يتلاشى فى جسد رخو،

يمحو الدنيا فى اللاشيء"

والجنس الذى بهذا المعنى قد يساوى العدم، ويبرر التوقف أو يخدع باعتباره قمة التحرر، وخطورة هذه الدائرة الملتذة - كما ذكرنا - هى أنها بلا نهاية، أى وعاء بلاقاع.

"والهرب الخدر يزين دورا آخر

والدور الآخر يتلوه دور آخر:

نقضى من مهد الجنس إلى لحد الجسد الفاني"

وكل هذه المخاطر سبق أن تناولناها فى موضعها، إلا أن إعادة التأكيد عليها من موقع جديد هنا له بعد خاص لتأكيد خلورة الانشقاق تحت شعار براق طرح بأكثر من لغة كمقابل، أو دليل على التكامل والانطلاق، وهو "الحرية" بكل صورها السهلة.

ثم إن كثيرا من دعاوى الصحة النفسية والتكامل تضع الجنس موضعاهاما وأساسيا كمسئول عن المرض من ناحية، وكحل جوهرى من ناحية أخرى، إلا أن عمق الرؤية، وصدق المحاولة، وتتبع مسار هذه الدعاوى بمقاييس التكامل .. تلزمنا أن نعيد النظر فى جدوى هذا التنظير على مسار التطور، فبالرغم من أن الجنس فى أرقى صوره قد يتحرر من الالتزام الثنائى، إلا أن ذلك مطلب تكاملى يأتى تلقائيا - ونظريا بالضرورة حتى مرحلتنا هذه - فى نهاية المطاف الذى يبدو أنه بالنسبة لأغلب الناس مازال هدفا ليس إلا، ومن هنا وجب التحذير من الاستسهال تحت عناوين براقه لاتخلو من الصحة من حيث المبدأ على الأقل.

علـى أن هذه الدعاوى شبه الحرة، إنما تمهد جميعها بطريق غير مباشر لعودة الخوف والتراجع إلى التمسك (والاكتفاء) بالمكاسب الوسيطة التى إن توقفنا عندها أصبحت هى هى القيم الزائفة المضيعة.

(٢٦٣) تزايد الصعوبة بعد التراجع:

وإذ يمر صاحبنا بكل هذه التهديدات والتخويفات: والرشاوى، والاغراءات، ولايستطيع أن يستجيب لأيها، فإن صعوبته تزداد حتما، لأنه يعاود موقف اختيار انتهى من اختياره قبلا

"تتلاحق تلك الصور أمامي:

الطفل العابث يرفض أن يتشكل

والزيف القاهر يترقب

وخيار صعب"

(٢٦٤) الوعى باليأس يضاعف اليقين:

ومع تزايد الصعوبة، ورغم اليقين بحتم استكمال المسيرة، فإن تزايد الشكوك يعتبر من الطبيعة البشرية، وهى تؤكد أن الخطوات ليست مجرد حماس لايحسب حساب اليأس والإعاقة، ولكنها مسيرة واقعية شديدة الوطأة

يتضاءل ذاك الحل الأمثل

أن تصنع من قهر الأمس - اليوم - الإنسان الأكمل

ويؤكد هذا التلويح بفقد الأمل وترايد اليأس شماتة الخائفين للأسباب السالف ذكرها

ويصيح السادة من أعلى المسرح:

اعقل يا سيد: قد أصبح حلما وهما

فكفى هربا كذبا

وهذا التشكيك من أن الاصرار على الاستمرار دائما أبدا هو نوع من الكذب مادام لم يتحقق، أو نوع من الهرب مادام هو هدف مستقبلى بالضرورة، هذا التشكيك يضاعف من صعوبة اللحظة، ويزيد من أوهام اليأس، المؤقت بالضرورة، الذى هو فى ذاته دافع للاستمرار المتصل لأنه مؤقت من واقع حتم الحركة والتطور.

(٢٦٥) مرة أخرى: استحالة التراجع:

وكل هذا التشكيك يأتى من جزء من النفس لابد من احترامه، لأنه جزء واقعى بالضرورة، ولكن احترامه لايعنى التسليم له، لأن هناك جزءا أعمق يؤكد استحالة التراجع (قد فات أوان الردة)

أية خدعة؟

أنفقت حياتى أرعى الطفل الخير

فإذا ما حان الوقت لكى أصبح طفلى الطيب

عوقنى الشك؟

وتحفز شيطان الخوف

وأكاد أصدق أن الظلم هو الأصل، الكذب هو الحق، أن الحلم هو الحل

هزنى الخوف، شدنى الخلف

ويذكرنى الصوت الأعمق

قد فات أوان الردة....

ونعود هنا فنذكر بأن الرحلة كلها كانت للحفاظ على قدرة ومرونة النبض الداخلى، وصلابة الدعامة الخارجية فى نفس الوقت، وكل هذا انتظارا لفرصة التكامل، التى لايزيدها الخوف وهواجس اليأس إلا تأكيدا لاحتمال تحقيقها كما نري.

(٢٦٦) المودة الى الناس وبالناس:

وإذ بيأس اليأس، تعود المسيرة لانطلاقها، بكل التناقضات المواجهة بعضها البعض، بما فيها هذا التناقض الأخير وهو "اليأس فى مواجهة حتم الاستمرار"، حيث يقبل صاحب التجربة مشاعر اليأس دون تهوين من شأنها مع ثبات خطواته المتلاحقه على طريق التكامل دون الانخداع بتفاؤل مسطح، ومن أهم مقومات نجاح هذه الخطوات هو أن الذين يدعمونها، ويساعدون فى التقليل من شأن اليأس، وفى مصارعة مثيرى المخاوف، هم أنفسهم بعض نتاج الرحلة الصابرة الطويلة وسطهم ولهم

والناس الناس، غرس الأيام المرة

تقضم أنياب النمرة

وبعد هذه التراجعات والمخاوف والتحدي؛ ثم الاستمرار؛ تنجح المسيرة فى تحديد خطواتها على أرض جديدة صلبة، وبذا تنتهى أزمة منتصف العمر بالتأكيد على حتم التكامل وإمكانه فى نفس الوقت، رغم مايصاحبه من تشكيك وآلام ومشقة، ويصبح للخطو الجديد قوته وللوجود الجديد شوكته من واقع تلاحم القدرة التى تم اكتسابها مع الفطرة التى تم إطلاقها

نبت الشوك بغصن الوردة

يدفع عنها عبث الصبية

فنفضت غبارة الغربة

وينتهى بذلك الشك بالمعنى المعوق، ولاتبقى إلاحسابات الكر والفر والمواجهة والفعل المستمر باللغة العادية مع وضوح الغاية القصوى، وهو التناقض الذى أسميناه قبلا "الطين والسحاب"، ونعود فنؤكده هنا فى هذا الامتداد المتصل بين "طين الأرض وأرجاء الكون"

وبزغت أداعب طين الأرض

أنثر عطرى فى أرجاء الكون

وبين الجذر شديد الثبات والساق شديد القوة

يملو سافي

يتعملق جذري

ينمو الطفل العملاق الطيب

وهكذا نراه بلغة إنسانية واضحة فى تعبير "الطفل العملاق الطيب" الذى سبق أن أوضحنا كيف أنه يعنى الولاف الجديد.

(٢٦٧) ولاف الأضداد:

ومن خلال هذه المسيرة نرى أنه لا تكامل بلا ناس، ولا توقف إلا بسبب الخوف

علمنى الألم القهر الصبر:

أن الخوف عدو الناس

لكن علمنى الحب الفعل:

أن الناس دواء الخوف

ولا ننزلق هنا فنلعن الخوف فعل الشعراء أو الخاملين، ولكن لابد أن نعرف وظيفته وجرعته وطبيعته فى كل مرحلة حتى لاتصبح الإعاقة حتما.

أما وظيفة "الناس" فى البشرية فهى بصفتهم (ا) الأصل: حيث أن الفرد قادم منهم وممثل لهم (٢) والنتاج: حيث أن كل فعل راجع إليهم (٣) والدعامة: حيث لايمكن لأى حركة أن تتم دونهم (٤) والمجال: حيث هم هدف رسائل المعنى ومصدر العائد منها (٥) والخلود: حيث أنهم المستمرون بعد فناء الفرد.

وبهذه المعانى التى تتأكد من خلال التدريب على التواصل، مثل خبرات العلاج الحمعى، أو النشاطات المماثلة البناءة، نفهم معنى أن "الناس" دواء الخوف

(٢٦٧) مصير التنافض:

لوراجعنا مسيرة التكامل من أولها لوجدنا أنها تؤكد على: مواجهة التناقض، والحفاظ على قطبيه رغم ماينتج عن ذلك من ألم وصعوبة، واستمرار هذا الحفاظ على المواجهة معظم الوقت لابد سينتهى بالولاف فى كل أعلى، ولابد أن نعترف أن مثل هذا الولاف لندرته ليس له مرحليا ألفاظا تصلح لوصفه ..، فحين نقول مثلا أن الضعف هو القوة .. إنما نتلاعب بألفاظ تلاعبا لايليق، وهو إن كان يصلح فى الأسلوب الشعرى والفنى، فهو لايصلح فى الأسلوب العلمى المسئول الذى يريد أن يقوم بتوصيل الحقيقة العلمية بين المهتمين بها ..، ولانملك فى هذه المرحلة إلا الالتزام بمباديء عامة وخطوط عامة فاتحين الباب للاجتهاد، حتى نستطيع وصف "تلاحم التناقض فى ولاف جديد" بألفاظ دالة ومناسبة فى يوم ما

رجعت ببصري

فإذا بالضعف هو القوة

وسط الناس الناس

فإذا إردنا بعض الايضاح لهذا التناقض الظاهر لوجدنا أن كل لفظ من الألفاظ المتناقضة إنما يساوى ما يقابله بشرط أن ينظر إليه من زاوية أخرى، فالضعف ضعف طالما هو عجز واعتماد، ولكنه هو هو قوة طالما هو إعلان للأمان المسئول وسط الناس، وتأكيد لضرورة تبادل المعونه بين البشر لأنهم ضعاف ... ومن ثم تأتى القوة ...

ولكن هذه مرحلة "تعاونية" و "تبادلية"، وليست مرحلة الولاف الذى تعنيه فكرة التكامل، والذى لا أجد مفر امن تجنب الخوض فيه - مرحليا - فى حدود هذه الدراسة.

(٢٦٨) توحد التباين:

وفى عملية الولاف التصاعدية، لايشمل **"الكل الجديد"** مجرد التناقضات المستقطبة التى هى أساس تكونه، وإنما يشمل أيضا تداخل وظائف وأجزاء تبدو متباينة ومستقلة، أما فى كل الولاف الأكبر فإنها الأكبر فإنها تتقارب حتى لتكاد تتوحد، فإذا قلنا أن الحب هو الفعل فإن هذا لايعلن تلاحم ضدين مثل الضعف والقوة، لأن الحب ليس ضد الفعل، وإنما يعنى أن الحب كمفهوم وجدانى قديبدو من واقع نظرة تجزيئية على أنه كيان قائم بذاته منفصل عن الفعل كسلوك ظاهر ذو معالم محددة، أما فى الولاف الأعلى فإنه يصعب أو يستحيل فصل هذين المفهومين عن بعضهما لدرجة نستطيع من خلالها القول أن الحب لايكون حبا بغير فعل، وأن الفعل لايكون فعلا (هادفا تكامليا) دون حب .. وهكذا فكل فى الفقرة إنما يعنى إعلان ولادة الولاف الأعلى الشامل لتلاحم التناقض وتوحد التباين معا

وإذا بالناس هم الأصل

وإذا بالحب هو الفعل

وإذا بالفعل هو الفكر

وإذا بالفكر هو الحس

وتلاحم التباين إذ يربط بين الفعل والفكر وبين الفكر والحس، إنما يصف نوعا من الوجود شديد الالتزام، شديد العلاقة بالواقع وبالكلمة وبالحس فى آن.

(٢٦٩، ٢٧٠) الهارمونى مع الكون والتوحد:

ويعود المتن يؤكد هنا من جديد أن الولاف الأعلى الدال على التكامل يشمل تناسقا مطابقا لدرجة التساوى بين الذات والكون مما أشرنا إليه أنه قد يكون دالا على فكرة التوحد عند الصوفية بشكل أو بآخر

وإذا بالكون هو الذات

وإذا بالذات هى الله

(٢٧١) الحركة داخل الولاف الأعلي:

ولايمكن تصور الولاف الأعلى باعتباره جماعا لمتضادات أو تلاحما لمتباينات، وإلا كان تصويرا ستاتيكيا لايفيد إذ أن الولاف رغم أنه وحدة تجميعية أكبر الا أنه حركة فى ذاته، وبالتالى فإن وصفه يصح أصدق باستعمال الأفعال من استعمال الأسماء

إنسان الغد، ينموه اليوم، من طين الأرض

إذا يفرز الملك طاقة

والرعشة تصبح نبضة

فى قلب الكون الإنسان

وهذه الحركة التى تظهر فى "فعل" الطاقة الناتجة من الألم، "والنبضة" المتجمعة من ذبذبات الرعشة، هى الوظيفة الغائية لتكوين الولاف المتصاعد بحيث توجه الحركة باستمرار إلى دوام التصعيد والهارموني.

(٢٧٢) حركة التواصل الجديد:

ومع تأكيدنا للوحدة كبداية مفروضة، ثم اختيار صعب، ثم نتيجة طبيعية لعمق وانتشار الوعى، نعود فنؤكد أن ذلك كله هو نقطة بداية لوجود تواصلى مستمر مع الناس وبالناس، أما شكل التواصل فى حركته الجديدة، فهو مايشير إلى صلابة الذات التى تسمح لها بالدخول فى علاقة حميمة وعميقة دون خوف من التلاشى فيها، كما تسمح لها بإنهائها والعودة إلى مركز وحدتها دون التهديد بالتناثر، إذ أن الدعم لايأتى من خارجها بل من تماسكها الداخلي

تمضى أحد الناس

تدخل فيهم لا تتلاشي

تبعد عنهم لا تتناثر

وهذا ماسبق أن أشرنا إليه باسم "الوحدة الإرادية المرنة" (ص٢٤)

(٢٨٣) الاخذ والعطاء:

ومع هذا الوجود الجديد يصبح العطاء هو مسيرة يومية تلقائية كنتاج جانبى للوجود، وبالتالى فلا يوجد معه أى شبهة تضحية، أومظنة من، أو احتمال ترفع، كما يصبح الأخذ ساسا ليس فيه خوف من مذلة، أو مظنة اعتماد

تعطى لا ترفع

تأخذ لا تتخوف

(٢٧٤) التميز فالتقسيم فالتكامل:

لاننسى ونحن ننهى هذه الرحلة أن هذه الدراسة بيولوجية أساسا، وتماما، وإذ نشعر أن رحلة التكامل قد بدت وكأنها تبعدنا عن اللغة البيولوجية بعض الشيء، نعود فنذكر أن كل هذه النبضات التى تحدثنا عنها ما هى إلا التعبير السلوكى والعمق الفينومينولوجى للنبضات البيولوجية الأساسية للوجود البشرى، كما نؤكد أن المسيرة فى جملتها تتخذ مسارا بيولوجيا يقابل الحديث عن الولاف والرؤية والتناقض .. الخ ..

١ - فهى تبدأ بوحدة واحدة منذ تلقيح البويضة.

٢ - ثم تتميز إلى وظائف ومستويات متنوعة ومتباينة ومتضادة.

٣ - ثم تعود إلى التقارب والالتحام بطريقة جديدة، سعيا لتصبح فى النهاية "غير المنظورة" "وحدة" واحدة من جديد هى الولاف الأعلى المطلق

والواحد يصبح كلا... يتوحد

إذ يتكامل

تعقيب قبل الخلاصة

بعد أن انتهيت من كتابة شرح المتن فى هذا الفصل دون تقديم نظرى كاف كما كان الحال فى الفصول السابقة، أعدت قراءته .. وأدركت طبيعة هذه الصعوبة الحقيقية التى اضطررت لخوضها، وقررت أن يكون التعقيب فى هذا الفصل منفصلا عن الخلاصة.

لم تطرق تجربة دراسة التكامل البشرى إلا ممن يمكن أن يندرجوا تحت اسم "علم النفس الإنساني"، وللحقيقة فإن أغلب هؤلاء هم إما علماء دووا رؤية فلسفية، وإما محللين نفسيين قابلوا الإحباط فى مجال ممارسة التحليل النفسى بأمانة شخصية جعلتهم يعيدون النظر فى المفاهيم المقدمة بين يديهم، وأقل القليل كانوا من أطباء النفس دووا الأرضية البيولوجية العضوية أساسا، ورائد هذا الفريق الأخير بلا منازع هو كارل جوستاف يونج فى حديثه عن التفردIndividuation ومع كثرة ماقيل فى هذا السبيل فمازال الموقف تجاه دراسة التكامل غامضا.

١ - فهو غامض لأن هذه الدراسة تستعمل ألفاظا اختلطت فيها المعانى حتى احتوت أكثر مما تحتمل، أو أقل مما تفيد، فالحديث عن الحب والشر وشرف الوجود الإنسانى وضرورة الولاف حديث لاتكفى فيه الكلمات سالفة الذكر لتغطية طبيعته، فالواقع أن الخبرة الإنسانية التى تشمل هذه الدراسة يصعب وصفها بهذه الألفاظ المتداولة، بل يبدو أنه يصعب وصفها إطلاقا.

٢ - وهو خطير لأنها تقدم للشخص العام والطالب والعالم فى شكل نقاط محددة، وبألفاظ تكاد تكون أدبية بل شعرية غير مألوفة فى المجال العلمى، وقد يترتب على ذلك أن يفهمها من لم يخض التجربة فهما مسطحا فيسيىء تطبيق ما ترمى إليه على نفسه أو على غيره (وخاصة فى مجال العلاج)، مما قد يجهض التجربة الإنسانية للقارىء إما بتقديمها عامة وهى شديدة الخصوصية، وإما بعقلنتها وهى شديدة الغور فى عمق الوجود، وإما بتقديمها جاهزة وهى حتمية الممارسة بأصالة مختلفة عند كل فرد. وإذا استعرنا تشبيه الامام الغزالى لهذا الموقف الخطر وتذكرنا تفرقته بين الناس فيما يجب أن يحصلوه من علم وقوله إن هناك إنسان عامى لايزال مكبلا بقيود الحس وأن هذا الإنسان ثالث لايكتفى بالاستدلال المنطقى ولايقف عند ظاهر النص .. حتى وصل به الأمر أن "علوم المكاشفة" لاينبغى الحديث عنها أصلا، أقول إذا استعرنا هذه المقابلة لأمكن القول أن علوم التكامل الإنسانى التى تعتمد على الخبرة المعاشة وعمق الوعى تكاد تكون بعيدة عن منال من تعود الاكتفاء بالتحديد الممكن، وتكون إذا خطرة إذا ماعرضت فى مثل هذا المجال العام وبمثل هذا الألفاظ المشتركة.

إلا أن أزمة الإنسان المعاصر لابد وأن تضطره إلى خوض هذه المغامرة بلاتردد، ولكن ينبغى التحذير ابتداء إلى أن الكتابة فى هذه العلوم ليست هى هى "هذه العلوم"، وأنها (مثل الكتابة فى العلاج النفسي) مجرد مثيرات للاقدام على خوض الخبرة، وإطار للهداية إلى أبعاد الخبرة ولكنها على أى حال ليست هى الخبرة.

والخطر إذا ينشأ إذا حلت الكتابة فى هذه العلوم محل الخبرة المعاشة، أو نوقشت بالألفاظ المطروحة وكأنها هى هى الخبرة المعاشة.

مفتاح القضية: الديالكتيك

ولابد ونحن نأخذ بهذه المخاطرة أن نحاول الاستدلال على أقرب مفتاح لفهمها تفسيرا للصعوبة، وتقريبا للمفاهيم إلى أى درجة تسمح بالتواصل المشترك بين العلماء فى هذا المجال، ويكمن هذا المفتاح فى فهم معنى وطبيعة "مواجهة تلاحم التناقض" المرادف للفظ الديالكتيك، (الذى يطلق أحيانا عليه لفظ "الجدل" خطأ)، وقد سبق أن أشرت فى كتابى "مقدمة فى العلاج الجمعي" ص ١٧٦ إلى "أن استيعاب واقع الجدل أمر شديد الصعوبة مالم يمارس فعلا فى خبرة معاشة"، وهو نفس الأمر الذى قدمت له وأنا أتكلم عن فهم علم التكامل، ذلك أن فهم علم التكامل لايتم إلايفهم طبيعة الديالكتيك، وقدا ستطردت فى نفس الموقع معددا مصادر التشوية ثم محاولا إيضاح بعض الأبعاد بشكل لاأرى مفرا من تكراره هنا حرفيا '.. وأعترف أنى

وصلت إليه (استيعاب واقع الجدل) من احتكاكى بهؤلاء الناس ونفسى قبل أن اقرأ عنه، وأعترف أنى عذرت كل من شوهه أو تشوه من خلاله، فليس الجدل حوارا عقليا كما يتصور البعض (وربما كانت الترجمة مسئولة عن هذا الخلط عند العامة، ولذلك أفضل استعمال الأصل اللاتينى "الديالكتيك") وليس الديالكتيك صراع ضدين بمنى الصراع Conflict ، وليس الديالكتيك حلا توافقيا وسطا بين المتصارعين (أو الأضداد)، وليس الديالكتيك احتواء أحد المتصارعين للآخر، وليس الديالكتيك مبررا للحفاظ على سلبيات الحياة لاستمرار التناقض، ولايسمح الديالكتيك باتفاق ودى يتم لحساب تبادل الأدوار وتناوبها بين المتناقضين، ولايتم علاقة اثنين أو جزئين مختلفين أو متضادين، ولكن العلاقة الديالكتيكية هى أثرى من كل هذا وأشد حيوية.

وقد ألفنا أن نتحدث عن النفس بمعنى نشاط المخ، أو بمعنى رمزى بلا تحديد، أو بمعنى دينامى على أساس وجود قوى متصارعة مع بعضها، ولكنا لم نتعود أن نتحدث عنها بمعنى النتاج النامى النابض الممتد لحركة النمو الديالكتيكى للجهاز العصبى فى احتكاكه المستمر بالبيئة (وخاصة بالآخر الإنساني) وهذا هو تصورى لماهية النفس.

أما ماهية الديالكتيك فإنى أجد من الصعب على أن أنقلها كما عايشتها فى كلمات (وأظن أن هيجل قد ظلم من خلال هذه الصعوبة كذلك)، ولكن الضرورة تلزمنى بالقول: "إن الديالكتيك هو حركة المواجهة المتلاحمة الصادقة بين الأضداد ... التي إذا استمرت في حيوية لوقت كاف ... دون أن تقضي على الكائن الحى (أو على الشعب أو على الفكرة) فإنها قادرة على تفعيل هذه الأضداد فى كل جديد من مجموع أجزائه، وبالتالي فهذا الكل الجديد ذو نوعية جديدة وقوانين جديد".

إذا فالديالكتيك الحى ليس فيه غالب ومغلوب، بل ولا سلب وإيجاب، بل ولاحسن وسيء، وإنما أدنيان إلى أرقى، ونجاح الديالكتيك هو فى أن يكون الكيان الجديد تمثيلا واستيعابا لكل من الكيانين السابقين معا، وهو أمل النمو النفسى باستمرار.

ولاشك أن هذه الفكرة قد خطرت كأمل عند المفكرين الإنسانين فى علم النفس، بل وكمرحلة فى نمو الشخصية، ويظهر هذا واضحا فى تفكير ماسلو وحديثه عن مرحلة اختفاء الاستقطاب بين المنطق والنزوة، بين الوسيلة والغاية، بين الأنانية والأثرة ... الخ فما هو إلا حديث عن حل هذا الاستقطاب Resotution، وهو حين يتحدث عن الولاف Synthesis يتكلم عن الاتحاد التعاونى Synergic union ولكن الذى أعنيه هنا ليس تكرار ألفاظ هذا الأمل، ولكن تفسير حقيقة طبيعته بخوض التفاعل الديالكتيكى (لا مجرد الاتحاد أو التعاون)، ثم الإشارة إلى أن الطريقة محددة المعالم والبيئة (المحيط) واضحة القوانين هى المناخ الذى يتيح لهذا الديالكتيك الحيوى أن يستمر تصاعدا.

والديالكتيك مراحل متصاعدة، وكل وحدة أكبر من سابقتيها - ولكنها وسط على الطريق - والوحدة تتم جزئيا: بنجاح ديالكتيكى، وجزئيا باحتواء مؤقت للجزء المتبقى (الذى لم يتم تمثيله) من الضدين.

وإذا ما استقرت الوحدة الجديدة الأكبر (التى تسمى الولاف الأعلى (Higher synthesisلفترة تؤكد فيها نوعيتها، فإنها قد تلفظ الجزء المحتوى داخلها ليلتحم بالتناقض خارجها وتبدأ صراعا جديدا .. وهكذا، وباستمرار هذه العملية وتكرارها يقل هذا الجزء المحتوى بعد كل نجاح أعلى حتى يتلاشى (نظريا)، وهنا يصبح الوجود مطلقا والتكامل خالدا واللاشعور منعدما ..، وبما أن هذا الهدف الأعلى هو هدف نظرى بالضرورة فالحركة مستمرة نحو التكامل إلى أبعدمما نستطيع أن ندركه فى حياة الإنسان المحدودة حتى الآن".

وهكذا نجد الأساس النظرى يحاول التحديد والوضوح بقدر الإمكان، ولكن لابد نعترف أنه مازال عاجزا عن استيعاب مايجرى، بألفاظ عامة كافية أو توصيله

الاساس البيوجى:

والمهم من موقعنا النظرى هنا - بالمقابلة بالموقع العملى فى حديث العلاج النفسى - أن نؤكد الأساس البيولوجى فى كل هذا، ولعله يمكن إرجاع مثل هذا الأساس إلى بداية الحياة (بل بداية الحركة من قبل[١٥]، كما يمكن التجاوز إلى تصور التحام الحيوان المنوى بالبويضة نوع من الولاف الأعلى رغم ضعف التناقض الظاهرى بينهما.

والولاف الذى يتم فى المخ أثناء التصعيد النموى هو من الناحية الوظيفية إعادة ترتيب الترابطات فى مدى أوسع يشمل الأجزاء التى كانت متناقضة، وبالقياس الضمنى يمكن أن يشمل نفس المستوى - ولكن بلغة أخرى - .. فى محتوى ترتيب جزئيات حامض الريبونيوكلييك والديسوكسى ريبونيوكلييك (ولن أعود فى هذا المقام إلى هذا الحديث المغرق فى الفرضية لعجز اللغة المتاحة مرحليا). إذا، فالولاف الأعلى يتم حين لايستعيد جزء من الترابطات الجزء المناقض باعتباره منافسا أو معطلا أو بديلا، ولكن أن يشمله ويشتمل فيه فى مدى أوسع من الترابط والهارمونى نتيجة لارتقاء الحاجة المرحلية إلى مرتبة أعلى تحتاج للنقيضين معا لخدمة تحقيقها، ومن ثم نتيجة لارتقاء الوظيفة الترابطية للوفاء بهذه الحاجة، ولا يمكن استبعاد احتمال تغير نوعى فى التركيب البيولوجى نتيجة لهذا وذاك ماأصبحت الوظيفة الترابطية الجديدة أساسية وبقائية للمرحلة الجديدة من النمو .

الفصام والديالكتيك:

إن حركة الديالكيتك بما تنتهى إليه من تساو ظاهرى للمتناقضات قد تختلط بذلك الذى اسميناه تساوى التكافؤ Epuivalence فى الفصام، بما يمكن أن يؤدى إليه من تدهور المنطق العام وظهور المنطق البدائى وقوانين "فون دو ماروس" التى تقبل ترادفات الكل بالجزء، أو تقر بشكل ما بتكافؤ التناقضات حيث يمكن أن يكون الشيء هو نفس الشيء ونقيضه فى آن واحد ..، والحقيقة أن الفرق شاسع لدرجة أن

15- وكل جزء من الواقع يتحرك بفعل التناقض الموجود فى ذاته : فهو جزء من كل، وجزء منته من كل لامتناه، وهو إذا لايكفى ذاته بذاته يجد نفسه هكذا منذورا بطبيعته المتنافضة لحركة لا حد لها (جارودى : النظرية المادية فى المعرفة. ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ راجع المراجع)

الفصام يعتبر عكس الديالكتيك تماما رغم احتمال هذا الخلط، فالمتناقضات تتكافأ فى الفصام لأنها لاترى كلها .. بل تدرك كأجزاء متنافرة، ويلتقط الفصامى جزءا من هنا يشبه جزءا من هناك، وإذ يقوم الجزء مقام الكل لديه ... يعلن تشابه الأضداد، فهذا ليس تشابها وإنما هو مزيد من التباعد نتيجة للتفكك، أما التشابه والتساوى فى الديالكتيك فيأتى من رؤية ما بعد الكل، أى رؤية الحد كجزء من كل أكبر يقوم بوظيفته فى نفس اتجاه نقيضه الظاهرى، فالتكافؤ هنا نتيجة للترابط والتصعيد وليس للتناثر والتفكيك .. والفرق جوهرى وواضح.

عينات التناقض التى وردت "بالمتن":

ومن هذا المنطلق يمكن الرجوع إلى خبرة التكامل موضوع هذا الفصل لإعادة النظر بعمق أكبر فى ماورد بها من تناقضات مواجهة، وكيف تركناها على أبواب الالتحام، أو وقد التحمت فعلا.

وبنفس ترتيب ورودها يمكن أن نتابع هذه المتناقضات وهى فى مواجهة نشطة وتكافؤ نسبى على مراحل مختلفة من التصعيد الولافى، وهى بالترتيب حسب ورودها:

١ - الصلابة - فى مواجهة - الضعف وملتحمة به
٢ - الخير - - الشر وملتحم به
٣ - المثالى - - النفعى وملتحم به
٤ - الحب الطيب - - الشر المتحفز، وملتحما به
٥ - الطيبة - - القدرة وملتحمة بها
٦ - البساطة - - القوة وملتحمة بها
٧ - الضعف - - القوة وملتحما بها
٨ - وسائل القوة - - ألم اليقظة وملتحمة به
٩ - الطين - - السحاب وملتحما به
١٠ - الواقع - - الأمل وملتحما به
١١ - التفرد - - الالتحام بالناس وملتحما به
١٢ - الرقة - - القوة وملتحمة بها
١٣ - التعرى النكوصى - - مسئولية الوضوح وملتحما بها
١٤ - الطيبة (المتواضعة) - - العملقة وملتحمة بها
١٥ - النكوص - - الاستيعاب المسئول وملتحما به
١٦ - ماقبل اللفظ - - ما بعد اللفظ وملتحما بها
١٧ - الجسد - - الروح وملتحما به
١٨ - اليأس - - حتم الاستمرار وملتحما بها

١٩ - طين الأرض - - أرجاء الكون وملتحما بها

٢٠ - الجزء - - الكل وملتحما به

وهكذا، نجد كل هذه المواجهات قد انتهت بالتحام جزئى فاختفى الاستقطاب نسبيا ..، ولكن اختفاء الاستقطاب لايعنى حل التناقض - كما أشرنا - ولكنه يعنى الارتفاع بشقيه إلى تغير كيفى .

ويمكن التنبيه من هذا الموقع إلى خطورة التفسير النفسى الميتافيزيقى (بما يشمل أغلب المحللين النفسيين وكثير من الفلاسفة) ويمكن تصوير نشأة الاستقطاب ثم التصعيد به فى مسيرة النمو النفسى على الوجه التالى[16] :

١ - يولد الإنسان وهو يحمل تناقضاته معا فى جزيئاته العظيمة دون ترتيب خاص، ولكن باستعداد استقطابى جاهز .

٢ - مع تنظيم الكيان البشرى (والعصبى بصفة خاصة) فى مجموعات تركيبية ووظيفية نتيجة للإثارة البيئية ومايترتب عليها من ارتباطات شرطية، ودوائر "تغذية - وارتجاع" Feeding-Feed-back وكذلك نتيجة للاستعداد الجبلى يظهر على سطح الوجود صفات وسمات سلوكية محددة .

٣ - يغور فى عمق الوجود الصفات والسمات النقيضية لكل صفة تظهر على سطح الوجود، وتكمن محملة بنفس جرعة الحدة ولكن فى حالة كمون مرحلى .

٤ - مع كل نبضة نمو (الدور الاندفاعى - البسطي)، يتخلخل السلوك الظاهرى مرحليا، ويستثار السلوك الكامن النقيضى .

٥ - فى حالة استمرار النمو، ينتج عن كل نبضة تناقص المسافة بين السلوك الظاهرى ونقيضه الغائر، وهذا التناقص يعلن حدوثه بما يلى - كأمثلة -:

(ا) تزايد القبول النسبى للاحتمالات (الأخري) .

(ب) تزايد المقدرة لتحمل الاختلاف مع الآخرين .

(حـ) تزايد المقدرة على تحمل الغموض فترات أطول فأطول دون الإسراع بالتقريب لأقرب واحد صحيح .

٦ - كلما تناقصت المسافة بين ظاهر السلوك وعمق النقيض دل ذلك على تولدمرونة أكثر فى نوع الوجود، وتكوين قطاعات أكبر من الترابطات تقع فيها التناقضات فى مواقع متقاربة ومتماثلة الاتجاه رغم تناقض المحتوى .

٧ - تصبح النبضة التالية أقل خطرا (لتقارب المسافات)، وأقدر على ولاف أعلى فأعلي.

16- هذا التفسير مستمد من الخبرة التكاملية النادرة أساس هذا الفصل، وبالقياس النقضى من خبرة التفكك المرضى فى المجال الكلينيكى، ثم من واقع العلاج الجمعى الخاص بإعادة التوازن.

٨ - يجرى فى نفس الوقت استقطاب خارجى بين الفرد والبيئة، يبدأ بالافراط فى الذاتوية الطفلية Egoismفى مقابل عدوانية المجتمع .

٩ - مع تناقص المسافة بين الأقطاب فى داخل التكوين البشرى تزيد فرصة الكائن البشرى فى العمل كوحدة فى مواجهة المجتمع، ومع كل أزمة مواجهة تتناقص المسافة أيضا بين الأقطاب فى داخل التكوين البشرى تزيد فرصة الكائن البشرى فى العمل كوحدة فى مواجهة المجتمع، ومع كل أزمة مواجهة تتناقص المسافة أيضا بين الفرد والمجتمع فى الالحارج كما هو الحال فى الداخل .

١٠ - يمثل المجتمع (البشرى خاصة) استقطابا خارجيا، كما يمثل وجودا داخليا (نتيجة للبصم) وتسير نبضات النمو فى الاتجاهين معا .

١١ - يدل تناقص المسافة بين الفرد والمجتمع على دخولهما معا فى كل جديد فى مواجهة الكون الأشمل.

١٢ - يمكن تصور تصعيد هذا الهارمونى إلى أبعاد أكبر فأكبر حتى ما بعد قدرة الوعى المرحلى للبشر الحاليين .

١٣ - يتزايد الهارمونى مع تناقص المسافة بين مكونات الاستقطاب، ولكن دخول الوحدة الأصغر فى تناقضات جديدة مع وحدات خارجية يحافظ على حتمية التناقض حفاظا على الحركة اللازمة لاستمرار الحياة بل ربما لاستمرار الوجود الأشمل .

١٤ - يعتبر التكامل - النمو - سائرا فى مساره الطبيعى إذا لم يتخلط أى دائإة قفزا إلى الدائرة الأبعد: (ا) فليس نموا طبيعيا من يتوافق مع الكون - فى كل أشمل - متخطيا المجتمع، ومثال ذلك بعض خبرات التصوف الانعزالى (ب) وليس نموا طبيعيا من يتوافق مع المجتمع متخطيا نفسه وجسده، ومثال ذلك بعض المشتغلين بالسياسة ممن يعانون من أمراض سيكوسوماتية (سيكوفسيولوجية) عاتية .

١٥ - إن كل توافق أكبر (بمعنى تناسق الأجزاء فى كل أشمل .. وليس بمعنى التوافق السطحي) يغذى ويدعم ويسرع بالتوافق على المستوى الأدنى، كما أن كل توافق أدنى يحفز أكبر وهكذا.

***

وبعـد:

فقد أردت بهذا التعقيب أن أؤكد على محاولة هذه الدراسة تحديد معالم المسيرة صعودا وتدهورا بشكل علمى ما أمكن، رغم صعوبة اللغة واختلاط المعانى .

وما أود تأكيده قبل الانتقال إلى الخلاصة هو أن التكامل البشرى فى مسيرته التصاعدية لايصطنع - فحسب - ولافا ذاتيا مستقلا حلا للتناقض الداخلى، ولكنه أيضا يلتحم فى كل أكبر يشتمل عليه، إذ يسهم هذا الكل الأكبر فى التخفيف من حدة التناقض تمهيدا وإسراعا بالتغيير الكيفى المتصاعد .

الخـلاصـة

١ - تعتبر دراسة النمو الإنسانى تجاه التكامل هى الجانب المقابل لدراسة السيكوباثولوجي؛ إذ يبدو أنه من الضرورى معرفة طبيعة المسيرة التصاعدية حتى نحسن فهم كيفية التدهور المرضي.

٢ - إنه لصعب وخطير معا أن نقدم مثل هذه الخبرة العميقة مستعملين لغة شائعة (دارجة)، ومحتوية بإفراط، وغامضة نسبيا، وشاعرية، إلا أنه لا يوجد سبيل آخر سوى الأخذ بالمخاطرة.

٣ - إن أزمة منتصف العمر هى أهم الأزمات التى يمكن أن توجه مسار النمو الى استكمال التكامل .

٤ - إن أفضل الظروف التى تضمن نتاجا مناسبا لهذه الأزمة هى: (ا) تاريخ حافل من التحصيل الواقعى (بشتى أنواعه) .

(ب) شخصية قادرة على النبض (ليست مندملة أو معاقة) .

(حـ) نجاح صلب، سماحى، ومقدر من الغير فى نفس الوقت.

(د) وسط فاهم متقبل .

(هـ) بصيرة نشطة، غير معقلنة

.٥ - إن فرصة الطفل (حالة الأنا الطفلية) للظهور والتقبل، وفى نفس الوقت أن يندمج فى الكل الشعورى القائم، هى فرصة ممكنة فى هذه الظروف الملائمة سالفة الذكر، وبالتالى فإن ظهور النشاط الطفلى لايعود بديلا بالضرورة، بل مكملا ومتناغما للنشاطات الأخرى.

٦ - إن من أهم معوقات فرصة التكامل هو المبالغة فى تقديس النجاح الظاهرى، وهذا يشمل ضمنا التغاضى عن رؤية الجوانب الأعمق فى حاجتها الشريفة أن ترى وأن تقبل.

٧ - إذا كان الاعداد للتكامل سليما من خلال التحصيل المنتظم المثابر المؤلم الحذر، فإن مسيرة النمو تستمر حتما مهما قابلها من عقبات.

٨ - يعتبر النكوص فى هذه الأزمة حتما، ولكنه نكوص مختلف نوعيا عن أى نكوص آخر، فهو نتيجة لقرار إرادى (نسبيا)، يحدث تحت المسئولية الكاملة لصاحب التجربة، وهو يشمل إدراك واقعى لمواقف بعض الآخرين (بما فيهم بعض المعالجين) التى تشمل الرفض والامتهان، والشفقة، والانكار، وتبلغ هذه التجربة قدرا فائقا من الألم لدرجة تكاد تهدد بإجهاض الخبرة، الأمر الذى يفشل حتما باعتبار حتم نجاح تجربة التكامل (وإلاسميت اسما مرضيا آخر).

٩ - إن هذه الأزمة لاتحدث بشكل حاد أو فى قصيرة، ولعل العكس هو الصحيح، حيث تحدث على مدى شهور - أو سنوات - دون نهاية محددة، ولكن بإطلاق تصعيدى لطبقات أكثر فأكثر فى طريقها للولاف التكامل مع القطب المقابل المناقض لها.

١٠ - تشمل هذه الخبرة المطولة تموجات وإعادة تنظيم، بشكل مكثف ولولبى .

١١ - إن التفاعل الديالكتيكى يهيىء لتكوين وحدات ولافية أعلى فأعلى، وكمثال لهذه الوحدات يمكن أن نذكر: وحدة المثالية - النفعية- وحدة البساطة - القوة، وحدة الجسم - الروح- وحدة اليأس - المثابرة، وحدة

الجزء - الكل ... الخ، وهذه الوحدات - بادية التناقض فى الظاهر - تصبح تدرجيا كلا جديدا لاتصلح له المسميات القديمة حتى لوجمعت بجوار بعضها، ولم توجد بعد لغة سليمة تقدر على وصفها.

١٢ - وتشمل مسيرة التكامل صرخة استغاثة خليقة بأن تسمع وأن يستجاب لها باعتبار خاص، فهى أصيلة ومسئولة معا، وفى هذا .. هى تفترق عن الشكاوى الاعتمادية للمكتئب النعاب، أو البارانوى اللزج أو الشبفصامى (أو الفصامى) العدمى .. الخ.

١٣ - إن الحب البناء، وهو العامل الأساسى الذى يعد لتجربة التكامل، ليس هو الحب المسامح غير المشروط فحسب؛ بل إنه لابد وأن يشمل أن يشاف الشخص بكليته، وأن يحتمل الغموض فى وجوده وأن يمنح فرصة تشكيل مشروط مرن بالضرورة.

١٤ - إن مسيرة التكامل لانهاية لها، كما أن محدودية وعى الإنسان لما بعد مداه إنما يسمح باستمرار السمى إلى مدارات أعلى من التكامل.

١٥ - إن المناورة للتحصيلية البراجماتية (النفعية) تعتبر منهجا خطيرا؛ ولكن يبدو أنه لامفر منها، ذلك لأن مثل هذا التحصيل قد يستبقى إلى مالا نهاية مانعا ظهور الحركة الداخلية فى الوقت المناسب، وهذه الإعاقة قد تأتى من التعود القهرى، والخوف من إحياء الألم (الطاغى) المؤجل، والخوف من مواجهة الثمن الذى دفع للحصول على هذه المكاسب التحصيلية، وأخيرا كم تحمل المسئولية اللازمة لاتخاذ قرار التوقف والبداية الجديدة.

١٦ - إن ما سبق تسميته القيم الزائفة ينبغى أن يعتبر "قيما وسيطة" أكثر منها زائفة، ومن بين هذه القيم يمكن تعداد قيمة كلمة السر، وقيمة التنافس، وقيمة الترديد، وقيمة الاستسهال، وقيمة التخزين وقيمة السلطة، واكتساب هذه القيم ينبغى أن يصاحبه ضبط مناسب للجرعة اللازمة من الألم التى تكفى لتجنب الانكار أو النسيان، وهاتين العمليتين يصاحبهما فى نفس الوقت المحافظة على سرعة واتجاه حركة النمو.

١٧ - إن أطوار النمو (التى تلخص وتعاد فى العلاج النفسى) إنما تحكمها قيمة براجماتية (نفعية)، إلا أن معنى ومدى دائرة هذه القيمة تزداد باضطراد بادئة من نقطة المركز التى تمثل الفرد فى ذاتويته المطلقة وتنتشر دوائريا حتى تصل إلى التناغم الكونى.

١٨ - إن الضمان الوحيد لحسن استعمال هذه المناورة التحصيلية هو ضبط جرعة الألم مع درجة الرضا بالتحصيل، وكذلك تناسب درجة السماح والمرونة مع درجة الالتزام والتشكيل معا.

١٩ - إن الثمن الذى يدفع فى هذه المناورة التحصيلية إنما يشمل الوقت (التأجيل) والصبر واحتمال الهجوم التشويهى، والنبذ من المجتمعات المثالية الاغترابية. كما أن استثمار هذا التحصيل يستلزم حسن التوقيت، والتقويم الواقعى، والاستمرار السليم.

٢٠ - إن الموقف (الحل) المثالى الفنى مفيد كمضاد للأطروحة يثير التحدى، ولكن التوقف عنده لابد وأن يعتبر - بلغة النمو - نوعا من الانشقاق.

٢١ - على مسيرة النمو: كلما ازداد المرء قوة ... لزم أن يزداد وعيا وصحوة.

٢٢ - إن نقطة المواجهة للتغيير إنما تعلن حين توجه كل المكاسب التحصيلية السابقة إلى الداخلى وإيقاف المسيرة القهرية الاغترابية.

٢٣ - وإذا ماتمت "هذه المواجهة للتغيير" بنجاح فإن كل تماد فى "نفس" الاتجاه السابق ينبغى أن يؤخذ باعتباره مجرد تبرير.

٢٤ - وبعد نقطة التحول هذه لاتسير المسيرة فى خط طولى مضطرد، بل لعل العكس هو الصحيح؛ حيث يتعرض صاحب هذا القرار لهجوم طاغ من المهانة، والإنكار، والنبذ والإعاقة، وعلى كل حال فإذا كان هذا التحول أصيلا فلا مكان للتراجع بأى حال من الأحوال.

٢٥ - إن المواجهة الصريحة بين القيم الأصيلة النابعة حديثا والقيم الوسيطة القديمة لابد وأن تنتهى لصالح الأولى، لأن التحدى - فى هذه المرحلة - تحد واقعى وعميق.

٢٦ - إن طبيعة رحلة التكامل هى طبيعة فردية بشكل مطلق، ففى لحظة التحول الحقيقى لايستطيع مخلوق على ظهر الأرض أن يشارك فى القرار، فيصبح القرار لذات الشخص تماما، وكل محاولة ترشيدية وتربوية سابقة ليست إلا تمهيدا لهذه اللحظة، وكل نشاط تال لهذه اللحظة ليس إلا تعاونا، فهى إذا فردية أولا وأخيرا وتماما.

٢٧ - إن من أهم القرائن الدالة على أنه لاتراجع وأن الاختيار قد تم .. هو حل الشعور بالذنب (لااختفاؤه) وانطلاقة العمل كنتاج طبيعى بسيط للوجود.

٢٨ - يحتمل أن يحدث تفسخ ما، إلا أن الفرد هنا يظل فى كامل يقظته مسئولا وقادرا على التحكم فى الموقف طول الوقت وفى أى لحظة.

٢٩ - ويتصف الوجود الجديد بالتواضع القوى، والصلابة المرنة، والوعى المواجه معظم الوقت.

٣٠ - إن الأمل الوحيد لتحسين النمو الإنسانى لأطفالنا هو فى زيادة أعداد الوالدين على طريق التكامل (وليس المتكاملين).

٣١ - إن من أصعب المواقف التى يمر بها الشخص الناجح المعتمد عليه هو أن يجد "آخر" يفهمه ويقبله، إذ لا يمكن أن يتم أحد رحلة التكامل مهما بلغ تحصيله دون اعتبار هذه الحاجة وهذا الاحتمال الواقعى البسيط.

٣٢ - قد يلجأ الفرد إلى وسائل اعتمادية تعويضية مثل فرط الوطنية أو الاعتماد على ثلة أو مجموعة، أو على الطقوس الاغترابية (وليس التعبدية)، وقد تفيد كل هذه الوسائل فى الحلول محل الحاجة الأساسية لأن يرى أو يقبل من آخر قوى قادر، ولكن ينبغى أن نقف من هذه الوسائل موقف الحذر مالم تؤخذ كخطوة متوسطة أو حل مرحلى لا أكثر ولاأقل.

٣٣ - فى مواجهة الألم الهائل المصاحب لهذه الخبرة، والتالى للاختيار الصعب، تتراءى لصاحب الخبرة حلولا اغترابية تسكينية بديلة من بينها: الحل الفنى المثالى، والحل اللذى الجنسى، والحل العدمى الانسحابى، والحل التخزينى الاستغلالى، ولكن فى خبرة التكامل لايصلح.. ولا يكمل أى منها.. إذا هى بدأت أصلا.

٣٤ - لما كانت هذه الخبرة - كما قدمناها - خبرة شاقة وخطرة، فإن المعالج المتحمس ينبغى ألا يسارع بالحفز إليها قبل الأوان، أو بتعميقها أكثر مما ينبغى، أو بإطالتها أكثر مما يحتمل، ذلك أنه لو حدث أى منها بما منها بما يحمل من مخاطر جسيمة.

٣٥ - إن من أهم الدفاعات التى تبرر التراجع عن إكمال مسيرة التكامل هو أن يفرط الشخص فى تقويم دوره الخاص فى حياته المحدودة، ومهما كان هذا الافتراض مبنيا على حقائق موضوعية، فإنه يبدو شاذا وخطأ أذا ما وضع دور الفرد فى إطار التاريخ من ناحية ووسط مجموع البشر من ناحية أخرى. ويعتبر ضلال "فرط المقدرة" عند الهوسى هو الجزء المرضى المقابل لهذه الظاهرة.

٣٦ - إن خبرة التكامل تشمل درجة من اليقين تقترب من مثيلاتها فى رؤية الهوسى ويقين البارانوى واعتقاد الصوفى ، والاختلاف بينها جميعا يتوقف على النتاج الصادر من كل.

٣٧ - إن عواطف الشخص المتكامل (على طريق التكامل) تبدو أحيانا أقرب إلى تبلد الشعور، والفرق بينهما هو ما يتميز به هذا الشخص من مسئولية ومشاركة والتزام رغم عدم إظهاره انفعاله. كما أن أن مثل هذا الشخص قد يلجأ إلى التبلد حقيقة وفعلا ليحمى به نفسه من الهجوم المهدد والمغرى بالتراجع، ولكن ذلك يكون موقفيا ومرحليا كقاعدة ثابتة.

٣٨ - إن الهجوم الموجه تجاه الشخص على طريق التكامل يمثل عادة دفاع المهاجم ضد احتمالات مخيفة، ومن ذلك الخوف من المجهول ومن المختلف، والخوف من التجاوز المفاجىء، والخوف من الحرية، والخوف من ذوبان الجزء فى الكل.. الخ.

٣٩ - وكلما فرض اليأس نفسه زاد اليقين بضرورة المثابرة، وهذا التناقض الظاهرى يندرج تحت تكوين الولاف على المسيرة التكاملية.

٤٠ - إن غاية خبرة التكامل هى صنع الولاف من المتناقضات ونتاج "الواحد" من الأجزاء المتباينة (الكل فى واحد)، ويمتد هذا التآلف إلى توازن أبعد مع الكون معلنا خبرة تشبه خبرات الصوفية.

٤١ - وهذه الوحدة تمحو الفروق بين وظائف الخصية (والمخ)، كما تسهم فى العالم بصورة موضوعية ودافعية تظهر فى الفعل اليومى النابض المتواضع.

٤٢ - وهكذا يصبح العطاء هو أخذ فى ذاته كما تصبح مشاركة الآخرين فعلا آمنا لا يهدد الفردية بالتلاشى، وكذلك لايصبح الانسحاب المؤقت الإرادى مهيئا للتناثر.

٤٣ - وعلى ذلك فمسيرة النمو تشمل "التميز" ثم العودة "للتوحد".

٤٤ - إن التميز يتوقف جزئيا على الاستعداد الوراثى، ثم يتحدد بالارتباط الشرطى من خلال مثيرات البيئة التى تحدد النمط المؤقت، وهذا التميز يشمل الاستقطاب الذى يعد أساسا للولاف الذى يحدث فيما بعد فى رحلة التكامل.

٤٥ - إن التوحد الولافى يحدث أكثر أثناء التمدد فى الطور الاندفاعى البسطى لنبضات المخ.

٤٦ - إن توحد الولاف الديالكتيكى يبدأ داخل الشخص، إلا أنه يمتد ليشمل مواجهة الفرد مع المجتمع فيحلها بنفس القاعدة لينطلق فيحل مشكلة الإنسان فى مواجهة الكون كذلك.

فاصل بين الفصلين

كتبت خاتمة لما انصرم من المتن حتى هذه المرحلة، مؤكد المعنى الذى ورد فى المقدمة عن هذه الدراسة بين العلم والفن، رغم الصعوبات التى تكتنف إثبات هذه الدعوى، ولا أجد مبررا لشرح هذه الخاتمة المرحلية بنفس الطريقة التى لجأت إليها طوال الشرح السابق، لكنى أوردتها هنا لألتزم بتسلسل ورود المتن الشعرى رغم أنها تعقيب يصلح أن يأتى فى نهاية الدراسة، ويمكن تقديم المعانى - المرحلية - الواردة - بنفس الترتيب ومع الإيجاز الذى يتطلبه تجنب الإعادة والتكرار على الوجه التالى:

(٢٧٥) **أولا**: إن هذا المتن ليس شعرا بالمعنى التقليدى، وهو لذلك غير مطروح للتعميم بمقاييس الفن، كما أن وظيفته ليست جمالية أساسا بقدر ماهى محاولة لتقديم مادة علمية محترمين طبيعتها الفنية وخاصة بعد أن حددت دور الفن بالنسبة لوجودى وأنه لم يكف، ولن يكفى، أن يستوعب ما أريد وأستطيع قوله

لا.. يا من ترقب لفظى العاجز، بعيون الفن المتحذلق،

أو تفهم روح غنائى بحساب العلم الأعشى،

لا تحسب أنى أكتب شعرا، بخيال العجز الهارب،

أو أنى أطفئ نارى، بدموع الدوح الباكى

(٢٧٦) **ثانيا**: أنه يلزم لتقديم الجديد درجة كبيرة من التحليل حتى نجد من يسمعه، وهذا التحليل لابس ثوب الفن الشعرى أو القصة أو التسحب باللغة العادية هو أمر معروف تاريخا وضرورى فى أوقات الجمود الفكرى والعقائدى، وادعاء، التواضع من مقومات هذا التحايل للخروج من سجن المنهج العلمى السائد، ولست صاحب سبق فى هذا.. ولعل أصرح من أعلن ذلك كان سيجموند فرويد حين اقتطف فى نهاية كتابه العظيم "مافوق مبدأ اللذة (١٩١٤)" أبيا تامن مقامة للحريرى تعلن اعترافه بهذا التحايل، مدعيا التواضع تارة، ملتمسا العذر تارة حتى يوصل فكرته الجديدة بكل أسلوب، حافظا خط الرجعة المناورة بالضرورة، وشعر الحريرى الذى اقتطفه فرويد يقول أصلا:

تعارجت لا رغبة فى العرج ولكن لأطرق باب الفرج

وألقى بحبلى على كاهلى وأسلك مسلك من قد مرج

فإن لامنى القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج

وهكذا نرى كيف أن الرؤية العلمية إذا ألحت حتى أصبحت كالقدر، وفى نفس الوقت أو صدت دونها آذان السامعين لغرابة اللغة أو غموضها أو حدة الجديد، فلابد من أن يتحمل صاحبها مسئولية توصيلها بأى صورة، وإلا فهو غير أهل لحمل أمانتها

"لا... لا... لا... لا... هذا قدري

وقديما طرق الباب الموصد شيخ أعرج

فتعارجت

(فليس على أعرج من حرج)"

(٢٧٧) **ثالثا**: أن هذه الرؤية برغم مدخلها العلمى وثوبها الفنى، إلا أنى أرى أنها نظرة إلى الإنسان، أو نظرية فى الإنسان، ليست جديدة بالضرورة، ولكن مدخلها الطبنفسى هو الجديد، وثوبها المتن شعرى هو أيضا جديد، وخطورتها من موقعى أنها تحاول أن ترسم للإنسان بعدا طوليا ممتدا، وتعلن حتمية المسيرة النابضة الولافية، وأن أى احتمال آخر هو المرض النفس فالتدهور المكافيء للردة الحيوانية أو للتناثر العشوائى قبل الحياة.. وقبل الوجود

" فليحترق المعبد ولتذر الريح رماد الأصنام

ولتسأل نفس ما كسبت، وليعلن هذا فى كل مكان:

فشل الحيوان الناطق أن يصبح إنسانا"

(٢٧٨) **رابعا** : إن تأكيد إنسانية الإنسان لا يأتى بأن نرضى باللفظ شرفا يرتقى بنا عن أجدادنا غير الناطقين، لأن اللفظ ما نشأ إلا اختصار للجهد وأملا فى التواصل، فإذا لم نحسن استعماله كان عبئا على الوجود ومبررا للانشقاق، فحتم التطور من خلال مكاسب الإنسان التطورية يلزم أن يستعمل الوعى لانتشار الرؤية، فتأكيد التوازن، وأن تستعمل الكلمة لوفر الجهد وتسهيل التواصل فالتوازن الأعم، وهنا تتضاءل قيمة الفن الانشقاقى ليصبح لزاما على من يريد أن يخطو على درب التطور، ألا يكتفى بالتفريغ الفنى، بل أن يحمل مسئولية تحقيق رؤية الفن على أرض الواقع.. مهما بلغت الصعوبة

"أو .. فلنتطور

إذ يصبح ما ندعوه شعرا

هو عين الأمر الواقع"

* * *

ملحق الكتاب

(المتن)

لما كان هذا الكتاب هو أساسا شرح لمتن شعرى، فقد رأيت أن الحق به المتن جميعه مسلسلا متواصلا، بعد أن ورد مجزأ متباعدا طوال عرض الدراسة، ورغم ما يبدو فى ذلك من إعادة، إلا أنه محاولة جديدة لتأكيد الجانب الفنى فى هذه الدراسة وكيف أنه أساسى فيها، كما أنه يعفى القارئ من الرجوع إلى الديوان الأصلى "سر اللعبة" الذى صدر مستقلا، وقد فضلت هذا الشكل "غير المقطع" أملا فى أن تصل شاعرية المتن من خلال موسيقاه الداخلية مباشرة، والأرقام الواردة هى إشارة إلى فقرات الشرح طوال الدراسة بحيث تسهل على القارئ الرجوع إليها أولا بأول متى شاء.

افتتاحية

-١-

هل يعرف أحد كموما يحمل داخله من جنة؟ (١)، هل يقدر أى منكم أن يمضى وحده...، لا يذهب عقله؟ (٢)، هل يعرف كيف يصارع قهر الناس ...، والحب الصادق يملؤ قلبه؟ (٣)، كيف يروض ذاك الوحش الرابض فى أحشائه، دون تشوه،؟ (٤) كيف يوائم بين الطفل وبين الكهل وبين اليافع، داخل ذاته؟ (٥)، كيف يحاول أن يصنع من أمس قاهر ...، قوة حاضرة المتوثب، نحو الإنسان الكامل؟ (٦).

-٢-

هل يعرف أحد كمو كيف يضل الانسان؟ كيف يدافع عن نفسه، إذ يغلق عينيه وقلبه؟ إذ يقتل إحساسه؟ كيف يحاول بالحيلة تلو الأخرى أن يهرب من ذاته، ومن المعرفة الأخرى (٧)، كيف يشوه وجه الفطرة، إذ يقتله الخوف؟ كيف يخادع أو يتراجع؟ وأخيرا يفشل أن يطمس وجه الحق..، إذ يظهر حتما خلف حطام الزيف؟ (٨).

-٣-

ترتطم الأفلاك السبعة، يأتى الصوت الآخر همسا من بين قبور عفنة، ...يتصاعد ... يعلو ... يعلو... كنفير النجدة (٩)، ... وأمام بقايا الإنسان، أشلاء النفس ورائحة صديد الكذب وآثار العدوان، تغمرنى الأسئلة الحيرى (١٠): لم ينشق الإنسان على نفسه؟ لم يحرم حق الخطأ وحق الضعف وحق الرحمه؟ لم يربط عقله... بخيوط القهر السحرية؟ يمضى يقفز يرقد يصحو .. بأصابعهم خلف المسرح، ويعيد الفصل الأول دون سواه ، حسب الدور المنقوش، فى لوح حجر أملس، رسمته هوام منقرضه (١١)، فيضيع الجوهر، ويلف الثور بلا غاية، وصفيح الساقية الصدئة، يتردد فيه فراغ العقل، وذل القلب، وعدم الشئ......، ونضيع.

-٤-

لكن هواء مثلوجا يصفع وجهى، يوقظ عقلى الآخر، ويشل العقل المتحذلق، يلقى فى قلبى الوعى، بحقيقة أصل الأشياء..، ...... يا ويحى من هول الرؤية (١٢)

الفصل الأول

يوميات أعمى (١٢)

ورقة شجر صفراء

مذ كنت وكان الناس ...، وأنا أحتال لكى أمضى مثل الناس، كان لزاما أن أتشكل (١٣)، أن أصبح رقما ما، ورقة شجر صفراء، لا تصلح إلا لتساهم فى أن تلقى ظلا أغبر، فى إهمال فوق أديم الأرض، والورقة لا تتفتح مثل الزهرة، تنمو بقدر، لا تثمر، (ص٨٣٢) فقضاها أن تذبل، تسقط تتحلل، تذروها الريح بلا ذكرى، كان على أن أضغط روحى حتى ينتظم الصف، فالصف المعوج خطيئة، حتى لو كانت قبلتنا هى جبل الذهب الأصفر، أو ضم اللفظ الأجوف، أو وهج الكرسى الأفخم، كان على أن أخمد روحى تحت تراب "الأمر الواقع" أن أتعلم نفس الكلمات.... وبنفس المعنى، أو حتى من غير معان (١٤).

نغام العصر والحرباء...،

....وأمنا الغولة (١٥)

-١-

ما أبشعها قصة، قصة تشويه الفطرة، طفل "غفل" لم يتشكل، يا أبتى - بالله عليك - ماذا تفعل؟ ترفع ... أرفع، تخفض ... أخفض، تأمر ... أحفظ، تسكت ... ألعب، حتى اللعب الحر رويدا ينضب، يتبقى لعب الحرب وإحكام الخطة، أو لعب الحظ وحبك الخدعة، أو لعب البنك وترويج السلعة (١٦).

-٢-

وسعار جامح : أنت الأول ... أنت الأحسن ... أنت الأمجد إسحق، واطعن، واصعد، إياك وأن تتألم، وتعلم أن تتكلم، من تحت المقعد، فإذا صرت الأوحد، فاحقد، واحقد، واحقد، لتكون الأعلى، والأسعد.......................، وفتات المائدة ستكفى جوعهم الأسود (١٧).

-٣-

يبدو سهلا، فى أوله يبدو عملا سهلا، أن تفقأ عينيك وتطمس قلبك، أن تنتشر الظلمة من حولك، ألا تختار فلا تحتار، لكن ويحك من نور شعاع يتسحب الجلد، من مرآة تورى ما بعد الحد، من نفخ الصور إذا وجد الجد(١٨).

-٤-

أخرجت يدى سوداء بليل حالك، يا سوء عماى، تتحرك كثبان الظلمة، تسحق نبض الفكرة........، وتململ طفل فى مهده، يا ليت النوم يروضه، هيهات الغول يعانده (١٩)، طال الليل بغير نهاية ... رغم الدورة حول الشمس وحتم النور (٢٠).

-٥-

لم أعلم - طفلا - أنى أحذق فن العوم، حين لمست الماء طفوت، ألقيت ذراعى فإذا بى أسبح فى بحر الخير، يحملنى موج الفطرة (٢١)، أفزعنى القوم من الحوت الوهم، وانتشلونى أتعلم فى مدرسة الرعب، فن الموت العصرى، وتعلمت أن أحذف من عقلى كل الأفكار الهائمة الحيرى ألا أتساءل "لم؟" أو ""كيف؟" فـ "لماذا" تحمل خطر المعرفة الأخرى (٢٢)، أما "كيف" فالميت لا يعرف كيف يموت، أما كيف يعيش، فإليك السر: لا تفتح فمك يغرقك الموج، لا تسكت يزهق روحك غول الصمت، لا تفهم، لا تشعر، لا تتألم (٢٣)، وتعلم "كم" كم عدد الأسماء فى صفحة (ص ٨٣٤) وفيات الأحياء الموتى؟ كم جمع الآخر من صخر الهرم القبر؟ (٢٤)كم دقت ساعة أمس؟ (٢٥).، كم سعر الذهب اليوم؟ (٢٦)، كم فقاعة حلم نفقؤها فى الغد؟ (٢٧)، كم أنت مهذب إذ تلعب فى صحراء الرقة: لعبة ذبح الشاه بسكين بارد، يبدو حلمك أبيض أسود، لا يزعجك لون الدم. (٢٨).

-٦-

رفقا أماه ... لم نتعلم فى مدرسة الفطرة، أن الجسد عدو الله، والعضو الثائر فى أحشائى تنبض فيه الروح (٢٩)، مهلا أماه، سمعا ... سأحاول، سأحاول أن أحذف من جسدى فضلات الشهوة... لا تفشى سرى (٣٠) سأحاول أن أغلق بالسهو وبالإغفال ..، كل مسام الجلد (٣١)، .... الصم البكم هم السادة، وحروف الألفاظ الجوفاء تغنى اللحن الميت (٣٢).

-٧-

قالت يده اليسرى: ما بال القوم يضيقون بفنى، ردت يده اليمنى = أنا أحفظ الأرقام (٣٢)، - أنا حس النبض الثائر = أنا أجمع، أضرب، أكسب أكثر- أنا زهر الروض الباسم، يتماوج وسط ضياء الشمس، أو يغفو تحت حنين الظل= أنا أكثر حذقا ... ونجاحا - أنا أصل الشئ وسر الكون، قالت يده اليمنى فى ضجر غاضب : = ما أغنائى عن سخف حديثك ... أنا أحسن صنع الحرب الدم، (ص ٨٣٥) أنا أحسن تشكيل الأطفال ، .....،، وتوقفت اليسرى باسترخاء حتى ماتت.

-٨-

فى الغابة ... أكل الطفل من لحم أبيه الميت، هرب منه إليه، يا أبتى إن زاد القهر، فسألتهمك إذ يسحقنى الخوف (٣٤)، لن تؤلمنى بعد اليوم، فأنا القاتل والمقتول وسر وجودى إنك مت تختلط ضمائرنا تتبادل، فسأمضى، تمضى، نمضي... نحو سراب وجود عابث..، ... ما أغبى هذا السير وقوفا ...، لكن ما أحلى الخدعة.

-٩-

وخطفت السيف بأيديهم ..، كان بغمدى (٣٥)، لكن الغمد بلا قاع، وسنان السيف عيون تطلق نار المعرفة النور، داخل ذاتى، لم أقدر أن أبعد ذاك المسخ الشائه يحمل إسمى، البستكموعار وجودى (٣٦)،

أنتم أصل بلاء الكون، أنتم بيت الداء، أنتم أكلة لحم الناس، أنتم ... أنتم ... أنتم ...، لست أنا، أصبحت بلا أعماق ولا فحوى، خرجت أمعائى تلتف مشانق حول رقاب الناس (٣٧)، ورجعت إلى الداخل أتحسس: ليس به شيء، ليس به شيء، ليس به شيء،... ويقولون تناوم، والفجرتأخر صبحه، حتى كدنا نيأس.

-١٠-

أنت زعيمى ... أنت إمامى، أنت نبى الله المرسل...، أنت القوة أنت القدرة، أسرج ظهرك ... أعلو المحمل، هدهد .. هدهد، (ص ٨٣٦) دعنى أغفو أنت الأكبر أنت الأمثل لا توقظنى ... شكرا، عفوا فيك البركة، أكمل . أكمل. (٣٨)

-١١-

قال الثعلب إذ لم ينل العنبة: "هذا حامض، حصرم، ليس لنا فيه أرب" وقصير الذيل الفأر تأفف من طعم العسل، فالتافه ما لا أملكه وغبى من يلعن سخفى، والصورة تزدان أمامى وظلال تمتد حسيسا ... حتى تطمس كل عيوبى (٣٩)، وغطيط النائم يعلو فى أرجاء المخدع.

-١٢-

الأم الغولة تأمرنى ... فأمشط شعر القنفد، تتساقط تلك المخلوقات بحجرى، فأقول لأمى: ما أحلى طعم السمسم (٤٠)، ... يا حكمة طفل شاخ بمهده (٤١)، لا أحد يقول لغولة دربه: "عينك حمرة" (٤٢) .... هل أقدر يوما أن أعلنها: "إنى أكره ذاك المتوحش يأكل لحمى حيا..." يخرس صوتى لو نطقتها شفتاى تقطع كفى لو امتدت لهما، يطفأ نور حياتى (٤٣)، أحبو أزحف أختبئ برحم الضعف، يلهب ظهرى سوى الذنب، أفقأ عينى بإبهامى (٤٤)، يكتمل عماى، يتشوه وجهى ... لا...لا....لا. سأحبهما جدا جدا، ما أجمل وجهك يا أمى الغولة (٤٥)، ما أنعم شعرك، ما أحلى طعم السمسم.

-١٣-

وخيوط الصورة تتداخل، واللون رمادى الأهداب، والخدر القاتل للإحساس يغلف وعيى (٤٦)، يكتم أنفاسى، فكأنى نصف النائم أو نصف اليقظان، وتنابلة السلطان يغنون اللحن الأوحد، لحن رضا السادة فى بيت الراحة، راحة من راح بلا رجعة (٤٧) وخيوط الصورة تتراقص أعلى المسرح وعرائس فى الكفن الأسود فوق الخشبة، تنطفئ الشمس ... تغرب قبل المشرق (٤٨)، وتغوص الأقدام الى الأعناق فى كثبان الخوف، وتثور رياح الرعب، فتغطى الهامات تسويها بالأرض، والأعمى يبحث عن قطته السوداء فى كهف الظلمة (٤٩).

الزمن الثعلب

-١-

الهرب الفاشل

وأظل أحملق بعيون لا تبصر، لكن الزمن الثعلب ... يتسحب، يمضى يمضي... لا يتوقف، ورقاب نعام اليوم قصار، تأبى أن تدفن هامتها فى الرمل (٥٠)، أين المهرب؟ فى الداخل كهف الظلمة والمجهول وتفتيت الذرة، والخارج خطر داهم (٥١) .... يبدو أن الرعب من الخارج أرحم (٥٢)، شئ ألمسه بيدي.... يلهينى عن هول الحق العارى، عن رؤية ذاتى، أفليس الظاهر أقرب؟ والخوف عليه أو منه يبدو أعقل؟

هو ذاك: أخشى أن أمشى وحدى (٥٣)، حتى لا تخطف رأسى الحدأة (٥٤)، أما بين الناس ... فالرعب الأكبر: أن تسحقنى أجسادهم المنبعجة ..، اللزجة، والممتزجة، (٥٥)، أخشى أن يغلق خلفى الباب (٥٦)..، أو أن يفتح (٥٧)، فالباب المقفول هو القبر .. أو الرحم أو السجن (٥٨)، والباب المفتوح يذيع السر (٥٩)، ...... أخشى أن أنظر من حالق (٦٠)، .... أو أن يأكل جسمى المرض الأسود (٦١)، أو أن أقضى فجأة (٦٢)، أو أن أفقد عقلى (٦٣)، أو أتناثر (٦٤)، والخوف يولد خوفا أكثر، والهرب الفاشل يتكرر..،.. سقطت تلك الحيلة أيضا، لم تغن عنى شيئا، لكن أجلت الرؤية (٦٥).

-٢-

الساقية المهجورة

لم يعد الرعب من الخارج يكفى أن ينسينى الداخل، (٦٦)، فاقتربت نفسى منى حتى كدت أراها: الظلمة والمجهول وتفتيت الذرة، والسرداب المسحور، وما قبل الفكرة (٦٧)، والطفل المقسوم إلى نصفين (٦٨)، ينتظر سليمان وعد له، وحقيقة أصل الأشياء تكاد تطل، لا مهرب من هول الداخل الا عقل عاقل، متحذلق، عقل ينظم عقد القضبان المحكم، دعواه قديما كانت "حل الطلسم" (٦٩)، ويظل التافه يملؤ وجه الساحة، يخفى الخطر الأكبر فالتافه آمن: فليشغل بالى أى (٨٣٩) حديث أو فعل عابر، ولأمسك بتلابيبه، وليتكرر .... وليتكرر .... وليتكرر... وليتكرر أكثر؛ نفس الشئ التافه، دون النظر إلى جدواه (٧٠)، فلأحفظ أرقام العربات، أو عدد بلاط رصيف الشارع. أو درج السلم (٧١)، أو أصبح أنظف، لكن من فوق السطح، هذا غاية ما يمكن، ولأغسل ثوبى الأغبر، حتى أخفى تلك القاذورات، داخل نفسى، عن أعين كل الناس،... لا بل عن عينى صاحبها الألمع، .... الأطهر الأمجد والأرفع،.... بدلا من أن أشغل نفسى بطهارة جوهر روحى، فلأغسل ظاهر جلدى، بالصابون الفاخر(٧٢) لكن ويحي...، كيف دخلت السجن برجلى؟ كيف سعيت إلى حتفى؟ صور لى العقل المتحذلق: أن السارق ضابط شرطة، فإذا بالمصيدة الكبرى ... تمسكنى من ذنبى حتى أمضى سائر عمرى فى عد القضبان، أو لمس الأشياء على طول طريق

حياتى: دون الغوص إلى جوهرها (٧٣)، أو جمع الأعداد بلا جدوى، أو إغلاق نوافذ بيتى ونوافذ عقلى تتبعها، وحديد التسليح يكبل فكرى (٧٤) ..... لم يعد التكرار ليكفى، والمسرح ضاق بنفس الحركة (٧٥) ..... و أزيز الساقية المهجورة، يرجو أن يوهم ثورا نزع غماد، أن سراب الفكر، يروى الزرع العطشان، لكن كم جف العود الوجدان، رغم خوار الثور المتردد، وأزيز الساقية الأجوف (٧٦).

-٣-

شهد الفطرة

وتعلمنا فى السنة الأولى: أن الماء بلا لون وبلا طعم وبلا نهكة، لكن الحق يقول: أن الماء العذب .. هو شهد الفطرة، فإذا صدقت العلم اللفظى (٧٧)، ضاعت منك حقيقة أصل الحكمة، أو قد تستمرئ تلك الخدعة، إذ تلقى فى الماء، بقمع السكر، يا أبله: أنساك الحلو الماسخ طعم الصدق النابض فى لب الفطرة ... ،...... بدلا من أن تعرف نفسك، تحنى هامتك لغيرك؟ (٧٨)، بدلا من أن ترقص فى موسيقى الكون برحاب الله، تلعب شفتاك بلفظ مبهم؟ (٧٩)، بدلا من أن تصبح ذاتك جزءامن ذات عليا، تنصب محكمة الدنيا؟ بدلا من أن يملأ حبك الأول والآخر، يملؤه الخوف أو الطمع وأرقام التاجر؟ (٨٠)، بدلا من أن تعرف .... تهرف، وبحسن النية ... شوهت الفطرة، إذا ألهانى طعم السكر عن عذب السماء (٨١)،، وكأنى أرجو أن أطفئ بالحلو الماسخ عطش الطفل المحروم ....،، تطفو الروح الى الحلقوم، والغثيان الدائر يسحب وعيى حتى لا قاع ولا آخر.

الفصل الثانى

تفجير الذرة وما قبل الفكرة

اللبن المر (٨٢)

-١-

أخذت زخرفها، .. .. وازينت (٨٣)

-٢-

زلزلت الأرض...، فى سكرة موت، أو صحوة بعث (٨٤)، حدث "الشيء" ، "شئ ما" قد حدث اليوم (٨٥)، سقط الهرم الأكبر (٨٦)، هرب الملك من التابوت يدبر للثأر مكيده، والملكة تبعت سيدها (٨٧) كأن الطفل تململ بعد سبات طال، وتحرك جوع لحياة أخرى (٨٨) والثدى الجبل الرملى تزحف كثبانه، تكتم أنفاس وليد كهل، يرقص مذبوحا فى المهد اللحد، واللبن الحامض زاد مرارة (٨٩) وتغير شكل الناس، ليسوا ناس الأمس (٩٠)، وتغير احساسى بكيانى، أنا من ؟ كيف ؟ وكم ؟ من ذاك الكائن يلبس جلدى من صاحب هذا الصوت ؟ هل حقا " أنا "... يتكلم ؟ (٩١)، وتغير وجه حياتى واختفت الأبعاد، فتحت أبوابى، رق غشائى، قلبت صفحات كتابى، وتناثرت الأسرار (٩٢).

-٥-

سقطت أقنعة الزيف، لكن الحق، لم يظهر بعد (٩٣)، والحزن الأسود يتحفز، والأحياء الموتى فى صخب دائم (٩٤)، ويخيل للواحد منهم ان الآخر يسمعه، والآخر لا تشغله الا نفسه، أو موضوع آخر، لكن الرد الجاهز دوما جاهز، -- ما حال الدنيا؟ = الدفع تأخر . ....، -- هل نمت الليلة ؟ = الأسهم ذادت ...،-- كم سعر الذهب اليوم ؟ = المأتم بعد العصر. والكل يدافع عن شيئ لا يعرفه بحماس لا يهدأ أبدا، يتعجل كل منهم حتفة، اذ يلتهم الايام بلا هدف و بلا معنى، والعاقل مثلى أى من جن (٩٦) يعرف ذلك، ولقد يرتد البصر إلى أعماقه يتذكر أصل القصة: (٩٧).

-٤-

فى يوم الرعب الأول، لما غادرت القوقعة المسحورة، صدمتنى الدنيا (٩٨) نار الحقد قد اختلطت بجفاف عواطف ثلجية، فتجمد تمثال الشمع المنصهر (٩٩) لما غرق القارب فى بحر الظلمة، قذفنى اليم على شاطئهم، صور لى خوفى أن الكل يطاردنى (١٠٠)، ... . جف البحر ورائى، وهواء البر الساخن يزهق روحى (١٠١)، لم تنبت فى صدرى رئة بعد، وتمدد جسدى ينتظر الموت (١٠٢).

-٥-

هل يوجد حل آخر؟ هل أفتح بابى بعض الشيء؟ ورويدا دخل (ص٨٤٣) الدفء الي؛ فأمنت ..، سقط الشك؛ نمت فى صدرى بعض براعم تنتظر هواء الود، ما أحليى أن يخلع ذاك الوحش الوهمى قناعه،

حتى يبدو إنسانا يعطى ويحب (١٠٣)، هل حقا: أن الدار .. أمان؟ أن الناس بخير؟ (١٠٤)، قد كدت أجف، من قر الوحدة وجفاف الخوف، سقطت أوراقى، لكن العود امتد، فى جوف الأرض، إذ لو نزل القطر، فلقد يخضر العود، أو ينبت منه الزهر (١٠٥).

-٦-

لكن البقرة، قد تذهب عنى، وأنا لم أشبع (١٠٦)، لا .. لن أسمح (١٠٧)، ليست لعبة، هى ملكى وحدى: أضغط تحلب، أترك: تنضب، أضغط تحلب، أترك تنضب، (١٠٨)، لكن هل تنضب يوما دوما؟؟ أفلا يعنى ذاك الموت؟ (١٠٩) ملكنى الرعب .. واللبن العلقم ..، يزداد مرارة (١١٠) فكرهت الحب، وقتلت البقرة (١١١) وصعدت إلى جبل الوحدة أنحت فى حجر الصبر أدراى سوأة فعلى (١١٢)، ووضعت الصخرة فوق الصخرة وبنيت الهرم الأكبر، على السخرة، تغفر ذنبى، (١١٣) ، ونصبت تابوت الملك الأعظم (١١٤)، ومضيت أقدم قربان حياتى لجلالته (١١٥).

-٤-

نخر السوس عصاه، وإذا انكفأ على وجهه، زلزلت الأرض، إذ سقط الهرم الأكبر (١١٦)، فوق رؤوس الأشهاد، فى سكرة الموت، أو صحوة بعث (١١٧).

رقصة الكون (١١٨)

انقشع غمام الضيق، (١١٩) ، وشعاع الفجر يدغدغنى، حتى أشرق نور الشمس، بين ضلوعى، وصفا القلب، رقصت أرجاء الكون وتحطمت الأسوار (١٢٠) وانطلق الإنسان بالآخر، الرابض بين ضلوعى، .. فى ملكوت الله، (١٢١)، يعزف موسيقى الحرية (١٢٢)، وعرفت الأصل، وأصل الأصل، (١٢٣)، فى لحظة صدق. (١٢٤)، ورأيت التاريخ البشرى .... رؤى العين (١٢٥)، "كنت زمانا حبة رمل فى صحراء الله"، وعرفت بأن الرمل قديم قبل الطين، ومن الطين، خرج الطحلب، .... وقفزت إلى جوف البحر أناجى جداتى، وضربت بذيلى سمكة قرش مفترسة، ورجعت إلى شاطئنا الوردى أغنى، ومضيت إليكم فى أروع رحلة، وعرفت يقينا أن المعرفة الحقة، هى فى المعرفة الحقة، دون دليل أو برهان (١٢٦)، دون حساب أو تعداد الأسباب، هذا قول الصوفية: "من ذاق عرف"، ولقد ذقت، فعرفت (١٢٧) ما أعجز ألفاظ الناس عن التعبير عن الذات العليا، وعن الجنة، وعن الخلد، (١٢٨) فى ذاك اليوم: رقصت حبات الرمل، وتعانق ورق الأشجار، وسرت قطرات الحب.. من طين الأرض إلى غصن الوردة، وتفتحت الأزهار ... فى داخل قلبى، فى قلب الكون. وارتفع الحاجز بين كيانى والأكوان العليا (١٢٩).. أصبحت قديما حتى لا شئ قديم قبلى، وامتد وجودى فى افاق المستقبل، دون نهاية فعرفت الله، وعرفت الأصل وأصل الأصل، ملأنى الحب، حتى فاض بى الوجد (١٣٠) ورأيت العالم فى نفسى، وتوحدت مع الكل... (ص ٨٤٥ (من فرط الفرحة، ملأنى الخوف، أحسست بنور الله كجزء منى ... فرغبت، وتملكنى الشك، (١٣١) هل هى شطحات الصوفية؟ أم ذهب العقل؟ (١٣٢)، كنت أعيش القمة، وانطلقت روحى

تسعى لكن الجسد يقيدنى وأنا عصفور شفاف نورانى أسبح فى ملكوت الله، لن أسمح أن يمنع تجوالى هذا الثقل الجسدى، ما أغنانى عن هذا اللحم وهذا العظم، وعن الفعل الحيوانى الأدنى، (١٣٣) حتى النوم، هو موت أصغر وأنا فى جنة خلد لا يفنى (١٣٤).

-٢-

يا ربى ... لم دار الكون كأنى مركزه الأوحد؟ لم أشرق نورى فى نورك؟ فانطمس العالم إلاى، وانغمست ذاتى فى ذاتك، فحويت العالم والناس (١٣٥) صرت الأوحد، إنسان الحلم، أنا؟ إنسان الغد، لكى وحدى، وحدى، وحدى حتى الموت.. .، .... "أين الموت" ؟؟ أم أن خلودى هو عين الموت؟ (١٣٦).

-٣-

هل يشعر بى أحدكمو؟ أحد الناس الناس؟ أم ألقى حتفى فى صحراء الوحدة؟ لا أحد هناك، لا صوت ولا همس، ولا نبض، ولا رؤية. الوحدة؟ يا مر الوحدة؟، الوحدة موت حتى لو كنت له (١٣٧)، عزف البركان اللحن الثائر: الحب الشك الرعب، الرعب الحب الشك، الشك الرعب الحب (١٣٨) ماذا ينقذنى من نفسى، من رؤية سرى الأعظم، سر الله وسر الكون، وسر وجودى، سر الزمن، وسر الموت، وسر الكلمة (١٣٩).

كيف أحدد أبعادي؟؟ (١٤٠)، يا رب الكون: قد بهرتنى طلعتك الحلوة وغشى نورك عينى، خذ بيدى وارحم ضعفى، واجعل دورى أن أسهم فى السعى إليك، لا أن أصبح ذاتك (١٤١)، يا رب الناس من لى بالناس، بالكلمة وبدون كلام، شدنى الناس إلى الناس، لمست قدماى الأرض. يا ثقل الجذب الى الطين (١٤٣).

-٥-

قد عشت حياة اليوم الثامن (١٤٤)، لكن الأسبوع له أيام سبعة، فلأهبط بين الناس .. أتقن دورى المحدود الرائع، لنقوض حاضرنا الملتات، وتصير الأحلام حقيقة، ويسير الشعر على أرجل، لنضيف الحلقة والحلقة، فى تلك السلسلة الحلوة (١٤٥)، ما أحلى كل الأشياء كل الأشياء بلا استثناءت ما أجمل صوت بكاء الطفل، بل صوت نقيق الضفدع بل صوت الصنبور التالف (١٤٦).

جلد بالمقلوب

-١-

لا تقتربوا أكثر .. إذ أنى: ألبس جلدى بالمقلوب، حتى يدمى من لمس "الآخر" فيخاف ويرتد، إذ يصبغ كفيه نزف حى، وأعيش أنا ألمى، أدفع ثمن الوحدة (١٤٧).

-٢-

لن يغنينى أن أصعد جبل المجد، لا يخدعك اللون الثلجى على القمة، (ص ٨٤٧) لا يخدعك الرأس المرفوع إلى أعلى. (١٤٨)، تمثال الشمع تجمد، فتقلصت الضحكة، كانت تحبو بين دروب الخد، وتوارى

الطفل الحزن الأمرد (١٤٩)، والثور الأعمى فى فلك دائر، يروى السادة بالماء المالح، فى سوق المجد..، .. تتلقفنى الأيدى الصماء (١٥٠) أصعد درج الرفعة أنسج حولى شرنقة الصد، أهرب منكم، فى رأسى ألفى عين ترقبكم، تبعدكم فى إصرار. أمضى وحدى أتلفت (١٥١).

-٣-

... لكن حياتى دون الآخر وهم، صفر داخل صفر دائر .....، لكن الآخر يحمل خطر الحب إذ يحمل معه ذل الضعف (١٥٢)، يتلمظ بالداخل غول الأخذ، فأنا جوعان مذ كنت، بل إنى لم أوجد بعد (١٥٣)، من فرط الجوع التهم الطفل الطفل، فإذا أطلقت سعارى بعد فوات الوقت، ملكنى الخوف عليكم. اذ قد ألتهم الواحد منكم تلو الآخر، دون شبع (١٥٤).

-٤-

يا من تغرينى بحنان صادق .. فلتحذر، فبقدر شعورى بحنانك: سوف يكون دفاعى عن حقى فى القوص الى جوف الكهف، وبقدر شعورى بحنانك: سوف يكون هجومى لأشوه كل الحب وكل الصدق، فلتحذر إذ فى الداخل وحش سلبى متحفز، فى صورة طفل جوعان، وكفى إغراء، وحذار فقد أطمع يوما فى حقى أن أحيا مثل الناس، فى حقى فى الحب (١٥٥).

ألبس جلدى بالمقلوب فلينزف إذ تقتربوا ولتنزعجوا، لأواصل هربى فى سرداب الظلمة (١٥٦)، نحو القوقعة المسحورة، لكن بالله عليكم: ماذا يغرينى فى جوف الكهف، وصقيع الوحدة يعنى الموت؟ لكن الموت الواحد: ... أمر حتمى ومقدر، أما فى بستان الحب، فالخطر الأكبر أن تنسونى فى الظل، ألا يغمرنى دفء الشمس، أو يأكل برعم روحى دود الخوف. فتموت الوردة فى الكفن الأخضر، لم تتفتح و الشمس تعانق من حولى كل الأزهار، هذا موت أبشع (١٥٧)، لا.. لا تقتربوا أكثر، جلدى بالمقلوب، والقوقعة المسحور تحمينى منكم (١٥٨).

وهتفت بأعلى صمتى ...

يا أسيادى، يا حفاظ السفر الأعظم، يا حمال سر النجم، يا كهنة محراب فرعون، يا أفخم من لاك الألفاظ تموء كقطط جوعى فى كهف مظلم، يا أذكى من خلق الله وأعلم، يا أصحاب الكلمة والرأى، هل أطمع يوما أن يسمع لى؟ هل يسمح لى؟ هل يأذن حاجبكم أن أتقدم، لبلاطكمو التمس العفو، أنشر صفحتى البيضاء أدفع عن نفسى، أتكلم (١٥٩)، أحكى فى صمت عن شئ لا يحكى، عن إحساس ليس له اسم، إحساس بين ضلوعى، يصاعد حتى حلقى، فأكاد أحس به يقفز من شفتى، وفتحت فمي:

لم أسمع الا نفسى يتردد، إلا نبض عروقى وبحثت عن الألف الممدودة، وعن الهاء، وصرخت بأعلى صمتى، لم يسمعنى السادة (١٦١) وارتدت تلك الألف الممدودة مهزومة، تطعننى فى قلبى، وتدحرجت الهاء العمياء ككرة صلب..، داخل أعماقى (١٦٢) ورسمت على وجهى بسمة (١٦٣)، تمثال من شمع (١٦٤)، ورأيت حواجب بعضهمو ترفع فى دهشة، وسمعت من الآخر مثل تحية، ظهرت أسنانى أكثر،

(١٦٥)، وكأني أضحك، ومضيت أواصل سعيي وحدى، وأصارع وهمى بالسيف الخشبى، السيف المجداف الأعمي.. والقارب تحتى مثقوب، والماء يعلو فى دأب، والقارب تحتى يتهاوى ..، فى بطء لكن فى إصرار، فى بحر الظلمة ..، .. فى بحر الظلمة (١٦٦).

هربا من هربي

لا تجزع منى، إذا لو أمعنت الرؤية لوجدت الانسان الضائع بين ضلوعى طفلا أعزل (١٦٧)، لا تتعجب، لست الوحش الكاسر، والشعر الكث على جلدى هو درعى، يحمينى منكم، (١٦٨) من كذب "الحب"، من لغو "الصدق"، من سخف "الحق" (١٦٩)، أنتم سبب ظهور الناب الجارح داخل فكى، أنتم أهملتم روحى، أذبلتم ورقى فتساقط زهري.

-١-

هل تذكر يا من تشكو الآن (١٧٠)، كيف لفظت وجودى؟ هل (ص ٨٥٠) تذكر كيف لصقت ضياعك بى؟ هل تذكر كيف لبست قناع الوعظ والشيطان بداخلك يغني؟

-٢-

لما عشت الوحدة والهجر .. أغرانى الطفل الهارب بالغوص الى جوف الكهف، وتهاوى القارب فى بحر الظلمة، لكن هناك كما تعلم يا صاحب سر اللعبة (١٧١)، موت بارد (١٧٢)، فطفقت أجمع قوة أجدادى من بين خلاياى، حتى أخرج وسط البحر المتلاطم بالكتل البشرية حتى أجد طريقى الصعب ... واستيقظ فى ابن العم النمر، ولبست عيون الثعلب ونمت فى جلدى بعض خلايا بصرية مثل الحرباء أو الحية، وبدأت أعامل عالمكم بالوحش الكامن فى نفسى، أرسلت زوائد شعرية مثل الصرصور أو الخنفس (١٧٣) أتحسس ملمس سادتنا، ووجدت سطوحكمو لزجة ..، تلتصق بمن يدنو منها، أو ملساء، تنزلق عليها الأشياء أو يعلوها الشوك. فجعلت أدافع عنى، هرب من هربى، هربا من "همى" و "شكوكى"(١٧٤).

-٣-

وسرقت ...، لا تتهمونى يا سادة، لم أفعل إلا ما يفعله من تدعون الساسة أو أصحاب المال الكاسح، أو من حذقوا سر المهنة.

-٤-

وكذبت، لا تتعجل فى حكمك، ولينظر أى منكم فى أوراقه فى (ص ٨٥١) عقد زواج، (١٧٥)، أو بحث علمى يترقى به، (١٧٦)، أو ينظر داخل نفسه، إن كان أصيب ببعض الحكمه، وليخبرنى: هل أنى وحدى الكذاب.

-٥-

وتعجلت اللذة (١٧٧)، أنت تؤجل يا سيد إذ أنك أتقنت الصنعة، تعرف أن السرقة لا تدعى سرقه، إن لبست ثوب الشرع، والكذب تحول صدقا بالكلمات المطبوعة والأرقام (١٧٨) لكنى أمضى وحدى، وبلغة

الأجداد الأصدق، لا أضمن شيئا مثلكمو فى مقتبل الأيام، إذ ليس لدى سوى الآن، فما اغتلتم أمسى .. ألغيت غدى (١٧٩)، واللذة عندى تعنى كل وجودى، هذا قانون للأجداد، تلتصق بنصف آخر: تبقى وكلامكمو المعسول عن العذرية، وعن الحب الأسمى ... ... وهم يخفى ردتكم للحيوان الأعمى، يا سادة: ماذا يتبقى إن فصلت روحى عن جسدى الثائر؟ (١٨١) يا سادة: لم تختبئون وراء اللفظ الداعر؟ (١٨٢) إذ لو صدق الزعم، فلماذا أترك هملا؟ أين الحب المزعوم إذا لم ينقذ روحى طفلا؟ ..... لا...... لا.... لا.. حسبكمو فلأرو خلايا جسدى بالجنس وتقولون الحيوان تلمظ، وأقول نعم، فوجودى يعنى امرأة ترغبنى، أو حتى رجل يلصق بى (١٨٣)، لا تنزعجوا فخلاياجسدى تعرف لغة الحس (١٨٤) وجونابكم ... أهملتم حسى وكياني.

-٦-

كان لزاما أن أختار: إما أن أمضى وحدى فى ذل الهجر (١٨٥) أو خطر ذهاب العقل، (١٨٦) أو أن أطلق نارى أسرق حق وجودى (ص٨٥٢) أمحو الدنيا إلا ذاتى، لكن بالله عليكم، بالله على: لم أحبس نفسى فى قفص التهمة لأدافع عن ذنبكمو أنتم عن تهمة كونى بينكمو وحدى؟ وضياعكمو أصل ضياعى؟ (١٨٧) ... قد أنجح أن أبقى، أن يدفع قلبى الدم، أن تطحن أمعائى ما يلقى فيها، أو يقذف جسدى اللذة، لكن أن أحيا إنسانا؟ هذا شئ آخر، لا يصنعه العدوان أو القسوة، لا يصنعه الهرب أو اللذة (١٨٨)، لكن يبنيه الحب .. النبض .. الرؤية، الألم .. الفعل اليقظة، الناس "الحلوة" ،، من لى بالحب ؟؟ أين الناس؟؟

الفصل الثالث

الطفل العملاق الطيب (١٨٩)

-١-

نحتوا فى الصخر الهيكل: فى داخله سر أكبر، صنم عبدوه وما عرفوه، قربان المعبد طفل، يرنو من بعد، لا يجرؤ أن يطلب، أو يتململ، أقعى فى رعب فى جوف كهوف الصمت، خلف عباءة كهل قادر (١٩٠).

-٢-

...وكلام غث: ما أحكمه ... ما أنبله ما أعلمه ... ما أولاه بالحب،، - الحب؟ ؟ ؟ من لى بالحب؟؟ إذ كيف يحب الجوهر من لا يعرف إلا السطح اللامع؟ (١٩١) لم يعرف أى منهم أن صلابه هى من إفراز الضعف، وحصاد الخوف (١٩٢).

-٣-

لم يسمع أحدهمو نبض أنينه، والطفل الخائف يقهره البرد الهجر، نظر الطفل إلى كبد الحق وتمنى الموت.

-٤-

لكن النور يداعب بصره، وحفيف الدفء يدغدغ جلده، فيكاد يصيح النجده، يتحرق أن يظهر ضعفه (١٩٣)، لكن الرعب الهائل يكتم أنفاسه، ويعوق خطاه، الضعف هلاك، والناس وحوش (١٩٤).

-٥-

فلتتجمد أعماقى، ولتنم القشرة، ولينخدعوا، وليكن المقعد أعلى ثم الأعلى فالأعلى، حتى لو كان بلا قاع، ولأجمع حولى فى إصرار ما يدعم ذاتى فى أعينهم، ولأصنع حولى سورا من ألفاظ فخمة، درعا يحمينى منهم (١٩٥)، بل من نفسى (١٩٦)، ... ... لم يدعوا لى أن أختار، لكن ويحى .. من فرط القوة، وقع المحظور، أو كاد (١٩٧)، أسمع خلف الصخر حفيفا لا يسمعه غيرى، يحسبه الناس حديث القوة والجبروت (١٩٨)....... لكن الشق إمتد من داخل داخلنا الأجوف، لا ... لم يظهر بعد، لكن لابد وأن يظهر (١٩٩) وكما كان الصخر قويا صلدا وكما كان الصنم مهابا فخما، سوف يكون الصدع خطيرا فاحذر، وليحذر ذلك أيضا كل الناس (٢٠)

-٧-

لن ينجو أحد من هول الزلزال .. إلا من أطلق للطفل سراحه (ص ٨٥٤) ..كى يضعف ... أو يخطئ ... أو يفعلها (٢٠١)، لن ينجو أحد من طوفان الحرمان،إلا من حل المسألة الصعبة، أن نعطى للطفل الحكمة والنضج، دون مساس بطهارته، ببراءته، بحلاوة صدقه، أن نصبح ناسا بسطاء، فى قوة، أن نشرب من لبن الطيبة سر القدرة، كى نهلك - حبا - غول الشر المتحفز بالإنسان الطيب (٢٠٢)،، هل يمكن؟؟ هل يمكن أن نجعل من ذاك الحيوان الباسم: إنسانا يعرف كيف يدافع عن نفسه.. ببراءة طفل، وشجاعة إنسان لايتردد... فى قول الحق، بل فى فرضه؟ (٢٠٣)، تلك هى المسألة الصعبة. هل يمكن؟؟ هل يمكن أن نضعف دون مساس بكرامتنا؟، أن نضعف كيمانقوى (٢٠٤) أن يصرخ كل جنين فينا حتى يسمع (٢٠٥) أن نطلق قيد الطفل بلا خوف وبلا مطمع (٢٠٦)، أن يعرف أنا لا نرجو منه شيئا.. إلا أن يصبح أسعد منا، ألا يخدع (٢٠٧). فلكم قاسينا من فرط الحرمان.. وفرط القوة، ولكم طحنتنا الأيام، والأعمى منا يحسب أنا نطويها طيا، (٢٠٨)، لكن كيف؟ سأقول لكم كيف... كيف "يكون" الإنسان الحر، يترعرع فى أمن الخير، ينمو فى رحم الحب، حب الكل بلا قيد أو شرط (٢٠٩)، حب لا يسأل كم... أو كيف... أو حتى من؟ حب ليقبل خطئى قبل نجاحى، حب يقظ يمنعنى أن أتمادى، يسمح لى أن أتراجع حب الأصل، لا حب المظهر والمكسب وبريق الصنعه، حب يبنى شيئا آخر غير هيا كل بشرية، تمشى فى غير هدى، تلبس أقنعة المال، أو نيشان السلطة. (٢١٠) سأقول لكم كيف: بالألم الفعل، والناس الحب (٢١١)، ينمو الإنسان: طفلا عملاقا أكمل، يسعى نحو الحق القادر (٢١٢)، (ص ٨٥٥) مثل الأول .... مثل الآخر، والقمة تمتد إلى ما بعد الرؤية.

جبل الرحمات (٢١٣)

وتعلمنا تاتا .. .. تاتا، لاتتعثر(٢١٤) وتعلمنا .. سرا أخطر،، قال الكلمة: شيخ المنسر، إفتح سمسم .. أنت الأقدر،، تحفظ أكثر.. تعلو المنبر، تجمع أكثر .. ترشو العسكر،، وخيوط التشريفة من جلد الأفعى المغبر (٢١٥) وحفظت السر، وبعقل الفلاح المصرى أو قل لؤمه درت الدورة حول الجسر. (٢١٦) حتى لا تخدعنى كلمات الشعر، أن يضحك منى من جمعوا أحجار القصر القبر، أو يسحق عظمى وقع الأقدام المتسابقة العجلى (٢١٧)، أقسمت بليل ألا أضعف... ألا أنسى (٢١٨).

-٢-

وأخذت العهد، غاصت قدماى بطين الأرض وامتدت عنقى فوق سحاب الغد (٢١٩).

-٣-

هذبت أظافر جشعى ولبست الثوب الأسمر ولصقت اللافتة الفخمة وتحايلت على الصنعة، وتخايلت طويلا كالسادة وسط الأروقة المزدانة برموز الطبقة.. ،.. هأنذا أتقنت اللغة الأخرى، حتى يسمع لى، فى سوق (ص ٨٥٦) الأعداد وعند ولى الأمر (٢٢٠) - مرحى ولدى حققت الأملا..!!.. اسمك أصبح علما .. .. - وثمارك طابت فاقطفها .. .. وفتات المائدة ستكفى القطط الجوعى (٢٢١) - لا يا أبتى: لن تخدعنى بعد اليوم، صرت الأقوى، (٢٢٢) للرعب الكذب نهاية، (٢٢٣) تكشف ورقك؟ أكشف ورقى...،، هذا دورى .. أربح (٢٢٤).

-٤-

ألقيت بحياتى السبعة، تلتقط الديدان المرتجفة فى أيديهم (٢٢٥) وحملت أمانة عمرى وحدى (٢٢٦) وشهرت السيف أكفر عن ذنبى الوهمى، وفردت شراعى لتهب رياح العدل الصدق الحب (٢٢٧).

-٥-

لكن العاصفة الهوجاء تبدل سيرى .. .. ورست فلكى فى أرض حمئة، فوق سنان جبال الظلمة (٢٢٨)، وتناثرت الألواح فصنعت الكوخ القلعة وسط الغابة (٢٢٩) .. .. والزيف الظلم يطاول أملى حتى يطمس أنفه، لكن الحق النور يذيب جليد اليأس على قمم الوحدة، والزيد يروح جفاء (٢٣٠) لا يبقى . إلا ما ينفع (٢٣١).

-٦-

فلأفتح قلبى .. يحمى رقته درع القدرة، وليطرق بابى الطفل المحروم ليظهر ضعفه، ثم يصير العملاق الطيب، وليلتئم الجرح الغائر تحت ضماد القوة، (ص ٨٥٧) وليتألم فى كنفى من حرموا حق "الآه" لتعود مشاعرهم تنبض (٢٣٢) ولأحم الجيل القادم أن يضطر .. لسلوك طريقى الصعب (٢٣٣).

-٧-

لكن .. وأنا؟ ..وأنا؟؟ (٢٣٤) وأنا إنسان لم يأخذ حقه: طفلا أو شابا .. أو حتى شيخا.. هل يمكن أن تغنينى تلك القوة عن حقى أن أحيا ضعف الناس؟ (٢٣٥) لكن من يعطى جبل الرحمات الرحمة؟! (٢٣٦).

-٨-

أصغى بعض الناس "الناس" لنبض أنينه، لم يضطربوا .. لم يختل المسرح ،، وتهادى الحق، أشرق نور الفجر الوعى الصدق، وانساب الفكر الألم النبض يعيد الذكرى: (٢٣٧)، .. .. فى ذاك اليوم الدابر قبل النور، كان وحيدا ... (٢٣٨)، وصليل الألفاظ يغنى اللحن الأجوف، (٢٣٩)، والفكر سحاب يخفى النور المأمول (٢٤٠)، والحس الأعمى يرقص فى حلم النشوة (٢٤١)، .. .. وتراءت صور الخدعة تتلاحق، تحكى قصة سرقة: يوم تنكر جمع الناس لوجه الحق، يوم تفتح سرداب الهرب بلا رجعة يوم تنمر كل قديم حتى يفرض نفسه (٢٤٢)، يوم انطلق يلوح باللذة والمتعة (٢٤٣)، الجن الجنس الشيطان، بدلا من حب قرب أكمل ، يوم تراءت للنفس مزايا الخدعة" أن تجمع ما تجمع حتى تأمن غدر الأيام، حتى لا تحتاج إلى الناس، (٢٤٤)، حتى تشترى عبيد الله (٢٤٥).

-٩-

وبكيت .. .. يا فرحتى الكبرى .. (٢٤٦) ما أقدس ماء الدمع الدافئ يغسل روحى .. .. هل قتلوا غول الوحدة؟؟؟ (٢٤٧).

-١٠-

ساورنى الشك .. يا ليت الكل تلاشى، حتى لا أبدو جبلا يتهاوى من لمسة حب صادق (٢٤٨) داخلنى خوف متردد، وتراجع بعضى يتساءل:

ماذا لو أضعف؟ وخيال جامح: وكأنى أرفع وحدى الكرة الأرضية فوق قرونى (٢٤٩) من يروى عطش المحرومين؟ من يمنع ذاك الوحش القابع فى أنفسنا أن ينتهز الفرصة؟ من يقضم أنياب الليث الكاسر حتى لا يغتال طهارة طفل، إذ تخدعه الغنوة: "الحل الأوحد يا أحبابى .. فى الصدق وفى الألفاظ الحلوه" من يلعب بالبيضة فى سوق العلم الزائف؟ حتى يعلم أصحاب العمم الخضراء، أو القبعة المرتفعة، أن اللعبة ليست حكرا يعطيهم حقا قدسيا فى إصدار اللائحة الرسمية لحياة الناس؟ .. .. من يفعل ذلك عنى يا أحبابى إذ أكشف أوراقى، إذ أبكى .. أضعف .. أتمدد، دون سلاح الشك القدرة؟ (٢٥٠).

-١١-

زين لى خوفى أن أتراجع، أن أجمع نفسى وأواصل لف الدورة.

-١٢-

لكن لا، خلق الله الدنيا فى ستة أيام ثم ارتاح والضعف الصادق في(٨٥٩) ظل حنان الناس دور أقوى .. (٢٥١) وتساقط دمعى أكثر والتف الكل حوالى، يغمرنى بحنان صادق، هدهدة حلوة، وتكور جسدى مؤتنسا، فى حضن الحب ودغدغته، واهتز كيانى بالفرحة، ليست فرحة، بل شيئا آخر لا يوصف، إحساس مثل البسمة، أو مثل النسمة فى يوم قائظ، أو مثل الموج الهادئ حين يداعب سمكة، أو مثل سحابة صيف تلثم برد القمة، أو مثل سوائل بطن الأم تحتضن جنينا لم يتشكل (٢٥٢) أى مثل الحب..، بل قبل

الحب وبعد الحب، (٢٥٣) شئ يتكور فى جوفى لا فى عقلى أو فى قلبى، وكأن الحبل السرى يعود يوصلنى لحقيقة ذاتى .. هو نبض الكون، هو الروح القدسى، أو الله (٢٥٤).

-١٣-

.. .. واستسلمت، لكن .. ، لكن...، ماذا يجرى ؟؟ وتزيد الهدهدة علوا ... ماذا يجرى؟ تعلوا أكثر، ليس كذلك... تعلو أكثر ليست هدهدة بل صفعا، تعلو أكثر، بل ركلا ضربا طحنا، تعلو أكثر، أنياب تنهش لحمى، الكلب الذئب انتهز الفرصة، اغتنم الضعف وأنى ألقيت سلاحى (٢٥٥).

-١٤-

هل لبس الشر مسوح الأب الحانى؟ هل خدعنى المظهر؟ وتلفت حوالى، فإذا بقناع الود يدارى شبه شماته ... ففزعت، وجعلت ألملم أجزائى وأحاول أن أتشكل...، (٢٥٦) وصليل حاد يغمر عقلى، وكأن نحاسا يغلى فى فروة رأسى والضوء النورانى يخفت، يخفت، يخفت، إنطفأت (ص ٨٦٠) روحى أو كادت، إنسحب عصير حياتى ..، جف كيانى: خشب أجوف وصليل نحاس الرأس يجلجل فكر صلب أملس (٢٥٧)،.. ... واختفت الآلام مع الأحزان مع الفرحة.

-١٥-

لم ملكنى الرعب؟ (٢٥٨)، هل خشية أن تنفجرالذرة أن؟ أقتحم المجهول؟ أن أطلق روحى فى روح الله، (٢٥٩) أن أتحرر؟ (٢٦٠)، هل خوف الأسلاف يشوه ضعفى هل أتراجع.

-١٦-

فات أوان الردة .. والفطرة نضجت فى نار القدرة (٢٦١).

-١٧-

لكن بالله عليكم: ماذا هيج ضدى الشر؟ لم شوه طفلى الحر..؟ لم عيرنى بالضعف؟ لم لبس الإنسان السلبى درع الرحمة؟ فانطلق يلوح بالراية، وكأنه داعى الحرية يهرب من عبء القدرة تحت ستار بريق الثورة...، ثم يحطم ذاته، إذ تغريه اللعبة: أن يتمرغ فى نهر اللذة، هربا من ألم الوحدة، جسد رخو، يتلاشى فى جسد رخو يمحو الدنيا فى اللاشيء، والهرب الخدر يزين دورا آخر ، والدور الآخر يتلوه دور آخر: نقضى من فرط اللذة، نمضى من مهد الجنس الى لحد الجسد الفانى (٢٦٢).

-١٨-

تتلاحق تلك الصور أمامى تتبادل: الطفل العابث يرفض أن يتشكل والزيف القاهر يترقب وخيار صعب (٢٦٣)

-١٩-

(ص ٨٦١) بتضاءل ذاك الحل الأمثل "أن نصنع من قهر الأمس - اليوم - الإنسان الأكمل" ويصيح السادة من أعلى المسرح: إعقل يا سيد، قد أصبح حلما وهما، فكفى هربا كذبا.. .. (٢٦٤)، أية خدعة؟

أنفقت حياتى أرعى الطفل الخير، فإذا ما حان الوقت لكى أصبح طفلى الطيب، عوقنى الشك!؟ وتحفز شيطان الخوف؟! و أكاد أصدق أن الظلم هو الأصل، أن الكذب هو الحق، أن الحلم هو الحل، هزنى الخوف، شدنى الخوف.

-٢٠-

ويذكرنى الصوت الأعمق: "قد فات أوان الردة" (٢٦٥)، والناس "الناس" ، ...... غرس الأيام المرة.. تقضم أنياب النمرة، نبت الشوك بغصن الوردة، يدفع عنها عبث الصبية، فنفضت غبار الغربة، وبزغت آداعب طين الأرض، أنثر عطرى فى أرجاء الكون، يعلو ساقى، يتعملق جذرى، ينمو الطفل العملاق الطيب (٢٦٦).

-٢١-

علمنى الألم القهر الصبر: أن الخوف عدو الناس، لكن علمنى الحب الفعل: أن الناس دواء الخوف، ورجعت ببصرى فاذا بالضعف هو القوة (٢٦٧)، وسط الناس الناس وإذا بالناس هم الأصل، وإذا بالحب هو الفعل، وإذا بالفعل هو الفكر، وإذا بالفكر هو الحس (٢٦٨)، وإذا بالكون هو الذات، (٢٦٩) واذا بالذات هى الله (٢٧٠).

-٢٢-

إنسان الغد..، ينمو اليوم، من طين الأرض، إذ يفرز ألمك طاقة، والرعشة تصبح نبضة، فى قلب الكون الإنسان (٢٧١) تمضى أحد الناس: تدخل فيهم لا تتلاشى، تبعد عنه لا تتناثر (٢٧٢) تعطى لا ترتفع، تأخذ لا تتخوف (٢٧٣) .. .. .. والواحد يصبح كلا يتوحد، إذ يتكامل (٢٧٤).

خاتمة

لا.. .. يا من ترقب لفظى العاجز بعيون الفن المتحذلق، أو تفهم روح غنائى بحساب العلم الأعشى، لا تحسب أنى أكتب شعرا بخيال العجز الهارب، أو أنى أطفئ نارى، بدموع الدوح الباكى (٢٧٥)، لا .. لا .. لا.. لا هذا قدرى، وقديما طرق الباب الموصد شيخ أعرج، فتعارجت (فليس على أعرج من حرج) (٢٧٦) فليحترق المعبد، ولتذر الريح رماد الأصنام، ولتسأل نفس ما كسبت، وليعلن هذا فى كل مكان: "فشل الحيوان الناطق أن يصبح انسانا" (٢٧٧)، أو .. .. .. فلنتطور إذ يصبح ما ندعوه شعرا، هو عين الأمر الواقع. (٢٧٨).

الفصل بعد الخاتمة

دورة الحياة (٢٧٩)

رسالة من دون كشيوت

الى إخوان أبى لهب:

-١-

يا سادتى "تبت يدا أبى لهب" ماذا كسب؟ (٢٨٠)، .. .. يا سادتى هذا أنا لما أزل "ألقى السلاح؟؟" لا .. هذى أمانيكم، (...كذا؟) والسيد اليأس الملثم بالعدم، يلقى التحية الشماتة الندم، على مصارع الهواء الذاهب المقتل المتيم بالأمل، (٢٨١) سيفى خشب؟ خير من الحبل المسد.. فى جيدكم (٢٨٢).

-٢-

طاحونتى ... عبث الهواء بكفها، دارت تئن، توقفت دارت، طاحونتى، ثأرى القديم، لكن روضى يرتوى من مائها، مهما علا سد الفزع، وتعثر المجرى بجندل ظنكم، لن توقفوا نهر الحياة بل، فاحذورا طوفانها (٢٨٣).

-٣-

فى روضتى .. .. ألقيت بذرة القلق، نبتت بوجدان البشر، نحت (٨٦٤) الجنين الطين فانهار العدم (٢٨٤)، صرخ الوليد الطفل أذن بالألم (٢٨٥) وتطاول الشجر الجديد، يعلو قباب الكون إذ يغزو القمر، والشوك يدمى الكف إذ يحمى الثمر، واللؤلؤ البراق فوق الساق من صمغ الضجر (٢٨٦).

-٤-

ذى صرختى .. سوط اللهيب النور رعد القارعة، يكوى الوجوه..، يا ويحكم ! ! من يوقف الرجع الصدى فى قلبكم (٢٨٧)، هيهات إلا الموت، حتى الموت لا يخفى الحقيقة بعدنا (٢٨٨) .. يا ويحكم منها بداخلكم.، نعم ... ليست "أنا" بل "نحن" فى عمق الوجود، بل واهب الطين الحياة، بل سر أصل الكون، كل الكل نبض الله فى جنباتنا ليست أنا (٢٨٩).

-٥-

يا سادتى: هذا أنا لم أزل...، سيفى خشب، لكن لؤلؤة الحياة بداخلى لا تنكسر،، وبرغم واقعنا الغبى، ينمو البشر... فى ملعبى. (٢٩٠)

(طبق الأصل) ("دون كيشوت").

دورة عباد الشمس وأهل الكهف (٢٩١)

وطارت وريقة، أخرى ... وأخرى، وزهرة عباد شمس تهاوت إلى الغرب.. قبل الغروب.، وهبت رياح الخريف تئن، وغطت جبال الظلام بقايا القمر، وصفر ناى حزين: وداعا.

-٢-

وتهرب بذرة، الى جوف أرض جديدة، لتكمن فى الكهف بضع سنين ... قرونا،، يقولون خمسة، ستة، سبعة، وكلب أمين (٢٩٢).

-٣-

وثأر قديم يثور صحا الديناصور، وغول يداعب عنقاء وسط النمور (٢٩٣)، وروح الجنين الجديد تطل خلال شقوق الضياع، فترتد رعبا.

-٤-

تبيض الحمامة فوق السحاب (٢٩٤)، وكلبهمو ... يطارد جوع الذئاب.

-٥-

وذات صباح، تمط الجنين، أزاح ظلام الهروب الجبان، ونادى الوليد العنيد على الشمس، "هيا، ... هيا اتبعيني... نهار جديد".

العقلة والأصبع (٢٩٥)

وبغير شراع أو دفة ..، سار المركب، نزل صبيان إلى الميدان بدون سلاح أحدهما جلس على المجداف يحركه: عقلة أصبع، والآخر يلقى بالشبكة: شبرا شبرا والنيل تمطى فى سأم، أغمض جفنه وتناوم يرفض لعبتهم، أخفى سمكه، والإصبع يجذب حبل الأمل، يطاوله تفلت منه بعض خيوطه، فيجذب أخرى، وأخيرا تجذبه نحوى، لكن (ص٨٦٦) النيل يعانده، والأمل يعود يعاوده، وبعيدا فى وسط الحلقة... لاحت سمكة، فأضاءت فى وجه العقله.. قمرا بدرا، والإصبع قفز من الفرحة إذ أمسكها ..، .. وقبيل طلوع الروح تمايلت المركب..،.. قفزت فى النهر عروس البحر بدون وداع..، .. والعقلة نظرت للإصبع وتنهدتا، .. وتحرك قاربنا يسعى ... أتبع سببا.

حِسْبة بِرما (٢٩٦)

تكسب .. تخسر، هات العشرة.. . هاك البصرة، خطى العتبة.. تمضى اللعبة..، دورا آخر، ومن الأول (٢٩٧).

-٢-

لف الدورة .. .. أخفى العورة، دارى السرقة.. .. خدع الفرقة، ضرب فأوجع.. .. هز المضجع، خسر الموقع، كسب اللعبة.. .. خسر الصحبة، طلب التوبة. لما تقبل.

-٣-

ألقى ورقة ... أبدل ورقة، مثل الأولى .. .. مثل الأخرى، أظهر بسمة .. .. أعلن إسمه، رجل أهبل.

-٤-

قرص الزهرة .. دارت دورة، جاءت دشا .. فبدا هشا حبس غريمه ... أكل وليمه، قالت همسا.. نهرب يأسا، ضربت لخمة نامت وخمة ماتت تخمة، دور أفشل

-٥-

سخر الهمزة... ضحك اللمزة، كسر القلة خسر الثلة، نازل ظله، غير جلده، ومضى وحده مثل الأول.

-٦-

حسبة برما، ساقت غنما، صنعت صنما، ذهبت عدما، ... وغدا أفضل.

زواج عصرى مصرى

-١-

نخاس بلدتنا الهمام، فتح المزاد بصولجان، فتزاحم التجار فى سوق القيان.

-٢-

وتهاونت هانت، فما رحم الزمان وتلفعت بالحيتان .. الرغبة الحمقاء والجوع الجبان، والنائم الثمل المخدر بالأمان، ألقى السلام بلا سلام، وتقاربا .... يتباعدان، وتمايلا .. لا يشعران، وتناوما ... لا يصحوان، فلكان لا يتقابلان (٢٩٧) وتساقط الحمم الجحيم بلا أوان، وعلا عويل الطفلة البلهاء فى جنح الظلام، وصديقنا لما يفق من خدره .. لما يفسر المنام.

-٣-

وتفرقا لا يلويان، لا يرجعان، زرعا الكراهية والهوان، فبأى آلاء الحقيقة تكذبان وتكذبان.

رسالة إلى ابن نوح

-١-

لا ... ليس دينا يا بنى ولا مسيلمة الجديد (٢٩٨) .. .. والرفض يغرى بالمزيد، ... لكن أحلام الخلود، لا ترحم الطفل الوليد.

-٢-

قل لى بنى: قل لى بربك كيف ينمو اليأس من نبض الألم؟؟ قل لى بربك كيف تطفئ ذا البريق؟؟ كيف تطمس ذا الطريق؟ قل لى بربك كيف ينتصر العدم؟

-٣-

لا يا بنى: ما أسهل الأحكام تلقى فى نزق، ما أسخف الألفاظ فى حضن الورق، واللقمة السوداء تغرى بالنجاة من القلق، لكنى بنى: أعلى جبال الخوف لا تنجى الجبان من الغرق (٢٩٩).

نهاية دورة

وجاء نهار حزين، وأمسك بالناى طيف ابن نوح، وموسى الكليم يصلى بأعلى الجبل، .... وتعوى الذئاب، وخوف السنين الطوال يعود، وتذهب كل النساء الحبالى بوهم الخلود (٣٠٠)، بعيدا .. بعيدا، وأغمس فى النور طرف القلم، أخط على صفحتى فى السماء نهاية دورة، وأصعد ذى المرة العاشرة، وبعد المائة، وألف ألف وصفر يدور، وأسبح فى ضوء يأسى (ص ٨٦٩) وحيدا (٣٠١) لأمسك خيطا جديدا وأمضى عنيدا عنيدا ... وحيدا عنيدا، عنيدا وحيدا، أخط على الدرب سر الوجود.

حب للبيع (٣٠٢)

- بضعة قطرات من فضلك - لم يبق إلا المتبقى، - جوعان..، محروم من نبض الكلمة = ما بقى لدى بلا معنى.. مخزون من أمس الأول، - آخذه أتدبر حالى قد يعنى شيئا بخيالى - الحجز مقدم، - لكنى جائع - تجد قلوبا طازجة توزن بالجملة فى "درب سعادة"، - قلبى لا ينبض - عندى أحدث بدعة تأخذها قبل الفجر وبعد آذان العصر وتنام.. لا تصحو أبدا،- كم سعر الحب اليوم؟ - حسب التسعيره الطلبات كثيره، وأنا مرهق،،- لكنى أدفع أكثر- نتدبر.

* * *

-١-

من أنت؟ - أنا رقم ما، - طلباتك؟ - قفص من ذهب .. ذو قفل محكم، من صلب تراب السلف الأكرم.. - فلتحكم إغلاق نوافذ عقلك (٣٠٣) وليصمت قلبك أو يخفت..، تمضى تتسحب لا تندم، - يا ليت، لكنى أمضى أتلفت،، - إياك، قد تنظر فجأة فى نفسك، قد تعرف أكثر عن كونك تتحطم، - ساعدنى باللهو الأخفي،،- أغلق عينيك ولا تفهم.

-٢-

= وجنابك؟ - لا أعلم،،- طلباتك - "أتناول" .. أستسلم، أتعبد (ص ٨٧٠) فى ما هو كائن، وأبرر واقع أمرى، (٣٠٤) أتكلم .. أتكلم .. أتكلم ،،= تذكرتك؟ - فى أعلى المسرح،،= قاعتنا ملأى بالأنعام - أجلسنى فى أى مكان، فى الكرسى الزائد خلف الناس، بجوار التيس الأبكم،، = البطل تغيب -، - لا تحزن، ألعب دوره، وأكرر ما أسمع من خلف الكوة، لا تخشى شيئا .. لا أحد سيفهم،، - لا ترفع صوتك وتكتم - سمعا .. تم ..تم .. تم تم ..،،= سلم تغنم - إخترت الأسلم،،= الصف تنظم، - ما أحلى السير وقوفا .. تررم ..تررم رم .. رم.. رم رم.

-٣-

= الثالث يتقدم - .. سمعا يا أفندم،، = طلباتك أنت الآخر؟

- أبحث ،، أتألم = مجنون أنت؟؟ - أتعلم ،، = قد جئت أخيرا يا عفريت = .. أنا؟،، = هو أنت.. قد طال غيابك يا بن سبيلى - .. لكنى جئت، = كم ضاع الزمن بلا معنى - غلبنى اليأس دهورا، = لكنك جئت - ضاعت منى الألفاظ = تجمع أحرفها تتكلم - فاح العفن من الرمز الميت = بالحب يعود النبض إليه - الحب يهدد أمن الناس = الناس الأجبن،، - البسمة شبح فى جمجمة جوفاء، = بل روح تحيى الموتى، - من لى باليأس الخدر الأعظم، = قد جئت لنبدأ بعد الطوفان - يا ويحى من حبى للناس - يا سعدك - بم؟،، = بالناس - الناس؟؟ = لا مهرب بعد الآن - العود على بدء أكرم (٣٠٥).

* * *

التراث الموازى لهذه الدراسة.. والمراجع

فضلت أن أضع هذا العنوان بديلا عن الاكتفاء بعنوان "المراجع"، تأكيدا لما ورد فى مقدمة هذا العمل من أنه ليس عملا تأليفيا بين ما سبق من دراسات، وإنما هو ينبع أساساً من فكرة أصيلة مستمدة من الممارسة الكلينيكية ومدعمة أحيانا بافكار وأبحاث "موازية" ليست هى الأصل بحال، والالتزام بكتابة هذا الثبت من المراجع قد يعين القارئ لاتخاذ موقف مقارن أو ناقد أو موالفى بين وجهات النظر المتقاربة..، ولكنه ليس بالضرورة - كما هو المعتاد فى الدراسات التقليدية - إشارة إلى مصادر هذه الدراسة، وهو يشمل أيضاً المراجع التى وردت بالكتاب.

* * *

إريك فروم[1] (١٩٧٢) "فرويد". (ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(١٩٧٢) "الخوف من الحرية". (ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

استيفان بنديك (١٩٧٥) "الإنسان والجنون: مذكرات طبيب أمراض عقلية". (ترجمة: قدرى حفنى - لطفى فطيم). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

أنا فرويد (١٩٧٢) "الأنا وميكاينزمات الدفاع". (ترجمة: صلاح مخيمر - عبده ميخائيل رزق). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

أوتوفينخل (١٩٦٩) "نظرية التحليل النفسى فى العصاب". (ترجمة: صلاح مخيمر - عبده ميخائيل رزق). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

بول روبنسون (١٩٧٤) "اليسار الفرويدى: فيلهلم رايش - جيزارو هايم - هربرت ماركوز". (ترجمة: لطفى فطيم - شوقى جلال). بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

تشارلس داروين (١٩٧٣) "أصل الأنواع". (ترجمة: إسماعيل مظهر). بيروت - بغداد: مكتبة النهضة.

جان بول سارتر (١٩٦٠) "نظرية فى الانفعالات". (ترجمة: سامى محمود على - عبد السلام القفاش). القاهرة: دار المعارف بمصر.

(١٩٦٤) "الغثيان". (ترجمة: سهيل إدريس). بيروت: دار الآداب.

1- مازالت البحوث بالعربية تختلف حول وضع الترتيب الأبجدى للمراجع حسب الاسم الأول أو اسم العائلة، وقد فضلت اتباع ما تعودنا عليه فى اللغة العربية رغم اختلافه عن اللغات الأوربية، احتراما لشخصية اللغة العربيةن لحين اتفاقنا على ما نتبع فى مثل هذه الأحوال.

دويجى ماتسوموتو (١٩٧٨) اليقظة – النوم – المخ: علاقة دورية مع المجتمع. مجلة العلم والمجتمع، العدد الحادى والثلاثون، السنة الثامنة. (ترجمة: عمر مكاوى)

حسن عبد الحميد (١٩٧٧) "مدخل إلى الفلسفة". القاهرة: مكتبة سعيد رأفت.

روجية جارودى (؟)[2] "النظرية المادية فى المعرفة". (تعريب: إبراهيم قريط). دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر.

سليمان نجاتى (١٨٩٦) (١٣٠٩هـ) "أسلوب الطبيب فى فن المجاذيب". القاهرة. (قاعة المطالعة بدار الكتب ميدان باب الخلق تحت رقم ٦٤٤ طب).

سيجموند فرويد (؟)[3] "تفسير الأحلام" (ترجمة: مصطفى صفوان) القاهرة: دار المعارف بمصر.

(١٩٦٦) "ما فوق مبدأ اللذة". الطبعة الثانية. (ترجمة: إسحق رمزى). القاهرة: دار المعارف بمصر.

(١٩٧٠) "الموجز فى التحليل النفسى". الطبعة الثانية. (ترجمة: سامى محمود على – عبد السلام القفاش). القاهرة: دار المعارف بمصر.

صلاح جاهين (١٩٦١) "عن القمر والطين". القاهرة: دار المعارف

صلاح عبد الصبور (١٩٧٠) "ليلى والمجنون: مسرحية شعرية". القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

عبد السلام عبد الغفار (١٩٧٦) "مقدمة فى الصحة النفسية". القاهرة: دار النهضة العربية

عمر شاهين ويحيى الرخاوى (١٩٧٧) "مبادئ الأمراض النفسية" الطبعة الثالثة. القاهرة: مكتبة النصر الحديثة.

فرانك سيفرين (١٩٧٨) "علم النفس الإنسانى". (ترجمة: طلعت منصور – عادل عز الدين – فيولا الببلاوى). القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

كالفين هول، جاردنر لندزى "نظريات الشخصية". (ترجمة: فرج أحمد – قدرى حنفى – لطفى فطيم). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

محمد هويدى (١٩٧٨) "دراسة فى ديناميات شخصية الحالات البينية". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

مراد وهبة (١٩٧٤) "يوسف مراد والمذهب التكاملى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نجيب سرور (١٩٧٧) "بروتوكولات حكماء ريش". القاهرة: مكتبة مدبولى.

2- نأسف إذ تظهر بعض الكتب العربية الأصيلة أو المترجمة دون ذكر سنة النشر على الكتاب، وهذا ما نعنيه بعلامة الاستفهام.
3- نأسف إذ تظهر بعض الكتب العربية الأصيلة أو المترجمة دون ذكر سنة النشر على الكتاب، وهذا ما نعنيه بعلامة الاستفهام.

ول ديورانت (١٩٥٧) "مباهج الفلسفة". (ترجمة: أحمد فؤاد الأهـــوانى). القـــاهرة: مكتبـــة الأنجلـــو المصرية.

(١٩٧٢) "قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوى". (ترجمة: فتح الله محمد المشعـــشع). الطبعـــة الثانية. بيروت مكتبة المعارف.

يحيى الرخاوى (١٩٦٤) الفصام فى الحياة العامة. مجلة الصحة النفسية، العدد الثانى والثالث.

(١٩٧٢) "حياتنا والطب النفسى". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٢) مستويات الصحة النفسية على طريق التطور الفردى. مجلة الصحة النفسية، العدد العلمـــى السنوى.

(١٩٧٢) "عندما يتعرى الإنسان: صورة من عيادة نفسية". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٤) "صحة الأم والطفل النفسية". القاهرة: إدارة الاعلام بجهاز تنظيم الأسرة.

(١٩٧٥) تحرير المرأة ... وتطور الانسان: نظرة بيولوجية. المجلة الاجتماعيـــة القوميـــة، المجلـــد الثانى عشر، العدد الثانى والثالث.

(١٩٧٧) العلاج الجمعى. الكويت، مجلة حياتك، العدد ١١١ (يناير).

(١٩٧٧) "المشى على الصراط: الجزء الأول – الواقعة". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٨) "المشى على الصراط: الجزء الثانى – مدرسة العراة". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٨) "أغوار النفس: من واقع العلاج النفسى والحياة". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٨) "مقدمة فى العلاج الجمعى: عن البحث فى النفس والحيـــاة". القـــاهرة: دار الغـــد للثقافـــة والنشر.

(١٩٧٨) "سر اللعبة". القاهرة: دار الغد للثقافة والنشر.

(١٩٧٩) الباحث: أداة البحث وحقله ... فى دراسة الطفولة والجنون. (قرئ فى مؤتمر كلية التربيـــة لعام الطفل ١٩٧٩. عن الطفولة).

النظرية التطورية للعواطف والانفعال. (تحت النشر).

American Psychiatric Association (1978) *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders* (DSM-III). Draft. Washington: American Psychiatric Association.

Arieti, S. (1972) *The will to be Human.* New York: Dell Publishing Company, Inc.

- (1974) *Interpretation of Schizophrenia.* London: Grosby Lookwood Staples.

- (1974) ed. *American Handbook of Psychiatry.* 2 nd ed. New York: Basic Books.

- (1976) *The Intrapsychic Self: Feeling and Cognition in Health and Mental Illness.* New York: Basic Books.

(1976) *Creativity: The Magic Synthesis.* New York: Basic Books.

Becker, E. (1964) *The Revolution in Psychiatry: The New Understanding of Man.* London: The Free Press of Glencoe.

Berne, E. (1961) *Transactional Analysis in Psychotherapy.* New York: Grove Press, Inc.

(1966) *Principles of Group Treatment.* New York: Grove Press, Inc.

(1976) *Games People Play: The Psychology of Human Relations.* New York: Grove Press, Inc.

(1976) *Beyond Games and Scripts.* New York: Grove Press, Inc.

Bellak, L., Hurvich M., and Gediman, H.K. (1973) *Ego Functions in Schizophrenics, Neurotics and Normals.* New York - London: John Wiley and Sons.

Bion, W.R. (1974) *Experiences in Groups, and Other Papers.* New York: Ballantine Books.

Blatt. J.S., and Wild, M. C. (1976) *Schizophrenia: A Developmental Analysis.* New-York San Francisco London: Academic Press.

Bleuler, E. (1911) *Dementia Praecox or The Group of Schizophrenias.* English Translation 1966. New York: International University Press.

Book, J.A. (1960) Genetic aspect of schizophrenic Psychosis. In Jackson, D.D. (ed.) *The Etiology of Schizophrenia.* New York: Basic Books.

Cameron, N. (1969) *Personality Development and Psychopathology: A Dynamic Approach.* Bombay: Vakils Feffer and Simons Private, Ltd.

Dewsbury, D.A. and Rethlingshafer, D.A. (1973) *Comparative Psychology: A Modern Survey.* New York: Mc-Graw Hill. Inc.

Egyptian Psychiatric Association (1979) *The Diagnostic Manual of Psychiatric Disorders* (DMP-I). Cairo: Egyptian Psychiatric Association.

El-Sherbini, O.H. (1975) *Study of Family Structure in Egyptian Schizophrenics.* Tanta Faculty of Medicine (Unpublished Thesis).

Erikson, E.H. (1962) *Childhood and Society.* Penguin Books.

Ey,H. (1956) Unity and diversity of schizophrenia. Translated by Rueda. *American Journal of Psychiatry,* 115:706-715

Fairbairn, R. (1952) *Object-Relations theory of the Personality.* New York: Basic Books.

Fish, F.J. (1962) Self-transcendence as a human phenomenon. In Sutich, A.T. and Vich, M.A. (eds.) *Readings in Humanistic Psychology.* New York: The Free Press.

Freedman, A.M., Kaplan, H.I. and Sadock, B.J. (1976) (eds.) *Comprehensive Textbook of Psychiatry.* Second ed. Baltimore: The Williams & Wilkins Company.

Freud, S. (1901) *The Interpretation of Dreams.* Translated and edited by James Strachey, 1965. New York: Basic Books.

Frick, W.B (1971) *Humanistic Psychology: Interviews with Maslow, Murphy and Rogrs.* Columbus: Merrill Publishing Company.

Granville-Grossman, K. (1976) (ed.) *Recent Advances in Clinical Psychiatry* II. London: Churchill Livingstone.

Guntrip, H. (1975) *Schizoid Phenomena, Object Relations and the self.* London: The Hogarth Press.

Haley, J. (1959) The family of the schizophrenic: A model system. *Journal of Nervous and Mental Diseases,* 129: 357-374.

Hamdi, E. (1978) *Group Psychotherapy: A Study of an Egyptian Approach.* Cairo: Dar El-Ghad Publishers.

Hamilton. M. (1974) *Fish's clinical Psychopathology.* Bristol: John Wright & Sons Ltd.

Hardy, A. (1975) *The Biology of God: A Scientist's study of Man: The Religious Animal.* New York: Taplinger Publishing Company.

Hassib, M.M. (1979) *Some Nosological Prolems in Psychiatry in Egypt*. Cairo: Dar El-Ghad Publishers.

Hoch, P.H. and Polatin, P. (1949) Pseudoneurotic forms of schizophrenia. *Psychiatric Quarterly,* 23: 248-276.

Horney, K. (1950) *Neurosis and Human Growth.* New York: Norton.

Janov, A. (1970) *The Primal Scream: Primal Therapy: The cure of Neurosis.* New York: G.P. Putman's Sons.

Jasper, S.K. (1962) *General Psychopathology.* Manchester: University Press.

Johnson, F.N. (1985) (ed.) *Lithium Research and Therapy.* London, New York, San Francisco: Academic Press.

Jung, C.G. (1921) *Psychology of Unconscious.* New York: Harcourt, Brace.

- (1975) *Modern Man in Search of a Soul.* English Translation. London: Routledge & Kegan Paul Ltd.

Kappers, C.U.A., Huber, G.C. and Grosby, E.C. (1960) *The Comparative Anatomy of the Nervous System of Vertebrates Including Man.* New York: Hafner Publishing Company.

Kendell, R.E. (1975) *The Role of Diagnosis in Psychiatry.* Oxford: Blackwell Scientific Publications.

Klein, M. (1948) *Contributions to Psychoanalysis.* London: Hogarth. Press.

Kubie, L.S. (1971) Multiple fallacies in the concept of schizophrenia. In Doucet, P. and Laurin, C. (eds.) *Problems of psychosis.* Montreal: Excerpta Medica.

Laing, R.D. (1960) *The Divided self.* London: Tavistock.

------ (1976) *The polities of Experiences.* Penguin Books.

Laing, R.D. and Esterson, A. (1965) *Sanity, Madness and the Family.* New York: Basic Books.

Langfeldt,. (1939) *The Schizophreniform State.* London: Oxford University Press.

Lidz,T., Cornelison, A.R. Fleck, S. and Terry, I. (1957) The interfamilial environment of schizophrenic patients. II marital schism and marital Skew. *American Journal of Psychiatry,* 114: 241.

Maslow, A.H. (1969) A theory of metamotivation, the biological rooting of the value life. In Sutich, A.J. and Vich, M.A. (eds) *Readings in Humanistic Psychology*. New York: the Free Press.

Mayer-Gross, W., Slater, E., and Roth, M. (1969) *Clinical Psychiatry.* 3rd edition. London: Bailliere Tindall & Cassel.

Mishler, E. and Waxler, N. (1968) (eds.) *Family Processes and Schizophrenia.* New York: Science House.

Morton, J. (1972) *Man, Science and God.* London, Aukland: Collins.

Perls, F.S., Hefferline, R.F. and Goodman, P. (1951) *Gestalt Therapy: Excitement and Growth in the Human Personality.* New York: Dell Publishing Company.

Rakhawy Y.T. (1978) Psychiatry in Egypt to-day part I *Egyptian Journal of Psychiatry,* 1: 13-22.

(1979) Psychiatry in Egypt to-day part II *Egyptian Journal of Psychiatry,* 2: 19-26.

(1979) The evolutionary value of toleranee of depression in modern Life. *Egyptian Journal of Psychiatry,* 2 No 2.

Rakhawy, Y.T., Abdel-kader, M, Gawad, M.S., Abdel-Aziz, T. and Kawsar Suliman. Revision of the concept of schizophrenia: a need for reclassification (Under Publication).

Difficulties in assessment of apathy in schizophrenia (under Publication).

Rakhawy, Y.T. Gawad, M.S.A. Mahfouz, R. and Shalaan, M. Schizophrenia like disorganization during the course of treatment of paranoid states (Under Publication).

Rakhawy, Y.T. and Hamdi, E. (1978) Intensive Group Therapy as a Long Term Treatment in Psychiatry (Read at Cairo Symposium on Prevention and Treatment of Psychiatric Illness, December, 1978).

(1979) The phenomenon of dependency in group therapy. *Egyptian Journal of Psychiatry,* 2: No 2.

Rakhawy, Y.T., Shaheen, O. Gawad, M.S.A. and Shaalan, M. (1978) Perphenazine Enanthate in the Schizophrenic Continuum (Read at Cairo Symposium on Prevention and Treatment of Psychiatric Illness, December, 1978).

Seleim A. Yousrea (1979) *A Study of Types of Schizophrenia*. Cairo.: Dar El-Ghad Publishers.

Shaheen, O. and Rakhawy, Y.T. (1971) *A.B.C. of Psychiatry*. Cairo: El-Nasr Modern Bookshop.

Shulman, B. H. (1968) *Essays in Schizophrenia.* Baltimore: The Williams & Wilkins.

Sullivan, H.S. (1962) *Schizophrenia as a Human Process.* New York: Norton.

Sutich, A. and Vich, M.A. (1969) (eds.) *Readings in Humanistic Psychology.* New York: The Free Press.

Storr, A. (1968) *Human Aggression.* New York: Bantam Books.

(1974) *Jung.* London: Wm Collins Sons Co.

Szasz, T.S. (1961) *The Myth of Mental Illness.* New York: Harper and Row.

Thines, G. (1977) *Phenomenology and The Science of Behaviour.* London: George & Allen & Unwin.

Werner, H. (1973) *Comparative Psychology of Mental Development.* Revised edition. English Translation. New York: International Universities Press, Inc.

Widroe, H.J. (1968) *Ego Psychology and Psychiatric Treatment.* New York: Appelton-Century-Crofts.

Young, J.Z. (1974) *An Introduction to the Study of Man.* London, Oxford, New York: Oxford University Press.